جــامعـــة الجــزائـــر ــ 2 ــ
كليـــة العلـــوم الإنسانيـــة والاجتماعيـــة
قسم التاريخ

دور عائلة كيتا في مملكة مالي الإسلامية وعلاقاتها الخارجية
بين القرنين الخامس و التاسع الهجريين/الحادي عشر والخامس عشر الميلاديين

أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه
في التاريخ الوسيط

إعداد الطالب:
نور الدين شعباني

إشراف:
الدكتور: عبد العزيز بوكنة

أعضاء لجنة المناقشة

أ.د. منصف بكاي:رئيسا
أ.د.بن عميرة لطيفة:عضوا
د.عبد العزيز بوكنة:مقررا
أ.د. عبد العزيز شهبي:عضوا
أ.د. بودواية مبخوت: عضوا

السنة الجامعية: 2012 - 2013م / 1434 - 1435هـ

بسم الله الرحمان الرحيم

إهـداء

إلى روح أستاذي الجليل موسى لقبال
إلى روح والدي
إلى أمي الغالية
إلى أبنائي طارق، وفاء، ندى
إلى زوجتي أم طارق
إلى كل هؤلاء أهدي هذا العمل

ملخص الرسالة

تعد مملكة مالي إحدى أقوى ممالك السودان الغربي التي ظهرت خلال العصر الوسيط و ذلك من خلال إتساع رقعتها، و قوة جيشها و ازدهار اقتصادها، و براعة تنظيمها، وشهرة ملوكها. و لقد كانت هذه المكانة التي تبوأتها بفضل مجهودات عائلة من الصيادين المالنكي الذين استقروا في قرية كنغابا ثم أخذوا على عاتقهم تأسيس مملكة مالي على ضفاف النيجر ثم تمديد رقعتها لتشمل كل السودان الغربي. هذه العائلة هي عائلة كيتا التي بذل ملوكها دورا كبيرا في هذه المملكة منذ القرن الخامس للهجرة/11م عن طريق مجموعة من الملوك الذين كانوا تابعين في البداية لمملكة غانا ثم مملكة الصوصو، لكن بحلول القرن السابع للهجرة/13م ظهر من هذه العائلة رجل يعرف باسم سوندياتا كيتا الذي أحدث ثورة في تاريخ هذه العائلة و المملكة معا، من خلال توسعاته العسكرية و تنظيماته السياسية و الاقتصادية إصلاحاته الاجتماعية، كما خلفه من بعده عدد من الملوك العظام الذين أوصلوا صوت مالي إلى كل الآفاق و ساهموا في إحداث نقلة حضارية في تاريخ العائلة و مملكة مالي من خلال الاصطلاحات و التنظيمات التي ألحقت مالي بالدول الإسلامية العظمي خلال العصر الوسيط، من أمثال منسا موسى كيتا و اخوه منسا سليمان كيتا و غيرهم. كما ربطوا علاقات نشيطة مع العالمين الإسلامي و اللاتيني المسيحي، و أصبحت صور ملوك مالي من عائلة كيتا تملأ الخرائط الأوربية، و أصبحت إفريقيا جنوب الصحراء بفضلهم تكتسب الكثير من الاهتمام في العالم الوسيط. لكن هذا الاهتمام الذي جلبه ملوك مالي من أل كيتا لمملكتهم جعل الكشوفات البرتغالية تصل إلى السواحل الإفريقية منبئة ببداية الاهتمام الأوربي بهذا الجزء من العالم و بالتالي بدأ العد التنازلي لمملكة مالي حتى لم يعد لآل كيتا خلال القرن التاسع للهجرة/15م مجرد ملوك قبائل محدودة.

مـــقـــدمـــة

عُرِفَت الأقاليم الواقعة جنوب الصحراء الكبرى، و الممتدة من المحيط الأطلسي غرباً إلى البحر الأحمر شرقاً في المصادر العربية ببلاد السودان، وسُمِّي الجزء الغربي منها في المصادر العربية بالسودان الغربي، ويعد الجزء الممتد من ثنية نهر النيجر الشرقية حتى المحيط الأطلسي غرباً، ومن الصحراء الكبرى شمالاً وحتى إقليم الغابات المطيرة جنوباً، من أهم مناطق السودان الغربي وأكثرها شهرة بالنسبة للمصادر العربية .

فلقد لفت هذا الجزء من العالم اهتمام المسلمين منذ وقت مبكر؛ وذلك لما يحويه من عناصر جذب متعددة من أهمها وجود مناطق مهمة فيه تحوي كميات هائلة من الذهب، إضافة إلى وجود ممالك كبيرة يتحتم تتبع أخبارها، فانكبّ عدد من المؤلفين المسلمين على دراسة أهم مظاهرها الدينية والاقتصادية والثقافية والتاريخية والسياسية، وخاصة منذ القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) حيث توافرت معلومات في المصادر العربية عن السودان الغربي، عامة وعن المنطقة المحصورة بين النيجر والسنغال العلويين.

ولعل الشيء الآخرالذي جلب اهتمام المؤرخين العرب للكتابة عن هذه المنطقة بالذات هو ظهور ممالك وامبراطوريات عظيمة لعب ملوكها دورا كبيرا في التاريخ الإسلامي من خلال نشر الاسلام في المنطقة المحصورة بين نهري النيجر والسنغال، وأقاموا أول النماذج للدولة الإسلامية في إفريقيا السوداء، فازدادت شهرقم من خلال رحلات الحج التي كان

يقوم بها ملوكهم إلى امكة المكرمة، والتي أصبحت مصدرا للروايات التي تداولتها اجيال عديدة في العالم الاسلامي.

ومن هذه الممالك الإسلامية مملكة مالي، التي أسستها عشيرة مالنكية عرفت باسم كيتا. وتعد عائلة كيتا هذه إحدى عشائر الصيادين المالنكي التي استقرت في قرية كنغابا على الضفة اليمنى للنهر النيجر، وكوَنت في البداية مملكة صغيرة في اقليم دو، ثم ما لبثت أن أضحت امبراطورية واسعة سيطرت على معظم السودان الغربي، وقد ساهم ملوكها الذين تداولوا على حكم الامبراطورية في منح الحضارة الإسلامية بعدا جغرافيا وثقافيا جديدا وهو البعد السوداني الافريقي. لذلك كان موضوع هذا البحث موسوما بـــ(**دور عائلة كيتا في مملكة مالي الإسلامية و علاقاتها الخارجية، بين القرنين الخامس و التاسع للهجرة).**

ولقد تم تحديد فترة هذه الدراسة بين القرنين الخامس والتاسع للهجرة؛ لأن القرن الخــامس يمثل الفترة التي أسلم فيها أول ملوك مالي قبل أن تتحول إلى امبراطورية، وبالتالي فإن دراسة مالي الإسلامية يكون منذ اعتناقها الاسلام. كما أن هذه المملكة لم تكن معروفة قبل هــذا التاريخ، كما شكلت القرون الثلاثة الموالية وهي القرن السادس والسابع والثامن للــهجرة أزهى فترات امبرطورية مالي، حيث اشتهرت خلالها عائلة كيتا الحاكمة بشكل ملفــت في شتى انحاء العالم الإسلامي وحتى في أوربا، بينما يعد القرن التاسع للهجرة بدايــة التقهقــر والتراجع لهذه العائلة ومعها مملكتهم العتيدة التي بدأت تنهار ابتداء من هذا القرن.

إشكالية البحث:

كانت إشكالية هذا البحث تدور حول عنصرين اساسيين هما:

أولا: أصل عائلة كيتا وما مدى امكانية اعتبارها صاحبة الفضل الأول في بنــاء امبراطوريــة مالي الاسلامية منذ أن كانت قرية صغيرة في كنغابا، أين كانت عائلة كيتا مجرد عشيرة من الصيادين، إلى أن اصبحت امبراطورية تسيطر على كل السودان الغربي من نهر النيجر حــتى نهر السنغال، و كذا المكانة التي تمكنت من فرضها في العالم بين القرنين الخــامس والتاســع الهجريين من خلال علاقاتها الخارجية، وهذا على خلاف عدد من النظريات التي ما فتئــت

تروجتها بعض الدراسات السابقة التي قام بها شارل مونتاي ومن سار على دربه، والتي تزعم بأنه تداول على حكم مملكة مالي عدة عائلات كانت مساهماتها فيها متفاوتة.

ثانيا: البعد الاسلامي لعائلة كيتا ومملكتهم، أي أنني حاولت من خلال البحث الإجابة على قضية الطابع الاسلامي لهذه الدولة السودانية، والمكانة التي احتلها الدين الاسلامي عند ملوك مالي من آل كيتا خاصة في ظل وجود عدة دراسات غربية واستشراقية حاولت الجزم بطغيان الطابع الوثني الممزوج بالسحر على هذه الدولة وملوكها، كما هو الشان بالنسبة لمؤلفات الفرنسي موريس دولافوس(1)، أو في أحسن الأحوال الإكتفاء بالإشارة إلى سطحية الاسلام في حياة هذه الأسرةكما هو الشأن بالنسبة لشارل مونتاي(2) أو حتى بعض الروايات الشفوية مثل روايات الحدادين من آل كوناتي، أو روايات واكاميسوكو بكيلا المالية، التي لا تنسب لآل كيتا من الإسلام إلا الإسم فقط.

كما حاولت البحث عن مختلف الأواصر الروحية الثقافية والحضارية التي ربطت ملوك مالي بالعالم العربي الاسلامي، ودور عائلة كيتا في ذلك، بمعنى هل كان كل ما يربط ملوك مالي بالعالم الاسلامي هو التجارة وطرق القوافل أم أنه كان ارتباطا حضاريا أي انتماء لهذه الامة.

أسباب اختيار الموضوع:

---

(1) Delafosse(Maurice): Haut sénégal-Niger.Emile Larosz librairie Editeur,Paris,1912.Trois tomes.

- Les noirs de l'Afrique. Editions Payot, Paris, 1941.

- Les civilisations Négro-africaine. Librairie Stock, Paris, 1925.

(2) Monteil(Charles):Les empires du Mali. Paris, 1968.

(3) تضم العائلات النبيلة التي يطلق عليها اسم ماندينغ - موري - كاندا – لولو، و تعني (العشائر حامية الإيمان و الدين) خمس عشائر، و هي عائلات كل من سيسي، بيريتي، توري، ديابي، بالإضافة إلى سيلا (كوما)، بينما تظم طبقة النبلاء عائلات كيتا و آل كوندي في منطقة دو ،بالاضافة الى آل كوروما، آل تراوري و آل كامارا في مندينغ القديم.

إن اختيار هذا الموضوع يندرج ضمن ضرورة التوجه إلى دراسة التاريخ الإسلامي لإفريقيا بصفة عامة، والسودان الغربي على وجه الخصوص، كما يدخل في اطار الاهتمام بتاريخ الأسر الافريقية، وخاصة تلك المعروفة بالعائلات المرابطة التي تُدعى(ماندينغ ـــ موري ـــ كاندا ـــ لولو)[1]وهي العائلات التي نشرت الاسلام في ربوع افريقيا وحافظت عليه،وتعرف ايضا بالعائلات الشريفة والنبيلة، والتي تعد عائلة كيتا واحدة منها.

فخلال إعدادي لرسالة الماجستير أين اشتغلت في موضوع العلاقات الحضارية بين ممالك السودان الغربي ودول المغرب الإسلامي، لفت إنتباهي إسم عائلة كيتا التي أسست وحكمت امبراطورية مالي لمدة تزيد عن أربعة قرون، لكن أولويات البحث آنذاك لم تسمح لي بالخوض أكثر في تاريخ هذه الاسرة، لكنني أرجأت البحث في الموضوع إلى مرحلة أخرى من ما بعد التدرج، وقد شجعني أكثر لاختيار هذه العائلة كموضوع بحث لتحضير شهادة الدكتوراه هو المادة التاريخية التي تمكنت من جمعها حول الموضوع، بالاضافة إلى شعوري كإفريقي بالتقصير الكبير من طرفنا في حق تلك العائلات التي أبلت البلاء الحسن في نشر الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء، ولعبت دورا مهما في تحقيق نهضة فكرية واقتصادية في فترة من التاريخ لم يكن ُيعرف عن الأفارقة إلا باعتبارهم سلع تباع في سوق النخاسة. كما أنني وجدت كل التشجيع والدعم من أستاذي الراحل الدكتور موسى لقبال، الذي نصحني بالخوض في الموضوع كبادرة للإهتمام بتاريخ العائلات الإفريقية .

أما الدافع العلمي الذي جعلني أتحمس للموضوع فهو الملاحظات التي سجلتها على الدراسات السابقة حول الموضوع. فحسب ما توفر لدي من معلومات حول الدراسات الافريقية السابقة، وبالخصوص تلك المتعلقة بتاريخ مملكة مالي خلال فترة العصر الوسيط كانت تنقسم إلى نوعين، النوع الأول يعتمد اعتمادا كليا على المصادر العربية المكتوبة وكتب الرحالة والجغرافيين، وبالتالي فهي عبارة عن محاولات استنطاق لهذه المصادر وفهم من خلالها تاريخ هذه المملكة على ما تحتويه هذه المصادر من فراغات فيما يخص فترات مهمة من تاريخ المملكة. أما النوع الثاني فإنه يعتمد على الروايات الشفوية المحلية المختلفة

ومحاولة المقارنة فيما بينها بغرض الوصول إلى فهم تاريخ بلاد مندي(مالي)، وهوما يجعل الباحث في الموضوع يجد الكثير من أوجه الاختلاف والتناقض والتضارب بين الروايات والأحداث التاريخية وحتى في أسماء الأمكنة والأعلام. لهذا كان علي الإعتماد في هذه الدراسة على المصادر العربية المكتوبة، والمصادر الشفوية المحلية معا، ومقارنتها ببعضها البعض، كما أنني وجدت في الإستعانة بكتب الرحالة الأوربيين التي كتبت خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين للميلاد أمرا ضروريا لما تتضمنه هذه الكتب والمذكرات من قيمة تاريخية وجغرافية نظرا لما تتميز به من دقة في المعلومات الجغرافية، وغناها بالملاحظات والتعليقات.

وتأتي بعد ذلك الدراسات الحديثة والموسوعات التي تحمل الكثير من التفاصيل وتتمتع بمنهجية تاريخية متقنة. وبذلك فإنني أطمح من خلال هذه الدراسة إلى التعريف بمختلف المصادر العربية المتعلقة بتاريخ مملكمة مالي قبل القرن العاشر للهجرة/15م، والإطلاع على ذلك الكم الهائل من التراث الثقافي الافريقي والمتمثل في الروايات الشفوية التي ما زالت مجهولة بالنسبة لكثير من الباحثين، ومحاولة إبراز قيمتها، والإعتماد عليها.

تقديم المصادر:

أولاً: المصادر التاريخية:

اعتمدت هذه الدراسة على عدد من الكتب التاريخية السابقة والمعاصرة لفترة الدراسة، ويبقى كتاب «العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر» والمعروف بتاريخ ابن خلدون (ت808هـ/1405هـ) في مقدمة هذه المصادر، وذلك نظرا لقيمته العلمية، والكم الهائل من المعلومات التي قدمها عن ممالك السودان الغربي عموما وعن مملكة مالي خصوصا، ودقتها، وهي معلومات لم يسبقه إليها أحد بل أن الكثير من التفاصيل انفرد بها صاحب كتاب العبر وبقيت تنقل عنه إلى غاية اليوم. فلقد خصص ابن خلدون فصلا كاملا لحج ملوك مالي في المجلد الخامس من تاريخه وذكر الكثير من تفاصيل رحلات الحج تلك. وخصص فصلا آخر للمالك السودان الغربي وملوك مملكة مالي وذلك ضمن المجلد

السادس من الكتاب، وعنونه بـ **(الخبر عن ملوك السودان المجاورين للمغرب من وراء هؤلاء الملثمين ووصف احوالهم و الالمام بما اتصل بنا من دولتهم)** إذ ذكر خلال هذا الفصل ملوك مالي الذين تداولوا على عرشها من عهد ماري جاطا(سوندياتا) إلى غاية منسا محمود الملقب بمنسا ماغا. وتتميز معلوماته بالدقة لأنه نقلها عن بعض الرواة الشفويين والقضاة والفقهاء الماليين الذين التقاهم بمصر أثناء مرورهم بها في طريقهم الى الحج، أو عن أناس زاروا المنطقة وعرفوا أهلها، فكانت معلوماته دقيقة وفريدة من نوعها حول ملوك مالي، فأصبحت بذلك المصدر الوحيد الذي نقل عنه المؤرخين المعاصرين أوالذين جاؤوا من بعده. ويبقى الشيء الوحيد الذي يعاب على معلومات ابن خلدون هو تشويهه لبعض الاسماء وتحريفها، وهذا لكونها أسماء أعجمية، كما أنه نقلها عن ألسنة مختلفة(1).

أما المصدر الثاني من حيث الأهمية فيما يخص موضوعنا بعد كتاب العبر فهو كتاب(مسالك الابصار في ممالك الامصار) لشهاب الدين احمد بن يحي بن فضل الله العمري (المتوفى سنة 749هـ)، حيث قدم العمري من خلال الجزء الخامس من الكتاب معلومات قيمة وتفاصيل مهمة جدا عن مملكة مالي وطبيعتها وعاصمتها ومحاصيلها الزراعية وحيواناتها وملكها ونظام الحكم فيها. ولا تقتصر أهمية هذا المصدر في كمية المعلومات المقدمة بل أيضا في طبيعة مصادر معلوماته، فهو أولا معاصر لفترة قوة مملكة مالي وكان شاهدا على الزيارة التي قام بها الملك منسا موسى إلى مصر، حيث كان يشغل وقتذاك منصب كاتب سر السلطان الناصر بن قلاوون المملوكي، بالاضافة الى اعتماده على أشخاص ثقات في رواياته، حيث استقى العمري معلوماته من الشيخ سعيد الدكالي، وهو فقيه سكن عاصمة مالي مدة خمس وثلاثون سنة، بالاضافة إلى شخص لآخر وهو ابن امير الحاجب الذي كان قد زوده بمعلومات عن مالي جمعها بفضل منصبه في دولة المماليك بمصر كحاجب للسلطان الناصر .

كما اعتمدت أيضا على كتاب المقريزي (المتوفى سنة 845هـ) في كل من «كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك» وكتاب «الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك»

(1) إن المصادر التي نقل عنها ابن خلدون معلوماته كانت تتكلم لهجات سودانية مختلفة، فكل لهجة كانت تسمي الشعوب و الملوك و البلدان باسماء خاصة بها.

وقد قدَّم المقريزي معلومات جيدة عن السودان الغربي، وأفرد لحجاجه مساحات واسعة في كتابيه، حيث تتبع أعدادهم، وتحدث عن حج ملك مالي منسا موسى في كتابه الأخير بشكل خاص، وتضمن حديثه عنه بعض الإشارات المهمة خاصة وأن المقريزي يعتبر مؤرخ وجغرافي في أن واحد، وتتميز مؤلفاته بالدقة.

ومن المصادر السودانية التي كتبت باللغة العربية فقد اعتمدت على كتاب عبد الرحمان بن عبد الله السعدي (الذي عاش بين سنتي 1003هـ/1595م و1066هـ/ 1656م)، وولد وعاش بمدينة في تمبكتو وشغل منصب إمام مسجد سنكوري بها، وقد مكنه ذلك من الإطلاع على الكنوز من المخطوطات التي تحظى بها هذه المدينة، وقد خصص جزء كبيرا من كتابه الموسوم بـ" تاريخ السودان" لمملكة مالي وخاصة فترةحكم منسا موسى وحجه الشهير وغزواته.

وهناك مؤرخ سوداني آخر وهو أبو الثناء محمودكعت (المتوفى سنة 954هـ/ 1548م) وهو فقيه ومؤرخ وقاضي مدينة تمبكتو، ويعد كتابه " تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس" من أهم المصادر الخاصة بالتاريخ السياسي والاجتماعي للسودان الغربي عموما ومملكة سنغاي بالخصوص، ولكنه خصص جزءا مهما من هذا الكتاب لمملكة مالي منذ نشأتها بعد سقوط غانة بالاضافة إلى فترة قوتها،كما خصص جزءا مهما للملك منسا موسى ورحلته الشهيرة إلى الحج، وقد تميزت رواياته بعدة تفاصيل لم يسبقه اليها أحد من المؤرخين.

إن أغلب المواد والمعلومات التاريخية التي تحدّثت عن السودان الغربي عموما وعن مملكة مالي خصوصا نجدها متفرقة في المصادر العربية بين كتب الرحالة والجغرافيين، أو في كتب التاريخ والبعض التراجم والطبقات، لكنها بدرجات منتفاوتة.

ثانياً: المصادر الجغرافية:

لا تقل قيمة المواد التي وردت في المصادر الجغرافية عن مواد المصادر التاريخية؛ وذلك بسبب المعلومات الفريدة التي حوتها هذه المصادر وتجاهلتها المصادر التاريخية، و تشمل كتب

الرحالة والجغرافيين العرب، التي تشمل كما هائلا من المعلومات حول الجغرافيا التاريخية لمنطقة السودان الغربي عموما ومملكة مالي خصوصا، ومن أهم هذه المصادر «كتاب المسالك والممالك» للبكري المتوفى سنة (487هـ/1094م)، وبالرغم من كونه لم يزر بلاد السودان قط إلا أن مواد كتابه قد غطّت أجزاء كثيرة من السودان الغربي، من خلال ما تميز به من تتبع للمسافات بين مدن السودان الغربي والشمال الإفريقي بالمراحل والأيام، وإيراده لتفاصيل وافية عن المراكز التجارية المغربية والصحراوية والسودانية، فكانت معلوماته الجغرافية نادرة وذات قيمة تاريخية لا يمكن أن يتجاوزها أي باحث في تاريخ السودان الغربي والصحراء الكبرى الإفريقية، خاصة بالنسبة للقرن الخامس للهجرة/11م، فلم يسبقه أي مصدر آخر في ذكر ذلك الكم الهائل من التفاصيل الجغرافية والتاريخية الخاصة بتلك الفترة.

كما أفادني كثيرا كتاب «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» للإدريسي المتوفى سنة (560هـ/1164م) حيث تكمن أهمية كتابه في المعلومات التي رواها عن رواة أخرين زاروا السودان الغربي، ونقلوا له تفاصيل مهمة عن طرق القوافل التجارية، والسلع التي حملتها بتفاصيل دقيقة، وأسهب في الحديث عن أقاليم السودان الغربي، ومدنه وتطرق فيها لقبائلها وعاداتهم الاجتماعية وأساليب الحياة السائدة لديهم. و بفضل لهذا المصدر تمكنت من تحديد موطن إمارتي **دو** و**كيري** التي يعد اتحادهما النواة الأولى لتشكل مملكة مالي القديمة.

أما القزويني المتوفى سنة (682هـ) فقد انفرد في كتابه «آثار البلاد وأخبار العباد» بإيراد موادا غاية في الأهمية عن المراكز التجارية في الصحراء والسودان الغربي، حيث يعد وصفه لمدينة تغازة من أدق ما ذُكر عنها، كما اعتمد في الكثير من معلوماته على الرواة الذين زاروا السودان الغربي، ونقلوا له معلومات دقيقة وجديدة.

كما استفدت من بعض المواد الموجودة في مصادر جغرافية أخرى مثلما هو الشأن بالنسبة لأحمد بن إسحاق اليعقوبي المتوفى عام 284هـ/897م، الذي الف كتابا في الجغرافيا وآخر في التاريخ ، وكذا كتاب تقويم البلدان لإسماعيل أبي الفدا المتوفى سنة 732هـ، وكتاب خريدة العجائب وفريدة الغرائب لصاحبه سراج الدين ابن الوردي، بالإضافة إلى مختصر كتاب البلدان لأبي بكر الهمذاني المشهور بابن الفقيه، وكتاب نخبة الدهر في عجائب

البر والبحر لشمس الدين الدمشقي وغيرها. لكن الشيء الذي يؤخذ على هذه المصادر الجغرافية هو عدم انتظام معلوماتها، بحيث وردت بشكل متناثر وجاءت في سياق عابر، كما أنها تتضمن الكثير من المعلومات غير الدقيقة وذلك لأن معظم مؤلفيها لم يزوروا بلاد السودان، وإنما نقلوا معلوماتهم عن مصادر أخرى، لذلك تطلب الاعتماد عليها ضرورة إخضاعها للتمحيص والمقارنة بغيرها من كتب الجغرافيا.

وقد اتسمت المعلومات التي وردت في كتب الرحلات بالتنوع والدقة، فقد تحدثت عن العادات والتقاليد، والأحوال الاقتصادية والاجتماعية، والمعتقدات الدينية، كما أنها لا تخلوا من إشارات سياسية وتاريخية لها فائدتها وأهميتها، ويأتي في مقدمة الرحالة الذين زاروا المنطقة ابن فاطمة (عاش في القرن السادس الهجري) وكان له جولات في بلاد السودان عامة ورحلة بحرية حول سواحلها الغربية لكنني لم أتمكن من الاطلاع عليها، غير أن نصوص ابن فاطمة عن السودان الغربي وجدتها في «كتاب الجغرافيا» لابن سعيد المغربي (المتوفى سنة685 هـ/ 1287م) بعد أن فُقِدَ كتابه الأول، وتمتاز معلوماته بحديثه عن الأجناس البشرية ، كما شمل كتاب ابن سعيد على معلومات غاية في الأهمية عن المدن المالية وسكانها والمسافات الفاصلة بينها.

ومن أهم هؤلاء الرحالة الذين امتلأت حواشي هذا البحث بأسمائهم الرحالة والمؤرخ المغربي أبو عبد الله محمد بن بطوطة المتوفى سنة (779هـ/1378م) الذي قام بثلاث رحلات استغرقت زهاء 29 عاما، وترك لناكتاب «تحفة النظار في غرائب الأمصار» المعروف بالرحلة، وقد استفدتُ منه في كثير من فصول هذا البحث؛ فقد كانت مدة إقامته في السودان الغربي التي تجاوزت السنتين كافية لأن يُحيط بجوانبه الدينية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية، وتميزت كتابته بدقة الملاحظة، ووصف دقيق لكل ما شهده في مملكة مالي سواء داخل قصر الملك أو خارجه، وذلك ربما يعود لطبيعة المهمة التي كلف بها من طرف سلطان الغرب. أما الرحالة الموصلي ابن حوقل الذي أنهى أسفاره سنة362هـ ، فقد قدم لنا من خلال كتابه صورة الارض معلومات قيمة حول بعض المدن السودانية والمعاملات التجارية ولو أنه كتب في فترة سبقت تاسيس مملكة مالي.

ويأتي الحسن الوزان (عاش في القرن العاشر الهجري) مؤلف كتاب «وصف إفريقيا» على منوال ابن بطوطة، حيث كانت له جولات متعددة فيه قدَّم من خلالها معلومات قيِّمة تحدث فيها عن الممالك السودانية وأقسامها وأعطى تفاصيل عنها شملت جوانبها التاريخية والاقتصادية والاجتماعية، وقد استفدت من تجاربه الشخصية التي دونها عن مخاطر طرق القوافل التجارية المؤدية إلى السودان الغربي والتي تعرضت لها كثير من القوافل، وشمل حديثه بعض المساوئ التي تميزت بها القارة الإفريقية.

رابعاً: كتب الموسوعات، المعاجم و التراجم:

تميزت كتب الموسوعات العربية بتنوع العلوم والجوانب التي تناولتها، فقد كان للجانب السياسي والإداري مكانة فيها، وأخذت الأوضاع الدينية والثقافية مساحة كبيرة فيها، كما نالت الحياة الاجتماعية والاقتصادية إشارات مهمة فيها، فلم تترك شيئا الا وأحاطت به بما في ذلك العلوم الطبيعية والفلك وغيرها.

ويأتي في مقدمة هذه الكتب الموسوعية كتاب «صبح الأعشى في صناعة الإنشاء» للقلقشندي المتوفى سنة (821هـ/1418م) وهو من المصادر الأساسية التي تضمَّنت معلومات كثيرة عن السودان الغربي، ويفوق حجم موادها ما ورد في المصادر الأخرى، حيث جمع القلقشندي مادته من المصادر العربية الأخرى، وأجاد في تبويبها وتنسيق موادها وصياغتها بأسلوب سلس ومترابط، كما أن مُصنَّف القلقشندي لا يخلو من إضافات مهمة له، حيث أعطى رأيه في بعض القضايا المتعلقة بالسودان الغربي، وصحَّح بعض المفاهيم الخاطئة.

ومن الموسوعات التي استفدت منها كتاب معجم البلدان لياقوت الحموي المتوفى في بداية القرن السابع للهجرة، فقد تميز هذا المعجم بترتيب المدن بطريقة أبجدية وتضمن معلومات وافرة عن عدة مدن سودانية و أبرز الأحداث التي شهدتها، وقد اعتمد على عدة مصادر تاريخية عاصرته أو سبقته. بالإضافة إلى العمل الذي تركه ابن حجر العسقلاني (المتوفي سنة 852 هـ/1448م) وهو كتاب «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» الذي شمل تراجم لبعض ملوك مالي من عائلة كيتا.

وهناك مؤلفات مهمة جدا اهتمت بتراجم ملوك السودان والشخصيات التي كان لها علاقات بمملكة مالي منها العربية ككتاب «الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك» لتقي الدين االمقريزي،(المتوفي سنة845ه/1442م) والذي أطلعنا على بعض ملوك مالي من عائلة كيتا الذين أدوا فريضة الحج، وكتاب «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان» لابن خلكان (المتوفى عام 681هــ/1282م). بالاضافة إلى التراجم السودانية وأهمها الكتاب الذي ألفه أحمد بابا التنبكتي الموسوم بنيل الابتهاج في تطريز الدباج الذي يضم تراجم لعدد كبير جدا من الشخصيات السودانية. وكتاب فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور لصاحبه البرتلي الولاتي. وهي كتب أفادتني كثيرا في معرفة الشخصيات السودانية وخاصة تلك التي عاشت خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين/14و15م، وساهمت في الحركة العلمية المالية.

خامسا: المراجع الحديثة و الدراسات السابقة:

بالإضافة إلى هذه المصادر فقد استفدت في بحثي من بعض المراجع الحديثة التي تضمنت بعض الآراء حول عدد من القضايا المتعلقة بتاريخ السودان، ومن أهمها كتاب «الإسلام والمجتمع السوداني، امبراطورية مالي 1230م-1430م» لأحمد الشكري، وهو عبارة عن دراسة جامعية تناول فيها الباحث عدداً من المواضيع المتعلقة بالسودان الغربي إلا أنه تجاوز الفترة الزمنية التي حددها في عنوان كتابه، حيث استأثرت الفترة السابقة لقيام مملكة مالي الإسلامية بأكثر صفحاته، وفي القسم الباقي منه تناول الباحث تاريخ مملكة مالي الإسلامية الذي اسْتَشْهَدَ فيه كثيراً بأراء المستشرقين وبخاصة من كتب منهم بالفرنسية، وللباحث أراء عن بعض القضايا التاريخية السودانية بالغ في بعضها وتميز طرحه بكثير من الأحكام التي استفدت من بعض جوانبها وناقشت ما وجدته لا ينطبق مع ما ورد في المصادر العربية التي اطلعت عليها.

واعتمدت أيضا على كتاب «امبراطورية مالي الاسلامية» لإبراهيم على طرخان، الذي يعد من أوائل من اهتم بتاريخ بلاد السودان، حيث ألَّف عدة كتب عن تاريخ الأقاليم والممالك السودانية، وحظيت هذه الكتب بتقدير الدارسين، وذلك لجهوده العلمية التي بذلها أثناء تأليفها رغم قلة المصادر والمراجع العربية المتاحة له، فالساحة الثقافية العربية كانت شبه خالية من أبحاث ودراسات جادة في ذات الموضوع، مما جعله يعتمد على المراجع الأجنبية، وكتابه هذا يتناول فيه دراسة تاريخ مملكة مالي الإسلامية منذ نشأتها ومروراً بتطورها حتى تدهورها وانزوائها في منطقة صغيرة، وقد برزت في ثنايا كتابه إشارات مهمة عن تاريخ مالي اعتمد المؤلف فيها على الروايات الشفهية التي اهتمت بها الدراسات الأجنبية. بالإضافة إلى الدراسة القيمة التي أنجزتها نبيلة حسن محمد الموسومة بـــ«في تاريخ الحضارة الاسلامية» والمخصص لعلاقة سكان الصحراء ببلاد السودان وتأثيرهم في السودان الغربيي ونشر الاسلام هناك.

ومن أهم المراجع الأجنبية التي اعتمدت عليها الموسوعة التاريخية التي أنجزها الضابط العسكري الفرنسي موريس دولافوس (Maurice Delafosse) المعنون بـــ« السنغال والنيجر العلويين» (Haut Senegal-Niger) والذي يتضمن ثلاثة أجزاء، يشمل الجزء الأول منه التطور السياسي للسودان الغربي منذ القرن الثالث للميلاد إلى غاية القرن السادس عشر، أما الجزء الثاني والثالث فهما مخصصان للجوانب البشرية والإجتماعية والاقتصادية وحتى التنظيمية، وقد تضمنت معلومات قيمة عن تاريخ مالي وأسرة كيتا بفضل إطلاع دولافوس على عدد كبير من الروايات الشفوية المحلية. لكن ما يعاب على دولافوس هو تلك الأحكام المسبقة التي أطلقها على بعض القضايا والتي لا تعتمد على أسس علمية، بالإضافة إلى عدم إشارته للمصادر التي استقى منها معلوماته رغم أن الكثير منها لم يسبقه إليها أحد وتعد في غاية الأهمية. كما استفدت من كتاب «امبراطوريات مالي» (Les empires du Mali) لشارل مونتوي (Chales monteil) وكذا الكتاب القيم للمؤرخ الإنجليزي جون فيج(J.D Fage) والموسوم بعنوان «تاريخ غرب افريقيا» (History of west africa)

وقد اعتمدت في إعداد هذا البحث أيضا على مؤلفات المستشرقين ومنهم Nehemia Levtzion، و هو من اشهر المختصين في تاريخ افريقيا ما وراء الصحراء، وله عدد من المؤلفات عـــن تاريـــخ السودان الغربي، من أهمها «Ancient Ghana and Mali» وكتاب «Islam In West Africa» إضافة لعدد آخر له من البحوث والمقالات العلمية، وكذلك المستشرق الهولندي Tadeusz Lewicki في كتابـــيـــه (Arabic External Soures For The History of Africa To The South of Sahara) وكتاب (West African Food in The Middel Ages). و هي مؤلفات تمكنت من الإطلاع عليها من خلال زيارتي للمكتبة الوطنية الاسبانية في مدريد في شهري مارس وديسمبر من سنة2011م.

كما أفادني كثيرا كتاب الإسباني مارمول كربجال الذي ألف كتابه خلال القرن العاشر للهجرة/16م بعنوان «إفريقيا » وهو مكون من ثلاثة أجزاء، وقد استقى هذا المؤلف كثيرا من معلوماته من المغربي حسن الوزان إلا أنه ام يدقق فيها و لم يحققها، حيث نقل لنا عدة أسماء خاطئة مثل ذكره لاسم عبد الملك وهو يقصد به عبد الله بن ياسين، كما أنه كثيرا ما يأتي بتعميمات حول ممالك السودان الغربي ويجعلها تابعة كلها لمملكة مالي، كما يورد مثلا ملوك سنغاي من الاسقيين ويقول بأنهم ملوك مالي. ورغم ذلك فإنه أفادني في الكثير من التفاصيل المفقودة في المصادر العربية وخاصة فيما يتعلق بالتوغل البرتغالي في السودان الغربي وعلاقاتهم بملوك مالي المتأخرين.

سادسا: الروايات الشفوية:

تعد الروايات الشفوية من المصادر التي لا يمكن تجاوزها بالنسبة لأي باحث في تاريخ السودلن الغربي وخاصة تاريخ العائلات الملكة، ذلك أن المصادر العربية المكتوبة اقتصرت معلوماتها على الفترات التي بلغت مملكة فيها مالي أوج قوتها، وأوردت لنا تفاصيل حول الملوك الذين أدوا فريضة الحج إلى مكة المكرمة، وبالتالي فقد استقوا معظم معلوماتهم عنهم من خلال زيارة هؤلاء للقاهرة أو من خلال بعض الفقهاء والقضاة السودانيين الذين مروا بالقاهرة في طريقهم إلى مكة المكرمة. لذلك فقد كانت معلوماتهم حول بقية ملوك العائلة المعنية بالبحث قليلة جدا وغامضة، خاصة بالنسبة للبدايات الأولى لأسرة كيتا ووصولها إلى

كنغابا، وكذا نشأة مملكة مالي الأولى وملوكها الأوائل قبل سوندياتا، وسيرة هذا الأخير وطريقة وصوله إلى الحكم وجهوده في بناء الامبراطورية وفتوحاته في السودان الغربي. فكان لزاما علي اللجوء إلى ما حفظته الذاكرة السودانية من روايات تناقلتها الأجيال أبا عن جد واضطلع بها مجموعة من الرواة الذين يشكلون مكتبة حقيقية لتاريخ مندن. [1]

ويوجد بالسودان الغربي عدد كبير من الرواة الذين يمثلون طائفة خاصة في المجتمع تتكون من عائلات تحظى بالتقديس والاحترام يعرف أصحابها بالجيلي(Jeli) أو جالي، وكل عائلة منها ترتبط بأسرة أو عشيرة ملكة بالسودان الغربي تروي أمجادها وتخلد بطولاتها. فهناك الروايات التي تروي تاريخ عائلة الحدادين بمملكة الصوصو وهم آل كوناتي التي جمعها ونشرها أحد المنتمين إلى هذه العائلة وهو أستاذ في التاريخ بجامعة ستراسبورغ الفرنسية ولديه المام بالروايات المالنكية يدعى نامبالا كانتي (Nambala Kanté) حيث جمعها في كتاب بعنوان «حدادو إفريقيا السوداء» (Les fourgerons de l'Afrique noire) وتشمل تاريخ مملكة الصوصو وملحمة الملك سومنغورو كانتي وعلاقته بعائلة كيتا وحروبه معهم. إلا أن هذه الروايات يغلب عليها الجانب الأسطوري و الملحمي. أما الروايات الخاصة بتاريخ أسرة كيتا و البدايات الأولى لمملكة مالي فهي متعددة وأشهر ما اعتمدت عليه منها في بحثي فهي روايات منطقة كيلا التي تحتفظ بها إلى الآن عائلة دياباتي (Diabaté) أو

---

(1) حول الروايات الشفوية انظر:

-Kibalabala N'sele : Le "griot" : le porteur de la parole en Afrique
In Jeu : revue de théâtre,. Éditeur : Cahiers de théâtre Jeu inc.
Rédaction : Lorraine Camerlain (responsable du numéro) n° 39, 1986, p. 63-66

- Valerie Thiers-thiam : A chacun son griot : Le mythe du griot-narat-teur dans la littérature et le cinéma d'Afrique de l'ouest. Editions L'Harmattan, Paris, 2005

جاباتي(Djabaté) الشهيرة، والتي تعتبر من طرف سكان مندي الحافظة الأكبر لأسرار تاريخهم، حيث يعتبر آل دياباتي الرواة الخصوصيون لملوك كنغابا الأوائل، فكانت تعطى لهم دائما الأولوية لرواية أعمالهم وبطولاتهم بسبب اعتمادهم على استراتيجية خاصة بهم في الحفاظ على رواياتهم من التزوير والتحوير، فحافظت على نقاوتها من أي تحريف، وقد جمعت هذه الروايات من طرف المؤرخ جان جنسن (Jan William Janssen) من خلال عدة مؤلفات أهمها «ملحمة تاريخ ومجتمع: حالة سوندياتا مالي وغينيا» (Epopée histoire société. Le cas de Sundjata, Mali et Guinée)، و كتاب بعنوان «سوندياتا ملحمة المندي» (Son-Jara. The Mande epic) والذي أرفقه بعدة تحقيقات وتعليقات قام بها المؤرخ جليفا ديجي سيسوكو(Jeli Fa-Digi Sisoko)، بالإضافة إلى كتاب بعنوان الملاحم الشفوية من إفريقيا (Oral épics from Africa) والذي ألفه برفقة المؤرخين توماس هال (ThomasHale) وستيفن بيترسن (Stephen Paterson) وكتاب آخر بعنوان «رواة كيلا، الكلمات التي يجب أن نسمعها » (Les griots de kila, Les paroles qu'on devrais entendre).

كما اعتمدت على رواة آخرين من منطقة كيتا ومنهم واكاميسوكو(Wa kamissoko) الذي يعد من أشهر المنشدين الذين رووا تاريخ مالي، فقد سجلت رواياته قبل وفاته سنة 1979 م من خلال مشاركته في ندوة جمعية (SCOA) حول الرواية الشفوية بالسودان الغربي سنة 1976م، وجمعها المؤرخ الغيني يوسف تاتا سيسي (Youssouf Tata Cissé) في كتاب من جزئين بعنوان «السيرة الكبرى لمالي» (La grande geste du Mali) خصص الجزء الأول منه للبدايات الأولى لنشأة مملكة مالي وسيرة سوندياتا ونشأته وهجرته إلى مملكة ميما، كما تضمن مجموعة من الأسئلة التي طرحها المؤرخون الذين حضروا تلك الندوة وإجابات واكاميسوكو عليها، أما الجزء الثاني من الكتاب فقد خصص للروايات المتعلقة بتأسيس امبراطورية مالي وحروب سوندياتا ضد الصوصو وتوسعاته في الغرب وعلاقاته بمختلف العشائر المندية إلى غاية وفاته، وتميزت رواياته بدقة كبيرة في المعلومات وضبط دقيق لتواريخ تلك الاحداث، لكنها لا تخلو من الأساطير التي تميز كل الملاحم والأشعار.

واعتمدت أيضا على الروايات الخاصة بمنطقة السنغال وخاصة تلك التي جمعها المؤرخ جيرار ماير (Gerard Meyer) بين سنتي 1976و1979م بالسنغال، وهي عبارة عن 13 ملحمة جمعها في كتاب بعنوان «أناشيد ملحمية للكرور، البقرة الكتاب الرمح»(Recit epiques Toucouleur,La vache le livre la lance) وقد استقاها من منطقة كوديري (Goudiry) وهي منطقة يسكنها عنصري التكرور والفلاتة، وأغلب هذه الروايات رواها رجال ينتمون إلى طبقة من الرواة يعرفون بمابو(Maabo) أو مامبادو(Mambaado)، و تضم هذه الأشعار ثلاث مجموعات من الملاحم وهي: المجموعة الأولى و تروي الصراع بين رعاة الأبقار وهم فلاته الغرب، والمجموعة الثانية تروي بطولات الفاتح التكروري الكبير وهو الحاج عمر تال الذي قاوم الاستعمار الفرنسي خلال القرن 19م وهو رجل الكتاب أي رجل القرآن. أما المجموعة الثالثة فهي تروي الشجاعة وروح الشرف عند المحاربين الفلاتة الذين لمح اليهم برجال الرمح، كما شملت ايضا مجموعة من الاناشيد الخاصة بسوندياتا كيتا مؤسس امبراطورية مالي. وتمتاز هذه الروايات عن غيرها بكونها تفسر الأحداث من الناحية الدينية والاديولوجية أكثر منها سرد للأحداث التاريخية.

ومن الروايات الشفوية التي اعتمدت عليها تلك التي نشرها الفرنسي موريس دولافوس وحققها ووضع لها الحواشي والشروحات والتي وجدها مدونة في مخطوط كُتب باللغة العربية وبلغة البامانا بخط يد رجل كان يشتغل قاض بمنطقة نيورو المالية، وقد نشر دولافوس هذه الروايات في كتاب بعنوان «روايات وأساطير السودان الغربي»(Traditions et légendes du Soudan occidental).

وقد وجدت في الأعمال التي نشرها مركز (CLIC)مادة خصبة حول الموضوع، وهذا المركز هو خاص بتعليم وإعلام الجاليات الإفريقية (The community learning and information center) ويهتم بتاريخ مندي خصوصا، حيث قام بجمع ونشر جميع بنود القوانين التي تضمنها اجتماع كوروكان فوكا الشهير سنة 1255م وذلك بالاعتماد على جميع الروايات ومقارنتها مع بعضها وتحقيقها وتنقيتها من الأساطير والروايات المشكوك في صحتها أو في رواتها.

كما ساعدني صديق افواري مقيم بابيدجان عاصمة كوت ديفوار يدعى سيسي قاووسو(Cissé Gaoussou) من خلال تزويدي بمجموعة من النصوص التي دونها من مقابلات شخصية مع جماعة كوياتي في مدينة كونغ الافوارية الذين يعتبرون الرواة الرسميون للاحداث التاريخية الخاصة بعائلة كيتا، وقد شملت بعض الروايات عن ملوك مالي الاوائل من عائلة كيتا.

هذا وقد استفدت كثيرا من عدد من الدراسات الأكاديمية حول الموضوع والتي نشرت في مجلات تاريخية وبعض المواقع الالكترونية لباحثين معروفين باسهاماتهم في هذا المجال أمثال الباحث الغيني نيان تمسير جبريل وموسى فوفانا و موريس دولافوس وغيرهم.

خطة البحث:

وقد اشتمل البحث على تمهيد وأربعة فصول بالإضافة لخاتمة شملت أهم نتائج البحث والملاحظات؛ فضلاً عن الملاحق التي تضمنت بعض الخرائط الجغرافية والتاريخية والرسوم التوضيحية.

فلقد تناولت في الفصل الأول الذي كان بمثابة فصل تمهيدي أوضاع منطقة النيجر و السنغال العلويين خلال القرن الخامس للهجرة/11م، على اعتبار ان هذه المنطقة هي التي احتضنت احداث الدراسة، والمجال الذي ظهرت فيه عائلة كيتا المالية. وقد تطرقت فيه للخصائص الطبيعية والبشرية للمنطقة، فابرزنا سطح المنطقة و انهارها،و مناخها بالاضافة إلى مختلف شعوب المنطقة وخصائصهم يتميز به من إضافات مهمة، والمصادر والرواة التي استقى منها مؤلِّف المصدر مادته، وختمت هذا الفصل بمبحث قارنت فيه بين مواد المصادر ، واشتمل على بعض الإحصاءات حول مواد المصادر ونوعية موادها ومصادرها.كما عرجنا على الاوضاع السياسية التي عرفتها المنطقة خلال القرن الخامس للهجرة باعتباره القرن الذي شهد ظهور البدايات الاولى لعائلة كيتا و مملكتها الصغيرة.

وتناول الفصل الثاني من هذا البحث بالدراسة ظهور عائلة كيتا ودورها في تاسيس مملكة على ضفاف نهر جوليبا وهو احد فروع النيجر، وقد قسمته إلى مبحثين تطرقت في الاول إلى الظروف التي ظهرت فيها عائلة كيتا و أصلها بالاضافة إلى تاسيسها لمملكة مندن،

وملوكها الاوائل واعتناقهم الاسلام، واخيرا تطرقت لنكبة عائلة كيتا بهجوم مملكة الصوصو عليهم واحتلال بلادهم وابادتهم. أما المبحث الثاني فقد خصصته للزعيم التاريخي لعائلة كيتا وهو سوندياتا كيتا ودوره في إعادة بعث مجد هذه الأسرة وتأسيسها، قبل أن أبحث في مجهوداته الحثيثة لإنشاء امبراطورية مالي واعماله العسكرية والتنظيمية و توحيده لكل بلاد مندي تحت سلطته.

وخصصت الفصل االثالث من البحث لدراسة المجهودات التي قام بها خلفاء سوندياتا من أسرة كيتا، حيث شمل المبحث الأول منه للتعريف بمختلف ملوك مالي من عائلة كيتـــا الذين خلفوا سوندياتا، أما المبحث الثاني فقد شمل مجهوداتهم في سبيل ازدهار الامبراطورية في مختلف الميادين العسكرية الاقتصادية التنظيمية الدينية العلمية والعمرانية.

أما الفصل الرابع والأخير من هذا البحث فقد خُصص للعلاقات الخارجية لملوك مالي، فخصصت المبحث الأول لعلاقاتهم بجيرانهم من ممالك السودان الغربي كسنغاي والموشي وكابو وغيرها من امارات وممالك السنغال والنيجر العلويين. وفي المبحث الثاني درست علاقاتهم بالعالم الاسلامي سواء المغرب الإسلامي كالامارات الصحراوية أو أئمة الرستميين بتيهرت وسلاطين بني مرين بفاس وملوك بني زيان بتلمسان أو المشرق الاسلامي وخاصة مع سلاطين المماليك بمصر. أما المبحث الثالث فقد خصص لعلاقات عائلة كيتا بأوربا وفي يمقدمتها إسبانيا والبرتغال، وفي الأخير تطرقت إلى علاقة عائلة كيتا بالعالم الجديد ومناقشة فرضية ان يكونوا هم اول من اكتشف القارة الامريكية.

أهم الصعوبات:

أما بالنسبة لأهم الصعوبات التي واجهتني أثناء كتابت هذا البحث فتتعلق بالمادة التاريخية بالدرجة الاولى والتي نوجزها فيما يلي:

1 - عدم وجود مصادر عربية متخصصة تناولت جميع الجوانب التاريخية والجغرافيـــة والاجتماعية والاقتصادية لمملكة مالي؛ فالمصادر التاريخية أهملت الجانب الجغرافي والاجتماعي والثقافي بينما نجد المصادر الجغرافية التي حملت تاريخ مالي في طياتها انما ركزت على اسماء

المدن و القرى والمسالك والمسافات فيما بينها، بالاضافة إلى بض الشعوب دون أن تذكر اسماء الملوك و فترات حكمهم.

2 - عدم اهتمام المصادر العربية باحداث القرنين الخامس والسادس الهجريين من تاريخ مالي، وهي الفترة التي شهدت ظهور مملكة مالي و ملوكها الاوائل.

3 - اتجاه كثير من الباحثين الأجانب إلى الاستعانة بالروايات الشفهية التي راج الاعتماد عليها في كثير من بحوثهم؛ ثم ظهرت آثارها في كثير من دراساتهم على أنها حقائق ثابتة رغم عدم دقتها وجنوحها في كثير من الأحيان إلى التعلق بالأساطير والسرد القصصي الخيالي، بالاضافة إلى تناقضها في كثير من الاحيان بالمصادر العربية المكتوبة،مما تطلب مني العودة إلى هذه المصادر وتمحيصها مقارنتها بالمصادر العربية ومدى متطابقتها للوقائع والاحداث التاريخية التي احاطت بفترة البحث.

4 ـ عدم توفر المصادر الشفوية، مما جعلني اعتمد على الكتب التي اهتمت بهذه الروايات ونشرت عدة نصوص منها، وقد تمكنت من الاطلاع على بعضها في المكتبات الجزائرية وأخرى من دول أوربية كفرنسا وإسبانيا وبريطانيا.

5 ـ أما الصعوبة التي كادت أن تجعلني أتوقف عن البحث نهائيا فهي وفاة أستاذي الدكتور موسى لقبال رحمه الله وانا في بداية البحث، وهو الذي كان مشرفا عليه في البداية مما جعلني أفقد نكهة البحث لبعض الوقت قبل ان أستعيدها بعد ذلك واقرر مواصلة العمل مع الاستاذ الفاضل الدكتور عبد العزيز بوكنة.

منهجية البحث:

أما بالنسبة لطريقة البحث والمنهج الذي التزمته في هذا البحث، فمن الواضح أن المعلومات التي وردت في المصادر العربية عن بلاد السودان الغربي عموما وعن مملكة مالي الاسلامية خصوصا تختلف في كثير من جوانبها عن الدراسات التاريخية التي تتناول موضوعاً معيناً؛ إذ يتم في مثل هذا النوع من الدراسات مقابلة المعلومات الواردة في المصادر العربية المكتوبة مع نظائرها في المصادر الشفوية، مع الإشارة إلى الاختلافات بينها ومحاولة فهم اسباب هذه الاختلافات وظروفها باحثا عن الحلقات المفرغة بين هذه النصوص ومحاولة

تغطيتها قاصد الخروج بصورة متكاملة لتاريخ مالي،كما يُفترض التنويه بأهيمة المصادر على اختلافها، ومميزات كل مصدر وهفواته.

وتأصيلاً لهذا المنهج فقد اعتمدت الدراسة على المصادر العربية المطبوعة المتعلقة بتاريخ المنطقة بشكل عام، والمكتوب منها منذ القرن الخامس حتى القرن التاسع الهجريين في المقام الأول لقربها من احدا وث الدراسة وحيثياتها لاستخلاص مادة البحث منها بعد التحقيق والموازنة والوقوف على الدليل، كما تم الاعتماد على المصادر الشفوية المحلية السودانية التي لا يمكن الاستغناء عنها في جمع المادة التاريخية الخاصة بملحمة سوندياتا و ملوك كيتا الاوائل لكن بعد تمحيصها و مقارنتها بالمواد الواردة في المصادر العربية، و ازالة الجانب الاسطوري و الملحمي، أما المراجع الحديثة، وإسهامات الباحثين المحدثين لأجل أن يُستكمل بها توثيق الأحداث وتصويب بعضها، وسد بعض الثغرات التي تظهر في المصادر، ويدخل في ذلك أيضاً المراجع الأجنبية؛ لأن بعضها شمل إضافات علمية أمينة، في حين أن بعضها الآخر قد تحيز حيث غلب على أصحابها فكر أو هدف معين فحاد بهم عن الحق، فحملت هذه المراجع أخطاء تاريخية أصبحت حقائق ثابتة في نظرهم، لذلك اتسم الأخذ منها بالحذر، حيث تُخضع مادتها العلمية للغربلة والتمحيص والرد على ما يستحق منها مشفوعاً بالأدلة الموضوعية حسب ما يتوفر من معلومات وحقائق تاريخية.

بالإضافة لذلك تم الاعتماد على كتب الرحالة والجغرافيين الاوربيين الذين شملت اعمالهم مسح دقيق لتضاريس منطقة السنغال و النيجر و مدنها مسالكها و طرقها وحتى الشعوب و عاداتهم و صفاتهم ولغاتهم؛ وذلك للوقوف على الأماكن الصحيحة للأقاليم والدول والمدن والأنهار والأودية والجبال التي لها صلة بالدراسة، مع الأخذ في الاعتبار أن بعضها قد اندثر في الوقت الحاضر لعوامل تاريخية أو طبيعية أو لأنها حملت أسماء أخرى غير التي كانت معروفة بها أثناء فترة الدراسة.

وكان لزاما علي كأي باحث أن التزم بعدة نقاط خاصة بأسس منهج البحث التاريخي وهي الاعتماد على صحة المصدر وأدلته، لبناء الأحداث وصياغتها مع توخي الامانة العلمية في الادلة المستعملة في تبرير رأي معين. كما عمات قدر المستطاع عدم اطلاق الأحكام

الجزافية رغم ترجيح بعض الروايات على أخرى وفقا لقواعد المنهج التاريخي. وقد حاولت جهدي إرفاق كل مادة بالتحليل والنقد ومراعات الظروف التي كتب فيها االمصدر وعلاقة المؤلف بالاحداث وقوة الحجج المعتمدة، بالاضافة إلى كل تدعيم كل رأي بالحجج العلمية المتاحة لدي وتحري الحقائق الموضوعية في ذلك كله مع الالتزام بقواعد وأسس الاحالات للمصادر في الهامش، والحرص على الأمانة في نقل المعلومات ونسبتها لأصحابها. كما اجتهدت في الالتزام بتقديم المادة العلمية بأسلوب علمي غير منحاز.

وختاماً فإنني أحمد الله تبارك وتعالى على توفيقه لإتمام هذا العمل، كما أسوق ثنائي وتقديري لأستاذي الجليل الدكتور/ عبدالعزيز بوكنة المشرف على هذه الرسالة ، فقد ذلّلت توجيهاته السديدة، وملاحظاته القيمة الكثير من الصعوبات التي واجهتني، وأعان نصحه وإرشاده إلى اجتياز الطريق، ويعلم الله أنه لم يبخل عليَّ بوقته، ولم يضن بعلمه ولا بجهده وخبرته رغم مشاغله الكثيرة والتزاماته.

ولا يفوتني أن استغل هذا المقام للترحم على فقيد الأسرة التاريخية الجزائرية والعربية الأستاذ الدكتور موسى لقبال رحمه الله وتغمده الله برحمته والذي خطوت معه الخطوات الأولى في هذا البحث وشجعني على المضي قدما في هذا الموضوع قبل أن توافيه المنية وهو في عز عطائه العلمي. وأتوجه بالشكر الجزيل لرئيس قسم التاريخ بكلية العلوم الإجتماعية والانسانية لجامعة الجزائر2، وكل الطاقم الاداري، وأزجي شكري كذلك لأعضاء المجلس العلمي لقسم التاريخ، وكذا أعضاء لجنة المناقشة الموقرة اللذين تكرموا بقبول مناقشة هذه الرسالة وبذلوا جهدهم و وقتهم لقراءة الرسالة والحكم عليها سائلا الله عز وجل أن يجزي الجميع عني خير الجزاء.

وإنني لأرجو أن أجد في تقييم ونقد أساتذتي الكرام لهذا العمل ما يفيده ويفيدني في مستقبل الأيام بعون الله تعالى وتوفيقه.

الفصل الأول

أوضاع منطقة السنغال و النيجر العلويين

خلال القرن الخامس للهجرة/11م

الــفـــــصــــــــل الأول

أوضاع منطقة السنغال و النيجر العلويين

خلال القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد

إذا كان هيرودوت قد أطلق على النيل المصري صفة واهب الحضارة المصرية القديمة بقوله ((مصر هي هبة النيل))، نظرا للدور الحيوي الذي لعبه هذا النهر في قيام أعرق وأرقى حضارة عرفها العالم القديم. فإن نفس الوصف يمكن أن نطلقه على نهري النيجر والسنغال في قيام حضارات وممالك السودان الغربي، فليس صدفة إذن إذا كانت المدن الأساسية للإمبراطوريات الكبرى الأولى في إفريقيا الغربية وجدت أولا في السهول المحاذية لنهري النيجر والسنغال. ذلك أنه بين هذين النهرين توفرت ظروفا خاصة مساعدة على الزراعة والرعي، وهناك أيضا تطورت الحضارات الأولى للسودان الغربي[1]، فحوض نهري السنغال والنيجر كانا مهدين لقيام الممالك الكبرى في السودان الغربي، كما هو الشأن مع أقدم إمبراطورية شاهدتها إفريقيا الغربية، وهي إمبراطورية غانة التي أسسها شعب السوننكي على ضفاف نهر السنغال، بالإضافة إلى مملكة التكرور التي نشأت خلال القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد، والتي امتدت على طول نهر السنغال بين غالام والمحيط الأطلسي إلى أدرار الموريتانية. وما إن حل القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، حتى بدأت تظهر بوادر مملكة فتية على ضفاف نهر النيجر الأعلى، ثم سيطرت خلال القرن الخامس للهجرة/12م على جميع الأحداث في منطقة السودان الغربي عموما وعلى المناطق

---

(1) Niane djibril temsir, le soudan occidental au temps des grands empires au 11ème et 16ème siècle. Présence africaine, (Paris, 1975, p28)

الواقعة بين السنغال الأعلى والنيجر، ألا وهي مملكة مالي التي أسسها المالنكي[1]. فمنطقة النيجر الأعلى والسنغال إذن تعد بحق مهدا لأعرق الإمبراطوريات الإفريقية، كما تعد مسرحا لكل الأحداث الجديرة بالاهتمام بالنسبة لتاريخ السودان الغربي ابتداء من القرن الخامس للهجرة/11م، الذي يعد قرن التحوُلات الكبرى بالنسبة للمنطقة كلها. لذلك يجدر بنا أن نتعرف على هذه المنطقة من النواحي الطبيعية والبشرية، إذ يبدو أن دور هذه النواحي مهم جدا في الاضطلاع بتلك الخصائص الحضارية المذكورة.

المبحث الأول:

السنغال الأعلى والنيجر:الخصائص الطبيعية والبشرية:

أولا:الخصائص الطبيعية:

1.تحديد منطقة النيجر الأعلى و السنغال:

نطلق اسم السنغال الأعلى والنيجر على المناطق التي تشكل الأجزاء العليا لحوضي السنغال والنيجر، وهي تمتد من الشمال إلى الجنوب من خطي عرض 12°إلى 15° شمال خط الاستواء، ومن الغرب إلى الشرق من خط طول 10° إلى15° شرق خط غرينتش[2]. يحد هذه المناطق من الغرب سلاسل من الجبال التي تنتمي إلى الكتلة الوسطى

---

(1) Maiga Mouhamadou , Le bassin du fleuve du Sénégal . Publier par : L’harmattan, (Paris, 1995, p20).

(2) لقد حدد المؤلف موقع باريس كخط الصفر بالنسبة لخطوط الطول، و إذا علمنا بأن باريس تقع عند خط 2 °شرق غرينتش، فإن المنطقة حسب خط غرينتش تكون موجودة بين خطي طول 8 و 13شرقا.

لفوتا جالون[1]. أما من الشمال فتحدها الصحراء الإفريقية الكبرى ومنطقة باخوي (Bakhoy) وباولي (Baoulé)[2]، كما يحدها من الشرق مجرى نهر النيجر، ومن الجنوب يحدها أحد روافده وهو نهر تنكيسو[3]، أما من الناحية الجيولوجية فإن هذه المنطقة مكوّنة من تتابع الهضاب العليا التي يبدأ ارتفاعها تدريجيا من نهري النيجر والسنغال، وتقطعها تلال شديدة الانحدار، ومحاطة بسلاسل جبلية قاحلة تتخلّلها قمم متفرقة، لعل أهمها قمة جبل "خوماخانا (khomakhana) في كتلة الماندينغ. أما التربة فهي متشابهة في هذه المناطق كلها، فهي تتشكل من مزيج من الحجر الرملي، وأكسيد الحديد، والغضار، وحجر الصوان، حيث أن الحجر الرملي يتشكل بصفة خاصة في المرتفعات، بينما يشكل الغضار التربة الأساسية للأحواض، وهو عامل يساهم في الحفاظ على البقايا النباتية والحيوانية والدبال، مما يسمح بزراعة الذرة، البطاطس، الدّخن، الفاصوليا والأرز. لكن

---

(1) فوتا جالون Futadjallon هي منطقة جبلية في الجزء الغربي من وسط جمهورية غينيا الحالية، ينبع منها كل من نهر النيجر، غامبيا والسنغال)، متجهة نحو الشمال ، فاصلة بين حوض فاليمي وغامبيا.

(2) باخوي Bakhoy أو Bakoy هو نهر من أنهار إفريقيا الغربية، يقطع غينيا ومالي ويتصل مع نهر بافينغ Bafing ليكونا نهر السنغال في منطقة بافولابي Bafoulabé في محافظة كايس Kayes غرب جمهورية مالي، ويسمى أيضا بالنهر الأبيض، بينما يسمى بافينغ بالنهر الأسود).أما باولي فهو نهر من الأنهارالمتفرعة عن السنغال، الذي يعد هو الآخر أحد فروع السنغال، وينسب إليه شعب باولي الذي يقطن مناطق باولي، ياموسوكرو، ديامبوكرو،بيومي، وغيرها الموجودة في وسط كوت ديفوار.

(3) ويعد نهر تنكيسو أحد أنهار جمهورية غينيا، وأحد روافد نهر النيجر من الجهة اليسرى، ينبع من مرتفعات فوتا جالون، ويجري باتجاه الشمال الشرقي بطول 270كم، ويلتحق بنهر النيجر في منطقة سيغيري (Siguiri).

Dr Colomb, Les populations du haut Niger, leur moeurs et leur histoire. Imprimerie Pitrat Ainé (Lyon,France,1885,p2)

هذه التربة الغضارية غير نفوذة وتسبب في نفس الوقت في حدوث فيضانات سريعة للأنهار التي تتضمنها المنطقة[1].

2.الأنـــهـــار:

الملاحظ أن نهري النيجر والسنغال يشكلان أهم نهرين تسري بهما الحياة كلها في تلك المنطقة، فهما يشكلان إذن الشريان الحقيقي للمنطقة التي ارتبط اسمها باسم النهرين، وهو ما يجعل كل دراسة حول المنطقة تبدو ناقصة دون التطرق إلى هاذين النهرين العظيمين.كما أن المصادر العربية لم تفرق بين نهري النيجر والسنغال، بل أطلقت عليهما معا اسم نيل السودان، وذلك للتمييز بينهما وبين نيل مصر. ولكن حسن الوزان يبقى المؤلف العربي الوحيد الذي ذكر نهر النيجر باسمه حيث يقول:((ويمر من أواسط بلاد السودان نهر النيجر الذي يتولد في صحراء تدعى"سو"[2] حيث يخرج من بحيرة كبيرة)).[3] وربما يرجع ذلك إلى كون الجغرافيين العرب كانوا يعتقدون بأن نيل مصر ونيل السودان هما امتدادين لنفس النهر ألا وهو النيل المصري. فالإدريسي(الذي عاش بين سنتي 493 و 560 للهجرة/1100 و1164ميلادي) يذكر بأن نيل مصر يفترق في بلاد النوبة إلى نيلين وهما نيل مصر الذي يشق أرضها وجريه من الجنوب إلى الشمال وأكثر مدن مصر على ضفتيه معا، والقسم الثاني من النيل يمر من وجهة المشرق إلى أقصى

---

(1)Dr Colomb, Op.cit,p2

(2) يقول مترجم كتاب حسن الوزان:بأنه كانت ضفاف بحيرة التشاد مأهولة سابقا بقوم يدعون "سو"، وبالتالي يمكننا أن نقول بأن حسن الوزان نسب المكان إلى سكانه.

(3) الوزان (الحسن بن محمد) المعروف بليون الإفريقي، وصف إفريقيا.ترجمة:عبد الرحمن حميدة، مراجعة: علي عبد الواحد، نشر من طرف كلية العلوم الاجتماعية بجامعة محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، 1399هـــ/1979م، ص 37.

المغرب، ويضيف بأنه على هذا القسم من النيل تقع جميع بلاد السودان أو أكثرها وأن كلا النيلين منبعهما واحد وهو جبل القمر[1].

ويذهب ابن سعيد (الذي عاش بين 610 و 673 أو(675) للهجرة/ 1214 و1274(أو 1276 للميلاد) إلى نفس الاعتقاد، ويرى بأن ينابيع النيل الخمسة الصادرة من جبل القمر، يخرج منها خمسة أنهار، واحد منها يصب في الإقليم الأول الذي يضم البحر المحيط الذي ينتهي إليه نيل السودان[2]. كما سار على نهجهما ابن الوردي (المتوفى عام 749 هجري/1348ميلادي) فيذكر بأنه ببلاد السودان وبالضبط بأرض الدمادم[3] يفترق النيل إلى أرض مصر وإلى جهة الزنج[4]. وحتى حسن الوزان الذي عاش معظم حياته في إيطاليا، فانه يذهب إلى نفس ما ذهب إليه العرب السابقون، ويرى بأن نهر النيجر لا ينبع من الغرب بل هو فرع من النيل المصري[5]. لكن يبدو أن هذا الاعتقاد الذي ينطبق خصوصا على نهر النيجر دون نهر السنغال، لا يخص الجغرافيين العرب وحدهم بل يعود

(1) الإدريسي (أبو عبد الله الشريف)،القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس ،مقتبس من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. تحقيق و تقديم وتعليق:إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983،ص 49.

(2) ابن سعيد (أبو الحسن علي بن موسى المغربي)،كتاب الجغرافيا. تحقيق وتعليق: إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982، طبعة ثانية، ص 80.

(3) هي أرض ببلاد الحبشة شرقي موقاديشو(الصومال اليوم)، يسكنها شعب متوحش بدائي يعرفون بالدمادم، ويلقبهم ابن سعيد بتتار السودان لوجه الشبه بينهم وبين التتار المغول المتوحشون الذين غزوا بغداد عام 560هـــ /1258 م (نفسه، ص81)

(4) ابن الوردي (سراج الدين بن حفص)،خريدة العجائب و فريدة الغرائب.مطبعة الحلبي وأولاده، مصر 1341 هـــ / 1922م، ص 42.ـــ كما أن أبي الفدا (المتوفى سنة 732هـــ) ذهب إلى نفس ما ذهب إليه ابن سعيد على اعتبار أنه نقل أخباره عنه (أبو الفدا(عماد الدين إسماعيل):تقويم البلدان: طبعه وصححه:ماك كوكين و دوسلان، مطبعة دار الطباعة السلطانية، باريس،1830 م، ص 152.

(5) المصدر السابق، ص38.

إلى تاريخ قديم جدا، ذلك أن هيرودوت الذي عاش بين سنتي 484 و 425 قبل الميلاد كان يعتقد بأن نيل مصر ونهر النيجر يعدان امتدادا لبعضهما البعض، إلا أنه على العكس من الجغرافيين العرب يعتقد بأن منبع نيل مصر هو نهر النيجر حيث أن مياهه (أي مياه نهر النيجر) تغوص في الصحراء الليبية وتقطعه لتظهر مرة أخـــرى وتصب في نيل مصر[1]. واستمر هذا الاعتقاد إلى غاية القرن السادس عشر الميلادي، حيث بدأت الحملات الاستكشافية البرتغالية وما تبعها من تقارير ودراسات حول إفريقيا الغربية، وبدأت جغرافيا السودان الغربي تخرج عن دائرة الروايات المختلطة بالأساطير إلى دائرة الدراسات والأبحاث العلمية. ذلك أنه إلى غاية أواخر القرن السابع عشر بقي هناك من الأوربيين من كان ما يزال لا يفرق بين نهري النيل والسنغال[2] شأنهم في ذلك شأن الجغرافيين العرب خلال العصور الوسطى. فتلك الأبحاث التي قام بها الرحالة والمستكشفون الأوربيون، سمحت بالتعرف على المنطقة وأصبح التمييز بين نهري النيجر والسنغال واضحا[3]. لذلك

(1) هيرودوت، تاريخ هيرودوت. ترجمة : عبد الإله الملاح، مراجعة :أحمد السقاف وحمد بن صراي، المجمع الثقافي أبوضبي،الإمارات العربية المتحدة، 1422هـ/2001م،ص148.

(2) كان الجغرافي الهولندي Dapper الذي عاش في أواخر القرن 17، يخلط بين النيجر والسنغال ويتحدث عنهما على أساس أنهما نهرا واحدا .

Delafosse (Maurice) ,Haut Sénégal-Niger :édition :Emil la rose librairie, (Paris 1912, P61) .

(3) بدأت الاستكشافات الأوربية لنهري النيجر والسنغال منذ القرن 15م، حيث أنه في عام 1433م تجاوز البرتغاليون رأس بايادور(باجادور) ، و في عام 1440م تقدموا إلى غاية الرأس البيض أين اكتشفوا عام 1450م نهرا اعتقدوا أنه نهر النيجر، والذي كان الأهالي يسمونه سندك (SENEDEK) وهو النهر الذي يفصل بين الشعوب المورية(البربرية) والشعوب السوداء، فدخلوا في علاقات مع زعيم سوداني يسمى سنيغا (SENEGA)، لهذا أعطوا هذا الاسم لنهر السنغال .ومنذ ذلك الوقت عرف البرتغاليون مجرى نهر السنغال

Carett (Pâques) ,Origine et migration des principales tribus de l'Algérie. (Paris Imprimerie impériale, sans date, p224)

فإنه جليّ بنا في هذا البحث أن نُعَرف بهذين النهرين من حيث منابعهما، ونظام جريانهما، ومصبهما، وكل الظروف الطبيعية التي يتأثران بها، ويؤثران فيها.

أ.نهر النيجر : يعد نهر النيجر أهم مظهر طبيعي يميز المنطقة، ويعد أحد انهار العالم الكبرى[1]. أما من حيث تسميته فإن المؤرخ الفرنسي" موريس دولافوس" يذكر بأنه من بين الفرضيات المطروحة حول أصل التسمية يوجد الفرضية التي تقول بأن كلمة نيجر اشتقت من الكلمة البربرية (غر) أو(غير) التي تعني بالبربرية الماء المتحرك، ويقصد بها النهر أو البحر، وهو نفس الاسم الذي كان يطلق على النهر الذي يمر بمدينة "جاو"، حيث يطلق عليه اسم (يغرن) أو (يغريون)، والتي حرّفها التجار الذين يجهلون البربرية على شكل (نيغر) التي تحولت إلى (نيجر)[2]. لكن"دولافوس" نفسه لا يبدو مقتنعا بهذه الفرضية ويستبعدها، ويرجّح الأصل اللاتيني للفظ نيجر، والتي اشتق من كلمة (نيغرس

=أما بالنسبة لنهر النيجر فقد كان ما يزال مجهولا إلى غاية أواخر القرن 18م، لذلك قامت الجمعية الإفريقية(وهي جمعية بريطانية مكونة من رجال الدين البارزين تهدف إلى جمع المعلومات العلمية عن القارة الإفريقية) في عام 1788م بوضع خطة عمل لاكتشاف أهم انهار غرب إفريقيا، وأرسلت عدة مستكشفين من ضباط عسكريين ورجال دين. منهم ماجور هوجتون (Major Hougton) الذي فشلت مهمته بعدما قتل في بامبوك، ومنهم مونغو بارك(Mungo Park) الذي قام برحلته في سنوات 1795،1796 و1798م، والذي وصل إلى نهر النيجر ووصفه بدقة. (هوداس(س):أشهر الرحلات في غرب إفريقيا. ترجمة: عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1996م، الجزء الأول، ص63.)

(1) فهو يحتل المرتبة التاسعة عالميا من حيث الطول الذي يبلغ 4200كم.كما يعد أيضا ثالث أكبر نهر إفريقي بعد كل من النيل ونهر الكونغو. عن الموقع الالكتروني:

www.universalis.fr/encyclopedie/N°1 30091/niger-fleuve.htm

(2) Delafosse(M) :Op.Cit, tome1, p5

NIGRES) أو (نيغريتا NEGRITA) التي تعني اللّون الأسود، وهو إسم استمد من لون البشرة السوداء لسكان نهر النيجر، حيث تحولت الكلمة بعد ذلك إلى نيغر(Nègre)وهي مرادفة لكلمة أسود[1]. كما يطلق على هذا النهر أيضا اسم جوليبا، وهو اسم إفريقي ويعني الماء الكبير أو النهر الكبير،كما يسميه البربر والعرب نيل العبيد، ويطلق عليه كذلك اسم النيل الكبير[2]. وعلى كل فإن الإسم المتداول اليوم وهو النيجر يعد أوربيا، ذلك أن العرب لم يكونوا يعلمون بوجوده، ويخلطون بينه وبين نهر السنغال على أساس أنهما نهرا واحدا ويدعونه نيل السودان. بل أن حتى الأفارقة أنفسهم وبعض الأوربيين إلى غاية القرن 18م لم يكونوا يعرفون بوجود نهر النيجر، واعتبروا أنه هو نفسه نهر السنغال[3].

وكان أول من فصل بين نهري النيجر والسنغال هو الجغرافي الفرنسي (دليسل DELISLE) الذي نشر خريطته للعالم عام 1714م، والتي وضع عليها عدة مستجدات منها فصله بين النهرين، وأعطى لكل منهما مصدرا خاصا به، وهما بحيرتان متجاورتان، بحيث أشار إلى أن السنغال يجري باتجاه الغرب والنيجر يجري باتجاه الشرق.[4] ورغم أن المصادر العربية تختلف معه في هذا الأمر، بحيث تذهب إلى أن نهر النيل السوداني يتجه من الشرق إلى الغرب[5]. إلا أن رأي "دليسل" دعمه الكثيرون من الجغرافيين، ومنهم مواطنه (دانفيل

---

(1)Delafosse (M) ,Op.Cit, tome1, p52

(2)Mungo (Park) ,Voyage dans l'intérieur de l'Afrique : 1795-1796 -1798.Traduit de l'anglais par : J.Castéra, Paris, S.D, tome2, p161,

(3)Murray Leden et M.Hugh, Histoire complète des voyages et découverte en Afrique: Edition: Arthus Bertrand librairie, (1821, tome2, p386)
(4) Op Cit, p384

(5)نظر أبي الفداء،المصدر السابق، ص 152 ــ الإدريسي:المصدر السابق، ص49....

Danville)، والجغرافي البرتغالي(مونغو بارك Mungo Park) الذي زار المنطقة ورأى نهر النيجر بعينيه، وخلُص إلى أنه يجري من الغرب إلى الشرق وليس العكس(1) . أما منبع نهر النيجر حسب تقرير(الدكتوركولومب Dr.Colomb (2) الذي زار المنطقة خلال أواخر القرن19م، فانه يخرج من جبل "لوما"(3).

أما "مونغو بارك" صاحب عدة اكتشافات حول الجغرافيا الفيزيائية لإفريقيا الغربية، فإنه يذكر بأن منبع نهر النيجر هو سلسلة جبلية تمتد من الغرب إلى الشرق، وتنحصر بين خطي عرض10° و11° شمال خط الاستواء، وبين خطي طول 2° و10° غرب خط غرينتش. وحسب مونغو بارك فإن الجزء الأعلى من هذه السلسلة والذي يوجد بين درجتي 5° و 9° غربا منه، ينبع نهر غامبيا الذي يتخذ مجرى (غربي وشمالي غربي)، ومنه

= نشير هنا إلى أن هيرودوت لما تكلم عن نهر النيجر ذكر بأنه يجري من الغرب إلى الشرق وأنه يقسم إفريقيا إلى قسمين بنفس الطريقة التي يقسم بها نهر الدانوب قارة أوربا ـــ هيرودوت،المصدر السابق، ص147.

(1) Mungo Park :Op.Cit,p164. – Leden et M.Hugh :OP.Cit,p384.

(2) الدكتور كولومب هو طبيب فرنسي كان مجندا في صفوف البحرية الفرنسية ضمن الجيش الذي أرسلته فرنسا في أواخر القرن 19م إلى مستعمراتها في غرب إفريقيا:مالي، السنغال، النيجر، كوت ديفوار، وعند عودته أعد تقريرا عن جغرافية منطقة النيجر الأعلى.

(3) Dr : Colomb ، Op.Cit, p3

ـــ يعد جبل لوما أعلى جبل في دولة سيراليون الحالية، ويوجد شمال شرق البلد على الحدود مع جمهورية غينيا الحالية، كما يعد هذا الجبل أعلى جبل في إفريقيا الغربية كلها، ويقدر ارتفاعه بـــ 1945 متر ، وهو جزء من مرتفعات فوتا جالون . عن الموقع الالكتروني:

http ://f/Tixit.com/loma-mansa-2359901.htm. أطلع عليه يوم:2009/12/24.

أيضا ينبع نهر السنغال ويجري باتجاه الغرب، بالإضافة أيضا إلى نهر جوليبا (أو النيجر) الذي ينبع منه ويسير في اتجاه الشرق والشمال الشرق. حيث أن الانحدار العام لهذه الجبال يتجه نحو الشمال، وبالتالي المياه تتبع هذا الاتجاه وخاصة نهر النيجر الذي يسير على مسافة أكثر من مائة ميل(1) باتجاه الشمال قبل أن ينحرف نحو الشرق(2). هذه الجبال ربما هي نفسها التي تكلم عنها " أبو الفدا "، والتي يسميها جبال "قومري"، والتي تتخذ نفس الاتجاه الذي ذكره "مونغو بارك"، حيث يقول أبو الفدا: ((وفي غربيها خور كبير ينزل إليه نهر من جبل القمر) و يضيف (.. و هو جبل مشهور عند المسافرين يدخل في البحر (أي نهر النيجر) نحو مائة ميل آخذا إلى الشمال بتشريق ويظهر في البر آخذا نحو الجنوب)(3). إن هذه الجبال، واستنادا إلى اتجاهها وموقعها الفلكي، فإننا نعتقد بأنها يمكن أن تكون هي نفسها الهضاب الشمالية لجمهورية كوت ديفوار الحالية، كما أن "مونغو بارك" يؤكد بأنها تمتد إلى غاية ما يعرف بمنطقة كونغ الواقعة شمال شرق جمهورية كوت ديفوار الحالية(4).

وعموما فإن هذا النهر بعدما ينطلق من منبعه يتجه نحو الشرق، ثم إلى الشمال الشرقي إلى أن يصب في نهر تنكيسو من الجهة اليسرى بعدما يشكل حلقة كبيرة، ويتجه بعدها نحو خليج غينيا الذي يصب فيه، وفي طريقه إلى مصبه يلتقي بعدة روافد(5)، ويقطع نهر النيجر عدة دول هي جمهوريات كل من غينيا، مالي، النيجر ونيجيريا، وعند مساره نحو الشمال

---

(1) وهو ما يعادل 160.9 كم

(2) يقصد نهر النيجر

(3) المصدر السابق، ص 152.

(4) Mungo Park , Op.Cit, p183.

(5) Dr : Colomb ,Op.Cit, p3

الشرقي باتجاه مرتفعات الماندينغ يتفرع منه باتجاه المنحدر الشرقي نهر جوليبا[1] الذي يعد موطن المالنكي وهو الموطن الذي ظهرت فيه مملكة مالي أو الماندي. لذلك نجد أن الشعب المالنكي كان يدعو نهر النيجر باسم نهر جوليبا، بل وما يزال إلى يومنا هذا متمسك بهذا الاسم[2]. بعد ذلك يواصل نهر النيجر مساره باتجاه الشمال الشرقي عبر هضاب الماندينغ، وفي طريقه تتخلله عدة روافد تصب فيه، مثل أنهار نتياندان وتنكيسو بالنسبة للضفة اليسرى، أما بالنسبة للضفة اليمنى فهو يلتقي بروافد أخرى مثل ميلو والسكراني. وبعد أن يجتاز منطقة (سيغو Ségou) تبدأ تتشكل دلتا خصبة التربة والتي تمثل مطمورة مالي من حيث إنتاج الأرز، ومركزا أساسيا للرعي وتربية الماشية، وتنتهي هذه الدلتا في مدينة تمبكتو، التي تغمرها الرمال ويتأثر بها مجرى النهر فيشكل عندها منحنى يتجه نحو الجنوب الشرقي أين يمر بمدينة(جاو) أو (كوكو) ثم يواصل سيره إلى غاية مصبه في خليج غينيا[3]. ويعد نهر النيجر نهرا صالحا للملاحة وهو ما جعل منه القلب النابض للتجارة لنهرية ، التي كانت تمثل أهم عوامل ازدهار الممالك التي قامت على ضفافه

ب. نهر السنغال: وهو النهر الذي يتمتع بأكثر شهرة عند الجغرافيين والرحالة العرب، بحيث يبدو أنهم عندما كانوا يتكلمون عن النيل السوداني انطلاقا من بلاد التكرور فإنهم كانوا يقصدون نهر السنغال دون أن يذكروه باسمه الذي نعرفه به اليوم، وحتى عندما كانوا يصفون أجزاء من نهر النيجر كانوا يعتقدون بأنه هو نفس النهر. لكن المصادر العربية تحدد مجرى هذا النهر باتجاهه من الشرق إلى الغرب، على العكس من مجرى النيجر

---

(1) جوليبا أو "ديارب" أو"دياليبا" Djoliba – Diareb – Dialiba ، وتعني في لغة الماندينغ "النهر الكبير": ديالي: نهر، و با:كبير.

(2) Monté mont (Albert) , Voyage dans les cinq parties du monde. Edition : Selligue, (Paris, 1828, Tome4, p14.)

(3) Niane Temsir djibril , Op.Cit, pp20, 21

أنظر أيضا: Mungo Park : Op.Cit, p308

الذي يتجه مجراه من الغرب إلى الشرق كما رأينا، أما منبع نهر السنغال فهو مرتفعات فوتا جالون التي ينبع منها نهر النيجر(1).

فالذراع الأساسي لنهر السنغال يخرج من مكان لا يعد إلا بـــ 8ميل (128،7كم) غرب منبع نهر النيجر، وبـــ 100ميل (160،9 كم) شرق منبع نهر غامبيا.(2) إلا أن نهري النيجر والسنغال يتخذان اتجاهين متعاكسين، فبينما يتجه النيجر نحو الشرق فان السنغال يتجه نحو الغرب(3). أما بالنسبة للمسار الذي يسلكه نهر السنغال، فيمكن أن نقول بأنه شبيه بمسار نهر النيجر لكن بالاتجاه المعاكس له، فالسنغال يبدأ مساره نحو الشمال الغربي، حيث يمر فوق هضاب الماندينغ أين يشكل خطا متوازيا مع نهر"غامبيا" الواقع بالجنوب منه، وخلال مساره على هذه الهضبة تتخلله عدة روافد تشترك معه في نفس الاتجاه، أي من الشرق إلى الشمال الغربي.

وأهم هذه الفروع والروافد الكبرى يوجد نهر البافنغ (Bafing) أوما يعرف بالنهر الأسود، الذي يعد الذراع الأساسي لنهر السنغال عند مرتفعات الماندينغ(4). ذلك أن نهر السنغال يتشكل أساسا من اتحاد نهر بافينغ، ونهر "باخوي" أوما يعرف بالنهر الأبيض، الذي يعرف عند شعوب الماندي بنهر "باديي (Badié) الذي يتغذى بدوره من رافده المعروف بنهر باولي (Baoulé) أوالنهر الأحمر. ولا يصبح نهر السنغال صالحا للملاحة إلا ابتداء من منطقة كايس (Kayes)، حيث يكون قد تلقى من جهة ضفته اليمنى رافدا هاما وهو نهر كولومبيني (Kolembiné) وبعده في الشمال يتلقى رافدا آخر وهو نهر كاراكورو

---

(1) Niane Temsir djibril , Op.Cit, pp20, 21.
(2) Mungo Park, Op.Cit, p187.
(3) Niane Temsir djibril , Op.Cit, p20
(4) Karl (Ritter) , Géographie générale comparée, (ou étude de la terre dans ses rapports avec la nature et avec l’histoire de l’homme). Traduit par : BuretPAQUES et Desor (Edward), édition : Paulin éditeur, Paris, 1935, pp20, 21, et26.

(Karakoro) الذي يعد الحد الفاصل بين منطقة النيجر الأعلى والسنغال ومنطقة موريتانيا[1]، أما من الضفة اليسرى للسنغال والى الشمال قليلا، فإنه يتلقى رافد فاليمي (Falémé)[2].

أما بخصوص تسميته بنهر السنغال فقد أطلقها عليه الأوربيون على اعتبار أن العرب كانوا يدعونه بالنيل السوداني، أو النيل الكبير، أما السودانيين أنفسهم فقد كانوا يدعونه بأسماء روافده، فكانت كل منطقة تسميه باسم الرافد الذي يمر بأرضها. أما من احتك بالماندي من التجار البربر فكانوا يدعونه باسم "بافنغ" نسبة إلى أحد أشهر روافده المارة ببلاد الماندينغ كما رأينا. أما "الجولوف" أو "الولوف"[3] فيطلقون عليه اسم "دنغه (DENGE) ويطلق عليه آخرون اسم سندك (Senedec)[4].وعندما اكتشف البرتغاليون نهر السنغال لأول مرة في عام 1450م أطلقوا عليه اسم سينا (Sena) أو ساناغا (Sanaga) نسبة إلى اسم أمير أسود أقام معه البرتغاليون علاقات معينة، ومنذ ذلك الوقت أصبح يسمى "سينغا" ثم تحول إلى "سنغال". وهناك رواية أخرى، وإن كانت تُرجع أصل هذه التسمية للبرتغاليين إلا أنها تختلف في مصدر اشتقاق الكلمة، حيث تذهب إلى أن البرتغاليين لما عرفوا نهر السنغال، وباعتباره يعد الحد الفاصل بين أرض البربر وأرض السودان، فإنهم لاحظوا بأن في ضفته اليمنى تسكنه قبيلة مسلمة تدعى أزناغا (Aznaga) والضفة اليسرى يسكنها السودان، فأطلقوا اسم أزناغا على الشعوب الساحلية للسودان الغربي، أما اسم السنغال فقد أصبح يطلق على كل المنطقة التي تحيط بهذا النهر[5].

---

(1) Delafosse (M) ,Op Cit, tome1, p64.
(2) Karl (Ritter),Op Cit, p26.
(3) وهم إحدى شعوب السنغال، معرفة أكثر عن هذا الشعب، أنظر المبحث الثاني من هذا الفصل
(4) Carett PAQUES , Op.Cit, p224
(5) Ibid, p224

وعموما فإن نهر السنغال لا تقتصر أهميته على كونه مصدر هام للماء والحياة، وما يوفره للمنطقة من سبل الرب والزراعة والرعي، أو عامل ازدهار التجارة عن طريق الملاحة النهرية فقط، وإنما تتعدى أهميته ذلك إذا ما علمنا بأنه يعد خزانا للمعدن الصفر بما تحتويه أراضيه من ذهب ذاع صيته في أطراف الدنيا، وشغل ملوك المشرق والمغرب خلال العصور الوسطى. كما كان هذا النهر قوام تلك الممالك والإمبراطوريات التي قامت على ضفافه على مر العصور، وخاصة في أرض ونقارة التي تحيط به روافد السنغال من كل جهة إلى درجة أن المصادر العربية وصفتها بالجزيرة(1). فهذه الجزيرة النهرية التي قدر الإدريسي طولها بـــ 300 ميل، والتي وصفها "ببلاد التبر المشهورة بالطيب والكثرة"(2)، كانت كلما فاض نهر السنغال خلال فصل الصيف وخطاها، ما إن ينحصر الماء مرة أخرى حتى يتدفق الناس إليها للبحث عن الذهب الذي يقطفونه كما يقطف الجزر ويبيعونه لكل دول المغرب ويضربون منه الدنانير الذهبية(3). كما يضم هذا النهر أيضا أكبر مناجم الذهب في السودان الغربي كله، وهي مناجم بامبوك و"غالام" و"بوري"، والتي ترددت حولها الكثير من الحكايات والأساطير(4).

3. المناخ:

ينقسم الإطار المناخي لمنطقة السنغال الأعلى والنيجر إلى قسمين، يفصلهما نهر السنغال ورافده كاراكورو الذي يعد كما ذكرنا الحد الفاصل بين بلاد السودان

---

(1) أنظر الإدريسي،المصدر السابق، ص39 ــ ابن الوردي،خريدة العجائب:ص42 ــ ابن الفقيه (أبو بكر أحمد بن محمد الهمذاني)، كتاب البلدان، طبع في ليدن بمطبعة بريل،1309هـــ ، ص87 .

(2) المصدر السابق، ص39.

(3)الإدريسي، نفس المصدر:ص39 ـــابن الوردي: المصدر السابق،ص42 ــ ابن الفقيه،المصدر السابق،ص87.

(4)حول هذه الأساطير أنظر: Cissé (Youssouf Tata) : WAKAMISSOKO. La grande geste du Mali, de origines à la fondation de l'empire Editions : Karthala,(Paris2007, p239.)

وموريتانيا. حيث يصبح لدينا في شمال السنغال وشمال غرب كاراكورو مناخا صحراويا أو ما يعرف بالمناخ الساحلي الذي يشمل الأراضي السودانية المتواجدة في الشواطئ الجنوبية للصحراء، أو ما يعرف تاريخيا بمنطقة موريتانيا. وإلى جنوب وشرق النهرين يوجد مناخا سودانيا محضا[1].

فبالنسبة للجزء الجنوبي أو السوداني، فإن المناخ السائد يتميز بأمطار كثيرة وغزيرة، ويدوم فصلها أكبر مدة، وهو ما يجعل مجاري مياه أنهارها أكثر انتظاما، وأكثر منسوبا، كما أن الرطوبة تكون مرتفعة حتى وإن قلت الأمطار في بعض الفصول، بينما الحرارة تكون مستقرة ومتشابهة بين سنة وأخرى. أما المدى الحراري اليومي والضغط الجوي فهما ضعيفان، كما أن أعاصير هذا الجزء فهي كثيرة وقوية، منها ما هو محمًل بالأمطار ومنها ما هو جاف وتتخلله الزوابع الرملية لكنها تبقى نادرة[2]. بينما في الجزء الشمالي أو الساحلي فيتميز المناخ بقصر مدة فصل الأمطار، وكمية الأمطار المتساقطة قليلة بحيث تصل إلى 0,25 مم سنويا، لهذا فالهواء يكون جافا وقليل الرطوبة، والحرارة تكون مرتفعة والمدى الحراري اليومي والسنوي يكونان كبيران، إذ تتراوح درجة الحرارة بين 10و 46 درجة، وفي شهر ديسمبر تهب رياح موسمية حارة وجافة تعرف "بالهرمطان" والتي تعمل بدورها على رفع درجة الحرارة أيضا[3]. ولقد تحدث الإدريسي عن حرارة وجفاف الجزء الساحلي من المنطقة، وخاصة على الضفاف الشمالية لنهر السنغال بقوله: ((وسائر الأراضي المجاورة للنيل صحاري خالية لا عمارة فيها، وهذه الصحاري بها مجابات بلا

---

(1) Gouvernement général de l’Afrique occidentale française : Le soudan. Société d’éditions géographiques maritimes et coloniales, (Paris, 1931, p14)

(2) Delafosse (M) ,OP.Cit, p90 - Dr Colomb : Op.Cit, p2.

(3) Gouvernement général de l’Afrique occidentale française , Op.Cit, p14. Delafosse , Op.Cit, p90

مياه، وذلك أن الماء لا يوجد فيها إلا بعد مسيرة يومين وأربعة وخمسة وستة واثني عشر يوما))[1].

وعموما فان منطقة السنغال الأعلى والنيجر تتعاقب عليها ثلاثة فصول أساسية في السنة، وهي نفسها في المنطقتين الساحلية والجنوبية السودانية، لكن تختلف فقط من حيث فترات وتواريخ بداية ونهاية كل فصل. ولكنها على العموم فهي موزعة عل الشكل التالي: من شهر نوفمبر إلى شهر فبراير يكون الطقس بارد وجاف، ويدوم فصل البرودة هذا حوالي ثلاثة أشهر في المنطقة السودانية، وتهب خلاله تلك الرياح الجافة القادمة من الصحراء المعروفة بالهرمطان، والتي تتسبب في اصفرار وتساقط أوراق الأشجار، وتسجل انخفاضات كبيرة لدرجة الحرارة في الليل، لذلك تسمى تلك الليالي بالليالي الباردة، أما ابتداء من شهر مارس إلى غاية شهر ماي فيكون الجو حار وجاف جدا، حيث نادرا ما تنخفض فيه درجة الحرارة عن 18°، فمدينة "بماكو" مثلا تصل فيها درجة الحرارة إلى 45 درجة، كما تسجل مدن سودانية أخرى مثل "كايس" و "سيغو" درجات أعلى، وترتفع درجة الحرارة أكثر كلما توجهنا من الجنوب نحو الشمال حتى إذا ما بلغنا المنطقة الصحراوية في الشمال فإنها تصبح غير محتملة. ومن حين لآخر تهب رياح ساخنة بقوة كبيرة متبوعة بزوابع رملية حمراء[2]. ربما هذه الرياح هي نفسها التي وصفها لنا الزهري، والتي سماها برياح السويداء، والتي تهب في الصحراء فتجفف الماء في الزقاق وتهلك جميع

---

(1) المصدر السابق، ص31.

(2) Gouvernement général de l'Afrique occidentale : Op.Cit, p14 - Delafosse (M) , Op Cit, p9

الحيوانات، والتي تقل كلما اتجهنا غربا واقتربنا من المحيط الأطلسي، أو توجهنا شرقا واقتربنا من نهر النيجر (1).

وابتداء من شهر جوان يبدأ فصل الأمطار، أو الشتاء(2) الذي يشهد هدوء طفيفا في تساقط المطار خلال شهر أوت. بينما في المناطق الساحلية الشمالية يبدأ هذا الفصل متأخرا وينتهي قبل شهر أكتوبر، حيث يبدأ بإعصارات ممطرة تجلبها الرياح الشرقية، وابتداء من شهر جويلية تعرف المنطقة أمطارا لفترات أطول مصحوبة عادة بزوابع عنيفة. أما في شهري سبتمبر وأكتوبر فان الأمطار تكون متقطعة لكنها تكون أكثر قوة وغزارة، كما يشهد هذا الفصل رطوبة خانقة جدا (3).

ولقد أثّر هذا المناخ المتنوع تأثيرا مباشرا على الحياة النباتية في منطقة الأعلى السنغال والنيجر، حيث ترتب عنه غطاء نباتيا متنوعا حسب الفصول، ففي فصل البرد والجفاف والحرارة تكون الأرض جرداء والحشائش تحرقها الزوابع والحرارة، وتختفي فيها أوراق الأشجار وتصفر، وتتناثر على الأرض وتتصلب القشرة الأرضية ويبدو المنظر موحشا. وبمجرد حلول فصل الأمطار حتى تنتعش الحياة من جديد، وتكتسي الأشجار حلة خضراء، وتنبت الحشائش ويخضرّ السطح مبديا لونا زاهيا، وتتفتح الأزهار، وتنتعش النباتات الاستوائية الكثيفة(4).

---

(1) الزهري(أبو بكر)، كتاب الجغرافية، حققه: محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، مصر، دون تاريخ، ص 126 .

(2) يختلف" الدكتور كولومب" مع دولافوس حول بداية هذا الفصل، حيث يذهب الأول إلى أن هذا الفصل يبدأ في شهر ماي، بينما يتفقان حول تاريخ نهايته التي يحددانها بشهر أكتوبر.

(3)Delafosse (M) ,Op.Cit, p93

أنظر أيضا: مارمول كرفجال،إفريقيا.ترجمة: محمد حجي، محمد زنيبر، محمد الأخضر، أحمد التوفيق، أحمد علون. مكتبة المعارف، 1404هـــ/1984م، الجزء الأول، ص 53.

(4)Dr Colomb ,Op.Cit, p3

لهذا يمكننا أن نقول بأن مناخ منطقة السنغال الأعلى النيجر وفي مجمله يعد من أجود المناخات في منطقة السودان الغربي كله، كما أن سطحها حسب شهادة حسن الوزان، يعد من أجمل ما يمكن أن تراه أعين رحالة زار معظم بقاع العالم مثله، حيث يقول بأن أجمل بلاد السودان هي تلك التي تمتد على طول نهر النيجر(1). وبالتالي فليس صدفة إذا كانت مدن الممالك والإمبراطوريات الأولى في السودان الغربي قد ظهرت أولا على سهول ضفاف نهري النيجر والسنغال وذلك بفضل الظروف الطبيعية الخاصة التي وفرها هذان النهران، والتي ساعدت على قيام الحضارات الإفريقية الأولى.كما شكّل هذان النهران عاملا استقطاب السكان من كل الأجناس، سواء كانوا بربرا أوموريين دفعتهم حرارة الصحراء وجفافها إلى الهجرة نحو هذين النهرين، أو كانوا سكان إفريقيا الاستوائية والغابات الذين دفعتهم الرطوبة الخانقة والأمراض الفتاكة، والوحوش الضارية إلى التقرب من ضفاف هذان النهران، وهو ما جعل منطقة النيجر الأعلى والسنغال تعج بخليط من الأجناس والشعوب.

ثانيا: الخصائص البشرية:

إن البحث في موضوع العنصر البشري لمنطقة السنغال الأعلى والنيجر يحتاج إلى كثير من التمحيص والجهد، وهذا نظرا للتنوع البشري للمنطقة بفعل الموجات المتعاقبة من الهجرات التي عرفتها المنطقة منذ أقدم العصور، فاختلط العنصر المحلي من الأهالي مع المهاجرين خاصة في المناطق العليا من نهر النيجر والسنغال التي تعد مناطق جاذبة للسكان بفضل ثرواتها الثمينة من ذهب وعبيد وعاج وغيرها التي جلبت التجار من كل حدب وصوب وأغرت الطامعين والمغامرين. بالإضافة إلى العامل التاريخي الهام والمتمثل في قيام

(1) حسن الوزان، المصدر السابق، ص38 .

أعرق الممالك والإمبراطوريات الإفريقية على ضفاف أنهارها. فاستقطبت عناصر من السودان الشرقي والأوسط واستوطنها التجار من المشرق والمغرب، وكوّنوا جاليات مختلفة أصبحت مع مرور الزمن عناصر سودانية اندمجت مع الأهالي.

لقد حاول الباحثون الأوربيون الذين اهتموا بشعوب المنطقة أن يتبعوا في دراساتهم منهجا يعتمد على التصنيف العرقي. فعندما قام الطبيب الفرنسي " كولومب" بدراسته لشعوب النيجر الأعلى صنفهم إلى ثلاثة أنواع رئيسية، حيث اتبع في تصنيفه الصفات الفزيولوجية كلون البشرة والشعر وشكل الوجه وغيرها. فقسّمهم إلى شعب الماندينغ ذوي البشرة السوداء، والشعر المجعد والمتصوف، والأنف المفتوح، والشفاه الغليظة، وطول القامة. ثم الفلاتة وهم ذوو البشرة الأقل سوادا وتميل إلى الحمرة، وشعر أملس، وقسمات الوجه الرقيقة. أما النوع الثالث فهم المور أو المغاربة ذوي البشرة البيضاء المائلة إلى السمرة، والقامة المتوسطة[1]. أما مواطنه "موريس دولافوس" فقد اتبع تصنيفا يعتمد على الانتماء العرقي لكل مجموعة، حيث قسّم المنطقة إلى أربعين قسما ينتمون إلى عنصرين أساسيين هما:العنصر الأسود والعنصر الأبيض، واللذان يتفرعان بدورهما إلى سبع عائلات عرقية، منها عائلتين من أصل أبيض وهما: الحاميون و الساميون، وخمس عائلات من أرومة سوداء وهم، التكرور، أو (التوكولور)، السنغاي، المندي، السونوفو، وسكان الفولتا.[2]

وإذا رجعنا إلى المصادر العربية وحتى السودانية، فنجدها تعتمد على نفس هذا التصنيف، حيث نجد كلمات مثل"بيضان" و "سودان" و"تكرور" متكررة وشائعة في مؤلفات الجغرافيين والرحالة العرب، وحتى المؤرخين السودانيين أمثال عبد الرحمن

(1)Dr Colomb , Op.Cit, p10

(2) Delafosse (M) ,Op.Cit, p113

السعدي، ومحمود كعت، وأحمد بابا التنبكتي، وغيرهم. لهذا رأينا أن نعتمد في هذه الدراسة على هذا التصنيف.

1.العنصر الأبيض:

وتسميهم المصادر العربية البيضان، وهم ينحدرون من فرعين أساسيين هما: الساميون، وهم أبنا سام بن نوح عليه السلام من عرب وسوريين، والعبرانيين الذين هاجروا إلى المنطقة عبر مراحل متفرقة من التاريخ. أما الحاميون فيمثلهم البربر[(1)] والموريون وهم من أبناء حام بن نوح عليه السلام. وعموما فان العنصر الأبيض على اختلاف نسبه إلى سام أو حام أبناء نوح، فهم يشكلون عدة مجموعات وهي:

أ. الصنهاجيون: وهم شعب صنهاجة اللثام من البربر الذين يسكنون القفار وراء الرمال الصحراوية بالجنوب، حيث أُبعدوا إلى تلك الأماكن منذ عصور ما قبل الفتح الإسلامي، وسكنوا بلاد البربر وأرض السودان، وقد اتخذوا اللثام شعارا تميزوا به عن غيرهم من الأمم، حيث تكاثروا وتعددت قبائلهم. وينقسمون إلى عدة فروع، ولعل أشهرها فرعان كبيران هما لمتونه وجدالة اللتان كانتا في صراع بينهما حول رياسة صنهاجة الصحراء[(2)]. وهناك من يطلق عليهم أيضا اسم الطوارق أو التوارق، نسبة إلى إحدى قبائل صنهاجة

(1) يذكر صاحب مفاخر البربر بأنه (لما تفرق أولاد نوح عليه السلام، أقبل البربر نحو المغرب الأقصى فقطنوه وتناسلوا، واتصلوا مع الأقباط من أرض مصر إلى المغرب الأقصى وجاوروا السودان مما يلي الصحراء). مجهول، مفاخر البربر.تحقيق: عبد القادر بوباية، دار أبي الرقراق للطباعة والنشر، الرباط، 2005، طبعة أولى، ص 195.

(2) ابن خلدون (عبد الرحمان)، كتاب العبر. تحقيق: خليل شحاتة ، مراجعة: سهيل زكار. دار الفكر، بيروت، لبنان، 1421هـ/2000م، المجلد السادس، ص 241.

وهي"تاركة"، حيث حرّفها المشارقة إلى طوارق[1]، ويسمون هم أنفسهم بإيماجورن" أو "إيماشورن" مفرده "ايمشار" [2].

وقد تشكل الطوارق الذين ينتمون إلى منطقة السنغال الأعلى والنيجر عبر عدة موجات كبيرة من الهجرة البربرية، وأضيف إليهم خليط من الفولاتة والسنغاي. وكانت أهم هذه الهجرات خاصة بقبائل لمطة، هوارة، مسوفة، سمغارة أو (كيل تادمكة)، جدالة، لمتونة، وأوليمدن[3]. وقد لعب الصنهاجيون دورا كبيرا في حوض السنغال الأعلى والنيجر من خلال حركة المرابطين التي سيأتي ذكرها لاحقا.

ب. الفلاتة: ويعرفون أيضا بـــ"الفولاني"،كما نجدهم في أحيان أخرى باسم "الفولوب"، وهم شعوب سامية جاءت من المشرق، لكننا نجد أن هناك اختلاف حول الأصل الذي ينتسبون إليه، فبينما ينسبهم غيرهم إلى الشعوب السورية والعبرية مع اختلاط مع بعض العناصر السودانية[4]، نجد الفلاتة ينسبون أنفسهم إلى العنصر العربي من القرشيين، حيث يذهب مؤرخوهم إلى أنهم ينحدرون من قبيلتي جهينة وتميم العربيتين اللتين هاجرتا من الجزيرة العربية في أول الأمر إلى الهند عقب فتنة بختنصر[5] ثم عادتا مرة أخرى إلى الجزيرة

---

(1) حسن الوزان،المصدر السابق، ص 150(الهامش).

(2) Gouvernement général de l’Afrique Française ,Op.Cit, p1.8

(3) Delafosse (M) ,Op.Cit, p 194

(4)Delafosse (M) ,Op.Cit,p114

(5) بختنصر بن نبولاصر هو أشهر ملوك الدولة البابلية العظام، حكم بين (605 و 563 ق م) قام بغزو بني إسرائيل بعدما دعا عليهم نبيهم "أرميا" الذي عصوه وانفضوا من حوله، وانتشرت فيهم المعاصي والمنكرات واستحلوا المحرمات، فسلط الله عليهم فتنة هذا الملك الجبار الذي غزا بلاد الشام وأرض العبرانيين، ودمر مملكة يهوذا، و خرب القدس، وسبى الكثيرين من بني إسرائيل في حملتين، فتفرقوا في الأرض.

العربية بعد انتهاء الفتنة حاملتين معهما الأبقار والأغنام، لكن نظرا لقلة المراعي في شبه الجزيرة العربية واصلت القبيلتان هجرتهما إلى إفريقيا حيث تتوفر المراعي. فسلكتا الطريق المؤدي إلى أرض ليبيا، ومنها إلى إفريقيا الغربية إلى أن وصلتا إلى أودغست بأرض غانة(1). وهناك نظريات أخرى تقول بأن الفلاتيين ظهروا نتيجة احتكاك الزنوج والحاميين بشعوب بيضاء منذ زمن بعيد، ومنها ما تنسبهم إلى الفرس النازحين من آسيا، ومنها ما تذهب إلى أنهم يهود (2).

ومهما يكن فإن الفلاتة هم قوم شبه بيض سنحتهم عربية، يحترفون رعي الأبقار، يعيشون في السودان الغربي منذ آلاف السنين، ويتمتعون بسرعة فائقة على الانصهار في المجتمعات التي يعيشون فيها (3) وينتشرون في إفريقيا الغربية ضمن أربع مجموعات أساسية هي:فلاتة منطقة مسينا، فلاتة منطقة غورما، فلاتة الساحل، وفلاتة فولتا(4).

2.العنصر الأسود:

حول هذا الموضوع انظر:ابن كثير(عماد الدين أبي الفدا إسماعيل) ،البداية والنهاية.مراجعة و تعليق :محمد تامر، شريف محمد، محمد عبد العظيم، محمد سعيد محمد.دار البيان العربي، القاهرة، مصر، 2006م، الجزء الأول، ص391 و ما يليها.

(1) الطيب عبد الرحيم محمد الفلاتي، الفلاتة في إفريقيا ومساهمتهم الإسلامية والتنموية. دار الكتاب الحديث، الكويت، طبعة أولى، 1415هـ /1994م، ص ص 16و17. ـ أنظر أيضا:الدمشقي (شمس الدين)، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر. طبعة ليبزيغ،1923 م، ص ص240و241.

(4) Delafosse (M) ,Op Cit, p114

(3) طيب عبد الرحيم محمد الفلاتي، المرجع السابق، ص 241 .

(4) باري (محمد فاضل) وكريدية (سعيد إبراهيم)، المسلمون في غرب إفريقيا، تاريخ وحضارة.دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،2007م،طبعة أولى، ص24.

وتسميهم المصادر العربية بالسودان، وإليهم تنسب بلاد السودان، كما يعرفون أيضا باسم الزنوج. ويمثلون الأغلبية الساحقة لسكان منطقة السنغال الأعلى والنيجر، وتعد هذه العناصر كثيرة العدد ومختلطة كثيرا فيما بينها (1). ويعد المؤرخ العربي المسعودي المتوفى سنة346هـ/957م أول من تحدث عن نسب الحامي للسودان، حيث يذكر بأن نوحا عليه السلام دعا على ابنه حام بتشويه الوجه وسواده وأن يكون ولده عبدا لولده سام، فهمّ بأن يقتل امرأته التي أنجبت له هذا الولد الأسود، فمنعه سام، وذكّره بدعاء أبيه عليه فغضب ونزع الشيطان بين الإخوة وحمل بعضهم على بعض، وكان آخر أمر حام أن هرب إلى مصر وتفرق بنوه، ومضى على وجهه يؤمُّ المغرب حتى انتهى إلى السوس الأقصى إلى موضع يعرف اليوم بأصيلا ــ وهو آخر مرسى تبلغه مراكب البحر من نحو الأندلس إلى ناحية القبلة ــ ويضيف بأن بنيه ندموا على تركه للمكان، فخرجوا على إثره يطلبونه في النواحي التي قصدها، فوجدته طوائف منهم فبقوا معه إلى أن مات، فقطنوا بذلك البلد وسكنوا به وهم أصناف السودان(2)، كما ينسبهم نفس المصدر في موضع آخر إلى أولاد نبيط بن كنعان، ويقول بأن النبيط هو السواد(3). ويضيف المسعودي بأن أبناء سودان بن كنعان يتفرعون إلى عدة أمم، وهم مختلفون في أفعالهم، ولهم ملوك ومنهم أجناس يلبسون الجلود وهم عراة، ومنهم من يتّزر بالحشيش، ومنهم قوم يعملون لرؤوسهم قرونا من عظام الدواب(4) . أما ابن خلدون فينسبهم إلى ولد

---

(1) Gouvernement général de l'Afrique Française , Op Cit, p23

(2) المسعودي(أبو الحسن علي بن الحسين)،أخبار الزمان ومن أباده الحدثان و عجائب البلدان الغامر بالماء والعمران.دار الأندلس للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، لبنان، 1416هـ/1996م، ص 86 .

(3) نفسه، ص 87 ــ وقيل بأنهم سموا نبيط لأنهم استنبطوا الأرض وعمروها، وكانوا أصحاب عمارة وتدبير (الدمشقي، نخبة الدهر. ص266) .

(4) المسعودي، المصدر السابق،ص87

حبش بن كوش بن حام، ويقسمهم إلى ثلاثة أقسام وهم: النوبيون، وهم أبناء نوبة بن كوش بن كنعان بن حام، الزنوج وهم أبناء زنجي بن كوش بن حام، أما القسم الثالث فهم سائر السودان الذين ينتمي إليهم سودان إفريقيا الغربية[(1)].

إن الشيء الملاحظ من روايتي المسعودي وابن خلدون أن السودان ينحدرون من ولد كوش بن كنعان بن حام، و أن كوش هو أول إنسان ذا بشرة سوداء من ذرية نوح عليه السلام. لذلك نرى بأن الكثير من المصادر العربية تسمي السودان بالكوشيين أيضا، كما نفهم أيضا من هاتين الروايتين بأن السودان ينقسمون إلى عدة جماعات تنتشر في مختلف أرجاء إفريقيا، ونستخلص أيضا بأن الموطن الأصلي للسودان عند هجرتهم الأولى إلى إفريقيا كان سواحل المغرب الأقصى، أي شمال الصحراء الكبرى. وهو ما أكدته بعض الدراسات الحديثة التي استمدت مصادرها من روايات القبائل الموريتانية في منطقة ترارزة، ومفادها أن الشعوب السوداء كانت تعيش شمال مواطنهم الحالية، وكانت تصل مضاربهم إلى غاية جبال الأطلس المغربية، وأن من دفعهم إلى مواقعهم الحالية في جنوب الصحراء هو قدوم شعوب عمالقة بيض من سوريا[(2)]، وخاضوا حروبا مع السودان ودفعوهم نحو الجنوب، وأن هذه الأحداث عمرها أكثر من ألفي سنة. ونلاحظ أيضا بأن نفس هذه الفرضية ترددها الروايات الشفوية لشعب السوننكي، إلا أنها تختلف معها في كونها ترجع سبب تلك الهجرات السودانية نحو الجنوب بسبب طبيعي وهو لجفاف الذي بدأ يحل بالصحراء الكبرى، والذي دفع الشعوب السودانية المزارعة إلى التوجه جنوبا نحو نهري

---

(1) العبر، الجزء السادس، ص264.

(2) ربما يقصدون بذلك العمالقة الهكسوس، وهم بدو رعاة طوال القامة، زحفوا خلال القرن 18 قبل الميلاد على مصر الفرعونية واحتلوها وأسسوا فيها الأسرة الفرعونية الثامنة عشر، ولكن بعد زوال حكمهم تفرقوا في الأرض. لكن المصادر التاريخية لم تذكر إن كانوا قد توجهوا نحو الغرب أم لا، ولكن لا توجد آثار لهياكلهم العملاقة في بلاد المغرب.ولا توجد أية إشارة كذلك تنفي وصولهم أرض المغرب.

السنغال والنيجر للبحث عن مصادر الري[1]. ومهما يكن فإن السودان يتفرعون إلى خمس عائلات عرقية منتشرة في منطقة السنغال الأعلى والنيجر وهي:

أ.التكرور:

ويعرفون بأسماء مختلفة منها التوكولور(Toucouleur) أو الساراكولي (Sarakhoulé)، ويعد هذا الشعب من أقدم الشعوب السودانية وأشهرها، إلى أن المشارقة وخاصة المصريين كانوا يطلقون اسم تكرور على كل بلاد السودان، وحتى في عهد أوج عظمة إمبراطورية مالي وشهرتها كانوا يخلطون بين هذه الدولة العظيمة ومملكة التكرور مما كان يغضب كثيرا ملك مالي "منسا موسى" ويصر على تصحيح هذا الأمر أمام الملوك المصريين، ويؤكد لهم بأن مملكة التكرور لم تكن سوى إقليم صغير من إمبراطورية مالي المترامية الأطراف[2].إن هذه الشهرة التي اكتسبها التكروريون ربما تعود إلى أسبقيتهم إلى اعتناق الإسلام من بين كافة شعوب السودان الأخرى، حيث اعتنق ملكهم "وارجابي" أو "وارديابي" الإسلام منذ أوائل القرن الخامس الهجري /11م، أي قبل غزو المرابطين لمملكة غانة الوثنية. فالمؤرخ الأندلسي أبي عبيد الله البكري يقول عن مدينة التكرور ((وأهلها سودان وكانوا على ما ساير السودان عليه من المجوسية وعبادة الدكاكير، والدكور عندهم الصنم، حتى وليهم وارجابي بن رابيس فأسلم وأقام عندهم شرائع الإسلام وحملهم عليها وحقق بصائرهم فيها، وتوفي ورجابي سنة اثنتين وثلاثين وأربع مائة، فأهل التكرور اليوم مسلمون))[3].

---

(1) Chavane (A.Bruno) , villages de l'Ancienne Tekrour.Editions Karthala, Paris, 1984, p29.

(2) العمري(أبن فضل الله)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار.تحقيق:حمزة أحمد عباس، المجمع الثقافي، أبو ضبي، الإمارات العربية المتحدة، 1423هـــ/2002م، الجزء الرابع، ص108.

(3) البكري(أبو عبيد الله)، المغرب فيذكر بلاد افريقية و المغرب. وهو جزء من الكتاب المعروف بالمسالك والممالك، طبعة دوسلان، ميزونوف، باريس،1963، ص172.

وبذلك يكون إسلام ملك التكرور عام 432 هجرية الموافق لسنة 1040 أو1041 للميلاد، وكان التكروريون أكثر شعوب السودان تفاعلا مع بربر صنهاجة المسلمين في الشمال، وليس أدلّ على ذلك تحالفهم مع أمير المرابطين يحي بن عمر ضد قبيلة جدالة عام 448هـــ /1057م، إذ انضم الأمير التكروري" لبي بن ورجابي" إلى جيش يحي بن عمر(1).

ويعد التكرور طائفة من طوائف السودان، اقترن اسمهم باسم البلد التي سكنوها وهي التكرور(2) حيث كانت مواطنهم التي ما زالوا يقطنونها إلى يومنا هذا وهي منطقة "فوتا السنغالية (Fouta Sénégalaise)، لكن موطنهم الأصلي الأول أي إلى غاية القرن السابع للهجرة/13م فهو ضفتي نهر السنغال، حيث يخبرنا ابن سعيد بأن قاعدتهم كانت ضفتي نهر السنغال، وهي المنطقة المسماة بالتكرور، وبها اكتسبوا هذا الاسم(3)، لكنه يشير أيضا بأن معظمهم يسكنون الضفة اليمنى لهذا النهر، أي الضفة الشمالية، أما بالنسبة للضفة الجنوبية فعددهم قليل، كما كانوا ينقسمون إلى قسمين وهما سكان المدن وأهل البوادي(4). لكن الأحداث التي عرفتها منطقة السنغال الأعلى والنيجر خلال القرن الخامس للهجرة/11م، من خلال زحف شعب السوننكي نحو الشرق، وزحف الولوف نحو الغرب جعل أراضي التكرور تتقلص(5).

(1)البكري، المصدر السابق، ص 168 .

(2) الدمشقي، المصدر السابق، ص 267.

(3) ابن سعيد(أبو الحسن المغربي)،المصدر السابق، ص 91. أنظر أيضا: أبو الفدا(عماد الدين إسماعيل): تقويم البلدان. طبعة دوسلان، باريس ، 1830م، ص153 .

(4)ابن سعيد، نفس المصدر، ص91.

(5) Delafosse (Maurice) , Haut Sénégal _ Niger. Les peuples, les langues, l'histoire, les civilisations.Emile larose libraire, Paris ; 1912, tome2, pp235, 236.

أما من حيث النسب، فبالرغم من أن معظم المصادر العربية تميل إلى أنهم حاميون كبقية السودان ويعود أصلهم إلى أبناء كوش بن حام[1]، فان ابن سعيد يرى بأنهم ينتسبون إلى قبيلة مغراوة البربرية[2]. ويدعمه الدمشقي في ذلك فيقول ((وكلهم يرجعون إلى مغراوة وسفارة))[3]. ونحن بدورنا نرى بأن هذه الفرضية ممكنة على اعتبار الإحتكاك الطويل بين التكرورين والشعوب البربرية الذي أدى إلى اختلاط الدم التكروري بنظيره البربري، حتى أضحى التكروريون شعوبا سوداء مختلطين بالدم الأبيض[4]. لهذا نجد بأن ياقوت الحموي عندما وصفهم في معجمه لم يذكرهم على أساس أنهم سودان خالصين وإنما قال عنهم بأنهم أشبه الناس بالزنوج[5]. وبهذا يمكن أن نقول بأن شعب التكرور يمكن أن يكون قد تكوَّن من اختلاط الفلاتة و الموريين و الولوف والماندينغ، لكن تبقى صفاتهم السودانية الزنجية واضحة جدا[6].

ب.السنغاي:

إن مصطلح سنغاي لم يطلق في بداية الأمر على الشعب وإنما على البلد الذي يسكنه هذا الشعب، وهي المناطق المجاورة لنهر النيجر عند ثنيته، أو ما يعرف بالنيجر الوسط، وهي المنطقة الانتقالية بين عالم الماندينغ والسودان الأوسط. فالسونغاي يعيشون على طول

---

(1) محمد حسن(نبيلة)، في تاريخ الحضارة الإسلامية. دار المعرفة الجامعية،مصر،د ت،ص234.
(2) المصدر السابق، ص 91.
(3) الدمشقي، المصدر السابق، ص267
(4) Delafosse (Maurice) ,Les noirs de l’Afrique. Editions Payot, Paris, 1941, p17.
(7) الحموي(شهاب الدين ياقوت)، معجم البلدان.مطبعة السعادة ، مصر، 1323هـ/1906م، المجلد الثاني، حرف التاء ، ص 399.

(6) Gouvernement général de l’Afrique Française , Op Cit, p23

ثنية النيجر في منطقة البحيرات ومنطقة تمبكتو إلى غاية جاو، ويمتدون إلى غاية النيجر الأسفل في منطقة ساي(1)**.** ويتألف هذا الشعب من فرعين أساسيين هما**: "زرما"** أو **"جرما"** والذين يقيمون في جنوب منطقة جاو في ضواحي ساي (Say)، ويشملون مدنا هامة مثل نياني (Nianey)، دوزو(Doso) وتيلابري (Tilabri)**.** أما الفرع الآخر فهو **"دندي"**، وهو في النيجر الأوسط بالقرب من ساي(2)، وقد عرف هذا الشعب بعدة أسماء منها "سوناي بوري (Sonay bor'ey) ، أو "سونوي تي (Sonoy tye)، وقد استعمل هذا الاسم لأول مرة من طرف محمود كعت للدلالة على الشعب وعلى البلد معا(3)**.** ونشير هنا إلى أن هذه الأسماء تعطى عادة لعائلات ملوكهم ثم يحتفظ بها الأحفاد فيما بعد، حيث نجد أن اسم "سونوي تي (Sonoy tye) مثلا هو لقب أعطي لأحفاد "سن علي" من السنغاي(4)، بينما نجد أن لقب دندي أعطي لأحفاد أحد ملوك سونغاي آخر،

---

(1) نبيلة حسن محمود،المرجع السابق، ص 239.
Trimingham(Spencer) ,Islam in wes Africa. Oxford - university press oxford, Newyork, 1962, p84

(2) نبيلة حسن محمود،المرجع السابق، ص238

(3) Mahmoud (Kati) , Tarikh el fettach. Traduction Française par : O.Hodas et M.Delafosse, éditions ,Ernest Leroux. Paris, 1913, p81.

(4) Trimingham(S) ,Op.Cit, p84

=ويعد سن علي أحد ملوك إمبراطورية سنغاي، وفد تولى الحكم سنة 869هـ/ 1464م، بعدما هرب من البلاط الملكي المالي أين كان أسيرا و لقب نفسه ب"شي كولن" أو"سن علي" التي تعني خليفة السلطان، وبذلك أعلن عن استقلال مملكة سونغاي عن سيطرة مالي، و قام بالاستيلاء على تنبكتو وجني ، لذلك يمكن القول بأنه المؤسس الحقيقي لإمبراطورية سنغاي.حول هذا الموضوع أنظر: **شعباني(نور الدين):**علاقات ممالك السودان الغربي بدول المغرب الإسلامي وآثارها الحضارية.رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط. جامعة الجزائر، السنة الجامعية:1426ـ1427هـ/2005ـ2006م، ص22.

وهو "سن سليمان داما" أو "شن سليمان داما"، الذي كان يلقب بدندي وهو الذي ينتسب إليه السنغاي الذين يسكنون مدينة أرحام(1).

ويعد شعب سنغاي شعبا غير متجانس مثله مثل بقية الشعوب السودانية الأخرى، رغم أن المؤرخين القدماء كانوا يعتقدون لفترات طويلة بأنه شعب سوداني خالص. لكن الأبحاث التاريخية الحديثة بيَّنت بأنهم زنوجا لكنهم اختلطوا مع العناصر البربرية، من ساميين (عبرانيين) وفلاتة وموريين(2)،كما اختلطوا أيضا مع الشعوب السودانية الأخرى من إثنيات متباينة، حيث ارتبطوا بعلاقات مصاهرة مع غورمانشي موسي (Gourmanchi-mossi)، ومع بعض الصيادين من أدغال إفريقيا المعروفين بغو (Gow)، بالإضافة إلى ارتباطهم المحتمل بالسوركو(Sorko) وهم صيادو الأسماك الذين يكونوا قد هاجروا من الشرق من منطقة التشاد(3).

ج.الماندينغ:

ويطلق عليهم أيضا اسم "ماندي"، و"ماندينكا"، ويشكل الماندينغ القسم الأساسي لشعوب المجرى الأعلى لثلاثة أكبر الأنهار في إفريقيا الغربية وهي السنغال، غمبيا والنيجر. كما أنهم ينتشرون في كل منطقة السودان الغربي، وفي جنوب السنغال، وفي النيجر الأعلى انطلاقا من سواحل المحيط الأطلسي إلى غاية جمهورية نيجريا الحالية(4). وإذا ما أردنا تحديد مجالات شعب الماندينغ جغرافيا فإننا نقول بأنه يحدها من الغرب مرتفعات فوتا

---

(1) Mahmoud (Kati) :Op.Cit, p81.
(2) Delafosse, Haut S- N, tome1 p238.
(3) Trimingham (Spencer),Op Cit, p81.
(4) Sik (andre) , Histoire de l'Afrique noire Budapest. , (Hongrie, 1962 ,2eme édition, tome 1, p48.)

جالون، ومن الجنوب تحدها غابات جنوب غينيا، ومن الشرق والشمال تحدها غابات السفانا السودانية[1].

لكننا نجد أن هذه الحدود غير دقيقة لأنها تعتمد على الغطاء النباتي، وهو كما رأينا متنوع في منطقة السنغال الأعلى والنيجر، حيث يمكن أن نمر من غطاء نباتي لآخر دون أن نشعر في كثير من الأحيان. وعموما فإننا يمكن أن نكون أكثر دقة عندما نحدد بلاد الماندينغ بالاعتماد على رأي سكان البلاد من المالنكي الذين يرددون مقولة مشهورة عندهم وهي: ((حينما يتوقف "**صو**" تتوقف بلاد ماندينغ))[2]، ويقصدون بذلك أن شجيرات صو هذه هي الحدود الطبيعية والجغرافية للماندينغ من جهة الجنوب أو في غينيا العليا، حيث أن الروايات التاريخية الشفوية المحلية تقول بأن سوندياتا كايتا عندما غزا بلاد ماندينغ خلال القرن السابع الهجري/13م، قد حمل أسلحته في كل الاتجاهات إلى غاية المناطق المحدودة بشجيرات"صو"[3].

ويتميز شعب ماندينغ ببشرة سوداء وشعر منكوش متصوف وأنف مفرطح وشفاه عريضة وفك بارز، بينما يتميز الجزء العلوي من أجسادهم بالطول[4]. فهم يمثلون إذن العنصر السوداني الخالص. وينقسم شعب الماندينغ أو الماندي إلى ثلاث جماعات فرعية هي:

1.ماندينغ الشمال:

ويعرفون بماندي تان (Mandi-tan)[1] ويمثله شعبا "البوزو" و"السوننكي". **فالبوزو** يمثلون لدى ماندينغ الشمال طبقة صيادي السمك والملاحين، ويقطنون أساسا في بحيرة

---

(1) Niane (Temsir djibril) , Mise en place des populations de la haute guinée. In Revue éthiopique, (N°02, Avril, 1960, p40).

(**2**) Niane (Temsir djibril) , Mise en place des populations de la haute guinée, pp40, 41,42

(3) Ibid, pp 40 et 53.

(4) Dr Collomb ,OP Cit, p6

ديبو (Débo) وذراع نهر النيجر المسمى دياغا(Diagha أو (Diaga) أو دياكا (Diaka) إذ لم يغادروا هذه المنطقة، واعتبروا أنفسهم مالكي أرضها ومياهها، وقد اختلط البوزو في عصور غابرة مع عائلات أخرى مثل عائلة "سوركو" من سنغاي وعائلة "باناما"، وهو ما أدى إلى تغيير في لغتهم ولهجتهم الأصلية[2].

أما **السوننكي**، فيعرفون أيضا بالسراكولي[3] أو الماركا، ويذهب دولافوس إلى أن موطنهم الأصلي كان في دياغا أو "مسينا" لكنهم اتجهوا إلى الشمال الغربي أين أسسوا مستوطنات زراعية هناك، بينما بقي جزء منهم مستقر في دياغا[4].لكن مواطنه أبل هوفيلاك(Abel hovelaque) فيقول بأن كل السراكولي أصلهم من بلاد غالام(Galam) على نهر السنغال، أو من كانياغا (Kaniaga) الواقعة في ضفة إحدى الفروع الغربية لنهر النيجر[5].

ومهما يكن فان هذا الاختلاف يؤكد بأن السراكولي قدموا من الجنوب، ذلك أنه خلال أواخر القرن السابع الميلادي، ولأسباب مجهولة قام عدد كبير منهم بالهجرة إلى غاية منطقة

---

(1) Niane (D T), Mise en place des populations de la haute Guinée p53.

(2) Delafosse , Haut S-N, p253

ويقول عنهم دولافوس (نفس المكان) بأنهم اعتنقوا الإسلام خلال القرن الثمن للهجرة/14م، وهو نفس تاريخ اعتناق أهل جني للإسلام.لكن السعدي يذكر بأن أهل جني أسلموا عند تمام القرن السادس (6هـ/12م)، والسلطان كنبر هو الذي أسلم وأسلم أهلها بإسلامه.(السعدي (عبد الرحمان)، تاريخ السودان، طبعة هوداس، المطبعة الامريكية والشرقية ، ميزونوف (باريس 1981، ص12)

(4) حسب دولافوس(les noirs de l'Afrique, p43) فإن كلمة سارا كولي (Sarakolé) تعني الرجل الأبيض وذلك بسبب اختلاطهم بالشعوب البيضاء.

(4)Delafosse ,Haut S- N, tome 1, pp255, 256

(5) Abel (Holvelaque), Les nègres de l'Afrique sous équatoriale. Lecrosrier et Babé librairie éditeurs, Paris, 1889, p157.

كينغي (Kingui) في الشمال، ثم في حوالي عام 750م، ترك أغلب هؤلاء المهاجرين كينغي وعادوا إلى منطقة أوكار أو "واغادو" أين أسسوا أول دولة للسوننكي، وهي مملكة "واغادو" أو"غانة"[1]. وقد تحدثت الروايات الشفوية للسوننكي كثيرا عن هذه الهجرة، حيث يقولون بأنها كانت بسبب الحروب وهروبا من بطش الأعداء، ورغم أنهم لم يذكروا من هم هؤلاء الأعداء، إلا أنهم يشيرون إلى أن السوننكي استقروا بعد ذلك في منطقة الوسط أو مايعرف بـــ"ماندن القديم"[2]. حيث تفوقوا في بلاد ماندن الأوسط، واختلطوا مع أجناس أخرى من البربر والفلاتة، وشكلوا مجموعة عرفت بالوانغارا (Wangara) أو"ونجراتة" أو "واكوري" [3].

ويعد الونغارة عنصرا أساسيا في شعب السوننكي، حيث لعبوا دورا أساسيا في تاريخ غانة. ولقد كان الونغارة مجموعة سوداء وصلت إلى بلاد مندن الأوسط في وقت غير معروف، وانضمت إلى شعب مالي الذي كان تحت سيطرة إمبراطورية غانة واندمجوا معه، لكنهم بقوا يحتفظون بهويتهم، حيث ميزهم المؤرخ السوداني محمود كعت عن المالنكي فقال: ((إن المالنكي هو الجندي و ونكر من يتاجر ويسعى من أفق إلى أفق[4]. ولقد كان الونغارة في بداية أمرهم عبيدا لملوك غانة [5] ولكن بفضل دورهم التجاري وتفوقهم على

---

(1) Delafosse (M) ,Op Cit, p256.

(2) سولومانا كونتي،مذكرة تاريخ ماندن القديم و الحديث

In Revue électronique (Copyright) , Edité par : N'ko institute, N°C, année1999-2000, P6 et7 .Site électronique : http : //www.kanjamadi.com. Consulté le: 04-01-2008

(3)نجدهم عند البكري باسم جنجارة ومفردها جنجاري. المصدر السابق، ص163.ـــ وكلمة وانغارا تعني في اللغات الإفريقية الأرض التي تكون فيها الشمس منخفضة ، و تغمرها دائما الشمس.

Revue encyclopédique ,par une réunion de membre de l'institut, édite par : Sédillot, librairie,(Paris, octobre-décembre 1829,tome44,p16).

(4) Mahmoud (Kati) ,Op Cit, p65

(5) Trimingham(S),Op Cit, p48

على المالنكي تمكنوا من الحصول على امتياز يمنحهم الحق في ممارسة تجارة الذهب المسحوق المعروف بالتبر(1). فجعلوا من أودغست التي استقروا بها محطة تجارية عظمى،كما لعبت بعض العائلات منهم مثل: فوفانا، تيميتي، باكايوكو، سيسي وحيدرة دورا كبيرا في نشر الدين والدعوة الإسلاميتين في المراكز التجارية، وهو ما منحهم مكانة كبيرة لدي ملوك غانة(2). وعموما فإن الونغارة هم فرع من فروع السوننكي انتشرت في عدة مناطق من بلاد ماندينغ، كهضاب الماندينغ العليا، وحوض غمبيا في الجنوب، كما يجدون أيضا في الشمال في المناطق الصحراوية الغربية(3).

ومن فروع السوننكي أيضا نجد الديولا (Dioula) أو " الجيولا"، وينحدرون من سلالة السوننكي ولكنهم انفصلوا عنهم قبل أن يختلطوا مع شعوب الساحل من ساميين وموريين، وهو ما جعلهم يحتفظون بنمطهم الماندي الأصيل، فلغتهم تختلف عن المالنكي وعن كثير من لغات جيرانهم الماندي. ويؤكد الديولا أنفسهم هذه الأصالة من خلال قولهم بأن كلمة ديولا (Dioula) تعني عمق السلالة المندية(4).

إن الشيء الذي لاحظته عند دراستي لهذا الشعب هو ذلك الخلط الذي وقع فيه كثير من المؤرخين بالنسبة للمالنكي والديولا، فمنهم من يقول بأنهما شعب واحد ويختلفان في الاسم فقط، ومنهم من يجعلهما شعبين مختلفين بحيث يتفرعان من ماندينغ الوسط.لكن

---

(1) حسن محمد نبيلة،المرجع السابق، ص109 ـــ ونشير إلى أن ملوك غانة كانوا يستحوذون على معدن الذهب ويتركون للرعية الذهب المسحوق المعروف بالتبر حتى لا يفقد الذهب قيمته (البكري:المصدر =السابق، ص177). ويضيف البكري (نفسه، ص 87) ومن يرسني يجلب السودان العجم المعروفين بنونغمراته وهم تجار التبر إلى البلاد.

(2) Adreas (W.Massing), The wangara, and old diaspora in West Africa. In revue : Cahier d'études Africaines, N°02, volume 40, année : 2000, pp de 281 au 308.

(3)حسن محمد نبيلة، المرجع السابق، ص237.

(4) Delafosse (M) , H S-N, tome1, p280

يبدو أن ديولا أو"جولا" هم عبارة عن مجموعة من العشائر المجتمعة في شكل قرى، والتي تنتمي إلى شعب المالنكي،كما أنهم تمركزوا على شكل جاليات صغيرة في المراكز التجارية الهامة و نقاط عبور القوافل التجارية التي تخرج من مالي باتجاه مناجم الذهب في "بامبوك" و"غالام"أو باتجاه الغابات الاستوائية[1]. ذلك لأن ديولا يمتهنون التجارة المتجولة حيث أن كلمة ديولا في لغة المانكي تعني تاجرا[2].

وقد اعتنق الديولا الإسلام في وقت مبكر، واتخذوا نظاما عشائريا[3]، وعندما بلغت الإمبراطورية المالية أوجّ قوتها خلال القرن السادس للهجرة/13م، اتخذ الديولا منها قاعدة تجارية سمحت لهم بالتعامل مع العالم العربي الإسلامي، كما كسبوا مودة الملوك الأفارقة حيث أقاموا معهم علاقات جيدة سمحت لهم بممارسة نشاطهم كمفاوضين تجاريين[4]. ويشير موريس دولافوس إلى انه من الصعب تحديد الوقت أو الظروف التي ظهر فيها الماندي لأول مرة في الأرض التي يقطنونها الآن تحت اسم ديولا، ويذكر بأن مختلف الأهالي في مناطق كونغ (Kong)، غميني(Guimini) وغيامبالا(guiambala) أو ديامالا (Dyamala) قد أخبروه بأنهم يجهلون تاريخ استقرارهم في هذه المناطق، كما أن الرواية الشفوية الأكثر شهرة في المنطقة تقول بأنهم قدموا من الغرب، وتذهب إلى أنه منذ عدة قرون كان الديولا يأتون إلى منطقة كونغ من أجل ممارسة التجارة، وشيئا فشيئا وجدوا البلد مناسبا لهم فاستقرت بعض العائلات منهم، ونشرت من حولها تقاليدها ونمط لبسها

---

(1) Millet (Eric) et Maunaud (Jean Luc) , Mali.ditions Olizane, Genève, Suisse, 2ème édition, 2007, p90.

(2) جبريل(تمسير نياني)، مالي والتوسع الثاني للماندينغ. ضمن كتاب: تاريخ إفريقيا العام، صادر عن منظمة اليونسكو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، 1988م، المجلد الرابع، ص129.

(3) يمكن أن نعرف العشيرة على أنها مجموعة عائلات منبثقة من جد واحد، أوهي مجموعة أحفاد لسلف مشترك يعيشون في أماكن متفرقة. وكان الماندينغ يطلقون على العشيرة اسم"لوا ودو" .

(4) Millet (Eric) et Jean (Luc) ,Op Cit, p90.

وديانتها التي كانت الديانة الإسلامية. وقد نمت هذه المستوطنات الجديدة بفضل وصول مستوطنات مندية أخرى جديدة، وخاصة عندما تزوّجوا مع نساء القبائل المحلية مثل بوبو(Bobo)، كبارهالا (Kparhala)، أكني (Agni) وخاصة السينوفو (Senoufo)، ومن خلال زواج هؤلاء الماندي مع نسوة من عناصر عرقية مختلفة ظهرت قبيلة ديولا[1]. فهي إذن لا تمثل العنصر المحلي الخالص كما يدعيه الديولا أنفسهم، ويمكن أن نقول أيضا بأن الديولا الخالصين (الأقحاح) عددهم قليل جدا مقارنة بشعوب البلاد التي يسكنونها، لكنهم يتميزون بذكاء أكبر عموما من السكان الأصليين، كما يتميزون بعقلية متفتحة أكثر وأكثر ثقافة خاصة بعد اعتناقهم الإسلام[2].

ويتميز الديولا الأصليون بعدم وضع الوشم على أجسادهم عكس أولئك الذين ولدوا من زواج مختلط بين ديولا وسينوفو، والذين يدعون بسورونغي(Sorongui) فقد كانوا يوشمون خدودهم[3]. ويقطن الديولا مراكز هامة شرق باني وفي فولتا العليا وفي غينيا العليا[4]، ويعتبرون من كبار الرحالة التجار حيث يتفوقون في ذلك على جيرانهم الونغارا إلى درجة أصبح فيها اسم ديولا مرادفا لتاجر. ويتمركز الديولا في المدن الهامة ضمن جاليات مجتمعة وسط السكان المحليين من المزارعين الوثنيين، وهو ما مكنهم من التضامن أكثر فيما بينهم وإقامة مجتمعات قائمة على أساس ديني وتجاري، وهذا ما زاد في

---

(1) Delafosse (Maurice) ,Essai manuel de la langue Mandé ou Mandingue. Ernest Leroux éditeur, Paris, 1901, pp3, 4
(2) Ibid, p4
(3) Loc Cit.

(4) أنظر الخريطة رقم5 ضمن الملاحق.

قوتهم ودرجة تأثيرهم على السكان الذين يعيشون بينهم(1). وقد كانت جماعات ديولا تجوب السودان الغربي، وتسيطر على تجارة الذهب بفضل تميزهم بالصدق والأمانة والثقة، وسيطروا أيضا على تجارة نبات الكولا الذي كان يعد نباتا مقدسا لا يجوز لغيرهم تجارته(2). وكان هذا الامتياز قد تحصلوا عليه من ملوك مالي نظرا لعلاقتهم الوطيدة بهم، بالإضافة إلى أخلاقهم وأمانتهم(3) وفي المقابل كانوا يحصلون على النسيج والمصنوعات الزجاجية والجلود المدبوغة والملح. كما كانوا بالموازاة مع نشاطهم التجاري يشكلون دعاة ماهرين للإسلام في المناطق التي يدخلونها، وخاصة المناطق الجنوبية الغابية(4).

2. ماندينغ الوسط: ويتفرعون إلى أربع مجموعات هي:

أ.كاغورو(Kagoro):

---

(1) حسن محمد نبيلة، المرجع السابق، ص 238. و تجدر الإشارة إلى أنه لا يجب أن نخلط بين ديولا التي نحن بصدد الكلام عنها وهي قبيلة ماندية مع الديولا آكلي لحوم البشر، والذين يسكنون أعالي نهر كفالي، ولا مع ديولا أو "يولا" الذين يسكنون كازامانس، ولا مع تجار القوافل في السنغال الأعلى، والذين تلقبوا بديولا وهم ليسوا مانديين بل أن أغلبهم من السراكولي، كما نجد أيضا أن هناك من يطلق اسم "بمبارا" على الديولا الموجودين في كونغ وهذا خطا.حول هذا الموضوع أنظر: Delafosse(M) ,Essai manuel,p5 et 6

(3) Camara (Mamadou) , Parlons Malinké .Editions l'harmattan(Paris, 1999, p11.)
(4) Ibid,p11.
(5) Ibid, p12

ويعد الموطن الأصلي لهم هو باغانا (Bagana)[1] و ربما هذا الإقليم هو الذي ذكره الإدريسي باسم بغامة بقوله: ((وأهل بغامة سودان برابر قد أحرقت الشمس جلودهم وغيرت ألوانهم، ولسانهم لسان البربر، وهم قوم رحالة وشربهم من عيون يحفرونها في تلك الأرض عن علم لهم بها وتجربة في ذلك صحيحة))[2]. وكانوا ينتشرون في منطقة تمتد إلى غاية غرب وجنوب غرب "دياغا"، بحيث يشكلون الحد الفاصل بين المواطن الأصلية للسوننكي والمالنكي، لهذا فقد شهدت أرضهم صراعات طويلة ودامية بين الصوصو والمالنكي،كما تعرضوا للاحتلال من طرف شعب"البمبارا" لهذا نجد بأن معظم الكاغورو الأصليين قد ذابوا في شعوب السوننكي والبمبارا والمالنكي، ويتكلمون لهجة تميل بشكل واضح للغة السوننكي[3].

ب.البامانا أو"البمبارا":

إن كلمة **"بمبارا"**هي تحريف لكلمة **"بامانا"** وهي التسمية الأصلية لهذا الشعب، والتي تعني الصخرة ذات النتوءات الحادة، والأوربيين هم الذين أطلقوا على هذا الشعب اسم بمبارا[4]، وهو نفس الاسم الذي نجده عند عبد الرحمان السعدي في تاريخ السودان، حيث كان المسلمون يطلقون على السودان غير المسلمين.

---

(1) يعد إقليم بغانا الإقليم لذي وجدت فيه عاصمة غانة"كومبي صالح" التي كانت تسمى عند السوننكي "واغادوغو"، أما الماندينكا فكانوا يطلقون عليها اسم"باغانا" Trimingham(S) ,Op Cit, pp48 et 49.

(2) الإدريسي، المصدر السابق، ص43.

(3)Delafosse (M) : Haut S – N, tome 1, p282

(4) Pâques (Viviana) : Les Bambara Éditions l’Harmattan, (Paris, 2005, p17).

- L’épopée Bambara de Ségou, Recueillie et traduite par :Lyliane Kesteloot, avec= la collaboration d’Amadou Traoré et Jean –Baptiste Traoré, édition orizons, Paris, 2010 , p8.

أما الموطن الأصلي للبمبارا فهو منطقة نهر النيجر عند خطوط طول 8 و 10 درجات غرب خط غرينتش، أي يمتد من الضفة اليمنى للنيجر الأعلى وبالضبط من مرتفعات سيغيري (Siguiri) إلى غاية الضفة اليسرى من أعالي منطقة باغبي (Bagbé)[1] التي تبدأ منها أراضي شعب السينوفو، وبهذا فان موطنهم يضم أيضا نهر باولي (Baoulé) و إقليم واسولو(Ouassoulo) من الجنوب، وقد تمتد مجالات بمبارا إلى غاية المجرى الأسفل لنهر السنغال، وبذلك فإن أراضيهم تشكل مثلثا قاعدته إلى الشمال وزاويته إلى الجنوب. ويعد البمبارا سودانا مولدين، رغم أن بعضهم يمثل النوع السوداني الحقيقي، بينما البعض الآخر يتميز ببشرة أقل سمرة، أما شعرهم فهو أقل تصوفا من غيرهم من الزنوج، وتكسو ذقونهم لحية كثيفة، ولهم قامة متوسطة عموما لكنهم أقوياء جدا، وتبقى قبيلة كورباريس (Kourbaris) تمثل النموذج البمباري الحقيقي الذي لم يختلط بأقوام أخرى[2].

ومن صفات البمبارا قلة تحضرهم وميلهم إلى التوحش، وهذا بسبب انعزالهم وعدم تعاملهم مع الأجانب، بالإضافة إلى قوة بأسهم وشدتهم التي جعلت منهم أقواما محاربين فيما بينهم على الدوام كما يتعاطون النهب والفتك والسرقة، ويتحارب البمبارا بالنبال التي يتقنها رجالهم ونساؤهم على حد سواء[3]. أما لغتهم فهي قريبة من لهجات كل من الديولا والخاسونكي والمالنكي، التي تنتمي إلى اللغة المندية، لكنها تختلف كثيرا عن لغات الصوصو والسوننكي وبدرجة أكثر لغة الفلاتة[4].

ج.الخاسونكي:

(1) وهي منطقة تقع جنوب غرب جمهورية غينيا الحالية وتنتمي إلى إقليم كيسيدوغو (Kissidougou)

(2) Abel (Hovelaque) ,Op.Cit, p160 - Paques (Viviana) :Op.Cit, p5

(3) مارمول (كربخال)،المصدر السابق، ص52

(4) Pâques (Viviana),Op.Cit, p14.

وهم من شعوب السودان الغربي، حيث يعدون خليطا من الشعوب المورية والمندية، ويتمركزون في المناطق التي تفصل بين جيرانهم الكاغورو وسكان الحوض (الصحراء)[1]. ولقد ظهر هذا الشعب لأول مرة مع نهاية القرن الخامس للهجرة/11ميلادي على الضفاف الشمالية لنهر السنغال في الوقت الذي كان فيه المالنكي يتمركزون في الضفة الجنوبية له، ولقد كان ظهورهم نتيجة امتزاج عدة فروع من الفلاتة مع الزنوج من السكان المحليين في منطقة السنغال الأعلى وهم الكاغورو، أو نتيجة اختلاط العنصر السوداني مع المور[2]. وحسب الروايات المحلية فان ظهور الخاسونكي (khassounké) أو الكاسونكي (Kassounké) كان نتيجة زواج راعي فلاتي يدعى أمادو حاوا (Amadou haoua) من امرأة من الباناما أو(البمبارا) تابعة لأسرة كان أمادو هذا يرعى لها بالغنم[3]. لهذا ونتيجة هذا الاختلاط فان عدد كبير من الخاسونكي ورغم صفاتهم الزنجية المتمثلة في شعرهم السوداني المتصوف فإنهم أخذوا صفات الفلاتة والمور، حيث أن بشرتهم ليست سوداء وإنما نحاسية[4].

د. المالنكي أو الماندي[5]:

---

(1) Muhammad Zyhdi Yakan, Al manac of African peoples and nations. Editions: Transaction book, New Jersey, (united stats of America, 1995, p405)

(2)Abel (Hovelaque) ,Op Cit, p154

(3) Delafosse (M) , Haut S – N ; tome 1 ; p290.
وبما أنه خلال القرن الخامس للهجرة/11م لم يكن الباناما قد وصلوا بعد إلى منطقة "كايس"، فموريس دولافوس (نفس المكان) يعتقد بأن الرواية أخطأت عندما ذكرت بأن المرأة كانت تنتمي إلى البامانا، بل يرى بأنها ربما كانت تنتمي إلى الكاغورو.

(4) Abel (Hovelaque) ,Op Cit, p154.

(5) يذهب بعض المؤرخين إلى أن الكلمة مشتقة من "ماري"أو"مالي" وتعني فرس النهر، ويرى آخرون أن الكلمة مكونة من قسمين هما: ما:و تعني أم و دنك(دنغ): و تعني ابن Delafosse: H S –N, tome1, p291

يعد هذا الشعب أكثر شعوب الماندينغ شهرة على الإطلاق إلى درجة اقترن فيها مصطلح ماندينغ بالمالنكي في كثير من الحيان، بل أن معظم المراجع التاريخية أصبحت تذكر مصطلح ماندينغ عندما تتحدث عن المالنكي، رغم أن المالنكي ما هم إلا فرع من فروع المالندينغ الكثيرة وهم سكان مالي[1]. وعلى العموم فإن مصطلح مالنكي كان يطلقه الفلاتة والسراكولي على الماندينغ الذين يسكنون منطقة "بامبوك" ثم أنتشر بعد ذلك[2].

وتعد بلاد ماندينغ القديم هي نفسها الأرض التي شكلت الموطن التمهيدي للمالنكي، وهو ما زاد في ارتباط اسم الأرض بشعب المالنكي أيضا[3]. أما مواطن المالنكي فهي الأرض التي تضم حوض باخوي، وكل المقاطعة الموجودة بين باخوي الأعلى والنيجر جنوب مدينة كيتا وشمال غرب بماكو الحاليتين[4]. أما موطنهم الأول فكان في كانغابا (Kangaba) وهي قرية موجودة على بعد قليل من الضفة اليسرى لنهر النيجر قبالة بماكو[5] . لكن المالنكي لم يستقروا في موطنهم القديم هذا، وإنما انتشروا بعد ذلك (خاصة منذ بداية القرن السابع للهجرة/ 13 ميلادي) فيعدة مناطق مثل بوري (Bouré) سنغران (Sangaran) وغنغران (Gangaran)، أين أصبحوا يشكلون أغلبية سكان تلك الإمارات والمستوطنات التي أسسوها على الضفة اليمنى لنهر النيجر، وكذا في شمال فوتا

---

(1)David Conrad ET Djanka Tassey: Sondjata: a West African epic of the Mande peoples, published by: Hachette publishing, Andianpolis, U SA 2004, p15.
(2) Abel (Hovelaque) ,Op Cit, p136
(3) Niane (Temsir djibril), Mise en place des populations de la haute guinée. In revue Ethiopique.N°02- Avril-1960, PP de 40 au 50.
(4)Delafosse,(M), Op Cit, p291
(5) Ibid,p291

جالون والبامبوك ومنطقة كيتا، بالإضافة إلى المنطقة الممتدة بين باماكو وسيغو الحاليتين(1)

ولكن بداية من حوالي عام 1230ميلادي/627 هجري، وهو تاريخ ظهور "سوندياتا كيتا" على مسرح الأحداث، بدأت هجرات المالنكي تتراجع وشكلوا من كانغابا مستقرا لهم، ونقطة الانطلاق لإمبراطورية حقيقية. ولكن هذه المرة سيكون توسعهم بشكل منظم، وذا طابع استعماري استيطاني اقتضته متطلبات بناء الإمبراطورية المالنكية، حيث وصلوا إلى مناطق بعيدة عن موطنهم الأصلي مثل توبا(Touba) ومانكونو (Mankono) في جمهورية كوت ديفوار الحالية، وإلى محور "سيغيري ـــ دينغيراي (Dinguiray ـــ Siguiri) في جمهورية غينيا الحالية، بالإضافة إلى نهري السنغال وغامبيا(2). وأصبحوا يشكلون هناك مجموعة متجانسة من السكان فيما يعرف اليوم بجمهوريات غينيا وغامبيا، كما أصبحوا يشكلون أقليات معتبرة في جنوب جمهورية السنغال وشمال غرب كوت ديفوار الحاليتين، بينما يتجمعون في شكل جالية كبيرة في جنوب شرق وجنوب غرب جمهورية مالي الحالية وخاصة في منطقة كايس(3). وقد عرف المالنكي خلال العصور الوسطى بكونهم شعبا محاربا وفاتحا، بالإضافة إلى كونهم تجارا كبارا(4). وعندما ذكر المؤرخ السوداني "محمودكعت" المالنكي ركز على صفة الفروسية والحرب التي يبدو أنها كانت خصلة تميزهم عن الونغارا، فهو يقول بأنك إذا سألت عن الفرق بين مالنكي و

---

(1) Delafosse,(M) Op Cit, p291

(2) Ibid,p291

(3) Cuello (Gabriel) et Robin (Loïc), Les Malinké de Kodugo. Publié par : L'harmattan éditions,Paris, 2005, p9

(4) Sory (Camara) , Gens de parole , Essai sur la condition et le rôle des griots dans la société Malinké. Editions Karthala, Paris, 1992, p17.

الونغارا فاعلم بأن الونغارا والمالنكي هم من أصل واحد، لكن المالنكي تطلق على المحاربين بينما الونغارا تطلق على أولئك الذين يمارسون التجارة المتنقلة من بلد إلى بلد(1).

ويعد المالنكي أحد أكثر شعوب السودان الغربي شهرة لأنهم ارتبطوا بالملحمة التي صنعها أحد أبنائهم وهو سوندياتا كيتا الذي بنا إمبراطورية واسعة وأوصل اسم وصوت وثقافة المالنكي إلى خارج إطار مندن القديم، ووصل بهم إلى غاية الصحراء الكبرى شمالا، وإلى المحيط الأطلسي غربا، وإلى غابات السفانا جنوبا(2). بل أكثر من ذلك، فإن كلمة مالنكي ما هي في الحقيقة إلا لفظ بلغة الفلاتة ويقصد به شعب إمبراطورية مالي القديمة، بينما المالنكيون أنفسهم يفضلون أن يطلق عليهم اسم مانينكا (Maninka)(3)، كما أن لغتهم المالنكي تعد واحدة من أكثر لغات إفريقيا الغربية انتشارا في الأوساط المندية، وتعد أقدم اللغات وأكثرها حفاظا على أصالتها وعدم اختلاطها بلغات أخرى والأكثر تداولا في المنطقة، ومن الخصائص التي سهلت انتشاها، اتخاذها مخارج الحروف بأشكال مختلفة وهو ما جعل الكلمة الواحدة فيها تدل على معاني عديدة، بالإضافة إلى تميزها بطابع نغمي موسيقي جذاب(4). بحيث تصفها الروايات الشفوية المحلية بأنها لغة واضحة، أما اللسانيين في العصر الحديث فإنهم يؤكدون بأنها أكثر اللغات سهولة للتعلم بفضل بساطتها، وعلاقاتها باللغات الأخرى للسودان الغربي، وبذلك تبنتها الشعوب الأخرى بسرعة، وهو

---

(1) Kati (Mahmoud) ,Op.Cit, p65

(2) Onyeka (Nwanunobi), Malinké,The Rosen publishing group, I N C,(New York, US A, 1996, p9.)

(3) يوجد ثلاثة أسماء تطلق على المالنكي الذين يعيشون قرب نهر النيجر الأعلى وهي :مالنكي ، ماندينكا ومانينكا، بينما يوجد هناك عدد كبير من المجموعات المالنكية الأخرى وتسمى المندي :

Onyka , Op.Cit p10

(4) Ibid , p12 - Delafosse (Maurice), Essai de manuel pratique de la langue Mandingue,p222.

ما جعلها تعد من العوامل التي ساهمت في توحيد شعوب إمبراطورية مالي منذ القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد، وإلى غاية أواخر القرن التاسع للهجرة/15م[1].

هــ ـ السينوفو:

ويعد شعب السينوفو شعبا أصيلا في المنطقة سواء في النيجر الأعلى أو في السنغال أو حتى في كوت ديفوار الحالية، حيث تجمع الروايات الشفوية على أنهم السكان القدماء لتلك الأرض، كما تروي هذه الروايات بأن السينوفو كانوا في الأصل صيادي الفيلة وكانوا يسكنون إمارة ماسيغي (Massigui) في محور بوغوني (Bougouni) الحالية[2]، ثم تم إبعادهم من هناك بسبب غزو البامانا (البمبارا)، حيث انتقلوا إلى أراض أخرى للصيد. فمنهم من توجه إلى سيكاسو، والآخرون اتجهوا نحو شمال كوت ديفوار الحالية والباقون اختلطوا واندمجوا مع البامانا[3]. ورغم ذلك فان السينوفو بقوا محافظين على صفاتهم الأصلية، و لم يعد يربطهم بالبامانا سوى اسم بمبارا الذي يطلقه عليهم المسلمون أو اسم بامانا الذي يطلقونه هم على أنفسهم[4].

إن شعب الماندي يعتبر السينوفو قوم همج وآكلي لحوم البشر، لذلك يمكن أن نعتقد بأن السينوفو ربما يكونوا هم أنفسهم أولئك الذين ذكرتهم المصادر العربية وهم سكان الجنوب المعروفين باللّملم أو (الدمدم) أو (الدمادم)، والذين وصفتهم بأنهم كفار مهملون يأكلون لحوم البشر، ولا يكادون يفقهون قولا، وأنهم أشبه بالحيوان[5].لكن يبدو

---

(1) Onyeka (Nwanunobi),Op Cit, p 12.

(2) بوغوني Bougouni، مدينة في جمهورية مالي الحالية و تعد مركز منطقة "سيكاسو Sikasso" الواقعة على بعد 170كلم جنوب شرق بماكو عاصمة مالي.

(3) Delafosse (Maurice), H S-N, T1, p300

(4) bid,p301.

(5) الدمشقي(شمس الدين الأنصاري)،نخبة الدهر في عجائب البر و البحر. طبعة ليبزيغ Libzig ، 1923، ص 240 ، ابن سعيد:كتاب الجغرافيا، ص91.

أن هذه الصفات مبالغ فيها بالنسبة للسينوفو خاصة إذا ما علمنا بأن أغلب المصادر العربية نقلت معلوماتها عن تجار وفقهاء ودعاة ونبلاء المندي والديولا الذين كانوا ينظرون إلى الشعوب الجنوبية الكافرة نظرة استعلاء واحتقار. لكن يبدو حسب دولافوس بأن شعب اللملم الذي ذكرته المصادر العربية هو جزء من شعب سينوفو وليسوا كلهم متوحشون، حيث أن هؤلاء اللملم يضمون خليطا من شعوب متوحشة وبدائية، ويشترك معهم في هذه الصفة حتى أجداد الجالونكي، والبومانا الحاليون،وأجداد الكاغورو أيضا(1).

و. سكان الفولتا:

ويضمون سبع مجموعات هي: مجموعة الموسي (Mossi) أو (الموشي)(2)،اللوبي (Lobé)،كولونغو(Kolango)،باريبا(Bariba)وغورونسي (Gourounsi). بالإضافة إلى شعوب أخرى يسكن جزء منهم في السودان الغربي مثل التومبو(Tombo) والبوبو (Bobo)، والذين نجد عندهم الكثير من الصفات المشابهة للسينوفو، وخاصة صفة الإرتباط بالأرض والمهارات الزراعية والصناعية، ونزعتهم الرهيبة نحو الاستقلال والحرية(3). وعلى كل فإن سكان الفولتا يعدون أقدم سكان منطقة السنغال الأعلى والنيجر، شأنهم في ذلك شأن السينوفو، وينتشرون في كل المنطقة المنتمية إلى حوض فولتا الممتدة من مرتفعات

---

(1) Delafosse (M) ,Op Cit, p302

(2) ويعد الموسي أهم هذه المجموعات، حيث تنتمي إلى عائلة الفولتا الكبرى، وينتشرون اليوم في فولتا العليا ويوجدون بعدد قليل السودان. و لم يتأثر هذا الشعب بالديانة الإسلامية، وليس لهم أجداد من أصول بيضاء، وقد أسسوا خلال تاريخهم ثلاث دول امتازت بنظامها السياسي والإداري المحكم. ويعد الموسي شعبا مزارعا ومن الرعاة، ثم تحولوا إلى تجار بعد ذلك .وكانت مملكة الموسي قد غزت إمبراطوريات عظيمة مثل مالي وسنغاي خلال أوج قوّتهما، كما قامت بنهب تمبكتو عام 733هـ/ 1333م، وهجموا على مسينا وخربوها عام890 هـــ/ 1486م .

Gouvernement Général de l'Afrique occidentale Française, Le soudan.p25 =

(3) Gouvernement Général de l'Afrique occidentale Française, Op Cit, pp25, 26.

هومبوري (Hombori)[1] في الشمال إلى غاية المناطق القريبة من الغابات الاستوائية في الجنوب[2]. لكن الشيء الملاحظ هو أن شعوب الفولتا لم تحافظ كلها على نفس مضاربها، وإن كانت بعضها لم تغير مكان إقامتها، فإن البعض الآخر غيّر إقامته الأصلية، ومنهم من اختلط مع المهاجرين القادمين من كل الاتجاهات، والتي فرضت سيطرتها على الشعوب القديمة في المنطقة و شكلت مجموعات سياسية مختلفة، منها تأسيس أول إمارة للموسي من طرف المهاجرين الغزاة القادمين من شمال واغادو(غانة) وهم عائلات كل من داغومبا،مامبورسي وناكومسي. ومنها أيضا مملكة غولمانس (Gulmance) التي أسسها مجموعة من المهاجرين الوافدين من شرق نهر النيجر، المعروفون بالمبا(Bemba) أو بوريسمبا (Bouricimba)[3].

المبحث الثاني

الأوضاع السياسية لمنطقة السنغال والنيجر العلويين

خلال القرن الخامس للهجرة/11ميلادي

يشكل القرن الخامس للهجرة/11ميلادي قرن التحولات بالنسبة لمنطقة السنغال الأعلى والنيجر، وذلك نتيجة بداية العد التنازلي لإمبراطورية غانة التي سيطرت لمدة قرنين

---

(1) هي سلسلة جبلية صخرية متواجدة في منطقة "موبتي Mopti" المالية قرب قرية "هومبوري" على بعد 100كلم من مدينة "دوانتزا Douentza " الحالية، ويبلغ ارتفاعها 1155متر، وتعد قمة " توندو Tondo " أعلى قمة في مالي.

(2) Delafosse (M) : H S-N, T1, p302

(3) Madiega (Georges Yenouyaba) : Chronologie succincte de l'histoire du Burkina Faso (Ex Haute- volta). In site électronique: http://www.histoire-afrique.org/rubrique3.html. Consulté le : 28-09-2007.

من الزمن على كل أحداث المنطقة، كما عرفت المنطقة خلال هذا القرن انتشار الدين الإسلامي سواء عن طريق حركة المرابطين أو نشاط الدعاة من التجار الفقهاء، فقد غيّر هذا الدين الجديد أوضاع منطقة السنغال الأعلى والنيجر، وأدخلها إلى التاريخ من بابه الواسع. فكانت تلك الحركية غير المسبوقة التي عرفتها المنطقة كفيلة بأن تخلق وضعا سياسيا جديدا طغت أحداثه على العصور الوسطى للسودان الغربي بأكمله،كما ساهمت تلك الأوضاع السياسية في ظهور الحدث الأعظم في تاريخ المنطقة ألا وهو ظهور مملكة مالي الإسلامية، لهذا كان جليّ بنا أن نستعرض تلك الأحداث، ونحللها ونبرز دورها في ظهور مملكة المندي.

1. تراجع إمبراطورية غا وظهور حركة المرابطين:

إن أقدم كيان سياسي بشكله المنظم والمتطور عرفته المنطقة المحصورة بين النيجر والسنغال العلويين هو مملكة غانة أو ما كان يعرف بغناته(1)، والأكيد أن غانة القديمة التي نحن بصدد الكلام عنها ليست لها أي علاقة بجمهورية غانة الحالية، فهذه المملكة الموغلة في القدم يحمل تاريخ نشأتها الكثير من الغموض الذي نرجعه إلى غياب المصادر المكتوبة حول هذه الحقبة، لكن إذا اعتمدنا على الروايات الشفوية ودعمناها بمصادر علماء تمبكتو، فإننا نقول بأن هذه المملكة كانت موجودة خلال القرن الثالث للميلاد، بل وكانت تضم تحت سيطرتها عدة مستعمرات بين السنغال والنيجر العلويين، منها بلاد ماندن وتكرور(2).

(1) Barth (Henri) : Voyages et découvertes Dans l’Afrique septentrionale et centrale, pendant les années 1819 à1855. Traduit par : Paul Ithier, édité par : Bohne librairie,(Paris, 1861, 8 et 9).
(2) Tidiane (N’diaye) , La longue marche des peuples noirs. Editions Publibook, (Paris, France, 2007, p25) - Delafosse (Maurice) : Les noirs de l’Afrique. p40

ورغم أن هناك من يذهب إلى أن تاريخ المملكة يبدأ من القرون الأولى للميلاد[1]، إلا أننا نقول بأن هذه المملكة لم تكن موجودة قبل القرن الثاني الميلاد على اعتبار أن محمود كعت يذكر بأن هذه المملكة عرفت عشرين ملكا قبل ظهور الرسول صلى الله عليه وسلم[2]. ولقد عرفت هذه المملكة عند المصادر الشفوية للسوننكي باسم "مملكة واغادو (Wagadou)[3] نسبة إلى أحدى العشائر السوننكية التي حكمتها بعدما سيطرت على الأرض وطردت القبائل البيض واستلمت زمام الأمور[4]، والتي اتخذت مدينة أوكار عاصمة لها[5]، كما عرفت في المصادر العربية باسم غانة أو أرض الذهب.

أنظر أيضا: باري (محمد فاضل علي) وكريدية(سعيد إبراهيم): المسلمون في غرب إفريقيا، تاريخ وحضارة. دار الكتب العلمية، بيروت، 2007، ص60. ولكن نشير إلى أن هذه الدراسات اعتمدت في ذلك على تاريخ بداية الهجرات من السكان البيض القادمين من شمال إفريقيا واختلاطهم بقبائل السوننكي الذين شكلوا مزيجا من البربر والسوننكي، وكونوا فيما بعد مملكة غانة.

(1) Delafosse ,Haut Senegal-Niger,t2,p22

(2) محود كعت،تاريخ الفتاش في أخبار البلدان و الجيوش وأكابر الناس. طبعة هوداس ودولافوس، المكتبة الأمريكية والشرقية، باريس،1964،ص41.

(3) واغادو تعني بلاد القطعان .Tidiane(N’diaye) :Op.Cit, p27.

(4) جوان جوزيف: الإسلام في ممالك وإمبراطوريات إفريقيا السوداء. ترجمة: مختار السويفي، دار الكتاب المصري (القاهرة) ودار الكتاب اللبناني (بيروت)، الطبعة الأولى، 1404هـ/ 1984م،ص48.

(5) الدمشقي،المصدر السابق، ص240. ـــ و تعرف عند المؤرخين الأوربيين بكومبي، و يذكر الأستاذ "ريمون موني (Raymond Mauny) بأنها هي نفسها "كومبي صالح" الموريتانية.

وقد اشتهرت مملكة غانة ابتداء من الثامن للميلاد/ الثاني للهجرة، وهي الفترة التي سيطر فيها السوننكي على الحكم[1] أزهى عصورها وأوجّ تطوّرها، فأصبحت إمبراطورية واسعة تمتد من أرض التكرور جنوبا إلى حدود الصحراء شمالا، ومن أرض الصوصو شرقا إلى سيلا (Silla) وغوديارو(Goudiarou) غربا [2]. أي أنها أصبحت تسيطر على الأقل على المناطق التي تنحصر بين نهري السنغال والنيجر[3]، وأصبحت من العظمة ما جعلها تتخذ عاصمتين منفصلتين واحدة للوثنيين وأخرى للمسلمين[4]. وقد ساهمت في قوتها وازدهارها مجموعة من العوامل تأتي في مقدمتها ثراء باطن أرضها .بمعدن الذهب، إلى درجة جعلت المصادر العربية تصدق بأن الذهب بأرض غانة إنما ينبت في الرمل كمال ينبت الجزر[5]. فقد أكسبها هذا المعدن شهرة عظيمة حتى أن ملكها كان يدعى ملك الذهب، وأرضها تدعى أرض الذهب، بالإضافة إلى عامل آخر حيوي وهو موقعها كمحطة للقوافل التجارية القادمة من مصر والقيروان والمغرب، والقوافل القادمة من الجنوب من أعالي نهري السنغال والنيجر، وهو ما جعل من عاصمتها الإسلامية كومبي صالح مركزا تجاريا هاما، بالإضافة إلى عدد آخر من الأسواق والمحطات التجارية مثل مدينتي ولاّته و أودغست[6]. وكانت تلك التجارة النشيطة ذات مردود اقتصادي مزدوج، فهي تساهم في تدفق السلع وحركة رؤوس الأموال داخل البلاد من جهة،كما

---

(1) حول تاريخ سيطرة السوننكي على الحكم في واغادو (غانة)، و الروايات الشفوية المتعلقة بها أنظر:
Delafosse(Maurice) :Haut Senegal-Niger,tome1,pp de 256 à262
(2)Trimingham(Spencer) ,Op.Cit, p19
(3) Christian (Girier) , Parlons Soninké. Publié par : L'harmattan, Paris, 1996, p25.

(4) البكري، المصدر السابق،ص175.
(3)الهمذاني (أبوبكر أحمد بن محمد) المعروف بابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان. طبعة ليدن، 1302 هـــ، ص42.
(6) جوان جوزيف، المرجع السابق،ص57.

تساهم أيضا في إثراء خزينة الدولة من خلال الضرائب التي كانت تفرض كرسوم على القوافل التجارية العابرة لأراضيها، والقادمة إليها من بلاد المغرب والمشرق الإسلاميين[(1)]. وقد أضاف ملوك غانة من السوننكي عاملا آخرا دعموا به ملكهم، وفرضوا به سيطرتهم على شعوب النيجر والسنغال العلويين وهو انفرادهم بصناعة الأسلحة الحديدية في وقت كانت فيه القبائل الأخرى تصنع أسلحتها الحربية من فروع خشب الأبنوس الأسود الثقيل[(2)]. وبهذا كان الغانيون أو السوننكي أسياد منطقة النيجر والسنغال بدون منازع أو منافس على مدار أكثر من ثلاثة قرون، لكن مع بداية القرن الخامس الهجري بدأ العد التنازلي لهذه الإمبراطورية التي بدأت علامات التراجع تظهر عليها لتترك المجال لشعوب وأمم أخرى لتأخذ بزمام صناعة تاريخ المنطقة. فما هي أسباب تراجع إمبراطورية غانة، ومظاهره؟ وما هو مصير منطقة السودان الغربي في ظل هذا الوضع الجديد؟

عندما يتطرق المؤرخون الأوربيون إلى موضوع ضعف غانة وسقوطها، فإنهم يربطون الموضوع دائما بظهور حركة المرابطين وغزوهم للإمبراطورية ونهبها. وبالتالي فهم يكادون يجمعون على أن سبب ضعف غانة وتراجع دورها في المنطقة وسقوطها إنما يعود لغزو المرابطين لها. لكن الأمر بالنسبة لنا لا يبدو بهذا المنطق، ذلك أن تاريخ الدول وقوتها وضعفها وسقوطها إنما تتحكم فيها عوامل عديدة، وتكون النتيجة النهائية هي خلاصة تراكمات من القوة أو الضعف. بل أن الأمر بالنسبة لموضوع سقوط غانة يبدو لنا معاكسا لما ذهب إليه الباحثون الأوربيون، أي أن المرابطين لم يقوموا بحركتهم التوسعية نحو الجنوب في الأراضي الغانية إلا عندما رأوا بأن هذه المملكة قد فقدت هيبتها السابقة،

---

(1) دونالد (ويدنر)،تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء. ترجمة : راشد البداوي، مكتبة الوعي العربي، دار الجيل للطباعة، الفجالة، دون تاريخ،ص40.

(2) جوان جوزيف، المرجع السابق، ص49.

وبأسها المشهود، وهو المنطق الذي يقول بأنه لا تستعمر دولة إلا إذا كانت لديها القابلية للاستعمار حسب المفكر الجزائري مالك بن نبي[1]، ولا تتلاشى إلا إذا فقدت العصبية التي صنعت قوتها حسب ابن خلدون[2].

وهناك عدة قرائن تجعلنا لا نحمل الغزو المرابطي وزر سقوط مملكة غانة، أو بالأحرى تجعل من هذا الغزو مجرّد عامل من بين تراكم عدة ظروف وأسباب ساهمت كلها في إنهاء ملحمة السوننكي. فيوجد العامل الطبيعي الذي تحدثت عنه المصادر الشفوية كثيرا، والمتمثل في الجفاف الذي ضرب "واغادو" وتصحّرت بسببه البلاد، حيث تنتشر في بلاد مندي أسطورة مشهورة ما زال يرددها الرواة إلى اليوم، وتعرف بأسطورة جاباو (Jabaw)[3]. وحتى وإن كان يكتنف هذه الأسطورة الكثير من الخيال الأدبي الذي جادت به مخيلات الرواة السوننكي، ورغم ما تحمله من خرافات يصعب تصديقها أو بناء عليها حقائق تاريخية، إلا أن ما يهمّنا في هذه القصة هو حدوث الجفاف الذي يبدو أنه حقيقة تاريخية وليست من وحي الخيال، وهذا انطلاقا من معرفتنا لمناخ المنطقة، خاصة إذا ما علمنا بأن موقع عاصمة غانة القديمة التي هي مدينة كومبي، يقع في الصحراء

(1) مالك بن نبي، شروط النهضة.ترجمة عبد الصبور شاهين.بإشراف ندوة مالك بن نبي،دار الفكر،دمشق، سوريا،1406هـ/1986م،ص 152 و ما يليها.

(2) المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،1993م، ص 238

(3) ومفاد هذه الأسطورة أن سبب انهيار إمبراطورية غانة هو موت الإله واغادو بيدا (Wagadou bida)، على يد أحد فرسان كومبي يدعى" أمادو" أو "أحمدو" الذي رفض أن تقدم خطيبته قربانا لهذا الثعبان فقتله وأنقذ خطيبته من ذلك المصير المحتوم أجدبت الأرض، وانتشرت المجاعة في كامل البلاد. حول اسطورة الجاباو أنظر:

Kagoro (Doumbé) ,causes de la dispersion de ougadou .In Journal Le Ségovien. Edition spéciale, publiée le :24-09-2007 sur le site web :www.soninkara.com.

Mackissac (Patricia et Fredrick), The royal kingdom of Ghana and Songhay. Published by: Macmilan Publisher,Octobre 1995,p6.

جوان جوزيف، المرجع السابق، ص60.

الموريتانية[1]. كما أن شهادة البكري في كلامه عن ملل أو مالي عندما كانت تابعة لإمبراطورية غانة، وخاصة في عهد الملك الذي لقبه بالمسلماني، تشير إلى تعرضها لجفاف حيث يقول: ((قد أجدبت الأرض عام بعد عام جعلتهم يستسقون بقرابينهم من البقر حتى كادوا يفنونها، ولكن ذلك لم يزدهم إلا قحطا وشقاء))[2].كما أن المؤرخ الفرنسي، وصاحب موسوعة في تاريخ السودان الغربي، وهو "موريس دولافوس" يؤكد حدوث الجفاف، ويقول بأنه دام سبع سنوات متتالية، وأنه كان سببا في افتراق وتفكك السوننكي، وذلك للبحث عن أراض خصبة، وعن عشب لأغنامهم رغم أنه لم يطلعنا عن مصادره التي استقى منا معلوماته[3].

وبهذا يمكن أن نقول بأن الجفاف الذي حل بواغادو(غانة) هو حقيقة تاريخية، لكننا نجهل أسبابه الحقيقية البعيدة عن التفسير الأسطوري الخرافي الذي تذكره الروايات الشفوية والذي تلخصه في مقتل الإله الثعبان، أو الديني الذي يسوقه البكري ويرجعه إلى عدم إيمان السوننكي بالله الواحد. وهناك من يرجع هذا الجفاف إلى سبب بيئي يتمثل في الاستغلال المفرط للموارد الغابية.[4] فعامل الجفاف إذن يعد من بين أهم العوامل التي ساهمت في تفرق شمل السوننكي، وأفول إمبراطوريتهم، بل يعتبر عند كثير من الباحثين بالعامل الأكثر تأثيرا على الإمبراطورية الغانية، على اعتبار أن الجفاف والجوع والعطش هي من أهم أسباب فناء البشر[5].

---

(1) Cornevin (Robert et Mariane) , Histoire de l'Afrique, des origines la deuxième guerre mondiale. 4ème édition, petite bibliothèque payot, Paris, 1964, p135.

(2) المصدر السابق، ص 178.

(3) Delafosse (M), H S-N, tome 1, p262.

(4)Ibid, p262.

(5) انظر: نبيلة (حسن محمد)، المرجع السابق، ص194.

ولقد تدعّم هذا العامل الطبيعي بعوامل أخرى ذات طابع سياسي، وهي في الحقيقة عبارة عن نتائج للعامل الأول. فلقد كانت تجاور مملكة السوننكي في الشمال قبائل بربرية صحراوية تعرف بقبائل صنهاجة، وهي قبائل كثيرة العدد تنقسم إلى سبعين قبيلة منتشرة في بلاد البربر وبلاد السودان[1]، وكانوا في صراع دائم مع ملوك غانة، وكان من أشهر قبائل صنهاجة اللثام لمتونة وجدالة ومسوفة، حيث قام بين هذه القبائل الثلاثة حلفا بزعامة لمتونة[2]، وتزعمه القائد اللمتوني تيولوتان بن تكلان الذي ملك بلاد الصحراء بأسرها[3]، لذلك يكون هذا الملك الصنهاجي قد استغل الوهن والضعف الذي أصاب السوننكي وتفرقهم نتيجة الجفاف، ليوجه حملته التوسعية جنوبا رافعا راية الجهاد ونشر الإسلام في السودان، على اعتبار أن ملوك السوننكي كانوا كفارا. فاستطاع الحلف الصنهاجي بزعامة لمتونة أن يفرض سيطرته على عشرين إمارة سودانية من الإمارات الغانية التي أصبحت تؤدي لها الجزية، وعلى رأسها مدينة " أودغست"الغانية، والتي ضمها إليه سنة 350هـ/ 961م [4]. فانفصلت بذلك مدينة أودغست عن مملكة غانة وأصبحت مملكة مستقلة بذاتها يحكمها أمير صنهاجي.

إن أودغست بالنسبة لغانة لم تكن مجرد مدينة أو إمارة، وإنما كانت مركزا تجاريا هاما، وتتحكم في طريق التجارة بين السودان الغربي والمغرب الإسلامي، بالإضافة إلى

---

(1) ابن أبي زرع(أبو الحسن علي الفاسي)، الأنيس المطرب القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس. طبع وتصحيح وتحقيق:كارل يوحنا نورنبورغ. طبع في دار الطباعة المدرسية، أوبسالة ، 1823م ص ص 75و76 .

(2) دندش(عصمت عبد اللطيف)، دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا بين 430 و 515هــ /1038 و 1121م، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان،1408 م/1988م، ص 52.

(3) ابن أبي زرع، المصدر السابق ، ص76 ـــ البكري، المصدر السابق، ص159 (ونجد هذا القائد اللمتوني عند البكري (نفس المكان) باسم"تين بروتان").

(4) البكري، المصدر السابق، ص159.

كونها مركزا ثقافيا يعج بالحركة العلمية والثقافية، ومقرا لأصحاب الأموال والتجار، وبمثابة بورصة لتجارة الذهب المسحوق التبر[1]. أي أنها مركز ثقل كبير بالنسبة لغانة، لهذا فان فقدانها شكّل نكسة كبيرة للإمبراطورية السوننكية وخسارة عظمى وأزمة سياسية واقتصادية تزامنت مع موجة القحط والجفاف. ويضاف إلى هذا كله أن ملوك غانة عرفوا خلال الفترة الممتدة بين القرنين الرابع والخامس الهجريين/10و11م، صراعات مريرة أنهكت كاهل الدولة، وأجهدت جيشها، سواء مع الحلف الصنهاجي البربري في الشمال أو مع الإمارات والعشائر السودانية في الجنوب. إذ واجهت غانة الخطر اللمتوني منذ أن تزعمت قبيلتهم الحلف الصنهاجي الذي قاد حملات توسعية باتجاه أرض غانة كما ذكرنا، ومنذ ذلك الحين بقيت الحرب سجالا بين الصنهاجيين والسوننكي. فبعد الحلف الصنهاجي الأول حدثت خلافات في هذا الحلف أدت إلى قيام شيوخ قبائل صنهاجة بقتل الزعيم اللمتوني تميم بن الأثر فتفرقت كلمة صنهاجة، وانهار الحلف لمدة مائة وعشرين سنة، إلى أن تكون حلف جديد بزعامة أبي عبد الله بن تيفاوت المعروف بتارسا اللمتوني، الذي وحّد كلمتهم من جديد ولكنه توفي بعد ثلاثة أعوام[2]. وقد انتهزت إمبراطورية غانة فرصة وفاة ابن تيفاوت، وتفرق الحلف، لتستعيد مدينة أودغست من جديد[3].وبذلك انهزمت لمتونة، وتخلت عن زعامة صنهاجة، وبالتالي آلت زعامة الملثمين إلى قبيلة جدالة بزعامة يحي بن إبراهيم (وهو صاحب فكرة إعادة إحياء الجهاد في بلاد السودان) الذي استخلف ابنه على رياسة صنهاجة وارتحل إلى المشرق بغرض الحج. [4]

---

(1) نفسه، ص 158.

(2) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص76.

(3) دندش، المرجع السابق، ص 55.

(4) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص77.

إذن فحروب غانة مع صنهاجة اللثام لم تنقطع وكانت سجالا، واتسمت تلك الحروب بالطابع الديني المقدس وخاصة بالنسبة لبربر صنهاجة الذين رفعوا راية الجهاد في سبيل الله من أجل نشر الإسلام في مضارب القبائل الزنجية في أرض السودان. وكانت إمبراطورية غانة تمثل عائقا في وجههم، بينما كانت هذه الحرب بالنسبة لغانة حربا من أجل الوجود والبقاء، والحفاظ على محطاتها التجارية الرئيسية وحمايتها، لأنها تمثل شريان حياتها وسبب قوتها، بل النافذة التي تطل منها على عالم الشمال.لذلك فقد أنهكت هذه الحروب الطويلة إمبراطورية الغانيين، وخاصة خلال أيام الإمبراطور كايا ماغان(Kaya Maghan) الذي عاصر معظم تلك الحروب التي كانت من أهم أسباب تفكك الإمبراطورية وضعفها[1]. فغانة لم تعد قادرة على التقاط أنفاسها بعد ذلك، لأن أخطارا أخرى بدأت تترصدها، ولكن هذه المرة ستكون من الجنوب، حيث أقدمت عدة إمارات تابعة للإمبراطورية باستغلال الصراع بين آل سيسي (وهم حكام غانة) والملثمين لإعلان رغبتهم في الانفصال عن الإمبراطورية الغانية وإعلان استقلالهم عنها. فقامت إحدى العشائر وتدعى نياخاتي (Niakhat) بتأسيس مملكة خاصة بها في "ديارا"[2] وهي مملكة كانياغا (Kaniaga)، ثم أصبحت سيدة بلاد التكرور بعد ذلك، وأصبحت تنافس إمبراطورية غانة[3].

وفي نفس الفترة (أي مع نهاية القرن الخامس للهجرة/ 11ميلادي) ظهرت هناك قرية تقع جنوب شرق غانة ، تدعى "صوصو"، والتي كان يحكمها عامل تابع لإمبراطورية غانة، وينتمي إلى عائلة دياريسو (Diarissou)، والذي استغل صراع غانة مع الملثمين ليعلن تمرده عليها ويعلن استقلاله، كما قام زعيم الصوصو أيضا بغزو ممتلكات

---

(1) Kagoro (Doumbé) , Op.Cit, p7

(2) توجد هذه المنطقة اليوم في شمال شرق مدينة "نيورو" بجمهورية مالي.

(3)Delafosse (M) ,Les noirs de l'Afrique, P 51.

الإمبراطورية الغانية وفرض الجزية على شعوبها، وأعلن نفسه سيدا وخليفة للملك الغاني عليهم[1]. وهكذا بدأت الإمارات والممالك التابعة لإمبراطورية غانة تنفصل عنها الواحدة تلو الأخرى، حيث انفصلت عنها بعد ذلك إمارة ميما[2] وماندي(مالي)، وكذا مدن حوض النيجر والسنغال، وبالتالي أخذت الإمبراطورية تتقلص حول نقطة صغيرة[3]. فضعف غانة وتراجع قوتها الذي انتهى بانهيارها في مطلع القرن السابع للهجرة/13م، قد بدأ إذن منذ أواخر القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، أي قبل الغزو المرابطي بحوالي قرن من الزمن. كما رأينا أيضا بأن هناك عدة عوامل تضافرت واجتمعت من أجل انهيار الإمبراطورية السوننكية. لكن لابد أن نشير إلى أن الغزو المرابطي لغانة واحتلال عاصمتها كومبي عام 469 هـــ /1074م كان له دور هو أيضا في انهيارها، وساهم في القضاء عليها، ولكنه لم يكن أبدا السبب الوحيد لذلك كما تدعيه كثير من الكتابات الغربية [4]، ومن سار على دربهم من المؤرخين الأفارقة والعرب.

2 . بربر صنهاجة ودورهم في منطقة السنغال والنيجر العلويين:

دولة المرابطين هي دولة إسلامية مغربية قامت على الجهاد ونشر الإسلام في بلادي المغرب والسودان فيما بين القرنين الخامس والسادس الهجريين/11 و12م. وقد امتدت مجالات نشاط المرابطين في غرب إفريقيا بين ساحل البحر المحيط(المحيط الأطلسي) غربا

---

(1) Amadou (Bano Barry) , Les violences collectives en Afrique : Le cas Guinéen. Editions:L'harmattan, Paris, France, 2000 p63.

(2) هي إحدى الإمارات التابعة لإمبراطورية غانة ، و هي نفسها الإمارة التي لجأ إليها "سوندياتا كيتا" عندما نفي خارج مندن من طرف أخيه.

(3) Kagoro (Doumbé) ,Op.Cit, p7

(4) نشير إلى أنه من بين المؤرخين الغربيين الذين كتبوا بموضوعية حول موضوع حركة المرابطين و سقوط غانة نذكر المؤرخ الانجليزي : Trimingham(J.Spencer) في كتابه A history of islam in West Africa .

ونهاية غابات السفانا جنوبا. وفي الشمال والشرق لم تكن لها حدود جغرافية بارزة وإنما حددتها امتدادات مضارب القبائل البربرية الصنهاجية(1).

وصنهاجة هي إحدى قبائل البرانس من البربر، بل تعد من أعظم قبائل البربر، بحيث لا يكاد قطر من أقطاره يخلو من بطن من بطونهم في جبل أو سهل، حتى اعتقد الكثير من الناس أنهم يمثلون ثلث البربر لكثرتهم(2). وتنقسم صنهاجة على سبعين قبيلة، أشهرهم لمتونة، جدالة ومسوفة، وكل قبيلة تحتوي على بطون وأفخاذ، وهي قبائل تعيش في الصحراء ما بين بلاد البربر وبلاد السودان، وهم قوم بدو لا يعرفون حرثا ولا ثمارا، فكل أملاكهم هي أنعام وماشية ويقتاتون من اللحم واللبن(3)، كما عرفوا بالملثمين لاتخاذهم اللثام شعارا لهم يميزهم عن سائر قبائل المغرب، بحيث يتلثمون وهم أطفال، وينشؤون على ذلك ويزعمون أن الفم سوءة تستحق الستر كالعورة(4). وقد عرف الملثمون الإسلام منذ منتصف القرن الأول للهجرة /السادس للميلاد (5) حيث كانوا من قبل على دين المجوسية شأن برابرة المغرب(6)، قبل أن يسلموا على يد عقبة بن نافع الفهري أيام فتحه للمغرب،

(1) دندش، المرجع السابق، ص ص16 و17

(2) الناصري (أبو العباس السلاوي)،كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى. نشر:جعفر و محمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954م، الجزء الثاني، ص3

(3) ابن أبي زرع، المصدر السابق،ص 76. ـــ الناصري، المصدر السابق، ص 4

(4) ابن حوقل (أبو القاسم النصيبي) ، كتاب صورة الأرض. دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، دون تاريخ، ص99. (حول تلثم صنهاجة أنظر: مؤلف مجهول:الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية.تصحيح :البشير الغورتي، مكتبة التقدم الإسلامية، تونس، دون تاريخ، ص ص 6 و7) .

(5) دندش،المرجع السابق، ص 36.ـــ حسن (إبراهيم حسن)،انتشار الإسلام في القارة الإفريقية.مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، طبعة ثانية، 1963، ص 64.ـــ لكن ابن خلدون(العبر مج السادس، ص 214) يذهب إلى أن انتشار الإسلام بين صنهاجة كان خلال القرن الثالث للهجرة/9م

(6) ابن خلدون،العبر، ج6، ص 241.

ثم رفعوا راية الجهاد بدورهم لنشر الإسلام في بلاد السودان(1)، وبالتالي تحولت صنهاجة إلى صاحبة رسالة اتجاه الأقوام الزنجية الموجودة في الجنوب منها. وسمح لها موقعها الجغرافي بالاضطلاع بدور الوسيط التجاري بين شمال الصحراء وجنوبها بحكم سيطرتها على الطرق التجارية المارة عبر أراضيها، والتي تربط بين شعوب المغرب الإسلامي والسودان الغربي، فنعمت قبائل الملثمين بنوع من الرخاء الاقتصادي والاستقرار(2). ومما زاد في قوتهم هو قيام حلف صنهاجي بزعامة لمتونة، وهو أول حلف من نوعه بقيادة الزعيم الصنهاجي اللمتوني "تيولوتان بن تكلان"، الذي أصبح سيد الصحراء كلها، وفرض الجزية على معظم ملوك السودان(3).

وكان لتيولوتان جيشا كبيرا قوامه مائة ألف نجيب(4). وقد عاش هذا الزعيم اللمتوني نحو نحو ثمانين سنة وتوفي عام 222هـ /837م، ثم خلفه على زعامة الحلف اللمتوني حفيده" الأثر ابن بطين بن تيولوتان" الذي حكم مدة خمس وستين سنة، توفي بعدها عام 287هـ /903م. ثم جاء بعده ابنه " تميم بن الأثر" الذي تزعم صنهاجة إلى غاية سنة 306هـ / 918م(5). وكانت نهاية تميم هذا إيذانا بتصدع الحلف الصنهاجي وتفرق شملهم وذلك سبب وفاته كانت قيام شيوخ قبائل صنهاجة وقتلهم لتميم، وبذلك انفض الحلف الصنهاجي الأول(6).

---

(1) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 76.
(2) دندش، المرجع السابق، ص51.
(3) ابن أبي زرع، المصدر السابق،ص 76
(4) ابن خلدون، المصدر السابق، مجلد6، ص ص 214 و 215
(5) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 76.
(6) نفسه ،ص 76.

ورغم النهاية المأساوية للحلف الصنهاجي، والذي تسبب في فترة من الفراغ السياسي والفوضى بين القبائل الصحراوية، والتي دامت مائة وعشرين سنة حسب ابن أبي زرع[1]. لكن يجب الإشارة هنا إلى أن صنهاجة عرفت خلال فترة الحلف الأول بزعامة لمتونة بين القرنين الثالث والرابع للهجرة/9 و10 للميلاد أوج قوتها وتوهجها ونفوذها السياسي، وهو ما جعلها تصطدم بقوة إمبراطورية غانة التي كانت تزاحمها في عدة جبهات. فهي تنافسها سياسيا على إخضاع القبائل السودانية الواقعة على مشارف الصحراء، وتنافسها دينيا من خلال اعتناق صنهاجة للإسلام ونشرها له بين القبائل السودانية الوثنية مستغلة في ذلك التجارة الصحراوية بين المغرب الإسلامي وبلاد السودان[2]، حتى صار المسلمون يمثلون جالية مهمة في غانة ويتمتعون بنفوذ كبير داخل العاصمة كومبي صالح[3]. وقد نافست لمتونة إمبراطورية السوننكي تجاريا من خلال ازدهار التجارة الصحراوية، وتحكم الملثمين في طرق القوافل ومراكزها المهمة، وخاصة مدينة أودغست التي تمثل مركزا حيويا، وتعد باب السودان الغربي، والتي كانت أشبه بجمهورية تجارية تلتقي فيها مصالح البربر والزنوج على حد سواء[4]، والتي سيطرت عليها صنهاجة في عهد تيولوتان مما يعني يعني سيطرتها على تجارة الملح مع بلاد السودان[5].

---

(1) المصدر السابق، ص 176.

(2) الشكري (أحمد)، الإسلام والمجتمع السوداني ــ إمبراطورية مالي 1230ـــ1430م . المجمع الثقافي، أبو ضبي، الإمارات العربية المتحدة، طبعة أولى، 1999م، ص73.

(3) البكري، المصدر السابق،ص175 .

(4) سعد زغلول (عبد الحميد)، تاريخ المغرب العربي. (الجزء الرابع الخاص بالمرابطين).دار منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، 2007، ص 117.

(5) ابن حوقل، المصدر السابق، ص98

لقد كانت أودغست تابعة إذن لصنهاجة، وكان عليها عامل تابع لآل تيولوتان اللمتوني، وفي نفس الوقت كانت تربطها علاقة ودية مع غانة، وعاملها يخالط ملك غانة[1] وذلك حفاظا على مصلحته. و لم تكن غانة خلال الحلف الصنهاجي الأول (خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين) قادرة على غزو ،أودغست رغم احتكار هذه الأخيرة لتجارة الملح القادم من أرض البربر رغم أن إمبراطورية غانة خلال هذه الفترة كانت تتمتع بأقوى وأزهى أيامها، وهذا راجع بالطبع إلى تزامن هذه الفترة بقوة صنهاجة أيضا. لكن بعد مقتل تميم، وتفكك الحلف الصنهاجي الذي دام حوالي مائة وعشرين عاما، أي من سنة 306هـ/918م إلى غاية تشكل الحلف الصنهاجي الثاني بزعامة الأمير اللمتوني عبد الله بن تيفاوت المعروف باسم" تارسينا اللمتوني"[2] والذي كان من أهل الدين والفضل، والحج والجماعة، وقد حارب قبائل السودان، وساعدته في جهاده قبيلة بني وارث الصنهاجية، واستشهد الأمير عبد الله بن تيفاوت بعد ثلاث سنوات من رياسته، أي سنة 429هـ /1037م[3].

وباستشهاده تفرق الحلف الصنهاجي من جديد، وعادت الأطماع الغانية لاسترجاع أودغست، واستطاعت بالفعل أن تتغلب على الملثمين، وافتكت منهم أودغست[4]. وبذلك تخلت لمتونة عن زعامة الحلف الصنهاجي، وعن زعامة الملثمين، وانتقلت الزعامة

---

(1) نفسه، ص98.

(2) يذكره البكري (المصدر السابق، ص 165) باسم "تارشت". وعند ابن أبي زرع (المصدر السابق، ص 76) نجده "تارستا".

(3) ابن أبي زرع،المصدر السابق، ص 76.ـــ البكري: المصدر السابق،ص 164. و يختلف معهما هنري بارث (Henry Barth)، حيث يقول بأنه مات بعد خمس سنوات من حكمه، أي سنة930م /431هـــ (voyages et découvertes en Afrique septentrionale occidentale, p14.)

(4) دندش، المرجع السابق،ص55.

إلى جدالة، حيث تولى الأمير الجدالي" يحي بن إبراهيم" رياسة صنهاجة سنة 427هـــ /1035م[1]. وقد خرج يحي بن إبراهيم إلى المشرق بغرض الحج واستخلف مكانه ابنه إبراهيم على رياسة صنهاجة، ولما فرغ من أداء فرائضه وقفل عائدا مر في طريقه بمدينة القيروان، فحضر به مجلسا للفقيه المدرس أبي عمران الفاسي[2] فسمع منه، واستفاد من علمه وفتاويه، ثم سأله الشيخ أبي عمران الفاسي عن قبيلته ووطنه، فذكر له أنه من الصحراء من قبيلة جدالة إحدى قبائل صنهاجة، كما اخبره بسعة بلاده وما فيها من خلق، وعن الجهل الذي غلب عليهم وقلة علمهم، فسأله الفقيه عن مذهبهم وعن موجبات دينه فلم يجده عنه شيئا، ولا يحفظ لا من كتاب الله ولا من سنة نبيه، إلا أنه رأى فيه حرصه الشديد على تعلم دينه الصحيح ونيته الصادقة [3].

لقد أثارت تصريحات يحي بن إبراهيم الجدالي عن قومه دهشة وحيرة الشيخ الفقيه أبي عمران الفاسي، الذي تساءل عن المانع الذي يحول دون تعلم الملثمين لدينهم، وعن غياب من يتولى الدعوة بينهم، فأخبره يحي بن إبراهيم بأن كل ذلك يرجع إلى غياب الفقهاء والدعاة والمعلمين الذين لا يصلون إليهم، ماعدا أولئك الذين لا ورع ولا علم بالسنة لديهم. وطلب من الشيخ أن يبعث معه إلى بلده من تلاميذته من يعلمهم القرآن ويفقههم

---

(1) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص ص 76و77

(2) هو الفقيه أبو عمران موسى بن أبي حاج الفاسي، رحل من فاس إلى القيروان فاستوطنها وأخذ بها العلم حتى تقوى على علمائها ثم رحل إلى قرطبة، وبعدها ذهب إلى المشرق ، وحج وذهب إلى بغداد فحضر مجالس العلماء، وبعد إقامة عدة سنوات بالحج عاد إلى القيروان التي أقام فيها للتدريس عام 404هـــ/1013م، ثم... =عادإلى فاس قبل أن يخرج مرة أخرى إلى القيروان حيث برز كعالم إلى أن مات فيها عام 430 هـــ (سعد زغلول عبد الحميد، المرجع السابق، ص158).

(3) مجهول، الحلل الموشية:ص 19 ــــ ابن أبي زرع، المصدر السابق،ص77 ــــ ابن خلدون، المصدر السابق، ص243 ــــ البكري، المصدر السابق، ص165.

في الدين، ووعده بأنهم سيكونون طائعين ومتبعين له[1]. لكن الشيخ أبي عمران لم يجد في القيروان من يقبل بتلك المهمة الشاقة التي تتطلب ركوب الصحراء وتحمل مشاقها، لذلك أرسل الأمير يحي بن إبراهيم إلى الشيخ وجاج بن زللو اللمطي[2] فقيه المالكية بالسوس الأقصى وهو من تلاميذ الشيخ أبي عمران[3]، فسار يحي بن إبراهيم بكتاب الشيخ أبي عمران إلى الفقيه وجاج بمدينة "نفيس" أو "قرية "ملوكس" وذلك عام430هـــ/ 1038م، فما إن دخل الأمير يحي على وجاج وقرأ عليه كتابه وهو أمام طلبته،حتى انتدب منهم رجلا منهم ينتمي إلى قبيلة جزولة، ويعد من حذّاق الطلبة الأذكياء النبهاء، من أهل الدين والفضل والتقى والفقه والأدب والسياسة، وكلفه بمهمة الخروج مع الأمير يحي[4].

إن الرّجل الذي انتدب لهذه المهمة هو عبد الله بن ياسين بن مكوك بن سير علي بن ياسين الجازولي، ويذكر البكري أنه ينتمي إلى قرية تسمى"تيماماناوت" في طرف صحراء مملكة غانة[5]، أي في ضواحي مدينة أودغست. كما يذهب البعض إلى أنه يمكن أن يكون ينحدر من القبائل الملثمة التي تضرب في الصحراء، وربما هو ما جعل ابن ياسين يقبل المهمة بدون تردد، على اعتبار أنه خبير بأحوال المنطقة وأقوامها، ومواطن الضعف فيهم[6]. وكان عبد الله بن ياسين من الفقهاء المتأثرين بمبادئ المالكية،كالبعد عن السلطان، والتقشف، والزهد، واللجوء إلى الرباط تقربا من الله. كما جمع بين الفطنة

(1) البكري، نفس المصدر ،ص 165. ـــ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 77
(2) نجده عند ابن خلدون (المصدر السابق،ص 243) باسم"وكاك"
(3) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 77.
(4)ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص78
(5) المصدر السابق، ص165.
(6) دندش، المرجع السابق،ص62.

والدين والتقوى والورع والعفّة والأدب والسياسة(1). وهذا ما جعله يكون أهلا لتلك المهمة المنوطة به، بل أنه سيستغل تلك المهمة ليقلب أوضاع إفريقيا الغربية رأسا على عقب، ويحدث ثورة دينية وسياسية ستتعدى آثارها إفريقيا وتصل إلى غاية الأندلس. ولما وصل عبد الله بن ياسين إلى بلاد صنهاجة بصحبة أميرها يحي بن إبراهيم ونزل بساحتها، رأى المنكرات منتشرة فيهم، حيث كان الرجل منهم يتزوج ست نسوة أو سبعة أو عشرة فأكثر ذلك عليهم .كما شرع في تعليمهم شرائع الإسلام، وأخذ يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر(2). فقد أحدث بن ياسين هزة قوية في صفوف الملثمين، حيث أحيا فيهم روح الإسلام وأقام حدوده، وعمل على إقرار المساواة بين الناس، و حدّ من تسلط السادة، وأمر بأن يبنوا مدينة يكون فيها البناء متساويا، بحيث لا يشب بناء بعضهم على بناء بعض. وقد سميت تلك المدينة "أرتني" فأطاعوه وامتثلوا لأمره، وفي نفس الوقت فقد كان ابن ياسين يقيم بين الصنهاجيين ولكنه كان يعتزل أكل لحمهم وشرب ألبانهم لاعتقاده بأن أموالهم لم تكن حلالا(3). لكن هناك من الناس من رأى في دعوته تشددا عليهم، وفي أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر تنغيصا على حياتهم، وهم الذين كانوا أبعد الناس ما يكونون عن تعاليم الدين الصحيحة، ولا يفقهون من الإسلام إلا الشهادتين(4). لذلك قام فقيه منهم اسمه الجوهر بن سكم رفقة رجلين من كبرائهم يقال لأحدهم "أيار" والآخر "اينتكو" فعزلوه عن الرأي والمشورة، واستعادوا منه بيت مالهم، وطردوه، وهدموا

---

(1) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 78

(2) نفسه، ص 78

(3)البكري، المصدر السابق،ص165

(2) لقيرواني(محمد بن أبي القاسم) المعروف بابن أبي دينار،كتاب المؤنس في أخبار افريقية وتونس.مطبعة الدولة التونسية، تونس،1286 هـ/1869م، ص102.

داره، وانتهبوا ما كان فيها من أثاث[1]، وكان ذلك مباشرة بعد وفاة يحي بن إبراهيم[2].

ويتفق بعض المؤرخين على أن سبب الثورة على ابن ياسين لم يكن شدته وصرامته فقط، وإنما بسبب نقله لزعامة صنهاجة من جدالة إلى لمتونة. فحسب ابن الأثير يكون عبد الله بن ياسين قد ولى أبا بكر بن عمر أميرا اللمتوني أميرا للمسلمين عوضا عن يحي بن إبراهيم الجدالي، ثم حكم عليه بالقتل لأنه نقض بيعة أبي بكر، ونفذ فيه الحكم بعد أن صلى ركعتين[3]. بينما البكري يجعل الثورة هذه في عهد يحي بن عمر اللمتوني الذي اختاره عبد الله بن ياسين للأمير يحي بن إبراهيم الجدالي[4]. فالثورة التي قادها زعماء جدالة ضد ابن ياسين إذن كان سببها العصبية القبلية المتمثلة في الانتقام من ابن ياسين الذي نقل زعامة الحلف الصنهاجي من جدالة إلى لمتونة مرة أخرى، وكان اختيار ابن ياسين للمتونة لسبب استراتيجي، وهو الموقع الجغرافي الممتاز الذي تتمتع به منطقة أدرار الموريتانية التي تعد أهم مضارب لمتونة. بالإضافة إلى الشجاعة الحربية التي يتمتع بها هؤلاء، يضاف إليها ولاءهم المطلق لابن ياسين[5]. وبعد ثورة جدالة على ابن ياسين، خرج هذا الأخير متخفيا من قبائل صنهاجة قاصدا أستاذه وجاج فقيه السوس وأعلمه بما جرى له معهم، فكتب وجاج إلى شيوخ جدالة يعاتبهم على ما كان منهم، وأعلمهم أن من خالف أمر عبد الله بن ياسين فقد فارق الجماعة وأن دمه مهدور، وأمر ابن ياسين بالرجوع إليهم

---

(1) البكري، المصدر السابق،ص 166

(2) ابن خلدون، المصدر السابق،ص243

(3) ابن الأثير، الكامل في التاريخ.راجعة و صححه محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،1407هـــ/1987م، المجلد الثامن، ص 328

(2) المصدر السابق، ص 165.

(3) دندش، المرجع السابق، ص 68.

فرجع وقاتل الذين قاموا عليه[1] فقتل منهم خلق كثير وسباهم[2]. بعدها رغب عبد الله بن ياسين في الرحيل إلى بلاد السودان، لكن الأمير يحي بن عمر تمسك به وألحّ عليه، وأشار عليه باللجوء إلى جزيرة في البحر(نهر السنغال)، والتنقل إليها بالزوارق[3] فدخلاها ودخل معهما سبعة أنفار من جدالة، فابتنى بها رابطة وأقام بها مع أصحابه يعبدون الله تعالى مدة ثلاثة أشهر[4].

وقد انقطع ابن ياسين وصحبه للعبادة في ذلك الموضع النائي الذي اختاروه، وابتنوا به رباطا، فلم تمض ثلاثة أشهر حتى سمع الناس بخبرهم على أنهم قصدوا ذلك المكان لطلب الجنة والنجاة من النار، فكثر الرواد عليهم يتوافدون إلى رباطهم، فأخذ ابن ياسين يقرئهم القرآن ويفقههم في الدين ويرغبهم في ثواب الله تعالى، ويحذرهم من عذابه، حتى تمكن حبه في قلوبهم، وتزايد عددهم حتى بلغ تلاميذه نحو ألف رجل من أشراف صنهاجة، فسماهم المرابطون للزومهم رابطته[5]. وهنا طلب الشيخ عبد الله بن ياسين من أتباعه أن يخرجوا للدعوة، والقيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فأرسل كل واحد منهم إلى قبيلة من قبائل صنهاجة، فاستجابوا له، وبدءوا بدعوة عشائرهم وقبائلهم إلى

---

(1) ابن أبي زرع، المصدر السابق،ص 79

(2) الناصري، المصدر السابق، ص 21 .

(3) يذكر ابن خلدون(المصدر السابق، ص 243). بأن هذه الجزيرة هي عبارة عن ربوة يحيط بها النيل (السنغال) في جهاتها الربع.

(4) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 79. ـــ والرباط كلمة تعني ملازمة ثغر العدو، والمحافظة على أوقات الصلاة.وفي هذه الثغور ترابط خيل المقاتلين لحماية أرض المسلمين، وكان في الرباط نوعان من الجهاد هما جهاد العدو وجهاد النفس، كما تضمن الرباط هدفا علميا هم التفقه في الدين و التعلم، حيث يدرس الحديث والفقه .(دندش، المرجع السابق، ص 68.)

(5) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، ص 79. ـــ القيرواني، المؤنس، ص102.

التوبة، ويخوفونهم من عقاب الله. واستمرت تلك الدعوة سبعة أيام دون أن يستجيبوا لهم، بل ازدادوا فسادا رغم خروج ابن ياسين بنفسه معهم، ولما يئس منهم قال لأصحابه: ((قد ابلغنا الحجة وأنذرنا وقد وجب علينا الآن جهادهم))، فأعلن عليهم الجهاد[1]. وكانت أول قبيلة خرج إليها المرابطون لقتالها هي جدالة، إذ غزاها بثلاثة آلاف رجل، فقتل منهم خلقا كثيرا وأسلم الباقون إسلاما جديدا ودخلوا في طاعة ابن ياسين، وبايعوه على إقامة الكتاب والسنة، وأدوا له ما يلزمهم مما فرض عليهم، وكان ذلك في شهر صفر سنة 434هـ/أكتوبر 1042م، ثم سار إلى قبائل لمتونة فغزاهم قبيلة بعد قبيلة إلى أن انتصر عليهم، وسلب أموالهم وسبى نساءهم وعاد المرابطون بعد ذلك إلى بلادهم[2]. وبعد عودة المرابطين إلى ديارهم قام عبد اتلله بن ياسين بتقسيم الغنائم ، فقسم سبيهم وكل ما حازوه ، فأخذ ابن ياسين الخمس فكان أول خمس قسمه اللمتونيون في صحرائهم، كما فقدوا في تلك المعارك خلق كثير. ولقد كان لهذا النصر صدى كبيرا بين القبائل الصنهاجية الصحراوية، حيث سارعت بقية لمتونة إلى الدخول في الدعوة الجديدة دون حرب، وكان لدخولها أثر كبير نظرا لما تمتعت به من مكانة وقوة وبأس واستقامة واجتهاد[3]. وبذلك ملك المرابطون الصحراء بعدما سارعت قبائل مسوفة ولمطة إلى الانضمام إليهم. وأصبح نظامهم الجديد يقوم على أساس الدعوة الدينية التي تتجاوز النمط القبلي الضيق [4]. وكان ابن ياسين يفرض على التائبين المقبلين على دعوته عملية تطهير

---

(1) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص79.ــ ابن خلدون، المصدر السابق، ص243.ــ أنظر أيضا: حمدي(عبد المنعم محمود حسين)، التاريخ السياسي والحضاري للمغرب والأندلس في عصر المرابطين. دار المعرفة الجامعية، قنال السويس، مصر ، 1997م ص41 .

(2) القيرواني، المصدر السابق، ص 102.ــ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 80.

(3) الحلل الموشية، ص103.ــ البكري، المصدر السابق،ص 166.

(4) دندش، المرجع السابق،ص78.

من الذنوب تتمثل في ضربهم بسوط مائة ضربة، ثم يشرع في تعليمهم القرآن وشرائع الإسلام، ويأمرهم بالصلاة والزكاة وإخراج العشر، وجعل لذلك بيت مال يجمعها فيه وظفه في شراء الأسلحة وتجهيز الجيوش(1). راح ابن ياسين يغزو القبائل حتى ملك جميع بلاد الصحراء ودخل قبائلها، ثم جمع غنائم القتلى وأسلابهم، وجعلها فيئا للمرابطين، وبعث بمال الزكاة والأعشار إلى طلبة العلم ببلاد المصامدة، فاشتهر أمره في جميع بلاد الصحراء وما والاها من بلاد السودان وبلاد المصامدة، وبلاد القبلة، وسائر أقطار المغرب(2). واشتهر بأنه رجل يدعو إلى الطريق المستقيم ويحكم بما انزل الله، وأنه متواضع زاهد في الدنيا، فانتشر ذلك عنه في بلاد السودان (3).

لقد عاد عبد الله بن ياسين بعد ذلك إلى تنظيم نفسه، حيث كوّن جيشا بلغ عدده ثلاثين ألفا من المقاتلين يلتهبون حماسا دينيا، كما نصّب على المرابطين أميرا يتولى شؤونهم الحربية والجهادية هو يحي بن عمر(4). فوصلته رسائل من فقهاء سجلماسة ودرعة تشكوه من المنكرات وتعسف أمرائها من الزناتيين وعلى رأسهم الأمير مسعود بن وانودين المغراوي(5)، فلما وصل الكتاب إلى عبد الله بن ياسين، جمع رؤساء المرابطين، وخرج بهم

(1) ابن أبي زرع، المصدر السابق،ص 80.

(2) الناصري، المصدر السابق، ص9و10.

(3) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص80.

(4) كان للمرابطين قيادتين هما: قائد ديني هو عبد الله بن ياسين، الذي ينظر في أمور الدين وأحكام الشرع، ويأخذ الزكاة والأعشار، وقائد عسكري ينظر في أمر الحرب هو يحي بن عمر. لكن في الواقع كان عبد الله بن ياسين هو الأمير الحقيقي، لأنه هو الذي يأمر وينهى، ويعطي ويمنح. (الناصري، المصدر السابق، ص 10.)

(5) كانت سجلماسة موالية للدولة الأموية بالأندلس في ظل الزعامة الزناتية، ولما تفككت الدولة الأموية وصار الملك فيها للطوائف، استبد أمراء زناتة بالمغرب،كل بما في يده. ومن هؤلاء الأمراء مسعود بن

في جيش كثيف عام447هـ/ 1055م، حتى إذا ما وصلوا درعة تصدى لهم عامل مسعود بن وانودين، فقاتلوه وهزموه، ثم توجهوا نحو سجلماسة فخرج إليهم أميرها مسعود بن وانودين الزناتي المغراوي، فالتحموا مع جيشه في قتال عنيف انتهى بقتله، وقتلوا من كان بسجلماسة من أهل مغراوة، وأصلحوا أحوالها وغيروا المنكرات، وأعفوا الناس من المغارم والمكوس(1).

بعدما فرغ عبد الله بن ياسين والأمير يحي بن عمر من أمر الزناتيين عاد إلى الصحراء ليواجههم هذه المرة تهديدا خطيرا لدعوتهم والمتمثل في أودغست التي كان السوننكي الغانيون استعادوها من لمتونة خلال تفرق الحلف الصنهاجي الثاني الذي أعقب استشهاد ابن تيفاوت. فكما سبق وأن ذكرنا كان هناك تنافس دائم بين لمتونة الصنهاجيين والسوننكي الغانيين. لذلك قام ابن ياسين باستغلال الضعف الذي بدأ يدب في جسم إمبراطورية غانة ليغزو أودغست عام 446هـ/1054م، ويستولي عليها(2)، واستباحوا حريمها وجعلوا جميع ما فيها فيئا، وقد نقموا عليهم لأنهم كانوا تحت طاعة صاحب غانة(3).

وانودين المغراوي الذي كان يمتد ملكه لسجلماسة ودرعة، وكان يتصرف في الرعايا حسب شهواته وأهوائه، فكثر جوره وظلمه.(نفسه، ص11) .

(1) ابن خلدون، المصدر السابق، ص244 ــ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص81.ــ الناصري، المصدر السابق، ص 11.

(2) البكري، المصدر السابق،ص 168.ــ دندش، المرجع السابق،ص81.

(3) البكري، نفس المصدر ، ص168 .

ثم توجه ابن ياسين نحو سجلماسة التي استعادها مرة أخرى(1) وفي نفس الوقت قامت جدالة بمحاصرة جيش الأمير يحي بن عمر في جبل لمتونة بجيش قوامه ثلاثون ألفا، فالتقى الجيشان بموضع يسمى تيفريلي فاستشهد يحي بن عمر عام 448هـ /1056م، ومعه عدد كبير (2)، لذلك عين عبد الله بن ياسين أخاه أبا بكر بن عمر مكانه للقيادة، و أخذ له البيعة من القبائل(3).

كانت الخطوة الثانية لعبد الله بن ياسين هي غزو بلاد السوس، حيث سار حتى انتهى إليها فغزا جزولة وفتح مدينة ماسة وتارودانت وهي قاعدة السوس، وكان بها قوم من الرافضة فقاتلهم رفقة عبد الله بن ياسين حتى فتحا مدينة تارودانت وقتلوا بها خلقا كثيرا، ورجع من بقي منهم إلى مذهب السنة والجماعة(4). فتح عبد الله بن ياسين معاقل بلاد السوس كلها، ودخلت جميع قبائله في طاعته، فعين عليها عمال وأمرهم بإقامة العدل وإظهار السنة، فأخذ منهم الزكاة والعشر، وألغى جميع الضرائب الأخرى التي كانت تدفع من قبل، ثم توجه بعد ذلك إلى بلاد المصامدة ففتح جبال درن وشفشاوة، ونفيس وسائر بلاد جدميوة. وقد أتت إليه قبائل رجراجة وحاحة فبايعوه، ثم ارتحل بعد ذلك إلى مدينة أغمات فحاصرها إلى أن غادرها أميرها لقوط بن يوسف هاربا هو وأهله إلى ناحية تادلا. فدخل المرابطون مدينة أغمات سنة 449هـ /1059م، وأقام بها عبد الله بن ياسين نحو

---

(1) كان أهل سجلماسة قد شعروا بعدم الراحة مع الأمراء الجدد، فصمموا على استعادة حريتهم، فقاموا بالفتك بحامية المرابطين، وزحفت زناتة المغراوية على سجلماسة فدخلوها وقتلوا من كان بها من اللمتونيين عام 446 هـ (دندش، المرجع السابق ص81).

(2) البكري: المصدر السابق،ص 168. (بينما نجده عند ابن خلدون (المصدر السابق،ص244) بأنه استشهد عام 447 هـ .

(3) دندش،المرجع السابق، ص 84

(4) الناصري، المصدر السابق، ص13

شهرين، استراح فيها المرابطون، ثم خرج إلى تادلا ففتحها، وقتل من وجد فيها من ملوك بني يفرن، كما ظفر بلقوط المغراوي صاحب أغمات فقتله[1] وتزوج امرأته "زينب بنت إسحاق النفزاوية"، وكانت مشهورة بالجمال والرياسة [2]، وفي ذلك الوقت كانت قبائل برغواطة[3] تدين بمذهب يتنافى مع الإسلام أسسه رجل منهم يدعى صالح بن طريف[4]، انشغل بالسحر وادّعى أنه المهدي المنتظر الذي يخرج في آخر الزمان، ودعا إلى ديانة جديدة. وقد وفد هذا الرجل على منطقة تامسنا منذ أوائل القرن الثاني للهجرة، ونشر مذهبه بين أهلها، فادعى النبوة وأنه نزل عليه قرآن جديد[5]، ولما ظهرت حركة المرابطين قاتلهم ابن ياسين وقائده أبو بكر بن عمر، فنشبت بين المرابطين و البرغواطيين حروبا شديدة أصيب خلالها عبد الله بن ياسين بجروح بليغة، ومات على إثرها سنة

---

(1) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص82.

(2) كانت زينب هذه قبل لقوط المغراوي عند يوسف بن علي بن عبد الرحمان بن واطاس، و هو شيخ قبيلة "وريكه "، ولما تغلب بنو يفرن على وريكة وملكوا أغمات تزوج لقوط زينب هذه، قبل أن يتزوجها أبو بكر بن عمر. (ابن خلدون، المصدر السابق، ص244.)

(3) كان أصل زعيمها صالح بن طريف من "برناط" وهو حصن في بلاد الأندلس فكان يقال لمن اتبع دعوته ودخل في ديانته"برناطي"فعربته العرب وقالوا "برغواطي" فسموا برغواطة (ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص83)

(4) يعد طريف بن مالك أحد القادة الامازيغ الذين شاركوا في الحملة الاستطلاعية إلى الأندلس قبل فتحها من طرف طارق بن زياد، حيث سميت عليه جزيرة طريف في الأندلس، كما اعتنق المذهب الصفري وشارك فيما بعد إلى جانب ميسرة المطغري في ثورته على الأمويين، وعينه هذا الأخير وزيرا وقائدا لجنده، وبعد القضاء على الحركة الصفرية لجأ صالح بن طريف إلى منطقة وادي برباط بالأندلس قبل أن يعود إلى المغرب ويدعو إلى نحلته الجديدة . (ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 82 .(ابن الخطيب(لسان الدين): أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام.الجزء الثالث... =الخاص بتاريخ المغرب العربي. تحقيق: احمد العبادي ومحمد الكتاني.دار الكتاب، الدار البيضاء، 1964م، ص181) ـــ بوزياني الدراجي، دول الخوارج والعلويين في بلاد المغرب والأندلس، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2007، ص40.)

(5) البكري، المصدر السابق، ص136 ـــ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص84 .

450هـ/1060م في موضع يسمى "كريفلت" بتامسنا ودفن هناك [1]. وبمجرد أن أصيب عبد الله بن ياسين بجروحه التي توفي بها حتى جمع شيوخ المرابطين ورؤسائهم، وهو ما يزال على قيد الحياة، وطلب منهم أن يختاروا منهم من يقوم بأمرهم ويقود جيشهم، فاتفق رأي الجماعة على تقديم الأمير أبي بكر بن عمر اللمتوني، فعينه ابن ياسين أميرا عليهم قبل أن يموت في مساء ذلك اليوم[2]. استمر أبو بكر بن عمر في إمارة قومه في جهادهم ضد البرغواطيين، واتخذ من مدينة أغمات مركزا لقيادته، وهناك توالت عليه الوفود، فضاق به المكان، فبدأ يبحث عن مكان ليبني فيه مدينته، فأشار عليه قومه بمكان بسهل مراكش، فانتقل إليه، وبدأ بتعميره عام454هـ/1062م[3]. وكان يبدو بأن حركة المرابطين ستتوقف عند هذا الحد في فتوحاتها نحو الجنوب، خاصة بعدما انتقل الأمير أبو بكر بن عمر إلى مراكش في الشمال، بالإضافة إلى أنه لم يكن قد استكمل فتح المغرب بعد، إلا أن خلافا وقع بين لمتونة ومسوفة ببلاد الصحراء، فخشي افتراق كلمة المسلمين وانقطاع وصلتهم، وأحزنه قتال المسلمين وسفك دماءهم، فعزم على السير إلى الصحراء ليصلح أحوالها، ويقيم فيها ويجاهد الكفار من السودان، بعدما استخلف على المغرب ابن عمه يوسف بن تاشفين، وتنازل له عن زوجته زينب النفزاوية[4]، وكان ذلك عام 460

---

(1) البكري، المصدر السابق،ص168.ــ و عند ابن أبي زرع (المصدر السابق،ص84) نجد أنه توفي يوم الأحد 24 جمادي الأولى سنة451 هجري.

(2) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص84.

(3) دندش، المرجع السابق،ص98.

(4) ابن خلدون، المصدر السابق، ص245.ــ ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 86.ــ الحلل الموشية، ص23.ــ يذكر ابن خلكان أنه خلال تلك الغارة التي قامت بها جدالة على لمتونة سمع عجوزا في بلاده ذهبت لها ناقة في الغارة فبكت و قالت:((ضيعنا أبو بكر بن عمر بدخوله إلى بلاد المغرب.)) فحمله ذلك على استخلافه لابن تاشفين ورجع إلى بلاده الجنوبية. ــ ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. تحقيق إحسان عباس.دار صادر، بيروت، دون تاريخ، الجزء الرابع، ص155.

هجرية. لقد فتح أبو بكر بن عمر إذن جبهة جديدة للجهاد، ألا وهي بلاد السودان الغربي، خاصة وأنه قرر هذه المرة أن يقيم في الصحراء المتاخمة لها، وقرر أن لا يعود إلى المغرب بعدما طلق امرأته وقال لها:((يا زينب انك ذات حسن وجمال فائق، وإني سائر إلى الصحراء برسم الجهاد لعلي أرزق الشهادة والفوز بالأجر الوافر وأنت امرأة غليظة لا طاقة لك على بلاد الصحراء، وأنا مطلقك فإذا تمت عدتك فزوجي ابن عمي يوسف بن تاشفين فهو خليفتي على بلاد المغرب))[1] .

ورغم أن الأستاذ حسن محمود حاول أن يفسر عودة أبي بكر بن عمر إلى المغرب برغبته في تأكيد تولية ابن عمه يوسف بن تاشفين على المغرب فقط، وأن عودته إلى الصحراء كانت طبيعية [2]، إلا أننا نرى بأنه لم يكن ينوي العودة إلى الصحراء، ولكن تمرد ابن عمه هو الذي اجبره على ذلك، حيث يذكر ابن عذاري بأنه لما بلغ يوسف بن تاشفين خبر عودة أبي بكر اغتمّ وحزن حزنا شديدا، وصعب عليه مفارقة الملك بعد أن ذاق حلاوته[3]. كما أن يوسف بن تاشفين لما كان يكاتب أبي بكر الذي كان بالصحراء يجاهد يخبره بكل ما كان يصنع، كان في الوقت ذاته يراسل بعض إخوانه سرا يحرضهم على القدوم إليه دون علم أبي بكر وأغراهم بالهدايا [4].لذلك فإننا نرى بأن أبا بكر بن عمر لما رأى تمسك ابن عمه بالمغرب وعدم استعداده للتخلي عنه آثر العودة إلى الصحراء حفاظا على وحدة الصف المرابطي وتجنبا للفتنة. لذلك اخترق أبو بكر بن عمر بلاد تادلا وسجلماسة، ثم سار جنوبا إلى مضارب المتنازعين، واستطاع أن يصلح أحوالهم بعدما

---

(1) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص86

(2) حسن أحمد محمود ، الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا. القاهرة،1958م، ص 224.

(3) ابن عذاري، البيان المغرب،ج4، ص 23.

(4)ابن عذاري ،المصدر السابق، ص23.

أخذ نصف جيش المرابطين، فأعاد إلى الصحراء هدوءها وأمنها، بعدها جمع جيوشا كثيرة وخرج إلى غزو بلاد السودان، فجاهدهم حتى فتح وأخضع من بلادهم قدر مسيرة ثلاثة أشهر فخيرهم بين الإسلام والجزية[1]. وفي الوقت الذي كان فيه الأمير أبو بكر بن عمر يصلح فيه أحوال الصحراء ويجاهد الوثنيين في أرض السودان كان المرابطون في الشمال يزدادون قوة، لذا قاد يوسف بن تاشفين جيوشه إلى المغرب الأقصى[2]. وبعد أن فرغ الأمير أبو بكر من مهامه في الجنوب، رجع إلى الشمال والتقى بيوسف بن تاشفين، وعلم بأن يوسف يريد أن يستبد بالأمر من دونه، ولما رآه واكتشف ضخامة ملك ابن تاشفين ووفرة عساكره، فلما رأى بأن يوسف لن يتخلى عن الأمر، ولما كان أبو بكر رجلا ورعا تقيا قد وهب حياته للجهاد، فقد توجه إلى يوسف قائلا له: ((يا يوسف، أنت أخي، وابن عمي، ولم أر من يقوم بأمر المغرب غيرك، ولا أحق به منك، وأنا لا غناء لي عن الصحراء، وما جئت إلا لأسلم عليك، ونسلم الأمر إليك، ونعود إلى الصحراء مقر إخواننا ومحل سلطاننا))[3]. وهكذا توجه أبو بكر بن عمر إلى الصحراء التي تعد بالنسبة للمرابطين الولاية الأم، لأنها أصل المرابطين ومقر إقامة الأمير الأكبر. وقد وجه الأمير أبو بكر كل جهوده إلى التوسع في بلاد السودان، ونشر السلام بين قبائله، وكان هدفه هذه المرة إمبراطورية غانة الوثنية. فما هو الدور الذي سيلعبه الغزو المرابطي لإمبراطورية غانة في تاريخ هذه المملكة، وتاريخ منطقة النيجر والسنغال العلويين؟ وكما نعلم فإن إمبراطورية غانة كانت تسيطر على السواد الأعظم من أراضي وشعوب السودان الغربي، كما أنها كانت منافسا عنيدا للملثمين سواء من الناحية السياسية أو الاقتصادية، وذلك من

---

(1) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص89.

(2) ابن خلدون، المصدر السابق، ص246.

(3) مجهول، الحلل الموشية، ص 24 ـــ ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. تحقيق ومراجعة إحسان عباس، دار الثقافة، لبنان، طبعة ثالثة، 1983م، الجزء الرابع، ص25.

خلال التنافس حول السيطرة على الطرق التجارية ومراكزها الكبرى،كما كان الحال على أودغست.أومن الناحية الدينية على أساس أن إمبراطورية غانة كانت تمثل الدولة الوثنية العظيمة التي تقف أمام الزحف الإسلامي الذي رفعت رايته دولة المرابطين، رغم ما عرف عن الغانيين من تسامح ديني تجاه الجاليات المسلمة على أرضها. فلقد خرج الأمير أبو بكر بن عمر على رأس جيش من المرابطين، وكان ابنه الأمير يحي على رأس جيش آخر[1]، وكانت وجهتهم إمبراطورية غانة، حيث تقدم الجيشان المرابطيان في أراضي إمبراطورية غانة، وبدآ بإخضاع مدنها الواحدة تلو الأخرى[2]. ولقد كان هذا الغزو هو الثاني ضد إمبراطورية غانة من طرف المرابطين، بعد ذلك الذي تم عام 446هـــ/1054م على مدينة أودغست عندما كانت تابعة لإمبراطورية غانة.لكن هذه المرة كان الجيش المرابطي في قلة من الرجال، حيث اقتصر على المقربين من أبي بكر بن عمر والمؤمنين بقضيته، والذين اختاروا نفس مصير أميرهم ورفضوا البقاء رفقة ابن عمه يوسف بن تاشفين[3]. وقد اعترضت أبا بكر بن عمر عدة صعوبات في غزوته السودانية هذه، فهناك النقص العددي لجيشه أمام جيش إمبراطورية غانة القوي، حيث كان ملكهم قادر على تجهيز جيش بمائتي ألف جندي، منهم أربعون ألف من الرماة[4]. بالإضافة إلى صعوبة الطريق المؤدية إلى غانة،حيث كان على الجيش المرابطي أن يقطع مسافة مسيرة تسعين يوما في طريق

(1) يذكر صاحب الحلل الموشية (ص17) بأن أهل غانة أسلموا عام 469هـــ عند خروج الأمير يحي بن الأمير أبي بكر بن عمر اللمتوني. ـــ بينما يذكر ابن عذارى(المصدر السابق، ص17)بأن أبا بكر بن عمر كان له ابنان هما إبراهيم و يحي،فأما يحي فيعرف بابن عائشة وهي بنت ياران بن تايغشت أخت إسحاق بن ياران، وأما إبراهيم فلم تعرف أمه، وكان أسود الجلدة.

(2) دندش، المرجع السابق، ص112.

(3) الشكري أحمد، المرجع السابق،ص142.

(4) البكري، المصدر السابق،ص188.

صحراوي شاق[1]. وقد استفاد أبو بكر بن عمر من الرصيد العلمي الذي تلقاه على يد شيخه الراحل عبد الله بن ياسين، فوظفه في دعوة الشعوب السودانية بطريقة سلمية، فهو رجل فقيه صالح متورع، وقائد قبل أن يكون أميرا[2]، فاستطاع في طريقه إلى غانة أن يجند عدد كبير من المحاربين السودانيين بعدما دخلوا في دعوته، والذين كانوا ناقمين على ملوك غانة، حيث انظم إليه في طريقه إلى غانة الولوف والسيرير الذين أدخلهم أبو بكر بن عمر الإسلام، كما وجد أبو بكر حليفا قويا ساعده خلال هذه الغزوة وهو ملك التكرور لبي بن وارديابي[3]، والذي تحول اسمه إلى "إبراهيم سال" بعد إسلامه. ولقد كان أبوه وارديابي قد أسلم في عهد يحي بن عمر، وأشرك ابنه لبي هذا في حروب المرابطين ضد جدالة، إذ كان مع الجيش الذي حوصر مع يحي بن عمر من طرف جدالة في جبل لمتونة، والذي استشهد فيه يحي بن عمر سنة 448 هــ /1056م، وتعزز هذا الحلف عندما قام أبو بكر بن عمر بالزواج من "فاطمة سال" ابنة الملك التكروري[4]. وهكذا استطاع أبو بكر بن عمر من جمع جيش يقارب عدده ثلاثين ألف مقاتل[5]، ثم تقدمت الجيوش المرابطية في أراضي إمبراطورية غانة، وأخذت تستولي عليها الواحدة تلو الأخرى، وكان الأمير أبو بكر بن عمر يخير أهل البلاد المفتوحة، إما اعتناق الإسلام ، وإما الحرب[6]، إلى إلى أن ضاق الحصار على العاصمة الغانية، فسقطت في أيدي المرابطين عام 469هــ /1076م[7].ورغم أن المصادر التاريخية لا تذكر شيئا عن تفاصيل المعارك التي دارت بين

(1) الشكري، المرجع السابق، ص 138.
(2) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 82.

(3) Tidiane (N'diaye) ,Op.Cit, p28.
(4) Delafosse(M) ,H S-N,topme2,p54 .
(5)Tidiane (N'diaye) ,Op.Cit, p28.

(1) دندش، المرجع السابق،ص 112
(2) الحلل الموشية، ص 17.

جيش المرابطين والجيش الغاني، إلا أن الطريقة التي تكلم بها ابن خلدون عن سقوط غانة توحي بأن احتلال غانة كان كاسحا وسهلا، وانتهى باستسلام أهلها ودفعهم الجزية والإتاوات للمرابطين. حيث يقول ابن خلدون: ((ثم أن أهل غانية ضعف ملكهم وتلاشى أمرهم واستفحل أمر الملثمين المجاورين لهم من جانب الشمال مما يلي البربر كما ذكرناه، وعبروا السودان واستباحوا حماهم وبلادهم وقضوا منهم الإتاوات والجزي))(1). ولكن بالرغم من ذلك فإن أبا بكر بن عمر لم يزح الملك الغاني "تنكامين "من عرشه وإنما تركه يستمر في حكمه، لكنه جعله يعترف بتبعيته لدولة المرابطين، ودفع الجزية والإتاوات لأميرها، وذلك بعدما دخل الإسلام.(2)

وهكذا ألحقت غانة بأرض المرابطين بعدما فقد ملكهم معظم جيشه ورجاله المخلصين أثناء الهجوم على عاصمته كومبي، وقام الأمير أبو بكر بن عمر ببناء الرباطات والمساجد فكثر عدد الداخلين في الإسلام(3) كما قام بتعيين ابنه يحي قائما على متابعة نشر الإسلام بغانة، بينما واصل هو فتح بقية بلاد السودان (4). ثم تابع الأمير أبو بكر بن بن عمر فتح بلاد السودان حتى وصل بلاد ونقارة (ونجارة) حيث توجد مناجم الذهب في "بيط" وفي منخفض" فاليمي" وفي إقليم بامبوك، إذ يذكر ابن أبي زرع بأن أبا بكر بن عمر قد استقام له أمر الصحراء إلى جبل الذهب من بلاد السودان(5).

---

(1) المصدر السابق، ص266.

(2) Delafosse (M), Op.Cit, p54

(3) دندش، المرجع السابق، ص 114.

(4) الحلل الموشية، ص 17.

(5) المصدر السابق، ص 87.

أدى نجاح فتوحات أبي بكر وسيطرته على مناجم الذهب الغانية ـــ التي تعد أهم ثروة في السودان آنذاك ـــ إلى ازدياد هجرات قبائل المرابطين إلى تلك الأنحاء، فنتج عن ذلك اختلاط هذه القبائل بأهل المنطقة، وازداد بالتالي عدد الداخلين في الإسلام. أما الشعوب التي رفضت الدخول في الإسلام فقد فرّت إلى الجنوب أو الغرب[(1)]. لكن يبدو أن أكبر مشكلة بقيت تواجه جيش المرابطين في السودان هي قلة عدد جيشهم وانقساماتهم الداخلية، فنحن نعلم بأن اللمتونيين يساندون أبا بكر بن عمر بقوة لكنهم لم يكونوا كثيري العدد، بينما إخوانهم من جدالة فكانوا ما يزالون غير متحمسين لتعيين أبا بكر بن عمر أميرا على المرابطين خلفا لأخيه يحي الذي كانوا قد هزموه وقتلوه سنة 448هـــ /1056م بتبفريلي[(2)]. كما أن بني مسوفة ولمطة وبعض الجماعات من القبائل الأخرى، بدءوا يتورطون في بعض الغزوات المنعزلة ولا يريدون أن يشتركوا في جيش نظامي يتبع قواعد صارمة[(3)]. لهذا فإن بعض الروايات الشفوية تزعم بأن أبا بكر بن عمر يكون قد قتل في إحدى غزواته في السودان عندما اذهب لإخماد ثورة إحدى ثورات منطقة أدرار الموريتانية، إذ رماه رجل سوداني من السوننكي بسهم مسموم عندما كان يصلي[(4)]، وبعضها الآخر يزعم بأنه قتل من طرف إتباع احد الزعماء الموسي(الموشي) الوثنيين[(5)]. ورغم اختلاف المؤرخين حول تاريخ وفاة أبي بكر بن عمر إلا أن أغلب المصادر تتفق

---

(1) دندش، المرجع السابق، ص 115، قداح(نعيم)، حضارة الإسلام وحضارة أوربا في إفريقيا الغربية. الشركة الوطنية للطباعة والنشر، الجزائر، طبعة ثانية، 1975، ص 85.

(2) البكري، المصدر السابق،ص168.ـــ تقول دندش (المرجع السابق، ص115) بأن هذه المنطقة تسمى اليوم"المقاسم" و تقع على بعد 55كلم من جنوب "تجكجة".

(3) Delafosse (M) ,Op.cit p55.

(4) Delafosse (M) ,Op.cit, p55.

(5) دندش، المرجع السابق،ص115.

حول تاريخ عام 480هــ/ نوفمبر 1087م[1].وعموما فقد أثار مقتل أبي بكر بن عمر ثائرة القبائل السودانية التي كانت قد دخلت في الإسلام على يديه فقامت تطالب بدمه، فاشتعلت الحرب بين الوثنيين والمسلمين[2].

بعد مقتل أبي بكر بن عمر تحرّك ابنه الأمير إبراهيم بن أبي بكر بن عمر نحو الشمال ليطلب ملك أبيه من يوسف بن تاشفين، فترل بخارج أغمات في خلق كثير من خوانه اللمتونيين، فسمع بذلك يوسف بن تاشفين، فبعث إليه الأمير "مزدلي" فقال له:((أطلب ملك أبي الذي غصبنا فيه عمي يوسف، قال مزدلي: إن الملك بيد الله يؤتيه من يشاء، والله تعالى قد خصّ هذا الرجل بالملك دوننا، فإن كنت عاقلا فاطلب منه أن يعينك بمال وخير ترجع به إلى بلدك، وإن طلبت غير هذا أخاف أن يجعل على رجلك قيدا ويحسبك عنده عبدا، وما قلت لك ذلك إلاّ بوجه الشفقة عليك))[3] فاستطاع الأمير مزدلي أن يهدّن الأمير إبراهيم بن أبي بكر، ويقنعه بعدم الدخول في صراع مع يوسف بن تاشفين، وقبل المساعدة المعروضة عليه فقال له: ((عسى أن تجتمع معه (أي يوسف بن تاشفين) في أمري وتبين له حالي، فأجابه الأمير مزدلي بقوله: أقم في موضعك حتى آتيك بكل ما يرضيك))[4]. وبذلك تخلّص الأمير يوسف بن تاشفين من خطر إبراهيم بعدما أعطاه ما

(1) يذكر صاحب الحلل الموشية (ص16) بأن وفاة أبو بكر كانت عام 469هــ/1076م، بينما نجد عند ابن عذاري (البيان المغرب، ج4، ص26)، أن وفاته كانت سنة468هــ/1075م، لكننا في المقابل نجد اتفاق عدد من المؤرخين حول أن وفاة أبو بكر كانت سنة 480هــ /1087م ومنهم: ابن ابي زرع (روض القرطاس، ص136)، ابن خلدون (العبر، ج6، ص245)، الناصري (الاستقصا ج2،ص 24).

(2) دندش، المرجع السابق،ص116 .

(3) ابن عذاري، المصدر السابق، ص29.

(4)،ابن عذاري، المصدر السابق ص30.

يريد من مال وخيل وكسي وغيرها، فانصرف إبراهيم إلى الصحراء وبقي فيها إلى أن مات هناك(1).

لكن انشغال يوسف بن تاشفين بحروبه في الأندلس والمغرب الإسلامي، واضطراب الجيوش المرابطية بعد استشهاد أبي بكر بن عمر، بالإضافة إلى استقرار ابنه إبراهيم في أغمات، كلها عوامل شجعت السوننكي على استعادة استقلالهم عن اللمتونيين، وبالتالي أعلنت غانة انفصالها عن الدولة المرابطية وذلك بعد مدة قصيرة فقط من استشهاد الأمير أبي بكر بن عمر، لكنها لم تكن قادرة على استرجاع مجدها الضائع، بل اقتصرت سيطرة مملكة غانة هذه المرة على منطقة "الأوكر" و"باسيكونو" فقط بعدما انفصلت عنها الممالك التي كانت تابعة لها، وشكلت ممالك مستقلة مثل "ديارا" و"كانياغا"(2)، فكان لهذه الأحداث صداها في الشمال، فترك أمير المسلمين يوسف بن تاشفين أمر الأندلس وقرر أن يعيد إلى المغرب والسودان استقرارهما، فأرسل الجيوش لتأديب العصاة، فأخمد الثورات وأعاد إلى الصحراء هدوءها(3).

وعكس ما أرادت أن تصل إليه الدكتورة عصمت دندش(4)، فانه يبدو بأن يوسف بن تاشفين لم يتمكن من استعادة تبعية غانة إلى حظيرة الدولة المرابطية، ذلك أن الإدريسي الذي ألف كتابه خلال منتصف القرن السادس للهجرة/ 12ميلادي، عندما ذكر ملك

---

(1) نفسه ، ص29.

(2) Fage (J.D): An introduction to the history of West Africa. Cambridge university press, New York, third edition, 1962, p22 – Delafosse(M) : Haut S –N tome 2,p55

(3) دندش: المرجع السابق،ص125.

(4) المرجع السابق،ص 125.

غانة قال بأنه كان يخطب لنفسه، لكنه تحت طاعة أمير المؤمنين الخليفة العباسي[(1)]. كما تجب الإشارة إلى أن الفتح المرابطي لبلاد السودان لم يكن غزوا أو احتلالا انتهت آثاره بمجرد انتهاء هذا الاحتلال، وإنما كان حدثا تاريخيا وحضاريا قلب مصير منطقة السودان الغربي ككل، وأحدث تحولا كبيرا في تاريخها. ولا بد من الإشارة أيضا إلى أن هجوم أبي بكر بن عمر على العاصمة الغانية، إنما كان استكمالا لعملية الفتح التي كان قد بدأها المرابطون عام 446هـ/1054م، كما أن شهادة البكري التي تذكر بأنه في سنة 460هـ/ 1068م، أي ثماني سنوات قبل غزو العاصمة الغانية كومبي صالح من طرف المرابطين،كانت هناك مدينتان، واحدة للمسلمين وأخرى للكفار، وأن للمسلمين مسجدا في مدينة الملك يصلي فيه من يفد على الملك من المسلمين، وهو على مقربة من مجلس حكم الملك[(2)]. كما أنه لم يكن يقتصر الإسلام على عامة الناس، بل كان بعض ملوك الإمارات التابعة للإمبراطورية الغانية يعتنقون الإسلام لكنهم يخفون إسلامهم، مثل ملك سمغارة (أو بغامة) وهو"فنمر بن بسي"[(3)]. وهناك من الملوك الذين أعلنوا إسلامهم بل وتحالفوا مع جيش المرابطين وأعلنوا راية الجهاد ضد غيرهم من السودان الوثنيين أمثال ملك التكرور "واردیابي" وابنه "لبي بن واردیابي" رغم أنهما كانا تحت وصاية ولو بعيدة لملك غانة[(4)]. وبعد سقوط غانة يكون ملوكها أنفسهم هم الذين حملوا راية الجهاد ونشر الإسلام في صفوف السودان[(5)]، فقد ذكر ابن سعيد أن ملك غانة كان كثير الجهاد

---

(1) نزهة المشتاق، ص38

(2) البكري، المصدر السابق، ص175.

(3) نفسه، ص 170.

(4) Delafosse (Maurice) , Les travers du temps (L'empire du Ghana),p 6. Site : http://www.cosmovision.com./crono afrique.htm.taille 171ko. Consulté le:24-01-2008.

(5)Trimingham(Spencer) ,Op.Cit, p13

للكفار[1]، وأصبح شعب السراكولي (الذي كان قبل غزو المرابطين يمثل العنصر الوثني بأتمّ معنى الكلمة) من أحسن المسلمين في كل السودان الغربي، وأخذ على عاتقه مهمة نقل العقيدة الإسلامية إلى عدة مناطق في السنغال والساحل الأطلسي ومسينا[2]. إذن فحركة المرابطين في السودان الغربي لم تكن حركة استعمارية استعملت الحديد والنار لفرض الإسلام على القبائل الصنهاجية أولا ثم على السوننكي ثانيا. و لم تكن أيضا حركة استعمارية جذبتها الرغبة في السيطرة على مناجم الذهب كما يزعم بعض المؤرخين[3]، وإنما كانت عبارة عن جزء من الحركة التي بدأ يعرفها السودان الغربي، والتي ميزها ظاهرة انتشار الإسلام التي أخذت تعرف تشعبا واتساعا في أرض السودان، بل وشملت حتى أراض كانت بعيدة عن تأثيرات المرابطين، مثل كوكو وبلاد الهوسا، وأرض الكانم في السودان الأوسط [4].

إن الفتح المرابطي للسودان الغربي قد أنهى مرحلة طويلة من التاريخ كانت تسيطر فيها مملكة غانة على أحداث السودان الغربي،كما أدى إلى الانتصار السياسي للإسلام على منطقة الساحل الواقعة بين نهري النيجر والسنغال[5]. فقد انتقل الإسلام من كونه ديانة خاصة بالتجار القادمين من الشمال وبعض السكان المحليين المحتكين بهم[6] إلى ديانة

---

(1)كتاب الجغرافيا، ص26

(2)Delafosse (Maurice) , Les noirs de l'Afrique, p48.

(3) حول هذا الموضوع أنظر.Sékéné (Mody Cissoko) ,Histoire de l'Afrique occidentale. Présence Africaine, Paris, 1966, p56.- Tidiane (N'diaye) ,Op.Cit, p28.

(4) Mussa(I.V) , On the nature of islamization, and Islamic reforme in Bilad assoudan, up to sokolo jihad, dirassat .Amman, the university of Jordan .1979, volume1, pp13 et 14.

(5) Trimingham(S) ,Op.Cit, p28

(6)Ibid,p28

الملوك، حيث انجذبت إليه بعض العائلات الملكة في السودان الغربي متأثرين بالمكانة التي أصبح يتميز بها أتباع هذا الدين[1]، وكذا بالدعاية القوية التي كان يقوم بها أصحاب عبد الله بن ياسين على ضفتي النيجر والسنغال[2].كما تحول ملوك السراكولي من أبطال وثنيين إلى دعاة ومجاهدين في سبيل الله، ومتحالفين مع المرابطين ضد الشعوب الوثنية[3]. ورغم أن الوجود المرابطي في غانة لم يدم طويلا، بحيث لم يتجاوز خمسة عشر سنة[4]، إلا إلا أنه غيّر الطابع السياسي لملوك غانة، إذ أصبحوا يعلنون تبعيتهم السياسية للخليفة العباسي في بغداد مباشرة، وأصبحوا يلبسون العمائم اقتداء بالخلفاء المسلمين. بل أكثر من ذلك أصبحوا يدعون النسب الشريف إلى ذرية الرسول صلى الله عليه وسلم، كمحاولة الانتساب إلى الحسن بن علي بن أبي طالب[5]. حتى أصبحت كلمة سوننكي وهو اسم الشعب الذي ينتمي إليه ملوك غانة، مرادف لكلمة داعية عند كثير من قبائل الماندينغ[6]. الماندينغ[6]. و لم يتوقف التأثير المرابطي في السودان الغربي بمجرد اعتناق ملوكه للإسلام أو أو سقوط دولة المرابطين، أو حتى عندما استعادت غانة استقلالها، بل استمر الدعاة الصنهاجيون، والتجار في أداء نشاطهم إلى أطول مدة، حيث أشار البرتغاليون الذين استعمروا بعض المناطق في غرب إفريقيا خلال القرنين التاسع والعاشر الهجريين /15و16

---

(1) Delafosse (M), Les travers du temps, p6.
(2) Ibid,p6
(3) ابن سعيد، المصدر السابق، ص 26.ــ الزهري، المصدر السابق، ص 126 .
Tidiane(N'diaye) ,Op.Cit, p28 .
(4)سيلا (عبدالقادر)، المسلمون في السنغال، مطابع الدوحة الحديثة، قطر، 1406هــ، طبعة أولى، ص53.
(5) الإدريسي، المصدر السابق،ص38.
(6) القلقشندى (أبو العباس أحمد)، صبح الأعشى في صناعة الانشا .المطبعة الأميرية ، القاهرة ، مصر، 1333هــ/1915م، الجزء الخامس، ص 281. ــ باري(محمد فاضل) و كريدية (سعيد إبراهيم)،المرجع السابق، ص 70.

للميلاد، أي بعد سقوط دولة المرابطين بأكثر من ثلاثة قرون، إلى وجود الدعاة من صنهاجة اللثام، ومن العرب الذين كان لهم تأثير كبير بين التكرور والجولوف والماندينغ[1].

إن مجهودات المرابطين في نشر الإسلام كانت في البداية فردية وبسيطة، ثم تطورت إلى جهود جماعية خاصة عندما تعلق الأمر بنشره بين سكان المملكة الغانية، حيث اشترك في ترسيخه الدعاة المرابطين الذين كان يرسلهم الشيخ عبد الله بن ياسين إلى القبائل الزنجية بعد تدريبهم في الرباطات[2] وعلى أيديهم أسلم ملك التكرور "وار جابي" وملك سلي الذي حسن إسلامه[3]. فكان هؤلاء الدعاة المرابطون يتعقبون الجيش الفاتح لتعليم الناس قواعد الإسلام وتعاليمه[4]. واشترك فيها أيضا ملوك السودان أنفسهم وكذا الأسر الحاكمة، خاصة بعد الاستيلاء على العاصمة كومبي وإسلام أهلها، وتحمّس ملكها تنكامين لنشر الإسلام. كما لا يجب أن نغفل الدور الذي الاقتصادي للمرابطين في السودان الغربي. فقد تمكن المرابطون من السيطرة على الطرق التجارية، وفرض الأمن على الطرق التجارية، فازدهرت التجارة بين الشمال وبلاد السودان، فكانت أيامهم أيام دعة ورفاهية، ورخاء متصل وعافية وأمن[5]. وانتقلت مع التجارة الأفكار والتعاليم الإسلامية، الإسلامية، وأصبحت المراكز التجارية مراكز للدعوة الإسلامية. فكان التجار من الفقهاء والدعاة، حيث أبهروا ملوك السودان الوثنيين بأخلاقهم ومكانتهم وخبرتهم بالمال والسياسة والإدارة، فقربوهم إليهم، وأصبحوا من حاشيتهم المقربة، ومن موظفيهم

---

(1) دندش،المرجع السابق، ص 154.

(2) عطية مخزوم الفيتوري، المرجع السابق، ص 245.

(3) البكري،المصدر السابق،ص 172.

(4) دندش، المرجع السابق،ص 151

(5) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص 167.

السامين. وعن طريقهم دخل الإسلام إلى الطبقة الارستقراطية والملكة في بلاد السودان[1]. كما انتشر الإسلام في صفوف التجار السودان، حيث أننا نجد أن أقدم المسلمين السودان هم شعوب الديولا، والونجارا الذين يعتبرون تجارا.

وبفضل التجارة نشطت قوافل الحج إلى الراضي المقدسة، فأصبحت الرحلات إلى الحج من أشهر ما أصبح يعرف به ملوك السودان، بل كتب عنها المؤرخين العرب الكثير من الحكايات ورويت عنها الأساطير[2]. وقد كانت أولى رحلات الحج هذه، هي تلك التي قام بها الملك المالي" برمندانة" في أواخر القرن الخامس للهجرة، أي بعد الغزو المرابطي لغانة بفترة قصيرة فقط[3]. كما ازدهرت في عهد المرابطين المراكز التجارية في غرب إفريقيا، والتي أثرت كثيرا على الحياة الثقافية والاقتصادية والاجتماعية في السودان الغربي، باعتبارها لم تكن تقتصر على الدور التجاري فقط، وإنما تحولت إلى مراكز ثقافية ذائعة الصيت في العالم الإسلامي ،مثل أودغست، غانة، جني وتمبكتو. ولعل أهم نتيجة تركها الفتح المرابطي لغانة بالإضافة إلى انتشار الإسلام، هو تفكك الإمبراطورية الغانية وانفصال الممالك التابعة لها، واستقلال بعض الأقاليم والقبائل الزنجية عنها بالرغم من عودة السوننكيي إلى السلطة [4]. ويعود ذلك إلى عدة عوامل أهمها:

أولا: انتشار الهجرة إلى خارج غانة، وخاصة بالنسبة للسكان الوثنيين الرافضين للإسلام، والذين عندما اقتنعوا بعدم جدوى الثورة ومقاومة المرابطين فضلوا الهجرة، وكانت

---

(1) دندش، المرجع السابق، ص 155.

(2) عن رحلات الحج التي كان يقوم بها ملوك السودان الغربي أنظر:ابن خلدون، العبر، مجلد الخامس، ص 433 (القلقشندى: صبح الأعشى، جزء 5، ص193.)

(3) ابن خلدون، المصدر السابق، ص495.

(4) باري(محمد فاضل) و كريدية (سعيد إبراهيم)، المرجع السابق،ص 71.

هجرتهم نحو الضفة اليسرى لنهر النيجر، و ذلك بحثا عن أراض أكثر خصوبة وحرية[1].

ثانيا: انتشار الفوضى داخل مملكة غانة، إذ بمجرد انهيار المرابطين واستعادة غانة استقلالها حتى عادت الروح القبلية والشقاق، وخاصة في ظل قلة الولاء لأسرة السوننكي الحاكمة، وانتشار الفوضى وقطاع الطرق، الذين أصبحوا يستولون على السكان ويبيعونهم في الأسواق[2]. فبعدما سيطر المرابطون على الأوضاع في السودان لمدة عشر سنوات معتمدين على الجهاد والرباطات والدعوة.بدأت تفقد سيطرتها على، وانبثقت الحزازات القبلية التي كانوا قد أضعفوها من قبل، فبدأت قبيلة مسوفة بالتمرد على رئاسة أي زعيم من لمتونة، ثم انتقل الأمر إلى جدالة[3]. ثم انتهزت دويلات السودان هذا الخلاف الناشب بين قبائل المرابطين لتعلن استقلالها، حيث استقلت مملكة غانة التي يذكر الإدريسي ملكها بأنه أصبح مستقلا ويخطب لنفسه، لكنه تحت طاعة أمير المؤمنين الخليفة العباسي [4]. فكان لهذان العاملان دور كبير في تغيير الخريطة السياسية لمنطقة النيجر الأعلى والسنغال فظهرت عن تفكك مملكة غانة ممالك سودانية جديدة خرجت من رحم غانة، لكنها نافستها على زعامة السودان الغربي، الذي ظلت متربعة على عرشه لمدة أكثر من سبعة قرون بدون منازع. فلقد كان القرن الخامس للهجرة/11م، هو قرن التحولات الكبرى بالنسبة لمنطقة النيجر والسنغال العلويين. فبالإضافة إلى انتشار الإسلام في المنطقة، فانه

(1) Delafosse (M) ,Les travers du temps, pp5et6 ـــ Delafosse (M) : Les noirs de l'Afrique, p48.
(2) Tidiane (N'diaye) ,Op.Cit, p28.
(3) دندش، المرجع السابق، ص136.
(4) المصدر السابق، ص5.

شهد ميلاد قوى سياسية جديدة تمخضت عن سقوط غانة، حيث انتقلت السيادة من السوننكي إلى الصوصو، والمالنكي، والسونغاي والتكرور[1].

3.ظهور مملكة الصوصو وسيطرتها على منطقة النيجر:

إن سقوط إمبراطورية غانة أمام هجمات المرابطين و تفككها، كان عاملا لظهور ممالك جديدة كانت في الأصل تابعة للإمبراطورية المنهارة.حيث استغلت هذه الممالك الفرصة للبروز كدول مستقلة ، ولعب دور في منطقة النيجر والسنغال العلويين منذ أواخر القرن الخامس للهجرة. ولعل أهم هذه الممالك الناشئة مملكة "الصوصو"، التي استغلت تراجع سلطة ملوك غانة وانحصارها على منطقتي أوكار وباسيكونو لتعلن انفصالها عن المملكة الأم، وتحقق استقلالها. ومافتئت أن توسعت حتى أصبحت إمبراطورية واسعة[2]، وأعلنت نفسها سيدة وخليفة الملك الغاني، وفرضت الجزية على مجموع شعوب المنطقة[3].

وتعد إمارة الصوصو من الممالك التي كانت تجاور مملكة غانة من جهة الشرق[4]، وهي من الممالك القديمة في السودان الغربي، وهي امارة اشتهرت باسم الشعب الذي يسكنها وهو الصوصو[5] الذي يعد من العناصر الزنجية العريقة في السودان الغربي. كما

(1)Cornevin (Robert et Mariane), Histoire de l'Afrique (des origines à la deuxième guerre mondiale) .4ème édition. Editons : Petite bibliothèque Payot, Paris, 1964, p349.

(2) Fage (J.D) ,Op.Cit, p22

(3) Amado (Bano Barry), Op.Cit p63

(4) ابن خلدون، العبر، المجلد السادس، ص 435.

(5) يذكر دولافوس بأن الاسم الأصلي لهذا الشعب هو"صوصي Sossé " وأن ابن خلدون هو الذي حرفه إلى صوصو. ــ Delafosse :Haut S-N, tome 2,p162

يعد من العناصر السوننكية المنتمية إلى شعوب ماندينغ الشمال[1]، وهناك من ينسبهم إلى المالنكي نظرا لمجاورتهم لهم[2]. لكن الروايات الشفوية المحلية تنسبهم إلى إحدى العائلات السوننكية التي استقرت في منطقة الأوكر خلال فترة حكم الملوك البيض لواغادو(غانة)، حيث كانوا من أحفاد خدم الإمبراطور الغاني ذي الأصول البربرية، والذي حكم غانة قبل استيلاء السوننكي على السلطة في غانة[3]. وكانت هذه العائلة تدعى عائلة "دياريسو". وحسب الروايات الشفوية دائما فان هناك عدد كبير من العائلات السوننكية التي كانت مقيمة في دياغا (Diagha)[4]، هاجرت مع نهاية القرن السابع للميلاد إلى منطقة واغادو، وفي طريقها مرت بعدة مناطق محاولة تأسيس مستعمرات لها. وكان قائد تلك الهجرة والملقب بديغنا (Digna) هو الجد الأول للعائلة الملكة قد غادر دياغا على رأس 300 رجل مسلح ، وأسس في طريقه عدة مستعمرات اتحدت فيما بينها مكونة دولة قوية ن هي مملكة واغادو أو غانة[5].

ومع نهاية القرن السابع للميلاد استدعى ملك غانة زعيم إحدى العائلات المهاجرة ويدعى غوماتي فادي (Ghoumaté-Fadé) وهو جد عائلة "دياريسو" أو"دياريسي"، ومنحه

---

(1) Delafosse(M) :Haut S-N,tome 1,p265

(2) نياني(تمسير جبريل)،تاريخ إفريقيا العام، مج 4، ص137.

(3) Delafosse , Op.Cit, p265.

للإشارة فان مملكة غانة حكمها البيضان في أول أمرها، وهم من المهاجرين من شمال إفريقيا، وامتد حكمهم من القرن الأول الميلادي إلى غاية نهاية القرن الثامن الميلادي، حيث انتقل الحكم إلى أسرة السوننكي السودانية.(الدالي الهادي مبروك، التاريخ السياسي والاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء. الدار لمصرية اللبنانية، القاهرة، طبعة أولى، 1999م، ص ص 24و25).

(4) دياغا Diagha أو دياكا diaka، وهي المنطقة الممتدة من "ديبو Débo" إلى "سانساندينغ Sansanding" على نهر النيجر، و تعد مهد الماندي أو مالي القديمة.(Delafosse :Op.Cit, p265)

(5) Delafosse ,Op.Cit, p265, p265

الجزء لشمالي من المملكة الذي يضم بيليدوغو(Belédougou)، و دياميرا ــ صوغونا (Diaméra-sogona) بالإضافة إلى الجزء الجنوبي لكانياغا(Kaniaga)[(1)]. وكان يحكم هذه المناطق باعتباره موظفا لدى ملك واغادو(غانة)، لكن بعد مرور أربعين سنة تحول غوماتي-فادي إلى زعيم مستقل لإمارة صغيرة تسكنها عائلته وعائلات دياميرا- صوغونا. لكن هذه الإمارة الفتية ما لبثت أن ضمنت إلى إمبراطورية غانة، و شكلت مملكة صغيرة تابعة لها[(2)].

بقي وضع هذه المملكة كتابعة لإمبراطورية غانة إلى غاية الهجوم المرابطي عليها عام 469 هــ /1076م، حيث تسبب هذا الغزو في حركة هجرة واسعة في صفوف السوننكي، وهرب عدد كبير من سكان الإمبراطورية، وغادروا منطقة الأوكر، واتجهوا نحو كانياغا أين التحقوا بأبناء جلدتهم[(3)]. وأسس السوننكي في كانياغا الدولة التي تزعمتها عائلة "دياريسو" المنحدرة من الجد غوماتي- فادي[(4)]. وقد ساعد على إقامة هذه المملكة تلك الهجرات الفلاتية القادمة من بلاد التكرور، حيث تزوجوا من فتيات أحدى قبائلهم المهاجرة والتي تسمى صو (Sow)، فأطلق على بلدهم اسم "صوصوبي" والذي

---

(1)كانت كانياغا تقع شمال بلاد ماندي، وقد أطلق عليها المالنكي اسم كانييكا Kanieka وتعني في لغتهم الشمال، ثم حرفه السراكولي وتحول إلى كانياغا انظر:

Moussa Fofana ,Point d'histoire, le royaume de sosso Ou Kiniaga. in Site : http:// www.maliweb.net/catégory. Consulté le:30-07-2007.

(2)Delafosse :Op.Cit, p163

(3) Ibid, p265

(4) Ibid,p267

عندما اختصر أعطى "صوصو". وهناك روايات أخرى تقول بأن كلمة صوصو تعني بالسوننكي بلاد الأحصنة[1]. وبعد وفاة أبي بكر بن عمر، وزوال عهد المرابطين في غانة، باستقلال هذه الأخيرة، فان ملوك غانة لم يعودوا أقوياء بالدرجة التي تسمح لهم باستعادة سيطرتهم على المملكة الصغيرة التي ظهرت في الجنوب، حيث حافظت كانياغا على استقلالها، وأصبحت تطمح بدورها لكي تصبح إمبراطورية [2].

وتروي الروايات الشفوية المحلية، بأن عائلة دياريسو ضمت سبعة أمراء تعاقبوا على الحكم منذ سقوط غانة عام469هــ /1076م إلى غاية سنة 575هــ /1180م. أولهم كان يدعى "كمبيني دياريسو" والذي ينحدر من سلالة غوماتي ــ فادي. وكان مسنّا عندما نظّم الدولة مباشرة بعد سقوط غانة، حيث أقام عاصمته في منطقة قريبة من غيسيني (Guesséné) التي أصبحت تسمى فيما بعد صوصو. وبعد وفاته خلفه ابنه سليمان سنة 482هـ/1090م، أي بعد وفاة الأمير اللمتوني أبي بكر بن عمر. ثم جاء بعده ابنه بانا-بوبو(Bana- Boubou) الذي حكم بين سنتي (423 و 513 هـ/ 1100و1120م)، و خلال فترة حكم هذا الأخير ظهر الفلاتة في كانياغا قادمين من الغرب، أين استقبلتهم عائلة دياريسو[3]. لقد حكم بعد بانا-بوبو ابنه ماخان (Makhan) بين (513 و 524 هـ/1120و1130م) والذي عرف أيضا باسم " واغادو ماخان"، لأن أمه كان أصلها من واغادو، وكانت قد أنجبته هناك. ثم خلفه الملك غاني (Gané) الذي حكم بين 524

---

(1) Moussa (Fofana) ,Op.Cit – Fage (J.D) ,Op.Cit, p22
نبيلة(حسن محمد)، المرجع السابق ص197

(2) Delafosse (M) ,Haut S-N, tome2, p163

(3) Ibid, p163

و534 هـ/ 1130و 1140م، ثم جاء بعده الملك موسى (534 و 554هـ/1140 و1160 م)، ثم بيراما (بين 554 و 574هـ/1160 و1180 م). وكلهم ينحدرون من سلالة كمبيني ودياريسو الحاكمة، حيث كان بيراما هو الآخر أميرا من عائلة دياريسو(1). ولقد كانت عائلة دياريسو الحاكمة وثنية شرسة، لم تعتنق الإسلام لما انتشر في ربوع غانة، واستمرت في عدائها الشديد للمسلمين(2)، وكانوا يمارسون منذ القدم الزراعة والصيد بالإضافة إلى ممارستهم للتجارة(3)

إن المصادر التاريخية لا تتحدث كثيرا عن مملكة الصوصو لما كانت تحت حكم أسرة دياريسو، واكتفت المصادر الشفوية بنقل الروايات الخاصة بنشأتها وأصولها، وهذا ربما يعود إلى أن هذه الحقبة تم تغطيتها من طرف الحقبة التي تلتها، والتي كانت أكثر أهمية منها، وذلك بظهور أسرة كانتي على مسرح الأحداث. ذلك أن الأمير بيراما وهو آخر أمراء الصوصو ينتمي إلى عائلة دياريسو ترك تسعة أبناء من زوجتين مختلفتين، ولما توفي حاول ابنه الأكبر من المرأة الأولى أن يستولي على الحكم ، لكنه وجد منافسة شديدة من طرف أخيه البكر الآخر من الزوجة الثانية.أما الإخوة الآخرون فكل واحد منهم انظم إلى أخيه الحقيقي ضد الأخ من الأب فقط، مما أدى إلى اندلاع حرب حقيقية بين الطرفين، وقد شعر أبناء المرأة الثانية بأنهم ضعفاء، لذلك استنجدوا بزعيم يسمى ديارا-كانتي (Diara-Kanté)، وهو أحد أكبر القادة العسكريين المخلصين لآل دياريسو وللزعيم

---

(1) نبيلة حسن محمد، المرجع السابق، ص197 -
Delafosse (M), H S-N, tome2, P16. - Moussa(Fofana) ,Op.Cit.

(2) Devery (Muriel) , La guinée. Edition Karthala, Paris, 2009, p75.

(3) Alhassane (Chérif) ,L'importance de la chez parole les Mandingues de la Guinée, Editions l'harmattan, Paris, 2005, p47

الراحل بيراما. فتدخل ديارا كانتي لصالح أبناء المرأة الثانية، فانتصروا على إخوانهم ،لكن هؤلاء المنتصرين اختلفوا هم بدورهم فيما بينهم مرة أخرى حول من يعتلي العرش منهم، فدخلوا في صراع جديد، لكن هذه المرة كان الصراع بين الإخوة الأشقاء، وهو ما جعل القائد ديارا كانتي يستغل هذه الفوضى والاضطرابات ويستولي على العرش، ويفتك الإعتراف به كإمبراطور من طرف النبلاء، وقام بنفي كل أبناء بيراما إلى منطقة كارتا (Kaarta) وهكذا انتقل الحكم في مملكة الصوصو في كانياغا من عائلة دياريسو إلى عائلة كانتي[1].

هناك اختلاف كبير بين الروايات الشفوية المحلية حول أصل القائد ديارا كانتي، فبينما تنسبه معظم الروايات إلى طبقة الحدادين[2]، فان روايات أخرى تنسبه إلى طبقة المحاربين[3]، وهناك من يجعله يشترك في النسب مع آل دياريسو النبلاء[4]، وبذلك يجعلونه من الونغارا، وهم التجار السوننكي[5]. ونحن نعتقد بأن هذا الاختلاف مرجعه إلى المكانة التي كانت تتبوؤها الحرف والمهن عند الماندينغ عموما وعند السوننكي خصوصا، إذ أن التقسيم الطبقي للمجتمع، والمكانة الاجتماعية للعائلات وأفرادها إنما تتحدد انطلاقا من الحرف. فنجد أن هذه المجتمعات كانت مقسمة إلى عدة طبقات على أساس الحرف التي يمارسونها .فطبقة المحاربين والرواة الشفويين ورجال الدين كانت تتربع على عرش الطبقات الاجتماعية، وكانت تعرف بالطبقات النبيلة أو الارستقراطية بمفهومنا

---

(1) Delafosse (M) , H S-N, tome 2, p165.
(2) Nambala(Kanté)et Erny(Pierre) , Forgerons d'Afrique noire. Transmission des savoirs traditionnels en pays Malinké. Éditions l'harmattan, Paris, 1993, p50
(3)Delafosse (M) ,Op.Cit, p165
(4) Mussa (Fofana) ,Op.Cit
(5) نبيلة حسن محمد، المرجع السابق، ص 197.

الحديث، بينما تقبع في أسفل السلم الاجتماعي طبقة المنبوذون من الحدادين والعبيد[1]. لهذا نجد من المؤرخين الأفارقة من يحاول أن ينكر كل الروايات التي تدعي انتساب آل كانتي إلى طبقة الحدادين ويحاولون إثبات نسبهم إلى عائلة نبيلة، من منطلق تمجيد التاريخ القومي، ويستندون في ذلك إلى وظيفة ديارا كانتي كقائد حرب عن استيلائه على الحكم، وحجتهم في ذلك أن طبقة المحاربين هي من النبلاء[2]. ومنهم من لا يكلف نفسه مهمة إنكار نسبة آل كانتي إلى طبقة الحدادين، ولا يجد حرجا في أكيد هذا النسب، بل يذهب بعضهم إلى إثبات نبل مهنة الحدادة، ومن ورائها طبقة الحدادين، حيث يذهب هؤلاء إلى أن الحدادين كانوا أشخاصا عاديين، بل أكثر من ذلك كانوا محبوبين من طرف عامة الناس، ويشيرون أيضا إلى أن هذه المهنة بقدر ما كانت مخيفة فإنها كانت نبيلة في نفس الوقت. ومنهم من يذهب إلى أبعد من ذلك عندما يدّعون بأن كبير رجال الدين (وهو الزعيم أو الملك) يكون دائما من طبقة الحدادين عند الماندينغ، وبذلك يقولون بأن انتماء ديارا كانتي لطبقة الحدادين هو الذي جعله يصل إلى عرش مملكة الصوصو[3]. ومهما كانت التبريرات التي قدمها أصحابها، فإننا نعتقد بأن ديارا كانتي كان ينتمي إلى طبقة الحدادين، وذلك حسبما تؤكده أغلب الروايات الشفوية وتتغنى به، ثم ارتقى إلى طبقة المحاربين مستغلا الشقاق الذي دبّ في أوساط عائلة دياريسو، إلى أن أصبح قائدا للجيش. أما الاسم الذي أطلق على هذه العائلة وهو كانتي(Kanté) فان أشهر الروايات التي يرويها المالنكي ترجعه إلى فترة اعتلاء زعيم الصوصو الجديد للحكم، عندما خطب في السكان قائلا لهم:((يا سكان ماندي، إنني أول ملك أصله من هذا البلد، وتعلمون كلكم ذلك،

(1) انظر: Majhemout(Diop) ,Histoire des classes sociales dans l'Afrique de l'ouest. Le Mali. Editions ,l'harmattan, Paris, 1985, pp43 et 44 .
(2) Amadou (Hampàté Bà) , Histoire du Sahel occidental Malien , Des origines à nos jours .Éditions ; Jamana, 1989, p244.
(3) Majhemout (Diop) ,Op.Cit, p53.

وان القوانين التي تحكم الممالك المنضوية تحت إمرتي يجب أن تلقى الإجماع كلها، فأنا لم أخترعها فهي لم تصدر مني.))، وكانت كلمة (لم تصدر مني) تنطق بالمالنكي بالشكل التالي: (ني ــكانتي Né - Kanté)، ومنها أخذ المالنكي اسم العائلة التي أصبحت تحكم بلاد صوصو[1].

بدأ حكم آل كانتي حوالي عام 574هـــ/1180م، ولم تضم هذه العائلة سوى ملكين فقط وهما "ديارا كانتي" وابنه "سومنغورو كانتي"[2] لم تحظ فترة حكم ديارا كانتي بكثير من الاهتمام والتفاصيل من طرف المؤرخين على عكس فترة حكم ابنه سومنغورو أو"ساوماورو" الذي تمجده الروايات الشفوية الخاصة بالسوننكي باعتباره مؤسس إمبراطورية استطاعت أن تهيمن على المنطقة العليا من النيجر والسنغال، وأن تخلف الإمبراطورية الغانية المنهارة وتحل محلها. كما تذكره المصادر الخاصة بالمالنكي وتصوره كأكبر طاغية ارتكب مجازر فضيعة في حق الكثيرين منهم، وفي مقدمتهم آل كيتا. لكن يبقى ديارا كانتي هو مؤسس أسرة كانتي الوثنية التي ملكت رقاب الصوصو، و التي عرفت بكرهها الشديد للإسلام والمسلمين[3]. والتي بدأت تتوسع على حساب الأراضي المجاورة لها،و خاصة أراضي المملكة الغانية، وأخذ بذلك يمهد لقيام إمبراطورية واسعة ستقوم على ساعدي ابنه سومنغورو.

بعد وفاة ديارا كانتي عام 1200م انتقل عرش مملكة الصوصو لابنه سومنغورو، الذي ورث عن أبيه مملكة تضم ستة عشر مجمعا سكانيا تابعا للماندينغ[4]، ثم بدأ هو بغزو

---

(1) Mussa (Fofana) ,Op.Cit.
(2)Delafosse(M) ,H S-N tome2,p165
(3) Devey(Muriel) ,Op.Cit, p76.
(4) Nambala (Kanté) ,Op.Cit, p48. نياني (تمسير جبريل)، المرجع السابق، ص 137

الممالك الصغيرة المجاورة لمملكته، وأسس جيشا منظما وقويا، وبدأ يتطلع للسيطرة على جميع بلاد الماندي[1]. فلقدك ان سومنغورو غازيا كبيرا، وضع نصب عينيه إقامة إمبراطورية كبيرة للصوصو تكون على حساب غانة والممالك المجاورة له[2]، وبالتالي أصبحت مملكة الصوصو في عهده القوة الضاربة في منطقة نهر النيجر والسنغال بدون منازع إلى غاية ظهور سونديااتا كيتا مؤسس إمبراطورية مالي.

4 . مملكة سنغاي في منعطف النيجر:

رغم أن هذه المملكة تعد أعرق وأقدم ممالك نهر النيجر على الإطلاق، إلا أن دورها البارز في المنطقة لم يبدأ إلا في أواخر القرن الخامس للهجرة، وذلك بصعود فرع قبائل السنغاي الصيادين إلى النيجر الأعلى[3]، واعتناقهم الإسلام، فأصبحت مملكتهم المجاورة لإمبراطورية غانة والمعاصرة لها من الدول المؤثرة في المنطقة.

إن كلمة"سونغاي" تطلق على شعب وعلى منطقة في آن واحد[4]، أما الشعب الذي تنسب إليه المملكة، فهو من الشعوب السودانية في الأصل، لكن امتزج مع عناصر أخرى من البربر، والعرب، واليهود،والفلاتة[5]، بالإضافة إلى مجموعات أخرى من "الغورمانشي" و"الموسي"، وهم الصيادون البرّيون، والقادمون من الغابات الاستوائية، وكذا مجموعة من "السوركو أو السورخو" القادمين من شرق النيجر وهم من الصيادين النهريين[6]. والذين

(1) Cissé (Youssouf tata) : Notes sur les sociétés des chasseurs Malinké. Journal de la société des Africanistes .Tome 34, fascicule n°2, 1964, pp220 et 221.

(2) بانيكار (ك.مادهو)، الوثنية والإسلام ـــ تاريخ الإمبراطوريات الزنجية في غرب إفريقيا. ترجمة:أحمد فؤاد بلبع، المجلس الأعلى للثقافة ،1998، طبعة2، ص93.

(3) نياني(تمسيرجبريل)، المرجع السابق،ص 133 ــ Delafosse(M), Les noirs de l`Afrique, p53

(4)Trimingham (Spencer) ,Op.Cit, p84

(5)Delafosse (M) , Haut S-N, tome1, p289

(6)Trimingham(S) ,Op.Cit, p84

والذين كانوا أول من استقر في منطقة "كوكيا"، وذلك قبل القرن السادس للميلاد، واستطاعوا بسط سيطرتهم على طول نهر النيجر الأعلى[1]. أما المنطقة التي شكلت أرض بلاد سنغاي، فهي بدون شك الضفة الشرقية لنهر النيجر انطلاقا من الحدود الحالية للنيجر، أي من منطقة بوروم (Bouroum)[2] إلى غاية منطقة كوكيا عند انحناء نهر النيجر، مرورا بمنطقة داندي القديمة[3]. أما قاعدة ملكهم الأولى و مقر العشيرة الحاكمة الأولى فكانت مدينة كوكيا، قبل أن تنتقل إلى الشمال إلى مدينة كوكو أو"كاوكاو"التي كانت قبل ذلك مركزا تجاريا[4] .

وكان الظهور الأول لمملكة سنغاي يعود إلى القرون الميلادية الأولى، حيث يرى دولافوس بأن تأسيس مملكة سنغاي الأولى يرجع إلى القرن السابع للميلاد/ الأول للهجرة[5]، وذلك عندما كانت جماعة من السكان وهم الصيادون النهريون المعروفون بالسوركو (Sorko) تستغل سهولة المواصلات النهرية بفضل قوارب الصيد، لفرض سيطرتهم السياسية على نظرائهم من السنغاي المزارعين المعروفين باسم "غابيبي

(1) Trimingham(S) ,Op.Cit,pp 84 ,85.

(2) هي مقاطعة تابعة لجمهورية بوركينا فاسو الحالية ، وتوجد في إمارة نامنتنغا (Namentenga) ضمن المنطقة الوسطى الشمالية للبلاد .

(3) لا توجد داندي هذه في خرائط اليوم، لكنها كانت متواجدة شمال نيامي الحالية. أنظر:
Trimingham (S) :OP.Cit, P48 - Barth (Henri) :Op.Cit, p10
فيج (جون.د)، تاريخ غرب إفريقيا.ترجمة و تعليق:السيد يوسف نصر، دار المعارف ، القاهرة ، طبعة أولى 1982، ص62 .

(4) Trimingham(S),OP.Cit, P48 - Delafosse(M) ,H S-N, tome2; p60

(5)Les noirs de l'Afrique,p53

(Gabibi)[1] حيث كانت عشائر السوركو الصيادين تشن هجمات وغزوات على جيرانهم الفلاحين مستعملين قواربهم، إذ يخطفون وينهبون مخازن غلاتهم من الحبوب والخضر، ويستولون على متاعهم، ويقتلون كل من يعترض طريقهم، ثم يهربون. وذلك لأن السوركو لم يكونوا مزارعين، فيلجأون إلى هذه الطريقة لتوفير غذائهم [2]. وبهذه الطريقة أقامت قبائل السوركو عدة مستوطنات على طول ضفة نهر النيجر، فارضين سيطرتهم على المزارعين، وتوغلوا شمالا حتى وصلوا إلى منطقة كوكيا أوكونكيا[3]. وفي هذه الأثناء وصلت جماعة من المهاجرين وهم من بربر لمطة، قادمين من طرابلس إلى كوكيا أين استقبلهم السونغاي المزارعين، ورحبوا بهم، وأكثر من ذلك منحوهم نسبا شريفا معتقدين بأنهم سوف يكونون حلفاء لهم ضد الغزاة من الصيادين السوركو[4]. وكان زعيم اللمطيين هذا يدعى "زا الأيمن" أو "زا اليمن"، والذي حسب السعدي اشتق اسمه من اليمن، إذ قيل بأنه خرج هو وأخوه من أرض اليمن سائرين في أرض الله تعالى حتى انتهى بهما القدر إلى بلد كوكيا، وقد وصلاها وهم في بئس الحال حتى كادت صفة البشرية تزول عنهما من الوسخ والعري، حيث كانت أجسادهما عارية لا تكسوها إلا خرق الجلود. فلما وصلا إلى كوكيا سألهما أهل البلد عن المكان الذي جاءا منه فقال

---

(1) Delafosse(M) , H S-N,tompe1 ;p240

(2) على باري وكريدية ، المرجع السابق، ص 110.ـــ ويذكر (Trimingham ,Op.Cit, p84) بأن السوركو كانوا موزعين على عشيرتين هما: "فاران" و" فونو"

(3) يقول دولافوس(المرجع السابق،ص242) أن كوكيا تقع في جزيرة "بنتيا" في نهر النيجر ، بينما يذهب السعدي(المصدر السابق،ص4) إلى أن كوكيا قديمة جدا ،و هي واقعة في ساحل البحر(يقصد نهر النيجر) في أرض سغي.

(4) Delafosse(M) ,Op.Cit,p240

الأخ الأكبر جاء من اليمن، فأصبح أهل كوكيا يرددون "زا الأيمن"مغيّرين الّلفظ لتعسّر النطق به لديهم[1].

قام زا الأيمن وأصحابه بمحاربة السوركو الساكنين بجزيرة كوكيا، وطردوهم منها واستقروا بدلهم هناك، ثم قام السنغاي المزارعون بتنصيب زا الأيمن أو "ديا اليمن"(كما يسميه آخرون) ملكا عليهم، وأدّوا له يمين الطاعة كمكافأة له على تخليصه لهم من السوركو. بعد ذلك امتدت سلطته على كل السنغاي الساكنين بين جزيرة "بنتيا" إلى غاية كبيي (Kebbi)[2]. وهناك رواية أسطورية يذكرها السعدي تتعلق بوصول زا اليمن إلى كوكيا وتنصيبه ملكا عليها ومفادها أن أهل كوكيا المزارعين كانوا وثنيين يعبدون وثنا هو عبارة عن شيطان تمثل لهم في صورة حوت يعيش في النهر، وكان يأمرهم وينهاهم فيأتمرون بأوامره، ويتجنبون نواهيه، فلما رأى زا اليمن هذا الضلال منهم، قرر قتل هذا الحوت، فرماه بسهم من الحديد في يوم حضورهم إليه فقتله، وخلّصهم منه، فبايعوه وجعلوه ملكا، وكان مسلما[3]. ورغم أن دولافوس يورد هذه الحادثة ويصدقها، ويذهب إلى أنها حدثت سنة 690 ميلادية[4]، لكنه يرى في نفس الوقت بأن السعدي استعمل هذه الأسطورة كتعبير رمزي فقط للتعبير عن الظلم الذي كان يمارسه السوركو من نهب وسلب على المزارعين في كوكيا[5]. لكنه يختلف مع السعدي حول الأصل اليمني لزا الأيمن ومرافقيه، بل ويختلف معه أيضا حول إسلامهم، ويرجح أنهم كانوا مسيحيين[6].

---

(1) السعدي،المصدر السابق، ص4

(2) كبي Kebbi :هي ولاية تقع شمال غرب جمهورية نيجيريا الحالية، عاصمتها هي "بيرنين كبي Bernin Kebbi ".

(3) المصدر السابق، ص4

(4) Les noir de l'Afrique, p53

(5) Haut Sénégal- Niger, tome 1 ,p241.

(6) Ibid,p241.

إلا أنه لم يقدم لنا ما يثبت ترجيحه هذا. أما المصادر العربية فأنها لا تشير إلى أصل مؤسس إمارة كوكيا، إن كان عربيا أو بربريا، أو كان أسودا أم أبيضا، باستثناء المسعودي الذي يشير إلى أن الكوشيين من أبناء حام بن نوح الذين هاجروا باتجاه المغرب، وعاشوا وراء شرق إفريقيا في بلاد البجة، والنوبة، والزنج، تضمنت هجراتهم أيضا إلى أرض زغاوة وكاوكاو(1).

ورغم أن عبد الرحمان السعدي يعد أهم المصادر التي تحدثت عن بداية تاريخ مملكة سنغاي، وأغزرها من حيث المعلومات، حيث أخذ عنه جل المؤرخين الغربيين، إلا أنه لم يذكر شيئا عن تاريخ بداية حكم زا الأيمن في كوكيا، ولا عن اسمه الحقيقي قبل أن يلقبه أهل لمطة بهذا الاسم، حيث يقول: ((ولا نعلم من ابتدأ منهم، ولا تاريخا لخروجه من اليمن، ولا لوصوله إليهم، ولا اسمه، وبقي اللفظ (أي لقب زا - اليمن) علما له وصار لقبا لكل من تولّى بعده من الملوك))(2) . لكن إذا ما علمنا بأن مدينة كوكو أو "جاو" التي تأسست بعد قدوم زا - الأيمن إلى كوكيا كانت موجودة في عهد اليعقوبي الذي ألف كتابه عام 258هـ /872 م، حيث يذكرها على أنها من أعظم ممالك السودان، وأجلها قدرا، وأعظمها أمرا وكل الممالك تعطي لملكها الطاعة(3). كما نجدها مذكورة عند

يركز دولافوس (Haut S- N, tome2, p60) على الأصل البربري لزا الأيمن وأصحابه، وينسبهم إلى بربر لمطة، ويرى بأن ما يدعيه السعدي من أن اسمهم مشتق من كلمة "جاء من اليمن" غير صحيح ويرجح بأن الهدف من تلك الأسطورة وذلك التفسير الذي رواهما السعدي هو مجرد مكافأة لزا الأيمن ومرافقيه لتخليصهم من بطش السوركو، بحيث أعطوهم هذا النسب اليمني الذي يعد نسبا شريف .

(1) أخبار الزمان، ص ص 90 و91. و نشير هنا إلى أن زغاوة هي التي تقصد بها المصادر العربية كوكيا
(2) المصدر السابق، ص 5 .
(3) اليعقوبي(أحمد بن أبي يعقوب)، تاريخ اليعقوبي.دار صادر، بيروت،1960، المجلد الأول، ص 191.

ياقوت الحموي في معجمه الذي نقل معلوماته عن المهلبي الذي كتب مؤلفه سنة 374هـ/ 985 م[1]، فان ذلك يقودنا إلى الاعتقاد بأن تأسيس أول مملكة لسنغاي بكوكيا من طرف زا الأيمن يكون قبل القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد.

ومهما يكن فان عدد مهم من السوركو لما طردوا من كوكيا، توجهوا خلال هذه الفترة إلى نحو نهر النيجر الأعلى لتأسيس مستوطنات جديدة، فقام أحد الصيادين السوركو يدعى "فارام بر" أو" فاران الأكبر" بتأسيس مدينة "جاو" **أو** "كوكو" .وهي عبارة عن مملكة صغيرة مستقلة، بينما قامت عشيرة أخرى من السوركوو هي عشيرة "فانو"بالتوجه منطقة بيرام والاستقرار بها[2]. وكان خلفاء فاران بر في صراع دائم تقريبا مع الزعماء اللمطيين من خلفاء زا الأيمن في كوكيا، إذ أن أحد الأمراء السوركو وهو كوبي - تاكا (Kobé-Taka) قتل في إحدى المعارك التي جرت في الضفة اليمنى لنهر النيجر مع أمراء كوكيا، فحاول ابنه فاران- نابو(Faran-Nabo)أو نابونكي (Nabonké) الثأر له، لكنه بعدما حقق بعض الانتصارات على أمراء لمطة وفرض سيطرة ظرفية على شمال جنوب جاو، سرعان ما تم دحره وانهزم على يد خلفاء زا الأيمن، فترك لهم جاو التي غادرها[3] .

كانت جاو أو كوكو تتمتع بخصائص استراتيجة، جغرافية، اقتصادية وعمرانية أهم بكثير من العاصمة كوكيا، حيث تحولت إلى مركز تجاري كبير منذ أواخر القرن السادس

---

(1) الحموي(شهاب الدين)، معجم البلدان. مطبعة السعادة، مصر، 1906م، طبعة أولى، المجلد السابع، حرف "الكاف"، ص ص 301 و 302.

(2) Delafosse (M),H S-N, tome 1, p241.
(3)Ibid, p241.

للهجرة/9م. فنجد في أسواقها ملح الصحراء، وسلع مصر وليبيا وإفريقية.[1] كما كانت تربطها علاقات تجارية مع إمارة ورقلة التي تعد أقدم مركز تجاري يوجد على الحدود الشمالية للصحراء[2]. وكانت كوكو محطة للقوافل التجارية المتجهة نحو شمال إفريقيا عبر منطقة كيدال بأدرار، أو القادمة من تادمكة، وتلك القادمة من مصر وشمال إفريقيا.[3] ما أنها أضحت قبلة للدعاة والفقهاء أيضا[4]. وهذا الموقع الاستراتيجي والدور الاقتصادي الحيوي الذي أصبحت تحظى به مدينة جاو كان جديرا بأن يلفت انتباه ملوك كوكيا نحوها. لذا فبعدما كانت كوكيا عاصمتهم الأولى، وقاعدة حكمهم لمدة ثلاثة قرون، نقلوا عاصمتهم إلى جاو التي ستضل عاصمة مملكة سنغاي، وكذا الإمبراطورية السنغائية التي قامت بعد ذلك على أنقاض إمبراطورية مالي[5]. وبانتقال السنغاي إلى عاصمتهم الجديدة جاو أو كوكو تبدأ المرحلة الهامة من تاريخهم، وذلك مع أواخر القرن الرابع للهجرة/10م[6] .

إن هذه المرحلة تعد أكثر المراحل شهرة بالنسبة لتاريخ مملكة سونغاي [7]، حيث تكلمت المصادر العربية عن ازدهار المملكة وعاصمتها الجديدة المعروفة بجاو (أو كاوكاو أو كوكو)، على خلاف المرحلة السابقة أثناء وجودها في كوكيا. فنجد مؤرخي الرابع

---

(1) Lilliane(Prévost) et Isabelle (De courtilles) , Op.Cit, p13
(2) Barth(Henri) :Op.Cit,p11
(3) Trimingham(S) :Op.Cit,p p 84 et 85

(6) الشكري (أحمد)، المرجع السابق، ص 103.

(1) الشكري (أحمد)، المرجع السابق، ص 102.

(6) الدالي(الهادي مبروك)،التاريخ سياسي و الاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء.من نهاية القرن15الى القرن18م. الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، طبعة أولى، 1999م، ص 95.

(7) خلال هذه المرحلة بلغت شهرة ملوك جاو القارة الأوربية ، حيث ربطت علاقات دبلوماسية مع ملوك الأندلس بإسبانيا. أنظر: Cornevin (Robert et Mariane) ,Op.Cit, p162.

والخامس الهجريين قد زوّدونا بمعلومات قيمة حول كوكو والدور الذي أصبحت تضطلع به، ليس بالنسبة لمملكة سنغاي فقط، وإنما بالنسبة للسودان الغربي ككل. فاليعقوبي المتوفى سنة292هـــ/905 م، يقول عنها أنها كانت في عصره من أعظم ممالك السودان وأجلها قدرا وأعظمها أمرا. وكانت الممالك تعطي لملكها الطاعة، وهناك عدة ملوك تابعين لملك كوكو ويعطونه الطاعة ويقرون له بالرئاسة، رغم أنهم كانوا ملوكا لبلدانهم، ومن هؤلاء يوجد ملك المرو، ملك مردية، ملك الهربر، ملك صنهاجة، ملك تذكير، ملك الزيانير، ملك أرور، وملك بقاروت. وكلهم ينتسبون إلى مملكة كوكو[1]. أما ياقوت الحموي فرغم انه توفي عام 626هـ/1229م إلاّ أنه نقل معلوماته حول كوكو وملوكها عن المهلبي الذي كتب عنها عام 374هـ/985 م، بحيث يقول بأنها كانت بها مدينتان واحدة شرقي النيل(النيجر) وتسمى سرناه بها أسواق ومتاجر و يقصدها الناس من كل البلدان. ومدينة أخرى غربي النيل خاصة بإقامته(أي الملك) هو وثقاته، وبها مسجد يصلي فيه ومصلى الجماعة. وله فيها أيضا قصرا لا يسكنه معه أحد[2]. ومن مؤرخي القرن الرابع للهجرة الذين يذكرونها أيضا نجد ابن حوقل، الذي يذكر ملك سنغاي باسم "ملك كوغة"، ويقول عنه بأنه كان يقيم علاقة طيبة مع ملك أودغست الذي كان في ذلك الوقت تابعا لإمبراطورية غانة، ويعطيه الهدايا رغم أن ملك كوغة كان أقل مالا وغنى من ملك أودغست. ولكن ابن حوقل يرجع ذلك إلى حاجة ملك كوغة إلى الملح الذي يصل إليهم من أودغست[3]. ذلك أن أودغست كانت تمثل مركزا تجاريا، ونقطة عبور مهمة للقوافل القادمة من بلاد المسلمين في الشمال إلى بلاد السودان. وبالتالي كانت كل

(1) تاريخ اليعقوبي، الجزء الأول، ص191

(2) معجم بلدان، مجلد السابع، حرف"الكاف" ص ص 301 و302.

(3)صورة الأرض، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، دون تاريخ، ص98.

السلع الأساسية المتجهة إلى الأسواق السودانية كانت تمر عبرها، ومن هذه السلع الملح الذي لم يكن يستغني عنه السونغاي ولا قوام لهم إلا به[1].

أما البكري الذي عاش في أواسط القرن الخامس للهجرة، فانه يذكر كوغة (جاو) ويصف لنا حركتها التجارية ، وأهم السلع التي كانت تتدفق على أسواقها من الملح والودع والنحاس والفربيون (كذا).كما يذكر غناها بالذهب من خلال مناجم التبر التي تحيط بها، بل ويصفها بأكثر بلاد السودان ذهبا[2].

إن هذه الشهادات التي قدمتها لنا المصادر العربية، تبين بأن مملكة سنغاي قد عرفت تطورا وازدهارا كبيرين منذ نقل عاصمتها إلى جاو، واستفادت كثيرا من هذه المدينة التجارية التي جعلتها تلعب دورا اقتصاديا وسياسيا لا يمكن تجاوزهما في منطقة النيجر والسنغال العلويين خلال الفترة الممتدة بين القرنين الثالث والخامس الهجريين/9 و 11 الميلاديين. وعرفت مملكة سنغاي خلال هذه الفترة ملوكا أقوياء حافظوا على قوة هذه المملكة وازدهارها، وساهموا في تدعيم ذلك الدور الذي أنيط بمملكتهم. وكان هؤلاء الملوك من نفس العائلة التي أسست إمارة سنغاي الأولى في كوكيا، ألا وهي عائلة زا الأيمن. ولقد ذكر السعدي في كتابه ثلاثين ملكا حكموا سنغاي، وكلهم ينتمون إلى نفس العائلة. ويبدأ اسمهم بحرف "الزاي "بدء من زا الأيمن إلى غاية الملك "**زا** بدا " الذي يعد آخر ملك من هذه العائلة، قبل أن ينتقل الحكم إلى عائلة الإسقيين، وقد ساد منهم أربعة عشر ملكا كلهم قبل الإسلام[3]. وهذا يؤكد ما ذهب إليه دولافوس من أن أول ملوك كوكيا زا الأيمن، و مرافقيه لم يكونوا مسلمين. ولكننا في نفس الوقت لا نملك ما يثبت

(1) ابن حوقل ،المصدر السابق،ص98

(2) المصدر السابق، ص 179.

(3) تاريخ السودان،ص ص 2 و3 .

الكلام الذي ذهب إليه دولافوس و هو أنهم كانوا مسيحيين[1]. وحسب السعدي دائما فإن أول ملك اسلم منهم كان "زا كوسي"، والذي يقال له في كلامهم"مسلم دم" أي أسلم طوعا، وبإرادته دون إكراه.، وكان ذلك سنة 400 هـــ/1009م. [2]والتالي فإننا نستنتج بأن إسلام ملوك كوكو كان قبل الغزو المرابطي لغانة، أي أنه كان بالطرق السلمية، وبعيدة عن الحرب والإكراه. وربما يكون ملوك كوكو قد تأثروا بالتجار المسلمين الذين كانت عاصمتهم تعج بهم، وفيهم الدعاة والفقهاء.[3] لكن المصادر العربية المعاصرة لهؤلاء الملوك الأوائل من المسلمين تخبرنا بأن الإسلام لم يكن ديانة كل شعب السنغاي، حيث كان سكان العاصمة جاو مسلمين، ولهم مسجدا يصلون فيه جماعة. بينما ما حواليها من الممالك والمدن، فإنهم كانوا يزالون مشركين، لكن يبقى أغلبية الشعب مسلما[4].

وعموما فإن ما نستنتجه من هذا هو أن مملكة سنغاي كانت من أقدم الممالك التي اعتنقت الإسلام في السودان الغربي. فهي أسلمت قبل أن تسلم مملكة الماندي(مالي) المجاورة لها.كما أنها ضربت لنا مثلا في التسامح الديني والحرية العقدية والدينية، من خلال إسلام الملك وعدم إجباره للرعية على الإسلام. وقد اكتشفنا من خلال ذلك أيضا الدور الذي لعبته الجالية المغربية المسلمة من شمال إفريقيا في نشر الإسلام في سنغاي، فالمصادر التاريخية تذكر بأن الزعيم الخارجي الذي قاد الثورة التي دوّخت الفاطميين بالمغرب وهو أبي يزيد مخلد بن كيداد الملقب بصاحب الحمار، كان قد ولد بكاوكاو(جاو)سنة

---

(1) Delafosse (M) ,Haut S-N,tome1,p241.

(2) المصدر السابق،ص 3

(3) Monteil (Vincent) ,L'islam noir, une religion à la conquête de l'Afrique. Editions du seuil, France, 1980, p94.

(4) البكري، المصدر السابق،ص179 ، الحموي،المصدر السابق، ص 301.

260هـ/874م عندما كان أبوه التاجر الزيناتي يقطن فيها(1). فالإسلام إذن في جاو انتشر بسرعة بين الطبقات الأرستقراطية من كبار التجار والملوك، وهو ما سوف يمهّد الطريق لاعتناق ملوك الماندي (مالي) للإسلام بعد ذلك بوقت قصير(2). وهو ما يؤدي إلى احتكاك وتنافس بين المملكتين الإسلاميتين المتجاورتين، ومحاولة كل واحدة منهما إقامة وحدة إسلامية تحت زعامتها هي(3). لهذا سوف تشهد منطقة النيجر ابتداء من القرن السابع للهجرة اشتداد التنافس بين سونغاي ومالي(4). وذلك عندما بلغت إمبراطورية مالي أوج قوتها وعظمتها، وأخذت تتوسع على حساب مملكة سونغاي لربط مواصلاتها على طول نهر النيجر مع كل الطرق التجارية الهامة عبر الصحراء، فيما كان شعب السنغاي يرفض الحكم الماندي ووصايته(5).

5. مملكة التكرور في السنغال:

تعد مملكة التكرور(6) أكثر ممالك السودان الغربي شهرة، رغم أنها لم تكن أقواها ولا أغناها ولا أكبرها مساحة. ويعود سبب شهرتها إلى كونها أول ممالك غرب إفريقيا التي اعتنقت الإسلام. وبسبب شهرة هذه مملكة أصبح يطلق اسم تكرور على جميع ممالك

---

(1) ابن خلدون،العبر.المجلد الثالث، ص420.

(2) اعتنق ملوك مالي الإسلام في منتصف القرن الخامس للهجرة/11ميلادية

(3) علي باري و كريدية، المرجع السابق، ص 111 .

(4) أنظر الفصل الثالث من هذا البحث.

(5) فيج (جون.د)، المرجع السابق، ص62. أنظر أيضا: Bulletin de l'institut Français d'Afrique noire et des sciences humaines .Editions EFAN, Paris, 1959, volume21, p462 .

(6) إن كلمة تكرور ليست الإسم الأصلي للمملكة، وإنما هو الإسم الذي أعطي لها من طرف البربر، وهو الاسم الذي انتقل إلينا عن طريق المصادر العربية التي نقلته إلينا بواسطة"الولوف". وهو الاسم الذي حرّفه المؤرخون الفرنسيون الى " توكولور". (Delafosse , H S-N, tome2, p353)

السودان الغربي، إلى درجة أن أهل مصر كانوا يلقبون إمبراطور مالي في أوج قوتها بملك التكرور، رغم أن هذه الأخيرة لم سوى إقليم من أقاليم إمبراطوريته الواسعة، وهو الشيء الذي كان يترعج منه الإمبراطور المالي[1]. ويعد البكري أول من تحدث عن مملكة التكرور من العرب، حيث كانت هذه المملكة في عصره (في النصف الثاني من القرن الخامس للهجرة) عبارة عن إمارة صغيرة يصفها بالمدينة، لكن أهلها كانوا مسلمين في ذلك الوقت[2]، أي قبل غزو المرابطين لغانة التي كانت مملكة التكرور جزء منها. ويبدو أن ذكر البكري لهذه المملكة منذ القرن الخامس للهجرة، وكلامه عن إسلامها على يد الملك "وارجابي بن رابيس" المتوفى عام 432هـ/1041م[3] هو الذي كان وراء شهرتها في الأقطار العربية ابتداء من ذلك الوقت.لكننا يجب أن نشير إلى أن تاريخها يضرب بجذوره أكثر من هذا العمق في منطقة نهر السنغال.

إن المصادر المكتوبة التي تتحدث عن تاريخ مملكة التكرور تبدأ مع المؤرخ أبو عبيد الله البكري خلال القرن الخامس للهجرة/11ميلادي. أما تاريخها الذي يسبق هذه الفترة فقد زوّدتنا به المصادر الشفوية السودانية، والروايات المخلدة لأمجاد ملوك وشعوب المنطقة. وترجع هذه المصادر النشأة الأولى لمملكة التكرور إلى القرون الأولى الميلادية. وكان السكان الأوائل للتكرور ينتسبون حسب ياقوت الحموي إلى أصل سوداني[4] كما كما يشكلون طائفة من السودان ارتبط اسم بلدهم باسمهم[5]. و بخصوص الإطار المكاني

(1) العمري(ابن فضل الله)، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار . تحقيق:حمزة أحمد عباس، المجمع الثقافي ــ أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة.1423هــ/ 2002م، ص ص 107و 108

(2) المصدر السابق، ص172.

(3) البكري،المصدر السابق، ص172.

(4) معجم البلدان،المجلد الثاني، باب "التاء و الكاف و ما يليها"، ص 399.

(5) الدمشقي(شمس الدين، لمصدر السابق، ص ص 267 و268

المكاني الذي شغلته هذه المملكة فهو يمتد ما بين ضفتي السنغال إلى غاية المحيط الأطلسي غربا، ويصل شرقا إلى منطقة غالام، ويمتد شمالا إلى أدرار الموريتانيا(1). أما المدينة التي ذكرتها المصادر العربية على أنها مدينة تكرور، فهي على الأرجح تلك التي كانت مقر العاصمة، والتي توجد في نفس الحالية(2). وتزامنت النشأة الأولى لمملكة التكرور مع مملكة واغادو (غانة)، وذلك قبل القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد، عندما كانت تحكمها أسرة سودانية محلية تنتمي إلى عشيرة"سال سال(Sal)(3) والتي لم تكن سيطرتها تقتصر على الشعب التكروري فقط، وإنما كانت مملكتهم تضم شعوبا أخرى كالسرير والولوف (الجولوف)، والفلاتة(4). حيث قدمت هذه الشعوب إلى الضفة العليا السنغالية ومنطقة فوتا جالون الحالية، قادمة من منطقة أدرار الموريتانية هاربين من جفاف الصحراء، وباحثين عن الماء والأراضي الخصبة، وكان ذلك خلال القرون الميلادية الثلاثة الأولى(5).

وبالرغم من أن هذه المرحلة الأولى من تاريخ مملكة التكرور تبقى غامضة، إلا أن الشيء الذي تتفق حوله المصادر الشفوية المحلية هو أن هذه المملكة عرفت خلال بداية القرن الثامن للميلاد، استمرار الهجرات القادمة إلى أراضيها من الشمال والتي كانت قد

---

(1) Maiga (Mamadou) , Le bassin du fleuve de Sénégal. Editions l'harmattan, Paris, 1995. P21

(2) تقع مدينة بودور Podor الحالية شمال جمهورية السنغال الحالية، وتوجد على بعد 215كلم شرق مدينة "سان لويس" السنغالية، وبالتالي فهي تقع في جزيرة " مورفيل Morfil " المتواجدة بين ذراعي نهر السنغال.

(3) Delafosse (M) , H S-N, tome2, p354

(4) Devey (Muriel) ,La Mauritanie. Editions. Karthala - Paris, 2005, p93.
Delafosse (M) ,Op.cit, p354.

(5) Devey (Muriel) ,Op.Cit, p93

عرفتها المنطقة منذ القرن الأول الميلادي[1]. ولعل أهم هذه الهجرات التي توافدت على مملكة التكرور خلال هذه الفترة هي الهجرات الفلاتية القادمة من شمال إفريقيا[2] والتي أدت إلى اختلاط الدم الأبيض الفلاتي مع الدم الأسود التكروري. وربما هذا الاختلاط هو الذي جعل ياقوت الحموي يصف أهل التكرور بأنهم "أشبه الناس بالزنوج"، و لم يصفهم بالزنوج[3]. كما أصبح التكروريون يتكلمون لغة الفلاتة وهي البولار[4]. وعرفت بلاد التكرور أيضا هجرات أخرى من اليهود السوريين الذين قدموا إليها من بلاد الشام عبر صحراء سيناء وليبيا[5]. ومع بداية القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد،قام أحد رؤساء القبائل المهاجرة إلى فوتا جالون بالاستيلاء على الحكم في مملكة التكرور وبالتالي انتقل عرشها إلى خارج العنصر التكروري الأصلي، لمدة قرنين من الزمن[6]. و يذهب المؤرخ الفرنسي موريس دولافوس[7]إلى أن الذي استولى على عرش مملكة التكرور ينتمي إلى عشيرة سوية يهودية يدعى إسماعيل، بينما نجد المصادر الفلاتية تذهب إلى أن من سيطر على عرش التكرور إنما هم فلاتيون[8]. أما نحن فنرجح فرضية الأصل الفلاتي لملوك التكرور الجدد، و ذلك لعدة اعتبارات نلخصها فيما يلي:

---

(1) Delafosse (M) ,Op.Cit, p354- Chavane (A. Bruno) , Villages de l'ancien Tekrour. Editions Karthala, Paris, 1985, p2 9

(2) الطيب (عبد الرحيم)، المرجع السابق ، ص 199

(3) المصدر السابق، ص399.

(4) سيلا (محمد عبد القادر)، المرجع السابق، ص28.

(5) الطيب عبد الرحيم،المرجع السابق، ص 199.

(6) Delafosse ,Op.Cit, p355.

(7) Ibid, p355

(8) الطيب عبد الرحيم، المرجع السابق، ص 199. ـــ مادهو(بانيكار)، المرجع السابق، ص ص 56 و57

أولا: حسب رواية البكري[1] فان أهل التكرور الذين سبقوا عهد الملك ولبي بن رابيس كانوا مجوسا وعبدة الدكاكير، والدكور عندهم هو الصنم، بينما نحن نعرف بأن اليهود لم يكونوا وثنيين و إنما من أهل الكتاب، موحدين.

ثانيا: اللغة التي تأثر بها التكروريون، و تحوّلت فيما بعد إلى لغتهم التي يتكلمون بها هي لغة البولار كما رأينا، وهي لغة فلاتية أصلا، بينما لم ترد أية إشارة في المصادر بأن التكروريون كان فيهم من يتكلم باللغة العبرانية وهي لغة اليهود الساميين المعروفة.

ثالثا: إن الأسرة التي استولت على العرش التكروري، و استقرت في منطقة بودور، والتي كانت تعرف بأسرة ديا - أوكو (Dya ogo)، أو دياكو- أوكو (Diago- ogo) كانت من الرعاة[2]، وهي من أقدم العشائر الفلاتية التي سادت في منطقة فوتا جالون[3]. كما نجد نجد في كلام دولافوس ما يشير إلى أن عرش التكرور كانفي أيدي اليهود السوريين لكنه فيما بعد انتقل إلى الفلاتة في آخر عهدهم[4].

ومهما يكن من أمر فإن المصادر الشفوية للسنغال تذكر بأن هؤلاء المهاجرين تمكنوا من السيطرة على الحكم من خلال الاستقرار أولا في منطقة كوركول (Gorgul)[5] التي

---

(1) المصدر السابق، ص 172 .

(2) تذكر المصادر بأن هذه القبائل أصلها عربي وهي من قبيلتي "جهينة" و" تميم" ، وعندما توجهت إلى إفريقيا كان مع جهينة الغنم ومع تميم الأبقار والسيوف والقلنسوة ذات اللسانين المتدليين، وكانت هجرتهما بحثا عن المراعي لمواشيها.(الطيب عبد الرحيم: المرجع السابق، ص 199).

(3) Chavane (A.Bruno), Op.Cit, p29 – Devey (Muriel) ,Op.Cit, p93. - Papa (Ibrahim Diallo) , Les Guinéens de Dakar , Migration et intégration en Afrique de l'ouest. Editions l'harmattan, Paris, p185.

(4) Op.Cit, p354.

(5) هي الآن إحدى المقاطعات الموريتانية، يقطعها أحد روافد نهر السنغال، ومنه أخذت اسم"كوركول" وتعني وادي أو نهر. وهي توجد على أقصى الحدود الجنوبية الشرقية لموريتانيا مع السنغال.

كانت آنذاك إحدى مقاطعات إمبراطورية التكرور، ثم تزوج رئيسهم بابنة الأمير المحلي، ومع مرور الوقت استولوا على السلطة(1). واستمر حكم الفلاتة حوالي قرنان من الزمن(من سنة 800م إلى 1000م)، وخلال هذه الفترة عرفت غانة تطورا كبيرا مما جعلها تفرض سيطرتها على مملكة التكرور التي أصبحت تابعة لها(2) لكن أسرة ديا - أوكو استطاعت أن تقود مملكة التكرور إلى لعب دور اقتصادي مهم جدا مستغلة موقعها الاستراتيجي في الطريق العابر للصحراء من الشمال إلى الجنوب، فأقامت علاقات تجارية مزدهرة مع مسلمي شمال إفريقيا،حيث كانت تستورد منهم الصوف والجلود والمجوهرات، وتصدر لها الذهب والعبيد(3).

إن هذا النشاط التجاري المزدهر، وحركة القوافل العابرة للصحراء وما تبعها من حركة بشرية وثقافية نشيطة، واحتكاك التكروريون بالتجار المسلمين، جعل الإسلام ينتشر في بلاد التكرور في وقت مبكر، و خاصة في أوساط الطبقة الأرستقراطية، لذلك فمع بداية القرن الخامس للهجرة/11 ميلادي، اعتنق الإسلام أحد زعماء أكبر العشائر التكرورية المحلية ألا وهو وارديابي، الذي ينتمي إلى عائلة ندياي(4). وكان وارديابي رجلا حرا، لم

---

(1) Devey (Muriel) ,Op.Cit, p94
تقول الروايات الشفوية المحلية بأن رئيس تلك القبيلة كان عربيا أو يهوديا اسمه "عقبة بن ياسر" جاء من الشرق، وأقام بالبلاد، وتزوج من امرأة من الزنوج اسمها "مغمغ Magmag " وأنجب منها أربعة أولاد. (مادهو بانيكار:المرجع السابق،ص57.)

(2)كانت مملكة التكرور تتمتع باستقلال جزئي فقط خلال هذه الفترة، فهي كانت تابعة شكليا لمملكة ديارا السوننكية المتواجدة آنذاك في الساحل، والتي كانت بدورها تابعة بشكل من الأشكال لإمبراطورية غانة وذلك بين القرنين الثامن والحادي عش الميلاديين. Trimingham, Op Cit, p26 – Delafosse, Op.Cit, p154.

(3) Devey (Muriel),Op.Cit, p93.
(4) Delafosse (M),Op.Cit, p354

يكن يرضى بتبعية بلده لإمبراطورية غانة، وكان محبا للجهاد، راغبا في توسيع رقعة الإسلام في المنطقة(1)، لذلك قام هذا الأمير بقتل آخر ملوك الأسرة الفلاتية من آل ديا - أوكو، وهو "محمود" واستولى على عرش التكرور(2). ويذكر البكري هذا الأمير على أنه كان أول من أسلم من ملوك التكرور، وهو الذي أقام عندهم شرائع الإسلام، وحملهم عليها، وحقق بصائرهم فيها.كما يذكر تاريخ وفاته الذي كان سنة 432 هـ /1041م(3)، لكنه لم يذكر تاريخ اعتلائه العرش. والذي يبدو أنه كان خلال النصف الأول من القرن الخامس للهجرة. كما أن رواية البكري التي تعد أقدم رواية عن ملوك التكرور لم تذكر شيئا عن نسب أو عائلة هذا الملك المسلم سوى قوله بأنه وارديابي بن رابيس(4). وعموما فان وارديابي الذي يعد أول ملك من الأسرة الثانية التي حكمت التكرور بعد الأسرة الأولى الفلاتية، يمثل أيضا ملكا لأول أسرة تكرورية تنحدر من الأهالي السودان، وهي أسرة ندياي التي تنتمي إلى أصول تكرورية أو سوننكية(5).

لكن بعض الروايات الشفوية السنغالية تقول بأن وارديابي ينتمي إلى أسرة كوليبالي الماندية.(6) ومنذ اعتلاء هذه الأسرة الحكم في مملكة التكرور أصبحت تحظى بدور مهم في

---

(1) Devey (Muriel) ,Op.Cit, p93
(2) Delafosse (M) , Op.Cit, p354.
(3) المصدر السابق، ص 172.
(4) البكري،المصدر السابق، ص 172.
(5) Delafosse , Op.Cit, p355
(6) Loc cit.
تجدر الإشارة هنا أن عائلة كوليبالي تعدمن بين العائلات الماندية النبيلة التي احتفظت بمكانتها في منطقة السنغال النيجر بسبب دورها في نشر الإسلام هناك، وبالتالي فهي تعد من الأسر المرابطة، وهو ما جعل الكثير من العائلات السودانية تدعي الانتساب إليها. مثلما هو موجود بالنسبة للأسر الملكة في المشرق والمغرب الإسلامي عندما تدعي الانتساب إلى آل البيت لتنال الشرعية الدينية لحكمها.

في تاريخ السودان الغربي على مدار ثلاثة قرون (أي بين القرنين الخامس والثامن الهجريين /11و 14م). حيث أخذت على عاتقها مهمة نشر الإسلام في منطقة نهر السنغال، فأسلم أهل مدينة سلى[1] على يدي وارديابي، فأصبح ملكها يقود بدوره حركة الجهاد ضد الكفار من سكان مدينة "قلنبو" وهي مملكة على ضفاف نهر السنغال، وتبعد عن سلى بمسيرة يوم[2]. فأسرة ندياي إذن كانت من أوائل الأسر الحاكمة في السودان الغربي التي اعتنقت الإسلام في وقت مبكر وبدون إكراه، وحتى قبل الغزو المرابطي لغانة، وبالتالي فإن فهمها للإسلام كان عميقا، واندمجت بسرعة في حركته التي شملت السودان الغربي منذ القرن الخامس للهجرة بقيادة المرابطين. ذلك أنه بمجرد وفاة الملك وارديابي بن رابيس، حتى خلفه ابنه " لبي بن وارديابي" الذي دخل في حلف مع زعيم اللمتونيين يحي بن عمر ضد الكفار الغانيين، كما شارك بنفسه في الحرب التي خاضها يحي بن عمر ضد جدالة عام 448هـــ/1056م، والتي استشهد فيها زعيم المرابطين[3]. وسرعان ما أخذت هذه المملكة تتطور بين القرنين الخامس والثامن الهجريين،مستفيدة من موقعها الممتاز، وثراء أرضها بالذهب الموجود في مناجم غالام، بالإضافة إلى دخولها في حظيرة الإسلام الذي أكسبها شهرة في العالم الإسلامي، فازداد تدفق التجار المسلمين عليها. فأصبحت عاصمة التكرور سوقا تجاريا كبيرا يسافر إليها التجار من المغرب الأقصى، ويجلبون معهم الصوف

---

(1) كان يحكم "سلى" حسب البكري ملك من السوننكي، ويصفه البكري بقوله: ((وهو واسع المملكة كثير العدد يكاد يقاوم ملك غانة.)) ـــ المصدر السابق،ص ص172 و173 ـــ ويصف الإدريسي مدينة سلى بقوله: ((ومدينة سلى على ضفة نهرالنيل (السنغال) وبشماله، وهي مدينة حاضرة، وبها مجتمع السودان، ومتاجرة صالحة، وأهلها أهل نجدة، وهي من عمالة التكروري وهو سلطان مؤمر وله عبيد وأجناد وله حزم وجلادة وعدل مشهور...)) ـــ المصدر السابق، ص 32 .

(2) البكري: المصدر السابق،ص 172

(3) ، ص البكري: المصدر السابق،ص 168.

والنحاس والخرز، ويأخذون منها إلى بلادهم الذهب[1]. كما كانوا يأخذون الخدم والعبيد الذين يجلبونهم من أرض لملم الكفار الجهلة الموجودين في الجنوب، والذين كانوا يغيرون عليهم ويسلبونهم[2]. وقد حافظت مملكة التكرور على استقلالها الذي أعلنته منذ سقوط إمبراطورية غانة طيلة ثلاث قرون[3]، بل وسعت أراضيها وبسطت نفوذها على عدة مناطق، ومدن على غرار سلى، غالام و بريسي[4] والتي تعد من أشهر المدن وأكثر غنا وقوة[5]. لكن بحلول القرن الثامن للهجرة /13م، بدأ نجم هذه المملكة الإسلامية يأفل، متأثرة بعدة عوامل سياسية وبشرية في منطقة النيجر والسنغال العلويين. ذلك أنه في منتصف القرن السابع للهجرة وبالتحديد عام 632هـ/1235م، عندما انتصر الزعيم المالي سوندياتا كيتا على ملك الصوصو "سومنغوروكانتي"، قام بطرده من كانياكا ، فاتجه هذا الأخير نحو بلاد التكرور حوالي سنة 648 هـ/1250م، أين قام بتنحية حفيد واردیابي من عرش مملكة التكرور مستعينا في ذلك بأسرة أخرى من التوكولور (التكرور) وهم آل دينيانكي (Les Dinianké) الذين يعدون من أشد منافسي وألدّ أعداء عائلة "كوليبالي" التي تنتمي إليها أسرة واردیابي[6]. وانتقل بذلك الحكم في مملكة التكرور إلى الصوصو

(1) الإدريسي، المصدر السابق، ص 33.

(2) نفسه،ص33

(4) Chavane (A.Bruno) ,Op.Cit, p34.

(5) نجدها عند المقريزي"برنسة" (السلوك لمعرفة دول الملوك،ص663) ـــ وعند ابن سعيد نجدها"بريسا". حيث يقول عنها بأنها من أشهر مدن التكرور.(كتاب الجغرافيا، ص91)

(5) الإدريسي، المصدر السابق،ص ص 31، 32 و 33.

(6)Delafosse (M) ,Op.Cit, p355.

لبعض الوقت، قبل أن ينتقل مرة أخرى إلى عشيرة" نياخاتي"[1]. ويذكر ابن سعيد المتوفى سنة 640هـ/ 1243م، بأنه ما إن ضعف سلطان التكرور حتى انفرد صاحب بريسا بنفسه[2]. وهي إشارة إلى الضعف الذي بدأ يدب في جسم المملكة منذ النصف الأول من القرن السابع للهجرة، وبداية فقدانها السيطرة على أقاليمها.

وبالتالي يمكن القول بأن مملكة التكرور التي ظهرت على ضفاف نهر السنغال، ومملكة سونغاي التي برزت على ضفاف النيجر، واللتان سطع نجماهما في سماء منطقة السنغال الأعلى والنيجر، إنما يمثلان في حقيقة الأمر نموذجا للوضع السياسي الذي كانت عليه المنطقة خلال القرن الخامس للهجرة/11م، والذي أفرزته المعطيات الجديدة في المنطقة بسقوط إمبراطورية غانة وظهور حركة المرابطين التي حملت معها دينا جديدا قلب أوضاع المنطقة رأسا على عقب وأفرزت وضعا سياسيا جديدا وجدت فيه الكثير من العشائر الماندية المغمورة، ـــ والتي طالما عانت من سيطرة السوننكي الغانيين على أحداث تاريخ المنطقة ـــ متنفسا جديدا لتدخل منه إلى التاريخ.

6 .الممالك الأخرى:

لقد كان لظاهرة تفرق السوننكي، وتلاشي سيطرتهم، آثار كبيرة على المستقبل السياسي للمنطقة. فبغض النظر عن تلك الممالك والإمبراطوريات التي ظهرت في أعقاب سقوط غانة، مثل مملكة الصوصو بكانياكا، ومملكة سنغاي بجاو، ومملكة التكرور بفوتا جالون، ظهرت خلال القرن الخامس للهجرة بعض الممالك الصغيرة التي بقي بعضها محدودا في المكان والزمن، وأخرى رسمت لنفسها خطا جعلها تتطلع إلى مجد أكبر. ومن

(1) Ibid, p157 – Chavane (A.B),Op.Cit, p34.

(2) المصدر السابق، ص 91 .

هذه الممالك مملكة ديارا، التي أسستها عشيرة نياكاتي أو"نياخاتي" في منطقة كينغي (Kingui)، وذلك خلال أواخر القرن الخامس للهجرة، واستمرت على مدى قرن ونصف من الزمن قبل أن تنقلب عليهم عشيرة دياوارا(Diawara) وتغتصب منهم الملك[(1)]. فلقد تعرضت منطقة كينغي المتواجدة شمال شرق مدينة نيورو(Nioro)[(2)]ومنطقة ديافونو(Diafouno)[(3)] جنوب غرب مالي إلى الاستعمار من طرف السوننكي حكام دياكا، منذ نهاية القرن السابع للميلاد. وخلال عام 750ميلادي تعرضت هاتين المستعمرتين إلى السيطرة الغانية، واستفادت منطقة كينغي بدعم من الغانيين، وتشكلت مدينة ديارا التي وجدت على بعد قليل جدا من شمال شرق نيورو، وبقيت تابعة بشكل شبه مباشر لحكم السوننكي في واغادو (غانة)، وخاصة خلال فترة حكم "آل سيسي"، أي منذ نهاية القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد، و إلى غاية سنة 469هـــ /1076م[(4)]. وخلال الغزو المرابطي لغانة وبداية تفكك إمبراطوريتها، كانت كينغي من أول الإمارات المنفصلة عنها، والتي أسستها عائلة "نياخاتي" مشكلة مملكة ديارا، التي بدأت على شكل إمارة متواضعة، ثم أخذت تتوسع على يد عائلة نياخاتي التي بقيت محافظة على عرش ديارا من نهاية القرن الخامس للهجرة إلى غاية سنة 668هـ / 1270 م[(5)]. إن المعلومات حول هذه المملكة تكاد تكون منعدمة، لكننا استقيننا من بعض المصادر بأنها تعرضت لسيطرة

---

(1) Delafosse (M) ,H S-N, tome1, p267

(2) وتعرف أيضا بـــ "نيورو الساحل"، وهي مدينة في جمهورية مالي الحالية، وتقع على بعد 241كلم شمال شرق مدينة "كايس" بالقرب من الحدود الموريتانية.

(3) مدينة صغيرة، وهي عبارة عن بلدية في منطقة كايس جنوب غرب مالي.

(4) Delafosse (M) , H S-Ntome2, p154.
أنظر أيضا: Mahmoud (Kati) , Tarikh el fettache. Traduit et annoté par : O.Houdas et M. Delafosse, Publications : l'école des langues orientales vivantes, éditeur Ernest Leroux, Paris, 1913, pp 70et71.

(5) Delafosse (M) , H S-N, tome1, p267

الصوصو عندما غزا سومنغورو المنطقة، وبالتالي أصبحت تدفع الجزية لحاكم كينياكا(1).
ولكن عندما غزا الزعيم الماندي سوندياتا كيتا مملكة الصوصو سنة632 هـ /1235م تحرر آل نياخاتي من سيطرة الصوصو، ووسعوا مجالاتهم، لكنهم أصبحوا تحت الحكم غير المباشر لسلطة مملكة مالي(2). وكان آخر ملك من هذه العائلة هو "مانا -اغان نياخاتي" الذي فرض سيطرته على جزء من مناطق كارتا (Karta)، دياكونتي (Diagounté) وباكونو (Bakounou)قبل أن تستولي عائلة دياوارا الماندية على الحكم، وتغتصبه منهم، وتستولي على دولتهم عام 787هـــ/1385م، وأصبح في-مامادو(Fé - Mamadou) أول ملك لديارا من عائلة دياوارا (3).

وبالإضافة إلى مملكة ديارا وجدت أيضا مملكة الموشيين أو الموسي(Mossi) شمال الفولتا، فقد استطاع هذا الشعب القادم من الشرق منذ زمن بعيد، والذي سكن في بداية الأمر منطقة فيما وراء نهر النيجر، والتي كانت عاصمتها تسمى" أليمان"، ثم زحفوا بعد ذلك نحو منطقة داكومبا(Dagomba) وهزموا سكان هذه البلاد من البدائيين المتوحشين، وشكلوا إمارة خاصة بهم وفرضوا لغتهم في المنطقة. وخلال بداية القرن الخامس للهجرة /11م، بدأت هذه الإمارة تتوسع مستفيدة من سقوط إمبراطورية غانة، فقام الملك الموسي يا - ديغا (Ya- Diga) بتأسيس إمبراطورية واسعة أصبحت تعرف بـــ "ياتنغا"، وهي كلمة مركبة من كلمتين هما: يا: وتعني أرض، وتنغا وهو تحريف لاسم الإمبراطور يا -

---

(1) Mahmoud (Kati) ,Op.Cit, p70
(2) Trimingham (Spencer) ,Op.Cit, p456 ; Mahmoud(Kati) , Op.Cit, p70
(3)Trimingham (Spencer) ,Op.Cit, p456.
حول عائلة دياوارا أنظر أيضا: Delafosse(M) ,Haut Sénégal-Niger, tome1, p273

ديغا. قد تم استكمال بناء إمبراطورية ياتنغا في أواخر القرن الثامن للهجرة /12 م[1]. لكن يبقى أعظم حدث خيّم على أوضاع القرن الخامس للهجرة، وصنع أحداث المنطقة طوال خمسة قرون، هو ظهور مملكة مالي، التي ظهرت على أيدي عائلة مالنكية عريقة، كان لها الفضل في إخراج منطقة السودان الغربي من عزلتها، وبلغت شهرتها كل قارات العالم القديم ألا وهي عائلة كيتا.

(1) Lucien (Marc) , Le pays Mossi. Thèse de doctorat, Faculté des letters de l'universite de Paris, édité par Emile larose libraire – éditeur, Paris, 1909, pp de128 à144.
Delafosse (M), H S-N, tome 2, pp 138, 139 et 140.

الفصل الثاني

ظهور عائلة كيتا ودورها في تأسيس مملكة مالي

الفصل الثاني

ظهور عائلة كيتا و دورها في تأسيس مالي

يعد المالنكي من الشعوب الأكثر شهرة في منطقة النيجر والسنغال العلويين، ومن أهم مجموعات ماندينغ الوسط خصوصا. وهذا بفضل الدور الذي لعبته بعض الجماعات المندية في تاريخ المنطقة السياسي والاقتصادي وحتى الثقافي، مثل الديولا، البمبارا والونجارة. كما أن شعب المالنكي عرف منذ القدم بأنه شعبا محاربا وغازيا كبيرا، فضلا عن كونه من أكثر الشعوب انسجاما وتنظيما بين مجموعاته المختلفة(1)، ولعل ذلك الدور الذي اضطلع به هذا الشعب، إنما يعود إلى المجهودات التي قامت بها مختلف عشائره التي سكنته منذ أقدم العصور، والتي قدرتها بعض المصادر بحوالي مائة عشيرة، لكن نفس هذه المصادر تركز على أسماء بعينها من العشائر التي تكون أول من ترأس بلاد ماندن القديم وسادت فيه منها عشيرة كوندي،كامارا، وكيتا (2). ولما كانت بلاد ماندن مقسمة إلى إمارات وعشائر متنافسة فيما بينها، فلقد كان لابد أن تبرز من بينها إمارة على حساب الإمارات الأخرى، وبالتالي كان جدير بإحدى تلك العشائر الحاكمة أن يكون لها الفضل في توحيد بلاد مندن أولا، والسيطرة عليه، ثم إقامة مملكة سرعان ما سيطرت على منطقة السنغال الأعلى والنيجر كلها. فكانت العشيرة التي اضطلعت بذلك الدور التاريخي تدعى

---

(1) سولوماني كانتي. مذكرة تاريخ ماندي القديم و الحديث في الجانب اللغوي.
in revue électronique , Copyright, N°C ; année1999-2000 ; édité par N'ko Institute. Site web : http://www.kanjamadi.com. Consulté le 04-01-2008.

(2) Sory (Camara) : Op .Cit, P 17

عشيرة "كيتا" المندية، لهذا فلقد كان جلي بنا أن نبحث عن أصل هذه العائلة وجذورها التاريخية، ودورها في المنطقة المحصورة بين الجزاء العلوية لنهري النيجر والسنغال عموما، وفي مملكة مالي بصفة خاصة.

المبحث الأول

ظهور عائلة كيتا و دورها في بلاد المندي

1.أصل عائلة كيتا:

إن البحث في موضوع هذه العائلة وأصولها الأولى، وهجراتها البدائية إلى غاية استقرارها في منطقة "كنغابا" بأرض مندن يعد من الصعوبة بمكان، وعلة هذه الصعوبة تكمن في ندرة المصادر المكتوبة عن هذه الفترة الموغلة في القدم من تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء من جهة، ومن جهة أخرى فإن المصادر الشفوية الخاصة بهذه العائلة والتي ترويها عائلتا كوياتي ودياباتي[1] لم تبدأ بالاهتمام بأخبار العائلة إلاّ منذ القرن الثاني عشر للميلاد/السابع للهجرة، ومع بروز دور هذه العائلة وتأسيسها لإمبراطورية مالي.

(1) تعد هاتان العائلتان من طائفة الرواة الشفويين المعروفة باسم" جيلي" أو "غريوت" والتي تناقلت الأناشيد والملاحم المخلدة لعائلة كيتا إلى اليوم،حيث تخصصت عائلة كوياتي المتمركزة في منطقة كونغ (كوت ديفوار الحالية) في رواية أخبار الزعيم سوندياتا كيتا، بينما تخصصت عائلة "دياباتي" أو "جاباتي" المتمركزة في مدينة كيلا KELA في منطقة كانغابا برواية الأشعار المخلدة لعائلة كيتا كلها.
Yousouf tata cissé ,Wà kamissoko .La grande geste du Mali-des origines a la fondation de l’empire .éditions Karthala. Paris, 2000,2ème édition, p1et2.

وعلى كل حال فإن المصادر الشفوية تتفق على أن عائلة كيتا إنما تعد من أهم 35 عشيرة مالنكية سكنت مندن منذ أزمنة غابرة جدا، واستقرت حول نهر النيجر، وبالأخصّ في الجزء الغربي منه، وفي شرقي السنغال وجنوبيه، بالإضافة إلى ضفتي نهر غامبيا وغينيا بيساو[1]. وشكلت منطقة نارينا في إقليم دو(Do) مركزها البدائي الذي استوطنته في بداية أمرها[2]، ومنه انطلقت.كما أن جل الروايات الشفوية تذهب إلى أن الأصل البدائي لهذه العائلة قبل وصولها إلى منطقة النيجر والسنغال العلويين كان من الشرق، أي أن هذه العائلة قدمت من الشرق وليست أصيلة في المنطقة التي وجدت فيها. حيث تقول هذه المصادر بأن عائلة كيتا قدمت من شبه الجزيرة العربية، على اعتبار أن جد العائلة الأكبر هو بلال بن رباح رضي الله عنه الذي يعود أصله إلى الحبشة[3]. وذلك شأن كل الجماعات المندية التي تعتقد في مجملها بأنها قدمت من الشرق، وذلك تأثرا بالمعتقدات الدينية سواء الإسلامية من خلال السيرة النبوية، وتعلقهم بالنبي وآل بيته وصحابته، أو من خلال الأساطير اليهودية التي نشرها بعض اليهود المهاجرين إلى منطقة السنغال والنيجر[4]. فما زال البمبارا الذين يمثلون إحدى أهم المجموعات المندية إلى غاية اليوم،

---

(1)عبد القادر سيلا، المرجع السابق، ص 55.

(2) Tidiane N'diaye ,Op .Cit, p30 – Zerbo joseph. Kl. ,Le monde Africain noir .C .E.D.A, (Abidjan, 1963, p14)

(3) Jelifa Digi Sisoko , Sonjara (The Mande épic) .New édition with notes and commentary analytical study and translations by John William Johnson .Edition : (Indiana university press ,2003,pp299 and300)

(4) Le chatelier .A, L'islam dans l'Afrique occidentale. G. Steinheil éditeur, Paris ,1899 ; p76.

عندما يسألون عن أصلهم يجيبون بكلمة (آن بوارا كورون في) ومعناها : لقد جئنا من الشرق[1].

فالنسّابة المالنكيون يقولون بأن الجد الأكبر لآل كيتا هو بلال بن رباح مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم، والذي تدعوه الروايات الشفوية بأسماء مختلفة مثل ديجون بيلالي[2] أو(جوني بيلالي) أو (آسي بيلالي)[3]وهناك روايات أخرى ذكرته باسم بيلالي بومانا[4]. كما أن نفس هذه الروايات تختلف في تسمية ابنه الذي انحدرت منه ذرية آل كيتا حسب زعمهم، والذي يكون هو الذي هاجر إلى السودان الغربي، فبعض الروايات المندية تقول بأنه يدعى "مامادو كانو" أو " محمد كانو" والذي يكون أبوه بلال قد سماه بهذا الاسم حسبهم تبركا وحبا في الرسول محمد عليه الصلاة والسلام[5]. بينما تذهب روايات أخرى إلى أن بلال بن رباح هذا هو الملقب عندهم بلاهيلاتوكالابي(Lahilatou kalabi) أما ابنه فهو الذي يلقب بمامادو كانو الذي هاجر إلى بلاد مندن وتناسلت منه ذرية كيتا[6]، حيث تذكر الروايات التي تناقلتها جماعة كوياتي بأن بلال بن رباح كان له سبعة سبعة أبناء وقد سافر أكبرهم[7] من مكة واتجه ليستقر في بلاد ماندينغ[8] التي أسس فيها

(1) Zerbo Joseph. K .L .Op.cit. p11

(2) Jelifa digi sisoko , Op. Cit, p299

(3) Youssouf tata cissé , Op .Cit, p363

(4) Diawara(Gaoussou) ,Aboubakari2. Explorateur Mandingue. Edition l'harmattan, Paris, 2010, p72

(5) Youssouf tata cisse,Op .Cit. P375

(6) Histoire du mande. Article publié par The community learning and information center (CLIC).Mali, 2006. Avec la coordination de Mme : Fofana Aminata maiga. Site : www.clic. Mali .org

(7) على خلاف الروايات الأخرى فإن هذه الرواية تذكر الابن الذي هاجر إلى بلاد الماندينغ باسم" لوالو Lawalo وليس مامادو كانو. أنظر: Youssouf tata cissé : Op.Cit.p387

(8) Gaoussou,L'histoir de SDoudiata(des paroles recueillées à Abidjan le04/08/20087

فيها مدينة "كيري" أو "كي" التي كانت النواة الأولى لإمارة مندي[1]. لكننا نرى بأن هذه الرواية تفتقد إلى الكثير من الدقة التاريخية ويطغى عليها الطابع الأسطوري، فهي في نظرنا لا تعدو إلا أن تكون مجرد وسيلة أراد من خلالها ملوك مالي المسلمين إضفاء شرعية دينية لملكهم من خلال الادعاء بالنسب إلى احد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، متشبهين في ذلك بسلاطين وملوك العالم الإسلامي آنذاك، والذين أصبحوا جزء منه. ويستند تشكيكنا في صحة هذه الرواية إلى عدة اعتبارات يمكن إيجازها في النقاط التالية:

أولا: لم نجد في كتب التاريخ والسير والتراجم الطبقات ما يشير إلى أن بلال بن رباح الصحابي الجليل كان له ابنا هاجر إلى غرب إفريقيا.

ثانيا: إن التاريخ الذي حددته هذه الروايات كفترة لحدوث تلك الهجرة إلى غرب إفريقيا يتمثل في القرن التاسع للميلاد أي الثالث للهجرة[2] وهو تاريخ لا يمكن أن يكون فيه أحد أبناء بلال بن رباح ما يزال على قيد الحياة، على اعتبار أن بلالا بن رباح وأبنائه عاشوا بين القرنين الأول والثاني للهجرة /السابع والثامن للميلاد.

ثالثا: إن الكثير من المصادر التاريخية الشفوية تقول بان أجداد آل كيتا الأوائل وهم "الكوناتي" عاشوا بواغادو(غانة) لمدة طويلة قبل أن يهاجروا إلى بلاد مندن وعاش هناك أحفادهم أيضا أكثر من 2700سنة[3]. وإذا صدقنا هذه الروايات فإن أجداد آل كيتا الأوائل من عشيرة كوناتي يكونوا قد وصلوا إلى المنطقة حتى قبل أن يولد بلال بن رباح بآلاف السنين.

---

(1) نيان تمسير جبريل ، مالي و التوسع الثاني للماندينغ (ضمن كتاب تاريخ إفريقيا العام) ص 141.

(2) Clic ,Histoire du mandé

(3) Youssouf tata cissé ,Op .Cit.p26

وربما يعود سبب اتخاذ عائلة كيتا هذا النسب إلى فترة اعتناقهم للإسلام، وأصبح هذا الدين الجديد يسيطر على باقي الديانات المحلية، وخلال هذه الفترة تذكر بعض الروايات الشفوية بأنه طلب من العشائر المندية المسلمة والنبيلة في مندن أن تجد لنفسها نسبا لإحدى الشخصيات البارزة في التاريخ الإسلامي حتى تنال الرفعة والتفوق على السوننكي الوثنيين الذين كانوا دائما خاضعين لهم .فكان اختيار آل كيتا لبلال بن رباح مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبه(1).

ورغم إصرار الجماعات المندية على اختلافها بأنها قدمت من الشرق فإن ذلك لا يعني أن أصلها هو بالضرورة أرض الحجاز، على اعتبار أن الشرق له عدة مدلولات ومفهوم واسع، حيث يشمل كل ما واقع شرق بلاد مندن أو منطقة النيجر والسنغال، وهو ما تحاول أن تثبته لنا روايات شفوية أخرى تقول بأن مصدر هجرة آل كيتا هو الشرق ولكن ليس أرض الحجاز وإنما من النيل المصري، حيث عبروا الصحراء الكبرى(2). وهو الشيء الذي يبدو بأن اليعقوبي قد اقتنع به عندما صنف ملوك ملل(مالي) الذين يلقبهم بميوسي(3) من شعوب السودان التي قدمت من الشرق وسلكت تاريخ المغرب(4). كما ورد في المخطوط الذي يروي مذكرات جماعة بللو الفلاتية(5) بان زعماء عشيرة كيتا الأوائل قدموا إلى السودان الغربي برفقة الغزاة الصوصو أو السيسوكو الذين جاؤوا من نيل مصر، حيث كانوا يقودون معهم غزواتهم بعدما تحالفوا معهم لإخضاع شعوب منطقة النيجر

---

(1) Youssouf tata cissé ,Op .Cit.p26
(2) Zerbo(Joseph.K.L) ,Op.Cit, p11
(3) ربما هو نطق خاطئ لكلمة منسا التي تعني عندهم ملك.
(4) اليعقوبي (احمد بن أبي يعقوب)، تاريخ البلدان .دار صادر، بيروت، 1992، ص193.
(5) هي العشيرة التي يتمي إليها الزعيم الفلاتي عثمان بللو بن فودي.

والتصدي للبدو الرحل القادمين من الصحراء، وتمكنوا من اصطياد الرقيق[1]، وبأن تحالف العشيرة التي تنتمي إلى جماعة المالنكي وجماعة الصوصو هو الذي أدى إلى تلقب الأمراء من آل كيتا بلقب"منسا" وهي كلمة مركبة من أول حرف الذي يشكل كلمة مالنكي وهو "ما" (Ma) ، وأول حرف يشكل كلمة صوصو وهو حرف"سا أو صا (Sa) فأعطى كلمة "مانسا"[2] .لكن لا يجب أن نعوّل كثيرا على هذه الرواية التي يبدو لي أنها تخص ذلك التحالف الذي حدث بين آل كيتا وآل تراوري خلال القرن الثاني عشر للميلاد/السادس للهجرة من خلال تحالف جدهم الأكبر تيراماكان مع سوندياتا في محاربة ملك الصوصو.

وعموما فإن مصدر تسمية عائلة كيتا بهذا الاسم يعود إلى كلمة كييتا (Keyeta) والتي تعني الورثة باللغة المندية، حيث كثيرا ما يقترن هذا الاسم أيضا باسم كوناتي الذي أصبح مساو له ويؤدي نفس المعني مع مرور الوقت، لأن كلمة كوناتي هي أيضا مشتقة من الكلمة المندية كينياتيلاكي(Kenyatilake)[3]. ما أول من تلقب بهذا الاسم من العائلة فهناك من يقول بأن والد سوندياتا وهو "فاراكورو ماكان كينيي" هو الذي لقب بكوناتي التي لها نفس مدلول كيتا، حيث يذهب هؤلاء إلى القول بأن الناس في مندن كانوا يضايقون والده ويرمونه بالعقم وهو ما كان يثير غضب ابنه "فارا كورو ماكان" لأن هذا الكلام يعني أنه ليس ابنا شرعيا لبيه، فسعى لإقناع أهل مندن بان أباه لم يكن عقيما، إلى أن اقتنع الجميع بذلك و قالوا له:((نعم أبوك لم يكن عقيما، ونفهم غضبك، لهذا سنحاول

(1) Youssouf tata cissé , Notes sur les sociétés chasseurs Malinke, p126
(2) Lieutenant louis desplagnes , Le plateau central Nigérien, édité par Emile larose librairie, Paris, 1907, p140.
(3) Alphonse(Tierou) , Paroles des masques : un regard Africain sur l'art Africain Editions Maisonneuve et larose, Paris, 2007.p414.

أن هدئك بمنحك لقب كوناتي التي تعني ليس عقيما))(1). وهناك رأي يذهب إلى أن أول من تلقب بهذا الاسم هو جدهم الأكبر وزعيم الصيادين مامادو كانو، حيث يقولون بأنه عندما دمر قرية " كونيادوكو" بسبب قسوتهم، حيث لقب بكينياتيلاكي والتي تعني "ذلك الذي دمر القرية"(2). وهناك آراء أخرى ترى بان أول من لقب بكيتا هو الملك المندي ألاكوي (Alakoi) وهو الملك المشهور بإسلامه الجيد وتدينه وأدائه لفريضة الحج أربع مرات، والذي كان كلما سئل عن سبب حدوث أي شيء أجاب بكلمة" آلاّ - كوي" والتي تعني " هو الله بالتأكيد" أي أنه كان يرجع سبب كل الأشياء إلى الله سبحانه وتعالى، فلُقب بـــ " آلا كويتا"، ثم اختصرت الكلمة فيما بعد وتحولت إلى كيتا(3). لكننا نعتقد بان هذا اللقب تلقبت به العائلة منذ زمن طويل، أي منذ ظهور زعماء الصيد الأوائل من عائلة كيتا وهو الشيء الذي مكن النسابة الماندينغ من تمييز زعماء هذه العائلة عن غيرها من الزعامات المنتشرة على ضفاف النيجر الأعلى. ولكن يبدو بأن هذا اللقب كاد أن يختفي من قائمة الرواة الشفويين وحل محله لقب سيمبو (Simbo) والذي يعني زعيم أو بطل الصيد، حيث يبدو حسب الروايات الشفوية بأن الفضل في إعادة إحياء هذا اللقب يعود إلى الزعيم سوندياتا كيتا، الذي جعل من كيتا الاسم الرسمي لعائلته بعد عودته من منفاه بميما وتقلده حكم مندن، فتلقب بسوندياتا كيتا بعدما كان يلقب قبل ذلك بسوندياتا كوناتي(4).

---

(1) Youssouf tata cissé , Wà kamissoko, la grande geste du mali tome1, p161.
(2) Alphonse(Tierou) ,OP.Cit, p414.
(3) Delafosse(Maurice) , Haut S.N, tome2, p175.
(4) David(C.Conrad) , Sundjata, a West African epic of mande peoples. Published by

لا يوجد هناك اتفاق بين الروايات الشفوية حول تاريخ معلوم ومحدد حول وصول العشيرة الأولى لآل كيتا إلى السودان الغربي قادمة إليه من الشرق، لكن يبدو أنها حدثت في أزمنة غابرة جدا، كما أن هجرتهم تلك كانت بدافع الهروب من الحروب والفتن والجفاف إلى مناطق أكثر أمنا وسلاما وخصوبة. ولما وصلوا إلى أرض مندن واستقروا في منطقة انحناء نهر جوليبا عند التقائه بنهر بافنغ، وكلاهما يعدان من روافد النيجر(1). لكن قبل وصولهم إلى بلاد مندن مرّوا بواغادو (غانة) وهي أرض الأوكر التي استقروا بها سنين كثيرة، لأن بلاد مندن في تلك الأزمنة الغابرة وكل الضفة العليا للنيجر كانت خالية من السكان وتكسوها غابات كثيفة موحشة(2). لكن عشيرة كيتا لما وصلت إلى أرض مندن وجدت هناك شعوبا أخرى تسكنها، وهي شعوب تمتهن الزراعة والصيد، حيث كان الناس فيها يعيشون في شكل قرى مستقلة عن بعضها البعض، وكل قرية كانت تتبع نظاما عشائريا تكون السلطة فيه بيد الجد الكبر الذي يعرف برئيس القرية(3). بينما كان آل كيتا في هذا الوقت يمارسون السحر، حيث عرفوا بلقب صوبا (Souba) أو صوباكا (Soubaga) أو صوبارها (Soubarha) والتي تعني رماة حجارة الحظ أو حجارة القرعة(4). وهي طبقة من الكهنة التي كانت تمارس السحر وتنفرد بمعرفة سر اكتشاف الحقائق الخفية، واستشراف الغيب والمستقبل من خلال رمي الحجارة على التراب أو الرمال(5). وفي بلاد مندن هذه استطاع الصيادين من فرع البمبارا السيطرة على بقية

---

(1) سولوماني كانتي:المرجع السابق .

(2)Youssouf tata cissé, Wà kamissoko, La grande geste du mali, t1, p83.

(3) Labouret(Henri), Histoire des noirs de l'Afrique. Presse universitaire de France, Paris, 1950, p94

(4) MAMADI(Aissa) , Traditions et légendes du soudan occidental. Manuscrit arabe inédit traduit par : Maurice Delafosse, publié par : Comité de l'Afrique française, Paris, 1913, p13.

(5) Youssouf tata cissé , Wà kamissoko, La grande geste du Mali, tome 1, p57.

الجماعات الأخرى من الصيادين بفضل مهارتهم الفائقة في رمي السهام، واستمرت سيطرتهم إلى أن بدأ أفراد عشيرة كيتا يبرعون في الصيد الذي أخذوه عنهم وأتقنوه، واخذوا يبهرون سكان مندن وأنسوهم المهارات التي كان بتمتع بها البمبارا، حيث طوّر آل كيتا مهنة الصيد وادخلوا عليها قوانين ومراسيم حتى أصبحت تشبه إلى حد كبير المراسيم الدينية(1). وهنا بدأ أفراد عشيرة كيتا يحتلون مكانة أكثر أهمية بين العشائر المندية الأخرى، وبدؤوا يفرضون أنفسهم كزعماء جدد لمندن من خلال إقامة أول تنظيم سياسي لهم ألا وهي إمارة مندن أو مالي، التي ستتحول بفضل مجهودات أبنائها إلى مملكة ثم إمبراطورية واسعة الأطراف.

2. ظهور مملكة مندن (مالي):

إن تأسيس الممالك في السودان الغربي كان يتم خلال العصور القديمة والوسطى عن طريق سيطرة عشيرة على عدد من القبائل والعشائر الأخرى وضمها إليها. ونشير هنا إلى أن العشيرة الغازية أو المسيطرة لم تكن بالضرورة هي أكثر العشائر تقدما وحضارة، بل يكفي أن تتمتع بتقنيات حربية ذات كفاءة وقوة، أو أن تكون أكثر تنظيما من الناحية السياسية على خصومها مما يمكنها من تعبئة عدد اكبر من المقاتلين من أعدائها في وقت قصير لتتمكن من السيطرة عليهم. كما يمكن لهذه العشيرة المسيطرة أن تكون من بين

=ولقد تحدث ابن خلدون عن هذا النوع من الكهنة، حيث يقول:((ثم إننا نجد في النوع الإنساني أشخاصا يخبرون بالكائنات قبل وقوعها، وذلك مثل العرافين والناظرين في الأجسام الشفافة كالمرايا وطساس الماء، والناظرين في قلوب الحيوانات وأكبادها وعظامها، وأهل الزجر في الطير والسباع، وأهل الطرق بالحصى والحبوب من الحنطة والنوى.)) ابن خلدون (عبد الرحمان)، المقدمة، ص 114.

(1) CLIC , histoire du mandé. Site : www.clic. Mali .org

الجماعات أو العشائر المحلية، بحيث تحكم قبضتها على العشائر الأخرى وتكوّن منهم إمارة أو مملكة تحكمها هي[(1)]. ويبدو من خلال الروايات الشفوية للمالنكي بأن عشيرة كيتا كانت مزوّدة بكل عوامل السيادة والسيطرة تلك منذ أن وطأت أقدام أبنائها بلاد مندن، من خلال تنظيمها على شكل مشيخات جمعت القرى المجاورة المنتشرة بين نهري السنغال والنيجر. وكانت جمعيات الصيادين ــ التي كان آل كيتا من أبرز منظميها ــ ذات دور كبير في بناء تلك الدولة، حيث كان لهؤلاء الصيادين عقيدة قوية بتفوقهم، بالإضافة إلى تسلحهم الجيد، أما جمعياتهم فكانت تضم عدد كبير من العشائر الأخرى التي تحالفت معها[(2)]، لذا بدأ زعماء عشيرة كيتا يلعبون دورهم كحكام لمشيخة المالنكي على نهر السنكراني[(3)].

لقد سكنت شمال المندي في البداية عشائر من الصيادين[(4)] منهم عشيرة تراوري التي تعد من أقدم الصيادين في المنطقة، وأول من استوطن مناطق مثل: "سيري"، "غاغار"

(1) Bovill (Edward William) , The golden Trade of the moors. Edited by Marcus Wiener Publisher, 2nd édition, 1995, p55.

(2) نشير هنا إلى أن هناك عدد مهم من عشائر الصيادين التي انضمت عائلة كيتا منذ وقت مبكر، وكان لهم دور كبير في بناء مملكة مالي وحتى في توسيع الإمبراطورية مثل عشائر: تراوري، كامارا وكوناتي.

أنظر: Prévost(Liliane) et courtilles (Isabelle) , Guide des croyances et symbole d'Afrique ,Bambara–dogon–Peul,Editionl'harmattan,Paris,2005,p15.

(3) Fage(J.D) , and Roland (Anthony Oliver), The Cambridge history of Africa ; from C 1050 to C 1600. Cambridge university press, 1977, pp 352 – 353.

(4) كانت هناك سلالات موجودة في شمال مالي مثل: آل تراوري و مقرها داكاجالان، عائلة كوناتي في دودوغو أو " دو" ، عائلة كيتا في نارينا "جاريبا"، عائلة كامارا و مقرها في سيبي و عائلة سيندوغو بسيبي

أنظر أيضا. Trimingham(Spencer) :OP.Cit, p61

و"دو"، وهي المناطق التي تشكل قلب مندن (مالي)، والتي تعد في نفس الوقت أقدم المواقع المسكونة في النيجر الأعلى[1] ومقرها داكجالان (Dakadjalan)[2]. فبينما كانت عشيرة كوندية تسيطر على منطقة تابو ودودوغو، وسيطر آل كامارا على منطقة كانغابا[3]، فإن عشيرة كيتا كانت مستقرة في منطقة نارينا في الشمال[4]. وخلال القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد تشكل هناك تحالف بين العشائر المختلفة، ونتج عنه ظهور مملكتين متعايشتين جنبا إلى جنب هما "مملكة كيري" وتعني العمل، وهي المملكة التي عرفت باسم مندن أو (مالي)، و"مملكة دو" الموجودة قرب مناجم الذهب في منطقة بوري، و تعرف أيضا باسم "دودوغو"[5]. وبذلك نجد بأنه قبل نهاية القرن العاشر للميلاد لم تكن في بلاد مندي إلاّ مملكتان انضمت تحتهما جميع العشائر المندية وهما كيري ودو. وقد ذكرت المصادر العربية هاتان المملكتان، حيث وردت الأولى عندهم باسم ملل أو مالي وهي كيري، والثانية ذكرت باسم دو، إذ جاء في نص البكري قوله: ((وما وازاها من ضفة النيل الثانية مملكة كبيرة أزيد من ثمانية أيام سمة ملكهم دو، وهم يقاتلون بالنشاب ووراءه بلد اسمه ملل وملكهم يعرف بالمسلماني))[6]. كما ذكرهما الإدريسي

---

(1) Prévost et courtille , op. Cit, p15

(2) Niane (Temsir djibril) , Histoire et tradition historiqueduMandingue,In revue Presence Africaine,Paris,1974,N°89,vol1,pp352-353

(3)Niane temsir djibril,Recherches sur l'empire du Mali au moyen âge. Présence africaine, Paris, 1975, pp11et12.Trimingham(Spencer) ,OP.Cit, p61

(4) Trimingham(Spencer) :Op.Cit, p61

(5) Prévost(Lilliane) et courtilles(Isabelle) ,OP.Cit,

(6)البكري، المصدر السابق، ص178.

بقوله: ((وليس في جميع أرض للم إلا مدينتان صغيرتان كالقرى إحداهما ملل واسم الثانية دو، وبين هاتين المدينتين مقدار أربعة أيام))(1).

فالملاحظ من هاذين النصين أن المملكتين كانتا موجودتين خلال القرن الخامس للهجرة/ 11 م، وهي الفترة التي تحدث فيها عنهما البكري مما يجعلنا نعتقد بأن نشأتهما كانت قبل هذه الفترة، وهو ما تذهب إليه المصادر الشفوية للمالنكي التي تتحدث عن وجودهما منذ القرن الرابع للهجرة/10م(2). لكننا إذا علمنا بأن الجغرافي العربي أحمد اليعقوبي قد ذكر ملل وهو المتوفي سنة 292 للهجرة الموافق لـــ 905 للميلاد(3)، فإن ذلك يجعلنا نقول بان مملكة كيري(مندي) كانت موجودة على الأقل منذ أواخر القرن التاسع للميلاد/ لثالث للهجرة، لكنها كانت مجرد تنظيم سياسي بسيط جدا أشبه ما يكون بالقرية. فكانت كيري إذن أو ملل هي النواة الأولى لمملكة مالي حتى أن المصادر السودانية أطلقت عليها اسم كيري ـــ كوروني ومعناها البيضة التي خرجت منها مملكة ماندي(4). كما أن هذه الروايات الشفوية التي يرددها الرواة الشفويون الملقبون بأسياد الكلمة، والمعروفون ببيلن- تيجي (Belen-Tigi)، تذكر بأن مملكة دو (أو دودوغو) كانت تسكنها عشيرة آل كوندي، بينما أل كوناتي وكيتا فقد كانوا يسكنون كيري ومندن.

---

(1) المصدر السابق،ص 33 ـــ كما ذكرهما الحميري في الروض المعطار في خبر القطار، تحقيق إحسان عباس، نشر مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت،1980، طبعة الثانية، ص475 ـــ لكن يبدو أنه نقل معلوماته عنهما عن الإدريسي.

(2) Maiga (Mohamadou) , Le bassin du fleuve de Sénégal. Editions l'harmattan, (Paris, 1995 ; p20).

(3)تاريخ البلدان، دار صادر، بيروت، لبنان، 1992، الجزء الأول، ص193.

(4) Fofana(Moussa) , Conseiller pédagogique et formateur au collège moderne de sincina Koutiala , Histoire et tradition, article publié sur le site : http : //www .maliweb.net /newspaper .consulté le : 30-07-2007.

وكانت إمارة دو هذه تقع شمال كيري، وكان فيها لآل كمارا مدنا أساسية هي سيي وتابون، بينما كان آل تراوري ينافسون آل كيتا وآل كوندي باحتلالهم لجزء من كيري[1].

ويبدو من خلال الروايات الشفوية أيضا بأن مملكة كيري كانت تتمتع باستقلالها، بينما كان زعماء مملكة دو فاقدين للسيادة، إذ كانوا مجرد تابعين لإمبراطورية غانة، ينصبهم ملك كومبي ويعزلهم كما يشاء[2]. وهذا ما أعطى التفوق لمملكة كيري على جارتها دو، بحيث قام زعماء كيري من آل كيتا بتوحيد المملكتين في مملكة واحدة[3]. وهي كيري التي تحوّل اسمها إلى مندن أو ملل منذ ذلك الحين، بينما اختفى اسم دو[4]. كما عملت أسرة كيتا بعد ذلك على زحزحة أسرة تراوري التي كانت تزاحمها في زعامة مندن رغم أن هذه الأخيرة كانت ما تزال تتمتع بقوتها العسكرية ومهارتها في الصيد، وتولت عشيرة كيتا زمام الحكم في كل مندن[5] مؤسسة بذلك أول إتحاد للعشائر المندية

---

(1) Niane Temsir djibril, Mali et la deuxième expansion manden. In : Histoire générale de l'Afrique, Publié par ONESCO, (Paris, 1985, volume4, p153).

(2) بانيكار (مادهو) ، الوثنية و الإسلام، ص ص 89 و 90.

(3) تقول الروايات الشفوية بأنه في البداية استقرت أسرة كيتا في جارب أو ديارابي Diariba ، وهي قرية صغيرة قرب سيغيري siguiri، ثم حدث أن أصيبت ابنة زعيم مملكة دو بمرض جلدي جعلت الرجال ينفرون من الزواج بها، فقام زعيم عشيرة كيتا بالزواج منها فأكسبه هذا الزواج قوة، فنشبت صدامات بينه وبين إخوته، وانحاز أهالي مملكة دو إلى إخوته فأرغم زعيم عشيرة كيتا على اللجوء إلى كيري، فانتقل الصراع بين كيري ودو، وكان النصر حليف كيري التي سيطرت على دو وضمتها إليها. (مادهو بانيكار: نفسه، ص90.)

(4) Niane Temsir djibril , Mali et la deuxième expansion manden, p153

(5) Panhuys(Henri) , La fin de l'occidentalisation du monde, 2 éditions l'harmattan, Paris, 2004, p316

بهذا الحجم، والذي يضم المدن التي كانت تابعة لمملكة دو والمقدر عددها باثنتي عشر مدينة، بالإضافة إلى جميع مدن كيري[1]. لكن المصادر الشفوية لمندن لم تذكر الطريقة التي تمت بها الإطاحة بعشيرة تراوري[2]، إلاّ أننا نعتقد بأنها كانت بطريقة سلمية، وذلك نظرا للمكانة والدور الذي بقي الصيادون من آل تراوري يتمتعون به في ظل حكم آل كيتا، وليس أدل ذلك من الدور الذي سيلعبه القائد تيراماكان تراوري وجيشه من الصيادين في حروب سوندياتا التوسعية، والمكانة الخاصة جدا التي كان يحظى بها عند الزعيم سوندياتا نفسه[3]. بالإضافة إلى المصاهرة التي قامت بين العائلتين بعد الزواج الشهير لملك المندي فاراكور ماغان كينيي(والد سوندياتا)، من سوغولون كيجوكو(وهي والدة سوندياتا) من عائلة تراوري[4].

فعائلة كيتا استطاعت إذن أن تتزعم عشائر المندن، وأن تتربع على عرش أول مملكة تتشكل من اتحاد زعاماتها ألا وهي مملكة مندن التي عرفت عند المصادر العربية بملل، وعند غيرهم بمالي.ولقد كان هذا الاتحاد الأول للمندي على يد أول ملك لمملكة مالي من عائلة كيتا وهو مامادو كانو أو(محمد كانو) الذي تدعي الروايات الشفوية بأنه ابن بلال بن

---

(1) Niane Temsir djibril , Mali et la deuxième expansion manden 153.

(2) تقول هذه الروايات بأن هناك ست زعماء من آل تراوري تداولوا على زعامة كيري قبل آل كيتا، وأن تفوق هؤلاء عليهم كان بفضل قوتهم العسكرية ، لكنهم لم يذكروا استعمالهم لهذه القوة ضدهم .
Niane temsir djibril,Recherche sur l'empiredu Mali,p12.

(3) حول دور تيراماغان تراوري نظر ايضا لمبحث الثاني من هذا الفصل

(4) ونشير إلى أن الملوك من آل كيتا كانوا يحرصون أيضا على ربط علاقات مصاهرة حتى مع آل كوندي زعماء دو لكسب تحالفهم معهم. أنظر: Niane Temsir djibril : recherches sur l'empire du Mali, p126.

رباح مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم[1]. صحيح أن بداية هذه المملكة كانت متواضعة، من خلال المصادر العربية التي تذكرها بأنها لم تكن في البداية سوى قرية كبيرة[2]، إلاّ أن ملوك كيتا الأوائل بدأوا ينظمون مملكتهم من خلال إقامة تحالفات قوية مع زعماء العشائر القوية، وتكوين جمعيات خاصة بالصيادين للعمل لديهم، واستغلال مناجم الذهب في بوري وتنظيم الطرق التجارية البرية والنهرية لتدعيم ملكهم وتقوية مملكتهم الناشئة[3]. كما أخذوا يتوسعون جنوبا على حساب الشعوب البدائية غير المتحضرة، وهي البلاد التي تعرف بكوروبا دوغو (Koroba dougu) والتي تعني بلاد الأقزام[4]. وربما هؤلاء الأقزام هم الذين تحدثت عنهم المصادر العربية، والتي لقبتهم بالدمدم أو الدمادم، وفي أحيان أخرى دعتهم باللملم، ووصفتهم بالمتوحشين الذين يشبهون البهائم وقالت بأنهم من الكفار المهملين[5]. ويقول بشأنهم ابن خلدون:((وفي جنوب هذا النيل (النيجر) قوم من السودان يقال لهم لملم، وهم كفار ويكتوون في وجوههم و أصداغهم، وأهل غانة و تكرور (يقصد مالي)[6]يغيرون عليهم ويسبونهم ويبيعونهم للتجار فيجلبونهم إلى المغرب، وكلهم عامة رقيقهم وليس وراءهم في الجنوب

---

(1)Youssouf tata cissé , La grande geste du Mali, tome1, pp43 et 367

(2) البكري، المغرب، ص178

(3) Fage(J.D) ,Op.Cit, p353

(4) كانت كوروبا دوغو في السابق تضم كل الأراضي التي تشمل "دو" و "كيري"، قبل أن تتقلص شيئا فشيئا نحو الجنوب.

(5) ابن سعيد،كتاب الجغرافيا،ص ص91 و 92 ــ الحميري: الروض المعطار، ص 475 ــ الدمشقي: نخبة الدهر، ص 240.

(6) نشير هنا أن ابن خلدون لما انتقل إلى مصر أين كان يكتب تاريخه المعروف بالعبر أصبح متأثرا بالمشارقة الذين كانوا يخلطون بين مالي و تكرور، حيث كانوا يقصدون ببلاد التكرور إمبراطورية مالي.

عمران يعتبر إلا أناسي أقرب إلى الحيوان العجم من الناطق، يسكنون الفيافي والكهوف ويأكلون العشب والحبوب غير مهيأة، وربما يأكل بعضهم بعضا، وليسوا في عداد البشر))[1]. وبهذا يمكننا أن نتفهم ما ذهب إليه أحمد الشكري في دراسته حول مملكة مالي، عندما استنتج بأن أرض اللملم هي نفسها ملل أي مالي[2] وهذا لأن أرض اللملم ألحقت من طرف عائلة كيتا بمملكة مالي الناشئة، وأصبحت جزء منها. وهكذا فما إن حل القرن السادس للهجرة حتى أصبحت مملكة المندي أو مالي وحدة سياسية منظمة وقوية تسيطر على جميع الإمارات التي كانت تشكل عالم المندي القديم وهي كيري، دو، باكو وبوري[3]. واتخذت عائلة كيتا من كنغابا (Kangaba) مقرا لأول عاصمة لملكهم[4]. والتي عرفت بعدة أسماء أخرى، حيث تدعى جوليبا (Djoliba)أو ديليبا (Diéliba)، هو اسم مشتق من اسم النهر الكبير الذي توجد على ضفافه هذه المدينة وهو أحد من فروع النيجر[5]. ويدعوها المؤرخ السوداني محمود كعت بمدينة جارب وهو أيضا أحد أسماء نهر ديليبا[6]. وتتمركز هذه العاصمة في الضفة اليسرى لنهر النيجر، في منتصف الطريق بين مدينتي سيغيري وبماكو[7].

وقد ذكرت مدينة ملل من طرف المؤرخين والجغرافيين العرب، لكن يبدو حسبهم أنها لم تكن سوى مجرد قرية صغيرة، حيث يصفها الإدريسي بقوله: ((فأما مدينة ملل التي هي

---

(1) المقدمة، ص ص 43 و44.

(2) أحمد الشكري: الإسلام والمجتمع السوداني ـــ إمبراطورية مالي 1230ــ1430م. المجمع الثقافي، أبو ضبي، الإمارات العربية المتحدة، 1999 م /1420هــ، ص 170.

(3) Prévost (Liliane) et de courtille (Isabelle) ,Op.Cit, p15

(4) Delafosse (Maurice) ,Les noirs de l'Afrique, p55

(5) Delafosse (Maurice) ,Les noirs de l'Afrique, p55

(6) Mahmoud (Kati) ,Op.Cit, p66

(7) Delafosse (M) , Haut Sénégal –Niger tome2, p174

من بلاد لملم، فقد ذكرناها فيما تقدم وهي مدينة صغيرة كالقرية الجامعة، لا سور لها، وهي على تل تراب أحمر منيع جانبه، وأهل ملل متحصنين به عمن يطرقهم من سائر السودان))[1]. أما ابن سعيد فيؤكد وقوعها على ضفة نهر جوليبا الذي يسميه باسم المدينة بقوله: ((ويخرج من طرفه الشرقي نهر ملل ويتقوّس حتى يمر على مدينة ملل))[2]. وقد أجريت حفريات أثرية في نهر النيجر، مكنت من كشف مكان هذه المدينة عند التقاء نهري النيجر والسنكراني، في مكان يدعى الآن ماني (Mani) أو مالي تومبو(Mali tombo) وتعني أطلال مالي[3]. وبقيت قرية كنغابا العاصمة الأساسية لمملكة مالي الناشئة، حيث احتضنت مقر حكامها وفي أرضها دفنت رفاقهم[4]. وقد اختيرت هذه المدينة كعاصمة لموقعها الهام بالنسبة للملاحة النهرية، واحتوائها على مناجم الذهب المشهورة والموجودة في منطقة بوري[5].ولم تفقد دورها كعاصمة للمملكة إلاّ مع ظهور سوندياتا كيتا الذي نقل عاصمته إلى نياني.

وقد أطلق الماليون على مملكتهم الجديدة اسم مندي نسبة إلى البلاد المندية كلها، ولكن لما كان لابد من تمييز هذه المملكة الصغيرة الناشئة عن بقية بلاد مندي التي تضم ممالك وإمارات أخرى غيرها، فإنه أعطي لمملكة آل كيتا اسم مالي أو ملل أو مللي، والذي اشتق من النطق الفولاني والسوننكي لأرض مندي. فبينما نجد السوننكي يطلقون على بلاد مندي اسم مالي، فإن الفلاتة الموجودين في منطقة مسينا يطلقون عليه اسم مللي

---

(1)القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس، ص 37.

(2)Trimingham (Spencer) ,Op.Cit, p60

(3) نبيلة حسن محمد : في تاريخ الحضارة الإسلامية، ص 206 .

(4)Delafosse (Maurice) , Les noirs de l'Afrique, p55 .

(5) Prévost (Liliane) et de courtille (Isabelle) : Op.Cit, p15

(بلامين متتاليين يكون الأول مسكونا والثاني مكسورا) (1). ويبدو أن هذا النطق الفولاني هو الذي أخذته المصادر العربية، وحتى المصادر السودانية المعرّبة، إلا أننا نجد الكثيرين ممن كتبوا في تاريخ السودان الغربي يخطئون في نقل هذا اللفظ بطريقة صحيحة، فنجدهم يفتحون اللام الأول ويسكنون الثاني فيقرؤونه و يكتبونه (مَلَلْ).وهناك من المصادر العربية التي تذكرها باسم لملم مثل الحميري والدمشقي، واللذان يبدو أنهما وقعا في الخلط بين ملل ولملم عندما نقلا معلوماتهما حول بلاد السودان عن الإدريسي. فهو عندما ذكر اسم لملم كان يقصد بها بلاد مندي أو ماندينغ ككل، أما ملل فكان يقصد بها مدينة مالي التي هي جزء من بلاد مندن، حيث يقول: ((فأما مدينة ملل التي هي من بلاد لملم)(2) وعندما يذكر لملم التي يقصد بها بلاد مندن يقول: ((وليس في جميع أرض لملم إلا مدينتان صغيرتان كالقرى، إحداهما ملل، و اسم الثانية دو.)) (3) أما المراجع الغربية والروايات الشفوية السودانية فتطلق عليها اسم مالي الذي يعني بلغة المالنكي البرنق أو فرس النهر، وهو رمز القوة برا وبحرا، لهذا أصبح يطلق على سكان المملكة اسم المالنكي الذي يعني بلغة مالنكي سكان أتباع فرس النهر" أو سكان مالي. (4)

---

(1) نبيلة حسن محمد، المرجع السابق، ص 203

(2) المصدر السابق، ص 37.

(3) الادريسي، المصدر السابق، ص33.

(4) علي باري (محمد فاضل) و كريدية (سعيد إبراهيم ، المسلمون في غرب إفريقيا، ص76 ـــ نبيلة حسن محمد، المرجع السابق، ص 109. Niane (T.D) djibril : Recherches sur l'empire du .Mali p12,

. ونشير هنا إلى أن فعل سكن أو يسكن باللغة المندية هو(نزيكي - را) أو (نديكي- را) وعندما نضيفه...

=إلى كلمة مالي الذي هو اسم البلد تصبح مالي نديكي(Mali'ndiki) التي تحولت مع الوقت إلى مالنكي بعدمااختفى. Delafosse (Maurice) ,Essai manuel pratique de la langue mandé ou Mandingue. Ernest Leroux éditeur (Paris, 1901, p130).

وعموما فإن مملكة مندي أو مالي وجدت في مرحلتها الأولى هذه على شكل دولة صغيرة محاذية لجنوب إمبراطورية غانة، وكانت هذه المملكة الناشئة مكونة من جبال وغابات السفانا، والغابات الكثيفة التي كانت تمثل حصنا منيعا لأمنها، ومصدرا لثروة شعبها، وكان سكانها يعيشون في شكل قرى صغيرة تترأسها زعامات العشائر التي تعد عشيرة كيتا واحدة منها[(1)]. لهذا فقد أطلق على هذه المرحلة من تاريخ مملكة مالي بمرحلة الزعماء الصيادين المتمثلين في آل كيتا الذين كانوا يلقبون بسيمبو[(2)]. ويبدو أن هذه المرحلة تميزت بنوع من التنظيم السياسي في أبسط صوره، حيث تلخصت الحكومة في وجود زعيم يمثل السلطة الملكية ويحيط بهم مجموعة من الموظفين، وامتدت هذه المرحلة من القرن الرابع إلى القرن السادس للهجرة/ من 10 إلى 12ميلادي، أي إلى غاية وصول سوندياتا كيتا إلى عرش هذه المملكة وتوحيده لكل بلاد مندن تحت رايتها، وبداية عهد الإمبراطورية[(3)]. وقد عرفت المملكة خلال هذه المحلة عدد من الملوك الذين ينحدرون كلهم من بيت آل كيتا، والذين بفضلهم حافظت على وجودها، كما يعود لهم الفضل في إدخال الإسلام إلى أرض مندن.

3.ملوك عائلة كيتا الأوائل ودورهم في تأسيس مملكة مالي:

إن المعلومات التي تتحدث عن ملوك عائلة كيتا الأوائل تعد شحيحة جدا ونادرة، وهذا راجع إلى قلة شهرة ملكة مالي في بداياتها الأولى، إذ لم تكن في الحقيقة سوى مجرد دويلة صغيرة هي أشبه ما يكون بالقرية الصغيرة على حسب قول الإدريسي. كما أن جل

---

(1) Boubacar(Diallo) et Séga(yattara) , Histoire de l'Afrique .Faculté des arts, langues, et sociales. Université de Bamako, pp13, 14.

(2) Youssouf tata cissé,Wà kamissoko, la grande geste du Mali, tome1, p75.

(3) Delafosse(M) , Les noires de l'Afrique,p57.

ما كتب عن تلك الفترة من تاريخ مالي كانت تطغى عليه أحداث وتطورات إمبراطورية غانة التي كانت تسيطر على معظم السودان الغربي، وكانت مملكة المندي تابعة لها.فكان الحديث عن السوننكي أصحاب غانة يطغى على كل ما سواهم. وكان أول ملك من سلالة كيتا تحدثت عنه المصادر العربية هو برمندانة، الذي يعد أيضا أول من أسلم منهم وأول من أدى فريضة الحج [(1)]. لكننا نجد اختلافات بين هذه المصادر في تسميته، فابن خلدون يدعوه مرة برمندار[(2)] ومرة أخرى يدعوه برمندانة[(3)] أما المقريزي فيسميه سرمندانة[(4)]. أما أبو عبيد البكري فيذكره باسم "المسلماني" بسبب أسبقيته في دخول الإسلام دخوله الإسلام[(5)] .

أما المصادر الشفوية السودانية فهي الوحيدة التي ذكرت الملوك من آل كيتا منذ إنشائهم لأول إمارة في كيري خلال القرن العاشر للميلاد/الرابع للهجرة، وخلدتهم من خلال أناشيد وملاحم مازالت ترددها إلى اليوم في مختلف الاحتفالات والمراسيم والمناسبات[(6)]. لكن رغم ذلك تبقى هذه الروايات متضاربة فيما بينها حول أسماء هؤلاء الملوك الأوائل أو فترة حكمهم، رغم أنها تتفق جميعها بأنهم كانوا من زعماء الصيادين، وأن عدد الذين تداولوا على عرش مملكة المندي منهم قبل سونددياتا يقدر بستة عشر ملكا.[(7)]إلا أنها

---

(1) ابن خلدون، العبر،المجلد الخامس، ص 495

(2) نفسه،ص495

(3) نفسه ، المجلد السادس السادس،266

(4) المقريزي (تقي الدين)، الذهب المسبوك فيمن حج من الخلفاء والملوك. تحقيق و تعليق: جمال الدين الشيال، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد،مصر،1420هـ/2000م، ص140

(5) المغرب، ص178

(6) نيان تمسير جبريل : مالي والتوسع الثاني للماندينغ، ص141

(1)Jelifa digi Sissoko, Op.Cit, pp299 et 300 – Youssouf tata cissé , la grande geste du

تختلف حول اسم أول ملك صياد (أو سيمبو) حكم مملكة مندن. فبينما نجد بعضها تتحدث عن "منسا بيريمون" كأول ملك، وهو ربما نفسه الذي تحدث عنه ابن خلدون باسم برمندانة[1] ، نجد روايات أخرى تذهب إلى أن أول ملوك مندن هو لاهيتول كالابي (Lahitoul kalabi)[2] وهناك رواية استقيتها عن طريق صديق إفواري تربطه علاقات بعائلة كوياتي في منطقة كونغ بكوت ديفوار مفادها أنه كان للصحابي الجليل بلال بن رباح سبعة أبناء سافر أكبرهم و هو "لوالو " إلى مكة، واتجه ليستقر في بلاد مندن، ويكون هو من ترأس عشيرة كيتا الأولى، أي أنه الجد الأكبر لآل كيتا [3].

إن الشيء الملاحظ على هذه الروايات هو أنها رغم اختلافها في ترتيب ملوك مندي، إلا أنها تداولت نفس الأسماء مع ترتيب مختلف فقط، وهذا ما أرجعناه ربما لأخطاء الرواة الشفويين، الذين عن قصد أو غير قصد كانوا يقدمون بعض الأسماء أو يؤخرون بعضها. لكننا إذا ما اطلعنا على الروايات الخاصة بمنطقة النيجر الأوسط فإننا نجدها تذهب إلى أن أول ملك من صيادي جماعة كيتا وصل إلى مندن وأسس أول عشيرة ذات تنظيم سياسي معين، وهو بذلك يعد أول ملك لمالي هو مامادو(محمدو)كاني، وتزعم أنه ابن الصحابي

Mali, tome1, pp de 43 à45.

(2) نفسه،ص141.

(3) وهي الروايات التي تروى في منطقة سيغيري وانتشرت في منطقة كونغ في كوت ديفوار الحالية.

Diawara (Gaoussou),Aboubakar2,L'expediteur Mandingue,Edoitions L'Harmattan,Paris2010,p71.

(3) Cisse Gaoussou,L'histoire de Soundiata Keita,Les premiers rois du Mandingue.Des paroles recuellies à Abidjan en juillet 2007 chez les Kouyaté. Histoire du Mandé , in : www.clic.mali.org.

=نشير إلى الاختلاف الحاصل مع روايات "ديوما " السنغالية التي تقول بأن مامادو كاني هذا لم يكن الابن المباشر لبلال بن رباح، و إنما يوجد هناك سبعة أجداد يفصلون بينه وبين الصحابي الجليل، أي أن مامادو كانو ما هو إلا الحفيد السابع لبلال بن رباح حسب زعم هذه الروايات.

Niane temsir djibril , Recherches sur l'empire du Mali, p19.

الجليل بلال بن رباح. ويعد مامادو كاني هذا أول من اخترع صفارة الصيد، كما يعود له الفضل في تطوير مهنة الصيد وزودها بقوانين ومراسيم حتى أصبحت تشبه إلى حد كبير الديانة. ويكون هذا السيمبو قد ساد خلال القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد حسب تلك الروايات(1).

وكان لمامادو كاني أربعة أبناء حكموا مملكة مندن تباعا الواحد تلو الآخر(2) ، وكان أول من تولى عرش مالي بعد مامادو كاني هو ابنه " كاني سيمبو" الذي يعني اسمه بلغة المندي " بطل الصيد المدعم بكثير من الحب"، لأن الصيادين حسبهم لابد أن يحبوا بعضهم البعض ويحبون أصدقائهم(3) لم يكن كاني سيمبو هذا هو أكبر إخوته، بل كان أصغرهم، ولكنه تميز عنهم بالاستقامة والأخلاق الطيبة، لذلك عينه شيوخ الصيادين زعيما عليهم معتقدين بأنه مبارك من طرف أرواح الأجداد الخفية(4). ولقب أيضا بسيمبو الأكبر الذي يمنح ويعطي بكلتا يديه(5). وحسب بعض الروايات فإن كاني سيمبو استقر لفترة معينة بواغادو(غانة) قبل أن يتركها ويتجه نحو جارب أو (جوليبا)، حيث هاجر إليها في البداية

(1)هناك روايات أخرى تقول بأن عددهم هو ثلاثة ،أنظر
Jelifa Diji Sissoko ,Sonjara(The Mande épic),p19

(2) Youssouf tata cisse,Wa kamissoko,La grande geste du Mali,tome1,pp43-44

(3) كان المالنكي قبل اسلامهم يعبدوت ارواح الاجداد التي تقوم على اعتقادهم بان أرواح اجدادهم تبقى تراقبهم و توجههم لاتخاذ القرارات المهمة.

(4)Histoire du mandé - Prevost(Lilliane)et De copurtille(Isabelle),Op.Cit,p15. -

(5) John william johnson and Thomas A.Hale and Stephen peterson ,Oral epics from Africa.Published by Indiana university press,1997,p11.

(1) David (Con,rad)and Djanka(Tassey condé),Sanjata,A west African epic of the mandé peoples .Published by Hackett publishing company,Indiana polis,2004,p7.

(2) Youssouf tata cisse,Wa kamissoko,La grande geste du Mali,tome1,pp43-44

بحثا عن مزرعة صغيرة أين وجد مزرعة بمندن تعرف بكيري كوروني التي تعد حسبهم أول قرية مندية على الإطلاق(1). لكن يبدو أن هذه الروايات قد أغفلت الدور الذي قام به مامادي كاني، الذي يعد حسب روايات أخرى المؤسس الحقيقي لأول قرية مندية.

ومهما يكن فإن كاني سيمبو حتى وإن لم يكن أول الزعماء الصيادين من عائلة كيتا، فإنه يبقى بالتأكيد أشهرهم، ويعد أكثرهم ذكرا في الروايات الشفوية السودانية، حيث حكم مندن ومنحها الرخاء دون أن تكون مضطرة لخوض حروب مع جيرانها(2). وقد خلف كاني سيمبو على عرش مالي أخواه الثلاثة على التوالي وهم، "كاني نيوكون سيمبو" والذي لقب برفيق بطل الحب، ثم بعده "لافالو سيمبو"، ثم "لوالي سيمبو"الملقب ببطل صيد العصور القديم(3). تبقى المعلومات حول هؤلاء الأمراء الصيادين منعدمة، ولا توجد تفاصيل كافية عن انجازاتهم وسيرتهم في الروايات الشفوية، التي اكتفت بذكر أسمائهم وألقابهم ضمن أناشيد الرواة، حيث يعتبرون بمثابة الأجداد الأسطوريين لكل شعب المالنكي ككل وليس لآل كيتا فحسب.كما أننا لا نجد لهم ذكرا ولا إشارة في المصادر العربية. وبعد هؤلاء الأمراء الأربعة تولى عرش مالي ابن كانو نيوكون سيمبو، وهو " بورومون جان كوناتي"(4) والذي يعرف عند بعض الروايات باسم منسا بيرومون(5). وعند بعضها الآخر باسم"باماران إلياس"(6) والذي يعد أول ملك من أسرة كيتا تذكره

---

(3) Youssou tata cissé : La grande geste, tome1, pp43 ,45 .

(4) John william johnson and Thomas A.Hale and Stephen peterson , Op.Ct, p11-David conrad : OP .Cit, p7 – Youssouf tata cissé : Op ; Cit, p45

(5) نيان تمسير رجبريل:المرجع السابق،ص141.

(1) Niane temsir djibril , Recherches sur l’empire du Mali, p20

وحسب دولافوس فإن أصل الكلمة هو " بارامنديا Baramandena" و تعني بلغة المندي" زعيم داخل المندي" أي " قائد المندي" . (Haut Sénégal-Niger, tome2,p174)

المصادر العربية، حيث ورد عند البكري باسم المسلماني[1] وذكره المقريزي باسم سرمندانة[2]، أما ابن خلدون فقد ورد عنده باسم برمندانة [3]وقد شهدت مملكة مالي في عهد هذا الملك مجاعة وجفاف لم تعرفهما من قبل، وامتدت ثلاث سنوات متتالية، حيث فتكت خلالها الأرواح و الحيوانات. ويذكر البكري بأن هذا الملك قدم عدد كبير من البقر كقرابين حتى كاد أن يفنيها، ولم يزدهم ذلك إلا قحطا وشقاء، وكان عنده آنذاك ضيفا من المسلمين يقرأ القرآن ن ويعلم الناس السنة، فشكا إليه الملك ما دهمهم، وطلب منه أن يدعو له ربه، فدعاه هذا الضيف إلى الإيمان بالله والإقرار بوحدانيته، و بمحمد صلى الله عليه وسلم، والإقرار برسالته، والاعتقاد بشرائع الإسلام، مقابل أن يدعو له الله أن يفرج كربته. وبقي يردد عليه ويدعوه حتى أسلم، وعلمه الفرائض، وتطهر. وفي إحدى ليالي الجمعة صليا معا ودعيا الله تعالى و طلبا الاستسقاء، فما أن حل الصبح حتى انهمرت المياه، وعم الغيث فأسلم الملك برمندانة وصح إسلامه. وبذلك كان هذا الملك أول زعماء الصيادين يدخل الإسلام وتبعته حاشيته، وأهل مملكته[4]. أما الرواية الشفوية الشفوية فتقول بان سبب إسلام برمندانة هو تعرضه للإقالة من طرف شعبه بسبب عدم استطاعته إسقاط المطر، رغم تمكنه من فنون السحر وهو ما جعله يستنجد بالزعيم المرابطي أبي بكر بن عمر الذي هداه للإسلام[5]. لكننا لا نعتقد بان برمندانة هذا قد عاصر أبا بكر بن عمر، وهذا لعدم وجود أي إشارة لهذا الملك المالي، أو لالتقائه بأبي بكر

---

(2) المصدر السابق، ص 178.

(3) الذهب المسبوك، ص 140.

(3)العبر، ج 5، ص178

(5) المغرب، ص178.

(1) Labouret(Henri) ,Histoire des noirs de l’Afrique, presses universitaires de France, paris,1950,p18

بن عمر في المصادر الخاصة بالمرابطين. وقد أدى برمندانة فريضة الحج إلى مكة المكرمة، وبذلك يكون أول من قام بهذه الفريضة من آل كيتا، وبالتالي فقد جعلها سُنّة استنّ بها من جاء بعده من الملوك الماليين[1]. ويذهب المؤرخ الغيني نيان تمسير جبريل[2] إلى الاعتقاد بأنه في عهد منسا بيريمون هذا اندمجت و توحدت مملكتي "دو" و" كيري" في إطار مملكة واحدة و التي عرفت بملل أو مالي[3]. لكننا من جهتنا نعتقد بأن مملكتي دو وكيري تكونان قد توحدتا قبل ذلك بكثير، لأن الملك منسا بيريمون (أو برمندانة حسب ابن خلدون) يكون قد ساد في مندن خلال منتصف القرن الحادي عشر للميلاد/الخامس للهجرة حسب دولافوس[4]، بالإضافة إلى أن اليعقوبي قد تكلم عن مملكة ملل منذ أواخر القرن الثالث للهجرة/التاسع للميلاد[5].

وعموما فإن ما يشهد به للملك برمندانة هو انه فتح عهدا جديدا بالنسبة لتاريخ مملكة مالي عموما، وبالنسبة لعائلة كيتا خصوصا، ذلك انه سن سنة حسنة أصبح يتبعها ملوك مالي الذي جاؤوا من بعده، وتحولت إلى تقليد تشتهر به العائلة وهو تأديته لفريضة الحج إلى البقاع المقدسة بمكة المكرمة، حيث يقول ابن خلدون بشأنه: ((أنه وسبيله في الحج هي التي اقتفاها ملوكهم من بعده))[6]. ومنذ عهد هذا الملك تحولت مكة المكرمة إلى

---

(1) ابن خلدون(عبد الرحمان):العبر، مجلد 5، ص 496

(2) Niane temsir djibril: هو كاتب ومؤرخ غيني ولد عام 1932م بكوناكري بجمهورية غينيا، وهو مختص في تاريخ مندن وخاصة إمبراطورية مالي، حيث قام بجمع الروايات الشفوية والأناشيد المحلية المخلدة لتاريخ مندن، من عند الراوي ماما دو.

(3) مالي و التوسع الثاني لماندينغ،ص 141

(4) Les noirs de l'Afrique, p56

(5) تاريخ البلدان، الجزء الأول، ص 193

(6) المصدر السابق، ص 496

البوابة التي أطل منها ملوك كيتا ومملكتهم على العالم الإسلامي والعربي، وبدأت تنهل من مظاهر الحضارة العربية الإسلامية وثقافتها، وهو ما يساهم في ربط مملكة مالي بالعالم الإسلامي.

لقد خلف منسا بيريمون أو برمندانة كيتا مجموعة من الملوك من نسله وذريته، لكن للأسف نجد هناك خلط كبير بين الروايات الشفوية التي قدمت لنا قوائم مختلفة وأسماء متباينة مما يصعب أمر ترتيبهم زمنيا، ومما يصعب الأمر أكثر هو ذلك الصمت الرهيب المسجل في المصادر العربية ، فهي لم تذكر شيئا مطلقا عن خلفاء برمندانة المباشرين، وهو ما يجعلنا مضطرين إلى ذكر القوائم التي أوردتها الروايات الشفوية ومحاولة المقارنة بينها.

فحسب روايات منطقة كيلا (Kéla) التي ترويها عائلة دياباتي (Diabaté) وكذا روايات آل ديوما (Dioma)[1]، فإن منسا بيريمون الذي تسميه سيمبو باماران الياس(Simbo bamarin alias) هو الإبن الرابع لمامادو كاني، بحيث يعد "كانيوكو سيمبو" عمه وليس أباه. ويأتي بعده ابنه باماري تانياتي (Bamari tagnati)، ثم بعده الملك مبالي نيني (M'bali néné)، ثم خلفه ملك يدعى بيلو(Bélo)، بعد ذلك يأتي بيليباكون (Bélébakon)، وجاء بعده والد سوندياتا كيتا وهو ماغان كون فاتا(Maghan kon fata) الذي يشتهر عند بقية الرواة باسم ناري فاماغان (Naré famahan)[2] لكن موريس دولافوس[3] فيقدم لنا قائمة أخرى لخلفاء برمندانة، حيث يشير إلى انه بعد حوالي

(1) حسب نيان تمسير جبريل فإن آل دياباتي يعدون من طرف معظم المالنكي هم حاملي سرّ الماندينغ، ويشتهرون عن غيرهم من الرواة الشفويين قاطبين

(2) Niane temsir djibril , Histoire et tradition historique du Mandingue. In revue LA présence africaine, (paris, 1974, N°9, volume : 1, p59)

(3) Maurice delafosse : هو موظف بالإدارة الاستعمارية الفرنسية ، عاش بين 1870م و 1926م، عين كإداري للشؤون الاستعمارية الفرنسية في كوت ديفوار، ثم عين قنصلا لفرنسا بليبريا، هو مختص

قرن من اعتناق برمندانة الإسلام (التي يحددها بسنة 1150م) فإن عرش مندن احتله أحد يسمى "حامانا"، وهو أقدم ملك بقيت الروايات الشفوية المحلية تحتفظ باسمه كاملا بدون تحريف، وقد توفي هذا الملك حوالي عام 1175م، وخلفه على عرش مندن ابنه ديجي بيلالي الذي خلفه بدوره ابنه موسى الملقب بألاكوي(1).

وعندما قارن نيان تمسير جبريل بين القائمتين المذكورتين فإنه توصل إلى أن الملك حامانا في قائمة دولافوس يقابله الملك "مبالي نيني" في قائمة آل دياباتي ، بينما يقابل الملك "ديجي بيلالي" في القائمة الثانية الملك "بيلو" في القائمة الأولى، ويكون حسبه الملك" بليباكون" هو نفسه موسى ألا كوي(2).

أما الروايات التي يرددها سكان منطقة كيلا، والتي نقلت إلينا عن طريق واكاميسوكو (Wakamissoko)(3) فإنها تعطي لنا قائمة أخرى تبدأ من الملك "كاني سيمبو" ثم يخلفه "كانو نيوكون سيمبو" ثم يأتي بعده "بورمون جان كوناتي" الذي يقابله "برمندانة" بالنسبة للروايات الأخرى، لكن هذا الأخير ليس هو الذي اعتنق الإسلام حسبهم و إنما ابنه توبي لوالي، الذي خلفه بعد وفاته أخوه "لوالي بوروما"، ويخلف هذا الأخير ابنه "بنتو مافيلي"،

في الشؤون الإفريقية ولديه عدة دراسات في الحضارة واللغات الإفريقية و خاصة كتابه الموسوعي عن إفريقيا الغربية المعنون بـــ" السنغال والنيجر العلويين" المكون من ثلاثة أجزاء .

(1) Haut Sénégal-Niger,tome2,p175

(2) Recherches sur l'empire du mali, p19.

(3) Wà kamissoko هو من طبقة الرواة الشفويين أو منشدي الملاحم التاريخية.ولد بكيرينا عام 1919م وتوفي عام 1976م، يلقب بـــ" والــ جان Wà-djan " التي تعني الكبير، أو "كيرينا ــ وا kirina-wa " التي تعني راوي منطقة كيرينا، قام بالتعاون مع المؤرخ الكبير "يوسف تاتا سيسي" و بالتنسيق مع جمعية "بمالي بانجاز عمل كبير مستمد من الرواية الشعبية الشفوية و هو " السيرة الكبرى لمالي" من جزئين، و الذي يعد من أهم مصادر تاريخ مملكة مالي.

وأخيرا ياتي "فارا كورو ماكان كينيي" وهو والد سوندياتا كيتا(1). ولكننا نلاحظ بأن موريس دولافوس عندما ذكر أسماء إخوة سوندياتا الاثنى عشر، ذكر فيهم أسماء لملوك مندن الأولين الذين ضمتهم قائمة رواة منطقة كيلا مثل كونو نيوكون سيمبو، الذي يقول عنه بأنه كان أكبر إخوة سوندياتا، وهناك أسماء أخرى لملوك ذكروا في قائمة ديوما مثل بارامان سيمبون وباماريتا نياكي(2). لكننا نجهل المصادر التي استقى منها معلوماته. وهو ما يزيد من غموض وتداخل أسماء هؤلاء الملوك، خاصة في ظل غياب أي إشارة لهم في المصادر العربية التي عادة ما تكون سببا في شهرة بعض ملوك مالي على البعض الآخر. فنجد أن سبب شهرة الملك برمندانة مثلا هو ذكره من طرف ابن خلدون والبكري والمقريزي، وكان ثاني ملك مندي أنصفته المصادر العربية هو موسى ألاكوي، الذي ذكره مصدر عربي ترجمه موريس دولافوس إلى العربية، واسمه الكامل هو ألاكوي موسى دييغي (Allakoy moussa dyigui) ويقدمه على أساس أنه الجد الأكبر لعائلة كيتا، ويقول عنه بأنه زار البقاع المقدسة أربع مرات(3). كما تذكره الروايات الشفوية وتقول عنه أنه مسلم ورع وتقي، وأنه ساد بين سنتي 596 و615 للهجرة/ 1200 و 1218 للميلاد(4). وفي عهد هذا الملك تعرضت مملكة مالي لسيطرة الصوصو، وألحقت بمملكتهم التي يقودها سومنغورو كانتي(5). وبعد موسى ألاكوي اعتلى عرش مالي الملك " ناري فاماغان" الذي يعد أكثر الملوك الماليين إثارة وجدلا، ويتخلل ذكره الكثير من الأساطير والروايات، وذلك

---

(4) Youssouf tata cissé ,Wà kamissoko, la grande geste ,t1,pp81,82 .

(1) Haut Sénégal-Niger, tome2, pp176, 177.

(2) Mamadi Aissa , Traditions historique du Soudan occidental. Manuscrit énidit traduit de l'arabe par , Maurice Delafosse, publié par Comité de l'Afrique Française, Paris, 1913, p19

(3) Sory Camara , Gens de la parole , Essai sur la condition et le rôle des griots dans la société malinké. Editions Karthala, Paris, 1992, p19

(4) Zerbo (Joseph.K.L) ,Op.Cit, p14

ربما يعود لكونه والد الزعيم سوندياتا كيتا. وتذكره الروايات الشفوية بأسماء مختلفة، فنجده باسم "ناري فاماغان" مرة، ونجده في روايات أخرى باسم "ماغان كون فاتا"[(1)]. كما نجده باسم "ماكان كينيي" عند روايات منطقة كيلا وروايات ديوما. وينسبه رواة آل كوياتي إلى ملوك منطقة سيبي من آل كيتا من حيث الأب، أما من حيث الأم فإنهم يذهبون إلى نسبه إلى أحد تجار ولاته القادمين من المغرب، ويدعى "وال بيروت" ذلك أن أصل هذا التاجر الأول من مدينة بيروت[(2)]. واستقر بمدينة ولاته التجارية، ومنها وصل أحد أحفاده إلى مدينة سيبي أين تزوج من امرأة من أشراف المالنكي تدعى ناري سانسون (Naré sanson) التي أنجبت له بنت اسمها ناري مثل أمها، والتي تزوجت من واحد من آل كيتا، فأنجبت منه ولدان، الأكبر يسمى "جالا كوناتي" وكان يعيش عند جده لامه في سيبي، أما الصغر فكان يعيش في منطقة "فاراكورو" عند والديه، لذلك اصب حوا ينادونه "فاراكورو ماكان"، ونظرا لجماله وحسنه فإن الناس كانوا يقولون عنه انه جميل والتي تلفظ بالمالنكي كينيي (Kényé) فأصبح يدعى"فاراكور ماكان كينيي" التي تعني ملك فاراكورو الجميل[(3)]. وتقول نفس هذه الروايات بان أخاه الأكبر جالا كوناتي هو الذي هيئ من طرف جده لأمه ملك سيبي ليكون ملكا للمندي، حيث علمه فنون الصيد والأخلاق الحميدة، وفنون تسيير الرجال وأصول الملك[(4)]، لكنها لم تذكر لنا بعد ذلك الظروف التي جعلت العرش ينتقل إلى أخيه الأصغر بدلا منه. ومهما يكن فإن ناري

---

(5) Boubacar diallo et Sénéga yattara ,Histoire de l'Afrique. Faculté des arts, langues, et sociales ; Université de Bamako, s. d, p17

(1) قدم وال بيروت هذا من إيران، وقد حل بمكة حيث اعتنق الإسلام، ثم مر ببيروت، أين مارس التجارة من بيروت إلى المغرب،التي قادته إلى المغرب،ومن المغرب قادته إلى ولاته، حيث لقبه التجار المغاربة ببيروت.

(2) Diakité(Drissa) , Kouyaté, la force du serment. Editions l'harmattan, Paris, 2009, pp42 et43 .

(3) Diakité(Drissa) ,opcit, p44

فاماغان تولى عرش مملكة مندن بعد وفاة أبيه موسى ألاكوي مباشرة أي سنة 596هـ/1218 م، وامتد حكمه إلى غاية سنة 627هـ/1230م. ويبدو أنه في عهد هذا الملك بدأت المملكة تتوسع نحو الجنوب الشرقي، وفرضت سيطرتها على الضفة اليمنى لنهر النيجر الأعلى أين كان شعب البامانا يتمركزون، فأجبرهم آل كيتا على الهروب إلى فوتا تورو بسبب رفضهم الدخول في الإسلام. بينما كان يتواجد السومونو أيضا، وهم طبقة الصيادين النهريين، والذين قبلوا اعتناق الإسلام كما قبلوا تبعيتهم لملك كنغابا ناري فاماغان[1]. فلقد ساهم هذا الملك بنشاط كبير في نشر الإسلام على ضفاف النيجر الأعلى[2]، وهو ربما السبب الذي زاد من عداوة ملك الصوصو الوثني والحاقد على الإسلام والمسلمين له ولأبنائه من بعده.

ورغم أن روايات منطقة كيلا تقول بأنه لم يكن ملكا، وإنما كان رجلا مرموقا وشخصية ذات مقام كبير في مندن[3]، إلا أننا نرى بأنه كان ملكا لعدة اعتبارات أهمها، قيادته للغزوات الموجهة لإخضاع مناطق الجنوب الشرقي، وهي أعمال ومهمات لا توكل إلاّ لملك ذي سيادة وصاحب القرار الأول في البلاد. بالإضافة إلى كونه الخليفة الشرعي لأبيه موسى ألاكوي، ولم يرد في المصادر ما يشير إلى انتقال الملك من ألاكوي لملك آخر غيره غير ناري فاماغان، أو حدث نزاع بينه وبين مطالب آخر بالعرش، رغم ما تردده روايات آل كوياتي من أن جده من أمه كان يهيئ أخاه الأكبر لعرش مالي بعد أبيه. ويمكن أن نفسر ادعاء روايات منطقة كيلا بكون بلاد مندن عرفت خلال فترة حكمه الاحتلال من طرف ملك الصوصو، مما جعل الملك ناري فاماغان يفقد سيادته الفعلية

(1) Delafosse(Maurice) ,H S N t2,p176 - Devery Muriel ,La guinée ,Editions Karthala, Paris, 2009, p77

(2) Baba(Kaké) et Elika(M'bolo),Histoire générale de l'Afrique ;Belgique,1979,p39.

(3) Youssouf tata cissé , Wà kamissoko, la grande geste, tome1, p 303 ;

للبلاد، وعرفت البلاد في أواخر عهده تبعية بعض الأقاليم لمملكة الصوصو، وهو ما جعل تلك الروايات تنـــزع عنه صفة الملك. ومهما يكن فإن ناري فاماغان يعد آخر ملوك مندي الأوائل المنتمين لعشيرة كيتا، ويعد خاتمة مرحلة من مراحل المملكة قبل بداية عهد الإمبراطورية الذي يبدأ مع ابنه سونديا تاكيتا. وعندما توفي ناري فاماغان ترك مملكة مندن غير آمنة، فلم تمر سنة واحدة فقط من وفاته حتى تعرضت المملكة من هجوم من طرف ملك الصوصو سومنغورو كانتي وقتل جميع أبنائه الاثنتا عشر، ولم يسلم منهم إلاّ طفل صغير في السابعة من عمره، ويعاني من إعاقة في رجليه يدعى سوندياتا كيتا.(1)

من خلال ما سبق يمكن أن نقول بأن ملوك مندن الأوائل من عائلة كيتا رغم أنهم لم يقيموا إمبراطورية واسعة، ولم يقوموا بغزوات عسكرية عظيمة واكتفوا بإقامة مملكة صغيرة محدودة جدا في المكان، إلا أنهم لعبوا دورا لا يستهان به في تاريخ مالي وتاريخ السودان الغربي ككل، ويكفيهم فخرا أنهم كانوا أول من أسلم من ملوك السودان، ومن ثم رفعوا راية الإسلام في إفريقيا السوداء التي سمحت لهم بإقامة أول وأكبر امبراطورية إسلامية فيما وراء الصحراء.

4.اعتناق أسرة كيتا للإسلام:

لما فتح المسلمون بلاد المغرب كان من الضرورة الإستراتيجية أن يلتفتوا جنوبا نحو الصحراء وما وراءها من بلاد السودان، ورغم وجود عدد من الروايات التي تزعم بأن حملة عقبة بن نافع امتدت حتى بلاد(2). إلا أن ذلك يخص ربما الصحراء التابعة لبلاد السودان باعتبار أن صحراء المغرب كانت مترامية إلى حدود السودان، كما أن المغرب

(1) Delafosse(M) ,H S N,tome2 , p177

(2) ابن عذارى، البيان المغرب، الجزء الأول، ص 51.

كان يمتد طبيعيا إلى غاية تخوم نهري السنغال والنيجر[1]. وكانت مملكة غانة مجاورة للبحر المحيط[2]، ومما يؤكد هذا الطرح هو رواية البكري التي تقول: ((وببلاد غانة قوم يسمون بالهنيهين من ذرية الجيش الذي كان بنو أمية أنفذوه إلى غانة في صدر الإسلام وهم على دين أهل غانة ... وبسلى قوم منهم يعرفون بالفامان.))[3] بالإضافة إلى الروايات التي تقول بأنه في ولاية عبد الله بن الحبحاب (116هـــ/735م) تم غزو السوس وأرض السودان فظفر بهم ظفرا لم ير مثله، وأصاب ما شاء من ذهب[4]. وتقصد بذلك الصحراء التابعة للصنهاجيين، والتي تؤدي إلى أودغست التي تعد أول بلاد السودان.

وبهذا نخلص إلى أن العرب الفاتحين أقصى ما يكونوا قد وصلوا إليه هو تخوم بلاد السودان، أي الأجزاء الشمالية لأرض غانة. وأن الإسلام لم يصل إلى الممالك السودانية إلاّ مع مطلع القرن الخامس للهجرة/11م، وخاصة مع فتوحات المرابطين لإمبراطورية غانة أين شهدنا تغلغل الإسلام في صفوف طبقة الملوك والأمراء، حيث أسلم ملك التكرور "وارجابي بن رابيس" وطبق شرائع الإسلام وفرضها على شعب مملكته وكان ذلك قبل سنة 432هـــ/1040م[5]، كما أسلم على أيدي أمير المرابطين أبي بكر بن عمر وهو في طريقه لفتح غانة، كل من شعب الولوف أو(الجولوف) و السيرير[6]. أما بالنسبة لملوك مالي فإن أمر إسلامهم يبقى موضوع جدل بين المؤرخين رغم وجود نص البكري الذي يروي قصة إسلام ملك ملل الذي يدعى المسلماني، والتي مفادها أن هذا الملك: ((قد

---

(3) نبيلة محمد حسن، المرجع السابق، ص 260

(4) ابن خلدون ، العبر، ج6، ص 196

(5) المغرب، ص 179 .

(1) ابن عبد الحكم، فتوح مصر و المغرب. تحقيق عبد المنعم عامر، القاهرة، د.ت، ص 293.

(5) البكري، المصدر السابق،ص 172

(3) Tidiane(N'diaye) ,Op.Cit. p28.

أجدبت بلاده عام بعد عام، فاستسقوا بقرابينهم من البقر حتى كادوا يفنونها، ولا يزدادون إلاّ قحطا وشقاء، وكان عنده ضيف من المسلمين يقرأ القرآن ويعلم السنة، فشكا إليه الملك ما دهمهم من ذلك فقال له أيها الملك لو آمنت بالله تعالى وأقررت بوحدانيته وبمحمد عليه الصلاة والسلام وأقررت برسالته، واعتقدت شرائع الإسلام كلها لرجوت لك الفرج مما أنت فيه... ولم يزل به حتى اسلم وأخلص نيته واقرأه من كتاب الله مما لا يسع جهله، ثم استتاب به ليلة الجمعة فأمره فتطهر فيها طهرا سابغا وألبسه المسلم ثوب القطن.... فقام المسلم يصلي والملك يؤمن فما انفجر الصباح إلا والله قد أعمهم بالسقي، فأمر الملك بكسر الدكاكير وإخراج السحرة من بلاده وصح إسلامه وإسلام عقبه وخاصته وأهل مملكته مشركون فوسموا ملكهم مذ ذاك بالمسلماني.))[1] الملاحظ إذن أن هذا الملك الذي لقب بالمسلماني هو نفسه برمندانة الذي ذكره ابن خلدون، كما أن المؤرخ سبنسر تريمنغهام (S.Trimingham) يرى بان حتى كلمة برمندانة أيضا لا تعدو إلا أن تكون سوى لقبا وليس اسما، وتعني رئيس المندي، وهو لقب لكل من يحكم مملكة مندي، ولا تخص فقط الملك الذي ذكره البكري[2]. ورغم ذلك فإن هذا الملك اشتهر بعد ذلك بالاسم الذي ذكره ابن خلدون لدى جميع المؤرخين العرب والغربيين على حد سواء.

ولكن حتى وإن اتفق المؤرخون حول اسم هذا الملك، فإنهم اختلفوا حول شخصية ذلك الرجل المسلم الذي كان في ضيافته والذي دعاه إلى الإسلام بعد حادثة الجفاف تلك. فموريس دولافوس يقول بأن ذلك الرجل المسلم هو أحد بربر لمتونة، وهو سفير المرابطين لدى ملك مالي ويدعى عمر، وهو والد كل من الأميرين المرابطيين يحي بن عمر وأبي بكر

(1)البكري،المصدر السابق ، ص 178

(2) A history of islam in West Africa, p 62

بن عمر[1]. مما يعني بأن دولافوس يضع قضية إسلام ملك مالي أو ملل في إطار حملة المرابطين على بلاد السودان الغربي، كما يضيف نفس المؤرخ بأن إسلامه كان سطحيا، و لم يشمل بطريقة جدية ودائمة سوى طبقة الأمراء والموظفين الكبار، والمحيط القريب منهم مباشرة، بينما بقي أغلبية الشعب وثنيين و قاوموا الإسلام[2]. لكننا نرى بأن المعلومات التي جاء بها دولافوس تفتقد إلى كثير من الدقة والمصداقية وذلك لعدة اعتبارات، أهمها أنه لم يطلعنا على مصادر معلوماته عن ذلك الرجل المسلم، والذي يبدو أنه استقاها من حسن الوزان[3]، الذي كانت كتاباته متأخرة جدا عن الأحداث المذكورة، حيث أن حسن الوزان ألف كتابه سنة 1527م. أما الأمر الثاني فهو الغموض الذي يكتنف شخصية برمندانة عند دولافوس، فهو الوحيد الذي يقول عنه بأنه أدى فريضة الحج إلى مكة المكرمة، بينما لم تشر لا المصادر العربية ولا الروايات الشفوية إلى أنه أدى هذه الفريضة. وبذلك نعتقد بأن دولافوس يمكن أن يكون قد اخلط بين المسلماني وملك آخر جاء من بعده وقد يكون موسى ألاكوي[4]. بالإضافة إلى هذا نجد أن

(3) Les noirs de l'Afrique, p50

(4) Delafosse(M) ,Les travers du temps (l'empire du mali) in site : http://www.cosmovision.com. Taille : 170ko, consulté le : 24-01-2008

(1) الحسن بن محمد الوزان الفاسي (المعروف بليون الإفريقي)، وصف إفريقيا. ترجمة : محمد حاجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، طبعة ثانية1983، الجزء الثاني، ص 164). لكننا نجد هناك اختلاف بسيط بين ما ذكره الرجلان، فبينما يقول دولافوس بأن الرجل المسلم هو والد يحي وأبي بكر بن عمر، نجد الوزان يقول بأنه هو نفسه أبو بكر بن عمر.

(2) ونجد بأن الضابط الفرنسي " ألفريد دوشاتولييه (Alfred de chatelier) كان قد ذكر قبل دولافوس الملك برمندانة، وقال بأنه قام بأداء فريضة الحج. ولكنه اختلف مع دولافوس بحديده لتاريخ إسلامه بسنة 610هـــ/1213م، و الذي نعتقد بأنه تاريخ حج الملك موسى الاكوي الذي جاء من بعده.

De chatelier (Alfred) ,Op.Cit,p 133.

دولافوس عندما تكلم عن الحادثة التي رواها البكري يقول بأنها حدثت سنة 1050م[1]، وهو تاريخ وإن لم يقدم لنا دولافوس مصدره كعادته، إلاّ أنه حتى وإن اعتبرناه صحيحا فهو يعني بأن إسلام ملك ملل كان قبل غزو المرابطين للعاصمة الغانية الذي كان سنة 469هـ/1076م[2]. لأنه في سنة 1050للميلاد/441 هجرية لم يكن المرابطين قد وصلوا بعد إلى للمناطق الجنوبية للإمبراطورية الغانية، ومنها كانغابا وهي عاصمة مملكة مالي المتواجدة في النيجر الأعلى. ومما يدحض مزاعم دولافوس أيضا هو ذكره بأن ذلك الرجل المسلم ضيف المسلماني هو والد يحي وأبي بكر بن عمر، و هو ما لم نعثر له على أثر في المصادر العربية، أو غيرها، ولا لمنصب السفارة التي تحدث عنها. وأخيرا فإننا نجد بأن دولافوس قد أطلق بعض الأحكام الجزافية عندما ذكر بأن إسلام ملك ملل كان إسلاما سطحيا، وأن شعبه بقي وثنيا، وقاوم الإسلام. صحيح أن البكري أخبرنا بأن الإسلام قد شمل في بداية الأمر الملك وعقبه وخاصته فقط، وأن بقية أهل مملكته بقوا مشركين، لكنه ذكر لنا أيضا بأن الملك قد صح إسلامه، بينما لم يذكر قط مقاومة بقية الرعية للإسلام حسب ما يدعيه دولافوس.

وبذلك يمكن أن نستنتج بأن إسلام ملك مالي كان قبل غزو المرابطين لبلاد السودان. وأنه لم يكن بالقوة، وأن شعب مالي لم يقاوم هذا الدين الجديد رغم بقائه وفيا لمعتقداته الوثنية، ذلك أن الإسلام في مالي قد انتشر تدريجا وعلى مراحل، حيث بدأ بالأسرة المالكة والطبقات الارستقراطية في المجتمع التي كانت أكثر طبقات المجتمع اتصالا وتقربا من المسلمين التجار والدعاة، وبالتالي كانت أكثر تأثر بهم، بينما بقي السواد الأعظم من

---

(3) Haut Sénégal- Niger, Tome, 2, p 175

(4) الحلل الموشية، ص 17.

فئات الشعب وثنيين، وهو ما يؤكده كل من الإدريسي(كتب حوالي سنة 1154م) وابن سعيد(كتب حوالي1228م) عندما ذكرا بأنه في عصريهما كان ما تزال هناك شعوبا من الكفار واليهود في ملل[(1)]. لهذا يمكن أن نقول بأن مملكة مالي إن لم تكن عرفت الإسلام عن طريق الغزوات المرابطية فهي قد عرفته عن طريق سلمي ألا وهو طريق تجار القوافل القادمين من الشمال والعابرين للصحراء . فممالك غرب إفريقيا عموما ومملكة مالي خصوصا كانت ترتبط بعلاقات تجارية نشيطة وغير منقطعة بالإمارات والدول الواقعة شمال الصحراء أو شمال إفريقيا منذ أمد بعيد[(2)]. وهذا النشاط التجاري الكبير هوالذي سمح بتألق إمبراطورية السوننكي (غانة) ومدينة أودغست، كما أن هذا النشاط نفسه هو الذي جعل الديولا وهم احد فروع المالنكي بالتفوق عن غيرهم من شعوب الماندينغ كما رأينا، وساهم أيضا بقدر كبير في تنظيمهم السياسي وتطورهم الاقتصادي، من خلال مملكة مالي. فلقد كان التجار إلى جانب أعمالهم التجارية يقومون بالدعوة إلى الإسلام حتى أصبح من الصعب جدا الفصل بين الدور التجاري والدور الدعوي للتجار البربر القادمين إلى السودان الغربي [(3)].

ولقد كان للإباضية الذين استقروا على أطراف الصحراء، وفي واحات فزان وجبل نفوسة وغدامس وتيهرت منذ القرن الثاني للهجرة/الثامن للميلاد دوركبير في تلك التجارة

---

(1) الإدريسي، القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس، ص 34 ـــ ابن سعيد: كتاب الجغرافيا، ص 91

(2) حول موضوع العلاقات التجارية بين ممالك السودان الغربي و دول المغرب الإسلامي أنظر : شعباني(نور الدين)، العلاقات بين ممالك السودان الغربي و دول المغرب الإسلامي و آثارها الحضارية, بين القرنين:5و9 هـــ. رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط، جامعة الجزائر، السنة الجامعية: 2006 /2007م

(1) أحمد إلياس، دور فقهاء الاباضية في إسلام مملكة مالي، كلية الآداب، جامعة الخرطوم:

In site: http:// www .omano. net /forum/showthread-PHP. Consulté le: 22-01-2009

الصحراوية، ولقد عزز ذلك الدور اعتناق قبائل هوارة وزناتة للمذهب الإباضي، وانضمامهم إلى حركة التجارة الصحراوية[1]. وخلال منتصف القرن الثالث للهجرة/9م قامت هناك مدينة مهمة في جنوب الصحراء شمال شرق منحنى نهر النيجر، والتي عرفت حركة تجارية نشيطة بينها وبين تيهرت وورقلة، وهي مدينة تادمكة التي أصبح يؤمها التجار من المغرب الاسلامي، وتحولت فيما بعد إلى محطة هامة لأصحاب المذاهب خلال جهودهم الدعوية في السودان الغربي[2]. ويتضح من نصوص الاباضية النشاط الكبير لأهل دعوتهم في جنوبي الصحراء الكبرى، وقد وردت الكثير من الأسماء لفقهائهم بغرب إفريقيا في القرنين الثالث والرابع للهجرة/9و 10 للميلاد[3]. لذلك تمكّن الاباضية من تجار وفقهاء من تقوية اتصالاتهم بغرب إفريقيا منذ القرن الثاني للهجرة[4]. ولعل كثير من تلك المناطق قد اعتنقت الإسلام على يد الاباضية منذ ذلك الوقت، فلقد لاحظ ابن بطوطة لما زار مالي خلال القرن الثامن للهجرة/14م، في قرية ونجراتة (ونغارة) سكان من البيضان يتبعون المذهب الاباضي، ويسمون أنفسهم صغنغو[5].

---

(2) ابن خلدون، العبر،مج 6، ص286

(3) Fage(J.D) and Roland (Anthony Oliver) : The Cambridge history of Africa, p348

(4) الدرجيني(أبو العباس أحمد بن سعيد):كتاب طبقات المشايخ بالمغرب. تحقيق:إبراهيم طلاي،مطبعة البعث، الجزائر،دون تاريخ،جزء 2، ص 137.

(1) يذكر ابن الصغير بأن الإمام الرستمي أفلح بن عبد الوهاب قد أوفد سفيرا إلى ملك السودان يدعى محمد بن عرفة حاملا معه هدية (ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين. تحقيق و تعليق: إبراهيم بحاز، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1986م، ص 81)

(2) ابن بطوطة:الرحلة. دار صادر، بيروت، 1412هـــ/1992م، ص 680.

ولقد امتاز هؤلاء التجار بحسن أخلاقهم ومعاملاتهم طيبة، مما جعلهم يتقربون من الأمراء والملوك ويكسبون ودّهم(1). لهذا فيمكن أن نقول بأن ملك مالي المدعو المسلماني أو برمندانة يكون قد دخل الإسلام بدعوة من أحد الدعاة التجار الإباضية كان ضيفا عنده، خاصة وأن الدرجيني ترك لنا نصا يروي قصة مطابقة لتلك التي رواها لنا البكري.(2) وبالتالي يمكن أن نقول بأن الأمر يتعلق بنفس الحادثة، ولكن يبقى الاختلاف الوحيد بين الروايتين هو هوية الشيخ الاباضي الذي لا يمكن أن يكون بأي حال من الأحوال علي بن يخلف، وذلك لأن هذا الشيخ قام برحلته إلى بلاد السودان عام 575هـ/1180م، بينما قام البكري برواية قصته تلك في أواخر القرن الخامس للهجرة/11م، على اعتبار أنه توفي

(3) Trimingham(Spencer) :Op.Cit, p25.

(2) يذكر الدرجيني بأن أحد شيوخ الاباضية وهو "علي بن يخلف" سافر إلى غانة سنة 575هـ/1180م، وانتهى إلى مدينة مالي فأكرمه ملكها غاية الإكرام، وكان هذا الملك مشركا وتحته مملكة عظيمة كل أهلها مشركون، وتحته اثنا عشرة معدنا يستخرج منه الذهب التبر، فكان الملك قلما يجلس مجلسا إلا أجلسه معه إكراما له، وكان يتعجب من خلقه و خلقه وكثرة عبادته، ومحافظته على دينه، وكان ذلك في سنة قحط شديد فشكت الرعية ما أصابهم إلى ملكهم، فأمرهم بالاستسقاء فجعلوا يستسقون ويتقربون بقربانهم التي يعتادونها في ملتهم، وذبحوا أنواع الحيوان من البقر والغنم والحمير فلم يسقوا، فقال الملك لعلي: ألا تدعو إلهك الذي تعبده أن يسقينا.؟ فقال له: لا يسعني ذلك و أنتم تكفرون به و تعصونه، وتعبدون غيره. فإن آمنتم به ... =وأطعتموه فعلت ذلك ورجوت أن يسقيكم. فقال له الملك: علمني الإسلام وفرائضه حتى أتابعك عليه، وتستسقي لنا. فعلمه كيف يقر بالشهادتين فعلمهما، ثم قال إصحبني إلى نهر النيل(النيجر) ففعل، وعلمه الصلاة فباتا ليلتهما في الصلاة والعبادة، فلم يكد يحل عليهما الصبح حتى حالت السيول بينهما وبين المدينة، حتى ركبا زورقا، ودامت الأمطار سبعة أيام لم ينقطع فيها ليلا أو نهارا، فآمن الملك ودخل الإسلام، ودعا أهله إليه فأجابوه، ثم دعا رعيته فأجاب أكثرهم. (طبقات المشايخ، ص ص 137، 138.)

سنة 487هـــ /1094م، أي أن الحادثة تكون قد حصلت في منتصف القرن الخامس للهجرة، وهو التاريخ الذي حدده دولافوس لهذه الرحلة. كما أن المصادر الاباضية التي جمعها المؤرخ ريموند موني (R.Mauny) تبين بأن الشيخ أبا نوح سعيد بن يخلف، وهو من علماء النصف الأول من القرن الخامس للهجرة/10م قد اشتهر كثيرا بأسفاره إلى غرب إفريقيا(1). وهناك روايات رواها كل من "المازغني السوفي" و"الشماخي" تضمنت الإشارة إلى سفر الشيخ أبي يحي بن القاسم الفرسطائي إلى السودان، وإسلام ملكهم على يده، وكان سفره في النصف الأول من القرن الرابع للهجرة/10م(2). فمن خلال هذه الروايات مجتمعة نستطيع أن نصل إلى نتيجة مفادها أن إسلام ملك مالي أو ملل كان على يد فقيه من مشائخ الاباضية الذين كانت تعج بهم بلاده، والذين ظفروا بمكانة مميزة لدى أسرة آل كيتا الحاكمة وأعيانها. وبالتالي فإن دخول الإسلام إلى هذه المملكة لم يكن عن طريق الغزو المرابطي كما أراد أن يوهمنا به حسن الوزان، ودولافوس. كما يمكن أن نستنتج أيضا بأن برمندانة هذا كان من ملوك مالي الأوائل، على اعتبار أن قصة إسلامه بقيت ترددها المصادر الاباضية منذ القرن الرابع للهجرة/10م، وربما لهذا السبب نجد الروايات الشفوية لمنطقة كيلا تقول بان أول ملك اسلم من آل كيتا كان يدعى توبي لوالي (Toubi-lawali)، والتي تعني في لغة المالنكي (معتنق الإسلام في الأزمنة الغابرة)(3). لكننا لا نستطيع أن نحدد تاريخا دقيقا لذلك، و أن ما ذهب إليه دولافوس على أن ذلك

---

(1) Mauny (Raymond) , Recueil des sources arabes concernant l'Afrique occidentale- du 13ème au15ème siècle-.Traduit par Joseph coq, Paris, 1975, p173

(2) الياس احمد،دور فقهاء الاباضية في إسلام ملوك مالي ـــ نبيلة محمد حسن:المرجع السابق، ص 155

(1) Youssouf tata cissé ,Wà kamissoko ,la grande geste ,t1,p43

ويقول القلقشندي(صبح الأعشى، جزء 5 ، ص 693) :((و كان ملوك مالي قد دخلوا الإسلام من زمن قديم)).

حدث سنة 442 هـــ/1050م، ثم تبناه بعد ذلك معظم المؤرخين يبقى مجرد تخمين لا يعتمد على أسس دقيقة. وعلى العموم فإن انتشار الإسلام في ربوع تلك المملكة التي كانت ما تزال فتية آنذاك قد تم بطريقة تدريجية، وكان بطريقة عمودية، أي بدا بطبقة الأمراء والتجار أولا، ثم انتقل بعد ذلك إلى الشرائح الاجتماعية المختلفة في المملكة[(1)].

ولم يحل القرن السادس للهجرة/12م حتى شهدت المملكة حركة انتشار واسعة للإسلام[(2)]، ولم يبق في المملكة من وثنيين إلا مجالات لملم من الكفار المهملة البدائيون حسب وصف الإدريسي لهم، والذين كانوا ينتشرون في الجزء الجنوبي للملكة الممتدة جنوبا مدينة غيارو المترامية في المناطق الاستوائية [(3)]. لكن إذا ما عدنا إلى أوضاع مملكة مالي خلال هذه الفترة، وهي منتصف القرن السادس الهجري نقول بأنها كانت ما تزال ضعيفة القوة من الناحيتين السياسية والعسكرية على الأقل[(4)]. لكنهم عوضوا ذلك الضعف بنشاط تجاري دؤوب، واستفادوا أيضا من ثروة الذهب التي تزخر بها أرضهم. كما ساهم تجارهم المعروفون بالونجارة والديولا في نشر الإسلام في منطقة أعالي نهري النيجر والسنغال، وأصبح أحد ملوكهم وهو موسى ألاكوي مشهورا بسبب أدائه لفريضة الحج أربع مرات، وبالتالي قامت التجارة مقام الفتوحات العسكرية والسياسة في فرض هيبة الدولة والتعريف بها وبشعبها في المناطق البعيدة[(5)].

---

(2) Mussa(I.U), On the nature of islamisation and Islamic reform in billad as soudan, dirasat : Amman, the university of Jordan, 1979, volume1, N°1, p12.

(3) الشكري(أحمد)، الإسلام و المجتمع السوداني، إمبراطورية مالي،ص 175.

(4) الإدريسي،المصدر السابق، ص ص 4 و9.

(5) الشكري(أحمد)، المرجع السابق، ص 175

(1) Delafosse (Maurice) , Haut Senegal-Niger, t2, pp175 et 176,

وراحت عائلة كيتا تمضي قدما في بناء سرح مملكتها وتوسيعها خلال عهد الملك ناري فاماغان كيتا بين سنتي 615 و 627هــ/ 1218 و 1230م، حيث بدأت تتسع المملكة باتجاه الجنوب والجنوب الشرقي، وأخذت تفرض سيطرتها على الضفة اليمنى للنيجر الأعلى، وأصبحت عائلة كيتا حاملة لراية الإسلام في المنطقة، وهو ما أصبح يهدد مصالح الإمارات والممالك الوثنية هناك، وخاصة مملكة الصوصو بكينياكا وملكها الوثني الساحر سومنغورو.

5. هجوم الصوصو ونكبة عائلة كيتا:

رأينا في الفصل الأول من هذا البحث كيف وصلت عائلة كانتي إلى عرش مملكة الصوصو، و مدى كراهيتها وحقدها الشديدين للإسلام والمسلمين، وبالتالي فإن اعتناق ملوك مندي من آل كيتا للإسلام، ودورهم في نشره في منطقة النيجر والسنغال العلويين كان كفيل بأن يؤجج نار الحقد والعداوة أكثر في صفوف ملوك الصوصو من آل كانتي، وخاصة الملك سومنغورو كانتي الذي أصبح أقوى رجل في المنطقة بعد سقوط إمبراطورية غانة، وانتشار الفوضى في بلاد الأوكر(1)، وسيطرته على عاصمتها كومبي صالح.(2)وبالرغم من أن سومنغورو يعد شخصية واقعية، إلا أن الحكايات والأساطير التي رويت بشأنه جعلت منه شخصا أقرب الأبطال الأسطوريين، حيث تقول عنه الروايات الشفوية بأنه كان صيادا كبيرا، يتمتع بقامة طويلة، وذا ساقين معوجتين، وأنه كان سيدا مولعا بالحرب(3)، وقد تعلم السحر والشعوذة على يدي الجن إلى درجة اعتبرته فيها

---

(1) Tidiane(N'diaye) :La longue marche des peuples noirs, p 29

(2) بوعزيز(يحي): تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية . دار هومة ، الجزائر ،2000 ،ص 25

(3) Moussa Fofana : Point d'histoire, Le royaume de sosso Kiniaga. In site : http://www.maliweb.net/ catégory. Consulté le : 30-07-2007.

الروايات الشفوية الخاصة بطبقة الحدادين أنه لا يمكن هزمه، بل تضيف بأنه كان قادرا قتل أعدائه بمجرد تلاوته لبعض التعاويذ ثم توجيه أصبعه باتجاه عدوه، وتزعم بأنه كان قادرا على إسقاط شجرة واصفرار أوراقها بنفس التعويذة، وأنه يمكن أن يسقط حائطا بمجرد توجيهه أصبعه نحوه(1).

وبغض النظر عن الجانب الأسطوري الذي صُبغت به شخصية سومنغورو، فقد عرف بظلمه الشديد وجبروته، حيث كان يجد نشوة كبيرة في الاستمتاع بالقتل والتدمير، حيث يروى عنه بأنه كان يزين قصره برؤوس الملوك والأمراء التي كان يقطعها في حروبه(2). كما عرف عنه شغفه وتعلقه ببعض الحيوانات المفترسة التي كانت تحميه، فكان طير الباشق مكلف بحماية مسكنه، وحماية آلته الموسيقية المعروفة ببالافون (Balafon)(3) وكان يملك ثعبانا يستعمله كمرشد يرسله لتقصي أخبار أعدائه قبل أي حرب(4).

وبمجرد أن اعتلى سومنغورو عرش مملكة الصوصو خلفا لأبيه ديارا كانتي حتى بدأ ينتفض ضد الشعوب الماندينغية المسلمة سواء السوننكي من آل سيسي وهم ملوك غانة القدماء، أو المالنكي من آل كيتا زعماء مملكة المندي. حيث أراد أن ينتقم لأبيه الذي نفي في عهد حكم آل سيسي إلى بلاد مندي لأنه كان الوحيد الذي رفض التخلي عن الوثنية والدخول في الإسلام، كما كان آل سيسي يستغلونه في استخراج الذهب لفائدتهم في منطقة بورون (Boron). لهذا فقد أقسم سومنغورو بأن يجعل أعدائه يشربون حمم الحديد

---

(1) Nambala(Kanté) et Pierre(Erny), Forgerons d'Afrique noire – Transmission des savoirs traditionnels en pays Malinké , Editions l'harmattan, Paris,1993, p93.
(3)Moussa fofana ,Op.Cit

(3) هي آلة موسيقية خشبية خاصة بإفريقيا الغربية ، يعزف عليها الرواة الشفويون اناشيدهم المخلدة لأعمال ملوكهم و أجدادهم.

(4) Moussa fofana ,Op.Cit

المذاب كعقاب لهم[1]. لكن عامل الانتقام لم يكن السبب الوحيد الذي أجّج مشاعر الكراهية لدى سومنغورو اتجاه الماندينغ، بل هناك عدة عوامل تضافرت وتراكمت ودفعت به للثورة على تلك الشعوب المسلمة واحتلال أرضهم واضطهادهم. ويمكن أن نلخصها فيما يلي:

أولا: انتشار الفوضى في بلاد الماندينغ بعد سقوط إمبراطورية غانة وتحطم الجيش الغاني، فادى ذلك إلى ظهور جماعات من قطاع الطرق تترصد عابري السبيل لاصطيادهم وبيعهم في سوق النخاسة. فحاول سونغورو التصدي لهذه الظاهرة من خلال اقتراحه لإقامة تحالف مع زعماء ماندينغ بهدف محاربة تجارة الرقيق ، لكن هؤلاء الأخيرين رفضوا اقتراحه واحتقروه، ورفضوا الانضمام إلى حلف يقوده شخص ينتمي إلى طبقة الحدادين الدنيا، و لا يساوي شيئا بالنسبة إليهم، رغم أن التحالف الذي دعا إليه كان يهدف إلى حماية المالنكي من الاستعباد الذي كانوا يتعرضون إليه من طرف المور والماركا (السوننكي) على حد سواء[2]. فكان رد فعله عنيفا، وتحول هو نفسه إلى مستعبد لأهل الماندينغ، حيث زعم بأنه إذا كان الأمر كذلك فمن الأولى به أن يكون هو الحق يأخذ حصته من العبيد، وذلك خلال شن حرب مدمرة ضدهم جميعا وزرع الرعب والإرهاب والتقتيل[3].

---

(1) Lo.Cit.

(2) لقد أشرنا في موضع سابق ذكر كل من الإدريسي، و ابن سعيد و ابن خلدون لتعرض قبائل اللملم وهم من المالنكي للعبودية و الاسترقاق من طرف سكان الشمال.

(1) Youssouf tata cxissé : Wà kamissoko,La grande geste du mali,tome1, pp 26, 27, 201 _ Tidiane(N'diaye) :Op.Cit, p29 ,

ثانيا: التنافس الذي كان قائما بين عائلة كانتي حكام الصوصو، وعائلة كيتا حكام مملكة مالي حول زعامة منطقة النيجر والسنغال العلويين بعد انهيار إمبراطورية غانة وتدمير عاصمتها كومبي، حيث كانت كل عائلة تسعى إلى وراثة هذه المملكة[1]. ذلك أن سومنغورو لما أخضع المقاطعات السوننكية بسهولة، وجد مقاومة عنيفة من طرف عائلة كيتا المندية التي رفضت أن تستسلم له، وكانت منافسا عنيدا له خاصة في عهد الملك ناري فاماغان كيتا الذي تعرضت البلاد في عهده إلى تسع محاولات للاحتلال من طرف سومنغورو، وهذا ما زاد من حقد هذا الأخير على أهل مندي، وضاعف من رغبته في الانتقام منهم وإصراره على إخضاعهم بأي ثمن[2].

ثالثا: الدافع الديني، وهو الحقد الكبير الذي يكنه سومنغورو الوثني للإسلام والمسلمين، فبعد اضطهاده لمسلمي غانة، أصبحت مملكة مالي بزعامة عائلة كيتا هي الرافعة لراية الإسلام في المنطقة، وهو ما أصبح يقلق سومنغورو المعروف عنه بأنه صاحب دعوة لديانة وثنية جديدة في المنطقة، ومؤسس لها[3].

رابعا: أما بالنسبة للأسباب الاقتصادية، فتتمثل أولا في رغبة سومنغورو في السيطرة على مناجم الذهب التي كانت تزخر بها مملكة مالي الناشئة في كل من بوري، وغالام[4].

---

(2) جون فيج، تاريخ غرب إفريقيا، ص 52

(3) نيان تمسير جبريل، مالي والتوسع الثاني للماندينغ، ص 137 - Mamadi aissa : op.Cit, p20

(3)نبيلة محمد حسن: المرجع السابق، ص 197 Moussa fofana :Op.Cit

(4) Devey(muriel) , Op.Cit, p75.

وكان سومنغورو يعلم بأنه لن يضمن سيطرته على المنطقة بدون سيطرته على مناجم الذهب، التي لا يمكن السيطرة عليها بدون غزو بلاد مندي وإخضاعها لسلطته.

وبالإضافة إلى الذهب فالتجارة كانت إحدى عوامل الغزو أيضا. فنحن شاهدنا كيف انتشرت حالة من الفوضى وانعدم الأمن في بلاد السوننكي بعد سقوط غانة، وهو ما انعكس سلبيا على الحركة التجارية، حيث فقدت مدينة كومبي(العاصمة السابقة لغانة) مكانتها كمركز تجاري هام بين مدن الصحراء والسودان الغربي، وذلك نتيجة تدميرها وهروب سكانها المكونين من مسلمي السوننكي نحو الشمال خوفا من بطش جنود سومنغورو[1]. لهذا ففي سنة 622هـــ/1224م توجه مسلمو غانة نحو الشمال وأسسوا في مكان يبعد عن سجلماسة بمسيرة خمسين يوما مدينة جديدة تسمى ولاّته أو إيوالاتن[2]. وذلك قرب الآبار التي تعود البدو الرحل على التخييم بجانبها لتشرب إبلها. لهذا أطلق عليها السودانيون اسم "بيرو" والتي تعني بلغة السوننكي "الخيام"[3]. وأصبحت هذه المدينة الجديدة أهم محطة تجارية يلتقي فيها التجار، ومحطة للانطلاق نحو الحج بالنسبة للسودانيين، كما أصبحت تمثل نهاية الطرق الصحراوية، وبالتالي عوضت مدينة أودغست التجارية التي سيطر عليها عرب المعقل[4] الذين كانوا يقومون بالنهب والسطو على

(1،)Delafosse(Maurice) : H S N, t 2,p165

ـ ابن خلدون:العبر، مج 5، ص 495 و مج6، ص266.

(2) Cuoq (Joseph) : Histoire de l’islamisation de l’Afrique de l’ouest (Des origines à la fin du 16ème siècle) . Librairie orientaliste Paul Geuthner, Paris, 1984, p 165.

(3) Delafosse (M) : H S - N , Tome 2, p 90

(4) عرب المعقل هم إحدى القبائل العربية التي زحفت على المغرب الأوسط خلال القرن الخامس للهجرة /11م مع قبائل بنو هلال وبنو سليم، و هم ينسبون أنفسهم إلى جعفر بن أبي طالب، وينسبهم ابن خلدون إلى اليمن إلى رجل يدعى المعقل واسمه ربيعة إحدى بطون مذحج ، ويصفهم بأنهم من افر قبائل العرب، أما

القوافل التجارية. وأمام خضوع مدينة بهذه الأهمية لسلطة ملوك مالي من عائلة كيتا[1]، فإن ذلك كان كفيلا بأن يثير مخاوف ملك الصوصو الذي كانت بلاده تشكو من ركود تجاري كبير [2].

وهكذا فبعدما اجتمعت لسومنغورو كل أسباب ودوافع غزو بلاد مندي، جهز جيشا قويا مكونا من جنود مجهزين بالرماح و النبال المصنوعين في مملكة الصوصو المشهورة بمهنة الحدادة[3]. بالإضافة إلى تجهيز عدد كبير من الفرسان، وأوكل قيادة الجيش لرجل يدعى وروسو-دابا (worosso-daba) الذي تروي بشأنه الروايات الشفوية بأنه لم يكن يمكن لأي إمارة أو مملكة أن تصمد أمامه[4]. وبدأ سومنغورو بغزو قبائل الماندينغ ، لكنه تعرض لمقاومة عنيفة من طرف ملوك مالي وعلى رأسهم والد سونديياتا ناري فاماغان، الذي يبدو انه قاوم هجمات سومنغورو كثيرا قبل أن يموت[5]. وقد ترك ناري فاماغان بعد وفاته اثنتا عشرة ولدا هم: كونيوكو سيمبا، كابالي سيمبا، ماري تانيا كيلي، نوتييني ماري يريسيغي، سوصوتورو لاكانديا، موسوكورو، موسوكاندالي، مانسا ماغامبا، فينادوكو كوماكان، كاغابوغاري، كالامبا ديوكونتو، وأخيرا سونديياتا[6]. وقد تولى

مواطنهم في المغرب فهي قفار المغرب الأقصى الممتدة من موطن بني عامر من زغبة قبالة تلمسان، إلى البحر المحيط من جانب الغرب.(بن خلدون،العبر، مج6، ص77)

(2) Cuoq (Joseph) ,Op.Cit, p90

(3) Moussa Fofana , Op.Cit

(4) تمكن حدادو الصوصو من صناعة سلاح حديدي خاص بهم يسمى " وروكانلا Worokanla ".

أنظر: Keithéga(Jean-Baptiste) , la métallurgie lourde du fer au Burkina Faso,une technologie à l'époque précoloniale. Editions Karthala, Paris, 2009, p365.

(5) Moussa fofana ,Op.Cit

(6) Monteil(Charles) ,Les empires du Mali,(Paris, 1968, p31(Paris, 1968, p31)

(1) Mamadi (Aissa) ,Op.Cit, p 20 _ Monteil (Charles) :Op.Cit, p31

عرش المندي أكبر أبناء ناري فاماغان وهو كونيوكو سيمبا كيتا، الذي بدأت في عهده اكبر غزوات سومنغورو على بلاد مندي حيث استطاع هذا لأخير أن يهزمهم ويقتل الملك كونيوكو سيمبا، لكنه لم يتمكن من احتلال المملكة فعاد إلى مدينته[1].

لكن الروايات الشفوية تقول بأن هجمات ملك الصوصو على بلاد مندي لم تتوقف بعد مقتل كونيوكو سيمبا، كما أن مقاومة ملوك مالي هي الأخرى كانت شديدة، حيث قاد سومنغورو خلال فترة حكمه الممتدة بين 596 و627هـ/1200و 1230م تسع حملات عسكرية ضد مملكة مالي استعمل فيها كل أساليب النهب والسلب والدمار المتاحة لديه، وفي كل مرة يعيد المالنكي بقيادة عائلة كيتا بناء قوتهم، والتصدي لقوات سومنغورو[2]. إلى أن استطاع في احدي الهجمات احتلال العاصمة كانغابا، قبل أن يتمكن الماليون من تحريرها[3]. لكنه تمكن من قتل أبناء ناري فاماغان الإثنا عشر. وهنا نجد الروايات الشفوية قد تضاربت حول هذا الموضوع ، فمنها من تقول بأن سومنغورو قتل كل الأمراء الاثنا عشر، والذين يكونوا قد توالوا حكم مندن الواحد تلو الآخر في ظرف سنة واحدة[4]. ومنها من تذهب إلى القول بأنه قتلهم جميع في ظرف أربع سنوات[5]. بل هناك من يرجح وقوع مجزرة من طرف سومنغورو بعدما دبر مكيدة مكنته من جمع الأمراء الأشقاء

---

(2) Mamadi(Aissa) ,Op.Cit, p20

(3) نيان تمسير جبريل، المرجع السابق، ص 137

(4) جوان جوزيف، الإسلام في ممالك و إمبراطوريات إفريقيا السوداء. ترجمة: مختار السويفي، دار الكتاب المصري بالقاهرة و دار الكتاب اللبناني ببيروت، طبعة أولى،1404 هـ/1984م،ص65

(5) Delafosse(Maurice) , H S N, t 2, p177

(6) Mamadi (Aissa) , Op ; Cit, p20

الذين ينحصر فيهم حق اعتلاء عرش مالي، وهم أبناء ناري فاماغان فأجهز عليهم مرة واحدة من خلال ذبحهم بكل وحشية[1].

ومهما يكن فإن غزوات سوندياتا على أرض مندن انتهت بنتائج وخيمة. فبالإضافة إلى قضائها على أمراء مالي من آل كيتا، فإنها تسببت في هروب أمراء المقاطعات التابعة لمملكة مالي، والذين أصيبوا بالرعب من سومنغورو وظلمه وجبروته. فحسب الروايات الشفوية دائما، فإن أمير مقاطعة سيبي وهو الأمير "سيبي فاران كامارا"، قد ترك مقر سكناه ولجأ إلى الجبال المجاورة، أما الأمير "باسيري كامان جان" فقد غادر مقاطعته وأسس قرية كامنجانا، فيما غادر أمير مقاطعة فيرينيفو وهو الأمير "فيرينيفو كامارا" مقر إمارته وأسس قرية فيرينيفو[2]. أما الأمير " ماسا دانكاران توماني" وهو أخ سوندياتا غير الشقيق وأمير مقاطعة داكاجالان، فقد هرب من هذه الأخيرة و لم يتوقف حتى بلغ قلب الغابة، و عندما وصل إليها قال:((سنستقر هنا لنكون في مأمن وننجو)). وهنا تأسست قرية "كيسيدوغو" التي تعني بلغة المالنكي أرض الخلاص، وتخلى عن عرش مالي[3]. وهكذا فقد كانت حركة سومنغورو بمثابة نكبة كبيرة لمملكة المندي التي احتلها الصوصو، وبسط سيطرته الكاملة عليها، وزرع الرعب والدمار والخوف في ربوع المملكة، إلى درجة أنه لم يعد المالنكي

---

(1) جوان جوزيف، المرجع السابق، ص 66

(2) يعد هؤلاء الأمراء من آل كامارا من أبناء زعيم آل كامارا العجوز " نياني ماسا كامارا " الذي هرب أمام الإرهاب الذي مارسه جنود سومنغورو في بلاد مندي، حيث حمل عائلته وأخذ معه صديقه وهو رجل الدين" تومونو ماكان ديان بيريتي "وترك مدينته"نياني با "(نياني الكبيرة)، وذهب إلى الغابات الجنوبية وأسس... =قريةصوبي(Sobé) أما نياني با، والتي تسمى أيضا تومونو فقد تعرضت للنهب والدمار من طرف جيوش سومنغورو بينما هرب أبناءه إلى المناطق الاستوائية كما ذكرنا. (Moussa fofana , Op ;Cit)

(3) Youssouf tata cissé , Op.Cit. p133

يجرؤون على عقد مجالس للحديث فيما بينهم خشية أن تنقل الرياح أقوالهم إلى مسامع الملك الطاغية، حسب زعم الروايات الشفوية(1). وتذهب روايات أخرى إلى أن سومنغورو لم يكن يسمح للمالنكي بالكلام إلا داخل قرع الياقطين، حيث كان يجبرهم على حمله معهم أينما حلوا، وإذا سمع أتباع سومنغورو أي صوت فإن صاحبه يقتل كجزاء له(2). وكانت نكبة المندي الكبرى تمثل في إبادة أسرة كيتا الملكية عن آخرها على أيدي سومنغورو، و لم يسلم من تلك المجزرة سوى أميران هما " منسا دنكران تومان" وهو أمير مقاطعة داكاجالان، والأخ غير الشقيق لسوندياتا، والذي علقت عليه الجماهير المالنكية آمالا كبيرة لقيادة المقاومة ضد الغازي المحتل، لكنه خذلهم وخشي من انتقام سومنغورو وفرّ إلى أدغال الغابات في الجنوب(3). أما الأمير الثاني الناجي من المجزرة فهو سوندياتا كيتا الذي تقول بشأنه الروايات الشفوية أن سومنغورو لما رآه يشكو من إعاقة أقعدته عن الحركة أو الوقوف على رجليهن قلل من شأنه واستصغره و لم يشأ أن يقتله(4). وهكذا كتب لسلالة آل كيتا أن تبعث من جديد ــ بعد أن أبادها ملك الصوصو ــ عن طريق طفل صغير،ضعيف، يتيم ومقعد هو سوندياتا كيتا، الذي لم يكتف بإعادة إحياء مجد عائلة كيتا بإحياء مملكة مالي، ولم يتوقف به الطموح باسترجاع حرية واستقلال المندي من قبضة الصوصو الطغاة الوثنيين، وإنما اضطلع بمهمة أعظم وأصعب من خلال بناء سرح أكبر وأول إمبراطورية إسلامية عرفها السودان الغربي في التاريخ. مضيفا بذلك

(1) نيان تمسير جبريل، مالي والتوسع الثاني للماندينغ، ص 137

(2) Nambala(Kanté) et Pierre(Erny), Forgeron de l'Afrique noire, p 494

(3) نيان تمسير جبريل،المرجع السابق، ص 137.

(4) Conrad (David.C) , Sunjata. A West Africain épic of the mande peoples. Hackett Publishing, Indiana polis, 2004, p 119.

مجدا آخر لآل كيتا من خلال الدور الذي لعبه هو وأحفاده من بعده في بناء إمبراطورية مالي الإسلامية والمساهمة الفعالة في جزء كبير في حضارة السودان الغربي.

المبحث الثاني

ظهور سوندياتا و تأسيس إمبراطورية مالي

أولا: شخصية سوندياتا:

تعد شخصية سوندياتا من أكثر الشخصيات التي شغلت اهتمام الماليين والماندينغ، كما جلبت اهتمام كل شعوب غرب إفريقيا. إلى درجة أصبحت فيه معظم قبائهم وعشائرهم تنسب نفسها إلى هذا الرجل العظيم، ونسجت حول شخصيته حكايات وأساطير جعلت منه بطلا أسطوريا خارقا يتمتع بمواهب فذة في القتال، وقوى سحرية فريدة من نوعها[(1)]. ونظرا لغياب المصادر المكتوبة عن سوندياتا، فإننا وجدنا أنفسنا ملزمين باللجوء إلى المصادر الشفوية التي غطت الجزء الأكبر من تاريخ هذا الرجل، والتي صنعت منه ملحمة أصبحت تعرف بملحمة سوندياتا. لهذا كان جديرا بنا أن نعرّف بهذه الملاحم التي تمثل مصادرنا الأساسية لدراسة هذه الشخصية.

فالروايات الشفوية هذه تتضمن ثلاثة أنواع، فهناك روايات خاصة بنسب سوندياتا كيتا، وأخرى تتعلق بحياة البطل، وروايات ثالثة مخصصة لانتصارات البطل وانفراج أزمته أوما يعرف بحل العقدة[(2)]. فأما الروايات الخاصة بنسب سوندياتا فهي الأكثر انتشارا نظرا

(1) Mauny (Raymond) ,Les siècles obscurs de l’Afrique noire, Librairie fayard, 1970, p 154,

(2) Lilyan (Kesteloot) et Bassirou(Dieng) , Les épopées d’Afrique noirs . Editions Karthala et Unesco, Paris, 2009, p87.

لحرص كل عشيرة من عشائر المندينغ أن تجد لنفسها مكانا يصلها بنسب هذا البطل[1]، أو لمحاولات المندين إيجاد نسب يليق بمكانة بطلهم الفذّ. لهذا نجد أن هذا النوع من الروايات يتضمن ثلاثة فروع وهي:

الفرع الشرقي: الذي ينسب البطل سوندياتا إلى بلال بن رباح مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم، وتهدف إلى ربطه بالنسب الشريف.

الفرع الخاص بالصيادين: وهي التي تصور البطل كملك صياد، أو ما يعرف عندهم بسيمبو، وهي أكثر الروايات التي طغت على بقية الروايات والأساطير السودانية.وهي مصبوغة بصبغة وثنية تطغى عليها مواضيع السحر والأرواح الخفية، والقوى الماورائية الخارقة وغيرها.

الفرع الخاص بعائلة سوندياتا، والمكونة من فئة الصيادين والفقهاء[2].

وبعيدا عن المصادر الشفوية فإننا نجد بأن اسم سوندياتا كان من أقل الأسماء تداولا من طرف المصادر العربية، على خلاف أبنائه وأحفاده الذين كان لهم النصيب الأوفر في كتبهم. وقد انفرد ابن خلدون بذكر ماري جاطة (يقصد به سوندياتا) بقوله: ((وكان ملكهم الأعظم الذي تغلب على صوصو وافتتح بلادهم وانتزع الملك من أيديهم اسمه ماري جاطه ... ولم يتصل بنا نسب هذا الملك))[3] ورغم أن رواية ابن خلدون تعد أهم نص مكتوب نملكه عن هذه الفترة من تاريخ مملكة مالي، وعن شخصية سوندياتا، إلاّ أنها لم تتمكن من تزويدنا بنسبه، أو حتى إيجاد العلاقة النسبية بينه وبين برمندانه الذي تحدث عنه في موضع سابق، واعتبره أول من اعتنق الإسلام من ملوك مالي. كما أن ابن

---

(3) عندما غزا الفرنسيون مدينة بماكو، و عندما مروا بمدينة كيتا و سيغيري وجدوا في طريقهم عدة ممالك صغيرة كلها كانت تحتوي على شجرة نسب تنسب ملوكها كلهم لسوندياتا.

أنظر: Jan Jansen ,Epopée, histoire. Le cas de sondjata, p130

(1) Valeri Thiers –Thiam ,A chacun son griot : Le mythe du griot-narrateur dans la littérature d’Afrique de l’ouest. Éditions l’harmattan, paris, 2004, p45

(2) العبر، المجلد السادس، ص 266.

خلدون لم يشر إلى فترة حكم سوندياتا أو (ماري جاطه)، واكتفى فقط بذكر مدة حكمه التي قدرها بخمس وعشرين سنة(1). وهنا نجد أنفسنا مضطرين إلى الاستعانة بالمصادر السودانية، ولا سيما الشفوية منها للإجابة على التساؤلات العديدة بشأن شخصية سوندياتا، رغم ما يشوب هذه المصادر من مبالغات ومن طابع أسطوري مليء بالخوارق .

وتحتل شخصية سوندياتا مكانة بارزة في الروايات الشفوية، وهي لا تكاد تعترف إلا بهذا الاسم(2)، وتنسبه إلى أسرة كيتا التي حكمت مالي منذ توحيد إمارتي "دو" و"كيري" خلال أوائل القرن الخامس للهجرة/11م، عل يد جدهم الكبر مامادو كاني(3)، بحيث يعد حسب هذه الروايات الملك الثامن لمملكة مالي من نسل كيتا. فهو سوندياتا بن فاراكورو ماغان كينيي(ناري فاماغان) بن لوالي بوراما بن بينتو مافيلي بن لوالي سيمبو بن لافالو سيمبو بن كاني نيوكون سيمبو بن مامادو كاني سيمبو(4). وفي رواية أخرى نجد أنه سوندياتا بن ناري فاماغان بن لاوالي بورا ما بن بينتو مافيلي بن لوالي سيمبو بن كانو سيمبو بن مامادو كانو سيمبو، على اعتبار أن كل من لوالي سيمبو وكانو نيوكون سيمبو وكانو سيمبو، هم أشقاء وأبناء لمامادو كانو(5). بينما ينسب سوندياتا من حيث الأم إلى عائلة كونتي التي تعد أقدم عائلة سكنت إمارة دو وتزعمتها حتى قبل مجيء آل كيتا

---

(3) المصدر السابق، ص 267

(1) الشوكري (أحمد)، الإسلام و المجتمع السوداني، ص 180.

(2) Youssouf tata cissé , Wà kamissoko, La grande geste, t1, p43

(3) Ibid, p386

نلاحظ بأن كل ملك من آل كيتا يتبع بلفظ سيمبو و التي تعني بطل الصيد .

(4) Thomas John William (Johnson) Hale and Stephen Paterson, Oral épics from. Africa. P11

(5) Simone Schwarz-Bart , In praise of black women, ancient African queens. University of Wisconsin press, 2001, vol1, p124

إليها[1]. وتدعى أم سوندياتا بسوغولون كيجوكو (Sogolon kidjoko) أو(سوغولون كوتوم) وهي شخصية أحيطت بشخصيتها أيضا الكثير من الأساطير، ونسبت إليها الكثير من القدرات و المهارات الخارقة، وكانت لديها أخت تسمى دو كاميسا (Do kamissa) تقول عنها الروايات الشفوية الخاصة بالوثنيين بأنها كانت ساحرة خطيرة قبل أن يقضي عليها والد سونديانا ناري فاماغان. كما تحاول هذه الروايات أن تعطي لشخصية سوغولون كيجوكو نوع من القداسة عندما تذكر بأن والد سونديانا ناري فاماغان كان له صنما يتبرك به أهل مندن، قد اخبره ذات يوم بأن هذه المرأة سيخرج منها أقوى ملك لبلاد مني[2]. أما الروايات الخاصة بالرواة المسلمين فنجدها كعادتها تحاول أن تجد لسونديانا نسبا شريفا يصل إلى أحد صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومثلما نسبت آل كيتا إلى دوجون بيلالي أو (بلال بن رباح) الصحابي الجليل و مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم، فإنها تنسب سوغولون كيجوكو والدة سونديانا إلى شخصية ساما لونان(Sama Lonan)، والتي تقول عنه هذه الروايات بأنه صحابي جليل، وكان له من الأبناء والأحفاد ألف رجل، جمعهم ومنحهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليحاربوا إلى جانبه في معركة خيبر[3] ضد اليهود، والتي تذكرهاهذه الرواية باسم كيبيبارا

---

(1) معركة خيبر هي معركة خاضها محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ضد يهود خيبر في السنة السابعة للهجرة حيث تحصن اليهود بحصنهم بقريتهم المعروفة بخيبر المجاورة للمدينة، والواقعة على قمة جبل .وقد قاد هذه المعركة علي بن أبي طالب في ألف وأربعمائة راجل ومائتي فارس، وانتصر عليهم، وكان فتح بعض خيبر عنوة وبعضها صلحا على الجلاء، فقسمها الرسول صلى الله عليه و سلم، وأقرّ اليهود على أن يعملوها بأموالهم وأنفسهم ولهم النصف من كل ما تخرج من زرع أو تمر يقرهم على ذلك ما بدا لهم. (ابن خلدون، العبر ، مج2، ص 453).

(2) لا تذكر الرواية أسماء هذه القرى ال 12 لإمارة دو ويكتفي البمبارا بذكر أنها تقع جميعها غرب منطقة سيغو Ségou ـــ انظر: Youssouf tata cissé , Wà kamissoko, la grande geste du Mali, tome1, p373. في الهامش.

(Kayibara). وكان هؤلاء الأبناء الألف كلهم من صلبه بعدما تزوج من عدة زوجات، وبعدما انتهت المعركة بقي كل أبناءه هناك في خيبر و لم يعودوا (أي استشهدوا كلهم في ميدان المعركة)، ولما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بقصته، وكان ساما لونان عجوزا ، فدعا له الله بأن يرزقه ذرية أخرى تعوضه عن الأبناء الذين فقدهم، وترثه بعد موته. فاستجاب الله لدعاء رسوله، وأعاد لساما لونان ولزوجته شبابهما، فأنجبا اثنا عشرة ولدا، هاجروا فيما بعد إلى أرض مندن، وبالتحديد إلى إمارة دو قرب نهر السنكراني، وبالتالي خرجت منهم القرى الاثنتا عشر التابعة لإمارة دو. وكان الطفل البكر لساما لونان يسمى دو-موكو-نياموكو جاتا (Do-Moko-Niamoko Djata) وإليه ينتسب عائلة آل كوناتي،كما تعد سوغولون كيجوكو إحدى حفيداته(1).

وبالإضافة إلى عدم تمكننا من التعرف على شخصية ساما لونان، التي لم نجد لها أثرا في كتب التاريخ والتراجم، فإننا نلاحظ بأن هذه الروايات على اختلافها تحمل الكثير من الجوانب الأسطورية، وتخالف كثيرا الوقائع التاريخية المعروفة لدينا، لكنها وبعيدا عن كل ذلك تفيدنا بأن والدة سوندياتا سوغولون كيجوكو تنتمي إلى عائلة كوناتي، وهي أقدم عائلة في المندي، وهي أول من تزعم أقدم إمارة في المندي وهي إمارة دو، التي بفضل اتحادها مع إمارة كيري تشكلت مملكة مندي أو ملل أو مالي. وبهذا يكون سوندياتا كيتا قد جمع في نسبه بين أعرق وأشرف عائلتين في بلاد مندن، وهما عائلتي كيتا من جهة الأب، وعائلة كوناتي من جهة الأم.

1 . أســـمــــاؤه:

(1)Youssouf tata cissé , Wà kamissoko, la grande geste du Mali, tome1, p373.

لقد تعددت وتنوعت أسماء سونددياتا كيتا بتنوع وتعدد الروايات التي ترددت بشأنه، وبتنوع اللهجات واللغات التي رويت بها. ويعد أول اسم أطلق على مؤسس إمبراطورية مالي هو سوجاتا (Sodjata)، حيث أطلق عليه يوم ولادته من طرف القابلة التي جاءت لتعلن نبأ ولادته لأبيه ناري فاماغان، فقالت له : ((إن سوغولون كيجوكو (أي والدة سونديياتا) أنجبت طفلا، إنه ولد، ولد سو ــ جاتا)) ومعناها الحصان الأسد. ولما سمعها الأب قال : ((لقد نطقت باسمه، سنسميه ماغان سو ــ جاتا)). ولقد تحول هذا الاسم فيما بعد إلى سونجاتا ثم إلى سونددياتا[1]. وهناك روايات أخرى تذهب إلى أن أصل تسميته يرجع إلى أمه التي لقبت بأم الأسد التي تلفظ بلغتهم (سوغولون - جارا (Sogolon -Jara) ومعناها " أسد سوغولون". بعد ذلك حدث تحريف في كلمة جارا التي تعني الأسد، وتحولت إلى جاتا، وفي أحيان أخرى تحولت إلى جالا، وجادا، وبالتالي أصبح الاسم "سوغولون جاتا". ولما تداول هذا الاسم البمبارا والمالنكي أصبحوا ينطقونه بسرعة فأعطى "سولون جارا" ثم تحول إلى "سون جارا" أو "سون جاتا"، ولما انتقل هذا الاسم إلى اللغة الفرنسية تحول نطقه إلى سونديياتا [2].أما ابن خلدون فرغم أنه أورد اسما يختلف من حيث النطق، لكنه يقترب كثيرا من حيث المعنى الذي ذكرته الروايات الشفوية، فهو يقول: ((اسمه ماري جاطه، ومعنى ماري عندهم الأمير الذي يكون من نسل السلطان، وجاطه الأسد))[3]. ومهما تعدد النطق فإن اسم سونددياتا له علاقة وطيدة بصفات الأسد الذي يرمز إلى القوة والهيبة والسلطان، وهي الصفات التي تجسدت في هذا الملك، فاقترنت باسمه.

---

(1)Youssouf tata cissé et Wà kamissoko, La grande geste du Mali, Tome 2 Soundjata la gloire du Mali). Editions Karthala, Paris, 2009, p77.

(2) David(C.Conrad) and Djanko (Tassey candé) , Soundjata ; West epic of the Mande peoples. Hackett publishing campany, Indiana polis, 2004, p37

(3) العبر ، مج 6 .ص266.

وإلى جانب اسمه هذا فإن سونداياتا حظي بألقاب أخرى عديدة من طرف الرواة الشفويين، حيث كانوا ينادونه مرة ماغان كوناتي، ومرة ماغان ــ ماغان كوناتي وذلك نسبة إلى أبيه ناري فاماغان،كما وجدت تسميات أخرى له مثل "بورومون جان كوناتي"، و"مندن منسا"(أي ملك مندن)، وسيمبو(أي بطل الصيد)، ونجد أيضا اسم"سوكو - سوكو سيمبو" وهو اختصار لاسم أمه سوغولون مضاف إليه لقب بطل الصيد(1). وعموما فإن سونداياتا قد أطلقت عليه عدة ألقاب ، لكن الاسم الأكثر شهرة والأكثر تداولا يبقى سونداياتا أو سونجاتا.

2. مولده و نشأته:

تقول بعض المصادر الشفوية بأن سونداياتا ولد بقرية نياني سنة 1190م(2) بينما يختلف معهم آخرون(3) ويذهبون إلى أنه ولد بداكاجالان(4). لكننا نرجح الرأي الثاني لعدة اعتبارات هي:

أولا: أن داكاجالان هي أقدم قرية اجتمع فيها زعماء مندن، وكانت مقر ملوكها من آل كيتا، كما أن والد سونداياتا ناري فاماغان كان يقيم فيها و بها توفي.

ثانيا: أن اسم هذه القرية مركب من كلمتين مالنكيتين هما: دكا (Daka) التي تعني مقر إقامة، وكلمة: جالا(Jala) التي تعني اسم شجرة كان مؤسسو هذه القرية يجلسون تحتها(5)، وهي بذلك المقر الذي كان يقيم فيه ملوك المندي والذين يعد والد سونداياتا واحد منهم.

---

(1) Youssouf tata cissé et Wà kamissoko , la grande geste du Mali,tome2,p238.

(2) Seydou Camara , La tradition orale en question. Cahier d’études Africaines, Année 1996, volume36, N°144, p770.

(3) Niane temsir djibril , Histoire et tradition historique du Mandingue. In revue Présence Africaine, Année1974, N°83, volume1, p59

(4) Seydou Camara ,Op.Cit, p771

(5) Ibid, p771

ثالثا: أن هناك عدة مواقع في مندن تحمل هذا الاسم، الذي كان يعني مقر إقامة المؤسس، وبالتالي نحن نعتقد بأن سونندياتا قد أقام في عدة قرى ومواقع والتي نسبت فيما بعد إليه فأعطى لها هذا الاسم.

رابعا: أن الروايات الشفوية الممجدة لأخت سونندياتا "نانا ترييان" تقول بأن ناري فاماغان تزوج امرأته الأولى بيريتي ساسوما في قرية نياني، أما زوجته الثانية وهي سوغولون كيجوكو فقد تزوجها بداكاجالان، وهناك أنجبت له سونندياتا[(1)].

ويعد والد سونندياتا زعيما للصيادين(سيمبو)، وملكا للمندي وهو ناري فاماغان[(2)] وأمه هي الزوجة الثانية لناري فاماغان، وهي سوغولون كيجوكو. ذلك أن والد سونندياتا تزوج من امرأة أولى تسمى ساسوما بيريتي والملقبة بالنقية أو الطاهرة، وهي ابنة تال ماغان بيريتي احد امتراء المندي، لكنها لم تتمكن من الحمل والإنجاب[(3)]. وتقول بعض الروايات أنه في إحدى الأمسيات عندما كان والد سونندياتا جالسا تحت شجرة، جاءه أحد المنجمين وأخبره بأنه إذا أراد أن ينجب وليا للعهد فلا بد له أن يتزوج بامرأة أخرى، وهي امرأة قبيحة الوجه وحدباء، والتي سوف تنجب له الفاتح الجديد، والوريث الذي يصنع عظمة مملكة مالي[(4)]. لهذا قام ناري فاماغان وطلب من الصيادين أن يحضروا له

---

(1) Jacqueline Sorel ,Avec la collaboration de Simone Pierron ,Femme de l'ombre ;Nana tribane la main du destin de soundiata. In revue électronique : MFi, hebdo culture, société. In site : www.rfi.fr/fichiers/mfi/culturesociété/594.asp.- consulte le : 30-09-2010_

(2) على خلاف كل الرواة الشفويين فإن راوي كيرينا " وا كاميسوكو " يقول بأن والد سونندياتا لم يكن في يوم من الأيام ملكا و إنما كان رجلا ذا مكانة و جاه فقط.

la grande geste du Mali,tome2,p238. p303

(3) john William(Johnson) , Thomas A.Hale and Stephen Petersen, OP .Cit, p13

(4) Jacline Sorel ,Op.Cit, p13

(5) John William (Johnson) , Thomas A. Hale and fa diji (Sissoko) , The epic of son-Jara.A West African tradition. Indiana university press, 1992, p69

هذه الخادمة القبيحة. فتمكنت أخته ناكان تيليبا (Nakan Tiliba) من إيجاد هذه الفتاة التي كانت مختبئة في بيتها لأنها كانت قبيحة وجسمها مليء بالثآليل، وإحدى عينيها أعلى من الأخرى، وحدباء. وكانت هذه المرأة تسمى "سوغولون كيجوكو" وتدعى أيضا "سوغولون كوندي" أو "سوغولون كوندوما"، فتزوجها ناري فاماغان ودخل بها[1].
لكن زوجته الأولى بيريتي حبلت في نفس الوقت الذي حبلت فيه زوجته الثانية سوغولون، إلا أنها (أي الزوجة الأولى) وضعت مولودها أولا، حيث أنجبت طفلا ذكرا هو دانكران تومان، فطلبت من قابلتها أن تذهب إلى ناري فاماعان وتخبره بأنها أنجبت له أول أولاده، لكن القابلة عندما وصلت إلى بيت ناري فاماغان وجدته يتناول حساءه الصباحي، فقررت أن لا تخبره .بميلاد الطفل حتى يفرغ من فطوره، لكن في صباح ذلك اليوم وضعت سوغولون كيجوكو مولودها هي أيضا، فقامت المرأة التي كانت ترافقها و هي راويتها الشخصية المدعوة جيلي موسوكوروني نتومو مانيان(Djeli Mosso koroni N'tomou manian)[2] مسرعة إلى ناري فاماغان، وعندما اقتربت من مسكنه ودون انتظار صرخت قائلة: ((يا فارا كورو ماكان كينيي[3] انفخ في فمي، فلقد جئتك ببشرى، إن سوغولون كيجوكو قد ولدت لك ولدا ذكرا يشبه سو - جاتا)) أي يشبه الحصان الأسد، فابتهج ناري فاماغا، وقال لها: ((آه، لقد نطقت الآن باسم هذا الولد، سنسميه ماغان سونجاتا))[4] بعد ذلك قامت قابلة ساسوما بيريتي وأخبرته بأن زوجته الأولى أيضا أنجبت ولدا ذكرا، وأنها هي من وضعت طفلها أولا حيث وضعته في منتصف الليل، بينما سوندياتا ولد في الصباح، فأجابها ناري فاماغان بان الطفل الذي اخبر .بمولده أولا هو البكر. فهناك حكمة مشهورة في بلاد مندي تقول بأنه إذا وجد صيادان فريسة، فإنها

---

(1) تنتمي هذه المرأة إلى عائلة الرواة الشفويين المعروفين بآل كوياتي، وتعد الجدة الكبرى لآل كاميسوكو رواة منطقة كيرينا، والمعروفين بلقب الجيلي.

(2) وهو احد أسماء ناري فاماغان والد سوندياتا.

(3) Youssouf tata cissé !Op.Cit, pp238, 303,305 - Johnson Thomas A. Hale and Stephen Petersen , Oral épics from. Africa, pp13 et 14

تصبح ملكا لمن قال وجدها أولا(1). ومن تلك اللحظة اندلعت حربا خفية بين الضرتين، وبدأ الحقد يملأ قلب ساسوما بيريتي على سوغولون كيجوكو وابنها، وبدأت معها معاناة سوندياتا منذ لحظة ولادته.

وهناك روايات أخرى تنفرد بروايتها عائلة دياباتي(2) بقرية كيلا تقول بان والد سوندياتا ناري فاماغان أو (فاراكورو ماكان كينيي) ملك مندي، تزوج من امرأة ثالثة وهي نامنجي كامارا (Namandje Kamara) من أل كامارا، وهي المرأة التي تزوجها قبل والدة سوندياتا، وبالتالي تعد زوجته الثانية، بينما تعد والدة سوندياتا حسب هذه الرواية الزوجة الثالثة وتدعى "كناري فاماغان ". وتقول هذه الرواية بأن نامنجي كامارا هذه قد أنجبت ولدا يعد الأخ غير الشقيق لسوندياتا، يدعى ماندي بوري ومنه تفرع نسل كيتا الموجودين الآن في منطقة حامانا(3) الواقعة في جمهورية غينيا الحالية(4). ومهما يكن فإن حياة سوندياتا بدأت بصراع عائلي يبدو في ظاهره مجرد نزاع أسري بين ضرتين، لكنه في الحقيقة كان أكبر وأعمق من ذلك. فهو صراع سياسي في باطنه، ذلك أن ساسوما بيريتي كانت ترى في سوندياتا وأمه منافسين لابنها "دانكران تومان" على ولاية العهد الخاصة بعرش مالي، والذي كانت تعتقد بان سوندياتا قد اغتصبه من ابنها بغير وجه حق، طالما أن ابنها كان هو من ولد أولا، وبالتالي فهو الحق بولاية العهد، وبعرش مندن بعد أبيه. وقد بدأت المصاعب تلاحق سوندياتا منذ نعومة أظافره، فقد تبين بعد أشهر من ولادته بأنه كان معوقا حركيا ولا يمكنه الوقوف على رجليه. وبقي على ذلك الحال لمدة ثلاث

(4) Youssouf tata cissé ,Op.Cit, p305

(1) يعتبر آل دياباتي المتمركزين في قرية كيلا الواقعة على بعد خمس كيلومترات من مدينة كنغابا، الرواة الرسميون و حاملوا الأناشيد الرسمية الخاصة بحياة سوندياتا، كما تعرف قرية كيلا بقرية الأساتذة الكبار للكلمة.

(2) Jan Jansen , Epopée, histoire, société , Le cas de soundjata , Mali et Guinée, p134

(3) حول منطقة حامانا و دورها انظر: Niane temsir djibril ,Soundjata ou l'épopée Mandingue, Présence Africaine, Paris, année1960,p212 .

أو سبع سنوات[1]. وخلال هذه الفترة كانت سوغولون وابنها سوندياتا عرضة لسخرية نساء وأطفال القرية، وخاصة ضرتها ساسوما بيريتي إلى أن جاء اليوم الذي طلبت فيه والدة سوندياتا أوراق شجرة الباوباو من ضرتها ساسوما بيريتي لتستعمله في إعداد أكلة تقليدية تسمى تو (To)[2] لكن هذه الأخيرة رفضت، وأخذت تسخر منها ومن ابنها العاجز عن تزويدها بورق الباوباو[3]. فكانت تلك الحادثة من أكبر المحن التي جعلت سوندياتا يتحسر و يتألم كثيرا، فقرر أن يتغلب على عجزه، وأن يقف على رجليه. وفي الحقيقة كانت تلك رغبة والديه أيضا الذين لم يتحملا رؤية ابنيهما يتألم، فقام والده ناري فاماغان، وطلب من الحدادين أن يصنعوا له عصا حديدية ليعتمد عليها سوندياتا من أجل الوقوف على رجليه، فجمعوا كمية كبيرة من الحديد و صنعوا منها عصا غليظة. وبعد عدة محاولات ومجهودات كبيرة ومتكررة استطاع سونديانا الوقوف على رجليه[4]. وهناك روايات تذهب إلى أنه لم يستطع الوقوف إلا بعدما استعان بالعصا الملكية لأبيه[5].

وبغض النظر عن الجانب الأسطوري لتلك الملاحم[6]، فإن سونديانا تمكن أخيرا من من الوقوف على رجليه في سن السابعة من عمره[1]، وتحول إلى أمير بعدما قال له الناس

---

(4) Mamby Sidibé , Soundiata Keita, Héro historique et légendaire, empereur du Mandingue. In Notes Africaines, Bulletin d'information et de correspondance. Publié par l'institut Français d'Afrique noire, N°82, Avril 1959, Numéro spécial, L'empire du Mali.

(1) هو طبق تقليدي مشهور في السودان الغربي يصنع من دقيق الذرة، يغلى في الماء و يضاف إليه ورق الباوباو.

(2)Youssouf tata cissé :op.Cit, p77

(3) Les épopées de l'Afrique noire, p107

(4) Mamadi aissa : Op.cit., p21 ـ Lilyan Kesteloot et Bassirou Dieng :op.cit, p107

(5) تروي الملاحم الخاصة بسونديانا أن حدادي المندي جمعوا كميات كبيرة من الحديد لصناعة عصا غليظة ليعتمد عليها سونديانا في الوقوف عليها لكنها لم تستطع حمل ثقله وهو لم يتجاوز سن السابعة، وهو ما يوضح المبالغة الكبيرة لهذه الروايات وطابعها الأسطوري .

Lilyan (Kesteloot) Bassirou (Dieng) ,Op Cit,p107.

(6) وفي روايات أخرى نجد انه وقف على رجليه في سن السابعة عشر.

لما رأوه واقفا على رجليه : ((ستكون ملك المندي مثل أبيك وستفوقه قوة.))، وبدأ يكبر شيئا فشيئا، حيث أصبح يتقد حيوية، واكتسب مهارات قتالية عالية، وهو ما جعل أخاه دنكران تومان وأمه ساسوما بيريتي يتقدان غيرة منه وحسد، ومما زاد في تعقد أوضاع سوندياتا ومحنته هو وفاة أبيه ناري فاماغان عام 1218م، وتولي أخاه دنكران تومان عرش مندن(2). رغم أن أباهما كان قد صرح عند ولادتهما بأن سوندياتا هو البكر الذي سيرث العرش من بعده. لكن دنكران تومان تمكن من اغتصاب الملك متحججا بولادته قبل أخيه سوندياتا. وأمام هذا الجدل حول شرعية الملك بين الإخوة، قرر سوندياتا أن يهاجر إلى خليج مندن، استنادا إلى وصية كان قد أسداها له أبوه الراحل قبل وفاته قائلا له: ((يا ولدي، لا بد عليك من مغادرة مندن لمدة سبعة عشر سنة كاملة، فإذا لم تغادر مندن خلال هذه المدة فإن الناس سيعارضون القدر الذي كتب عليك، فأنا سأغادر هذا العالم))(3). ويبدو من خلال هذه الوصية إن صحت بأن ناري فاماغان كان يتمتع ببعد نظر، وكان يدرك جيدا بأن هناك أزمة وراثة على العرش كامنة بين ولديه، وأنها ستخرج للعلن بمجرد وفاته، لذلك أراد أن يجنب سوندياتا عواقبها، وأن يمنع وقوع حرب الأشقاء.

وعموما فإن سوندياتا اخذ بوصية أبيه، وشق طريقه إلى المنفى، وأخذ معه أمه سوغولون كيجوكو، وأخته الصغرى "سوغولون كولونكان" وأخويه غير الشقيقين "ماندي بوري" أو (ماندن بوكوري) و"سيري بانجوكو". لكنه في طريقه إلى منفاه كان يلاحقه مبعوث أخيه وهو " كانكيرا واداني" من قرية إلى قرية، ومن إمارة إلى أخرى، حاملا معه ثلاث مثاقيل من الذهب كان يعرضها على كل من يساعده على الإمساك

---

(2) Seydou Camara , Op.Cit. ,p171

(3) Youssouf tata cissé :op.Cit. p110

بسوندياتا ومرافقيه، لكن سوندياتا تمكن من الإفلات من تلك المطاردات إلى درجة أن أخاه دانكران تومان قرر الخروج بنفسه لملاحقته[1]. وأخيرا تمكن سوندياتا من الذهاب إلى إمارة ميما في منطقة الساحل، أين طلب من حاكمها فاران تونكار

(Faran tounkara) اللجوء[2]. وقد استقبله هذا الأمير وشعبه بحفاوة كبيرة، واحتضنوه بدون تحفظات، ومنحوه أراض استقر فيها هو وأهله[3]، وقد أعجب ملك ميما كثيرا بشجاعة الشاب سوندياتا، فأوكل إليه مسؤوليات كبرى[4]. ولقد بقي سوندياتا في ميما إلى غاية اعتلاء سومنغورو كانتي عرش الصوصو، حيث أخضع كومبي عاصمة غانة، وبعدها رأى بأن مملكة مالي تشكل خطرا حقيقيا على سلطته، فقرر أن يغزوها [5]. وهنا يبدأ الصراع بين مملكة الصوصو ومملكة مندي(مالي)، وتبدأ معه ملحمة سوندياتا التاريخية من خلال أعماله ومجهوداته الجبارة في سبيل الدفاع عن مملكته من الزوال على أيدي ملك الصوصو أولا، ثم جعل منها إمبراطورية واسعة بلغ صداها كل العالم القديم.

4. اعتناقه للإسلام:

---

(3) Seydou Camara , Op.Cit. ,p171

(1) هذا الحاكم كان تابعا لإمبراطورية غانة ، حيث كانت إمارته ميما في ذلك الوقت تابعة لمملكة واغادو، وكان والد سوندياتا أصله من ميما قبل أن يهاجر منها إلى مندن.

(2) Youssouf tata cissé ,Op.Cit.p129

(3) نيان تمسير جبريل:مالي و التوسع الثاني للماندينغ، ص 143.

(5) Youssouf tata cissé : Op.Cit, p129

نشير هنا إلى أن هناك روايات أخرى تقول بأن ملك الصوصو زحف على بلاد مندي قبل أن يهجرها سوندياتا، و قبل حتى أن يستطيع أن يقوم على رجليه، و تذهب هذه الروايات إلى أن سوندياتا قام بقتل الملك منسا دنكران تومان و إخوته العشرة الذين تعاقبوا على العرش من بعده،و ذلك في ظرف سنة واحدة فقط. وتضيف تلك الروايات بأن سومنغورو لم يقتل سوندياتا نظرا لإعاقته، حيث قلل من شأنه واستصغره.ـــ حول هذه الروايات أنظر أيضا: Mamadi(Aisa),Traditions historique de l'Afrique occidentale,p21 .

لعل من بين أهم المواضيع التي أثارت جدلا بخصوص شخصية سوندياتا هي قضية اعتناقه للإسلام، أو بالأحرى ديانته، فهل كان سوندياتا مسلما أم وثنيا ؟ وهنا أيضا نجد أنفسنا في مأزق حقيقي للإجابة على هذا السؤال المثير للجدل في غياب المصادر المكتوبة. لهذا سنكون مرة أخرى رهينة المصادر الشفوية التي كما رأينا سابقا تنقسم إلى روايات مصدرها الوثنيون الزنوج من طائفة الصيادين، ويحاولون أن ينفوا أية علاقة لسوندياتا بالإسلام، وجعله وثنيا متمسكا بالتقاليد الزنجية المرتبطة بالسحر وعبادة أرواح الأجداد. وروايات أخرى مصدرها الفقهاء وأحفاد سوندياتا المسلمين، والتي تحاول أن تظهر هذا الملك بمظهر المسلم الورع المجاهد، والمتمسك بمبادئ الإسلام، والملتزم بتعاليمه. لكننا إذا تتبعنا مسيرة عائلة كيتا نجد أن سوندياتا يكون من المسلمين على اعتبار أن أسرة كيتا دخلت الإسلام منذ عهد جدهم برمندانه الشهير. ولم يرد في الروايات الشفوية على اختلاف مصادرها بأن أحد أحفاده قد ارتد عن الإسلام. لكننا رغم ذلك نجد بعض الرواة من غير المسلمين، وفي مقدمتهم راوي منطقة كيرينا وهو واكاميسوكو (Wakamissoko) يحاول أن يجتهد ليعطي لنا انطباعا بأن سوندياتا لم يكن مسلما ، فهو يقول في هذا الشأن: ((فيما يخص إسلام ملوك مندن، وهذا قبل وصول سوندياتا إلى الحكم، يقال بأنه وجد ملك واحد كان مسلما، ويتعلق الأمر بنياني منسا مامورو، وهو الشقيق الأصغر لسوندياتا، ولكنه كان يتخفى من خلال الاختباء في عمارته لتطبيق تعاليم دينه الجديد))[(1)].

نلاحظ من خلال هذه الرواية بأن "واكاميسوكو" يحاول أن يفيدنا بكلام غامض وغير دقيق، ويكتنفه الكثير من الأحكام المسبقة من أجل إقناعنا بادعائه. فهو عندما تحدث عن ملوك مالي من المسلمين، قال "قبل وصول سوندياتا إلى الحكم" فهو بذلك يستثني سوندياتا، أو على الأقل فترة حكمه. فكلامه إذن يخص ملوك مالي قبل سوندياتا الذين ذكرهم المصادر الشفوية والمكتوبة على حد سواء، والذين يجمعون على أن أكثرهم كانوا

(1) Youssouf tata cissé ,Wà kamissoko, la grande geste, t1, p279

مسلمين (إن لم يكونوا كلهم)، وهذا منذ أن أسلم برمندانه كما رأينا سالفا. ويواصل واكاميسوكو أحكامه الجزافية وغير المؤسسة عندما يقول في موضع آخر أن الرجل المالنكي لا يعتنق أبدا الإسلام بصفة حقيقية(1). وهو بذلك يطلق حكما مطلقا من خلال استعماله كلمة أبدا ، بدون أن يطلعنا على سبب وصوله إلى هذا الحكم. كما نجد في موضع آخر كلام ليوسف تاتا سيسي (Youssouf tata cissé) ــ وهو شريكه في هذه الدراسة، والمعلق على الكتاب ــ يشير فيه إلى نفس الاتجاه عندما يعلق على كلام الرحالة المغربي ابن بطوطة بخصوص إسلام سونددياتا، فابن بطوطة يذكر بأن جد منسا سليمان وهو سارق جاطه (ماري جاطه) قد أسلم على يدي شخص يسمى مدرك بن فقوص(2). فبينما نقل موريس دولافوس هذا الكلام معتبرا بأن سارق جاطه هذا هو نفسه ماري جاطه أو سونددياتا(3)، نجد أن يوسف تاتا سيسي يقول بأن هذا الكلام لا يخص سونددياتا وإنما يتعلق الأمر ربما بملك آخر يسمى"منسا سيريكي جاتا" المعروف بأبي بكر صديقي، وهو ابن أخت سونددياتا(4). لكننا عندما بحثنا في مصادر أخرى عن الاسم الثاني لأبي بكر هذا لم نجده.

لهذا فإننا نرى بأن سونددياتا كان مسلما كبقية الملوك المنحدرين من عشيرة كيتا، والذين تعاقبوا على عرش مالي بعد برمندانه، لكنه لم يكن من طراز الملوك الذين يحكمون باسم الخلافة الإسلامية، أو ذلك الخليفة الرافع لراية الجهاد في سبيل الله، ولم يعط الانطباع بأنه ذلك الملك الورع التقي(5). أي أن إسلامه لم يتخذ طابعا سياسيا، ذلك أن

---

(2) Ibid,p279

(1) الرحلة، ص 698 .

(2) Delafosse(M) ,Haut Sénégal – Niger, t2, p180
(3) La grande geste, t1, p 238
(4) Cheikh Mouhamadou Diop , Fondements et représentations identitaires chez Ahmadou Kourouma, Tahar ben djelloun et Abderahman Waberi. Editions l'harmattan, Paris, 2008, p 53 .

قضية أسلمة بلاد السودان كما نعلم كانت بطريقة تدريجية وقامت على عاتق التجار بالدرجة الأولى، وخاصة التجار الاباضيين، لذلك مست الطبقة الأرستقراطية من أمراء وملوك وكبار التجار والنبلاء الذين وجدوا في اعتناق الإسلام سبيلا للرفعة والمكانة الاجتماعية، لما كان يمثله المسلمون من مكانة في المجتمع السوداني، أو ما يجلبه من مصلحة مادية على أساس أنهم كانوا يمثلون الشركاء التجاريون لهذه الطبقة الارستقراطية من المجتمع السوداني. كما مس الإسلام أيضا طبقة العبيد الذين كان يمثل اعتناق الإسلام بالنسبة إليهم وسيلة للتخلص من العبودية والاسترقاق[1]. بينما بقيت الطبقات الاجتماعية والحرفية الأخرى وفية لوضعها القديم وديانتها الوثنية، لأنها مبنية على أساس عقد ابتدائي مع الجن أو الطوطم[2] الخاص بالعائلة، كما بقيت طبقة الرواة وطبقة الحدادين على وثنيتهما[3].

وعموما فإن إسلام الملوك الأفارقة بصفة عامة، وملوك مالي بالتحديد، كان في غالبه إسلاما سطحيا و لم يظهروا حماسا مفرطا في حمل الناس على اعتناق هذا الدين الجديد[4] إلا في حالات استثنائية جدا سوف نراها لاحقا مع منسا موسى وهو أحد أحفاد سونديايتا. لهذا يمكن أن نقول بأن نظام الدولة في عهد سونديايتا كان لائكيا، و لم يكن

(1) محمد الفاسي و ايفان هربك، مراحل تطور الإسلام وانتشاره في إفريقيا .ضمن كتاب: تاريخ إفريقيا العام، الصادر عن منظمة اليونسكو ، مطبعة حسيب درغام وأولاده، لبنان، الطبعة الثانية،1997م، ص 126.
(2) الطوطم هو عبارة عن كائن طبيعي كالأشجار أو الحيوانات، يتخذها قوم ما أو قبيلة ككائن مقدس، بحيث يتبركون به، ويعتقدون بأن الروح المقدسة تسكنه، فلقد اتخذ الماليون القدماء(المالنكي) فرس النهر كطوطم لهم.

(3) Cheikh Mouhamadou Diop :Op.Cit. p55

(4) محمد الفاسي وايفان هربك:المرجع السابق،ص163

(5) نفسه، ص 162

الملك يدمج بين وظيفته كحاكم للبلاد وبين ديانته الإسلامية، بل وفي كثير من الأحيان كان يتلقى ضغطا من طرف أتباع الديانات التقليدية الوثنية، خاصة أثناء حربه مع سومنغورو وما كانت تتطلبه تلك المرحلة وتلك الحروب من طقوس بالنسبة للوثنيين(1). ومما يبين وجود صراع خفي بين سوندياتا وأتباعه المقربين من المسلمين، وبين الطوائف الأخرى من الوثنيين هو ما حدث بعد وفاته، وخاصة خلال مراسيم دفنه، حيث قام أحد نبلاء مندن المقربين من سوندياتا وهو "موسى أوموري" المعروف بإسلامه وتدينه، والذي عاش لفترة في مكة المكرمة. ولقد أراد هذا الرجل أن يدفن الملك حسب تعاليم الشريعة الإسلامية، كما حرص على أن لا تتم عملية الدفن إلا بعد إلقائه كلمة تأبينية تخللها مواعظ دينية وصلاة الجنازة، وهو ما جعل بعض رؤساء العشائر المندية الوثنية المنتمية إلى طوائف أخرى إلى معارضة هذه المراسيم، وادّعوا بأنها غريبة عنهم رغم أنه جرت العادة على أن لا يدفن الموتى إلا بالمراسيم الاسمية التي كان يتولاها موسى هذا(2). فلهذه الأسباب لم يكن سوندياتا يظهر حماسه الديني الإسلامي، بل كان يحرص على إظهار تسامح كبير مع الديانات الأخرى، مما فتح في اعتقادنا مجالا واسعا لإثارة الجدل حول حقيقة إسلامه.

ثانيا ـ مجهودات سوندياتا في بناء الإمبراطورية:

لما استقر سوندياتا في ميما أخذ يعيش حياة بسيطة هادئة بعيدة عن أهل مندن، حيث كان يمارس مهنة أجداده وهوايته المفضلة وهي الصيد، ويتمتع بحب أهل ميما وتقدير ملكها(3). وبينما هو كذلك حتى قام سومنغورو كانتي بغزو بلاد مندن للمرة التاسعة في عام 1200م، بعد ثمان غزوات سابقة واجهها الماليون بمقاومة مستميتة، لكن هذه المرة كانت الغزوة كاسحة، وأعد لها ملك الصوصو قوة كبيرة لم يكن بإمكان أهل مندي

(1) Youssouf tata cissé , Wà kamissoko, la grande geste, t1, p 239
(2) Gorden Innes, Bamba Suso, Bana Kanuté, and dembo Kanuté : Soujata : Three Mandinka versions, London, 1974, p36.

الصمود إمامها. وهنا نجد أنفسنا مرة أخرى أمام تضارب الروايات الشفوية المحلية، في غياب المصادر المكتوبة. فبعض هذه الروايات التي تكتسي طابع الملاحم التاريخية تقول بان سومنغورو قام بقتل أخ سوندياتا غير الشقيق (منسا دنكران تومان) وإخوته العشرة الذين تعاقبوا على عرش مندن في ظرف سنة واحدة [(1)]. لكننا نشك في دقة هذه الروايات ومصداقيتها، على اعتبار أن حالة الذعر والفوضى والدمار التي أصابت بلاد مندي عموما ومدينة كنغابا أو(داكجالان) العاصمة خاصة، لم تكن تسمح بإتمام إجراءات نقل السلطة، وتنصيب ملك جديد خلفا لآخر في كنغابا، خصوصا إذا ما صدقنا الروايات الشفوية التي تقول بأن سومنغورو عندما شن هجومه التاسع على العاصمة حدثت هناك حالة خراب وفرار جماعي لكل سكانها[(2)]. كما أن سومنغورو استقر خلال هذه الغزوة في كنغابا لفترة معينة قبل أن يعود إلى مملكته[(3)]. وبالتالي فمن غير الممكن في ظل هذه الظروف أن يكون هناك مجال للتداول على السلطة بين أبناء الملك ناري فاماغان. ومن هنا يمكن أن نقول بان الرواية الأقرب إلى المنطق هي تلك التي تقول بأنه بعد الهجوم الذي شنته قوات سومنغورو على مملكة مندن، واستيلائها على البلاد، فإن كل أمراء المملكة هربوا وتركوا إماراتهم، بدء بشقيق سوندياتا الملك منسا دنكران تومان الذي ترك كنغابا، ولجأ إلى إحدى الغابات، واستقر فيها[(4)]. وهنا لجأ بقايا المقاومين المنديين إلى عملية القرعة وإلى رمي حجرات الحظ التي كان يشتهر بها الصيادون المالنكي، وهي طريقة لاستشراف الغيب، وضرب من ضروب التنجيم، فخلصوا إلى رأي واحد وهو ((أن الرجل الذي غادر مندن منذ مدة طويلة متجها إلى المنفى، هو الذي يمكن أن ينقذ البلاد، وأنه إذا لم يذهب أهل مندي للبحث عنه فإن سومنغورو سيستولي على ما تبقى من أشياء ثمينة في

---

(3) Mamadi (Aissa) ,Op Cit, p20 - Gorden Innes, Bamba Suso, Bana Kanuté, and dembo Kanuté, Soujata, p36. ـــ 165جوان جوزيف، المرجع السابق، ص

(1) Youssouf tata cissé , Op.Cit. p133

(2) Delafosse(Maurice) , Haut S-N, t2, p162

(3) Youssouf tata cissé , Op.Cit. p133

مندن خلال حملته المقبلة.))[1] وهنا قدم احد إخوة سوندياتا، وهو أخوه الصغير المدعو " فوفانا كيتا" إلى ميما وطلب منه الرجوع إلى مندن لإنقاذه من قبضة الصوصو[2] بعدما عينه مجلس قدماء مندن كمتحدث باسمهم[3]. وتقول الروايات الشفوية الخاصة بالمالنكي أنه خلال هذه الفترة وقعت حادثة تزامنت مع غزو الصوصو لبلاد مندي، وهي وفاة والدة سوندياتا وذلك عام 1222م، فطلب منه ملك ميما "فاران بوريما تانكران" أن يدفع ثمن التراب الذي ستدفن فيه أمه بميما[4]. وهنا أدرك سوندياتا فظاعة العيش المرء في المنفى بعيدا عن وطنه، فازداد إصراره على استرجاع وطنه المغتصب مهما كلفه ذلك من ثمن، وقرر العودة إلى بلاد مندن[5].

1. مجهودات سوندياتا العسكرية:

أ. استعداداته لمحاربة ملك الصوصو:

عندما كان سوندياتا لاجئا في ميما كانت قوات سومنغورو تعيث في بلاد مندية قتلا ونهبا، بينما خيب الملك منسا دنكران تومان شقيق سوندياتا أمل المنديين الذين ولوه أمر قيادة جيشهم لمواجهة قوات الصوصو، وذلك بهروبه أمام المسؤولية التاريخية الملقاة على عاتقه، ولجأ إلى الغابات الجنوبية تاركا المكان شاغرا [6]. لذلك لم يكن أمام شعب الماندينغ من حل سوى الاستنجاد بسوندياتا كيتا الذي لبى دعوة الوطن، وبدأ يعد العدة للحرب التي أصبحت حتمية ضد المحتلين الصوصو. فأخذ يتشكل جيش من مختلف الإثنيات التي يتكون منها شعب الماندينغ، والناقمين هم أيضا على ملك الصوصو[7].

---

(4) Ibid,p 211.

(5) Gorden Innes, Bamba Suso, Bana Kanuté, and dembo Kanuté, Op.Cit, p36

(6) Tidiane N'diaye ,La longue marche des peuples noirs. P31

(7) Gorden Innes, Bamba Suso, Bana Kanuté, and dembo Kanuté ,Op.Cit, p36

(1) Lilyan Kesteloot et Bassirou Dieng : Op.Cit, p110

(2) نيان تمسير جبريل: المرجع السابق، ص 137

(3) Tidiane N'diaye : Op ;Cit,p31

وتقول الروايات الشفوية بأن سوندياتا قصد من أجل ذلك عدة إمارات ومقاطعات مندية للحصول على المدد والرجال بعدما عبأ أصحابه في المهنة من الصيادين ورفقاء الطفولة وشحذ هممهم[1]. وكانت أول مقاطعة زارها هي سنكران[2]، وهي بلاد أخواله، فنزل عند ملكها الذي يدعى سنكران دانكينيا كونتي (Sankaran Dankinya Konté). وبعد إقامته مدة من الزمن سأله هذا الملك عن سر مجيئه إلى سنكران، فأخبره سوندياتا بنيته في الحصول على جيش لمحاربة سومنغورو، فمنحه ملك سنكران جيشا وبعدها توجه إلى كيرينا ونزل ضيفا على زعيم البلاد الذي يدعى طارا مغان تراوري (Tara maghan Traoré) أو دامبيلي (Dembélé) وهو جد البمبارا الذي أجابه إلى طلبه، وزوده بجيش من أهل كيرينا. ثم مر بإمارة كينتو الواقعة على الضفة اليمنى للنيجر، وزوده ملكها سورا موسى (Soura moussa) والملقب بسيسوكو(Sissoko) بعدد من الرجال، ثم عرّج على قرية لابي في منطقة فوتا جالون التي دعا زعيمها تابو (Tabou) سكان القرية للتطوع في جيش سوندياتا فأجابوه[3]. ويبدو أن انضمام سكان تلك الإمارات إلى جيش سوندياتا، وتحمسهم إلى الحرب تحت قيادته، تعود إلى تلك الشهرة وذلك الصيت الذي أذيع عن شجاعة سوندياتا وتحمسه للتخلص من ملك الصوصو[4]. وتأكيدا لشجاعة سوندياتا، وتبريرا لأحقيته بتزعم هذا الجيش، فإن الروايات الشفوية بينت لنا الكيفية التي عن طريقها عين سوندياتا قائدا على جيش المندي، حيث لما اختلف الجنود حول هوية من يقودهم في تلك الحرب، تقدم شيخ مسن وحكيم واقترح عليهم إذابة الرصاص داخل إناء، ومن يتمكن من إدخال يديه داخل هذا السائل يكون قائدا. فلم يستطع أحد باستثناء سوندياتا القيام بذلك، وبالتالي أصبح قائدا للحملة[5]. لكننا نعتقد

---

(4) Youssouf tata cissé : Op.Cit. p 11

(5) هي مقاطعة واسعة يسكنها المالنكي، و تضم كل المنطقة الواقعة بين سيغيري، كوروسا و ديتغيراني المنطقة الواقعة بين نهري النيجر و تنكيسو. أي في المنطقة الواقعة بين نهري النيجر و تنكيسو.

(1) Mamadi (Aissa) ,Op ;Cit,p22:

(2) أحمد الشكري، الإسلام و المجتمع السوداني ، إمبراطورية مالي ، ص 181

(3) Mamadi (Aissa),Op ;Cit,p23 – Delafosse(Maurice):H S-N,t2,p179

بأن الجنود الذين هبّوا لنصرة سوندياتا وتطوعوا في جيشه، لم يكونوا بحاجة إلى هذا الامتحان لتوليته قائدا عليهم، وأن شخصية سوندياتا كانت تحظى بإجماع كل شعوب المندي كقائد وزعيم لهم. لهذا فإننا لا نرى بأنه كان يشكل موضع خلاف بين الجند حول القيادة، وبذلك يمكن أن نقول بأن هذه الرواية لا تعدو إلا أن تكون من الأشياء التي أضيفت لملحمة سوندياتا لتضفي عليه صبغة البطل الخارق، والشخص المتفوق على بقية البشر.

ومهما يكن فإن الجيش الذي جمعه سوندياتا كان يضم بالإضافة إلى الصيادين المالنكي محاربي السوننكي والكاكولاس والهوسا والفلاته والمور وغيرهم. كما انظم إليه النبلاء والأغنياء والتجار من كل المدن الكبرى في غانة، والذين زودوه بالخيول والأسلحة و المؤونة(1). فلقد كانت تعبئة لم يسبق لها مثيل في تاريخ البلاد، وذلك نظرا لفداحة الظلم الذي ارتكبه سومنغورو في حق سكان مندن، إلى درجة لم يسلم أي أحد من بلاد مندن من بطشه ودماره. وبذلك تشكل جيش تحرير مالي، الذي حمسه ودربه سوندياتا لعدة أيام قبل أن يقوده باتجاه مندن(2). وقبل أن يتوجه به إلى مندن قام سوندياتا بتقسيم الجيش حسب انتمائهم الطائفي، العشائري والجهوي، ما عدا الصيادين الذين شكلوا كتلة واحدة(3). بعدها شق سوندياتا وجيشه طريقهم إلى مندن. وقد حظيت مسيرة سوندياتا وجيشه من ميما إلى موطنه الأصلي بمندن باهتمام كبير من طرف الرواة ومنشدي الملاحم الأفارقة، ونجد هناك روايات مختلفة حول هذه الرحلة وما حدث الطريق. لذلك حولنا أن ننقل الروايات الأقرب إلى المنطق، ما دام أن المصادر المكتوبة بخصوصه تعوزنا.

---

(1) Youssouf tata cissé et Wa kamissoko ,La grande geste du Mali .tome2 : Soundjata la gloire du Mali, éditions Karthala et Arson, Paris, 2009, p11
(2) Ibid , p12
(3) Loc.cit

تقول بعض هذه الروايات أن سوندياتا قد مرّ في طريقه إلى مندن بقرية كوليكورو (Koulikoro)[1]، حيث ضحى فيها بقرابين في جبال نياني -كولو (Niani-Koulou)، بعدها توجه إلى هضبة باكوني والتي تمثل المدخل الرئيسي لمندن من جهتها الشمالية أين توقف الجيش لمدة أسبوع من أجل تقديم الذبائح والقرابين للجن والآلهة التي تزخر بها المنطقة، بالإضافة إلى استغلال الفرصة لإحياء بعض المراسيم والطقوس الخاصة بالحرب[2]. وخلال الليالي الأخيرة التي أقام فيها الجيش في هضبة باكوني، نظمت على شرف سوندياتا سهرات كبيرة قام خلالها الرواة والمنشدين المرافقين للزعماء الصيادين بترتيل الأناشيد الحماسية، وألقى فيها قادة الجيش خطابات حماسية لشحذ همم الجند قبل أن يصل السيمبو إلى مندن[3]. بعدها توجه سوندياتا وجيشه إلى مندن، ولما رآه أهل مندن هبوا لاستقباله، واحتفلوا بعودته إلى كنغابا[4]. وبعد الانتهاء من مراسيم الاحتفال والاستقبال، سأل سوندياتا عن الراوي الخاص بعائلة كيتا وهو بالا فاسيكي (Bala fasséké)، فأخبروه بأنه ذهب إلى قصر سومنغورو كانتي ليتوسل إليه في طلب الهدنة معه. لكن سومنغورو عندما التقاه غدر به، وقطع وتر رجليه وأذله[5]. ولما سمع سوندياتا بهذه الحادثة، وما جرى لبالا فاسيكي على يد سومنغورو، أرسل إليه مبعوثه الخاص وهو"ووري ووري سولوماني"

---

(4) تقع قرية كوليكورو على الضفة اليمنى لنهر النيجر، أي جنوب جمهورية مالي الحالية ، و شمال مدينة بماكو العاصمة.

(5) رغم أن سوندياتا كان مسلما و كذا الشأن بالنسبة لأصحابه المقربين، وزعماء بعض الإمارات من آل تراوري وآل كونتي. لكن أغلبية الجيش المكون من الطوائف والاثنيات المختلفة التي لم تكن مسلمة. لذلك نرى انه كان مضطرا لمسايرة زعماء الطوائف في تقاليدهم الوثنية حرصا منه على الحفاظ على تماسك الجيش، وحاجته إليهم في حربه ضد الصوصو.

(1) Youssouf tata cissé et Wa kamissoko :La grande geste, tome2, p12
(2)Youssouf tata cissé : Wa kamissoko. La grande geste, tome1, p161
(3) Ibid, p164
(4)Ibid, p52.
(5) La grande geste du mali, tome 2,p52

ليخبره بأن سوندياتا قد عاد إلى وطنه، وأنه قادم لإعلان الحرب عليه، ويطلب منه أن يخلي سبيل الراوي الخاص بالعائلة. وبذلك أعلنت الحرب بين الرجلين وبين مملكتين مالي والصوصو [1].

ب. معركة كيرينا:

لما علم ملك الصوصو سومنغورو باستعدادات سوندياتا والمالنكي لمحاربته، انتقل من مقر إقامته في نياني قرب نيامينا، وتوجه إلى منطقة تونينا التي كان يعتقد بشأنها السوننكي بأنها مقر تواجد حراس الملك من الجن. بعدها توجه إلى نيامانكو Niamanko ، وهو معسكر كبير خاص بتدريب الحدادين الشباب فنون الحدادة والتعدين، وهناك قام بتشكيل جيش احتياطي يتكون من أربعين ألف جندي من الشباب[2]. أما سوندياتا فقد اعتمد على جيش مكون من مختلف العشائر والإثنيات، وأوكل مهمة قيادة تلك الجيوش إلى قادة يثق فيهم كثيرا، وهم أترابه ورفقاء الطفولة أمثال " تابون وانا " الذي كان رئيسا لفرع الكامارا، وابن عمه " كامادیان" من آل كامارا الذين يقطنون سيبي[3]. كما اعتمد على قادة أقوياء أمثال فاوني كونديه، سياراركومان كوناته وتيراماكان تراوري. والتقى الجميع بسوندياتا في سهل سيبي حيث تولى بنفسه إدارة العمليات[4]. وكان أول هجوم على جيش الصوصو قامت به قبائل الكامارا المتواجدة على الضفة اليمنى لنهر النيجر، والتي يقودها الملك "كارا نورو" وكان ذلك في عام 1234م، حيث هجمت على المراكز الأمامية لجيش الصوصو[5] لكنه مني بهزيمة نكراء، وانتصر بذلك سومنغورو في أول اشتباك مع جيش سوندياتا[6]. ورغم أن الروايات الشفوية تذهب إلى تفسير هذه الهزيمة

---

(3) وهي منطقة موجودة بين سيغيري وكنغابا.

(2) نيان تمسير جبريل: المرجع السابق، ص 143.

(3) Tidiane N'diaye ,Op.Cit, p31

(4) John william Johnson, Oral epics from Africa, p20

بعوامل سحرية تتعلق بتمتع سونديايتا بقوى سحرية تحول دون إصابة جسمه بالأسهم أو الحديد(1)، إلا أننا نعتقد بأن أسباب هذه الهزيمة تعود إلى عوامل موضوعية تتعلق بمعطيات هذه الحرب وظروفها ومستجداتها، والتي يمكن أن نلخصها في ما يلي:

أولا: خبرة جيش الصوصو وحنكته الحربية، وكذا انسجام جيشه وقوته إذ تفوق على حداثة جيش سوندياتا الذي كانت تعوزه الخبرة. فهو جيش فتيّ مكون من عدة عشائر وإثنيات غير منسجمة، ولم يسبق لها خاضت حربا مع بعضها من قبل، ويقودها شاب يتقد طموحا وتحذوه إرادة وحماس كبيرين، لكن تعوزه الخبرة.

ثانيا: اعتماد جيش الصوصو على قائد محنك وقوي، وهو"فاكولي دومبيا" أو(فاكولي كانكوبا كاسيا كانتي)، وهو ابن أخت سومنغورو ويعد من أفضل قادته، ومن أقرب المقربين إليه(2) والذي اعتمد في هذه الحرب على خيانة زوجة قائد جيش الكامارا منسا كارانورو، التي استطاع فاكولي استدراجها فسلمت له زوجها بعدما شعر فاكولي بأنه من الصعب التغلب على جيش الكامارا المدرع بالحديد والمستميت في القتال(3).

ولقد أقام سومنغورو بعد ذلك الأفراح والاحتفالات بمناسبة هذا النصر الذي لم يكن في الحقيقة نصرا نهائيا، ذلك أن سوندياتا بدأ فعلا بالتحضير للمعارك الحاسمة ضد

---

(5)Tidiane N'diaye ,Op.Cit, p31

(1) Doumbia Fakoly,Fakoli : prince du Mande. Récit historique. Editions l'harmattan, Paris, 2003, pp49, 50 et 51.

(2) نيان تمسير جبريل، المرجع السابق، ص 143.

الصوصو، فكانت البداية بمعركة كيرينا التي استفاد فيها من أخطائه السابقة. وكان أول عمل مهد الطريق للنصر في معركة كيرينا لصالح جيش المالنكي هو انضمام قائد جيش الصوصو فاكولي[1] إلى صف جيش سوندياتا مباشرة بعد انتصاره على جيش منسا كارا نورو. وسبب ذلك يعود إلى الاحتفال الذي أقامه خاله سومنغورو بمناسبة ذلك الانتصار، حيث تذكر الروايات الشفوية بأنه خلال هذا الاحتفال تمكنت زوجة فاكولي من إعداد مائة طبق من الكل لوحدها، بينما عجزت زوجات سومنغورو وعددهن مائة امرأة من فعل ذلك، فأعجب ملك الصوصو بمهارة زوجة فاكولي الوحيدة، وطلب من ابن أخته أن يتنازل له عنها مقابل أن يختار واحدة من زوجاته المائة[2]. فرفض فاكولي عرض خاله الغريب، وتمسك بزوجته. لكن سومنغورو الطاغية الذي لم يتعود على أن ترفض طلباته، أصر على طلبه، فخشي فاكولي من بطش خاله وغدره فقرر ترك معسكر الصوصو والهروب منه. فلجأ هو وجيشه إلى معسكر جيش سوندياتا، وعرض خدماته على هذا الأخير لكي يحارب إلى جانبه ضد الصوصو وملكهم[3]. كما حاول أن يأخذ معه أبناءه الخمسة إلى بلاد مندي وهم، كاماجان كامارا وهو البكر، كاميسوكو، باكايوكو، سينايوكو أو (سيناكا) وكوروما أو (دومبيا) وهو أصغرهم. لكن سومنغورو لم يسمح لهم بالرحيل والالتحاق بأبيهم، فبقوا إلى جانب أمهم[4]. وبذلك تدعم الحلف الذي شكل جيش مندن المتمركز في سيبي بجيش وقائد من طراز رفيع، وأضافا لهم نقاط قوة جوهرية في معركتهم القادمة والحاسمة في كيرينا. بينما فقد سومنغورو جزء مهم من جيشه وأفضل قادته، وبذلك فقد عنصر مهم من قوته.

---

(3) و يدعى "وانا " أو "غانا فاكولي" و يدعى أيضا " فاكولي دومبيا". و اسمه مركب من كلمتين، فكلمة "كولي" تعني: طائر جارح، بينما كلمة " فا " فتعني: أب. و بذلك فكلمة فاكولي تعني "أب الطير الجارح". Doumbia Fakoly :Op.Cit, p8 .

(4) في روايات أخرى نجد انه كان لديه ثلاثمائة زوجة.

(1) Nambala Kanté et Pierre Erny , Forgerons d'Afrique, p50. ــ Youssouf tata cissé , Wa kamissoko. La grande geste, tome1, p173 ــ 143 ــ نيان تمسير جبريل: المرجع السابق، ص 143

(4) Nambala Kanté et Pierre Erny ,OP.Cit, p50

وبالإضافة إلى هذا فإن قوات سونددياتا قد تدعمت بعامل مخابراتي مهم جدا هي أخته "نانا بيريتي" (1) التي بعد الهزيمة الأولى لأخيها أمام سومنغورو، وما أشيع عن هذا الأخير من تمتعه بقوى سحرية تحميه من فقام سومنغورو بالزواج منها، فبقيت إلى جانبه تستميله للبوح بسر قوته وقوة جيشه (2). فتحولت بذلك إلى مخبر لجيش سونددياتا داخل قصر ملك الصوصو. و بالتالي تمكنت من معرفة سر القوة السحرية التي يتمتع بها سومنغورو، حيث تقول الروايات الشفوية بأن أخت سونددياتا لما تزوجت سومنغورو منعته من ممارسة حقه الزوجي لمدة أسبوع كامل من زواجه منها، ولما ألـــحّ في طلبه اشترطت أن يخبرها أولا بسر قوّته السحرية حتى تمكنه من نفسها، مدعية بأن ذلك يثبت لها مدى ثقته بها، كما سيمكنها من الحرص على تجنب الأمور التي تضر به(3). عندئذ أخبرها سومنغورو بأن آل كوناتي الذي ينتمي إليهم، لا يمكن أن يُقْتَلُوا إلاّ عن طريق خلط ريش ودم ديك أبيض، ثم غطس سهم بداخل هذا الخليط، ثم يرمي به نحوهم. فبهذه الطريقة وحدها يمكن قتلهم، حتى وإن لم يخرج منهم دم إلا بمقدار ما تشربه بعوضة(4). كما أخبرها بأن هذا السهم الذي يقتلون به يجب أن يكون مصنوعا من ظفر ديك أبيض(5)، بالإضافة إلى ذلك هناك تعاويذ وطقوس لابد أن تقام لكي يهزم سومنغورو، وتتمثل في أخذ خمسة قضبان لنبات الدخن ثم دفنها في الأرض، بعد أن يذبح ثور أحمر كقربان وتُصْنَعَ من دمه فطيرة يتم دفنها أيضا في الأرض،ثم تقلع جذور الفول اليابسة وتلقى داخل حصن سومنغورو(6). وبعدما علمت شقيقة سونددياتا بكل هذه الأسرار سمحت لزوجها بان يقترب منها، وبقيت معه لمدة ثلاثة أيام بلياليها إلى أن غلبه النعاس

---

(1) تذكرها الروايات الشفوية بعدة أسماء. فنجدها تارة باسم "ديكي مانيبا سوكو" Diégué maniba soukou" و نجدها أيضا باسم "سوكولون كولوكان Sugulan kulukan "

(2) John william(Johnson) :Op.cit., p20

(5) Delafosse(Maurice) , H S-N , tome 2, p167

(1)Meyer(Gérard) , Récits épiques Toucouleurs, La vache, Le livre, La lance. Editions Karthala, Paris, 1991, pp144, 145

(2)Delafosse(Maurice) , Op.Cit, p167

(3)John william(Johnson) :Op.Cit, p20

فنام نوما عميقا، فهربت من قصره واتجهت إلى معسكر سوندياتا فأخبرته بالسر الذي عرفته(1).

وتقول الروايات المخلدة لهذه الملحمة بأن سوندياتا أرسل من يأتيه بظفر ديك أبيض، وقام بإعداد الخلطة اللازمة، ثم صنع السهم المطلوب لقتل سومنغورو(2). في حين أخبر سومنغورو من طرف منجميه بأنه سيقتل لا محال، وبأنه إذا أراد أن لا يقتله سوندياتا فعليه أن يقتل ابنة أخته.لهذا غضبت أخته وهربت هي الأخرى إلى معسكر سوندياتا، وأخبرته بدورها أيضا بالسر الذي يبطل سحر أخيها، وهو السهم المصنوع من ظفر الديك الأبيض، وبذلك تأكد سوندياتا من صحة المعلومة التي أخبرته بها أخته (3). وهكذا لم يبق أمام سوندياتا وجيشه إلا التهيؤ للحرب وإعداد الخطة اللازمة لمعركة كيرينا التي ستكون حاسمة.

إن موقع منطقة كيرينا التي احتضنت المعركة غير معروف بدقة، لأن مدينة كيرينا الحالية(4) حسب الرواة الشفويين حديثة التأسيس(5). لكنها على ما يبدو لم تكن بعيدة عن بماكو الحالية، ومنطقة سيبي التي احتشدت فيها قوات سوندياتا وعسكرت فيه. ولقد أعد سوندياتا خطته الحربية بناء على الأخبار التي جاءه بها جواسيسه من معسكر الصوصو، و مفادها أن قواتهم سلكت الطريق المحاذي للضفة اليسرى لنهر النيجر(6). وكان سوندياتا قد قسم جيشه إلى مجموعات حسب انتمائهم العشائري والطائفي، لذلك

---

(1) وفي روايات أخرى نجد بأن سومنغورو هو الذي سمح لها بالذهاب إلى مندن بعدما أخبرته بأنها تريد أن تحضر ملعقتها وابناءها الذهبيين الذين لا تستطيع الاستغناء عنهما. (Meyer(Gérard) :Op.Cit, p145)

(5)Delafosse(Maurice) : H S-N,t2,p168

(6)Ibid,p168

(1) تقع هذه المدينة حاليا في منطقة سيغو بجمهورية مالي، بين خطي عرض 13°و 28° شمالا، و خطي طول 4°و 40° غربا. و تبعد عن مدينة داكاجالان بخمسة كيلومترات.

(5)نيان تمسير جبريل: المرجع السابق، ص 143.

(3) Youssouf tata cissé et Wa kamissoko ,La grande geste, tome2, p15

فقد أوكل لكل مجموعة مهمة خاصة في هذه المعركة على الشكل التالي: بالنسبة لجيش الصيادين المكون من عشيرة سونداياتا وأصدقاءه وأهل مندي، والذي يقوده تيراماكان الذي يعد من أفضل قادة جيش سونداياتا، فقد تمركز بين أشجار غابة "كوتو"[1] على طول نهر النيجر برفقة كلابهم المكممة، وكانت مهمتهم أن يطلقوا كلابهم على فرسان الصوصو عند بداية المعركة من أجل إسقاطهم عن صهوة جيادهم، وكذا قطع خط العودة عن مؤخرة جيش الصوصو،ومنعه من التوجه شمالا عن طريق إغراقه بالسهام المسمومة[2]. أما الجيش المكون من آل كامارا فقد كان متمركزا في منطقة سندوكو (Sendougou)في اتجاه جبال ماندينغ. وكانت مهمتهم تتمثل في الهجوم على العدو مع القيام بحركة طفيفة نحو الشمال من اجل الالتقاء مع جيش تيراماكان، حيث يشكل هذان الجيشان ما يعرف بالميمنة والميسرة، وكانوا مسلحين بالسهام والرماح والفؤوس والخناجر.

وبالنسبة للجيش المكون من فرسان واغادو أو(غانة) أي من عناصر سوننكية، والذي كان يقوده سونداياتا بنفسه، فلم يكن عليه إلا الهجوم على جيش الصوصو ومحاولة إنقاص عدده، وهو ما يعرف بصدر المعركة. وهناك جيشان آخران يعرفان بـــ "تون - كورو - بيلاما" وتعني مؤخرة الرقبة، ويقودهما كل من نان كومان جان وفاكولي ــ واللذان يتشكلان من كبار الرماة والمشاة ــ فإنهم لا يفعلون أي شيء وإنما عليهم البقاء مختبئين في مخابئ تحت الأرض، والمعروفة عندهم بـــ" تارابـــا"، داخل تجويفات الأشجار الضخمة، وداخل البساتين الكبيرة، وينتقلون بطريقة الصيادين. وقد طلب من قناصيهم أن يقتلوا أكبر عدد من قادة حرب جيش الصوصو، الذين كانوا يتميزون عن غيرهم بشعرهم الطويل[3]. أما جيش سومنغورو فقد كان جرارا حسب وصف الرواة الشفويون، بحيث

---

(4) هي غابة افريقية خاصة بالمنطقة الاستوائية .تنتشر حول خليج غينيا و كوت ديفوار والغابون وجمهورية إفريقيا الوسطى. تكسوها أشجار كثيفة جدا.

(5) Youssouf tata cissé et Wa kamissoko ,La grande geste, tome2,p16 - Tidiane N'diaye , Op ;Cit,p31

(1) Youssouf tata cissé et Wa kamissoko ,La grande geste, tome2,p16

كان يصعب تحديد عدده[1]، إلى درجة أنه لما رآه سونردياتا ضنه سحاب قادم من الشرق[2].

وقد اختار سونردياتا هضبة "ساما لن" ذات السطح المستوي كمكان لالتقاء وتجمع جيشه، وكان هاجسه الأول هو قطع الطريق أمام جيش الصوصو لمنعه من العودة إلى الشمال[3]، وزحف الجيشان إلى أن التقيا في كيرينا حيث بدأت المعركة منذ الصباح[4] وكانت دموية حيث دامت يوما كاملا، وتقول الروايات بأنه أثناء المعركة ألقى سونردياتا صرخة مدوية في جيش سومنغورو دفعت جنوده إلى الاختفاء وراء قائدهم، فرد عليه سومنغورو بصرخة مماثلة[5]. وفي خضم هذه المعركة، ولما أصبح الوقت عصرا دون أن يتحدد المنتصر، وكانت المعركة متكافئة، حاول الرماة الفلاته التابعين لجيش سونردياتا إنهاء المعركة لصالحهم قبل أن تغرب الشمس، فعمدوا إلى القيام بعملية اقل ما يقال عنها أنها ارتجالية وانتحارية وغير محسوبة العواقب.حيث قاموا بالإلقاء بأنفسهم على جيش الصوصو دفعة واحدة لكنهم وقعوا في أسرهم، فوضعوا سونردياتا أمام موقف حرج حيث اضطر لدفع ضرائب باهظة من اجل تحريرهم. وهنا دقت الطبول من الجانبين معلنة عن بداية هدنة تسمح لكلا الطرفين بمعالجة جرحاهم، و دفن موتاهم[6]. وفي المساء اجتمع سونردياتا بأصحابه وأخبرهم بأن الأمور الجدية سوف تبدأ مع غروب الشمس.

---

(2) نيان تمسير جبريل:المرجع السابق، ص 143

(3)Mamadi (Aissa) ,Op ;Cit,p28

(4) Youssouf tata cissé et Wa kamissoko ,Op.Cit, p28

(5) تشير الروايات الشفوية إلى أن المعركة بدأت حوالي الساعة التاسعة صباحا ، لكنها لم تتطرق إلى اليوم الذي وقعت فيه، بينما هناك اختلاف حول السنة التي وقعت فيها بين من يقول وقوعها سنة 1230م و من يقول وقوعها سنة1234 . Doumbia Fakoly : Fakoli : prince du Mande. Récit historique (Delafosse (Maurice) , H S-N, t2, p168) (p104)

(6) Mamadi (Aissa) ,Op ;Cit,p28

(1) Youssouf tata cissé et Wa kamissoko,La grande geste, t2,,p16

وبالفعل فمع غروب الشمس بدأ جنود الصوصو يتوجهون من خلال فرق صغيرة نحو جبال ماندينغ سالكين ممرات ضيقة ووعرة، مدفوعين في ذلك بضغط المعركة. ولما اشتدّ وطيس المعركة، وتأكد سومنغورو باستحالة تراجعه نحو الشمال قرر التوجه إلى نارينا[1] أين كان من المنتظر أن يلتحق به جيش من المتطوعين المكون من حدادي منطقة بامبوك، ومن فلاته منطقة فيلادوغو (فولادوغو)[2]. وهنا صرخ سونديايتا قائلا: ((لقد أنقذنا مندن)) وتيقن بأن رياح المعركة بدأت تهب في صالحه، لذا أمر بمطاردة العدو. وكان جيشه خلال تلك المطاردة يردد كلمة النظام ويتداولها وهي:((كل واحد يبقى وراء قائده، ولا يجب القيام بأي عمل ارتجالي أو انتحاري.)). فلقد كانت تجري تلك المعركة في الظلام، فهي حرب الليل التي تجري لأول مرة في تاريخ مندن، كما أنها كانت حربا دموية أمعن فيها صيادو تيراماكان في التقتيل في صفوف جيش الصوصو، حيث حاصروهم وباغتوهم وأبادوهم عن بكرة أبيهم. خاصة بعدما قال لهم سونديايتا:((لا شفقة ولا رحمة بمن أذلوا وأحزنوا المندن أكثر من مرة.)) وفي ساعة متأخرة من الليل توقفت جيوش مندن عن ملاحقة جيوش الصوصو الفارين إلى نارينا، وتمركزوا في منطقة كري (Kri)، وهي قرية قديمة تقع في مرتفع، وذلك لمراقبة أي هجوم مفاجئ من طرف الصوصو[3]. وفي نفس الوقت، وذلك من اجل الاستعداد الجيد لملاحقة جيش الصوصو

---

(2) هي قرية صغيرة تقع في منطقة كوليكورو بجمهورية مالي الحالية، وتبعد بحوالي80كم جنوب العاصمة بماكو.وتعد في الوقت الحالي قرية مهملة تضم مخازن مناجم الذهب الواقعة في نهر فاليمي (حول هذا الموقع انظر أيضا: Ministère de la marine et des colonies Françaises : Annales maritimes et coloniales. Imprimerie royale, Paris, 1925, tome 04, p234.)

(3) وتعرف أيضا بفولادو، وهي منطقة تاريخية متواجدة بكازامانس العليا في جنوب السنغال بالقرب من الحدود مع جمهورية غينيا الحالية. ويمكن تحديد موقعها في الوقت الحالي بمقاطعة كولدا(Kolda) ونواحيها .

(3) Youssouf tata cissé et Wa kamissoko ,La grande geste, tome2 p17

في نارينا. وفي صبيحة اليوم الموالي عندما دخلت قوات الصوصو إلى قرية نارينا، علم سومنغورو بان المعركة ستقوم على أرضها، وأنها ستكون المعركة النهائية و الفاصلة [1].

ج. معركة نارينا:

بعد فرار سومنغورو وجيشه من كيرينا، أصبحت قرية نارينا وجهتهم الجديدة، و ميدان المعركة المقبل. لذلك قام قادة الحرب المالنكي بالإسراع في توجيه فرقة عسكرية مكونة من 400 جندي إلى نارينا من اجل منع الجنود الصوصو من الخروج منها إلى غاية وصول بقية الجيش[2]. وفي صباح اليوم الموالي قام سونདياتا بتوزيع قواته العسكرية بالطريقة التالية:

أرسل فرقة بقيادة تيراماكان باتجاه الشرق أين يوجد نهر السنكراني، بينما تشكلت الصفوف الأولى للجيش من فرق الهجوم الكاسح أو ما يعرف اليوم بمصطلح الكومندوس أو فرق التدخل، والتي قام بقيادتها هو بنفسه، وتدعمها الأذرع الثلاثة المتمركزة في نارينا ويقودها نان كومان جان. أما في الوراء فقد تمركزت القوات التي كان يقودها فاكولي، وكانت مهمتها تتمثل في منع قوات سومنغورو من التوجه نحو كيلوكورو بأي ثمن[3]. وعندما بدأت المعركة راح قادة جيش مالي يبحثون عن سومنغورو لقتله، لأنه كان بالنسبة إليهم الهدف الأسمى من هذه الحرب. لكن الأمر لم يكن بالسهولة التي تصورها المنديون، لأن سومنغورو حرص على ارتداء لباسا مشابها للباس قادته، كما تشبه بهم من خلال إطلاق شعره، وهو ما صعّب عملية التعرف عليه وتمييزه عن قادته[4]. وقبل منتصف نهار ذلك اليوم الذي اندلعت فيه معركة نارينا، تبين بأن مسارها أصبح يميل لصالح جيش سونདياتا، بعدما أنهك جيش الصوصو بسبب الضربات الموجعة لجنود القادة

---

(1) Doumbia Fakoly, Op Cit, p108.
(2) Ibid, p108.
(4) Youssouf tata cissé et Wa kamissoko ,La grande geste, tome2 ;pp17 et 19
(1) Doumbia Fakoly ,Op.Cit p112

كومان جان وكامان جان كامارا، بالإضافة إلى جنود القائد تيراماكان وصياديه المرفوقين بكلابهم[1]. وقد حرص هؤلاء على التواجد في صراعات فردية مع نظرائهم من قادة جيش الصوصو الذين كان عددهم يقدر بضعف عدد قادة المندي، وفرقهم وعدد جيشهم أكبر أيضا. لذلك كان كلما قتل قائد منهم يقوم بتعويضه قائد آخر محاولا استغلال تعب عدوه من المندي. ورغم براعة قادة جيش الصوصو في الصراعات الفردية، وتفوقهم من حيث التسلح، إلا أن قادة المندي تفوقوا عليهم[2]، وبذلك فقد جيش الصوصو معظم قادته، فما إن حل الظلام ولم يعد هناك إلا نور القمر، حتى فقد جيش الصوصو تركيزه وانسجامه، واضطربت جنوده كليا، وقرروا التوقف عن القتال والاستسلام. بينما فضل البعض الآخر الانتحار رافضين فكرة التعرض للأسر من طرف جيش سوندياتا. أما الآخرون فقد سلكوا طريق الهروب طمعا في الخلاص من أتون المعركة[3].

وهكذا انهزم جيش الصوصو في هذه المعركة النهائية، ولم يبق من قادته إلا ثلاثة فقط وهم: الملك سومنغورو كانتي وأخوه صوصو بالا (Sosso bala) ، وقائد آخر هو القائد الرهيب وروصو دابا (Worosso daba)[4]. فبينما القي القبض على القائد وروصو دابا، فإن سومنغورو وأخاه لم يتم العثور عليهما وفرا تحت جنح الظلام، وأخذا معهما ثلة من أفراد عائلتهما[5]وسلكا طريق الشمال الشرقي[6]. وتقول الروايات الشفوية بأن سوندياتا عندما علم بخبر فرار سومنغورو صاح في قادته قائلا: ((فاكولي وأنا سنتبع سومنغورو إلى غاية أن نقبض عليه ثم نعود

---

(2) La grande geste, tome2 ; p 19
(3) Doumbia Fakoly ,Op.Cit p114
(4)La grande geste, tome2 ; p 19
(5) Doumbia Fakoly ,Op.Cit p115
(6)La grande geste , tome2 , p 212

(6) نشير هنا إلى أنه رغم ذكر راوي كيرينا واكاميسوكو بأنهما قد سلكا الطريق الشمالي الغربي إلا أننا نعتقد بأنهما سلكا الطريق الشرقي باتجاه جوليبا التي تقع شرق نارينا،كما أن كل مدن التي مر بها كانت تقع شرق نارينا أيضا.

إليكم إلى نارينا))[1]. وقد توجه سومنغورو إلى أول مدينة تلي نارينا وهي قرية بونفان(Bonfan)[2]، حيث لجأ إلى البائع الوحيد في هذه القرية واشترى منه حصانا جديدا بدلا عن حصانه المتعب، كما اشترى ثيابا جديدة و طعاما مقابل حفنة من ذهب التبر. وكان سوندياتا ومرافقيه يتعقبون خطواته إلى أن وصل إلى نهر جوليبا، حيث وجدوا سومنغورو يتهيأ لقطعه، ومنه سلكوا الطريق باتجاه غابة كيلوكورو، حيث أخبرهم صيادو البوزو بوجهتهم بعدما استأجر قربهم لعبور النهر[3]، وهنا نجد أنفسنا مرة أخرى أمام كم هائل من الروايات والأساطير التي تذكرها الملاحم الخاصة بآل كيتا وسونديانا. فبينما تذهب بعضها إلى القول بأنه بمجرد أن لحق سونديانا وأصحابه بسومنغورو في منطقة كوليكورو الغابية حتى تحول هذا الأخير إلى صخرة صماء[4]. نجد هناك روايات أخرى تقول بأن سونديانا وجه لسومنغورو ضربة بسهم مصنوع من ظفر الديك الأبيض مثلما أخبرته به أخته، وإذا بسومنغورو يختفي عن الأعين دون أن يتمكن أي أحد أن يعرف ماذا حصل له، ولم يبق منه إلا سواره المصنوع من الفضة الذي سقط على الأرض[5]. ومنذ ذلك الحين نبتت شجرة الباوباو داخل ذلك السوار الذي ما يزال أثره قائم إلى اليوم.حيث يوجد في منطقة كيلوكورو الحالية شجرة الباوباو وفي قاعدتها تحمل أثار خنق ينسبها

---

(3)Doumbia Fakoly :Op.Cit p115

وفي روايات أخرى نجد بأن سونديانا أخذ معه لمطاردة سومنغورو كل من القادة فاكولي ، تيراماكان، سيلاماكان (و هو جد آل دياوارا) .

Lilyane Kesteloot et Bassirou dieng : Les épopées d’Afrique noire. P113.

(4) قرية صغيرة تقع شرق نارينا.

(5) Doumbia Fakoly :Op.Cit. p 117

(6) Lilyane Kesteloot et Bassirou dieng ,Op.Cit, p117 – John William Johnson ,Orals epics from Africa,p20

(5)Mamadi Aissa ,Op.Cit, p29 — Delafosse (Maurice) , H S-N, t2, p169

الرواة إلى تلك الحادثة[1]. وفي رواية أخرى نجد انه لما رأى سوندياتا بدأ سومنغورو يجري باتجاه الجبل حيث اختفى في ذلك الجبل[2]. ولو أن كل هذه الروايات تحمل طابعا أسطوريا يصعب تصديق حيثياتها، إلا أن الشيء الذي نستخلصه منهما أن سومنغورو تمكن من الإفلات من قبضة سوندياتا وجنده، و لم يتم العثور عليه، وهو المصير الذي لم يكن ليتقبله الماندیون، وهم الذين كانوا حريصين على أن يقع سومنغورو بين أيديهم حتى ينتقموا منه. لذلك فقد ذهب رواتهم إلى ربط عجزهم في القبض عليه بالقوي السحرية التي كان يتمتع بها ملك الصوصو. لكن وهما يكن فإن سوندياتا بعدما هزم جيش الصوصو وأزال إمبراطوريتهم، وألحقها بمملكة مالي، وضم كل المقاطعات والإمارات التي كانت تابعة لهم[3].

د . توحيد بلاد مندي:

بعدما انتصر سوندياتا على الصوصو واستحوذ على الأقاليم التي كانت خاضعة لسومنغورو كانتي، وخرب أرض الصوصو، وأخضع سكانها الذين تحولوا إلى عبيد له. تحول إلى زعيم إمبراطورية واسعة، خاصة بعدما أخضع كل الممالك الواقعة شمالا مثل سانساندينغ، ديا ديورة و باسيكونو. ووصل إلى غاية الأوكر حيث ضم غانة[4]، لكنه لم

---

(2) Delafosse,Op.cit. p169.

(3) لكننا نرى بان هذه الأسطورة ستتكرر مع الحاج عمر تال خلال القرن 19م، و الذي اختفى حسب بعض الأساطير بنفس الطريقة في منطقة بالقرب من بانادياغارا (Bandiagara) بمالي.

Gérard(Meyer) , Récits épiques, Toucouleurs, La vache, Le livre, La lance, p145.

(4) Delafosse ,Op.Cit, p180.

(5) يقول دولافوس بأن سوندياتا قد دمر وأحرق غانة (أي كومبي) عن بكرة أبيها سنة 1240م. لكننا نرى بأن ما ذكره العمري يتناقض مع هذا، حيث يذكر هذا الأخير: ((أن ملك غانة هو الوحيد الذي بقي محتفظا بلقبه كملك بعد انضمامه إلى مالي، واعتبر كنائب لإمبراطور مالي.)) ـــ العمري (شهاب الدين بن فضل الله): المصدر السابق، ص 110.

يصل إلى ولاته احتراما لأهلها وعلمائها المسلمين، قبل أن يعود إلى الجنوب(1). بعد ذلك قام زعماء قبائل الماندينغ بتنصيبه إمبراطورا عليهم .وخلال حفل التنصيب خلع سونديانا لباس الصيادين، وظهر في المنصة الشرفية أمام الزعماء لاستقبال آيات الولاء والطاعة بلباس المؤمن الذي يتمثل في عباءة بيضاء(2). لكن سونديانا كان يدرك جيدا بأن زعامته لإمبراطورية مالي (أو مندن)لا بد أن تمر عبر توحيدها، حيث صرّح أمام الجماهير الغفيرة التي استقبلته بعد حربه مع الصووصو قائلا: ((يجب أن نجعل من مندن بلدا موحدا كما كانت واغادو(غانة) أي متضامنة مثل أصابع اليد الواحدة، ذلك أن أصبعا واحدا لا يستطيع مسك حجرة لوحده وبتناسق مثلما هو الحال أيضا بالنسبة للأسنان واللسان والفم))(3) لهذا دعا سونديانا إلى إشراك الجميع في إدارة البلاد، كما دعا كل أمراء مندن إلى القدوم إلى الجمعية العامة التي أقامها لتقرير مصير مندن، والتي عرفت باسم جيكول-أوكيلن (Djekoul-Oukelen) ودعاهم إلى شرب الديغي (Dégué)باسمه.(4)

ومشروب الديغي هو حساء مصنوع من خليط الأرز والدخن والعسل والحليب، حيث يعتبر شربه بمثابة رمز للعهد أو التحالف مع من شرب باسمه، وهو بمثابة إعطاء كلمة الشرف للملك وإبداء الولاء والطاعة له(5). لكن بعدما حضر زعماء مندن لشرب هذا الحساء كتعبير منهم على موافقتهم على اعتلائه منصب منسا (أو الملك)، قرر الكثيرون منهم التراجع عن القسم وأداء اليمين وهو الوعد الذي قدموه لسونديانا. وزعموا بأن هذا الأخير قد ولد البارحة القريبة (أي صغير في السن) فكيف يصبح ملكا، وكيف لهم أن يجلسوا في مجلسه الملكي، ويسمحوا له بأن يقرر أمورهم؟. ولقد كان من هؤلاء الأمراء الأوائل الذين تمردوا أولا على سلطة سونديانا الأمير"كولا ماسا دن تورومي (Kola

(1) Delafosse ,Op.Cit, p180.

(2) الشكري (أحمد) : الإسلام والمجتمع السوداني، إمبراطورية مالي، ص181.

(3) La grande geste du Mali, tome 2,p31

(4) Ibid,pp31 ,p32

(5) Kouassi Germain : Le phénomène de l'appropriation linguistique. Editions Publibook, (Paris, 2007, p72.)

Massa den touroumé) والذي يعني اسمه تورومي ملك الكولا، وهو ينتمي إلى عائلة فاكولي. وقد رفض القدوم إلى اجتماع سوندياتا، وطلب منه أن يأتي بنفسه إلى إمارة كولا، ويعبر النهر. وهناك الأمير "ديغي ماكان ديغي (Digui Makan digui) الذي رفض الإيفاء بعهده بعدما أدى القسم، حيث رفع صوته عاليا أمام سوندياتا مصرحا بأنه يرفض سلطته بحجة أن هذا الأخير ترك جنود سومنغورو الرافضين القدوم إلى داكاجالان(كتغابا) بالرحيل، لذلك قال بأنه هو أيضا لا يريد القدوم إلى داكاجالان. أما الأمير الآخر الذي أعلن تمرده فهو نياني ماسا كامارا (Niani massa kamara)[1] الذي أعلن استنكاره ورفضه لسلطة سوندياتا، وصرح قائلا: ((ما هو السبب الذي يجعلني أقبل سلطة داكجالان عليّ ؟ إن ماغان سوندياتا كان ولدا عندما كنت أتربع على عرش المملكة، أي أنني أول من ملك مندن، وأوّل من سكنه، فلا أحد سبقني إلى هذه الأرض، فلا يحق لسوندياتا أن يعلن نفسه ملكا ويستدعيني إلى قصره لأتلقى أوامره لمجرد أن طرد جيوش سومنغورو، فلن أذهب أبدا لتلبية دعوته))[2]. وعندما بلغت إلى مسامع سوندياتا هذه الأوضاع صاح قائلا: ((إننا أقواس دون رماة، وإنهم رماة دون معلم)) في إشارة إلى أن سوندياتا يوجد في وضعية الزعيم الذي يملك الكثير من الأسلحة لكن بدون رجال يستخدمونه. أما هؤلاء الأمراء المتمردون فإنهم يشبهون الجنود الذين لم يجدوا قائدا يوجههم ويضبط أمورهم. فأجابه القائد فاكولي بأنهم ينتظرون أوامره لتنفيذها، وهنا قام سوندياتا بإعداد خطة لإخضاع المندن ككل، وتقوم على محاصرة القرى المشهورة بقوتها

(1) نياني ماسا كامارا هو زعيم وكبير آل كامارا الذين أوكل إليهم المالنكي ملكية أرض مندن بعد رحيلهم من واغادو في أزمنة غابرة. وتذكر الروايات الشفوية بأن سوندياتا عندما عاد من داكاجالان صرح أمام مجلس مندن المجتمع في جلسة عامة: ((أريد نياني ماسا كامارا، عليه أن يأتي بدون تأخر من أجل شرب ديغي باسمي قبل أن يلتحق بجيشي. فليعلم أنني ادخرته لمثل هذا اليوم، ليسعن ضعف وإنما احتراما لمسيرته المجيدة ضد المحتل الصوصو، وكذا لكبر سنه. فليعلم دائما بأن من وضعه المندن كلهم في هذا المكان(أي سوندياتا) هو أكبر و في نفس الوقت أب كل المالنكي.))

(2) youssouf tata cisse La grande geste, t1, p215

وانتمائها إلى نفس العشيرة في نفس اليوم ونفس الساعة، وحرص على أن تكون قوات مندن قريبة من بعضها البعض[1]. وبذلك فقد تمكن القائد تيراماكان من إلقاء القبض على كولا ماسا دن تورومي، قبل أن يطلب هذا الأخير المنفى، حيث غادر مندن وتوجه إلى بندوغو (Bendougou) الواقعة على الضفة اليمنى لنهر باني، وأسس هناك قرية ما تزال موجودة إلى اليوم تحت اسم تورومي لا أي (عند تورومي). كما ألقى القبض على الأميرين "ديغي ماكان ديغي" و"كولن ماسا توروكيلن" وقدمهما لسوندياتا، أما أمير آل كامارا نياني ماسا كامارا فقد قبض عليه القائد فاكولي و قتله[2].

واستكمالا لعملية توحيد المندن، ومن أجل إضفاء نوع من القداسة على تلك العملية، قام سوندياتا كيتا بزيارة مدينة كيتا[3] وذلك لتحقيق عدة أهداف وغايات تتمثل أولا في محاكاة العظماء وقادة الجيوش والملوك في السودان الغربي الذين كانوا دائما يطهّرون أنفسهم، ويصلون من أجل رخاء وعظمة بلدانهم منذ عهود سحيقة، وذلك عن طريق الاستحمام في مياه منبع موكويا - جي (وتعني ماء الشخصية) والموجودة في الجبال التي تقع فيها مدينة كيتا. أما الهدف الثاني لهذه الزيارة فهو التقرب من آل كمارا وكسب رضاهم، بحكم أن هذه المنطقة يتزعمها آل تونكارا وهم حلفاء رجال الدين من آل كمارا عن طريق المصاهرة. وبما أن آل كمارا يعدون أقدم من سكن هذه البلاد، فإن دعمهم

---

(1) La grande geste du Mali,t2,p32

(2)La grande geste du Mali,t1,p219

(3) كيتا (Kita) مدينة تقع في جبال ماندينغ القديم، وهي إحدى المدن الهامة بالنسبة لإمبراطورية مالي الفتية في عهد سوندياتا كيتا، ذلك أن كيتا ـــ كورو(وتعني جبل كيتا)لعبت دورا كبيرا في أساطير الماندينغ ففي هذا الجبل توجد البحيرة المشهورة ذات المياه السحرية المسماة بموكويا – جي(Mokoya- dji)التي استحم فيها سوندياتا. Niane djibril temsir : Histoire et tradition historique du Manding

لسوندياتا سيكسبه قوة أكثر[1]. ونشير هنا إلى أن الإسلام قد لعب دورا جوهريا في توحيد قبائل الماندينغ، وذلك لخصوصية هذا الدين الذي يترع إلى الطابع الإنساني، البعيد عن الحدود القبلية الضيقة التي رسمتها الأعراف والتقاليد الوثنية[2]. ولا أدل على ذلك ما تذكره الروايات الشفوية من أن عائلة تونكارا التي احتضنت سوندياتا في ميما عندما كان في المنفى، كانت أسرة مسلمة[3]. وبالإضافة إلى ذلك نجد بأن سوندياتا عندما زار كيتا، فقد كان برفقة عدد كبير من الفقهاء ورجال الدين، فضلا عن النبلاء والفرسان والرماة و رؤساء الطوائف. وكانت أول العشائر التي حالفته وعقدت له ولاء الطاعة، هي العشائر التي كانت أول من اعتنق الإسلام في مندن و نشرته في السودان الغربي، وهي آل سيسي ، آل كامارا، وآل تونكارا.وحسب نبلاء مدينة كيتا فيكون سوندياتا قد أسرّ لهم عن نيته في أن يجعل مدينتهم عللإمبراطورية[4].قبل أن يغير رأيه لأسباب إستراتيجية وسياسية.

---

(1)La grande geste,tome2,p37

(2) La grande geste,tome2,p37

(3) Monteil vinçent : L'islam noir, une religion à la conquête de l'Afrique. 2ditions seuil, France, 1980, pp39 et 48.

(4) La grande geste, tome2, Ibid,p38

2. التوسعات العسكرية لسوندياتا:

أ. غزو الجولوف:

بعد معركة كيرينا الشهيرة، وبعد وفاة الملك "نياني ماسا كامارا"، ومن بعده ابنه "ماسا دن بي كامان"[1] لم يعد هناك من ينافسه على عرش مندي. حيث بدأ سوندياتا يطمح إلى ما هو أكبر من أرض المندي، حيث بدأ يتطلع إلى التوسع غربا باتجاه السنغال، ولقد كان قد اختار داكاجالان (كنغابا)[2] مقرا له بعد عودته من كيرينا، أين قام بعقد جمعية عامة ضمت عدد كبير من أهل مندن، حيث شملت بالإضافة إلى السكان، قادة الجيش، ونبلاء البلد[3]. وقد ألقى أمامهم خطبة شرح لهم فيها ما حدث له أمام ملك الجولوف منسا جولوفين، والإهانة التي تلقاها منه، وتتلخص الحادثة في كون سوندياتا أراد أن يشتري أحصنة لفائدة جيشه، فأرسل لهذا الغرض أخاه غير الشقيق "ووري - ووري سولوماني" إلى منطقة كايور في السنغال. ولما اشترى هذا الأخير الأحصنة المطلوبة ودفع ثمنها ذهبا، مرّ في طريق عودته بأرض الجولوف التي كان ملكها منسا جولوفين مقيما بمنطقة باسي - سيرا - سون - كورو (Bassé - Sira- Soun -Koro) وكان حليفا سابقا لسومنغورو[4]. ولما وصل ووري سولوماني إلى عاصمة الجولوف، وداهمه الليل بها، أراد أن يبيت هناك، فربط أحصنته بإحدى أساسات حصون المدينة ليطعمها ويشربها . ولما رأى الملك منسا جولوفين ذلك العدد الهائل من الأحصنة المربوطة، وعلم بأنها موجهة إلى ملك مندن سوندياتا كيتا غضبن واستولى عليها جميعها بالقوة، وأنكر الاعتراف

---

(1) لقد قام سوندياتا بالتخلص من ملوك المندي المتمردين الواحد تلو الآخر، وكان آخرهم نياني منسا كامارا الذي يعتبر عميد أمراء المندن، ومن أقدم من سكن مندن. كما كان رفيق الصيد بالنسبة لوالد سوندياتا، والذي كان آخر من ينافسه على زعامة مندن، فبالقضاء عليه و على ابنه حكم سوندياتا قبضته الحديدية على كامل مندن.

(2) تقع على الضفة اليمنى لنهر النيجر على بعد 42كم جنوب بماكو.

(3)le cas de Soudjata.p277 Johnson(John) : Epopée, histoire, société,

(4) La grande geste du Mali, tome2, pp43 et 87

بوجود ملك آخر على مندن غيره. بل اعتبر سوندياتا كيتا مجرد صياد لا يصلح إلا لحرفة الصيد، وقدم ثلاثة أزواج من الصنادل المصنوعة من جلد التيتل[1] إلى ووري سولوماني، بالإضافة إلى تسعة كلاب ، وطلب منه أن يأخذها إلى سوندياتا ليستعملها في الصيد وعبور الغابات والأحراش، بدلا من تلك الأحصنة التي لا تليق إلا بالملوك[2]. وذلك في إشارة إلى منه إلى أن سوندياتا لم يكن إلا صيادا وليس ملكا، وبالتالي جدير به ممارسة مهنة أجداده وهي الصيد، وليس ركوب الخيل[3].

عندما عاد شقيق سوندياتا "ووري ووري سولوماني" إلى كنغابا وهو محمل بجلود التيتل والكلاب ومطأطئا رأسه، وأخبر الملك سوندياتا بالإهانة التي حلت بهم[4]، دعا هذا الأخير إلى عقد اجتماع لمناقشة الأمر والبحث عن رد الفعل الملائم لهذه الحادثة[5]. ولقد شرح سوندياتا تفاصيل الحادثة أمام الحاضرين قائلا لهم: ((إن هذه الإهانة هي تحدي موجه إلي شخصيا، وبالتالي فإنه يعود إليّ وحدي أمر غسل هذه الإهانة، فإذا لم أفعل هذا بنفسي فإن شعبي سيقول بأنه ليس لديه قائد يستحق هذا الاسم))[6]، لكن القائدان فاكولي وتيراماكان اعتبرا بأن أمر تأديب جولوفين منسا لابد أن يوكل إليهما، وأصرا على أن يمنحهما سوندياتا شرف قيادة الحرب ضد مملكة الجولوف. حيث نطق فاكولي قائلا:

(1) التيتل هو حيوان إفريقي ضخم له قرون منحنية، وله جلد بني يميل إلى الأحمر، وكفل أبيض صغير، ويرعى فيشكل قطعان في السهول الإفريقية، وخاصة في أواسط الجنوب الغربي من إفريقيا، ويعرف باللغة الفرنسية بـــ (Bubale) .

(2)Johnson(John : Op.Cit, p277

(3) نيان تمسير جبريل ، مالي والتوسع الثاني للماندينغ، ص 144، في الهامش.

(4) تقول بعض الروايات بأن ووري سولوماني لم يستطع أن يخبر سوندياتا بما حدث، وأن من أخبره هو الراوي الشخصي لسوندياتا وهو بالا فاسيكي كوياتي أنظر:

Youssouf tata cissé et Wa kamissoko, La grande geste, t2, p89.

(5) Diakité(Drissa) , Kouyaté, Laforce du serment, p182.

(6) Ibid,p182.

((إن خوضك الحرب بنفسك يعني أنك لا تثق في رجالك، وأنه ليس لك رعية تليق بمقامك، فاترك لي أمر القيام بهذه الحرب، ولسوف يعرف جولوفين منسا بأنه لا يمكن إهانة صياد دون عقاب.)). ثم رد عليه تيراماكان قائلا: ((بل أترك لي أمر هذه الحرب يا فاكولي وسوف أبيّن لجولوفين منسا ما هي مهنة الصيد))(1)، ثم ازداد التنافس بين قادة الجيش حول من يقود الحرب ضد مملكة الجولوف، بحيث انضم إليهم كل من القائد "فاران كامارا" و"مندن بوغاري" مما أدى إلى حدوث اشتباكات بينهم(2). لكن يبدو من خلال الروايات الشفوية بأن القائد تيراماكان كان أكثرهم إصرارا على قيادة هذه الحملة التأديبية على مملكة الجولوف، حيث تذكر هذه المصادر بأنه لجأ إلى التهديد بالانتحار إذا لم يسمح له سوندياتا بقيادة هذه الحرب، حيث قام تيراماكان بحفر قبره بيده، وطلب من الناس أن يلفوه داخل كفن ودفنه حيا. وهنا قام أحد الرواة الشفويين لسوندياتا وهو جيلي دورا (Djeli dora)، وأخبر سيده بما ينوي تيراماكان القيام به وقال له: ((إذا قتَلْتَ كلبك الشّرس فإن كلب رجل آخر سيعضُّك، لذا فإنني أرى انه يجب أن ترسله للقيام بهذه الحرب، فإنه سيزيد من شهرتك))(3)، وهنا سمح سوندياتا لقائده تيراماكان بقيادة الحملة لغزو الجولوف قائلا له : ((اهدأ يا تيراماكان ، فأنت الذي لم يدّخر جهدا أبدا من أجل مندن، سوف أعهد إليك بحرب الجولوف... فإذا رفض السيف القيام بهذه الحرب فإنك سوف لن ترفض))(4).

وهكذا أخرج تيراماكان من قبره، ومزق كفنه، وبدأ يتهيأ للحرب(5). فجهّز جيشا قاده بنفسه، وتوجّه إلى مدينة "باسي - سرا - كورو" عاصمة مملكة الجولوف، وعندما

---

(1) Diakité(Drissa) , Kouyaté, Laforce du serment, p182.

(2)Ibid,p182.

(3)Johnson(John : Op.Cit, p278

(4) Diakité(Drissa),Op.cit,p182.

(5) Johnson(John) , Op.Cit, p278.

وصل إلى قصر الملك منسا جولوفين طلب هذا الأخير من تيراماكان مهلة من أجل التهيؤ للحرب، لكنه لم يكن يرد إلا ربح المزيد من الوقت لتهريب الكنوز التي تركها أجداده والمعروفة باسم "فاران" والتي كانت تمثل بالنسبة إليه الدعم الحقيقي لشرعية ملكه. ولقد دخل منسا جولوفين من الباب السري، واختبأ في أحد الأروقة الموجودة بين الجدران الخلفية للقصر بعدما أخذ معه الكنوز المتمثلة في الآثار التي تركها أجداده وهي سُلَّم ورمح ذهبيان بالإضافة إلى رمح فضي، وبذلك تمكن من الهروب من مواجهة تيراماكان، واستطاع الخروج من أسوار المدينة. وبعد انتظار طويل قرر تيراماكان شن هجوم على العاصمة والقصر، وهنا تشير الروايات الشفوية بأن جنوده ارتكبوا مجازر رهيبة في حق سكان المدينة، و لم يسلم من بطشهم لا العبيد ولا الأحرار ولا الأطفال، فحولوا المدينة إلى أطلال[1]. بعد ذلك توجه تيراماكان وجنده لتعقب منسا جولوفين الهارب إلى الغابات، أين وجدوه مختبئا داخل حفرة بحيث لم يكن يظهر إلا رجليه، بينما كان رأسه داخل الحفرة. فأخرجه تيراماكان من حفرته،ثم قام بقطع رأسه بالرّغم من توسُّلات منسا جولوفين بإبقائه حيا[2]. بعدها قام تيراماكان بفصل رأسه عن جسده ووضعه داخل كيس، ثم عاد إلى كنغابا بعد أن خضعت له البلاد، وقدم له نبلاء الجولوف عدة هدايا، كما أعاد معه إلى مندن الخيول التي كان قد صادرها ملكهم، بالإضافة إلى العبيد الذين أسروهم[3].

وعندما عاد تراماكان تراوري من حملته ضد الجولوف عزل نفسه عن الناس لمدة أسبوع في معسكره، دون أن يقابل سوندياتا أو يقدم له نتائج حملته التي كلفه بها.وبعد مرور ثمانية أيام أخبر سوندياتا بأنه سيستقبله في موكب عظيم في الساحة الكبيرة وسط قادته، وهناك قدم تيراماكان لإمبراطور مالي غنائم الحرب من عبيد وإتاوات وهدايا،

(1) La grande geste du Mali, tome2, p 94.

(2) Janson(Jan) ,Op.Cit, p278.

(3)La grande geste du Mali, tome2, p 94

فذهل سوندياتا، وتأكّد بأن الإهانة التي وجهها له ملك الجولوف قد غسلت، كما أن الإمبراطورية اتسعت بمملكة إضافية، وأصبحت تمتد من نهر جوليبا إلى المحيط الأطلسي باتجاه الغرب، أين قام تيراماكان بغسل سيفه في مياهه باسم سوندياتا،كما أعلن نفسه سيّدا لأرض الغرب(1). حيث أراد سوندياتا أن يكافئ خادمه الوفي والمخلص أمام الماندي المجتمعين في الساحة الكبيرة، فمنح أراضي الغرب كلها كإقطاع لتيراماكان(2).

ب. إخماد ثورة مالنكي الجبال:

يلقبون عادة بماندينكا فينغ (Mandinka – fing) أو المالنكي السود، ويشتهر هؤلاء المندينكا القاطنين في الجبال بفخرهم وكرمهم وشدقم، وعنادهم الشديد.كما أنهم كانوا يعتقدون بأن المالنكي الصغار، الموجودين على ضفاف النهر هم نتاج وجودهم، فلقد كانوا يشعرون بأنهم هم الأصل. لهذا فقد اندلعت ثورات في كامل الجبل، وهي لم تكن ثورة ضد سلطة سوندياتا بقدر ما كانت ثورة ضد غطرسة وتكبر مالنكي النهر، الذين كانوا يصفونهم بالنسوة اللاّئي فتحن أبواب الوطن أمام الحدادين الصغار من آل كانتي الصوصو. ومن أجل إعادة هؤلاء الرجال الأشداء إلى الصواب، قام سوندياتا بدعوة مان كومان جان(3) وهو أحد قادته الذين يتوسم فيهم الطيبة والواقعية والإخلاص والتمسك بوحدة مندن. وبكثير من الدبلوماسية والواقعية استطاع نان كومان جان(الذي ينحدر من مالنكي الجبل) أن ينجز مهمته دون صعوبات، وراح يردد أمام هؤلاء الجبليين بأن

---

(1) Niane djibril temsir , Histoire des Mandingues de l'ouest : Le royaume du Gabou. Editions Karthala , Paris, 1989, p18.

(2) Niane djibril temsir , Histoire des Mandingues de l'ouest .,p18

(3) يدعى أيضا "كونغ كومان" وتعني كومان مدينة كونغ. وتعد كونغ مدينة مقدسة تبعد عن أبيجان عاصمة كوت ديفوار الحالية بـــ 20كم.كان يوجد بها خلال عصر ازدهار إمبراطورية مالي تسعة مساجد، كما كان يحج إليها الناس للتبرك بها.حول هذه المدينة أنظر:

Kodjo(Niamkey georges),La royaume de Kong, Cote d'ivoire. Des origines à la fin du 19ème siècle. Editions l'harmattan,(Paris, 2006, p231) .

سوندياتا يفكر فيهم اليوم أكثر من أي وقت مضى، لأن العمل الحقيقي لم يبدأ بعد، وبأنه متأكد بأنهم في الوقت الملائم سيكونون أهلا للشهرة التي نالوها كرجال شرف وشجاعة. وبذلك استطاع سوندياتا أن يضمهم إليه بدون قتال، بل أصبحوا موجودين في كل غزواته، ولم يبق من مقاطعات الجبال سوى ثلاث مقاطعات، وهي: إمارة بنتينيا (Bintinnia)، وعاصمتها كامالي في منطقة صوبارا، وإمارة بندينغا (Bindinga)، وإمارة كينييبا (Kinieba). ونشير هنا إلى أنه بينما تم استرجاع الإمارتين الأخيرتين (وهما بندينغا وكينييبا) إلى صف سوندياتا من طرف المنقبين عن الذهب، ومن طرف جيش تراماكان، فإن إمارة بنييتا فقد استعصت عليه، وكان لا بد من بذل طرق أخرى لإقناعها بالرجوع إلى حظيرة إمبراطورية سوندياتا(1).

ج. غزو بلاد المور:

بعد غزو سومنغورو لمملكة غانة وتخريبها، اضطربت التجارة بين الشرق والغرب. كما حدثت القطيعة بين الشمال والجنوب، ولقد رأينا كيف انتشرت الفوضى والنهب في المناطق الشمالية للمملكة(2). بالإضافة إلى الجفاف الذي أدى إلى نقص الرزق، فتفاقمت ظاهرة الاستعباد التي استغلها المور لإنعاش تجارة العبيد(3). وكان سوندياتا قد اتخذ قرارا بمنع العبودية في كامل السودان الغربي(4)، لذلك قرر محاربة هؤلاء المور الذين كانوا يخالفون أوامره. لكن القائد فاكولي دومبيا طلب أن يترك له أمر تأديبهم بحكم معرفته الجيدة بهم، على أساس أنه كان قد حاربهم كثيرا عندما كان قائدا لجيش خاله سومنغورو. وقد طلب أن ينظم إلى جيشه محاربي مالنكي الجبال المعروفين بشجاعتهم وإقدامهم، والذين لا يتراجعون أبدا أمام العدو. وبذلك كوّن فاكولي جيشا من النخبة،

---

(1) Youssouf tata cissé et Wà kamissoko , Haut Sénégal -Niger, tome2, p45

(2) أنظر المبحث الأول من هذا الفصل .

(3) Delafosse(M) , Haut Sénégal- Niger, t2, p165,

(4) La grande geste, t1, p23.

وحرص على تدريبه بنفسه، ثم توغل في منطقة الساحل، وبدأ بالهجوم على المور ليلا ونهارا، ونصب كمائن لقوافل العبيد. فلقد كان يقطع أوتار أرجل الإبل ورؤوس قطّاع الطرق، كما هجم على أسواق العبيد وخرَّبها، و قام جنود غانة ونيما الذين انضموا إلى جيشه بزرع الرعب في صفوف المور، وامتدت حملة فاكولي إلى غاية الحدود القصوى لبلاد تيشيت[1]. ولكي يختم حملته قام فاكولي بحرق الأسواق الكبرى المستعملة في تجارة العبيد سواء كانت تابعة للسوننكي أو للمور، أما المعارضين لحملته فقد رش بيوتهم وأحصنتهم بالزبدة المذابة وأشعل فيها النار[2].

د. توسعاته نحو الغرب وتأسيس مملكة كابو (غمبيا):

شكلت مملكة غمبيا منطقة جذب هامة للمندي،ذلك أن هذه المنطقة شكلت في البداية مأوى للاجئين الصوصو، الذين بدؤوا يستقرون في منطقة فوتا جالون، وعلى ضفاف نهر غمبيا بعد هزيمة سومنغورو أمام سوندياتا [3]. كما أن سوندياتا كان يحاول منع أمراء الصوصو من بعث مملكتهم من جديد في هذه المنطقة التي لم تكن سلطته قد وصلت إليها بعد[4]. لهذا جهز سوندياتا جيشا بقيادة تيراماكان تراوري، وتوجَّه نحو المناطق الواقعة غرب مملكة مالي، مستفيدا من مناجم الذهب في بوري وبامبوك التي أصبح سيدا عليها لتدعيم جيشه. وسالكا نفس الطريق التجاري الذي يؤدي من بوري إلى غاية نهر السنغال، ومنها إلى الغرب، مرورا بمنطقة كيتا، وتمر بالسنغال عند منطقة

---

(1) وتعد مدينة تيشيت إحدى أهم المدن التاريخية والحضارية للجمهورية الإسلامية الموريتانية، وقد عرفت خلال القرن 7هـــ/13م مجدا كبيرا كمحطة مهمة لتجارة القوافل الرابطة بين شمال الصحراء وجنوبها .

(2)La grande geste, t2, p46,

(3)جون فيج، تاريخ غرب إفريقيا، ص 85.

(4)Madina(Lytall) , Quelques précisions sur les relations entre l'empire du Mali et le Gabou. In Ethiopiques, Revue negro -Africaine de littérature et de philosophie. N°28, Octobre, 1981,

كونديورو(Goundiourou)، جنوب منطقة كايس (Kayes)[1]. بدأ تيراماكان يفتح الإمارات و يؤسس بعضها، وأخذ أتباعه يتكاثرون، خاصة وأن سوندياتا كان قد زوده بحوالي 35 امرأة انضمت إلى حملته، فشكلوا بذلك أهم هجرة مالنكية باتجاه الغرب. وقد عبر تيراماكان نهر غمبيا، وكان كلما فتح مدينة أو أسس أخرى إلاّ وترك عدد من أتباعه فيها، مثل مدينتي "كابندو" و"بايونكو" في إمارة باثيانا وهي أرض غنية جدا،كما أسس مدينة "بيراد" و غيرها. وقد زار في طريقه بلاد جاكاو التي يسكنها السيرير من آل كيلوار (Les Guélowars) في إقليم سيني إلى غاية أن وصل إلى داكارو وهو إقليم لم يكن مسكونا من قبل، حيث كان عبارة عن أدغال وغابات كثيفة، ومنها توجه إلى منطقة ندار (Ndar)[2]وعهد بها إلى القائد "لامين سيلا" بحمايتها ، ثم توجه إلى مدينة "ساتوما". وهنا قسم البلاد بين قادته وأبنائه وأقاربه، مؤسسا بذلك مملكة كابو[3] بعدما جمع ابن أخيه وأبنائه وحدثهم عن كيفية حكم البلاد. وبعدها شعر بقرب نهايته بعد صراع لمدة سنتين مع المرض، فتوجه إلى ضفاف نهر غمبيا حيث توفي هناك، قبل أن ينقل جثمانه إلى مدينة باسي التي دفن فيها سنة 1265م. وهكذا مهد سوندياتا بفتوحاته لبناء إمبراطورية تضم جميع أرض السودان الغربي باستثناء إمارة كوكو(سنغاي). كما أن الإمارات الإسلامية الأخرى لم تقف في وجهه[4].

3:الإنجازات السياسية والتنظيمية:

أ.إنشاء العاصمة:

بعد النجاحات العسكرية التي حققها سوندياتا قام بإنشاء عاصمة جديد

---

(5) Madina(Lytall) , Op.Cit

(1) هي مدينة سان لويس الحالية.

(2) إن اسم كابو لم يعط لها إلا خلال القرن العاشر للهجرة/ 16م، قبل أن تتحول إلى غمبيا بعد الاستقلال

(3) أحمد الشكري:المرجع السابق، ص182

وحسبدولافوس فإن موقع كنغابا[1] أصبح غير ملائم بالنسبة للاتساع الذي أصبحت تتربع عليه الإمبراطورية. لذلك قرر أن يبني عاصمة جديدة[2]. ويشير المؤرخ السوداني محمود كعت بأن المدينة التي كانت تمثل عاصمة إمبراطورية مالي الأولى تسمى جارب أو (ديارييا)[3]، لكن مترجما كتابه إلى الفرنسية وهما دولافوس وهوداس، يذهبان إلى أن هذه التسمية ما هي إلا الاسم الذي يطلقه الماندينغ على نهر النيجر، والذي يعني بلغة المندي "نهر الرواة الشفوين"، والذي أطلق أيضا على اسم المدينة المعروفة بكنغابا.ويعود سبب تسميتها باسم هذا النهر إلى قربها الشديد منه[4]. كما تذكر هذه أيضا باسم جوليبا، وهو كذلك اسم إحدى فروع النيجر[5].

ويبدو أن العاصمة القديمة لمالي، وعلى اختلاف تسمياتها، كانت تقع على الضفة الشمالية للنيجر الأعلى في منتصف الطريق بين مدينتي سيغيري وبماكو. وقد أدت الحفائر الأثرية التي أجريت في نهر النيجر إلى كشف مكان تلك المدينة التي تقع عند ملتقى نهري النيجر والسنكراني، في مكان يدعى "مالي تومبو" أي أطلال مالي، حيث لا تزال توجد آثار تجمع سكاني قديم يعتبره أهالي المنطقة مقر حكم منسا مالي القديم[6]. لكن الشيء الذي يثير الجدل هو موقع العاصمة الجديدة لسوندياتا، ذلك أنه ذكرت عدة أسماء لهذه العاصمة وعدة مواقع، لدرجة أصبحنا فيها غير قادرين على تمييز ما هي المدينة التي عاصمة إمبراطورية مالي، حتى اعتقد المؤرخ الفرنسي شارل مونتاي بوجود عدة عواصم، وبالتالي

---

(4) لقد سبق وأن ذكرنا اسم العاصمة الأولى لسوندياتا باسم "داكديالان" أو "داكاجالان"، وقد أوضحنا بشأنها بأن هذا الاسم هو لقب لهذه المدينة، ويعني بلغة المندي (مقر مؤسسي المملكة)، بينما الاسم الذي عرفت به فهو كنغابا.

(5) Haut S-N, t 2, p180.

(1)Tarikh al fettach, p66 .

(2) Mahmoud Kati ,Tarikh al fettach: p66

(3) Delafosse (M) ,Les noirs de l'Afrique, p55.

(4) Ibid, p55.

عدة إمبراطوريات حملت اسم مالي[1]. وتذهب آراء الدارسين اليوم، إلى أن إمبراطورية مالي قد عرفت عدة عواصم فيما بين القرنين الخامس والعاشر الهجريين/11و16م[2]. كما تذهب كل الدراسات إلى اعتبار مدينة نياني التي تحدث عنها العمري[3] ومن بعده ابن بطوطة[4]،

والقلقشندي[5]، هي عاصمة الإمبراطورية طيلة القرنين السابع والثامن للهجرة/13 و14م، أي أنها تكون العاصمة الجديدة للإمبراطورية التي أنشاها سوندياتا. ولقد عرفت عاصمة مالي عند المصادر العربية بملل أو ملي، لكنها أكيد لم تكن نفس المدينة التي تحدث عنها البكري سنة 461هـ/ 1068م، والإدريسي سنة 549هـ/1154م، حيث لم تكن في عصرهما سوى مجرد قرية كبيرة، كما أنهما كانا يتحدثان عن كنغابا وليس نياني. ويذهب بينغر (Binger) نقلا عن أحد المسافرين يدعى "الحاج مامادو لمين"، والذي التقاه عام 1887م، بأن عاصمة إمبراطورية مالي كان جنوب غرب نيامينا، على الضفة اليسرى للنيجر[6] أما دولافوس فيرى بأن عاصمة سوندياتا الجديدة بعد كنغابا ما هي إلا نياني، والتي هي نفسها التي تحولت من طرف اللسان المالنكي إلى مالي، أو مللي، وجولها البرتغاليون إلى مندي[7]. وإذا رجعنا إلى المصادر العربية، فإننا نجد من يذكر مدينة نياني باسم مالي مثل ابن بطوطة، بينما نجدها عند العمري باسم بيتي حيث يقول: ((وقاعدة الملك بها هي مدينة بيتي))[8]. كما ذكرها ابن خلدون باسم بني[1] بينما نجدها عند

---

(5) Monteil (Charles) , Les empires du Mali. Paris, 1968, p299.

(6) أحمد الشكري ، المرجع السابق، 183

(7) كتاب مسالك الأبصار، ج4،ص105

(8) الرحلة، ص 681 و ما يليها.

(1) صبح الأعشى في صناعة الإنشا, المطبعة الأميرية، القاهرة، 1915م، الجزء الخامس، ص 283

(2) Capitaine Binger , Du Niger au golfe de Guinée. Le pays de Kong et Mossi(1887-1889).Editions Hachette, Paris,1890,volume1,p 254.

(3) Haut Sénégal-Niger,t2 ,p181

(4) مسالك الأبصار ، جزء4، ص107

محمود كعت باسم ينع[2]. لهذا نجد بأن موني (Mauny) ورغم اعترافه بأن مشكلة موقع عاصمة مالي الجديدة يبقى مطروحا، إلا أنه يفضل أن يعتبر المدينة التي زارها ابن بطوطة، وكان يؤمها التجار خلال القرن الثامن للهجرة/14م هي عاصمة سوندياتا الجديدة[3]. وتقع مدينة نياني هذه على الضفة اليسرى للنيجر، وتميل قليلا باتجاه الغرب من الطريق الواصل بين مدينتي نيامينا وكـولـيكـورو، أي شـرق مـدينـة كـونينا الحالية[4]. وبالتالي يمكن أن نقول بأنها تكون قد وجدت بالقرب من المكان الذي يعرف اليوم بديالاكورو (Dialakoro) بجمهورية غينيا. وعموما فإن سوندياتا قرر نقل عاصمته من كنغابا (أو داكاديالان) ـــ وهو مقر إقامة أجداده من آل كيتا منذ القدم ـــ إلى نياني مباشرة بعد انتصاره في معركة كيرينا، ويعود سبب ذلك على ما يبدو إلى عوامل أمنية وإستراتيجية بالدرجة الأولى، والتي يمكن تلخيصها فيما يلي:

أولا: عدم شعوره بالأمن في قريته كنغابا، خاصة وأن نجاحه كان محط حسد لكثير من الحاقدين من أفراد عشيرته.

ثانيا: الموقع الاستراتيجي لنياني. فلقد جمع موقعها بين الحصانة والمناعة، بوقوعها بين الجبال، وبين الاتساع والخصوبة لأنها تعد سهلا واسعا محاذ للنهر.بالإضافة إلى مجاورة نياني للغابة التي تعد مصدرا للكولا وزيت النخيل، والذهب. وهي سلع كانت كفيلة بضمان تدفق التجار المالنكي عليها ،لبيع الأقمشة والمواد النحاسية، مقابل تلك السلع الاستوائية الثمينة[5]. وبذلك تحولت نياني من مجرد مدينة صغيرة إلى عاصمة لإمبراطورية كبيرة ذاع صيتها في أنحاء العالم، خاصة بعدما أصبحت ملتقى لطرق القوافل المتجهة نحو

---

(5) العبر، ج5، ص495

(2) Haut Sénégal-Niger,t2,,p66

(7) Mauny (Raymond) , Tableau géographique de l'ouest Africaine au moyen âge. Editions IFAN, Dakar, 1961, p121.

(1) Delafosse , Haut Sénégal-Niger, t2, p181

(2) نيان تمسير جبريل: المرجع السابق، 147

الشمال الشرقي إلى سيلا، والمعروف بطريق منديه. فأصبحت قبلة للتجار الزنوج والمغاربة على حد سواء، وتحولت بذلك إلى عاصمة سياسية واقتصادية للإمبراطورية[(1)].

ب.تنظيم الدولة:

1. تشريعات كوروكان فوكا:

تنسب الروايات الشفوية لسوندياتا كيتا إنشاء أول دستور عرفه السودان الغربي في تاريخه، ويعد هذا الدستور الذي أنشئ في قرية "كوروكان فوكا " عام 633هـــ/ 1236م حسب هذه الروايات، بمثابة الميلاد الحقيقي للأمة المالية بأكملها[(2)]. وتقع قرية كوروكان فوكا قرب مدينة كنغابا، على بعد200كيلومتر جنوب مدينة بماكو الحالية[(3)]. اختارها الماليون لتكون مقرا لميلاد دستورهم[(4)] الذي سوف يقنن قواعد عرفهم ومحرماتهم التي كانت تنظم العلاقات فيمنا بين عشائرهم، وبين عشائر الغرب الإفريقي الأخرى[(5)]. فكان ذلك الإجتماع إذن بمثابة جمعية تأسيسية حقيقية للإمبراطورية المالية الناشئة. ولقد

(3) نفسه، ص 147

(1) Diawara (Gaoussou) , Aboubakari2, explorateur manding. ,p51

(2) Sissoko(Birama) ,La charte de l'ancien empire du Mali pourrait inspirer les Maliens d'aujourd'hui. In site : http://base.d-p-h.info/fr/fiches/organisme -158.html.consulté le 04-12-2010

(3) تم اكتشاف هذه النصوص القانونية عام 1998م خلال عقد ملتقى نظم في منطقة "كاكان" بغينيا، بمبادرة من الوكالة، الفرنكوفونية عن طريق مركز C. I (consultant international) ومركز الدراسات اللسانية والتاريخية عن طريق الروايات الشفوية .

((Centre d'études linguistiques et historiques par les traditions orales. CELHTO))، وجمعت الباحثين والرواة الشفويين القادمين من السنغال وبوركينا فاسو ومالي، ومن مختلف المقاطعات لجمهورية غينيا. وكان الهدف من هذا الملتقى هو تشجيع التعاون بين الرواة الشفويين التقليديين، والباحثين المعاصرين من أجل الحفاظ على التراث الشفوي الإفريقي. فأخذ الرواة يسردون رواياتهم التي يعرفونها حول القوانين التي سنها سوندياتا. وبذلك تمكن المؤتمر من جمع كل مواد القوانين وعددها 44 مادة.

(4) نيان تمسير جبريل، ماليو التوسع الثاني للماندينغ، ص 135 .

كانت فكرة تنظيم ذلك الاجتماع من اقتراح كبيري الرواة الشفويين الخاصين بسوندياتا كيتا وهما: بالا فاسيكي كوياتي(Bala fasséké Kouyaté)، وكالاجي سونغوي دياباتي(Kaladjé Songhoï Diabaté) بالإضافة حكام الإمارات المندية[1]. لكننا نضن بأن سوندياتا كانت له النية أيضا بعقد هذا المؤتمر، وتزويد إمبراطوريته بميثاق حتى قبل أن يقترح عليه الأمر من طرف هؤلاء الرواة والأمراء، ذلك أن رواة كيرينا يذكرون بأن سوندياتا كان قد أطلع نبلاء مدينة كيتا عندما زارهم من أجل الاستحمام في بحيرة "موكويا - جي" بأنه سيعلن قريبا عن ميثاق أساسي لكل بلاد مندن، وقد ذكر ذلك باللغة المالنكية حـــيث سمـــاه مندن باسيكي كان (Manden bassigui kan)[2]. وانعقد اجتماع كوروكان فوكا سنة 633 هــ/ 1236م، أي بعد سنة واحدة من انتصاركيرينا الشهير، لكننا لم نجد في المصادر الشفوية اليوم والشهر الذي انعقدت فيه. وتشير هذه المصادر إلى أن قرية "كوروكان فوكا" أخذت اسمها من هذا الحدث السياسي والتاريخي الهام، فهي تتشكل من ثلاث كلمات مالنكية هي: كورو وتعني جمعية، كان وتعني اليمين وفوكا التي تعني الفرجة في الغابة[3]. و بهذا تكون هذه الكلمة المركبة تعني (الجمعية التي أدي فيها اليمين). وقد انعقد هذا المؤتمر تحت القيادة السامية لسوندياتا، وكان نائبه هو أخوه غير الشقيق مندي بوري، ومحاط بأربعة من رؤساء قبائل هم : سيي كاماجان كامارا، تابون نغابا فران كامارا، فاكولي كوروما أو(دومبيا) وتاولي تونكارا (وهو الأخ الأصغر لملك نيما وهو نيما موسى تونكارا). حيث يعتبر هؤلاء الرجال من اقرب الناس إلى سوندياتا، باعتبارهم كانوا هم من رافق سوندياتا إلى منفاه بنيما، ودعموه في كل قراراته[4]. ولقد تمخض عن اجتماع كوروكان فوكا أربعة وأربعين قانون أو

---

(5) Diawara (Gaoussou) ,Op.Cit, p51

(1) Youssouf tata cissé et Wa kamissoko ,La grande geste,t2 p 38.

(2) Diawara (Gaoussou) ,Op.Cit, p51

(3) Ibid, p52

قرار[1]. شملت تنظيم السلطة السياسية، وحددت العلاقات الاجتماعية، ونصت على المبادئ الأساسية الموجهة والمنظمة للحياة اليومية في مندن. كما قررت هذه الجمعية اختيار إمبراطور مالي، حيث نودي بسوندياتا رسميا منسا (وتعني ملك باللغة المالنكية)، أو ماغان(أي إمبراطور بلغة السوننكي)، وكان ذلك أول قرار يتخذ في هذا الاجتماع. وإذا أردنا تصنيف قوانين دستور كوروكان فوكا إلى ميادين مختلفة، فإننا نجدها تشمل الميادين التالية:

2. التنظيم الاجتماعي:

إن هذه القوانين كانت عبارة عن مدونة سلوك اجتماعي، وذلك من خلال تنظيمها للحياة الاجتماعية داخل المجتمع المندي الكبير، وكل العشائر المنضوية تحت إمبراطوريته، فلقد قسم المجتمع إلى طبقات على أساس حرفي ومهني، وكل طبقة لها دور خاص ومكانة خاصة في المجتمع[2]. وبذلك فقد تم تقسيم المجتمع إلى الطبقات التالية:

---

(4) تقول بعض الروايات المنقولة بأن هذا الدستور يتضمن 130 مادة، لكنها لم تحتفظ إلاّ بـــ 44 مادة فقط. أنظر: سولومانا كونتي: مذكرة تاريخ مندن القديم و الحديث. In revue électronique : Copyright :N°C, année 1999-2000 .

(1) Centre for linguistic and historical studies by oral tradition (CELHTO), La charte de kurukan fuga ,Aux sources d'une pensée politique en Afrique. Editions l'harmattan, Paris, 2008, p11.

ــ **الرجال الأحرار :**وهم المكونين من 16 عائلة أوعشيرة، والمعروفين بحاملي الجعاب(1)، والتي تعرف عند المندي بمصطلح " ملنديغ - جون - تان - ني - وورو (Manding djon-tan-ni-woro)، والتي تعني مجموعة العشائر الحرة للماندينغ و الإمبراطورية(2).

ــ **المرابطون (أو رجال الدين):** وتضم خمس عشائر، التي يطلق عليها اسم ماندينغ - موري - كاندا – لولو، وتعني (العشائر حامية الإيمان والدين)، وهي عائلات كل من سيسي، بيريتي، توري، ديابي، بالإضافة إلى سيلا أو (كوما)، حيث نصت المادة الثانية من الميثاق على احترامهم وتقديرهم(3).

ــ **طبقة الرواة الشفويين (غريوت Griots):** وينقسمون إلى أربع قبائل كبيرة، وكل منها تتألف من عشيرة أو عدة عشائر تعرف بـــ" غنارة - ناني"(4).

ــ **الطبقة النبيلة:** وتتكون فقط من العائلات المتحالفة مع سوندياتا منذ البداية، وهي عائلات آل كوندي في منطقة دو، آل كوروما، آل تراوري وآل كامارا في مندينغ القديم(5).

ــ **طبقة نياكامالا:** وهي طبقة الحرفيين وأصحاب المهن، ويمكن تسميتهم بـــ"تيريرا" أو " دانيوكو"، وهم أقلية في المجتمع(1). وتنص المادة الثانية من ميثاق كوروكان فوكا على

---

(2) حاملو الجعاب هم حاملي القوس والرماح ، أي المحاربين الذين يدافعون عن حدود إمبراطورية مالي، وهي عائلات تراوري، كوندي، كامارا، كوروما، كاميسوكو، ديالو، دياكيتي، سيدبي، سنغاري، دانسوبا، ماكاسوبا، دياوارا، ساكو، فوفانا،كواتا و ديابي.

(3) Niane Temsir Djibril , Le soudan occidental au temps des grands empires. Présence Africaine, Paris, 1975, p36.

(4) CELHTO , La charte de Kurukan fuga, p42.

(5) Niane Temsir Djibril ,Op.Cit, p36.

(1) Christophe(Daum) ,Les associations de Maliens en France, Édition Karthala, Paris,1998,p69.

إلزام طبقة نياكامالا بقول الحقيقة لرؤسائهم، وأن يكونوا مستشارين لهم، وأن يدافعوا بالقول والفعل عن القوانين والنظام المقام في الإمبراطورية[(2)]. وبالإضافة إلى هذه الطبقات، فقد وجدت طبقة العبيد التي تضم عددا من العشائر. كما تم تقسيم المجتمع أيضا إلى فئات عمرية، حيث ينتمي كل الذين وُلدوا في فترة ثلاث سنوات متتالية إلى نفس الفئة العمرية، وأعطى للفئة العمرية الوسطى(التي تنحصر بين فئة الشباب وفئة الشيوخ)[(3)] حق المشاركة في اتخاذ القرارات المصيرية الكبرى التي تخص المجتمع[(4)].

3. الحقوق والواجبات:

وقد تضمنت قرارات المؤتمر حقوقا وواجبات كل فئات المجتمع المندي. فبالنسبة للحقوق فقد تضمن هذا الدستور حق كل إنسان في الحياة وفي الحفاظ على سلامته الجسدية، بل أنه اعتبر بأن كل مساس بحياة الآخرين فإن عقوبتها الإعدام[(5)]. كما تضمن هذا الدستور إقرارا بحقوق المرأة، فقد نصت المادة 14 منه على عدم إهانة النساء لأنهم أمهاتنا[(6)]،حيث استلهم الدستور هذه المبادئ من الأعراف والأفكار الإفريقية والتي تعطي مكانة مهمة للأم والزوجة والأخت والخالة والعمة، فهي على ما يبدو لم تستورد هذه

---

(2) Kuyaté siriman , La charte de Kurukan fuga. Radio Rurale de Guinée, Atelier régionale de concertation entre traditionalistes Mandingues et communicateurs des Radios rurales. (Kankan du 02 au 12 Mars 1998), p6

(3) وتعرف هذه الفئة بـــ " كانكبي Kangbé "

(4) CELHTO , La charte de Kurukan fuga, p45

(5) Kouyaté Siriman , Op.Cit, p7

(5) CEHLTO , La charte de kurukan fuga,p19

(6) Ibid,p19

المبادئ و لم تكن نتيجة تأثّر بثقافة أخرى. فبهذا الخصوص تنص المادة 11 من الدستور على أنه لا يجب تتبع الزوجة إلى بيت الجيران أو مطاردتها في حالة ما إذا هربت من بيت زوجها[1]. و لم يكتف ميثاق كوروكان فوكا بحماية المرأة فقط، وإنما فتح لها مجالات البروز والمشاركة في الحياة السياسية، حيث تنص المادة 16 من بيان الميثاق على ما يلي:

((إن النساء، بالإضافة إلى انشغالاتهم اليومية، يجب أن يشاركوا في كل شؤون حكمنا))[2]. وهكذا نجد بأن سونددياتا قد أشرك المرأة في النقاش السياسي وفي قضايا الأمة. فلقد كان للنساء في المجتمع المندي جمعيات قوية تعرف بـــ"نياغاموسو" (Niagamoussou)، حيث تستشار النسوة في تقديم رأيهن بخصوص المشاكل التي تواجه القرية ليساهمن في إيجاد الحلول لها[3]. كما حافظ الميثاق على حقوق المسنين، وأوجب احترام كبار السن وتقديرهم[4].

أما فيما يخص الواجبات، فقد اقتصرت على العلاقات الاجتماعية بين الفئات، وحددت واجبات كل فئة مع الآخرين. ذلك أن المادة الثانية من قانون كورروركان فوكا نصت على واجبات طبقة الحرفيين (نياكامالا) والتي تضم الحدادين والنساجين وغيرهم، وهي ضرورة قول الحقيقة لرؤسائهم، وأن يقدموا لهم المشورة للأمة[5]. كما فرض على المجتمع المجتمع المندي طاعة وتقدير واحترام رجال الدين المعروفين بموريكاندا (Morikanda)،

---

(3) Kouyaté Siriman , *Op.Cit,* p7
(4) CEHLTO , La charte de kurukan fuga, p19.
(5) Kouyaté Siriman ,Op.Cit, p7
(6)Ibid,p7
(1)CEHLTO , La charte de kurukan fuga,p19- Kouyaté Siriman : *Op.Cit,* p7

بالإضافة إلى وجوب احترام الرواة الشفويين المعروفين بالجيلي باعتبارهم يشكلون ذاكرة الأمة وتاريخها[1].

4.تنظيم الأسرة والعلاقات الاجتماعية:

لقد اهتم المجتمعون في كوروكان فوكا بالخلية الأساسية للمجتمع وتنظيمها ألا وهي الأسرة، حيث تضمنت قوانين ميثاق مندي نصوصا تخص الأسرة والطفل والعلاقات الاجتماعية. ففيما يخص الأسرة فقد بدأها بتعزيز مكانة المرأة التي تعد عنصر أساسي في المجتمع، فهي الأم والزوجة والأخت والخالة والعمة والجدة، وبذلك فقد حافظ على حقوقها وأجبر الجميع على احترامها كما رأينا. و بما أن الزواج هو أساس تكوين هذه الأسرة فقد حدد ميثاق كوروكان فوكا سن الزواج لكلا الجنسين، فبينما جعل سن زواج الفتاة هو بلوغها[2] فإن الشباب يمكنهم الزواج ابتداء من سن العشرين[3]. وهو السّن الذي تكتمل فيه القوة الجسدية للرجل، كما حدد مهر العروس بثلاثة ثيران يقدم اثنان منها لأبويها وتأخذ العروس ثورا واحدا[4].

وفيما يخص الطلاق، فقد سمح به لكن في حالات محدودة جدّا وهي: العجز الجنسي عند الرجل أو إصابة احد الزوجين بالجنون، بالإضافة إلى الحالات التي يكون فيها الزوج غير قادر على تحمل متطلبات الأسرة. كما حدد ميثاق مالي العلاقات الأسرية بين الزوج و زوجته وبين الأصهار، حيث أوصى بالتسامح كمبدأ للمعاملة بين الأصهار وكذا بين

---

(1) Kouyaté Siriman , Op.Cit, p7

(3) المادة 27 من الميثاق.

(4) المادة 28

(5) المادة 29

الأجداد وأحفادهم[1]. كما جعل مكانة الصهر (والد العروسة) مقدسة وصنفها في مرتبة كلمة الشرف التي يقدسها المنديون. فقد جاء في المادة 19 من الميثاق بأن كل رجل لديه نوعين من الأصهار هما، والد الفتاة التي لم يحصل عليها بعد، والكلمة التي تلفظ بها ولن أن يتراجع عنها[2]. أي انه على كل رجل أن يحترم كلمته مع والد الفتاة التي تقدم لخطبتها، و أن كلامه معه هو بمثابة كلمة الشرف التي تعد مقدسة عند المنديين. ولمعالجة المشاكل الزوجية اليومية، فإن الميثاق وضع نقاطا فيما يخص تعامل الرجل من تتبع زوجته الهاربة إلى بيت جاره، أو إلى بيت زعيم القرية أو رجل الدين أو بيت الصديق أو بيت الشريك في العمل، وهو نفس الأمر الذي ينطبق على الأبناء إذا ما ارتكبوا مخالفة وهربوا من البيت[3]. والمغزى من ذلك هو عدم استعمال القوة لإعادة أحد أفراد العائلة إلى البيت، وكذا إبراز مكانة هؤلاء الناس الذين استجار بهم أحد أفراد العائلة عند المندي، حيث أن شفاعة هؤلاء لا ترد عادة. كما نستخلص من هذه المادة أيضا هوالدعوة إلى التعقل وضبط النفس في أوقات الغضب، وعدم التسرع في رد الفعل وإعطائها فرصة للهدوء ومراجعة الموقف لتفادي التداعيات الوخيمة. وقد خصصت بعض بنود الميثاق للتربية وأولتها أهمية كبرى، فقد جاء في المادة التاسعة منها بأن تربية الأطفال هي مسؤولية كل المجتمع، وأن الأبوّة يشترك فيها الجميع أيضا[4]. وبذلك أشرك جميع أفراد المجتمع في العملية التربوية من خلال إلزام كل واحد بإرشاد الطفل إذا أخطأ، وتأنيبه إذا ما تمادى في

---

(1) المادة 30 .

(2) CEHLTO , Op.Cit,p49.

(3) CEHLTO , Op.Cit, p18

(4) Kouyaté Siriman , Op.cit., p7.

(5)CEHLTO , La charte de kurukan fuga,p49

خطئه. وفي مجال العلاقات الاجتماعية والآداب العامة، فقد وضع ميثاق مندي نصوصا حدد بها المعاملات والسلوكات التي يجب إتباعها بين الناس، ودعا إلى احترام العلاقات الاجتماعية. فلقد ركز سوندياتا على علاقات القرابة والجيرة كأساس للتوافق و الوئام بين أفراد المجتمع والشعب المندي من خلال ما نصت عليه المادة 40 من القانون من ضرورة احترام القرابة والزواج والجيرة[1]. وبذلك اعتبر الجار من أقرب المقربين وفي مترلة القريب من حيث الدم أو القريب من حيث المصاهرة، وهو بذلك يجسد العادات المالنكية المبنية على صلة الرحم وتقديس الجار. فهناك مثل مالنكي يقول: ((إن جارك هو أقرب أقربائك، فعندما يصيبك سوء فهو أول من يجب أن يعلم، وأول من يستطيع مساعدتك))[2]. هذا وقد دعا الميثاق إلى وجوب مساعدة من طلب مساعدتنا[3]، وإلى ضرورة تقدم التعازي إلى بعضنا البعض[4]. وأوصى بعدم الإساءة للعبيد، وضرورة إعطائهم يوما للراحة في الأسبوع، والحرص على أن يعملوا في أوقات معقولة، حيث جاء في المادة 20 من الميثاق: ((نحن أسياد على العبيد ولكننا لسنا أسيادا على الكيس الذي يحملونه))[5]. أما فيما يخص معاملة المرأة المتزوجة التي تخطئ، فقد نص على عدم وضع أيدينا عليها إلا عندما تفشل كل محاولاتنا في جعل زوجها يتدخل في ذلك[6].

أما في مجال الآداب العامة والسلوك الواجب انتهاجه بين الناس، فقد أوصى سوندياتا بجملة من المبادئ والمعاملات الإنسانية، فنجد في المادة 23 من ميثاق مندن نصا يفيد بما

---

(1) Niane temsir djibril , Introduction du livre (la charte de kurukan fuga),p18

(2) المادة 30.

(3) مادة 10

(4) Kouyaté Siriman , Op.cit p8

(5) Ibid,p7

يلي: ((لا تخدعو بعضكم بعضا، واحترموا كلمة الشرف بينكم))[1]. ودعا إلى عدم الاعتداء على الأجانب[2]. وبخصوص هذا البند نذكر الشهادة التي قدمها لنا الرحالة ابن بطوطة فيما يخص احترام الأجانب وحسن معاملتهم ، حيث يذكر بأنه من الأعمال التي استحسنها من أهل مالي قلة الظلم عندهم، وأن سلطانهم لا يسامح أحدا في شيء منه، وهذا ما أدى إلى استتباب الأمن في بلادهم، فلا يخاف المسافر إليها ولا المقيم فيها من سارق ولا غاصب، وأنه حتى وإن مات ببلادهم أحد من البيضان فلا يتعرضون لأمواله ولو كانت القناطير المقنطرة[3]. ودعت قرارات اجتماع كوروكا فوكا الشعب المالي إلى التواضع وعدم الغرور ، لأن الغرور هو رمز الضعف بينما التواضع والإنسانية هي رمز القوة[4]. كما أوصى الميثاق بحسن معاملة الرسل والمبعوثين والمكلفين بمهمات، وأعطى لهم الآمان، حيث نصت المادة 25 منه: ((إن المكلفين بالمهمة لا يخشون شيئا في مندن)).

هذا وقد أعطى دستور مالي للمنديين طريقة التعامل مع العدو وأوصى المحاربين بالنبل والشرف حتى مع أعدائهم، إذ نجد في المادة 32 من القانون: ((أقتلوا عدوكم لكن تنكّلوا به)). كما شجع على العمل وحدث عليه واعتبره الوسيلة الأساسية للرقي والازدهار. فسوندياتا حسب عدة رواة كان يشيد ويمجد أصحاب المهن، وهي المهن التي بدونها لا يستطيع المجتمع أن يوجد، كما كان يشجب الكسل[5]. لهذا تذهب المادة السادسة من الميثاق إلى أنه لربح معركة الرخاء فإنه تم إنشاء نظام عام للمراقبة من أجل الكفاح ضد

(1) Kouyaté Siriman : Op.cit‹p8 ـ

(2) المادة 24

(3) رحلة ابن بطوطة، ص690

(4) المادة 22

الكسل والخمول تعرف بكونوغبان ولو (Konogbène wolo) والتي تعني (عالم المراقبة من أجل النضال ضد الكسل والخمول)[1]. ويقوم هذا النظام الخاص على المراقبة العامة من أجل محاربة الكسل من فئة معينة من السن التي توكل إليها مهمة مراقبة العمل داخل الحقول، وتعرف بباراتيكي (Baratigui)، والتي تبحث عن أولئك الناس الذين يأكلون على حساب الآخرين (أي الذين يتقاعسون عن العمل) ومن ثم إعادتهم إلى العمل في الحقول[2].

5. تنظيم الملكيات:

لقد خصصت المواد من 34 إلى 39 من الميثاق الذي ظهر في كوروكان فوكا للتشريعات الخاصة بتنظيم الملكيات المنقولة والعقارات، وقد حددت المادة 34 منه الطرق الخمس للحصول على ملكية ما، وهي: الشراء، العطاء(الهبة)، التبادل والوراثة. وأي صيغة أخرى للملكية غيرها تعد غير شرعية وباطلة [3]. أما إذا وجد أحدهم شيئا بدون مالك معروف فإنه لا يصبح ملكا له إلا بعد أربعة أعوام[4]. وبخصوص السرقة من أجل سد رمق الجوع فقد أجازها الميثاق بشرط أن لا يملك السارق حين يسرق شيئا في كيسه أو جيبه، أي لا يجب أن يأخذ معه شيئا من الحقل[5]. أما بالنسبة لملكية الحيوانات، فإنه أقرّ بأنه عندما تلد العجلة فإن مولودها سيكون ملكا للحارس، بينما عندما تبيض الدجاجة فإن الحارس لا يأخذ سوى بيضة واحدة من كل

(1)Kouyaté Siriman , Op.cit p7
(2)Niane temsir djibri ,Op , Cit, p 20 .
(3) CEHLTO , La charte de kurukan fuga, p49 - Kouyaté Siriman , Op.cit., p9.
(4) CEHLTO : La charte de kurukan fuga,p49
(5) المادة 35.
(6) المادة 36.

أربع بيضات حسب ما تنص عليه المادة34. وإذا أراد أحدهم أن يبدل ثورا فإن كل ثور يبدل بأربعة كباش أو أربع عنـــزات(1). كما حدد هذا الفصل واجبات الملاك بالنسبة لحيواناهم، بحيث تنص المادة 39 من الميثاق على أن الحيوانات الأليفة يجب أن تربط وقت الزرع وتطلق بعد جني الثمار، وقد استثنى من ذلك القطط والكلاب والبط والأبقار(2).

6. حماية البيئة:

كان للبيئة نصيب وافر من اهتمامات سوندياتا، وخصص لها ميثاقه عدة مواد للحفاظ عليها، وخاصة الغابات التي تنتشر بكثرة في مرتفعات ماندينغ، وتشكل البيئة الأساسية للمالنكي، حيث تنص المادتين 40 و41 من القانون المنبثق عن اجتماع كوروكان فوكا على أن الغابة هي أغلى ما يملكه المندن، وبالتالي أوصى بوجوب حمايتها والمحافظة عليها من طرف جميع السكان من أجل سعادهم. كما شدد كثيرا على الاحتياطات الواجب مراعاها في حالة إشعال النار في الغابة لسبب من الأسباب، حيث جاء في المادة 41 بأنه قبل إشعال النار في الغابة لا يجب أن ننظر إلى الأرض، وإنما يجب رفع رؤوسنا إلى قمة الشجرة(3). وهذا من اجل إدراك قيمة الشجرة وجمالها، وبالتالي يحث هذا الدستور على ضرورة منح الإنسان الذي يريد إشعال النار في الغابة الوقت لمراجعة قراره، ومعرفة خطورة الأمر الذي يقدم عليه. أما فيما يخص الحيوانات فقد دعا الميثاق إلى ضرورة ربط الأليفة منها في أوقات الزرع ولا يطلقونها إلا بعد انتهاء موسم

---

(1) المادة 95.

(2) CEHLTO , La charte de kurukan fuga, p49.

(3) Kouyaté Siriman ,Op.cit., p9.

الجني [1]. وهذا حتى لا يتسببون في إفساد الزرع و المحاصيل الزراعية، ويستثنى من هذه التعليمة كل من الكلاب والقطط والبط والدواجن[2]، حيث لا يخضعون لهذه التدابير وذلك ربما لكونها حيوانات تعيش على التقاط غذائها بنفسها، ولا تتسبب في إفساد الزرع. أما بالنسبة للكلاب فغنهم يحتاجون إليها طليقة حتى تقوم بمهمة الحراسة.

7. النظام السياسي:

لقد سطّر اجتماع كوروكان فوكا باعتباره جمعية تأسيسية أو (جبارا Djbara) بالمالنكي، مبادئ الحكم والإدارة لإمبراطورية مالي، والذي جعل منه نظاما ملكيا وراثيا يكون الملك فيه لسوندياتا ـــ الذي لقب بمنسا(أي الإمبراطور) ـــ ولأبنائه وأحفاده من آل كيتا من بعده. كما نصت بنوده على وجوب اتخاذ أمراء المندي من آل كيتا زوجاتهم الأولى دائما من بين نساء عشيرة كوندية، وهذا تخليدا لذلك الزواج التاريخي الذي بين والد سوندياتا ناري فاماغان بسوغولون بيريتي والدة سوندياتا والتي تنتسب لآل كوندية[3]. ولقد حافظ دستور مالي الجديد على التقاليد الإفريقية القديمة التي تجعل الشقيق يخلف شقيقه في الحكم، بالإضافة إلى احتفاظ المنسا بمنصب القاضي الأول في البلاد، على اعتبار أنه رب العائلة والرعية. لهذا نجد أن ملوك مالي من آل كيتا كانوا يخاطبون من طرف شعوبهم بكلمة "مغا منسا" والتي تعني أبي الملك[4]. وتحدد المادة 12 من قانون كوروكان فوكا شروط انتقال الحكم من ملك ميت إلى ملك آخر، فرغم أن

---

(4) Ibid, p9
(1) Kouyaté Siriman ,Op.cit., p9.

(3)نيان تمسير جبريل، مالي والتوسع الثاني للماندينغ، ص 145.
(4) نفسه، ص 145.

وراثة الحكم عند آل كيتا تتم بطريقة أبوية[1]، إلا انه لا يجب أن يعطى الحكم إلى الإبن في حالة وجود أحد أبائه حيا[2]. أي أنه لا يمكن توريث ابن الأخ طالما أن أباه مازال حيا، ولا يمكن توريث الإبن طالما أن عمه على قيد الحياة، كما يمنع إعطاء الحكم للطفل القاصر الذي لم يبلغ سن الرشد[3]. ونشير هنا إلى أن سونددياتا كرس التقاليد المتبعة في إفريقيا الغربية فيما يخص نظام الحكم والتداول على السلطة وكذا صلاحيات الملك،حيث كانت عملية اختيار الملك الذي يرث العرش تتم من طرف العائلة الملكية، والملك الجديد لا يتولى مهامه رسميا إلا بعد إجراء جملة من الطقوس الضرورية لذلك. كما أن سلطة الملك كانت تخضع لشيء من الرقابة البرلمانية، من خلال تواجد مجلس يشبه البرلمان مكون من الوزراء والنبلاء معينين بطريقة وراثية، بالإضافة إلى رجال الدين ورؤساء بعض العائلات [4]. وبذلك يكون سونددياتا قد أسس للنظام البرلماني في إفريقيا، وابتعد بذلك عن النظم المطلقة المتبعة في ممالك السودان الغربي آنذاك. حيث نجد في المادة 42 من ميثاق مندن ما يشير إلى وجود مجلس أو برلمان يمثل صوت الشعب، والذي ذكر بالتجمع الكبير، وتنص المادة المذكورة على أن الشعب يكتفي بممثليه الشرعيين في هذا التجمع[5].

(1) و هذا خلاف ملوك غانة الذين كانوا يورثون ابن الاخت في الحكم، حيث يقول عنهم البكري،(المصدر السايق،ص175):((و تلك سيرتهم و مذهبهم أن الملك لا يكون إلا في ابن أخت الملك لأنه لا يشك فيه أنه ابن اخته و يشك في ابنه))

(2) Kouyaté Siriman , Op.cit., p7- CEHLTO , La charte de kurukan fuga,p48

(3) Kouyaté Siriman : *Op.cit.,* p7

(4) Delafosse(Maurice) , Les civilisations Négro-africaine. Librairie Stock, Paris, 1925, p92

(5)Op.Cit ; p9 CEHLTO :

وفي الأخير اختتمت مواد الميثاق بأحكام نهائية تُذَكّر بضرورة تطبيق ما جاء في نصوصه، وتحذّر من العقاب كل من يخالفها عبر كامل التراب المالي[1]. وبذلك أعطت مواده صفة الإلزامية، وجعلت منه الدستور الوحيد في أرجاء الإمبراطورية. وبهذا يكون سوندياتا أول ملك سوداني استطاع أن يوحد إمبراطورية كلها، بجميع إماراتها، ومختلف شعوبها وعشائرها، حول دستور واحد تذوب فيه كل الاختلافات التشريعية، وتنسجم فيه جميع تقاليد ومبادئ الإمبراطورية، وتخضع له جميع الطوائف والعشائر والطبقات. كما يكون سونديانا قد اقترب بذلك كثيرا إلى مفهوم الدولة الوطنية، وهو في النصف الأول من القرن الثالث عشر للميلاد/السابع للهجرة. حيث ينسب الرواة الشفويون لسونديانا تصريحا يكون قد أدلى به أمام الجمعية التأسيسية التي دعاها إلى كوروكان فوكا من اجل المصادقة على الميثاق بعد تعديلهن جاء فيه: ((الآن، وبعد أن أصبحنا أسيادا لقَدَرنا، سوف نؤسس وطننا على أسس متينة وعادلة، ومن أجل هذا علينا أن نسن القوانين التي لا بد على الشعب احترامها وتطبيقها))[2]

ب.التنظيم الإداري للدولة:

قسم سونديانا الإمبراطورية إلى نوعين من المقاطعات، وهي:

1. تلك التي انضمت إلى سونديانا منذ البداية وبمحض إرادتها، وهي المقاطعات التي احتفظ ملوكها بألقابهم كملوك[3] مثل ميما وكومبي صالح، حيث يذكر العمري بأنه ليس في مملكة مالي من يطلق عليه اسم ملك إلا صاحب غانة، وهو كالنائب له وإن كان

---

(1) Kouyaté Siriman ,Op.cit., p10.

(2) Youssouf tata cissé et Wà kamissoko, La grande geste du Mali, tome2, p39.

(3) نيان تمسير جبريل:المرجع السابق، ص 145.

ملكا[1]. بينما كانت إمارة ميما هي من احتضنته في صباه، واتخذ منها منفى له، وجهّز جيشه لمحاربة الصوصو حسب الروايات الشفوية[2].

2. أما النوع الثاني من المقاطعات، فهي تلك التي انضمت عن طريق الفتوحات العسكرية، والتي كان يعين فيها حاكما أو فران (Faran) إلى جانب الرئيس التقليدي[3]، لكنها حافظت على استقلال داخلي ملحوظ[4]. وبذلك يكون سوندياتا قد شكل نظاما إداريا فيدراليا مكونا من عدد كبير من الإمارات[5] والحاميات العسكرية المكونة من الجنود المندينكا لضمان الأمن، ولقمع أي ثورة أو انتفاضة محتملة[6]. وفي نفس الوقت نجد أن سوندياتا قد حافظ على الطابع المركزي للدولة من خلال تعيين أفرادا من عائلة كيتا على هذه الإمارات والممالك برتبة "فاربا" أو "فاران"[7]. وتتخلص مهمة الفاربا في السهر على على حفظ الأمن والنظر في الأمور الإدارية، ويساعده في عمله كاتب ينفذ أوامره[8]. ولقد حاول سوندياتا أن يقيم صلات وثيقة بين مختلف العشائر المندية والعشائر المنتمية لأعراق سودانية أخرى، ويحدث انسجاما بينهما. كما أدمج تلك العشائر في الدولة المالية

(1) مسالك الأبصار، الجزء الرابع، ص 110.

(2) Youssouf tata cissé, Op Cit, p39.

(3) نيان تمسير جبريل:المرجع السابق، ص،146.

(4)Janson (Jan), Epopée, histoire, société, Le cas de Soundjata, Mali et Guinée, p85,

(5)نظم سوندياتا إمبراطورية مالي لا مركزيا بحيث قسمها إلى 400 مدينة، و إلى 20 إمارة، وكل إمارة مقسمة إلى مقاطعات، وكل هذه الكيانات الإدارية كانت مسيرة من طرف سلطات دينية وسياسية مسؤولة أمام الملك وتعرف بالفاربا. (Tidiane N'diaye :La grande marche des peuples noirs.)

(6) Panhuys(Henri) , La fin de l'occidentalisation du monde. Editions l'harmattan, Paris 2004, p319.

(7) Trimingham (Spencer) , The history of islam in West Africa.p76.

(8) الشكري أحمد:المرجع السابق، ص 190 ـــ السعدي (عبد الرحمان): تاريخ السودان، ص10 .
Delafosse(Maurice) , H S-N,t1,p160

الكبرى، فنجده يمنح قبائل السومونو والبوزو (وهي من العشائر المندية) لقب سادة المياه، من خلال إشرافهم على الملاحة في النيجر. كما قام بتوزيع قبائل الصوصو على الطوائف الحرفية، واعتبر أقاليمها من أملاك الإمبراطورية[1]. كما قسم سوندياتا الإمبراطورية إلى منطقتين عسكريتين كبيرتين، شمالية وجنوبية يشرف عليهما قائدان يخضعان لأوامر سوندياتا شخصيا، فكان قائد الناحية الشمالية يسمى"سنكار - زوما"، أما قائد الناحية العسكرية الجنوبية فيسمى "فاران - سورا"، وكل واحد من هؤلاء القادة يخضع له عدد من الضباط وعدد من الكتائب، والجنود[2]. وكان الجيش مكون من طبقة المحاربين المنديين المعروفين باسم كالا - تيغي(Kala – tigui)، والذين يشكلون ارستقراطية عسكرية مميزة بنظامها التربوي الصارم المرتكز على الصبر والجلد، حيث كان أفراد هذه الطبقة تتدرب على التأقلم مع الحياة الريفية الصعبة منذ بلوغهم سن السابعة من العمر، وتستمر إلى غاية سن العشرين، يجتاز خلالها هؤلاء الشباب عدة مراحل من الصعاب والتمرينات الشاقة، يثبتون خلالها قوة صبرهم وجلدهم، كما يتعلمون المصارعة والصيد والقنص، وتنتهي العملية بالاختتان الجماعي في سن الثامنة عشر أو العشرين، بعدها يصبح الشاب رجلا قادرا على الحرب والدفاع عن قبيلته ووطنه، كما يحق له بعد ذلك ارتداء لباس الرجال وهو القبعة والقميص والسروال، كما يصبح ملزما بالاستجابة لنداء الملك في حالة التعبئة للحرب، لكنهم لم يكونوا ملزمين بالمكوث داخل الثكنة[3]. وبالإضافة إلى إلى الجيش الملكي فقد أحاط سوندياتا نفسه و دولته بمجموعة من الأسر المخلصة والمقربة

(1) نيان تمسير جبريل: المرجع السابق، ص 145.

(2) Niane temsir djibril ,Le soudan occidental au temps des grandes empires. p120.
السعدي: المصدر السابق، ص 11

(3) p121 Niane temsir djibril ,Op.Cit,

منه، مثل أسرة توري، سيسي وبيريتي، وهي عائلات تتميز بالإضافة إلى الإخلاص لسوندياتا وعائلته، بالثقافة والعلم(1).

أما فيما يخص النظام القضائي فيبدو أن سوندياتا كان يتولاه بنفسه، إذ كان يمثل القاضي الأول في البلاد، لهذا فلقد كان يمارس القضاء من خلال المقابلات اليومية مع رعيته، وخلال هذه المقابلات كان يستمع بنفسه لشكاويهم ضد أعوانه وممثليه في مختلف الإمارات والمقاطعات، وكذا ولاته الذين عينهم على الأقاليم، حيث كان يتخذ القرارات الفورية، وكانت أحكامه إلزامية ولا تقبل النقض ولا الاستئناف(2).

ج: محاربة الرق:

يذكر الإدريسي (ألف كتابه سنة 548هـ/ 115 م) بأن أهل سلى وتكرور وغانة كانوا يغيرون على أرض لملم ويسلبون أهلها ويجلبوهم إلى بلادهم، فيبيعوهم إلى التجار الداخلين إليهم، فيخرجهم التجار إلى سائر الأقطار(3). كما ذكر ابن سعيد الذي جاء من بعده بأكثر من سبعين سنة (ألف كتابه بين 625 و640 للهجرة/1228 و 1243 ميلادي) بأن أهل ملم يعرفون من خلال الرقيق في بلاد المغرب(4). وبذلك نستنتج من خلال هذين النصين بأن تجارة الرقيق كانت منتشرة في بلاد مندي، وبأن السودانيين أنفسهم هم من كانوا يغيرون على سودانيين آخرين مثلهم ويبيعوهم إلى تجار الرقيق. وإذا علمنا بأن أهل سلى وتكرور وغانة كانوا مسلمين في الفترة التي كتب فيها الإدريسي،

---

(4) Panhuys(Henri) ,Op.Cit p319,

(1) Sow(Amadou aliou) ,La Mauritanie mon pays natal. Editions l'harmattan, Paris, 2003, p26,

(2) المصدر السابق، ص 33.

(3) كتاب الجغرافيا، ص ص 91 و92.

فإن هذا يدل على أن المسلمين السودان كانوا يغيرون على أهل لملم باعتبارهم كفار يجوز سبيهم. وبما أن الفترة التي كتب فيها ابن سعيد تتزامن مع جزء من الفترة التي حكم فيها سوندياتا إمبراطورية مالي[1]. فإن ذلك يبين بأن هذا الأخير يكون قد عاصر فترة استرقاق الزنوج من أرض اللملم أو غيرها، وبيعهم إلى تجار المغرب، فلقد كانت ظاهرة القبض على أشخاص أحرار وتحويلهم إلى عبيد وبيعهم في أسواق النخاسة منتشرة كثيرا في بلاد الماندينغ،[2] وكان بعض قادة سوندياتا المقربين يمارسون هذا العمل، حيث تذكر الروايات الشفوية المنقولة بأن القائد تيراماكان قبض بنفسه على عدد كبير من العبيد، وأن فاكولي دومبيا كان يملك في إمارة سولون(Solon) الواقعة على الضفة اليمنى للنيجر، بلدا بأكمله للعبيد يسمى دوندوكو (Doundougou) وكان يبيع معظم أولئك العبيد لشعب الماركا من السوننكي مقابل الملح. وكان أهل فاكولي وأتباعه عندما يزورون مدينة دوندوكو، فإنهم يضعون ملاجم على أفواه من يجيدونهم في طريقهم مثل الملاحم التي توضع في أفواه الخيول والجمال، ثم يأخذونهم إلى بلاد الماركا أو إلى منطقة الساحل في

(1) لقد حكم سوندياتا إمبراطورية مالي بين سنتي 1236 و 1255 ميلادي، بينما ألف ابن سعيد كتابه بين 1228 و 1243 م.

(2) لقد كانت عملية صيد العبيد تكتسي اهمية قصوى بالنسبة لممالك وامبراطوريات المندي(غانة، مالي،الصوصو) إلى درجة أن المهمة الاساسية التي كانت توكل لجيوشها هي شن غارات من أجل القبض على العبيد. Meillassoux (Claude), Rôle de l'esclavage dans l'histoire de l'Afrique occidentale.In revue Anthropologie et societés,Volume2,Numéro1,1978,p118 dans site web :http://id.erudit.org/iderudit/00875ar

(3)Youssouf tata cissé et Wa kamissoko ,La grande geste, tome 1,p203

الشمال من أجل مقايضتهم بالملح الذي يجلبونه إلى فاكولي[1]. كما أن العشائر المندية في عهد سوندياتا أو من سبقه على عرش مندي، كانت تقوم قوتهم على عدد العبيد التي يملكونها والمعرفون بديون (Dyon) حيث كان رؤساء العبيد التابعين لكل عشيرة والملقبون بديون - سونديجي (Dyon – Sondidji) يلعبون دورا أساسيا في تقوية العشيرة، ذلك أن العبد من المندي يصبح حرا بعد ثلاثة أجيال، مما يعطي للعشيرة التي كانت تملكه قوة إضافية[2]. وبالتالي فإن انتشار العبودية في بلاد مندي كان مدفوعا بأسباب اقتصادية واجتماعية وسياسية، وبذلك أصبح الإنسان المندي الضعيف يقع تحت نير عبودية رجل مندي آخر أقوى منه. إن هذه الوضعية لم تكن لترق سوندياتا الذي كان يسعى إلى توحيد جميع بلاد مندن، وهو بحاجة لكل أبنائه أحرارا ومتآخين وسواسية. لهذا فبمجرد أن عين كأول منسا لإمبراطورية مالي، صرح سوندياتا في خطابه الشهير قائلا: ((إن الحرية للجميع، فلنعش في تضامن وفي احترام لبعضنا البعض، والعظمة لمندن ... فمن أراد التجارة فليتاجر، ومن أراد الزراعة فليمارسها، إن المندن يسع الجميع.))[3] لهذا كان على سوندياتا أن يعلن عن قرار جريء لم يسبقه إليه أي أحد من ملوك إفريقيا أو العالم من قبل، وهو الإعلان عن إلغاء العبودية ومنعها في كل مندن، ثم وسعها بعد ذلك إلى كل المناطق التي كانت تابعة للإمبراطورية المالية[4]. لكن لا بد أن نشير إلى أن سوندياتا لم يمنع

---

(2) Monteil(Vincent) ,L'islam noir, p91

(2)youssouf tata cissé et Wa kamissoko ,La grande geste, tome 2,p28

(3)Op.Cit,p25.

(4) Tidiane N'diaye :Op.Cit, p32.

اتخاذ العبيد وكسبهم لاستخدامهم كخدم في البيوت، لكنه منع تجارتهم منى خلال أسر أشخاص من مندي بيعهم إلى التجار البربر أو العرب، أو مقايضتهم بالملح أو أي سلعة أخرى، وجعل عقوبة من يقوم بذلك الإعدام[1]. كما حاول سوندياتا أن يعيد للعبيد هيبتهم الاجتماعية بعدما أعاد لهم حريتهم، وذلك من خلال تعيين أحد رؤساء العبيد المعروف بجومبا (Djomba)[2] كمبعوث وممثل شرعي له في إقليم واسولون الذي كان يسكنه الفلاته، وزوده بصلاحيات وسلطات كبيرة تمنحه الحق في وضع الحديد لكل الفلاته الذين ينطقون بكلمة جون (Djon) والتي تعني عبد، كما أوكلت له مهمة قتل كل من ضبط وهو يقبض على شخص بغرض استعباده أو ثبت عنه أنه استعبد شخصا. وقد طبق الجومبا هذه التعليمة بصرامة كبيرة إلى درجة أنه لقب بـــ" تاغان منسا " أي ملك منطقة تاغان[3]. كما كلف سوندياتا قائديه الشهيرين، وهما فاكولي دومبيا، وتيراماكان مباشرة بعد معركة كيرينا بتوجيه جيشيهما نحو أقاليم البمبارا والفلاته في مناطق مثل جيتومو، بانان، بايا، غوانياكا، غانادوكو، بانينكو، كورولاميني وغيرها، حاملين معهم كلمة النظام والتي تمثل شعار حرب سوندياتا وهدفها وهي " الحرية للجميع، إلغاء العبودية، منع بيع الناس " وأعطاهم تعليمات بضرب النخاسين والمستعبدين بدون رحمة، وأينما وجدوهم وأسرهم بعدما يتم تحرير عبيدهم[4]. كما زود سوندياتا مدينة دوندوكو بإدارة مستقلة، وخلص سكانها من سيطرة أسيادهم[5].

د. تنظيم الاقتصاد:

---

(1) جومبا هو لقب لرئيس العبيد و ليس اسم شخص.

(2) Youssouf tata cissé et Wa kamissoko :Op.cit,p29.

(3) Ibid,p25.,p 30

(4) Ibid, p25.

إن التنظيم الإداري الذي وضعه سوندياتا كيتان ساهم بقدر كبير في تنظيم الاقتصاد ونجاعته، حيث عمد إلى توظيف ثروات كل منطقة من مناطق الإمبراطورية في الرفاهية الاقتصادية للدولة، واستغلالها بطريقة عقلانية وبراغماتية. فالغرب خصص لإنتاج المواد الغذائية والزراعية، والوسط خصص لإنتاج الحديد، بينما كان الشمال يزود الإمبراطورية بالملح، ويبقى الجنوب وغاباته مصدرا لجلب البطاطا، ونواة الكولا، ومختلف الدرنيات(1). ولقد كانت إمبراطورية مالي تعاني كثيرا من نقص الملح، وكانت هذه المادة تتواجد في منطقة الساحل بالشمال أين تسيطر على مناجمه القبائل البربرية. كما انه بعدما ألغى سوندياتا تجارة الرقيق، فإنه لم يعد ممكنا مقايضة هذه المادة بالعبيد، لذلك كان عليه أن يستغل ثروات البلاد والبحث عن مصادر أخرى للتجارة بها ومقايضتها بالملح عوض العبيد. ولما كانت أرض مالي غنية بالذهب، فقد دعا سوندياتا في خطابه الذي ألقاه عند الإعلان عن ميلاد الإمبراطورية إلى ضرورة البحث عن مناجم الذهب واستخراجه من أرض مندن التي تزخر به(2).أما بالنسبة لمعدن الحديد، فقد أوكل مهمة استخراجه وصناعته إلى الأسرى الصوصو المعتقلين خلال حرب كيرينا، حيث أمر سوندياتا بتسخيرهم للخدمة في الأفران الكبرى للحدادة والتعدين التي تعد مهنتهم الأصلية، وذلك تكفيرا عما قاموا به ضد مالي، لكنه حرص على أن يعاملوا معاملة طيبة للملتزمين بعملهم(3).

---

(1) Rosa Amelia plumelle - Vribe : Traite des blancs traite des noirs : Aspects méconnus et conséquences actuelles. Editions l'harmattan,(paris, 2008, p50).
(2) Youssouf tata cissé et Wa kamissoko :La grande geste, tome 2,p28
(3) Ibid,p28

وقد ركز سوندياتا كثيرا على تنشيط التجارة التي اعتبرها الشريان الحيوي للأمة من خلال تنشيط تجارة الذهب[1] وتنظيم التجارة النهرية، لكنه وجه اهتماما خاصا للنشاط الزراعي، حيث أدخل إلى مالي زراعة القطن والفستق وشجرة البابايا أو المانغو[2].كما عرفت الإمبراطورية إنتاج الدخن، السورغو والأرز بكميات كبيرة جدا[3]. هذا وقد اهتم سوندياتنا كثيرا بتطوير أساليب تربية المواشي والرعي[4]. وهكذا فقد عمل سوندياتا طوال فترة حكمه التي دامت 25 سنة حسب ابن خلدون[5]، وواحد وعشرون سنة حسب دولافوس[6]. على تأسيس إمبراطورية واسعة، وتدعيم أركانها، وتعزيز الوحدة الوطنية، و حماية ترابها وشعبها. كما حرص على إسماع صوت مالي الجهات الأربعة من العالم كما جاء في خطابه الشهير الذي ألقاه بعد تنصيبه منسا لكل مندن[7]، وكان له الفضل في ارتقاء عائلة كيتا عندما حصر الحكم في مالي على ذريته من آل كيتا. وبهذا يكون قد حجز لهذه العائلة مكانة في تاريخ مملكة مالي الإسلامية، وسمح لأبنائها بصناعة مجد لم يكن حكرا على مملكتهم، وإنما بقي ذخرا لكل الأفارقة السود فيما وراء الصحراء،

---

(1) Al hassane chérif :L'importance de la parole chez les Mandingues de Guinée. Etudes Africaines, Collection dirigé par Denis pryer. Edité par l'harmattan, paris, 2005, p29.

(2) Tidiane N'diaye : Op.Cit, p32ـ

(3) Rosa amelia plumelle – Vribe : Op.Cit, p51

(4) Tidiane N'diaye : Op.Cit, p32

(5) ــ العبر، مج6،ص267

(6)يحددها دولافوس بواحد و عشرين سنة على اعتبار أن بداية حكمه حسبه كانت في عام 1234م / 631هــ، أي عندما استدعاه نبلاء مندن لقيادتهم في الحرب ضد مملكة الصوصو . بينما توفي حسبه سنة 1255م/652هــ. (Haut Sénégal-Niger, t2, p28)

(4) Youssouf tata cissé et Wa kamissoko :La grande geste, tome 2,p28

ذلك أن هذه العائلة ورغم رحيل زعيمها الأكبر سوندياتا، إلا أنها خلفاءه من بعده استمروا في توطيد أركان الدولة وتوسيع حدودها، وإرساء دعائمها إلى أن بلغت أوجها، إلى غاية بداية القرن الثامن للهجرة/14م.

الفصل الثالث

خلـــفاء ســـونDياتا ودورهـــم

الفصل الثالث

خلــفاء ســـوندياتا ودورهـــم

لم تكن إمبراطورية مالي التي شيّد أركانها سوندياتا في الجزء الغربي من بلاد السودان، دولة الأشخاص التي تعمر بعدد سنوات حياة زعيمها، وإنما كانت دولة مؤسسات، تمكن من خلالها سوندياتا من إقامة مؤسسات إدارية ودستورية ظلت قائمة بعد رحيله، وسمحت لخلفائه من بعده استكمال عملية البناء والتشييد، والمضي بهذه الإمبراطورية الفتية قدما حتى بلغوا بها أرقى درجات التطور و الازدهار.

المبـــحـــث الأول: خلفـــاء سوندياتا

أولا: وفاة سوندياتا:

لقد بقي يشوب نهاية سوندياتا الكثير من الغموض، وهو ما فتح المجال لظهور عدة روايات وأساطير احتفظت بها الروايات الشفوية المحلية التي راحت تبحث عن تفسير مقنع عن الاختفاء المفاجئ والغامض لسوندياتا. ورغم أن بعض هذه الروايات تخبرنا بأن سوندياتا مات ميتة طبيعية، وأنه عندما كان يحتضر ترك وصية لقائديه تيراماكان وفاكولي يخبرهما فيها بأن لديه زوجة ثانية كان قد أسرها خلال غزواته باتجاه الجنوب تسمى" تاسوما كونينافي (Tassouma goninafé) والتي كانت حبلى عندما كان على فراش الموت، لذلك أوصاهما خيرا بالولد الذي ستنجبه ولا بد أن يعامل على أنه ابن زعيم

مندن[1]. وتقول الرواية بأن سوندياتا دفن بمقبرة في داكادجالان(كانغابا)، إلا أنها لا تحدد بالضبط مكان وجودها[2]، فعدم وجود القبر الذي دفن فيه سوندياتا فتح المجال واسعا أمام الرواة الشفويين لسرد حكايات وفرضيات عديدة ومتضاربة لا يسعنا أن نسردها لتعددها وتشعبها. وإن كان أغلب المؤرخين يرجعون عدم وجود قبر معلوم لجثمان سوندياتا إلى بعض التقاليد والأعراف السودانية في بلاد مندن، والتي تمنع إظهار مكان تواجد قبور ملوكهم وعظمائهم خشية نبشها من طرف الأعداء، أو تقديسها من طرف الرعية[3]. إلا أن آخرين يرجعون عدم وجود قبر لسوندياتا إلى كونه مات غرقا في مياه السنكراني، وذلك في مكان يبعد بعشر كيلومترات عن نياني وفي الجهة المقابلة لها في مكان يسمى سونجاتا دون (Sundjatadun) والتي تعني بلغة المالنكي "المياه العميقة لسوندياتا" والذي ما زال حسبهم أحفاد سوندياتا يزورونه دوريا للتبرك به وتقديم القرابين[4]. بينما يعتقد آخرون بأن سوندياتا قُتل سنة 1255للميلاد عن طريق الخطأ بواسطة سهم أصابه خلال حفل أقيم بعاصمته كنغابا، وأن قاتله غير المتعمد يدعى محام بولي(Maham Boli)

---

(1) ونشير إلى أن تاسوما كونينافي قد أنجبت بعد وفاة سوندياتا ولدا ذكرا سمي" بيمبا كاندا (Bémba kanda) والذي يعني (المحمي من طرف الجميع).

Youssouf tata Cissé et Wa kamissoko : La grande geste du Mali, t 2, p123

(**2**) Youssouf tata Cissé et Wa kamissoko : La grande geste du Mali, t 2, p123

(3) نيان تمسير جبريل**:** مالي والتوسع الثاني للماندينغ، ص 149

(4) Panhuys(Henry) :La fin de l'occidentalisation du monde,65

ـــ نشير إلى أن آل كيتا المقيمين في نياني قد أقاموا على ضفتي نهر السنكراني مكانا للتعبد، مازالوا يلتقون فيه إلى اليوم لتقديم الذبائح من الدجاج والخرفان الماعز والبقر، كما أقام سكان بعض القرى أماكن عبادة تخليدا لذكرى سوندياتا، وهناك شعائر معروفة تقام كل سبع سنوات في كنغابا حول الموقع المقدس الذي يفترض أنه مدفون فيه سوندياتا يسمى"كامابلون" و الذي يقال انه يحوي بعض الأشياء التي كان يستعملها سوندياتا (نيان تمسيرجبريل**:** المرجع السابق،ص 149)

وهو من الفلاته الذين هاجروا من منطقة فوتا جالون إلى كنغابا[1].وتذهب الروايات التي ما يزال يحتفظ بها الكوياتي وحدهم، والتي يرويها لنا عميد الرواة الكوياتي وهو الجيلي "مامادو كوياتي" إلى أن قبر سونديياتا يوجد في مكان ليس ببعيد عن مدينة نياني ـــ نياني في منطقة تدعى بالندوغو (Balandougou) والمعروفة باسم قرية السّد، ولكنهم يقرّون في نفس الوقت بأن أسباب الوفاة تبقى مجهولة [2].

ومهما يكن من أمر فإن وفاة سونديياتا كادت أن تدخل إمبراطوريته الناشئة في مأزق حول خلافته على العرش، فرغم أن التقاليد المالنكية تقر بأن ولي العهد يكون الشقيق الأكبر للملك الراحل، إلا أنه يبدو بأن أخ سونديياتا غير الشقيق وهو "دانكران توماني" لم يكن ليحظى بثقة الشعب المالنكي رغم تمسك جماعة من عائلة كيتا به، وذلك نظرا لموقفه المتخاذل عندما غزا ملك الصوصو بلاد مندن [3]، لهذا كان لا بد من اللجوء إلى تعيين خليفته من بين أحد أبنائه. وهنا نجد أنفسنا مرة أخرى أمام مشكلة المصادر المتعلقة بأبناء سونديياتا، فرغم أن ابن خلدون يذكر بأنه كان لسونديياتا خمسة أبناء حكموا مالي من بعده بالتتابع[4]، إلا أن الروايات الشفوية الخاصة بعائلة كيتا والمعروفة بديوما فإنها تتفق على أن سونديياتا لم يكن له إلا ابن واحد فقط، ومنهم من يقول بأن سونديياتا لم يكن له أبناء قط من صلبه، وأن أبناءه الذين خلفوه إنما كانوا في الحقيقة أبناء قادته العسكريين الذين تبناهم، وذلك تبعا للتقاليد الشائعة آنذاك فيما يخص تبنيّ الأسر المالكة

---

(1) Delafosse(Maurice) Haut Sénégal -Niger, tome2,p183 – Jean(Jolly) :Histoire du continent Africain. Edition L'harmattan, Paris, 1989, Tome1, p127.

(2) Valérie Thiers-Thiam :A chacun son griot :Le mythe du griot narrateur dans la littérature et le cinéma de l'Afrique de l'ouest. Editions l'harmattan, Paris, 2004, p62

(3) Baba Kaké et Elika M'bolo :Histoire générale de l'Afrique,. pp40 et 41

(4) العير:الجزء السادس، ص ص416، 417، 418.

لأبناء قادتهم العسكريين[1]. لكننا نعتقد بأن سوندياتا كان له أبناء من صلبه وهذا لعدة قرائن أهمها أن الشعب المالنكي لم يكن ليقبل بتولية عرش مالي واحد من غير نسل سوندياتا نظرا للمكانة التي كانت تحظى بها شخصية سوندياتا، والتي كانت تبلغ درجة القداسة. كما أن سوندياتا نفسه حسب روايات منطقة كيلا كان قد أسر لقائديه المقربين وهما تيراماكان وفاكولي بأن زوجته الثانية كانت حبلى بجنين، فأوصاهما بأن يحفظا له حقه في الميراث والإعتراف بنسبه بين إخوته[2]. كما أننا نعتقد بأن هذا الخلاف في نسب أبناء سوندياتا لأبيهم إنما يعود إلى ذلك الصراع المحموم حول العرش بين أفراد عائلة كيتا والذي ظهر بعد وفاة سوندياتا.

كما ظهرت بعد وفاة سوندياتا عدة أسر مالنكية تدعي الإنتساب إليه، مثل عشيرتا غلوار (Guelwars) و دينينيانخي (Deniniankhé) واللتان تدعيان بأن سوندياتا قد أنجب أجدادهما عندما كان في المنفى بميما. وأن سوندياتا كان له أبناء في كل مكان نفي إليه، وهم منتشرون في أوطانهم التي ولدوا بها [3]. لكن الشيء الأكيد الذي تردده أغلب الروايات الخاصة بحياة سوندياتا والقريبة منه، هو أن أبناء سوندياتا الذين كانوا يعيشون داخل بلاد مندن عند وفاته يقدر عددهم بستة أولاد[4] وهم خمسة أبناء تداولوا على حكم مالي من بعده والذين ذكرهم ابن خلدون[5]، بالإضافة إلى الولد السادس الذي أنجبته له زوجته الثانية بعد وفاته، والمعروف بـــ"بيمبا كاندا" الذي سبق ذكره. لكن يجب أن نشير هنا إلى أن هناك مقولة منتشرة عند البمبارا والمالنكي مفادها(عندما يسقط اللّحم

---

(1) Niane Temsir djibril : Recherches sur l'empire du Mali, pp14,15

(2)Youssouf tata et Wa kamissoko : La grande geste du Mali, tome 2, p123

(3) Ibid, p238

(4) Ibid, p240

(5) العبر،المجلد السادس، ص ص 116،117،118.

الأحمر على الأرض تتعلق به الشوائب، وعندما يتفوق أي شخص يكون له عدد كبير من الأبناء والإخوة والأخوات من نفس الدم)[1]. وعموما فقد خلف سوندياتا عرش إمبراطورية مالي بعد وفاته عدد من الملوك كانوا من نسله، وهم أبناءه الخمسة ومن بعدهم أحفاده الذين ينتمون إلى أسرة كيتا.

و لم يكن من الممكن أن يتعرف المؤرخون العرب على أسماء الملوك الذين حكموا مالي من أسرة كيتا بعد سوندياتا لولا ابن خلدون، الذي قدم لنا قائمة باسم هؤلاء الملوك الذين حكموا خلال القرنين السابع والثامن الهجريين/ الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين. ورغم أن الروايات الشفوية أمدتنا هي الأخرى بقائمة بأسماء ملوك مالي منذ بداية تاريخها إلى يومنا هذا، إلا أننا نجد صعوبات جمة عند دراسة قائمة ابن خلدون ومحاولة مقارنتها بقائمة الرواة الشفويين، وذلك لأننا لا نجد نفس الأسماء في القائمتين. ويفسر المؤرخ الغيني نيان تمسير جبريل هذا الاختلاف بين القائمتين في كون ابن خلدون قد تعرّف على أسماء هؤلاء الأمراء من رواية أحد الحجاج الماليين الذين التقى بهم في القاهرة وهو في طريقه إلى الحج، أو عرفهم بالاسم الذي كانوا يتخذونه عند أدائهم لهذه الفريضة، أي أنهم كانوا يتخذون أسماء إسلامية، بينما الروايات الشفوية تسميهم بأسمائهم وتلقبهم بألقابهم الحقيقية[2]. ولقد ارتأينا تصنيف فترات حكم كل واحد منهم إلى مراحل حسب ما تميزت به كل فترة من قوة أو ضعف، وحسب ما قدَّمه كل عهد من دور في تاريخ الإمبراطورية والعائلة على حد سواء.

---

(1) Youssouf tata cisse et Wa kamissoko : Op.Cit, p240.

(2) Niane Temsir djibril Recherches sur l’empire du Mali, p 14.

ثانيا: خلفاء سونديـاتا:

1 . عهد منسا أولي (الملك علي): ويعد منسا أولي الإبن البكر لسونديـاتا وولي عهده[1]، تولى عرش مالي مباشرة بعد وفاة والده، حيث حكم بين سنتي 652 و 668 للهجرة / 1255و 1270 للميلاد، ذكره ابن خلدون باسم منسا أولي، وتقول المصادر العربية بأن أولي تعني "علي"[2]. بينما جاء ذكره في المصادر الشفوية السودانية باسم "يريلينكون"[3]. وقد عرف هذا الملك بالملك الأحمر لأنه كان ذا بشرة بيضاء تميل إلى الحمرة، لكون أمه كانت من أصول عربية أو بربرية حسب الروايات الشفوية[4]. وكان هذا الملك من أعظم ملوك السودان حسب ابن خلدون، حيث تمكّن من الحفاظ على تماسك الجيش فواصل قادته القيام بالغزوات، حيث يرجح أنه في عهده تمكن المالنكي من الاستيلاء على بلاد التكرور، ودعموا الفتوحات التي كان قد قام بها تيراماكان في عهد سونديـاتا في منطقة السنغال وغمبيا،

---

(1) نشير هنا إلى أن دستور مالي الذي وضع في كوروكان فوكا عام 1236م ينص على عدم جواز تولية الحكم لابن الملك الميت في حالة وجود أحد إخوته حيا، لكننا لا نعرف الأسباب التي أدت إلى تولية ابن سونديـاتا الحكم بعد وفاته، مع أن أخويه "منسا دنكران توما" و "مندي بوري" كانا ما يزالان على قيد الحياة.

(2) القلقشندي: صبح الأعشى، الجزء الخامس، ص 293 . ـــ ابن خلدون:المصدر السابق، ص 237.

(3) Niane Temsqir djibril : Op.Cit, p32.

(4) إبراهيم محمد أحمد بلولة : العلاقات الدولية في كنف الممالك الإفريقية. ضمن موقع الكتروني:

http://www. Mubarak-inst.org/stud-reas/ اطلع عليه يوم: 24-09 -2009.

وأقام بهذه المناطق مستعمرات استيطانية مالية[1]. وبذلك وسع رقعة الإمبراطورية في كل الاتجاهات، وأصبحت تتربع على مساحة أكبر مما تركها له أبوه[2]. وكان هذا الملك مؤمنا راسخ الإيمان مثل أبيه، متمسكا بشريعة الإسلام وتعاليمها، لذلك نجده يدشّن عهده بقيامه بفريضة الحج مرورا بمصر التي زارها على أيام السلطان المملوكي الظاهر بيبرس[3]. وقد سمحت له هذه الرحلة بإنشاء طريق الحجاج الذي سوف يسلكه ملوك مالي من بعده، وهو طريق طويل يخترق القارة الإفريقية من الغرب إلى الشرق حتى يصل إلى سواحل البحر الأحمر. وقد أصبح هذا الطريق ذا أهمية بالغة أيضا للمبادلات التجارية القائمة بين تجار المشرق والجزيرة العربية وتجار السودان الغربي[4]. كما أصبحت رحلة الحج التي قام بها الملك الحاج علي واجبا دينيا لا بد أن يؤديه جميع الملوك الذين اعتلوا عرش إمبراطورية مالي تباعا[5]. ومن الأعمال المنسوبة إلى هذا الملك أيضا أنه يعد أول من أدخل لقب منسا على ملوك مالي، كما أنه استطاع أن يؤمن حدود بلاده من الشمال مع

---

(1) نيان تمسير جبريل: المرجع السابق، ص15

(2) كانت إمبراطورية مالي عند وفاة سوندياتا تظم بلاد مندي البامبوك، بوري، الصوصو وجزء من أرض وجزء من أرض التكرور.

Milet(Eric) et Monaud (Jean-Luc) , Mali. Edition ,Olizane, Geneve 2007,p34

(3) ابن خلدون: العبر، مج6، ص 237

(4) ينطلق هذا الطريق من حد مصر الجنوبي عند مدينة أسوان ويمتد إلى غاية مالي وسجلماسة مرورا تمبكتو وكوكو وبورنو وزاغة ومنها إلى كابرة وزاغزي. ــ شوقي عبد القوي عثمان حبيب:التجارة بين مصر وإفريقيا في عصر سلاطين المماليك بين 1250 و1517م /648 و 92هـــ. (المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، 2000م، ص 67).

(5) جوان جوزيف: المرجع السابق، ص 71

الصحراء الكبرى، واستطاع أن يظم إليها مناجم الذهب في بامبوك و ونغارا الواقعتين على نهر السنغال، وبسط منسا أولي نفوذه على مملكة سنغاي الناشئة[1]. ويبدو من خلال الروايات الشفوية بأن منسا أولي عرف في أواخر أيامه بعض الانشقاقات وعدم التفاهم مع قادة أبيه العسكريين مما جعله يفقد بعض المقاطعات،حيث قام بالاستغناء عن خدمات أحد أفضل قادة أبيه وهو"موسى-سونكوروما سيسوكو" فانتقل هذا الأخير مع جيشه إلى منطقة كونديان (Koundian) وأسس مملكة خاصة به ولكنها تابعة لإمبراطورية مالي وهي مملكة بامبوكو أو بامبوك، وفي نفس الوقت قام أحد أقارب منسا أولي وهو سيريمان كيتا (الذي كان أحد المساهمين في انتصارات والده العسكرية) بالاستيلاء على منطقة كونكودوكو (Koukodoukou) الواقعة على مرتفعات ديالونكي، وأسس مملكة أخرى احتجاجا على الاستغناء عن خدماته وبقائه بدون عمل،كما قام القائد ساني-نياكا تراوري بالاستيلاء على بانياكادوكو(Baniakadougou) الواقعة في منطقة كيتا الحالية، وكذا مقاطعات كولاما، بافينغ وسولو، وأسس مملكة ثالثة تابعة لمالي تعرف بمملكة كانكاران [2].

2 . مرحلة الاضطرابات:

ويظهر من خلال رواية ابن خلدون أنه بعد وفاة هذا الملك سنة 668هـ/ 1270م، دخلت بلاد مالي في مرحلة من الاضطراب السياسي دامت زهاء عقدين من الزمن، وتعاقب خلالها على عرش مالي مجموعة من الملوك الضعاف والذين لم تدم فترة حكم كل منهم مدة طويلة، والتي كانت الإمبراطورية في عهدهم قاب قوسين أو أدنى من

---

(1) علي باري(محمد فاضل) و كريدية (سعيد إبراهيم): المسلمون في غرب إفريقيا، ص 80 .

(2) Delafosse (Maurice) : Haut Sénégal-Niger, tome2, pp182, 183

السقوط والانهيار، وذلك نتيجة الدسائس التي كانت تحاك في القصر بين أمراء أسرة كيتا(1).

وهنا نجد أنفسنا مرة أخرى أمام قلة المعلومات بخصوص هؤلاء الملوك الذين تعاقبوا بعد منسا أولي، باستثناء الشذرات التي قدمها لنا ابن خلدون. حيث يذكر بأنه بعد وفاة منسا أولي خلفه على عرش مالي أخوه منسا واتي(2) والذي يكون قد حكم من 668 إلى 672هـ/1270 إلى 1275م حسب دولافوس(3). ثم خلفه بعد وفاته أخوه منسا خليفة، والذي كان رجلا أحمقا ضعيف العقل، حيث كان يطلق السهام على الناس بدافع اللعب والتسلية، لهذا ثار عليه الشعب وقتلوه(4). إن هؤلاء الملوك الثلاثة كانوا أبناء سوندياتا، لكن بعدهم تغيرت طريقة انتقال الحكم وذلك من خلال توريث ابن الأخت أو ابن البنت على طريقة الغانيين الذين سبقوهم(5)، حيث يذكر ابن خلدون أنه بعد منسا خليفة ولي من بعده عرش مالي ابن بنت سوندياتا ويسمى بأبي بكر(6)، والذي يكون قد دام حكمه عشر سنوات أي بين سنتي 673 و683 هـ/ 1275 و 1285م(7). لكن يبدو أنه كان ضعيفا و لم يكن يتحكم في زمام الأمور، فدخلت البلاد في فوضي كادت أن تنهي عصر أسرة كيتا ومجدها.

---

(1) نيان تمسير جبريل : المرجع السابق، ص158 .

(2) المصدر السابق، ص 267.

(3) Delafosse (Maurice) : Haut Sénégal-Niger, tome2, p183

(4) ابن خلدون: المصدر السابق، ص 267.

(5) Trimingham(Spencer) :A history of Islam in west Africa,p66.

(6) المصدر السابق، ص 267.

(7) Delafosse (Maurice) :Op.Cit, p183

3. ساكورة :

وبعد فترة من الضعف والاضطراب والتي كادت أن تعصف بإمبراطورية مالي قام أحد القادة العسكريين المنحدر من عبيد عائلة كيتا يدعى ساكورة أو سبكرة ، فاغتصب الملك بالقوة(1)، وبالتالي خرجت السلطة لأول مرة من عائلة كيتا. وقد امتد حكم هذا الملك من سنة684 إلى 699هـــ /1285 إلى 1300م(2)، ولقد كان هذا الملك من أعظم ملوك مالي بعد منسا أولي، حيث قام بغزوات عسكرية باتجاه الأمم المجاورة له، فامتدت رقعة دولته من المحيط الأطلسي غربا إلى بلاد التكرور في الشرق، وأصبحت أمم السودان تهابه وتخشاه، وانتعشت في عهده التجارة نتيجة استتباب الأمن، وعم الرخاء جميع أرجاء الإمبراطورية، حيث بدأ تجار المغرب وإفريقية يقصدون عاصمة مالي، وتحولت بذلك إلى مركز تجاري مهم، بالإضافة إلى ذلك فقد أحكم هذا الملك سيطرته على مناجم النحاس في تاكدا التي أصبحت من أهم مصادر الأموال للإمبراطورية المالية(3)، وختم مسيرته الثرية الثرية على عرش مالي بأدائه لفريضة الحج كسائر ملوك مالي الذين جاؤوا بعد سونذياتا، وذلك في عهد السلطاني المملوكي الناصر(4). لكنه قتل خلال عودته من الحج عام 699هـــ /1300م بمنطقة تاجوراء، حسب ابن خلدون(5). ويذكر أغلب المؤرخين بأنه قتل أثناء عودته من الحج عن طريق الحبشة حين هاجمته جماعة من منطقة دنقلة عند ساحل

---

(1) ابن خلدون: المصدر السابق، ص 267

(2) Delafosse (Maurice) : Op., Cit p183

(3) Trmingham(Spencer) :Op.Cit p66.

(4) ابن خلدون:المصدر السابق، ص 267 . هو الملك الناصر ناصر الدين محمد بن قلاوون تاسع سلاطين المماليك البحرية.لقب بأبو المعالي وأبو الفتح جلس على تخت السلطنة ثلاث مرات، من 693هـــ /1293م إلى 694هـــ / 1294م، ومن 698هـــ / 1299م إلى 741هـــ/1341م.

(5) نفس المصدر السابق ص267.

البحر الأحمر[1]، إلا أن المؤرخ الانجليزي سبنسر تريمنغهام ينفي ذلك ويقول بأنه قتل بالفعل في منطقة تاجورة على ساحل برقة بليبيا، وهو الأرجح[2]. ولقد قام رفقائه في تلك الرحلة بأخذ جثمانه وتجفيفه وحملوه إلى غاية مدينة كوكا بمملكة البورنو، حيث راسل ملكها نبلاء مملكة مالي يطلب منهم أن يأخذوا بقايا جثمان ملكهم المقتول، لذلك قدمت سفارة من مالي إلى كوكا وأخذت جثمان ساكورة حيث دفن بالقرب من ملوك مالي السابقين[3].

بعد مقتل الملك ساكورة عاد الملك لأسرة كيتا مرة أخرى، لكن ملوكهم كانوا ضعافا أيضا، ومنهم قو بن سوندياتا[4]، والذي بدأ يمارس الحكم في مالي بمجرد رحيل الملك ساكورة إلى مكة لأداء فريضة الحج وتركه في مكانه. لكن يبدو أنه كان كبيرا في السن لذلك توفي بعد سنة واحدة من توليه الحكم، أي حوالي سنة1301م/700هـ[5]. كما أن ابنه الذي خلفه و هو محمد بن قو لم يعمر كثيرا في الحكم هو أيضا، إذ تم إبعاده عن الحكم بعد سنة أو سنتين من اعتلائه العرش[6]، وهنا انتقل الحكم من أبناء سوندياتا إلى أبناء أخيه، من خلال تولية ابن أخ سوندياتا أبا بكر الثاني.

---

(1) أنظر:علي باري(محمد فاضل) وكريدية (سعيد إبراهيم):المرجع السابق، ص 80

(2) وطبقا لتريمنغهام فإن تاجوراء هي إما تحريف لتاجوة، وهي مركز الزغاوة، أو أنها تكون المدينة الساحلية الموجودة في البحر الأحمر التي لها نفس الاسم في طرابلس.
Trimingham(Spencer) : Op.Cit,p66.

(3) Delafosse (Maurice) :Op.Cit, p186

(4) ابن خلدون، المصدر السابق، ص 267

(5) Delafosse (Maurice) :Op.Cit. p186

(6) Ibid, p186

4. أبو بكر الثاني:

لقد كان لوالد سوندياتا فارا كورو ماغان كيتا ثلاث زوجات[1]، كل واحد منهن أنجبت له ولدا وبنتا، الأولى هي ساسوما بيريتي، وهي والدة منسا دنكران توما، والثانية هي سوغولون كيجوكو كوني وهي والدة سوندياتا، أما الثالثة فهي ناماجي كامارا، وهي والدة مندي بوري الأول وأخته مريم جومارو. وقد نشأت صداقة ومحبة كبيرة بين سوندياتا وأخيه غير الشقيق مندي بوري (والملقب بأبي بكاري الأول)، وكان خير سند له خلال لجوئه إلى المنفى عند ملوك ميما[2]، لذلك عندما أبعد محمد بن قو عن عرش مالي لجأ الماليون إلى تنصيب ابن عمه مندي بوري الذي هو أبو بكاري الثاني استنادا إلى ميثاق كوروروكان فوكا، الذي ينص على أن وراثة العرش لا بد أن تنتقل إلى الأخ الأكبر وليس إلى الابن في حالة وجود أحد إخوة الملك حيا. ورغم أن جل المصادر الشفوية بالإضافة إلى ابن خلدون يجمعون على أن أبا بكر الثاني هو ابن أخ سوندياتا إلا أن دولافوس يخالفهم ويذهب إلى أن أبا بكر الثاني هو ابن إحدى أخوات سوندياتا[3]. ورغم أنه لم يقدم لنا مصدر معلوماته كعادته، إلا أننا نعتقد بأنه إما اعتمد على بعض الروايات الشفوية التي يقول بأن أبا بكر الثاني هو نفسه أبو بكر الأول الذي تقول بأنه ابن سوندياتا ووالد منسا موسى، وتعطيه اسم آخر هو"سون فاكا لاي (faga laye Son)[4]

---

(1) تشير الروايات لكيلا بأن سوندياتا كانت له زوجة رابعة كان قد تزوج بها عندما غزا المناطق الجنوبية، و لم يكن يعرفها أحد إلى غاية إشرافه على الموت عندما أسر لقائديه تيراماكان وفاكولي بأن له زوجة رابعة وهي حبلى، فأوصاهم بها خيرا.أنظر:

Wa kamissoko et Youssouf tata : La grande geste du Mali, t 2 p123,

(2) Gaoussou Diawara :Aboubakari 2, explorateur Mandingue. Editions L'Harmattan, Paris, 2010, p71, 72.

(3) Delafosse (Maurice) :Op.Cit, p186

laye[1] أو أنه أخلط بين أبي بكر الثاني هذا، وبين أبي بكر الأول الذي ذكره ابن خلدون وقال أنه ابن بنت سونددياتا، حيث يقول في هذا الشأن ما يلي: ((وولي عليهم من بعده(أي منسا خليفة) سبط من أسباط ماري جاطة يسمى أبا بكر، وكان ابن بنته فملكوه على سنن الأعاجم في تمليك الأخت وابن الأخت))[2].

فابن خلدون إذن ذكر بأنه ابن بنت سونددياتا، ولكنه شبه ذلك بما يفعله العجم بتوريث ابن الأخت، وهنا نعتقد بأن دولافوس عندما تعامل مع هذا النص أخطا خطأين، الأول عندما اعتبر أن الرجل الذي قصده ابن خلدون هو أبا بكر الثاني، والخطأ الثاني عندما ترجم النص بطريقة خاطئة بحيث فهم من تشبيه ابن خلدون طريقة توريث ابن البنت، بطريقة الأعاجم بتوريث ابن الأخت على أن أبا بكر هو ابن أخت سونددياتا. ورغم ذلك فإن الكثير من المؤرخين الغربيين نقلوا عنه ذلك. وعموما فإن الملك أبا بكر الثاني لم يكن شخصية مشهورة مثل أبنه منسا موسى، لكنه نال نصيبا وافرا من التمجيد لدى الروايات الشفوية، التي أضفت عليه صبغة أسطورية عندما ذكرت بأن هناك مُنجّمة أخبرت والدته قبل أن يولد بأنها ستنجب مولودا سيكون ملك المندينغ في المستقبل.[3]

ولد أبو بكاري الثاني في مدينة نياني بقلب العاصمة المالية، في سنة 637 للهجرة /1240 للميلاد، ودربه أبوه على الإمارة وعلى الحرب منذ نعومة أظافره، حيث تدرب في مختلف الحاميات العسكرية المندية سواء في مدينة نياني أوفي الصحراء الرملية والجبال، وكان أبوه يراقبه عن بعد إلى أن اشتد عوده. وقد عرف أبو بكاري الثاني بعدة أسماء منها باتا ماندي موري (Bata mande mori) أما الرواة الشفويون في كل من السنغال وغمبيا

---

(1) Niane temsir djibril : Recherches sur l'empire,p16

(1) المصدر السابق،ص267 .

(3) Doudu N'diaye rose,L'histoire de l'épopée Mandingue. In site : http: //www. si.umish.edu.consulté le:20-08-2008

فيلقبونه بتابا بوكاري (Taaba boukari)،كما يلقب أيضا بديانكاوالي (Diankawali)، وهي كلها ألقاب بلهجات ولغات مختلفة ولكنها تعني شيئا واحدا وهو (ذَهَبَ عن طريق البحر).[(1)] ورغم أن هذا الملك لم يؤدي فريضة الحج التي كانت سبب شهرة ملوك مالي وسبب تعرف العالم الإسلامي عليهم، لكنه يُرْوَى عنه بأنه كان أول من اكتشف العالم الجديد(القارة الأمريكية) قبل كريستوف كولومبوس.[(2)] حيث يذكر بأنه أرسل أول حملة استكشافية بحرية باتجاه المحيط الأطلسي تتضمن مائتي سفينة، فلم تعد منها إلا سفينة واحدة فقط، ثم ازداد إصراره على معرفة ما يخفيه هذا البحر، فجهز أسطولا ضخما يضم ألفي سفينة قاده هو بنفسه حيث كان من بين المبحرين وذلك سنة706هـــ /1307م، لكن هذه المرة لم يعد أحد من المبحرين[(3)] وهو ما دفع عدد كبير من المؤرخين إلى الاعتقاد بأن هذا الملك يكون قد وصل إلى سواحل البرازيل[(4)].ولقد اختفى هذا الملك في عرض المحيط ولم يعد بعدما حكم مالي لمدة أربع أو خمس سنوات[(5)]. وبالتالي أصبح عرش مالي يشكو من الشغور، و بما أن الملك أبا بكر الثاني لم يكن لديه إخوة فقد تم

---

(1) gaoussou Diawara:Op.Cit, p71

(2) حول هذا الموضوع انظر الفصل الرابع من هذا البحث.

(3) العمري (شهاب الدين أبو الفضل): المصدر السابق، ص121

- Milet (Eric) et Monaud (Jean-Luc) :Op.Cit, p34
- Nadine Martinez : Art contemporain - art traditionnel : aller-retour Mali-Mali. Editions l'harmattan, Paris, 2009, p9.

(4) Xavier (van der stappen) : L'Afrique fleuve Niger : Le dioliba en Canoe. Editions l'harmattan, Paris, 1996, p152.
- Milet (Eric) et Monaud (Jean-Luc) :Op.cit, p34

(5) 86 Delafosse (Maurice) :Op.Cit, p186

تنصيب ابنه موسى ملكا جديدا على إمبراطورية مالي، والذي شهدت على يديه الإمبراطورية أوج قوتها وازدهارها.

5. عهد القوة والازدهار:

ــ منسا موسى كيتا(كونكو موسى):

لم يشتهر أي ملك من ملوك مالي أو ملوك السودان مثل ما اشتهر هذا الملك، حيث تجاوزت شهرته قارة إفريقي ووصلت إلى آسيا وحتى أوربا، وإذا كانت الروايات الشفوية قد خلدت سوندياتا من خلال الأشعار والملاحم، فإنه يعود للمصادر العربية كل الفضل في تخليد هذا الملك، الذي ذكره ابن خلدون باسم منسا موسى(أي الملك موسى) ووصفه بالرجل الصالح والملك العظيم. وقال عنه ابن كثير: ((الملك الأشرف موسى بن أبي بكر، وهو شاب جميل الصورة، له مملكة متسعة مسيرة ثلاث سنين، ويذكر أن تحت يديه أربعة وعشرين ملكا، كل ملك تحت يده خلق وعساكر))[(1)]. وقال عنه أبو الفضل العمري بأنه ((أعظم ملوك السودان المسلمين وأوسعهم بلادا، وأكثرهم عسكرا وأشدهم بأسا، وأعظمهم مالا وأحسنهم حالا، وأقهرهم للأعداء، وأقدرهم على إفاضة النعماء))[(2)]. كما ذكره عبد الرحمان السعدي باسم كنكن موسى، وقال عنه بأنه رجل صالح عادل، لم يكن في ملوك مالي مثله في الصلاح والعدل[(3)]. ويدعوه محمود كعت بـــ"مالي كوي كنكن موسى" وتعني بلغة السنغاي إمبراطور مالي أو المندينغ، ويصفه أيضا بالملك الفاضل التقي والورع[(4)]. وذكره أبن حجر العسقلاني بموسى بن أبي بكر سالم التكروري،

---

(1)ابن كثير (أبو الفدا إسماعيل):البداية و النهاية. دار البيان العربي،مصر،2006م، المجلد السابع،ص 486

(2) مسالك الابصار،ج4،ص 108

(3) تاريخ السودان، ص 7.

ووصفه بصاحب التكرور أي ملك التكرور[1]. كما يعتبر عهده الممتد من 706إلى 737 هـــ/1307 الى1337م، أزهي فترات الإمبراطورية[2].

لقد وصل منسا موسى إلى الحكم حسب بعض الروايات سنة 706هـــ/1307م، بعدما غاب والده أبو بكر الثاني في البحر[3]، بينما ترى روايات أخرى بأنه اعتلى عرش مالي سنة 702هـــ / 1303م[4]. حيث يعتبرونها هي السنة التي أبحر فيها أبوه إلى المحيط الأطلسي[5]. ويذهب الرحالة بارث إلى أنه حكم بين710 إلى 731هـــ/ 1311 إلى 1331م، ويعطي الزوجان كورنفان تاريخا آخرا مختلفا عن سابقيهم، حيث يقولان بأن والده أبو بكاري الثاني خرج إلى البحر سنة 709هـــ/1310م، أما ابنه موسى فلم يتولى أمور الحكم إلا في سنة710هـــ/1312م[6]. إلا أننا نعتقد بأنه اعتلى العرش قبل التأكد من اختفائه بالبحر، لأن أبا الفضل العمري لما أورد قصة منسا موسى التي رواها في مصر عندما سأله ابن أمير حاجب عن كيفية انتقال الحكم إليه، وذكر فيها بأن رئيس المركب الذي نجا من البحر وعاد ليخبرهم بمصير بقية المراكب المفقودة خاطب منسا موسى قائلا له: ((تعلم أيها السلطان أنَّا سرنا زمانا طويلا حتى عرض لنا في لجة البحر واد له جرية قوية وكنت آخر تلك المراكب، فأما تلك المراكب فإنها تقدمت فلما صارت في ذلك المكان ما عادت ولا بانت، ولا عرفنا ما جرى لها، وأما أنا فرجعت من مكاني و لم أدخل ذلك الوادي))[7].

---

(1)شيخ الإسلام شهاب الدين أحمد بن علي، المشهور بابن حجر العسقلاني (متوفى سنة 852 هجرية): الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ص383.

(2) احمد الشكري :المرجع السابق، ص 187.

(3) جوان جوزيف المرجع السابق،ص 72

(4) TIdiane N'diaye :La langue marche des peuples noirs , p33.

(5) Barth Henri et Paul ithier : Voyages et découvertes dans l'Afrique septentrionale et centrale pendant les années 1849 et1955.éditions :A.Bohné, Paris, 1961, p14.

(6) Cornevin (Robert et Mariane) : Histoire de l'Afrique, des origines à la 2ème guerre mondiale. 4ème édition, petite bibliothèque Payot, Paris, 1974, p163.

(7) مسالك الأبصار، ج13، ص121.

نلاحظ إذن بأن رئيس المركب خاطب منسا موسى بكلمة (أيها السلطان)، مما يعني أنه في ذلك الوقت كان ملكا على مالي، فقد يكون أبوه قد ولاه الملك خلفا له قبل أن يشد رحاله إلى تلك المغامرة البحرية. وعموما فإن عدم ذكر ابن خلدون تاريخ اعتلاء هذا الملك الحكم، جعل عملية الفصل بين التواريخ المقدمة من طرف المؤرخين المحدثين، والتدقيق فيها صعبة.

ولقد عُرف هذا الملك أيضا باسم موسى الأسود لسواد بشرته.[1] كما اختلف المؤرخون حول تسميته باسم كنكن موسى أو كونكو موسى، فهناك من يقول بأن ذلك نسبة لأمه التي كانت تسمى نانا كنكن، فأصبح يدعى كونكو موسى أي ابن كونكو.[2] وهناك من يقول بأن سبب هذه التسمية يعود إلى مكان ولادته، حيث وضعته أمه في منطقة تسمى كنكان فأصبح يدعى موسى منطقة كنكان.[3]

كما اشتهر هذا الملك أيضا باسم الملك الحاج، ويعود ذلك لرحلته الشهيرة إلى الحج والتي تكلمت عنها المصادر العربية والسودانية بكثير من الإنبهار، وأضفت عليها صبغة أسطورية، فقد قام بهذه الرحلة سنة 724هـ/1324م.[4] ويروي لنا المؤرخ السوداني محمودكعت قصة طريفة حول سبب قيام منسا موسى بهذه الحجة وإعطائها ذلك الاهتمام البالغ، حيث نقلها لنا عن أحد السوننكي النبلاء المدعو الطالب محمد كوما، ومفادها أن منسا موسى قتل أمه نانا كنكن عن طريق الخطأ، فسبب له هذا الحدث ألما وحزنا كبيرين، فقرر أن يكفر عن ذنبه عن طريق التصدق بكميات كبيرة من المال على الفقراء

(1) جوان جوزيف : المرجع السابق، ص72.

(2) علي باري (محمد فاضل) و كريدية (سعيد إبراهيم):المرجع السابق، ص 80 . و يذكر محمود كعت (تاريخ الفتاش، ص 56) بأن والدة منسا موسى كانت من أصول عربية.

(3) Delafosse (Maurice) :Op.Cit, p186 و تقع الآن هذه المقاطعة في جمهورية غينيا.

(4) ابن خلدون:المصدر السابق، ص 267.

وصوم بقية حياته، ولما سأل أحد العلماء عن الطريقة التي تمكنه من التكفير عن خطأه، فنصحه بالتوجه إلى الله وأن يطلب منه المغفرة، وهنا قرر منسا موسى تجهيز موكب ضخم من أجل الذهاب إلى البقاع المقدسة للحج، وطلب المغفرة من الله. وقد اخبره أحد فقهائه بأنه يجب أن يشد الرحال إلى مكة المكرمة في يوم السبت الذي يصادف اليوم الثاني عشر من الشهر القمري،(1)فحمل معه خمسمائة عبد، وبيد كل واحد منهم العصي من الذهب، وفي كل منها خمسمائة مثقال من الذهب، أي حوالي 1757،7غرام من الذهب.(2) كما رافقه في هذه الرحلة ثمانية ألاف رجل، كما أخذ معه زوجته المدعوة إناري كونتي (Inari konté) مرفوقة بخمسمائة خادمة وامرأة لتقمن بشؤونها.(3) وفي طريق رحلته من بلاد السودان إلى مصر،كان موسى كاكان كلما صادف دخوله إلى أي مدينة يوم جمعة إلا وبنا بها مسجدا في ذلك اليوم، إذ تعد مساجد كل من مدينة كوندام (Goundam) ودوكوري (Doukourei)، وديري (Dirie) وكونكو (Kounko)، وباكو (Bakou)، من المساجد التي بناها في طريقه إلى الحج.(4)وقد أدخل معه إلى مصر ثمانين حملا من الذهب التبر،كل حمل سعته ثلاثة قناطير.(5) كما صرف في مكة على سبيل الصدقة عشرين ألف قطعة ذهبية.(6)

---

(1) تاريخ الفتاش، ص 57.

(2) السعدي (عبد الرحمان): تاريخ السودان، ص7.

= Lady (lugart): A tropical dependency Published By: Black classic press, 1997, p122.

(3) Mahmoud kati : Tarikh el fettach ,p59

(4) Ibid,pp58,59 et 68.

(5) ابن خلدون: المصدر السابق، ص 268.

(6) Cornevin(Robert et Marianne) :Op.Cit, p164

لقد أثر الذهب الذي أنفقه منسا موسى على سعر الذهب في مدينة القاهرة، حيث يذكر العمري بأن الذهب كان مرتفع السعر بمصر، حيث كان المثقال لا ينزل عن خمسة وعشرين درهما، ويزيد عليها، ومنذ أن جاء منسا موسى في تلك السنة إلى مصر، نزلت قيمته ورخص سعره سنوات، إذ لم يعد يتعدى سعر المثقال الواحد منه ثنين و عشرين درهما وما دونها واستمر ذلك لمدة تقارب اثنتي عشرة سنة، وذلك لكثرة ما جلبوه من ذهب إلى القاهرة، وأنفقوه بها.[1] ويُذكر بأنه خرج من بلده بمائة وسق جمل(أي حمولة جمل) من الذهب أنفقها في حجته على القبائل بطريقه من بلاده إلى مصر، ثم من مصر إلى الحجاز الشريف، إلى درجة لجوئه إلى الاقتراض عند عودته إلى بلده، خاصة بعدما تأخر بمكة بعد انقضاء موسم الحج بأيام، فاستدان هو وأُمرائه من أحد تجار الإسكندرية يدعى سراج الدين، وذلك مقابل مكاسب كثيرة تقدر بثلاث مائة دينار مقابل سبع مائة دينار ربحا، ثم بعثها إليهم بعد رجوعه إلى بلاده.[2] ولم يكن منسا موسى عند الشعب المالنكي مجرد ملك يحكم البلاد والعباد فقط، وإنما كان وليا من أولياء الله الصالحين،[3] وهي مكانة دينية رفيعة بلغها نتيجة ما عرف عنه من تقوى وحسن عبادة، وتصدقه وحرصه على تطبيق تعاليم الإسلام. حيث يشهد له ابن أمير حاجب وهو والي مصر لما حل في بها، بأنه كان على نمط واحد في العبادة والتوجه إلى الله عز وجل كأنه بين يديه لكثرة حضوره، ومحافظ على الصلاة والقراءة والذكر مع حسن الزي في الملبس والسكينة

(1) العمري :المصدر السابق، ص 125.

(2) العمري :المصدر السابق ، ص 121 ــ السعدي: تاريخ السودان، ص 8 ــ المقريزي: الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء و الملوك. تحقيق و تعليق: جمال الدين الشيال، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، مصر، الطبعة الأولى، 1420هـ/2000م ، ص 143.

(3) جوان جوزيف، المرجع السابق، ص 72

والوقار، وكان كريما جوّادا كثير الصدقة والبر.[1] وعندما استقبله السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون في قصره بعد إلحاح شديد من المهمندار[2] رفض أن ينحني أمامه، وقال للترجمان:((أنا مالكي ولا أسجد لغير الله.))[3].

ولقد بلغت إمبراطورية مالي في عهده أوج اتساعها وقوتها وازدهارها، حيث كانت تمتد من سواحل المحيط الأطلسي غربا إلى غاية حدود نيجيريا الحالية، ومن الجنوب فقد كانت تحدها الغابات الاستوائية، أما من الشمال فتحدها المراكز التجارية للصحراء الكبرى،[4] فتح منها بسيفه وجنده أربعا وعشرين مدينة ذوات أعمال وقرى وضياع[5]. كما قام باحتواء الخرائب التي كانت من أراضي مملكة غانة في باغينا Baghena ، والأراضي المعمورة الممتدة إلى غاية أدرار الموريتانية شمالا، بالإضافة إلى بلاد التكرور الغربية. كما تميزت فترة حكمه بالرخاء الاقتصادي، حيث كانت مالي تنتج الحبوب بكميات كبيرة، وازدهرت زراعة القطن، وسيطرت على مناجم الذهب في بامبوك وبوري، واستفادت من حديد السنغال الأعلى، ونحاس منطقة ديارا.[6]

وقد عرفت مالي في عهده علاقات دبلوماسية وتجارية مع فاس بالمغرب الأقصى في عهد السلطان المريني أبي الحسن، حيث كانت له معه مواصلة ومهاداة، وتبادل الوفود بين

(1) العمري: المصدر السابق، ص ص119 و 121

(2) هو أبو العباس أحمد بن الجاكي المهمندار، وهو الشخص الذي يتلقى الرسل والواردين على السلطان، ويرتب لهم دارالضيافة،ويتحدث في القيام بأمرهم. القلقشندي:صبح الأعشى،ج5،ص ص431،432).

(3) المقريزي(تقي الدين أحمد بن علي): الذهب المسبوك ،ص142. ـــ العمري:المصدر السابق،ص121

(4) Davidson (Bazil) :Les royaumes Africains. Collections Time -Life, 1967, p84.

(5)العمري، المصدر السابق، ص118.

(6) Milet (Eric) et Monaud (Jean Luc): Op.Cit, p37

الدولتين.[1] فلقد ذاعت شهرة منسا موسى في العالم الإسلامي، وقام الرسامون برسم صورته وهو يرتدي عباءة الملك الفخمة وعلى رأسه تاج من الذهب الخالص المرصع بالجواهر والأحجار الكريمة، يمسك بإحدى يديه كرة ضخمة من الذهب وفي يده الأخرى صولجان الملك من الذهب الخالص.[2] كما أنه في سنة 731هـ/1339 وجد اسم مالي مكتوبا على خرائط العالم التي وضعها الجغرافي الايطالي "أونجيلو دولسرت "، كما وجد في الأطلس الجغرافي الذي وضعه "أبراهام كريسك" لشارل الخامس ملك فرنسا، وفيه اسم مالي بوضوح.[3]

وقد توفي هذا الملك بعد خمس وعشرين سنة لحكم، أي في سنة 733 للهجرة /1332 ميلادية[4] تاركا وراءه إمبراطورية واسعة وقوية، تتمتع بسمعة وهيبة تجاوزتا حدود السودان الغربي، فلقد كانت إمبراطورية مالي عند وفاته تمتد من بلاد التكرور غربا إلى غاو وإلى ما ورائها شرقا، وتضم معها جزء كبير من الصحراء، أما جنوبا فقد بلغت حدود الإمبراطورية عمق الغابات الاستوائية.[5] لكن بمجرد خلافته من طرف ابنه منسا مغا حتى دخلت البلاد في فوضى عارم ، وبدأت عوامل الضعف تحل في أرجاء الإمبراطورية على أيدي خلفائه الذين جاؤوا من بعده .

(1) ابن خلدون:المصدر السابق، ص 268

(2) جوان جوزيف:المرجع السابق، ص 75

(3)العربي(إسماعيل): الصحراء الكبرى و شواطئها ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م،ص 305

(4) ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ج4،ص384. Delafosse :Op.Cit, p189

(5) E .W Bovil and Robin Hallet: The golden trade of the Moors; West African kingdoms in the fourteenth centry. Edited by: Markus Wiener Hallet Publisher, 1995, p89.

6.خلفاء منسا موسى (وبداية عهد الضعف):

أ. منسا مغا:

يقول ابن خلدون بأنه لما هلك منسا موسى ولي أمر مالي من بعده ابنه منسا مغا، أو(منسا محمد) لأن مغا عندهم تعني محمد،(1) ويعرف لدى الروايات الشفوية باسم منسا بوريمان ماغان كينيي(Mansa boriman maghan kigné).(2) وكان هذا الملك قد استخلفه والده منسا موسى على عرش الإمبراطورية عندما سافر إلى الحج، إذ يذكر المؤرخ العمري عن ابن أمير حاجب بأن هذا الملك " ترك مملكته واستناب بها ولده محمدا وهاجر إلى الله ورسوله، فأدى فريضة الحج، وزار النبي صلى الله عليه وسلم وعاد إلى بلاده على أنه يقرر لابنه الملك، ويتركه له بالكلية ويعود إلى مكة المعظمة ويقيم مجاورا بها، فأتاه أجله رحمه الله تعالى".(3) ولقد افتتح عهده الذي بدأ سنة 734هـــ/1333م بهجوم ملك الموشيين ناسيغي(Nasségué) على تمبكتو وفرار الحامية المندية منها، مما أدي بالموشيين إلى نهب المدينة وإشعال النار فيها، ثم عاد ملك الموشي إلى ياتنغا بغنائم كثيرة.(4) ورغم أن الحامية المالية استرجعت المدينة وأطفأت الحرائق، وأصلحت ما أفسده الموشيين فيها، إلا أن الهجوم الموشي على تمبكتو كان يعني بأن الإمبراطورية مالي فقدت هيبتها، وأن عهد القوة قد ولى، وحل محله عهد الضعف.

ولعل أبرز معالم الضعف الذي بدأت تعرفه مملكة مالي هو بداية الصراع المحموم على السلطة. ذلك أنه بعد وفاة منسا موسى، كان من المفروض أن يخلفه على العرش أخوه

(1) المصدر السابق، ص 268

(2) نيان تمسير جبريل: مالي و التوسع الثاني للماندينغ، ص 158

(3) المصدر السابق،ص 120

(4) Delafosse :Op.Cit, p191 ـ Op.Cit, p71:Trimingham(Spencer)

منسا سليمان حسب التقاليد المندية التي سطرها مؤتمر كوروكان فوكا، لكن ابنه منسا مغا أو ماغان الأول استحوذ على السلطة.(1) ولم يستطع هذا الملك الاحتفاظ حتى بالمكاسب التي حققها أبوه من قبل، حيث أنه فشل في الاحتفاظ بأميري مملكة سنغاي اللذين أخذهما والده رهينتين عنده بمالي، إذ خفف عنهما الرقابة وأعطاهما هامشا من الحرية سمحت لهما بتدبير عملية فرارهما سنة737هــ/ 1335م من مالي، حيث أعلن الأمير علي كولن نفسه إمبراطورا لسنغاي.(2) وعندما توفي منسا مغا سنة 738هـــ/ 1336م، أي بعد أربع سنوات من ولايته، عاد العرش إلى صاحبه الشرعي وهو منسا سليمان.(3) لكن بعدما فقدت مالي جزء كبير من مملكة سنغاي.

ب. منسا سليمان ومحاولة استرجاع المجد :

يعد هذا الملك الأكثر شهرة من بين ملوك أل كيتا الذين خلفوا منسا موسى، وذلك بفضل الرحالة المغربي ابن بطوطة الذي زار مملكة مالي، وصادفت فترة وجوده بها والتي دامت تسعة أشهر، تربع هذا الملك عرشها، فذكره ابن بطوطة في كتابه الشهير برحلة ابن بطوطة، وقدم لنا تفاصيل كثيرة وحية عن الحياة الاجتماعية والسياسية وخاصة داخل بلاط هذا الملك.(4) ولقد عين منسا سليمان إمبراطورا على مالي بعد وفاة ابن أخيه منسا مغا، الذي ترك ابنا صغيرا، لذلك انتقل العرش إلى عمه منسا سليمان.(5) كما لعب منسا

---

(1) نيان تمسير جبريل: المرجع السابق ،ص158

(2) Delafosse(Maurice) :Op.Cit, p192.

(3) ابن خلدون:المصدر السابق، ص 268 ــ ابن حجر العسقلاني: المصدر السابق، ص 384

(4) زار ابن بطوطة إمبراطورية مالي سنة752هــ/ 1352م، انظر: كتاب تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، المشهور برحلة ابن بطوطة، دار صادر بيروت، لبنان،1412هــ/1992, صفحات من 677 إلى 699.

(5) Niane temsir djibril : Recherches sur l’empire du Mali, p47.

سليمان دورا كبيرا في الحفاظ على عظمة إمبراطورية مالي التي كاد أن يعصف بها ابن أخيه منسا مغا، فرغم أنه لم يستطع أن يسترجع مملكة سنغاي إلى حظيرة مالي، لكنه استطاع أن يعيد للإمبراطورية هيبة تكاد تكون قريبة من تلك التي صنعها أخوه منسا موسى.(1) وقد عرف عن منسا سليمان (الذي حكم مابين 738هـــ/1338م و760هـــ/1359م) بتديّنه وتقواه وحرصه على التشبث بمظاهر الحضارة العربية الإسلامية، حيث حج سنة 750هـــ/1350م كباقي ملوك مالي الذين سبقوه، وعند عودته من الحج عام 751هـــ/1351م قام ببناء مسكن في العاصمة القديمة كنغابا (أو دياكاجالان)، والتي كان يشغل فيها منصب حاكم إمارة أو (فاران) قبل توليه العرش، وكان هذا المسكن عبارة عن كوخ اشتهر باسم كامامبولون (Kamambolon)كان يضع فيه الكتب الدينية والمصاحف التي كانت تجلب من الحجاز.(2) كما جلب معه من الحجاز عدد من أئمة المذهب المالكي(3) وبنا المساجد والمنارات، (4) وكان منسا سليمان يحرص كثيرا على حضور صلاة الجماعة والعيدين، ويوليها عناية كبيرة، أين كان يحيط به القاضي وبالفقهاء، كما كان شديد الاهتمام بحفظ القرآن، ويعاقب الأطفال الذين يقصرون في ذلك. ومن الصفات التي امتاز بها هذا الملك، نذكر عدله وابتعاده عن الظلم وحرصه على إنصاف المظلوم، وهو ما جعل الرعية تحترمه وتتذلل إليه، حيث كانوا يحلفون باسمه فيقولون منسا سليمان كي، وكانوا إذا تكلم وضعوا عمائمهم عن رؤوسهم تقديرا وتبجيلا له.(5)

---

(1) Delafosse(Maurice) :Op.Cit, p, 192.

(2) Niane temsir djibril :Op.Cit, p47

(3) نشير الى أن منسا موسى كان مالكي المذهب. وحول هذا الموضوع انظر المبحث الثاني من هذا الفصل.

(4) باري(محمد فاضل) و كريدية (سعيد إبراهيم): المرجع السابق، ص85.

(5) ابن بطوطة:الرحلة، ص691

أما الصفة الوحيدة التي كان الماليون يبغضونها في ملكهم ولا يحبونها فهي البخل، فلقد وصفه ابن بطوطة بالملك البخيل الذي لا يرجى منه كبير عطاء.[1] لكننا إذا أردنا تعليل هذا السلوك، لوجدنا مبررات معقولة لبخله وشح نفقاته، ذلك أننا نعلم بأنه لما تولى منسا سليمان أمور الدولة المالية كانت على حافة الانهيار، فقام بتنظيمها مت جديد واستعاد الأقاليم التي فقدتها أثناء فترة حكم منسا مغا،كما قام ببناء المساجد ورفع المنارات، وكانت تلك العملية تحتاج إلى أموال، كما أنه أراد أن يعيد للدولة توازنها المالي بعد مرحلة البذخ والإسراف غير المحدود الذي عرفته الدولة في عهد منسا موسى.[2]

بعد وفاة منسا سليمان سنة 760 هـــ/1359م دخلت البلاد مرة أخرى في صراع جديد على العرش بين أبناء أسرة كيتا، حيث عين ابنه إمبراطورا جديدا للبلاد، وكان ابنه يدعى كمبا (Kamba)، أو فمبا (Famba)، كما يدعى أيضا كاسا (Kassa)،[3]ويدعوه ابن خلدون منسا بن سليمان.[4] لكن أحد أبناء منسا مغا ويدعى ماري جاطة (أو ماري دياتا الثاني) رفض الاعتراف بسلطة ابن عمه وطالب بعرش مالي وأعلن نفسه ملكا أيضا، وبالتالي اندلعت بينهما حربا أهلية.[5] انتهت بانتصار ماري جاطة، وهزيمة الملك ابن منسا سليمان ومقتله في إحدى المعارك بعد مرور تسعة أشهر من توليه العرش. وبذلك اعتلى عرش مالي ماري جاطه.[6]

ج. ماري جاطه:

(1) نفسه، ص 682

(2) Trimingham(Spencer) :Op.Cit, p71.

(3) Delafosse(Maurice) :Op.Cit, p203.

(4) المصدر السابق، ص 268

(5) Trimingham(S) ; Op.Cit, p73 _ Delafosse(Maurice) :Op.Cit, p204

(6) ابن خلدون : المصدر السابق، ص 268 _ Delafosse (M) :Op.Cit, p, 204

لقد حكم ماري جاطة لمدة أربعة عشر عاما، بين سنتي 761 إلى 775هـــ/ 1360 و1373م، وكان رجلا ظالما مستبدا، نكّل بالماليين وانتهك حرماتهم، فكان أشر من حكمهم على الإطلاق.(1) وكان أول عمل قام به هذا الملك سنة 762هـــ/1361م هو بعث رسالة إلى ولاته يأمر فيها السفير الذي كان قد أوفده الملك منسا سليمان إلى المغرب الأقصى بأن يكمل طريقه بعدما كان هذا السفير قد توقف بعد سماعه بنبأ وفاة الملك منسا سليمان، واندلاع الصراع حول العرش من بعده.(2) حيث حملت معها تلك البعثة إلى ملك المغرب المريني أبا سالم هدية تمثلت في الزرافة، التي أدهشت المغاربة الذين تحدثوا عنها طويلا.(3) وكان ماري جاطة هذا رجلا مبذرا مسرفا، حيث بذر ثروات البلاد التي جمعها منسا سليمان، وأتلف ذخائر الدولة، إلى درجة أنه قام ببيع كتلة من الذهب الخالص تزن عشرين قنطارا، كان قد وجدها ملوك مالي مخزونة في الأرض كتلة واحدة، وكانوا يرونها من أنفس الذخائر والغرائب النادرة التي تزخر بها خزينتهم، لكنه لم يتردد في بيعها إلى تجار مصر بأبخس الأثمان، ثم صرف عائداتها في الفسق والتخلف.(4)

وفي الأخير توفي هذا الملك بمرض النعاس وهو مرض النعاس أو النوم، وهو مرض يقول عنه ابن خلدون بأنه منتشر بكرة في تلك الأرض ويصيب خاصة الحكام منهم، حيث يشعر صاحبه بالنعاس ورغبة شديدة في النوم، حتى لا يكاد يستفيق من نومه، إلا لأوقات قليلة جدا، ويبقى على تلك الحالة إلى أن يموت. وقد دامت فترة مرض ماري جاطة سنتين، إلى أن مات سنة775 هـــ/1373م. فتم تعيين ابنه موسى الثاني خلفا له.(5)

---

(1) ابن خلدون: نفس المصدر ، ص 268

(2) Delafosse :Op.Cit, p204.

(3) ابن خلدون : المصدر السابق، ص 268

(4) ابن خلدون ، المصدر السابق ،ص268.

(5) Delafosse ,Op.Cit, p205

د. منسا موسى الثاني:

تذكره الروايات الشفوية باسم إلياس فاديما موسى (Alias Fadima moussa)[1]. ورغم أنه كان عادلا ومخالف لما كان عليه أبوه إلا أنه كان رجلا ضعيف الشخصية، حيث لم يكن يتحكم في زمام الأمور، فالسلطة الحقيقية وأمور الدولة كانت بأيدي وزيره المدعو ماري جاطه، الذي حجر عليه واستبد بالحكم من دونه. هذا الوزير الذي جهز جيشا قويا وزحف به إلى الشرق حيث غزا تخوم مدينة جاو(أوكوكو) .بمملكة سنغاي، كما جهز جيشا آخر لإخضاع مدينة تقرت وما وراءها من بلاد الطوارق الملثمين، قبل أن يهادنهم[2]. كما حارب سلطان مملكة بورنو عمر بن إدريس، وفي عهد الملك موسى الثاني رفضت مدينة تكدا الغنية بالنحاس دفع الاتوات لإمبراطور مالي، فقام الوزير ماري جاطه بشن هجوم عليها وحاصرها لكن دون أن يتمكن من الاستيلاء عليها.[3] ولقد توفي الملك منسا موسى الثاني عام 789هـ/ 1387م وخلفه على العرش أخوه منسا مغا الثاني.[4]

مرض النعاس أو النوم، الذي يُسمّى أيضاً "داء المثقبيات الأفريقي، ينتشر في المناطق المدارية، وخاصة المناطق الغربية والوسطى للقارة الإفريقية، وينتقل المرض عن طريق لدغة ذبابة التسيتسي، بحيث تؤدي إلى وفاة الشخص الملدوغ نتيجة شعوره بالنعاس و ميله الشديد إلى النوم الشخص الملدوغ .

(1)Niane temsir djibril,Op cit,p47 .

(2)ابن خلدون،المصدر السابق، ص 269

(3) Delafosse :Op.Cit, p206

(4) ابن خلدون: المصدر السابق، ص 270

هـــ .منسا مغا الثاني:

وتلقبه الروايات الشفوية بـــ "كيتا تينين ماغان" (Kita tenin Maghan).[1] تولى الحكم سنة 789هـــ/ 1387م، ولم يدم حكمه إلا سنة واحدة فقط، حيث يذكر ابن خلدون بأن أحد وزرائه يدعى صندكي (أو سنديكي)، يكون قد قام بقتله سنة 790هـــ /1388م، واستولى على الحكم.[2] لكن الروايات الشفوية المحلية المعروفة بحمانا تذهب إلى أنه لم يقتل وإنما فر إلى منطقة كيتا (الواقعة جنوب غرب كنغابا، على ضفاف نهر النيجر) أين أصبح قائدا لإحدى الإمارات التي أسسها في النيجر الأعلى.[3] ويعد صندكي هذا زوج أم الملك الراحل موسى الثاني، أي زوج أرملة الملك ماري جاطة الثاني، وهو في الحقيقة لم يكن وزيرا بالمعنى الذي وصفه به ابن خلدون وإنما كان مكلفا بالمشتريات، أي بمثابة رئيسا للخزينة أو المقتصد.[4]

و. منسا مغا الثالث:

إن صندكي لم يعمر في منصبه كإمبراطور لمالي أكثر من بضعة أشهر، قبل أن ينقلب عليه أحد رجالات القصر المنتمين إلى آل كيتا من نسل ماري جاطة، ويقتله وبالتالي استرجعت عائلة كيتا العرش من جديد، حيث نقلت الملك إلى رجل يرجع نسبه إلى منسا قو أو (غاو) بن منسا أولي بن سونདياتا.[5] يسمي ابن خلدون هذا الملك محمود، أما عند دولافوس فنجده مامادو، وكان قبل استدعائه إلى تولي عرش مالي يسكن في بلاد الكفار

---

(1) Niane temsir djibril :Op.Cit, p47

(2) ابن خلدون:المصدر السابق، ص 270 ـــ بينما يذهب دولافوس إلى أنه قتل بعد سنتين من الحكم أي سنة 1389م/791هـــ (Delafosse :Op.Cit, p206)

(3) Niane Temsir djibril : Recherches sur l’empire du Mali,p47.

(4) Delafosse :Op.Cit, p206

(5) ابن خلدون : المصدر السابق، ص 270

المتواجدة جنوب مملكة مالي، والتي تكون حسب دولافوس إما أرض البمبارا (البامانا) أو الجالونكي.[(1)] فقد تربع على عرش مالي وأصبح إمبراطورا سنة 792هـ/ 1390م، وتلقب بمنسا مغا[(2)] أو منسا مغا الثالث، بما أنه ثالث ملك من سلالة آل كيتا يتوج بعرش الإمبراطورية، ويكون اسمه مغا.

7. ملوك مالي بعد منسا مغا الثالث:

يعد منسا مغا الثالث آخر ملك من ملوك مالي يتحدث عنه ابن خلدون، لأن مؤرخنا قد انتهى من كتابة تاريخه المعروف بالعبر حوالي سنة 797هـ/1395م، وتوفي سنة 808هـ/1406م.[(3)] وبالتالي لم يتمكن من إفادتنا بتفاصيل أكثر عن هذا الملك، أو تزويدنا بقائمة الملوك الذين تولوا عرش مالي من بعده. وبما أن ابن خلدون يعد المصدر الوحيد الذي يملك قائمة مضبوطة ومتسلسلة عن ملوك مالي من آل كيتا فإننا نجد أنفسنا أمام مشكلة غياب مصادر أخرى مكتوبة ملمّة بأسماء الملوك الذين تعاقبوا على عرش مالي خلال القرن التاسع للهجرة/الخامس عشر للميلاد، باستثناء روايات مختصرة عن بعض الملوك التي وردت عند بعض الرحالة والجغرافيين البرتغاليين. أو بعض المقتطفات التي وردت عند المؤرخين السودانيين أمثال عبد الرحمان السعدي ومحمود كعت.

---

(1) يمكن أن تكون هذه المنطقة هي فوتا جالون، على اعتبار أن فوتا جالون التي تعد مهد سكان المندي، قد أطلق عليها هذا الاسم من طرف شعب التكرور الذين نسبوها للديالونكي الذين كانوا أول من سكنها فحولوها إلى فوتا ديالون. حول هذا الموضوع أنظر: Delafosse :Haut S-N, tome,1 ,p296

(2) ابن خلدون : المصدر السابق، ص 270 ــ القلقشندي: صبح الأعشى، مجلد 5 ، ص 697

(3) السيد(محمد خضر): حياة ابن خلدون و مثل من فلسفته الاجتماعية. محاضرة ألقيت في الحفلة التي أقامتها جمعية تعاون جاليات إفريقيا الشمالية بالقاهرة، يوم5 صفر 1343هجرية، طبعت بالمطبعة السلفية ومكتبالها، القاهرة، 1343هـ، ص ص 27 و 29.

وعموما فإن أهم ما ميّز القرن التاسع للهجرة من تاريخ مالي هو الضعف والتقهقر، نتيجة تزايد خطر الأمم المجاورة لهم واستعادة بعض الممالك التابعة لها لقوتهم فأصبحوا يهددون وحدتها، وأخذت مساحة إمبراطورية آل كيتا تتقلص حتى إذا انقضى القرن العاشر للهجرة/16للميلاد لم تعد مالي سوى مجرد مملكة صغيرة أشبه بالإمارة منها بالمملكة.[1] ويبدو أن فتنة الصراع حول العرش بين أفراد أسرة كيتا التي بدأت بعد وفاة الملك منسا سليمان، سنة 760هـ/ 1359م، وتكررت بعد ذلك مع وفاة كل ملك كانت من أهم المشاكل التي شكلت المناخ الملائم لظهور الإمارات الطامعة في التمرد على سلطة نياني من اجل تشكيل إمارات عائلية مستقلة،[2] فأصبح ملوك مالي الذين حكموا خلال القرن التاسع للهجرة غير قادرين على التحكم في كامل رقعة الإمبراطورية مترامية الأطراف،[3] إذ فقدوا سيطرتهم على المنطقة الشرقية لإمبراطوريتهم. وكانت قبائل الموشي(أو الموسي)[4] هي أول من أقض مضاجع أحفاد سوندياتا، وشقت عصا الطاعة

---

(1) Jansen(Jan) :Épopée, histoire, société .le cas de soundjata, Mali et Guinée, p10
(2) Sékéné cissoko mody :Introduction à l'histoire des Mandingues de l'ouest. In : Ethiopiques.N°28, octobre, 1981.ـــ Sow (amadou aliou) : La Mauritanie, mon pays natal, p28.
(3)Milet(Eric) et Manaud(Jean-Luc) : Mali, Editions Olizane , Genève, 2007, p 38
ـــ حول قبائل الموشي ودولتهم أنظر: Lucien Marc :Le pays Mossi. Thèse de doctorat, faculté des lettres de l'université de Paris, Emile larose libraire-éditeur, Paris1909, p128.
(4)هي قبائل وثنية سكنت جنوب شرق مالي، وبقيت على وثنيتها و لم تعتنق الاسلام. وهي تضم مجموعات بشرية تنتمي إلى ما يعرف بشعوب الفولتا وساحل الذهب الحالية ، ولقد كانت بلاد داكومبا(Dagomba) ومامبورسي (Mampoursi) ، هي الموطن الأصلية التي انطلقت منها قبائل الموسي باتجاه المناطق الشمالية الشرقية، مكونين دولا قوية .وتقول الروايات الشفوية بان الموشيين قدموا الى الشرق منذ وقت مبكر، واحتلوا البلاد المتواجدة فيما وراء نهر النيجر وهي داكومبا ، وقد تزوج ملكهم بابنة ملك كمباكا Gambaga وأنجبت له ثلاثة أبناء واحدهم يدعى "نابا أوبري"، الذي قام خلال القرن الثامن للهجرةم14م بغزو واغادوغو(غانة)، التي كانت تسيطر عليها مملكة مالي.و هذا على عكس رواياتهم الشفوية التي تدعي بان

عليهم حتى وهي في أوج قوتهم. فلقد ذكر ابن أمير حاجب أن الملك منسا موسى أخبره بأنه كان له أعداء بينه وبينهم حروب كثيرة، يشبهون التتار في بأسهم، ولهم مهارة كبيرة في الإصابة برمي النشاب.[1] وإذا كانت هذه الأوصاف تنطبق على الموشي فإننا نعتقد بأن قبائل الموشي قد بدأت تمردها على الامبراطورية منذ وقت مبكر، كما توضح هذه الرواية أيضا عدم تمكن ملوك مالي من اخضاعهم مثل باقي القبائل والامارات.اذ استطاع هؤلاء الموشيين الحفاظ على استقلالهم وحريتهم ووثنيتهم بقوة السلاح أمام قوة ملوك مالي المسلمين. فغنى منطقة الدلتا النيجرية ورفاهية المدن الساحلية كانت على ما يبدو تجلب أطماع الفرسان الموشييبن التي كانت تقوم بحملات متكررة على المبراطورية مالي.[2] و يذكر السعدي بأنه خلال عهد حكم منسا مغا خليفة الملك منسا موسى، قدم ملك الموشي بجيش عظيم، وقام بغزو مدينة تمبكتو التي كانت في حظيرة الماليين، فخاف اهلها وتركوها هاربين، فدخلها الموشيين وأحرقوها وخربوها، وقتلوا من قتلوا ونهبوا ما فيها من أموال،[3] وبقيت مدينة تمبكتو مستقلة عن مالي لمدة سبع سنوات قبل أن يسترجعها الماليون مرة أخرى في عهد الملك منسا سليمان، وسيطروا عليها بعد ذلك لمدة قرن من الزمن.[4]

من كان يسكن واغادوغو في ذلك الوقت أناس متوحشين ، عراة و يوشمون بطونهم.حول قبائل الموشي ودولتهم أنظر: Lucien Marc :Le pays Mossi. Thèse de doctorat, faculté des lettres de l'université de Paris, Emile larose libraire-éditeur, Paris1909, p128.

(1)العمري:مسالك الابصار،ج4، ص 120

(2) Sékéné mody cissoko: Tombouctou et l'empire Songhay. L'harmattan, Paris, 1996, p32 ,

(3) تاريخ السودان، ص 9 .

(4) Barth(Henri) :Voyages et découvertes dans l'Afrique septentionale et centrale,tome4,pp14,15,16 ـــ السعدي:المصدر نفسه، ص9 .

ومع بداية القرن التاسع للجرة/ 15الميلادي، عاود الموشيون هجومهم على إمبراطورية مالي، وخاصة مع ملوك أسرة ياتنغا أين قام احد ملوكهم الملقب بمورو ــ نابابي (Moro Nabani-) وهو الملك ناصيري أو بانغوو، بغزو ونهب مسينا وتوجه نحو بحيرة ديبو. وضفاف نهر النيجر ووصل إلى غاية ولاته.(1) ويرجح دولافوس أن تكون هذه الغزوة الموشية قد حدثت حوالي سنة 1400للميلاد،/ 802 هجرية، وبالتالي تكون قد حدثت في عهد الملك منسا مغا الثالث أو عهد أحد خلفائه المباشرين.(2)

وأمام الضعف الذي أبداه ملوك مالي في مواجهة غزوات الموشي، تحركت القبائل الصحراوية أيضا، حيث قام سنة837هــ/1433م أمينوكال"عقيل آغ امالو" وهو زعيم صنهاجة اللثام أو ما يعرف بالطوارق مغشرن بالسيطرة على الصحراء التابعة لمالي مثل الأزواد، أروان، ولاته وتمبكتو دون مقاومة تذكر، وأسس إمبراطورية ترقية حقيقية، بعدما نهب تمبكتو، واسترف الحاميات العسكرية المالنكية، لكن الطوارق حافظوا على حاكمها المعين من امبراطور مالي وهو محمود نداي، وفرضوا عليها سيطرتهم لمدة أربعين سنة.(3) وفي نفس الوقت قام ملوك سنغاي من آل سني باحتلال أغلب الاراضي التي كانت تحت سيطرة المندينغ، حيث غزا الملك سني سليمان داما (أو دام) والملقب بداندي مدينة ميما ونهبها وقضى على سلطة مالي عليها.(4) واحتل سني علي معظم الاراضي الواقعة على النيجر مستعملا كل وسائل النهب والقتل والبطش.(5) كما افتك تمبكتو من الطوارق،

---

(1) Niane temsir djibril :Mise en place des populations de la haute Guinée.In :revue Ethiopique ,N°2,Avril,1960,pp40 — Trimingham(Spencer) :Op.Cit,p74

(2) Delafosse(Maurice) :Op.Cit,p210

(3) Sékéné mody cissoko : Tombouctou et l'empire Songhay. L'harmattan, Paris, 1996, pp46, 47. — Trimingham(Spencer) :Op.Cit,p74

(4) Mahmoud Kati :Tarikh el fettach,p82

(5) السعدي:المصدر السابق، ص ص 64 و65.

وأضاف مدينة جني لإمبراطورية سنغاي.[1] أما الاسقيا محمد فبدا منذ عام 898هـ/ 1493م بغزوكل الإمارات الشمالية الغربية لمالي رغم المقاومة التي لاقاها من طرف الحكام الممثلين لسلطة مالي مثل عثمان حاكم باغانا، والزعيم الفولاني لمنطقة مسينا.[2] وبذلك فقدت إمبراطورية مالي قوتها وثروتها التجارية العابرة للصحراء نتيجة لفقدانها لإماراتها الشرقية، والصحراوية. وأمام هذه الاوضاع، ومع نهاية القرن الثامن وبداية القرن التاسع للهجرة/نهاية القرن14 وبداية القرن15 الميلاديين، بدأت هجرات آل كيتا باتجاه الجنوب أين تأسست إمارات حمانا وديوما التي حكمها فرع آخر من أل كيتا المنحدرين من الاميرين سيري بوري (Séré bory) وسيري بانجوغو (Séré bandjougou) واللذان قاما بتخليص العاصمة نياني من احتلال الفولاته المعروفين بواسولونكي(Wassoulounké) واستقرا فيها وحكماها الواحد تلو الآخر [3]، أما الجهة الغربية للإمبراطورية بقيت محافظة على تبعيتها لمالي. فخلال النصف الثاني من القرن التاسع للهجرة/15ميلادي، أي في سنة 1455م زار الملاح البندقي كادا موستو (Cada Mosto)[4] الرأس الاخضر وغمبيا، كما زار جزر بيساغوس(Bissagos)، وأخبرنا بأنه

---

(1) Mauny(Raymond) :Les siécles obscurs de l'Afrique noire. Edition Fayard 1970,p160. _ Delafosse(Maurice) :Op.Cit,p210 .

(2) Cuello(Gabriel) et Loic (Robin) : LesMalinké du konkodugu. Edit : L'harmattan , Paris, 2005 ; p17 -- Trimingham (Spencer) :Op.Cit,p74

(3) Niane Temsir djibril : Recherches sur l'empire du Mali, p94

(4) هو الفيس كادا موستو أو (الفيد دا كادا موستو) Alvide da cada mosto ، و يدعى بالبرتغالية " لويس كادا موستو أو "لويجي كادا موستو Luigi cada-Mosto". وهو ملاح بندقي ولد بالبندقية عام 1432مو توفي في 18جويلية 1488م. كلفه الامير البرتغالي هنري الملاح لقيادة كشوفاته في سواحل إفريقيا الغربية، حيث اكتشف سقاحل السنغال خلال رحلته الأولى، ثم ماديرا وجزر كاناريا خلال رحلته الثانية. وفي سنة 1460م حرر جريدته الخاصة بالرحلة، والتي صدرت بميلانو في 1507و 1508م تحت عنوان "الملاحة في أرض مجهولة".

في ذلك الوقت كان منديو منطقة غمبيا كانو مايزالون تابعين لامبراطو مالي، وهذا ما ذكره له أحد فرباته،[1] حيث أخبره بأنه يُدعى باتي منسا(Batti mansa)[2]ووصفه بأنه الملك الكبير للسودانيين، وأنه كان لديه عدة حكام أقل سلطة وقوة منه وهم خاضعون له.[3]

ولقد بدأت مملكة مالي خلال أواخر القرن التاسع للهجرة/15م، تتعرف على البرتغاليين وتقيم علاقات معهم، فقد قام ملك البرتغال جون الثاني الذي اعتلى العرش سنة 1481م[4] بحملة لاكتشاف الساحل الغربي لافريقيا واحتلاله[5]، وكان يحكم مالي في ذلك الوقت ملك يدعى منسا محمود، وهو "محمود بن منـــزوغول" والذي كان قد خلف أباه منسا أولي الثاني الذي جاء إلى الحكم بعد أبيه منسا موسى الثالث.[6] وكانت

(1) الفربا هو بمثابة الوالي أو حاكم المقاطعة، و هو خاضع للامبراطور و يأتمر بأمره.

(2) وفي روايات أخرى نجده يدعى "منسا مندي" والتي تعني ملك المندينغ .(عايدة العزب موسى: تجارة العبيد في إفريقيا. مكتبة الشروق الدولية،طبعة أولى ،القاهرة،1428هـ/2007م، ص64)

(3) De Ca da mosto(Alvise): Relation des voyages à la cote occidentale d'Afrique (1455 et 1457) . Publié par :M.Charles Schefer,Edité par :Ernest leroux editeur,Paris,1895,pp157et 158

(4)حكم جون الثاني بين 1481و 1495م.

(5)كان ملك البرتغال دون جواو الثاني (don Joao2) مسيحي كاثوليكي متشدد، وعندما صعد إلى العرش في 31 أوت 1481م جهز أسطولا بحريا لاستعراض قوة البرتغال في الساحل الغربي لإفريقيا في منطقة المينا نسبة لمناجم الذهب المتواجدة بها، وقد أوكل هذه المهمة الاستكشافية لديوغو كاو DiogoCao
Alexandre magno de Castilho : des Etudes historico-géographiques. Première étude sur les colonnes ou monuments découvertes Portugaises en Afrique, Imprimerie nationale, Lisbone, 1896, pp6et7 .

(6) Delafosse(Maurice) :Op.Cit,p211.

عاصمة هذا الملك ومقر إقامته هي مدينة سونغو (Songo)[1] التي كان يدير شؤونها حاكم خاضع لمنسا محمود وهو فورو سونغول،(ويعني حاكم سونغو).[2] ونشير إلى أنه في هذه الأثناء كان البرتغاليون قد بدأوا فعلا يتدخلون في المنازعات الداخلية للبلدان الساحلية، كما انتهجوا سياسة محاباة صغار الرؤساء في المناطق الساحلية بواسطة التجارة لحملهم على التحرر من سلطة منسا مالي.[3] ويبدو أن منسا محمود هذا ينحدر من نفس الفرع من سلالة آل كيتا الذي يرتبط بسونيدياتا كيتا، ويظهر ذلك من خلال القاب آبائه وهم منسا اولي الثاني ومنسا موسى الثالث، مما يبين أنهم كانوا امتدادا لمنسا أولي الأول ابن سونيدياتا، ومنسا موسى الأول والثاني الذان سبقا ذكرهما.

وبهذا يمكن أن نقول بان منسا محمود كان آخر أباطرة مالي، حيث يذكر السعدي بأن ملك سنغاي الاسكيا الحاج محمد قام في سنة 1500م ،أي في السنة السابعة من حكمه، بإرسال أخيه "عمر كمزاغ " إلى منطقة زلن ليقاتل (قام فتي قلي) وهو قائد سلطان مالي الذي ولاه هذه البلاد التي كانت تحكمها عشيرة ديارا، فدمر البلاد ونهب دار ملك مالي وسبى أهله.[4] وفي عام 1506م، غزا هذا الأسكيا منطقة غلام الغنية بمناجم الذهب، وتوغّل في حدود التكرور،[5] وبذلك فقدت مالي كل أراضيها الشمالية.

---

(1) رغم أن هنري بارث (Henri Barth:Voyages et découvertes dans l'Afrique septentrionale et centrale) حاول أن يربط بين سونغو وسونغاي إلا أن دولافوس يوضح بأنها لا تمت لها بصلة و يقول بأن هذه العاصمة تقع عند نفس الخط مع رأس النخيل(cap des palmes) أي على بعد حوالي 777كيلومتر عن الساحل . ـــ Delafosse(M) :Op.Cit,p110

(2) Ca da mosto Alvis ;Op.Cit ,pp150 et 157

(3) جبريل تمسير نياني: مالي والتوسع الثاني للمندينغ،ص194.

(4) تاريخ السودان، ص 75.

(5) Trimingham(Spencer) :Op .Cit,p74 .

وفي عهد خليفة الإمبراطور منسا محمود وهو السلطان محمود الثاني كانت مالي قد فقدت معظم أراضيها، وتحولت إلى مجرد مملكة صغيرة تضم فقط جزء من التكرور. حيث تعرضت سنة 1560م إلى هجوم من طرف زعيم الفولاتة المدعو كولي الذي حاول السيطرة على بامبوك والإغارة على الجزء الغربي من بلاد مالين مما دفع بمحمود الثاني إلى الاستنجاد بالبرتغاليين، وأرسل سفارة لهم يطلب مساعدتهم دون أن يجد استجابة فورية لطلبه.(1) أما حاكم بمبوك فإنه لما رأى عجز المندينكا وتخليهم عنه قرر الاستقلال بدوره عن مملكة مالي نهائيا .(2)

ومهما يكن فإنه بانقضاء القرن التاسع وبداية القرن العاشر الهجريين/15و16، فإن الكلام عن مملكة مالي لم يعد يعني أكثر من مملكة صغيرة متخذة من نياني عاصمة لها إلى غاية سنة 1080 هجرية/1670ميلادية، ففي هذا التاريخ انهزم آخر ملك لمملكة مالي الذي كان مايزال يحتفظ بلقب امبراطور، وهو الملك "ماما ماغان كيتا" من طرف ملك مملكة سيغو بيتو كولوبالي (Bitou Kouloubali) لذلك فقد نقل العاصمة من نياني إلى كنغابا مرة أخرى بعدما تقلصت الامبراطورية الى عدة مملكات صغيرة، وكان الملك مامبي كيتا(Mambi Keitad) هو آخر أحفاد سونדياتا كيتا، وآخر ملك من نسل عشيرة كيتا حكم مالي وتوفي في كنغابا في أواخر القرن 19 الميلادي.(3) لذلك نجد المؤرخ الإسباني مرمول كرفجال(4) لما تحدث عن مالي وصفها بأنها لم تكن سوى مجرد قرية كبيرة يسكنها

---

(1) Delafosse(Maurice) : Op ;Cit,p112.
(2)Trimingham(Spencer) :Op .Cit,p74
(3) Delafosse(Maurice) :Traditions et legendes du soudan occidental, p30 31,في الهامش للاشارة فقد تم ابعاد ورثة مامبي كيتا عن الحكم، و احتفظ بهم في إقامة جبرية.
(4) هو لويس مرمول كرفجال، مؤرخ إسباني عاش خلال القرن 16 للميلاد. و قد تحول إلى أسير عند المسلمين بعد مشاركته في حملة شارلكان على تونس عام 1535م، ثم عاد إلى اسبانيا بعد ثماني سنوات من

ست آلاف ساكن.[1] وبالتالي عادت مالي كما بدأت خلال القرن الحادي عشر للميلاد، عندما كانت مجرد قرية كبيرة يسكنها الصيادين من عائلة كيتا.[2]

المبحث الثاني

دور خلفاء سوندياتا في تطور وازدهار إمبراطورية

أولا:دورهم العسكري:

عند وفاة سوندياتا لم تكن إمبراطورية مالي قد بلغت أقصى امتدادها واتساعها، فرغم أن سوندياتا ترك لخلفائه من بعده مملكة تتربع على مساحة أكبر بكثير من المساحة التي تشغلها جمهورية مالي الحالية[3]، إلا أن أحفاده من بعده لم يكن طموحهم يتوقف عند تلك الحدود، فقاموا بمواصلة جهود جدهم الحربية من أجل ضم المزيد من الأراضي لسيطرتهم.

فقد استطاع حفيد سوندياتا الملك منسا موسى أن يوسع إمبراطورية أجداده باتجاه الشرق، حيث يذكر ابن خلدون نقلا عن الحاج يونس ترجمان منسا موسى في القاهرة

الأسر، و قد ألف كتابه "وصف إفريقيا العام" المكون من ثلاثة أجزاء، كما كتب كتاب تاريخ ثورة المور بغرناطة عام 1600م. ــــ الذي عاش خلال تلك الفترة عندما تحدث عن مالي، التي ربماكان يقصد بها مدينة نياني، وصفها بأنها كانت مجرد قرية كبيرة يبلغ عدد سكانها ست آلاف ساكن، وكانت تابعة لامبراطور سنغاي.

(1) مرمول كرفجال: إفريقيا. الجزء الثالث، ص 201 .

(2) وعموما فإن الفترة الممتدة إلى غاية سنة 1670م سجلت وصل مالي إلى آخر مراحل انحطاطها وزوالها كمملكة، والتي اتخذت شكلا متسارعا بسبب تصاعد قوة دويلات البمبارا في منطقة سيغو وكارتا.

(3) جوان جوزيف: المرجع السابق، ص71 .

بأنه غزا مملكة سنغاي وعاصمتها كوكو(جاو) بقيادة أحد ضباطه الذي يدعى سغمنجه، وضمها إلى حظيرة ملكه،(1) وذلك خلال عودته من الحج سنة 726هـــ/1326م. ورغم فروض الطاعة والولاء التي قدمها له ملك سنغاي ضياء أسيباي أو (زا ياسبي)، إلا أن منسا موسى قام بأخذ ابني هذا الملك كرهينتين وهما علي كولن وسليمان نار.(2) وذلك حتى يكونان ضمانا لولاء أبيهما.وقد ضم أيضا إلى امبراطوريته مدينة تمكبكتو وجعل فيها خليفة له، و لم تصمد أمامه سوى مدينة واحدة في السودان الغربي كله ألا وهي مدينة جني، التي كثيرا ما غزاها لكنها قاومته.(3) كما أخضع في طريقه إلى الحج أيضا مدينة ولاته، وغزا مدينة ميما وتوات،(4) وسيطر منسا موسى أيضا على طريق الملح والذهب الذي كان يخترق الصحراء الكبرى، فتملّك بلاد الونغارا، ومناجم الملح في تغازة، ومناجم النحاس في تاكدا.(5) كما قام نفس الملك حسب شهادة المؤرخ السوداني أحمد بابا التمبكتي بالتوسع باتجاه الغرب والشمال الغربي على حساب أراضي الطوارق، حيث سيطرته على منطقة باغن أو باغينا أين كانت توجد خرائب مدينة غانا المندثرة (كومبي صالح)، كما استولى على كل البلاد المأهولة بالسكان، والممتدة من منطقة تاغانات

---

(1) العبر،ج 6، ص 267. ونشير إلى أن ابن خلدون كان قد ذكر في موضع آخر بان الذي فتح كوكو هو ساكورة.(العبر مجلد الخامس، ص 396) قبل أن يتراجع عن ذلك.

(2) ابن خلدون: المصدر السابق، ص 267 ـــ السعدي (عبد الرحمان): المصدر السابق، ص5 .

Delafosse (Maurice):Op.Cit, p189.

(3) السعدي: المصدر السابق، ص ص 12و13.

Barth(Henri) : voyages et découverte dans l'Afrique septentrionale et centrale, tome 4, pp15, 16.

(4)جوان جوزيف : المرجع السابق، ص 73 .

(5)Delafosse (Maurice):Op Cit, p189.

والأدرار الموريتانية أو ما يعرف بالجزء الغربي من الصحراء، بالإضافة إلى سيطرته على بلاد التكرور الغربية.[1] .

ويذكر ابن خلدون بأنه خلال فترة حكم منسا موسى الثاني، والذي تلقبه الروايات الشفوية بإلياس فاديما موسى(Alias Fadima moussa)، التي امتدت بين سنتي 775هـــ /1373م و 789هـــ/1387م، عرفت الإمبراطورية توسعات مهمة، فرغم أن الملك منسا موسى الثاني كان ضعيف الشخصية، واستبد وزيره ماري جاطة بأمور الدولة، إلا أن هذا الأخير قام بتجهيز الجيوش والكتائب باتجاه الحدود الشرقية لمدينة كوكو(جاو)، كما جهز جيشا آخر لغزو مدينة تكرت، التي كانت تقع على بعد سبعين مرحلة جنوب غرب مدينة وركلان، وكانت تسيطر على طريق الحج الواقعة فيما وراء بلاد الطوارق الملثمين، فتلب عليها ثم هادنها وأقام مع أمراء وركلان والزاب علاقات طيبة، وتبادل معهما الهدايا.[2] وبقيت الحاميات العسكرية المالية تسيطر على أهم مراكز ثقلها شمال وشرق النيجر بما فيها تمبكتو إلى غاية الملك منسا مغا الثالث،[3] أي إلى غاية الغزو الموشي على تمبكتو.

ولعل أهم إنجاز حققه أحفاد منسا موسى وسوندياتا هو محافظتهم على اتساع إمبراطوريتهم التي بقيت تسيطر على أكبر مساحة في منطقة النيجر والسنغال العلويين، وذلك لمدة فاقت قرنين ونصف قرن من الزمن، سيطروا خلالها على معظم شعوب المنطقة. لكن ذلك لم يحدث إلا بفضل المجهودات التي بذلتها عائلة كيتا في ميدان تنظيم

---

(1) Barth (Henri),Op cit, p14.

(2) المصدر السابق، مج 6، ص ص269 و 270.

(3) Alias(N) Saad :Social history of timbuktu ,The royal of muslim scholars and notables,1400-1900.Cambridge university press, 2010, p38 -

الجيش وتطويره من خلال إستراتيجية عسكرية كانت عنوان لقوة هذه الإمبراطورية والقائمين عليها، فبعد الانتصارات التي حققها سوندياتا ضد خصومه قام بتنظيم طبقة المحاربين التي تعرف بكالا تيغي (Kala tigui) المشكلة من فئة المنديين، وهي طبقة أرستقراطية عسكرية.(1) وعلى ما يبدو فإن هذا التنظيم وهذه الإستراتيجية العسكرية التي بدأها سوندياتا، قد ارتقى بها كل من منسا موسى وأخوه منسا سليمان إلى درجة بلغ فيها جيش مالي في عهدهما قوة و عددا غير مقدرين.(2)وأصبح لكل مملكة أو إمارة مالنكية دفعتها العسكرية الخاصة بها، إذ أن كل إمارة أو قبيلة تقوم بتزويد الإمبراطورية بجيش من أبنائها، بحيث يتوجه جزء منهم إلى العاصمة نياني ليكون ضمن الجيش المكلف بحراسة المنسا.(3) وقد ذكر ابن بطوطة بان قبيلة مسوفة كانت توفر جزءا من الجيش المخصص لحراسة المنسا سليمان.(4) فكان الجيش الخاص بحراسة منسا موسى يتكون حسب أبي الفضل العمري يتكون من مئة ألف رجل، منهم عشرة ألاف فارس من فرسان الخيالة، والباقي من المشاة.(5) وكانت القوة العسكرية في مالي تقوم على نظام تربوي يرتكز على امتحانات الصبر والجلد تحضيرا للحروب، فقد كانت عملية التأقلم مع الحياة الريفية الصعبة أفضل مدرسة للشبان البالغين سن السابعة إلى غاية عشرين سنة، فكان الشاب المالنكي يجتاز عدة مراحل، تبدأ بإثبات نفسه داخل مجموعته ومدى قدرته على اجتياز امتحانات القوة والصبر من خلال تمارين المصارعة والمبارزة مع أنداده من الشباب. فالشاب المراهق البالغ سن الخامس عشر كان لا بد عليه أن يُثْبت أنه مفيد لمجموعته سواء

(1) Niane (Temsir Djibril) :Le Soudan occidental ,p120.

(2) Barth(Heinrich)et Ithier(Paul):Op.Cit,p14.

(3) Niane (Temsir Djibril) : Recherches sur l’empire du Mali, pp64 ,65

(4) المصدر السابق، ص684.

(5) المصدر السابق، ص116.

في العمل أو القنص. وكان هذا الامتحان ينتهي بإجراء عملية الختان التي تمثل نهاية سن المراهقة وبداية مرحلة الشباب والرجولة، ومنذ ذلك الحين يصبح له الحق في لبس اللباس الخاص بالرجال وهو القبعة والسروال، كما يصبح ملزما بتلبية نداء الملك في حالة التعبئة للحرب، كما يصبح له الحق في حضور الجمعيات العامة الخاصة بالرجال الأحرار.(1) وخلال الحروب كان إمبراطور مالي يتخذ قائدين، أحدهما صاحب اليمين(الميمنة) ويسمى "فاران زو مع" وآخر صاحب اليسار(الميسرة) ويسمى "فلران سورا" وتحت كل واحد منهما عدد من الكتائب والقادة.(2)

وخلال فترات السلم كانت مهمة هذه القوة العسكرية تتمثل في مراقبة المدن التجارية الغنية، كما كانت تراقب الأسواق الجنوبية في منطقة الغابات. و هذا ما جعل الطرق التجارية تمتاز منطقة الساحل الصحراوي بالأمن على مدار السنة خلال فترة حكم منسا موسى وأخيه سليمان، فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق ولا غاصب.(3) وخلال لفترات المتأخرة من حكم عائلة كيتا أصبح جزء كبير من الجيش المحترف يتكون من العبيد الذين يطلق عليهم اسم "فودو باجو (Fodo bajo) والتي تعني طائفة العبيد، كما كانوا يتخذون لقب "صوفا Sofa"(وهي على خلاف فئة أخرى من الأسياد تسمى "توتي" والتي كانت تسلح نفسها بنفسها) كانت تعتمد على الدولة في التسليح، وتتطوع في الحرب وتتشرف بذلك.

ولقد كانت طائفة صوفا أو (فادو باجو) عبارة عن وحدات سياسية وإدارية تشكلت كل واحدة منها حول عشيرة من العشائر التي لم تكن تربطها علاقة مصاهرة مع عائلة

(1)Niane (Temsir Djibril) :Le Soudan occidental,p120.

(2) السعدي: المصدر السابق، ص 11.

(3) ابن بطوطة:نفس المصدر السابق، ص 690.

كيتا الملكية، فكانت هذه الأخيرة تضمن خضوع هذه العشائر بالقوة عن طريق هذه الفئة من الجنود المحترفين.(1) وعلى سبيل المثال فمدينة تمبكتو رغم أنها تتوفر على عدد كبير من المالنكيين من فئة الوانغارا، لكنهم كانوا مشغولين بالتجارة والدعوة والتعليم، لذلك كان يحكمها رجل يدعى محمد ناد، وهو من طائفة الأجير التي كانت منتشرة في منطقة شنقيط الموريتانية في الصحراء الجنوبية الشرقية، وفي مسينا، والذي لم يكن يتحكم في الحامية العسكرية التي كانت مستقلة عن سلطته.(2)

ثانيا: النظام السياسي و الإداري:

عندما نتحدث عن التنظيمات السياسية والإدارية لإمبراطورية مالي لا بد أن نعترف بالدور الذي أنجزه سوندياتا في مؤتمر كوروكان فوكا سنة 1236م ، ذلك أن هذا المؤتمر هو الذي وضع الأطر العامة وحدد أسس التنظيمات السياسية والاجتماعية والاقتصادية في مالي، والتي بقيت سائرة لمدة عدة قرون.(3) لذلك نجد بأن خلفاء سوندياتا قد احتفظوا بالأسس العامة لتلك التنظيمات وطوروها حسبما تقتضيه ظروف الإمبراطورية وتوسعاتها، كما استقوا بعض التنظيمات الأخرى من الدول التي سبقتهم في هذا المجال، وخاصة الدول الإسلامية بالمشرق كمصر والحجاز، والتي تأثر بها ملوك مالي من عائلة

---

(1) Sory camara :Gens de la parole :Essai sur la condition et le rôle des griots dans la société Malinké. Paris, Karthala, 1992,69.

(2) Elias(N) Saad : Social history of Timbuktu : The rol of muslim scholars and notables, 1400-1900. Cambridge university press, 2010, p38.

(3) Sissoko (Birama) :La charte de l’ancien empire du Mali pourrait inspirer les Maliens d’aujourd’hui. Article publié par : Le centre Djoliba, Mali. Juillet1996 sur le site : http : //base.d-p-h.info/fr/corpus.1207.html.

كيتا من خلال رحلاتهم إلى الحج،كما استفادوا من نصائح بعض مستشاريهم من المسلمين الذين كانوا يستعينون بهم.(1)

1.التنظيم الإداري:

رغم قلة المعلومات التي تتحدث عن طريقة تنظيم عائلة كيتا لأمورهم السياسية والإدارية، إلا أن المصادر التي بحوزتنا تفيد بأن آل كيتا قد تبنوا نظاما سياسيا وإداريا صارما ميزهم عن غيرهم من الأسر المالكة في السودان الغربي ككل. ولعل أهم خاصية في إدارتهم هي (لامركزية) نظام الحكم، وهو نفس النظام الذي أسسه سوندياتا لكنهم أدخلوا عليه بعض التعديلات. فلقد كانت إمبراطورية مالي أثناء أوج قوتها تتميز بنظام كنفدرالي (أو اتحاد تعاهدي)تظم 400 مدينة،(2) وكانت هذه المدن موزعة على أربعة عشر إقليما(3) وكانت هذه الأقاليم بدورها موزعة على خمس ممالك أو سلطنات هي مملكة مالي، مملكة كوكو أو سنغاي، مملكة غانة(التي تقلصت إلى إمارة صغيرة هي باغانا)، مملكة تكرور التي كانت تابعة إلى عشيرة ديارا، مملكة صوصو ومملكة الجولوف(في منعطف السنغال) تتمتع هذه الممالك باستقلال داخلي، لكنها تقدم كلها الولاء لصاحب مملكة مالي.(4) وكانت هذه الممالك تضم عدد من الإمارات أو المقاطعات أو السلطنات تتمتع كل واحدة منها باستقلال واسع لكن في إطار الإمبراطورية.(5)وكانت تعرف هذه

---

(1) جون فايج و رولاند أوليفر: تاريخ إفريقيا، ص35.

(2) Mahmoud kati :Tarikh el fettach,p67

(3) العمري (أبو الفضل): مسالك الأبصار، ج4، ص109.

(4) القلقشندي: صبح الأعشى، ج5، ص 292. ـــ Niane temsir djibril. Recherches sur l'empire du Mali, p58.

(5)جبريل تمسير نياني: مالي و التوسع الثاني للمندينغ،ص167.

المقاطعات أيضا ب"كافو" على رأس كل واحدة منها حاكم أو رئيس يدعى فاران (أو فاربا)،(1) وإن كان سوندياتا كيتا هو من وضع منصب الفربا، إلا أن خلفاءه أدخلوا بعض التعديلات وحددوا صلاحيات كل فربا حسب الظروف المستجدة. ويعرف هذا الحاكم أيضا بلقب ديامانتيغي أو كافوتيجي، وهو الذي يمثل سلطة مالي في مقاطعته، كما انه يعد المتكلم باسم سكان المقاطعة لدى منسا مالي إذا اجتمع برعيته (2) أي يعد بمثابة نائب السلطان حسب ابن بطوطة الذي يقول بأن فربا معناه النائب.(3)

أما المقاطعة (كافو) أو (ديامانا) فكانت هي الأخرى مقسمة إلى مدن وقرى تعرف باسم دوغو والتي كانت السلطة فيها أحيانا ذات رأسين، أحدهما يمثل السلطة الدينية والآخر يمثل السلطة السياسية.(4) فقد شبهت إمبراطورية مالي في ظل حكم عائلة كيتا بحبة منغا (أو مانغو)، في وسطها نواة صلبة تخضع للإدارة المباشرة للملك الذي كان يتفقد أطراف الإمبراطورية من وقت لآخر، وحول هذه النواة المركزية هناك قشرة تمثلها الممالك المتماسكة والتابعة للإمبراطورية التي تتمتع بالحرية وتقوم بإدارة أمورها عن طريق وسيط يمثله الزعيم التقليدي(5) أي أن حاكم المقاطعة أو الفاربا هو بمثابة وزير مقيم الذي يمثل السلطة التنفيذية للإمبراطورية في تلك المقاطعة.

---

(1) هي كلمة مالنكية تعني الموظف السامي ، و أصل الكلمة هو فاربا أو فاما لكنها حرفت، و قد تعني أيضا القائد العسكري.

(2) السعدي(عبد الرحمان): تاريخ السودان،ص10.

- Delafosse(Maurice) :Haut Sénégal Niger, tome3 ,p134

(3) الرحلة، ص 676.

(4) Traoré(koufecou) :Comment l'empire du Mali au 12ème siècle articulait les échelles de gouvernance.In site : http://www/afrique-gouvernence.net.

(5) Traoré(koufecou) Op Cit

وما يجب الإشارة إليه هو أن المصادر الشفوية لتاريخ مالي تؤكد دائما على أن بناء المجتمع المالنكي كان دائما يقوم على أساس القرابة، والجيرة والعشيرة،(1) لذلك نجد بأن زعماء العشائر في مالي القديم كانوا يشكلون الوحدات السياسية الأساسية للسكان، فكان ينصب على رأس المقاطعات أفرادا يمتون بصلة إلى العائلة المالكة ويعرفون بلقب دوغو تيجي، الذي يعني الزعامة الدينية و السياسية، وفي حالة وجود زعيم سياسي لسبب من الأسباب، فإن "دوغو تيجي" يبقى محافظا على زعامته الدينية.(2) وفي حالة تشكيل مقاطعة جديدة من طرف المنسا فإن ذلك يتم عن طريق الإرث وليس على أساس جغرافي، أي عن طريق الحق الذي يضمنه له الانتماء العشائري أو الطبقي. فنجد أن الفاران يكون مدعوما بقوة العشيرة التي ينتمي إليها والتي يحددها عدد العبيد أو(ديون) التي تملكها، فلقد كان رؤساء العبيد الملقبون بـــ(ديون سانديجي Dyon-Sandigi) يلعبون دورا قويا ومهما عن طريق المؤسسات المحلية، فالعبد المندي يصبح حرا (بولا) بعد ثلاثة أجيال، مما يعطي قوة للجماعة التي كانت تملكه.(3) أي أن تعيين حكام المقاطعات كان يتم على أساس إقطاعي وعشائري، وهذا لضمان الولاء للسلطة المركزية، أما إذا كان الحاكم من خارج هذه العائلات، وخاصة في الأقاليم البعيدة مثل منعطف نهر السنغال، فإننا نستنتج مما رواه السعدي عن ملوك سنغاي بأنه كان يتعين على الملوك وحكام المقاطعات إرسال أبنائهم إلى قصر المنسا بنياني، وعندما يبلغون سن الخدمة المحدد بخمسة عشر سنة فأكثر يأخذهم المنسا معه لخدمته، فبعض هؤلاء الشباب يعودون إلى مملكتهم

---

(1) Taylor and Francis : ancient Ghana and Mali ;Studies in Africa history. Harper and Raw Publisher, INC, United states of America, p105

(2) Trimingham(Spencer) :Op Cit, p76 .

(3) Monteil (Vincent) :L’islam noir. Editions du Seuil, Paris,37ème éditions, 1980,p91, للإشارة فإنه في مالي وجدت بعض العائلات الأميرية التي كان يعين منها أغلب حكام المقاطعات وهي عائلات كيتا، كامارا، كوناتي، كوليبالي.

وبعضهم يبقى في خدمة الإمبراطور إلى غاية وفاته[1] وهي وسيلة لجعل هؤلاء الشباب رهائن لدى الإمبراطور حتى لا يتمرد عليه آباؤهم، وبالتالي يضمن بقاء الولاء للسلطة المركزية في نياني. وأحيانا أخرى كان الإمبراطور المالي يقوم بتهيئة حكام من خارج الأسرة لتولي منصب أعلى مثلما حدث لحاكم ديارا الذي تحول من فاران إلى ملك وتحصل أحفاده على حق وراثة الملك في ديارا.[2] وعموما فإننا يمكن أن نقول بأن تعيين الفاران أو الفاربا كان من صلاحيات الإمبراطور وبتكليف منه في أغلب الأحيان.

وتتلخص مهمة الفاربا أو الفاران في السهر على حفظ الأمن والنظر في الأمور الإدارية، يساعده كاتب يتمتع بالعلم وعارف بشؤون الإنشاء وقواعد الشريعة الإسلامية،[3] فكان الفاران يجمع بين الوظائف السياسية والإدارية والقضائية، فهو بمثابة رئيس تجمع شيوخ القرى، حيث يمكنه التدخل كلما كانت هناك قضية تهم المقاطعة ككل، أو قريتين فأكثر من المقاطعة التي يرأسها.[4] كما كان يشرف على مراقبة القبائل وضمان جمع الضرائب والجزية التي يحرص على جمعها بنفسه وإرسالها إلى مدينة نياني، وفي حالة الحرب فيمكنه أن يسخر جنودا من رجاله للدفاع عن مقاطعته وعن الإمبراطورية، وإذا لزم الأمر فيمكن للفربا أن يطلب قوات عسكرية من ملك الإمارة التي تنتمي إليها مقاطعته.[5]

ويخبرنا ابن بطوطة بأنه كان لبلدتي كابرة وزاغة الواقعتين على ضفة نهر النيجر سلطانان يؤديان الطاعة ويدفعان الضرائب لملك مالي، كما يصف لنا حفل تنصيب حاكم من

---

(1) السعدي: المصدر السابق، ص5.

(2) Niane temsir djibril. Recherches sur l’empire du Mali, p59

(3) الشكري احمد: المرجع السابق، ص190.

(4) Delafosse(Maurice) :Haut Sénégal-Niger, tome3 ,p134.

(5) Traoré(koufecou) :Op.Cit – Trimingham(Spencer) :Op.Cit, p76.

الطوارق ينتمي قبيلة مسوفة الصنهاجية من طرف ملك تمبكتو المعروف باسم فربا موسى، حيث جعل عليه ثوبا وعمامة وسروالا كلها مصبوغة، وأجلسه على درقة، ورفعه كبراء قبيلته على رؤوسهم إلى.[1] كما أخبرنا صاحب تاريخ الفتاش عن حاكم مدينة جني وهو جني كوي الذي وصفه بأنه يعد من أكثر الحكام خضوعا لملك مالي، حيث كان يتعامل مع زوجة منسا موسى، وكان يدفع لها الضرائب الخاصة بمقاطعة جني، ولم ير في حياته منسا موسى، ورغم الحادثة التي وقعت له عند مهاجمته للقارب الذي كان يقل القرشيين الذين اصطحبهم معه منسا موسى من مكة ونهبه لأمتعتهم، دون أن يعرفهم، لكن بمجرد أن عرف هويتهم وعلاقتهم بالملك لم يتردد في تقديم نفسه وأحسن إليهم، كما عاملهم بلطف واحترام، وأنزلهم في مكان قريب من جني يعرف بشنشن.[2]

وهناك نوع آخر من المقاطعات والتي تكون عادة متمركزة في الضواحي وتابعة لممالك واقعة في أطراف الإمبراطورية، وهي ممالك تابعة للإمبراطورية وتعترف بسيطرة المنسا المالي، لكنها تتمتع بحرية أكثر في تسيير أمورها وتعيين الفاربا، ولم تكن مرتبطة تنظيميا بالسلطة المركزية بصفة دائمة، ورغم ذلك فهي تحاول دائما إرضاء المنسا بإرسال الهدايا والأعطيات. ويمكن أن نقول بأن هذا النوع من الممالك والمقاطعات هي أقرب إلى الحاميات العسكرية، وعادة ما يكون ارتباطها بالسلطة المركزية راجع بالدرجة الأولى لصرامة هذه الأخيرة وقوتها.[3] فمثلا نجد أن أغلبية قبائل مسوفة وصنهاجة وهم الملثمين، كانوا يعيشون خارج المدن ويتنقلون بين منطقتي الحوض والأزواد، مشكلين كنفدراليات يديرها زعيم يسمى أمينوكال لكنهم يعيشون تحت غطاء إمبراطورية مالي، وكان

(1) الرحلة،ص ص 680 و 694.

(2) Mahmoud kati :Tarikh el fettach, pp 64,65 .

(3) Traoré (koufecou) : Op .Cit .

أمينوكال خلال القرن الثامن للهجرة/14م ينصب من طرف السلطات المالية كرئيس لمسوفة تمبكتو، أو بمباركة السلطات المالية.[1] وإذا رجعنا إلى نص السعدي فإننا نستنتج بأن هناك نوع لآخر من الفربا المقربين منه والمشرفين على عبيده وخاصته، يلقبون بمندي فاربا.[2] أما بالنسبة للممالك المكونة لإمبراطورية مالي فهي تتشكل من تجمع عدة مقاطعات خاضعة لملك واحد، أو مقاطعة واحدة لكنها تخضع لحاكم مستقل مما يشكل كفدرالية.[3]

وقد ذكر القلقشندي بأن إمبراطورية مالي كانت تضم خمس ممالك تابعة لها،و سماها بالأقاليم، هي مملكة مالي وهي قاعدة الملك، مملكة صوصو، مملكة غانة من الجانب الغربي، إقليم كوكو، ومملكة تكرور، وذكر أيضا بان هذه الممالك الخمس كانت مستقلة قبل أن تجتمع في مملكة مالي.[4] لكن العمري يقول بأن مملكة غانة هي المملكة الوحيدة التي احتفظ صاحبها بلقب ملك.[5] لكن يبدو بأن هذا الامتياز الممنوح لغانة يعود إلى احتوائها على إمارة ميما التي كانت تتميز بوضع ومكانة خاصتين بالنسبة لعائلة كيتا، وهذا راجع للدور الذي لعبته أثناء ملحمة سوندياتا كيتا، حيث احتضنته ودعمته عندما تخلى عنه الجميع في أيام محنته مع أخيه دنكاران تومان. فبعد انتصاره على سومنغورو قام سوندياتا بإرسال هدايا ثمينة إلى ملكها، وعقد حلفا معه أصبحت بموجبه ميما مقاطعة

(1) Sékéné mody cissoko : Tombouctou et l'empire Songhay. Editions L'harmattan, Paris, 1996, pp46, 47.
(2) Tarikh el fettach, p59.
(3) Delafosse (Maurice) : Haut Sénégal-Niger, tome3, p134.
(4) المصدر السابق، ص292.
(5) مسالك الأبصار، ج4، ص110.

تابعة لإمبراطورية مالي باعتبارها مملكة مستقلة ذاتيا.(1) لكن المصادر الشفوية بقيت تربط بين ميما وواغادو عن طريق الخطأ، مثلما تربط المصادر العربية بين إمارة غانة ومملكة واغادو، حيث نعرف بأن مملكة واغادو التي كانت تمثلها إمبراطورية غانة لم تعد موجودة ككيان سياسي منذ بداية القرن السابع الهجري/13ميلادي، وكذا في عهد خلفاء سونددياتا، لذلك فإن غانة التي يذكرها العمري يقصد بها ميما باعتبارها المملكة التي ورثت غانة بعد زوالها،(2)خاصة و أن ملكها اتخذ لقب تونكارا وهو اللقب الذي كان يتخذه ملوك غانة القدماء. لذلك يمكن أن نفهم من كلام العمري بأن ملوك ميما كانوا يتمتعون بوضع خاص، وبصلاحيات واسعة ضمنها لهم ذلك العقد الذي أبرمه سونددياتا معهم، والذي حافظ عليه خلفاؤه من بعده.

ويظهر أن هناك سبب أخر جعل منسا موسى يحافظ لمملكة غانا هذا الامتياز والاستقلالية، وهو ما ذكرته المصادر العربية وحتى المصادر الشفوية المندية، والمتمثل في احتواء أرض ما كان يعرف بغانة على تبر الذهب، وخاصة بلاد مغزارة التي يسكنها الكفار الهمج، وأن هناك اعتقاد شائع مفاده أن هذا الذهب سيزول بمجرد أن يصبح تابع لحاكم مسلم، لذلك أبقى منسا موسى على استقلال هذه المملكة لأنه مسلم، لكنه كان يحرص على مهادنة ملكها، وفي المقابل كان يتحصل منه سنويا على إتاوات كبيرة من الذهب.(3)

---

(1) Fage(J.D) and Roland Anthony Oliver: The Cambridge history of Africa: From C.1050 to C1600. Cambridge University press, London, 1986, pp378, 379.

(2) Fage(J.D) and Roland Anthony Oliver:Op.Cit, p379 .

(3)العمري: المصدر السابق،ص،109 و 118 ــ القلقشندي: المصدر السابق، 293

Youssouf tata cissé : Wa kamisssoko, la grande geste du Mali, tome1, p30 .

ومهما يكن فإن كل هذه الممالك وشعوبها كانت تخضع لمنسا مالي وتعترف بسلطته بدون استثناء،[1] لكنها كانت تنوب عن الإمبراطور في ممارسة الشؤون الإدارية الخاصة بالممالك التي تشرف عليها، فهذه الممالك رغم تبعتها للسلطة المركزية لكنها بقيت تمارس سلطتها التي تستمدها من الإمبراطور الذي كان يمنحهم لقب مندي دلالة على الولاء والإشادة.[2] وكان سبب اعتماد عائلة كيتا على هؤلاء الملوك في إدارة شؤون الدولة يعود إلى عجز الإمبراطور كان على التحكم في ربوع إمبراطورية واسعة الأرجاء وذات شعوب وأجناس مختلفة، وكان الضمان الوحيد لولاء هؤلاء الملوك له هو إلزامهم بأداء اليمين والقسم واحد لله وآخر للملك.[3] وكان ملوك هذا النوع من الممالك (والتي تضم أيضا مملكة التكرور وديارا) يتخذون من بين الشخصيات الأكثر تأثيرا في شعوبهم.[4]

2. نظام الحكم:

أقام خلفاء سوندياتا من عائلة كيتا نظام حكم مستمد من الميثاق الذي وضعه سوندياتا كيتا، لكن يبدو من خلال المصادر العربية التي ظهرت ابتداء من القرن الثامن للهجرة/ 14 للميلاد بأن ملوك هذه الفترة قد تأثروا كثيرا بالحكام المسلمين الذين احتكوا بهم من خلال زياراتهم المتكررة إلى الحج، وكذا الأخبار التي كانت تصلهم عنهم من خلال التجار المسلمين الذين كانت أسواق مالي كتمبكتو، ولاته وجني تعج بهم.

وبالإضافة إلى نظام الحكم اللامركزي الذي تميز به ملوك كيتا المنديين عن بقية ملوك السودان الغربي، فقد تميزوا بتشبههم بملوك المسلمين وخلفائهم، حتى أننا لا نكاد نفرق

---

(1) Mahmoud Kati, Op.Cit. p55.

(2) Trimingham (Spencer) :Op.Cit, p76 – Jasen (Jan) : Epopée, histoire, société : Le cas de Sounjata ; Mali et Guinée, p85.

(3) Labouret(Henri) : Histoire des noirs de l'Afrique, Paris,1950,p27.

(4) Sow (Amadou Aliou) : La Mauritanie mon pays natal, p26.

بينهم. فقد ذكر العمري كيف كان سلطان مالي منسا موسى يجلس في قصره على مصطبة كبيرة فوق دكة كبيرة من الأبنوس ومعه سيفه الذهبي وقوسه، ويقف حوله ثلاثون عبدا من الترك وغيرهم، ويجلس أمراؤه من حوله وكذا أعيان البلد وضباط جيشه، ويصف لنا شغفه بالخيول العربية التي لا يبخل فيها بدفع أثمان باهظة، وكان إذا عطس في مجلسه أحد ضرب ضربا مؤلما ولا يسامح في ذلك احد، أما إذا عطس الملك ضرب الحاضرون بأيديهم على صدورهم. ويذكر أيضا بأنه لا يدخل أحد إلى دار الملك إلا حافيا كائنا من كان، ومن لم يخلع نعليه ساهيا أو متعمدا قتل بلا عفو. وكان ملوك مالي إذا ما انعموا على أحد من الناس بنعمة، أو وعده بجميل، أو شكره على فعل تمرغ ذلك المنعم عليه بين يديه من أول المكان إلى لأخره، فإذا وصل إلى آخر المكان أخذ رمادا وذره على رأسه[1]. كما وصف لنا ابن بطوطة أخاه منسا سليمان كيف كان يستقبل ضيوفه ورعيته في قبته المرتفعة التي كان يجلس بها أغلب أوقاته، وهي قبة تحتوي على طيقان مغشاة بصفائح الفضة والذهب، وكيف كان يحيط به عبيده وأمرائه وخاصته، وكيف كان الناس يحلفون باسمه فيقولون: منسا سليمان كي، وكان الواحد منهم إذا دعي للدخول إلى مجلس الملك يترع عمامته وجعل شاشية (قبعة) وسخة ودخل رافعا ثيابه وسراويله إلى نصف ساقه، وتقدم بذلّة ومَسكَنَة وضرب الأرض بمرفقيه ضربا شديدا، ووقف كالراكع يسمع كلامه، أما إذا كلم أحدهم الملك فإنه يكشف ثيابه عن ظهره ويرمى بالتراب على رأسه وظهره كما يفعل المغتسل بالماء.[2] وهي تفاصيل غاية في الأهمية تبين لنا الهالة التي كانت تحيط بسلاطين مالي خلال القرن الثامن والتي لم تكن موجودة خلال عهد سوندياتا وخلفائه المباشرين له، والذين كانوا يظهرون أمام رعيتهم

(1) مسلك الأبصار، ج4،ص ص 115،116،117.

(2) الرحلة، ص685.

كرؤساء عشائر أو قادة حرب كأقصى تقدير. فلقد أصبح ملوك مالي خلال القرن الرابع يجسدون نموذجا حقيقيا لأباطرة العصور الوسطى بما يمثله هذا النموذج من عظمة وكبرياء.

فطابع الحكم في مملكة مالي كان استبداديا، والملكية مطلقة حيث كان يتم استغلال الرعايا لصالح الأسرة الحاكمة، كما كان ملوكهم يحظون باحترام وتبجيل وهيبة من طرف الرعية.[1] ورغم ما تبرزه الروايات العربية عن ملوك مالي من مظاهر التجبر والاستبداد وإذلال لمن حولهم، إلا أن لعلاقات هؤلاء الملوك بخاصتهم ومحكوميهم جانب آخر مليء بالود والسخاء والإكرام. فلقد كان منسا موسى في مقابل إذلاله لرعيته في مجلسه، يمنح موظفيه وجنوده وضباطه وحراسه والمقربين منه والمتعاونين معه، قطع أرضية وهبات اقتداء بما يقوم به الملوك المسلمين بالمغرب والشرق الإسلاميين.[2] كما كان لا يتردد في استشارة العلماء والفقهاء في المسائل المستعصية.[3] ومن المظاهر التي تبين مدى تأثر آل كيتا بالنظم الإسلامية في الحكم، أنهم كانوا يطلقون على تلك المصطبة العالية التي يجلس عليها الملك لاستقبال الناس اسم "بنبي"[4] والتي تعني في لغتهم دار النبي[5]، كما كانوا يقلدون الأمراء المسلمين في إقامة دار للإمارة وتعيين الخلفاء، حيث قام منسا موسى عندما ملك تمبكتو بتعيين خليفة له وابتنى بها دار السلطنة التي سميت (مع دك) والتي تعني

---

(1) باري(محمد فاضل علي) و (كريدية(سعيد إبراهيم): المرجع السابق، ص93.

(2) Niane temsir djibril. Recherches sur l'empire du Mali, pp27, 29
Sow (Amadou Aliou): Op.Cit, p26.

(3) Mahmou Kati :Op.Cit, p56.

(4) العمري: المصدر السابق، ص 114.

(5) Niane temsir djibril : Op.cit. P29.

بلغتهم دار السلطان.[1] بالإضافة إلى حرصهم على أداء فريضة الحج التي كانت ميزة عائلة كيتا منذ عهد موسى أولي ابن سوندياتا كيتا.

ويعد المنسا في إمبراطورية مالي هو رئيس الحكومة والدولة معا ومصدر السلطات كلها، إذ كان ملوكهم يمارسون سلطتهم بطريقة مطلقة، رغم الطابع اللامركزية للحكم ونزوع ملوكهم إلى استشارة خاصتهم في بعض القرارات، فلقد كانت قراراتهم لا تخضع إلى أي نوع من المعارضة، ولكنهم رغم ذلك كانوا يحيطون أنفسهم بعدد من الموظفين الكبار وذوي المناصب الكبرى الذين كانوا يحرصون على أن يكونوا من عائلات أصحاب جدهم سوندياتا.[2] ومن هؤلاء المستشارون الذين كانوا يساعدون المنسا في حكومته نجد نائب السلطان وهو والي العاصمة أيضا، وقد ذكر ابن بطوطة نائب الملك منسا سليمان الذي كان يدعى قنجا موسى.[3] وحتى إن كنا نجهل هل كان اسم قنجا هو اسم نائب منسا سليمان أو لقب وظيفي يحمله كل نائب، إلا أننا يمكن أن نقول بأن هذا النائب كان يقوم مقام الملك في حالة غيابه أو سفره، ويساعده في تصريف شؤون البلاد.[4] وقد اتصف خلفاء سوندياتا بقلة الظلم وحرصوا على إقامة العدل، حيث لم يكونوا يسامحون أحدا في شيء منه.[5] ويذكر ابن بطوطة أن منسا سليمان كان يشرك زوجته الكبرى (التي كانت ابنة عمه أيضا) في الحكم، وكان يذكر اسمها مع اسمه على المنبر في خطب الجمعة. ويظهر من كلام ابن بطوطة أن قضية إشراك الملك لزوجته في الحكم كانت عادة

(1)السعدي (عبد الرحمان): المصدر السابق، ص7.
(2) جبريل تمسير نياني: مالي و التوسع الثاني للمندينغ، ص167.
(3) المصدر السابق، 683 .
(4) باري(محمد فاضل علي) و كريدية(سعيد إبراهيم):المرجع السابق، ص93.
(5) ابن بطوطة: المصدر السابق، ص 690 .

شائعة بين ملوك السودان.[1] ولكن رغم ذلك فيبقى انتقال الحكم في مالي على عهد خلفاء سوندياتا يتم عن طريق الذكور، حيث يرث الابن الحكم عن أبيه، فقد أكد ذلك الملك منسا موسى لابن أمير حاجب خلال زيارته لمصر إذ قال له:((نحن أهل بيت نتوارث الملك)).[2] وعندما يكون الوريث الشرعي(أي ابن الملك الراحل) صغيرا في السن فإن مجلس الأعيان يقوم بتعيين شقيق الملك الراحل أو ابن عمه أو قريبه، لكن حق الابن يبقى محفوظا.[3] وهو ما تسبب في اندلاع صراعات بين أبناء الإخوة على العرش، كما حدث بعد وفاة منسا سليمان. ويخبرنا العمري بأنه كان لمملكة مالي علما لون قاعدته حمراء وفي الوسط يتخلله اللون الأصفر.[4]

3. الوظائف والخطط:

لقد نقل ملوك مالي الخطط والنظم والوظائف الإسلامية إلى بلادهم، بحيث يذكر أبو الفضل العمري بأن مملكة مالي عرفت القضاة والوزراء والكتاب والمترجمين والدواوين، وهي وظائف لم توجد إلا في العالم الإسلامي وقتذاك. وكان منساوات مالي لا يكتبون شيئا في الغالب، بل يكل كل أمر إلى صاحب وظيفته، وكان كتابهم يكتبونها بالخط العربي المغربي.[5] وبهذا يمكن أن نقول بأن خلفاء سوندياتا أعطوا لإمبراطوريتهم بعدا إسلاميا في مجال النظم.

---

(1) ابن بطوطة: المصدر السابق، ص 688.

(2) العمري: المصدر السابق، ص120 .

(3) Niane temsir djibril :Op.Cit. P15 .

(4) المصدر السابق، ص 119.

(5) المصدر السابق، ص 125.

أ ـ خطة القضاء:

لقد أولى ملوك مالي خطة القضاء أهمية قصوى نظرا لحرصهم الشديد على إقامة العدل في ربوع مملكتهم، ولكنهم لم يكونوا يعرفون القضاء باسمه العربي، حيث كان القاضي عندهم يلقب بـــ" **أنفارو كوما**"، وكوما هي العشيرة التي تزود الإمبراطورية بالقضاة، بينما انفارو تعني القاضي.[1] ومن دلائل أهمية منصب القضاء في عهد منسا موسى هو أن القاضي كان يعد الشخص الوحيد في المملكة الذي كان له الحق في منح يده للسلطان، وكان يعين بأمر من الملك نفسه.[2] كما كان القاضي بمملكة مالي من الذين ينفق الملك عليهم الأموال في ليلة السابع والعشرين من رمضان والتي يسمونها الزكاة.[3] ورغم أهمية هذه الخطة إلا أنها كانت توكل في إلى عناصر غير مندية في غالب الأمر، فقد ذكر ابن بطوطة عدد من القضاة المغاربة في مالي خلال زيارته لها، ومنهم محمد بن عبد الله بن ينومر بمدينة ولاته، والقاضي عبد الرحمان بمالي(أي بمدينة نياني العاصمة)، بالإضافة القاضي الذي كان مع منسا موسى وهو من البيضان والمكنى بأبي العباس ويعرف أيضا بالدكالي (نسبة إلى مدينة دكالة بالمغرب الأقصى)، وقاضي تكدا أبا إبراهيم.[4] كما عرفت مدينة تمبكتو خلال أواخر حكم أسرة كيتا المالية القاضي الحاج المعروف بالقاضي

---

(1) Mahmoud kati :Tarikh el fettach,p60

إن كلمة انفارو أصلها "أنفار" ثم تحولت إلى انفارو، وهو ربما مصطلح ادخل على اللغة المندية، ففي هذه اللغة فاري: تعني رئيسنا أو قائدنا، وأنفارا تعني: قسمتنا، وبالتالي فأنفارو ربما تعني القائد الذي يقسم الحقوق والأرزاق. وحسب نياني تمسير جبريل(recherches sur l'empire du Mali, p55) فهي تعني : الذي يفصل بيننا ويعدل بيننا عن طريق الكلمة .

(2) Mahmoud kati :Op.Cit,p60.

(3) ابن بطوطة: المصدر السابق، ص 683

(4) نفسه،ص ص من 692 إلى 698.

يحي، الذي كان بربريا ينحدر من مدينة ولاته.[1] وهذا راجع للعلم الذي يتمتع به هؤلاء المغاربة، وتبحرهم في العلوم الشرعية التي كانت تمثل مصدر التشريع بالنسبة للقضاء في إمبراطورية مالي.

كان القضاة يشرفون على الفصل في التراعات والخصومات التي كانت تنشأ بين الناس، ويسهرون على تطبيق الشريعة الإسلامية سواء بالنسبة للأمور الدينية أو الدنيوية.[2] ذلك أن القضاء في مالي لم يكن منفصلا عن الدين الإسلامي، وكان القضاة يقضون وفق النصوص القرآنية.[3] فلقد كان منسا موسى يعين بجانب كل حاكم أو أمير مقاطعة قاض يكون فقيها في التشريع الإسلام، ويحكم به.[4]

وكانت مملكة مالي تشمل على محكمتين، هما المحكمة الملكية التي يشرف عليها الملك، والمحكمة الثانية التي يشرف عليها القاضي الذي يعينه الملك. فبينما كان القاضي يختص في النظر في الجرائم العامة والجنح والخلافات بين المواطنين، [5] فإن الملك كان يفصل في الشكاوي والمظالم التي يكون رؤساء المقاطعات والموظفين الكبار طرفا فيها.[6] فقد حدث في أيام منسا سليمان أن قام في إحدى أيام الجمعة تاجر وهو من طلبة مسوفة يسمى أبا حفص، واشتكي إلى الملك من ظلم منشاجو ولاته،[7] الذي اخذ منه ما قيمته

(1) Elias(N) Saad :Op .Cit, p38.

(2) الشكري (أحمد): المرجع السابق، ص 190.

(3) نيان تمسير جبريل: مالي و التوسع الثاني للمندينغ، ص171.

(4)Niane temsir djibril :Recherches sur l’empire du Mali, pp27, 28

(5) قداح نعيم: حضارة السلام و حضارة أوربا في إفريقيا الغربية، ص171.

(6) العمري:المصدر السابق، ص118.

(7) و هو المشرف على شؤون ولاته، و المكلف بأمور الأمن و الإدارة فيها.

قيمته ستمائة مثقال ذهب، وأراد أن يعطيه مقابل ذلك مائة مثقال فقط فبعث إليه السلطان، فحظر بعد أيام وصرفها للقاضي، وأعاد للتاجر حقه ثم عزل المنشاجو عن عمله.[1]

وكانت الأحكام المتعلقة بعامة الشعب والتي يشرف عليها القضاة، يعلن عنها أمام الملأ، وتتراوح العقوبة بين السجن والجلد أو الموت والمصادرة. أما جرائم الخيانة وتلك الخاصة بالشكاوي ضد كبار رجال الدولة والموظفين فهي من اختصاص المحكمة الملكية، فأحكامها يكتنفها شيء من السرية، حيث كان الملك يعقد مقابلات خاصة مع الشعب يستمع بنفسه لشكاويهم ضد أعوانه وممثليه الجهويين من ولاة ورؤساء مقاطعات، وتنتهي باتخاذ قرارات فورية وغير قابلة للنقض أو الاستئناف.[2]

وكان يشترط في القاضي مجموعة من الصفات أهمها العلم والنزاهة والتقوى، كما كان للقاضي في بعض الأحيان قاض مساعد يفصل في قضايا الأجانب، مثلما هو الحال في مدينة تمبكتو.[3] وكان القضاة يحاطون بهالة من التبجيل والتقديس من طرف السكان، حيث كان بيتهم محرما مثل المسجد يلتجئ إليه أحيانا زعماء المعارضة خوفا من بطش الملك.[4]

ب. الوزارة:

(1) ابن بطوطة: المصدر السابق، ص688.

(2) قداح نعيم: المرجع السابق، ص 171. - Sow (Amadou Aliou) :Op.Cit, p26

(3) قداح نعيم ، المرجع السابق ص 171.

(4)قداح نعيم ، المرجع السابق ص 171.

يعد ابن بطوطة والعمري أهم مصدرين مكتوبين تطرقا إلى أكبر قدر من التفاصيل حول الوظائف والخطط التي عرفتها إمبراطورية مالي خلال أوج قوتها في القرن الثامن للهجرة/14م، ورغم ذلك فإننا لا نجد من بين الوظائف التي ذكروها منصب وزير.(1) ولكننا إذا تمعنا جيدا في تلك الوظائف فإن عددا منها يوازي منصب الوزير عند العرب المسلمين آنذاك، ولكنها تعطى لها أسماء أخرى. فحسب الروايات الشفوية فأن مملكة مالي كانت تضم وظائف تعادل وظائف الوزراء في إطار مبدأ تقسيم العمل، فكان هناك وزير يتكفل بالأجانب وآخر يتكفل بالضرائب وثالث يشرف على الشؤون الدينية وغيرهم.(2) ولكنهم في الحقيقة كانوا كلهم عبارة عن مسؤولين عن القطاعات التي كلفوا بها أمام الوزير الأول الذي ينتدبه الملك بنفسه ويعدون تابعين له مباشرة.(3)

وربما كان هذا الوزير الأول هو النائب الذي ذكره ابن بطوطة خلال وصفه لمجلسه بالمشور، وأن الفرارية هم الوزراء التابعين له، لكن ابن بطوطة لم يشر إلى وظيفة هذا النائب ولا الفرارية باستثناء ما ذكره عن كونهم أول من يدخل إلى مجلس الملك حاملين معهم قسين وكبشين، كما ذكر قيامهم بشكر الملك بترع قسيهم لما وزع على الناس الذهب فوق رؤوسهم.(4) وفي موضع آخر ذكر ابن بطوطة قصة رواها احد القضاة

(1) يذكر القلقشندي (المصدر السابق، ص298) بأن هذه المملكة كان يوجد فيها الوزراء والقضاة والكتاب، ويقول بأنه نقل ذلك عن كتاب مسالك الأبصار للعمري، لكننا لم نجد وظيفة بهذا الاسم عند العمري.

(2) Bwemba-Bong :Quand l'Afrique était l'or noire de l'europe,volume1, éditions Menaibuc, 2005,p26 _ Joseph K i-Zerbo et René holenstein :A quand l'Afrique . Éditions de l'ambe, 2003, p76 .

(3) ONESCO : Histoire de l'humanité (600-1492). Editions Unesco, Paris, 2008, p1171

(4) المصدر السابق، ص 685، 687.

للملك، ومفادها، هناك جرادة تكلمت وقالت بأن الله يبعثها للبلاد التي يكثر فيها الفساد لإفساد زرعها، وهنا قام الفرارية ونزعوا عمائمهم كعلامة لتبرئهم من الظلم.[1] فمن خلال كلام ابن بطوطة يظهر لنا المكانة الرفيعة التي يتمتع بها النائب والفرارية لدى الملك، من خلال الأسبقية التي تعطى لهم في دخول مجلسه، وهي مكانة لا ينالها عادة إلا الوزراء والمسؤولين الكبار في الدولة، كما نستنتج من نزع الفرارية لعمائمهم أمام قصة الجرادة وتبرئتهم من الظلم، أن هؤلاء الناس كانوا يشعرون بمسؤوليتهم على إقامة العدل ومحاربة الظلم في ربوع الإمبراطورية، وهي الوظيفة التي كان يضطلع ها الوزراء خلال العصور الوسطى.

وقد تكلم ابن خلدون عن رجل تولى الحكم في مملكة مالي مباشرة بعد مقتل منسا مغا ابن منسا موسى الثاني و هو زوج أم منسا موسى الثاني ويدعى صندكي الوزير.[2] فرغم أن كلام ابن خلدون لا يوضح إن كان صندكي هو اسم هذا الوزير، أم هو لقب خاص بكل من تولى الوزارة في مالي، إلا أن بعض المؤرخين استنتجوا من هذا بأن الوزير في عهد خلفاء سوندياتا كان يلقب بـــ"صندكي" (Sandigui)، أوديون صندكي(Dyon sandigui).[3] ورغم أن ابن خلدون يذكر في موضع آخر بأن الوزير كان يدعى عندهم ماري، ومنه اشتق اسم ماري جاطه.[4] إلا أننا نجد بأن ابن خلدون يذكر في موضع آخر من نفس المصدر، بأن معنى ماري عند الماليين هو الأمير وليس الوزير.[5] لذلك فإننا

(1) نفسه،ص688.

(2) العبر.مج6، 270.

(3) طرخان (إبراهيم علي):دولة مالي الإسلامية.دراسات في التاريخ القومي الإفريقي. الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة 1973، ص 129.

(4) المصدر السابق، مج6، ص 269.

(5) نفسه، ص 266 .

نعتقد بأن الوزير الذي ذكره ابن خلدون لم يكن يلقب بماري جاطة على أساس الوظيفة، و إنما كان ذلك اسمه الشخصي. لكن الشيء الذي نفهمه من رواية ابن خلدون هو أن هذا الصندكي كان كثيرا ما ينفرد بأمور الدولة عندما يجد ملوكا ضعافا مثلما حدث في أواخر عهد منسا مغا.

وإذا رجعنا إلى الروايات الشفوية المندية فأننا نجد بان الوزير كان يدعى "فارما" وهي كلمة مندية مركبة من كلمتين هما فا (Fa) أوفار (Far) والتي تعني الأب أو الوالد، وكلمة ما (Ma) وهو اسم موصول يلعب دور ظرف المكان في اللغة المندية، ويعني مكان منخفض أو الأسفل.[1] وبالتالي فيمكن أن يكون ابن بطوطة قد ذكر الفراري قاصدا بها فارما التي تعني الوزير، أو فار التي تعني الوالد أو الأب، خاصة وأنه لم يكن يتقن اللغة المندية، إذ كان يستعين بالترجمان لمخاطبة منسا سليمان.

وحسب الروايات الشفوية فإن الوزارات في مملكة مالي كانت متعددة، فهناك وزير الثقافة الذي يدعى "بابيلي فارما" ووزير الأملاك الذي يدعى "واني فارما" أو(دوغو فاما). أما وزير المياه على النيجر الذي يعد المسؤول على الصيد والملاحة به فيدعى"جيتيجي فاما"، كما وجد وزير الغابات الذي كان يطلق عليه اسم "ساو فارما" أو"تو فاما"، والوزير المكلف بالخزينة المدعو"خاليسي فارما" أو "فودي فاما".[2] ونجده في بعض المصادر باسم سانتيجي وهو في الحقيقة أمين مخازن الغلال الملكية، والذي يعتبر بمثابة وزير المالية.[3] ولهذا نعتقد بأن سانجييتي وصندكي الذي ذكره ابن خلدون، ما هو إلا تحريف لكلمة سانديكي التي تعني وزير المالية أو وزير المخازن الملكية، باللغة المالنكية. كما

---

(1) Delafosse(Maurice) :Essai de manuel pratique de la langue Mandé ou Mandingue. Ernest Leroux éditeur, Paris, 1901, p12.

(2) Niane Temsir djibril : Recherches sur l'empire du Mali, p55,

(3) جبريل تمسير نياني: مالي و التوسع الثاني للمندينغ،ص17.

وجدت هناك وزارة مكلفة بالضرائب أيضا.[1] وقد عرفت سنغاي بعض الوزارات، التي تعود إلى فترة خضوع غاو لحكم أسرة كيتا، ومنها خالص فارما وهو وزير المالية، وزير البيض أو الأجانب وهو كوراي فارما، والوزير الأول أو نائب الإمبراطور وهو الأمين العام للإمبراطور ويدعى الكنفاري أو البالاما.[2] ولكن وظيفة الوزير لم تكن تقتصر على تسيير أمور قطاعه وتنفيد سياسة الملك في القطاع الذي كلف به، وإنما كانت له مهمة إقليمية تضاف إلى مهمته الوزارية ألا وهي تقديم الاستشراف المستقبلية عن إقليم ما لأصحاب السلطات الإدارات المحلية من أمراء وحكام مقاطعات، وبذلك لعبوا دور الجسر الذي يربط بين الملك وحكام الإمارات التابعة إليه،[3] لذلك قال عنهم ابن بطوطة بأنهم أمراء.[4] كما كان الوزراء يقومون بالترجمة لحكام المقاطعات الذين يأتون لزيارة الملك لما يكونوا من مناطق لا تتكلم لغته، بحيث يتولون مهمة شرح قضاياهم ومشاكلهم للملك.[5]

ج. الشعراء أو المنشدون (الجيلي):

يلعب المنشد أو الشاعر دورا مهما جدا في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية لإمبراطورية مالي، ويعد الإنشاد أو الغناء وظيفة عليا من وظائف الدولة. وهي وظيفة تقوم على تنظيم الشعر والمدائح الممجدة للملك وعشيرته، ويرتلها شعراء مخصصين لهذه الوظيفة يعرفون بالرواة الشفويون الذين يحفظون تاريخ مندن عن طريق الشعر، كما يعرفون باسم

---

(1) Bwemba-Bang :Op.Cit,p28.

(2) جبريل تمسير نياني: مالي و التوسع الثاني للمندينغ،ص172 .

(3)Joseph k i-Zerbo et René holenstein :Op.Cit, p76.

(4) المصدر السابق، ص 682.

(5) Bwemba-Bong: Op.Cit, p26 .

جلي أو جالا.[1] وتعود أهمية هؤلاء الرواة المنشدون بالنسبة لدولة مالي وكل دول السودان الغربي عموما، إلى غياب ثقافة التدوين أو الكتابة لديهم فحلت محلت الكلمة محل الحرف.[2] ويقول الراوي المنشد "كيلي مونسون دياباتي (Kélé monson diabaté): ((إن الإنشاد هو فن صعب، فكل شيء يتعلق بمعرفة ثقل الكلمات، والذي لا يعرف كيف ينتقيها ويدورها لا بد أن يرجعها إلى هؤلاء المنشدين لأنهم أصحاب الكلمة.))[3] ويذهب بعض المهتمين بتاريخ مالي إلى أن كلمة جالا أو جيلي تكون قد اشتقت من لغة الولوف وهي جوال، أو من الكلمة الفلاتية "عاولو" التي تحولت إلى جاولو ثم جالا، ومنهم من يذهب إلى أن أصلها عربي اشتق من كلمة قوال (الذي يقول شعرا)، ومنها تحولت إلى جوال ثم جالا.[4]

كما عرف بعض الرواة باسم بيلن تيغي وهم الذين اتخذوا من الزعيم سوندياتا كيتا شخصية محورية لرواياتهم.[5] وقد أشار ابن بطوطة إلى أصحاب هذه الوظيفة، حيث يقول بشأنهم ((إذا كان يوم العيد جاء الشعراء ويسمون الجلا و(أحدهم جالي)، وقد

---

(1) Kibalabala N'sele : Le "griot" : le porteur de la parole en Afrique
In Jeu : revue de théâtre,. Éditeur : Cahiers de théâtre Jeu inc.
Rédaction : Lorraine Camerlain (responsable du numéro) n° 39, 1986, p. 63
Éditeur : Cahiers de théâtre Jeu inc. In Jeu : revue de théâtre, n° 39, 1986, p. 63-66.=
-Valerie thierrs-thiam :A chacun son griot.Le mythe du griot narrateur dans la littérature de l'afrique de l'ouest. Editions l'harmattan, Paris2004, p18

(2) Valerie thierrs-thiam , Op, Cit,p18

(2) Ibid, p14

(3) Ibid, p18

(4) Jan janson : Les griots de kela ; les paroles qu'on devrait entendre.in site : http://www.africulturees.com/index.as. Publié le : 24/12/2004

دخل كل واحد منهم في جوف صورة مصنوعة من الريش تشبه الشقشاق(كذا)، وجعل لها رأس من الخشب له منقار أحمر كأنه رأس الشقشاق، ويقفون بين يدي السلطان بتلك الهيئة المضحكة، فينشدون أشعارهم)).(1) كما ذكر العمري صاحب هذه الوظيفة عند وصفه لجوق الملك الذي يصعد معه إلى مصطبته فيقول:((وبين يديه شخص يغني له وهو سيافه، وآخر سفير بينه وبين الناس يسمى الشاعر، وحولهم أناس بأيديهم طبول يدقون بها)).(2) أي أنهم كانوا يلعبون دور المستشار بالنسبة للملك، حيث يملكون كل الوثائق الخاصة بالعادات والتقاليد والأحداث الخاصة بالملوك والتي يروونها للملك بصوت مرتفع.

من خلال شهادات هذه المصادر العربية يمكن أن نقول بأن وظيفة الشاعر كانت تجمع بين العرض المسرحي والفكاهي، وبين تمثيل الملك أمام الناس من خلال تصوير بطولاته وملاحمه العسكرية في نسق فني تغلب عليه الفنتازيا من خلال ما كان يتبع تلك الأناشيد من دق للطبول ورقص وألعاب بهلوانية. حيث كانت هناك فرقة موسيقية خاصة تتبع هؤلاء المنشدين أو الرواة، وتعرف باسم بالا فاسيكي (Bala fasseke) وهي الفرقة التي تمثل الشاعر الرسمي للإمبراطور، وقد أنشئت منذ عهد سوندياتا كيتا واستمرت في عهد أحفاده.(3)

ويوجد هناك ثلاث فئات من المنشدين في المجتمع المالي مرتبين ومصنفين حسب مستواهم في سلم الوظائف، فهناك الرواة المثقفون الذين يأتون بعد العلماء والفقهاء ومتعلمي الطبقة الارستقراطية، ويحتلون الصف الثاني في سلم النخبة المثقفة، فبقاؤهم

---

(1) المصدر السابق، ص687

(2) Niane temsir djibril : Recherches sur l’empire du Mali, p7

(3) Niane temsir djibril : Le soudan occidental au temps des grandes empires. Présence Africaine, Paris, 1975, p219.

بالقرب من الملك والأمراء والطبقة الرفيعة في المجتمع كان يحتم عليهم التعلم وكسب أكبر قدر من المعارف. وكان منهم من يقرأ القرآن ويفسره، ولديه اطلاع على الفقه والعلوم الشرعية، وعادة ما كان هؤلاء يرافقون الملك والأمراء إلى المسجد لأداء الصلاة، ولكنهم لم يكونوا يستعملون الآلات الموسيقية، وتتضمن أشعارهم الحوليات الخاصة بتاريخ مالي ونسابة من طراز رفيع، ويعرفون بلقب الفاربا أي أسياد المنشدين. أما الفئة الثانية فهم الجيلي، وهم المنشدون الذين يستعملون الآلات الموسيقية مثل آلة البالافون و نغوني أو القيثارة والكورا، وهي الآلات التي كانت متداول آنذاك في مالي. وفي هذا الصنف يوجد منشدون يعرفون بجليبا(Djeliba) الذين يأتون بعد الفاربا من حيث الرتبة في سلم الوظائف. أما الصنف الثالث فهم نياماكالا، وهم عبارة عن منشدين متجولين يلعبون بالقيثارة، وينشطون بعض سهرات المرح، ويقومون بألعاب بهلوانية ويلبسون سروالا فضفاضا،(1)

وكان الشاب الذي يختار ليكون منشدا أو راويا في مملكة مالي عموما وفي قراها الصغيرة خاصة لا يمكن أن يبدأ بتعلم هذه المهنة إلا بعد عملية الإختتان.(2) وبالرغم من أن الجيلي ينتمون إلى فئة اجتماعية متوسطة وهي نياماكالان التي تضم الحدادين والحرفيين من صانعي الجلود والنسيج، ورغم أنهم لا يمكن أن يتزوجوا من طبقة النبلاء (حورون) أي الأحرار، إلاّ أنهم يضطلعون بدور معقد ومهم في نفس الوقت بالنسبة لتوازن المجتمع المندي. فالجالا هو الذي يعرف التاريخ الشفوي لشعبه وهو حامي الرواية الشفوية التي تروي انجازات ملوك مالي العظام، ويعد حامي الذاكرة الجماعية والمحافظ على صحة أنساب العائلات المندية. فهو يملك سلاحا ذا حدين، فبقدر ما يمكنه من رفع نسب

(1) Amadou oury Diallo : Epopée du fota djalon. Edition l’harmattan, paris, 2009, p28.
(2) Kibalabala N’sele :Op.Cit, p63.

شخص بقدر ما يضعه أمام مسؤولية عظيمة، تتمثل في ضرورة تشريف بطولات أجداده مما يدفعه إلى بذل مجهودات وتضحيات أكثر. كما يتمتع الجيلي بامتيازات وحصانة خاصة، بحيث لا يمكن أن يقتلوا أو يؤسروا أو يتحولوا إلى عبيد. بالإضافة إلى امتلاكهم للحرية المطلقة في الكلام، فلا أحد يمكنه أن يكون في مأمن عما يقوله الجيلي لأنه لا يقول إلا الحقيقة.(1)

وكان الزعيم سونדياتا قد أولى اهتماما خاصا بهؤلاء الشعراء المنشدين في مؤتمر كوروكان فوكا، وكانوا يمثلون طائفة خاصة مكونة من عشائر وعائلات معينة، أمثال آل كوياتي، آل دياباتي، آل كوناتي وغيرهم. وقسمهم المؤتمر إلى أربع قبائل كبيرة وكل منها تتألف من عشيرة أو عدة عشائر تعرف بـــ(غنارة ـــ ناني).(2) كما حرص ميثاق المندي على ضمان حقوق هذه الفئة من الموظفين،من خلال نصه على وجوب احترام الرواة الشفويين المعروفين بالجيلي باعتبارهم يشكلون ذاكرة الأمة وتاريخها.(3) وكان يمكن للجيلي أن يمثل الملك شخصيا في الخارج، فكانوا يتكفلون بمهام الرسل والسفراء لملوكهم.(4) كما كانوا يمثلون سفراء الملك ووسطاؤه أمام الناس، فالملك لم يكن يتكلم إلى الناس مباشرة، لذلك فقد كان يهمس للجيلي بما يريد قوله فيقوم هذا الأخير بتبليغ الناس بكلام الملك بصوت مرتفع.(5) وقد أشار العمري إلى ذلك عندما ذكر بأن هناك شخص سفير بينه وبين الناس يسمى الشاعر.(6) ومن الامتيازات التي حظي بها الرواة

(1) Valerie thiers-thiam : Op.Cit, p15.
(2) Niane Temsir Djibril: Le soudan occidental au temps des grands empires, p36.
(3) Kouyaté Siriman : *Op.Cit,* p7.
(4) Valerie thiers-thiam: Op.Cit, p15.
(5) Loc cit.

(6) المصدر السابق، ص115.

المنشدون حرية تنقلهم عبر الحدود حتى في أوقات الحرب، فالحصانة التي كانوا يتمتعون بها كانت تدفع عنهم خطر التعرض للقتل أو الأسر أو الاستعباد.[1] ورغم دورهم المهم ومكانتهم المميزة لدي ملوك مالي،إلا أن دورهم الاجتماعي لم ينقطع، فلقد كانوا قريبون جدا من أفراد المجتمع، وطبقاته المختلفة، فكان حضورهم مميزا في النزاعات العائلية من أجل فضها، كما كان حضورهم للمراسيم والاحتفالات ضروري في المجتمع المندي، فكانوا دائما موجودين في المراسيم الجنائزية وحفلات الإختتان والزواج، أين كانوا لا يترددون في إبراز مواهبهم في الإنشاد والعزف على الآلات الموسيقية.[2]

وعموما فقد كان المنشدون والشعراء يمثلون حفظة التاريخ من الزوال، لهذا هناك مقولة يرددها سكان إفريقيا الغربية مفادها أنه عندما يموت شيخ من هؤلاء الشعراء فذلك يعني أن مكتبة قد أحرقت.[3] ويقول الراوي المنشد كيلي مونسون دياباتي(Kélé monson diabaté):((إن الإنشاد هو فن صعب، فكل شيء يتعلق بمعرفة ثقل الكلمات، و الانسان الذي لا يعرف كيف ينتقيها و يدوّرها لا بد أن يرجعها إلى هؤلاء المنشدين لأنهم أصحاب الكلمة[4]. ففي مجتمع ذي تقاليد وثقافة شفهية كان المنشدون يمثلون وظيفة ذات طابع ثقافي وتعليمي يشمل التاريخ، الملاحم، الشعر، الموسيقى، الأنساب، الأساطير، الحكايات والقصص،كما مثلت الوسيط المباشر بين الرعية والملك والناطق الرسمي بالنسبة للطرفين.

---

(1) Valerie thiers-thiam: Op.Cit, p15.
(2)Valerie thiers-thiam: Op.Cit , p16.

(3) Hambaté-Ba, Dominique auzias et jean –Paul labourette : Sénégal. Editions Amazon, Paris, 2007, p58.

(4) Valerie thierrs-Thiam: Op.Cit, p14.

د. الترجمان:

يعد الترجمان من الشخصيات المهمة في أدارة الحكومة المالية وهذا نظرا لاتساع الإمبراطورية واختلاف أجناسها وشعوبها وما في ذلك من اختلاف الألسنة التي لم يكن الملك يفهمها. وبالتالي فالترجمان كان بمثابة اللسان الذي كانت تُكَلّم به الرعية ملكها، وهو ما يجعله مرافقا للمنسا في كل جلساته وزياراته الميدانية، لهذا وجدنا بأن الترجمان هو الشخص الأكثر ذكرا من طرف ابن بطوطة خلال وصفه لزيارته لمالي. والملاحظ على المصادر الإفريقية وخاصة الشفوية منها وأغلب الدراسات الغربية، كثيرا ما تخلط بين وظيفة الترجمان والرواة الشفويين وتعتبرهما نفس الشيء.[1]

لكن إذا ما رجعنا إلى ما ذكره ابن بطوطة فنجده يذكره منفصلا عن الشاعر والمنشد، حيث كان دوغا (وهو الترجمان الخاص للملك منسا سليمان) هو الذي يتوسط بينه وبين الملك الذي كان لا يتكلم اللغة العربية على ما يبدو. كما وصفه مع من وصف من الموظفين الذين كانوا يحضرون مجلس الملك فيذكر بأن دوغا الترجمان كان يلبس الثياب

(1) أنظر: -Niane temsir djibril :Le soudan occidental au temps des grandees empires. Presence Africaine, Paris, 1975, p219 .
-Jan janson: Les griots de kela: les paroles qu'on devrait entendre, p122.
- Valerie thierrs-thiam : A chacun son griot, p15

(2) الزردخانة هو القماش المطرز بالحرير(عبد الله ابراهيم، عالم القرزن الوسطى في اعين المسلمين. المؤسسة الغربية للدراسات و النشر،بيروت،2007، ص698).

(3) الرحلة، ص 684

الفاخرة من الزردخانة[1]وغيرها، وعلى رأسه عمامة ذات حواشٍ، وهو متقلد سيفا غمده من ذهب وفي رجليه الخف والمهاميز، ولا يلبس أحد ذلك اليوم خفا غيره، ويكون في يده رمحان صغيران أحدهما من فضة، وأسنتهما من الحديد. كما يذكر العمري أنه لما خرج ابن أمير حاجب لملاقاة الملك منسا موسى عند مروره بمصر في طريقه إلى الحج، كان لا يحدثه إلا بترجمان رغم أنه كان يجيد الكلام باللغة العربية.[2] وقد ذكر ابن خلدون في تاريخه بأن منسا موسى لما ذهب إلى الحج اصطحب معه ترجمانا يدعى الحاج يونس و قد وصفه بترجمان التكروري،[3] ويقصد بالتكروري منسا موسى الذي كان يلقب في مصر بملك التكرور أو صاحب التكرور، كان هذا الترجمان هو الذي كان يزود ابن خلدون بالمعلومات التي رواها عن مملكة مالي، وملوكها. لذلك فإننا نعتقد بأن وظيفة الترجمان هي من الوظائف التي أنشاها خلفاء سونדياتا بعدما بلغت دولتهم أوج امتدادها واتساعها.

هــ. الشرطة:

يذكر محمود كعت بأنه لما سافر منسا موسى إلى البقاع المقدسة في رحلة حجه الشهيرة كان من بين مرافقيه في تلك الرحلة شخص يحمل لقب "أسارا مونديو" أو (أسرع منديو) وهي تحريف لكلمة (أشرع منذ)،[4] ويقول موريس دولافوس بأنه لقب تطلقه الشعوب التي تتكلم لغة السنغاي على رئيس الشرطة أو منفذ الأحكام، ذلك أن هذا الاسم مركب من كلمتين الأولى عربية وهي شرع وتعني القانون الشرعي، والذي تداولته عدة شعوب سودانية ولكن بصيغ مختلفة، فهناك من يذكر بصيغة أشار أو أسار،

---

(2) مسالك الأبصار، ج4، ص 122

(3) العبر، ج6،ص267.

(4)Tarikh el fettach :P60

وهناك من يذكره بصيغة سارا، أما الكلمة الثانية فهي بلغة الفلاته وهي مونديو، والتي انتقلت إلى لغة السنغاي بمعنى تنفيذ الحكم، وبذلك فإن معنى الكلمة هو منفذ حكم الشرع،[1] .وهي الوظيفة التي كان يقوم بها صاحب الشرطة أو المحتسب في الدول الإسلامية التي عاصرت فترة حكم منسا موسى الذي يكون قد تأثر بنظمها.[2]

ثالثا. الميدان الاقتصادي:

1. النشاط الزراعي:

إن الموقع الجغرافي لمملكة مالي في منطقة النيجر الأعلى الغنية بشبكتها الهيدروغرافية، وتربتها التي تتشكل من مزيج من الحجر الرملي وأكسيد الحديد والغضار وحجر الصوان، مما يمثل عامل يساهم في الحفاظ على البقايا النباتية والحيوانية والدبال، ويسمح بزراعة الذرة، البطاطس، الدّخن، الفاصوليا والأرز، كما أن مناخها اللطيف وأمطارها التي تسقط خلال ستة أشهر من السنة(من شهر ماي إلى شهر أكتوبر)،[3] كلها عوامل هيأت المملكة لتكون بلدا زراعيا، لكن تحكم جماعة كيتا الصيادين في زمام الأمر بكنغابا منذ وقت مبكر جعل المملكة تشتهر بحرفة الصيد كنشاط إقتصادي أول. لكن إدراك سوندياتا كيتا فيما بعد أهمية الزراعة بالنسبة لأمته المندية، جعله يعمل على إدخال محاصيل زراعية أخرى، فقد أدخل إلى مالي زراعة القطن والفستق وشجرة البابايا أو المانغو،[4] كما عرفت

---

(1) موريس دولافوس مترجم كتاب تاريخ الفتاش لمحمود كعت ي الهامش، ص 60.

(2) كانت الشرطة في الدول الإسلامية تقوم على الأحكام القضائية ويتولى صاحبها بالنظر في الجرائم، وكثيرا ما كانت الشرطة والحسبة تسندان لشخص واحد. (حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي ولديني والثقافي والاجتماعي، الجزء الرابع،العصر العباسي الثاني، دار الجيل ببيروت ودار النهضة المصرية بالقاهرة، الطبعة الرابعة عشر، 1412هـ/1992م، ص329) .

(3)Dr Colomb : Les populations du haut Niger,p2.

(4) Tidiane N'diaye : Op.Cit, p32

الإمبراطورية بفضله إنتاج الدخن، السورغو والأرز بكميات كبيرة جدا.[1] وبذلك بدأت المملكة تهتم بالزراعة، فوضع دستور مندي الشهير بكوروكان فوكا قوانين صارمة خاصة بتنظيم العمل الزراعي، ومحاربة ظاهرة هروب العمال من الحقول، واتُّخذت إجراءات خاصة بمكافحة شرود الدواب خلال موسم الزرع والحرث، حيث يمسكون بها ويعيدونها إلى رئيس القبيلة.[2] وقد طبقت هذه القوانين بصرامة في عهد سوندياتا، وفي عهد خلفائه الأوائل من بعده، بل تحولت مع مرور الوقت إلى تقاليد ثابتة لا تتغير مع تغير الأنظمة والحكومات.

ورغم أن المصادر الخاصة بتاريخ مالي لم تترك لنا تفاصيل دقيقة حول النشاط الزراعي وتقنياته، وطبيعة ملكية الأراضي والسياسات الزراعية المطبقة، إلا أننا نستطيع أن نفهم من كلام العمري عند قوله ((ولأمراء هذا الملك وجنده إقطاعات وإنعامات)) [3] بأنه كان للأمراء والجنود أراض خاصة بهم. كما نجد في نفس المصدر بأن الملك منسا موسى قد وضع قوانين صارمة في مراقبة وحماية الإنتاج الزراعي من السرقة، حيث كان الماليون يزرعون شيئا يشبه البطاطا يعرف عندهم باسم القافي الذي كان يزرع في الخلاء، ولكن إن أُبلغ الملك بأن أي أحد قد سرق منه شيئا عاقبه بقطع رأسه وتعليقه في المكان الذي قطع فيه حتى يكون عبرة لغيره، ولا تنفع مع هذا الفعل أية شفاعة لدى الملك.[4] وبالتالي فإننا نستنتج من كلام العمري شيئين مهمين هما:

أنظر أيضا: الشارف محمد : إمبراطورية مالي. مقال نشر في الموقع الالكتروني:
http://www.islamichistory.net. اطلع عليه في جويلية 2006.

(1) Rosa amelia plumelle Vribe : traite des blancs traite des noirs, p51.

(2) CELHTO :La charte de Kurukan Fuga,p20 .

(3) المصدر السابق، ص 116 .

(4) العمري: المسالك،ج4، ص 111.

الأول هو أن الملك كان يراقب النشاط الزراعي عن قرب، بل ويبدي صرامة كبيرة في دعم الفلاحين وحماية إنتاجهم.

أما **الأمر الثاني** فهو أن حرص الملك على معاقبة سارقي منتوج القافي، وحرص الموظفين على إطلاعه بأمر السرقة رغم أنه يبدو تافها أمام أمور الإمبراطورية التي تشغله،و هو ما يقودنا إلى الاعتقاد بأن تلك الأراضي التي كان يزرع فيها هذا المحصول، والتي قال عنها العمري بأنها أراضي موجودة في الخلاء يمكن أن تكون أراض خاصة بالملك وحاشيته، أي أراضي إقطاعية.

وبهذا يمكن أن نقول بأن تدخل الملك في النشاط الزراعي قد ارتبط بأهمية الزراعة في توفير الأمن الغذائي للدولة وفي تموين جيشها العظيم، إلى درجة أصبح فيها الملك ينتظر موسم جني المحاصيل لتقييم مدي خضوع الفلاحين لسلطته وقياس مدى ولائهم له. حيث كان يتعين على الفلاحين خلال حلول موسم جني المحاصيل تقديم فروض الطاعة والولاء، وإظهار درجة وفائهم للملك من خلال تقديم باكورة الإنتاج إليه، وأن عدم الالتزام بذلك يفَسَّر على أنه خروج عن المنسا وعصيان له.[1]

وبجمل القول فإن مملكة مالي كانت تنتج عددا متنوعا من المحاصيل وخاصة الحبوب التي يتقدمها الأرز ونبات آخر يعرف بالفوني،[2] وكان الأرز يزرع في أودية نهري النيجر والسنكراني، بالإضافة إلى مناطق السنغال وغمبيا، كما كان يزرع الدخن أو الذرة في التربة الجافة في السهول.[3] أما الشعير فهم منعدم لديهم ولا ينبت أبدا. ويزرع الماليون

(1) نيان تمسير جبريل: المرجع السابق، ص175 . نشير إلى أنه في القديم كان المندي يقدمون جزء من باكورة إنتاج البطاطا لرئيس القبيلة كمظهر من مظاهر الاحترام .

(2) العمري: المصدر السابق، ص 111 .

(3) نيان تمسير جبريل:المرجع السابق، ص 175 .

أنواعا عديدة من الخضر كالفاصوليا والقرع واللفت والبصل والثوم والباذنجان والكرنب والملوخية، أما الفواكه فهي متوفرة بأنواع شتى، فمنها الجميز وأشجار غير معروفة إلا عندهم مثل شجر يسمى نادموت، وآخر يسمى زبيزور تشبه ثماره ثمار الخروب، وشجر يسمى شومي ثماره شبيهة بالسفرجل، وطعمه قريب من طعم الموز، وشجر اسمه فاريتي وهو شبيه بالليمون وطعمه شبيه بطعم الكمثري.(1)

أما فيما يخص تربية المواشي والأغنام فإنها كانت مزدهرة أيضا في مالي، وكان كل شعب يهتم بنشاط حيواني معين ويختص فيه، بحيث كان شعوب السهول كالفلاته ينفردون بتربية الماشية، وخلال القرن الرابع عشر للميلاد/الثامن للهجرة، أصبح معظم الريفيون في نهر النيجر يمارسون تربية البقر والأغنام والماعز،(2) لكن يظهر بأن عملية الرعي لم تكن منظمة و لم تكن تتم في مراعي معينة، وإنما كانت ترعى على القمامات والمزابل. ورغم ذلك فإن إنتاجها كان وفيرا بحيث كانت تلد الواحدة منها في بطن واحد سبعة وثمانية صغار.(3) كما كان الصيد تمارسه جماعات عريقة مثل السومونو في أعالي النيجر، والبوزو في حوض النيجر الأوسط والسوركو في بلاد سنغاي.(4) وقد لخص ابن بطوطة هذه الرفاهية الغذائية وحالة الرخاء من لأمن الغذائي التي حققها أحفاد سوندياتا، في قوله بأن المسافر في بلاد مالي لا يحمل زادا ولا غذاء، وكلما وصل إلى قرية استقبلته النساء السودانيات باللّبن والدجاج ودقيق الأرز والفوني ودقيق اللُّوبياء فيشتري ما أحب منه.(5)

---

(1)نيان تمسير جبريل:المرجع السابق،،ص 113 .

(2) نفسه، ص 175.

(3) العمري:المصدر السابق،ص 113 .

(4) نيان تمسير جبريل:المرجع السابق، ص 175 .

(5) المصدر السابق، ص 680.

2.في الميدان التجاري:

يقول المؤرخ الإنجليزي جون فيج بأن إمبراطورية مالي قامت من خلال الزعيم سونداياتا وأسلافه من آل كيتا بنفس الدور التجاري الذي قامت به إمبراطورية غانة، ألا وهو السيطرة على التجارة الرئيسية في كل السودان الغربي، إلى درجة انه أصبح فيها المؤرخون يخلطون بين الإمبراطوريتين.(1)

إن هذا الكلام لا يجب أن يُفهم على أن مالي لم تقم سوى بوراثة دور سالفتها غانة في السيطرة على المراكز التجارية الهامة بين الشمال وبلاد السودان وكذا مناجمها المعدنية الثمينة، ذلك أن ملوك مالي بدء بسونداياتا ومرورا بخلفائه من بعده، حوَّلوا المكاسب المادية لهذه التجارة إلى تدعيم قوتهم العسكرية وفرض الأمن لأكبر مساحة للتجار، مما مكّنهم من توسيع سيطرتهم التجارية التي جعلت من مملكتهم إمبراطورية عسكرية وسياسية وتجارية أيضا،كما ساهمت القوة العسكرية المالية في فرض سيطرتهم على مناجم الذهب في بوري والذي يعد أهم سلعة في التجارة بين جنوب وشمال الصحراء.(2)كما عملت توسعات منسا موسى العسكرية خلال القرن الرابع عشر للميلاد/الثامن للهجرة، على تقريب المملكة من المراكز التجارية في الشمال كولاته ومن مناجم النحاس في تاكده.(3)وكذا سيطرتهم على المحطات التجارية الهامة لقوافل الطوارق كتوات وتمنطيت.(4)

(1) تاريخ غرب إفريقيا، ص 53.

(2) نيان تمسير جبريل: المرجع السابق، ص 176.

(3) جون فيج: المرجع السابق، ص 55.

(4) أنظر ابن خلدون: العبر، مج7، ص 118.

ومن العوامل التي ساعدت خلفاء سونديانا على السيطرة على تجارة السودان الغربي هو معدن الذهب الذي كان في وقت سابق يموّل الأسواق في كل إمبراطورية غانة خلال القرنين الرابع والسادس الهجريين/10و12الميلادي، والذي بقي يشكل أهم مصدر للدخل بالنسبة لأسواق إمبراطورية مالي خلال القرنين السابع والتاسع الهجريين/ 13و15م. لكن الشيء الذي تغير في عهد قوة خلفاء سونديانا، هو أن إمبراطوريتهم كانت تسيطر على مساحات أوسع من تلك التي كانت بحوزة إمبراطورية غانة، وبالتالي كانت لديها مصادر أكثر، فمع بداية القرن الثامن للهجرة/14م بدأت مالي تتوسع في الدلتا الداخلية للنيجر في منطقة جاو وفي إمارات سنغاي الشرقية، مما أضاف دفعا قويا ومصدرا جديدا لتجارة العبيد وزيادة في مداخيل الضرائب الناجمة عن مراقبة تجارة القوافل.[1]كما استفاد أحفاد سونديانا ومملكتهم من تحوّل الطريق التجاري الصحراوي من الغرب (وهو الرابط بين ولاته ومراكش مرورا بسجلماسة) إلى الشرق (وهو الرابط بين تمبكتو وزويلة أو بين تمبكتو والبنهاسا بمصر مرورا بتادمكة ووركلان)، وذلك بسبب اندلاع الثورة الموحدية بالمغرب الأقصى والتي انتهت بسقوط الدولة المرابطية،[2] وقد ساعد على هذا التحول شرقا في التجارة الصحراوية عندما أصبح إنتاج الذهب يتم من الجهة الشرقية لحوض النيجر الأعلى، بالإضافة إلى كثرة حوادث قطع الطريق بين ولاته وسجلماسة، ومنه برزت أهمية مالي والتجار الماليين الذين أصبحوا ينافسون التجار المغاربة.[3]

---

(1) Conrad(David) : Empires of medival West Africa : Ghana, Mali, and Songhay, p40. _Tidiane N'diaye : La longue marche des peuples noirs, pp31, 32.

(2) انظر ابن عذارى: البيان المغرب. تحقيق: محمد إبراهيم الكتاني،محمد زنيبر، محمد بن تاويت، عبد القادر زمامة.دار الغرب الإسلامي، بيروت،1406هـ/1985م، الجزء الرابع (قسم الموحدين)، ص16 وما يليها.

(3) عز الدين عمر موسى:دراسات إسلامية غرب افريقية.دار الغرب الإسلامي،طبعة ثانية، 1424هـ/2003م ، ص ص 64،65.

إذن فالقوة العسكرية لمالي لم تكن العامل الوحيد في سيطرتها التجارية، ذلك أن سيطرة مالي على التجارة ضمن مجالات واسعة جدا لمدة تزيد عن القرنين[1] ساهم فيها العنصر البشري بشكل ملحوظ جدا، فالتجارة السودانية بشكل عام كانت تسيطر عليها ثلاث جماعات عرقية هي المندي، الهوسا واليوروبا، وكان المندي الذين يتشكل منهم أغلبية الشعب المالي يتفرعون بدورهم إلى ثلاثة فروع هي الديولا، الونغارا والداندي. وكان الديولا وهم المالنكي التجار يمارسون التجارة على مستوى منطقة فولتا العليا وساحل العاج الحاليين، أين كانوا يراقبون تجارة الكولا والذهب الذي يستبدلونه مع الملح في مناطق بوندوكو، بونا و كونغ.[2] ولعل الشيء الذي يميز الديولا عن غيرهم من المالنكي هو أنهم لم يسكنوا إلا المدن، بعيدا عن الأهالي المزارعين الوثنيين،[3] وربما هو الشيء الذي سمح لهم بتشكيل مجتمع ديني وتجاري، وجعلهم أكثر تفتحا على التجار المسلمين القادمين من شمال الصحراء فاحتكوا بهم، وسيطروا بذلك على المركز التجارية الشمالية. لهذا كان الديولا يمثلون أكبر لوبي تجاري خلال فترة ازدهار مملكة مالي، فسيطروا على نشاط تجاري يمتد من الغابات التي كان يسكنها الوثنيون، وجلبوا إلى الشمال الذهب من منطقة بوري، بامبوك و بوندوكو، بالإضافة إلى مناجم بلاد الاشنتي. حيث كان تجار ديولا وحدهم الذين يمتازون بثقة سكان الغابات، ولا يسمحون لغيرهم بالاقتراب من مناجم الذهب، كما كانوا يجلبون نبات الكولا، بينما كانوا يحملون من الشمال إلى الجنوب قطع النسيج والمصنوعات الزجاجية والجلود المدبوغة وألواح الملح التي

---

(1) وتمتد هذه الفترة من انتصار معركة كيرينا عام 1235م إلى بداية التواجد البرتغالي في المنطقة مع نهاية القرن الخامس عشر للميلاد.

(2) Igue(John) : Le territoire et l'état en Afrique. Les dimensions spatiales du développement. Editions Karthala, Paris, 1995, p158.

(3) Delafosse(M) : Haut Sénégal-Niger, tome1, p280.

كانت تجلب من الملاحات الصحراوية كأوليل أو(ترارزة)، وإيجيل وتغازة.[1] أما الونغارا فكانوا يتمركزون في بلاد الأشانتي حول منطقة كينتامبو (Kintampo) و أتيبوبو (Atebubu)، وذلك من أجل مراقبة تجارة الكولا والذهب.[2]

ومع حلول القرن الثامن للهجرة/14من تمكن الونغارا من الوصول إلى أسواق ومملحات الصحراء وهو نشاط يدل على تطور المبادرة التجارية لهؤلاء الونغارا، وقدرتهم على منافسة تجار الصحراء القادمين من بلاد المغرب ومصر، فعمل وصول التجار الماليين إلى مملحة تاغزة على تخليص إمبراطوريتهم من الضغط الذي كان يمارسه عليها بربر مسوفة باحتكارهم لتجارة الملح.[3] بينما كان الدندي يتمركزون في الشرق أين أسسوا مدينة كاندي، وجوكو في البنين الحالية، وكانوا يهتمون بتنظيم الأسواق ويوفرون مؤسسات لاستقبال للقوافل التجارية.[4]

كما لعبت بعض المدن التجارية دورا مهما في هذه السيطرة التجارية لمالي، فكانت مدينة ولاته أولى هذه المراكز التي أسسها السوننكي المسلمون المعروفون بالونغارا، والجداليون مع بداية القرن السابع للهجرة هروبا من بطش الصوصو عندما قاموا بغزو

---

(1) Sory (Kamara) : Gens de la parole, p22.
= ونشير إلى أن ملح أوليل كان يحمل إلى غلام أولا، ومنها يحول إلى قلب مالي مرورا بمناطق كيتا ونياغاسولا، أما ملح إيجيل فيمر عبر ودانثم يحمل عبر طريق(تيشيت ـــ ولاته ـــ تمبكتو) قبل أن يصل إلى منطقة الغابات، بينما ملح تاغزة فكان يمر غبر تمبكتو ومنها إلى جني ثم إلى مالي. (Sory (Kamara) : Op.Cit,p22).

(2) Igue(John): Op.Cit. p158.

(3) الشكري (أحمد):المرجع السابق، ص 193 .

(4) Igue(John): Op.Cit, p158.

عاصمة غانة كومبي صالح.[1] فكانت تمثل أول عمالات السودان للتجار المغاربة القادمين من الشمال، فهي لا تبعد عن سجلماسة إلا بمسيرة شهرين فقط.[2]ولعل وقوعها على الحدود بين منطقة السافانا والصحراء الكبرى، ووقوعها في مفترق الطرق الذي يعبره تجار السودان والذاهبون إلى الحج منهم، هو الذي مكّنها من استقطاب اهتمام التجار وجعل منها المحطة النهائية لعابري الصحراء باتجاه السودان الغربي، فعوضت بذلك الدور الذي كانت تلعبه أودغست المندثرة.[3] وعندما زارها ابن بطوطة خلال القرن الثامن للهجرة في عهد منسا سليمان كانت تابعة لإمبراطورية هذا الأخير، وكانت تتوفر على فنادق، ووجد بها مسؤول يتكفل بضيافة التجار والإشراف على شؤونهم يدعى منشاجو.[4] وبقيت تعلب هذا الدور كمحطة تجارية إلى غاية القضاء عليها من طرف الطوارق سنة 838هجرية /1433م، والذين أهملوها وفضلوا تطوير تمبكتو على حسابها.[5]

وتعد جني أكبر مدينة تجارية في مالي، فهي تعد مدينة وإمارة في نفس الوقت، تبعد عن ولاته بخمسمائة ميل، وتمتد على طول نهر النيجر على مسافة مائتين وخمسين ميلا.[6] ولقد أصبحت منذ بداية عهد خلفاء سونديانا الأوائل أي خلال القرن السابع للهجرة /13م مركزا تجاريا مهما بفضل موقعها في ملتقى الطرق التجارية، بالإضافة إلى إحاطة

---

(1) E.W.Bovil and Robin Hallet : Op.Cit, p89 _ Cuoq(Joseph) : Histoire de l'islamisation de l'Afrique de l'ouest, des origines à la fin du16ème siècle. Librairie orientaliste Paul Gauthner, Paris, 1984, p91 .

(2) ابن بطوطة:المصدر السابق، ص676.

(3) شعباني (نور الدين): المرجع السابق، ص 116.

(4) المصدر السابق، ص676.

(5) Cuoq (Joseph) :Op.Cit. p91.

(6) حسن الوزان: المصدر السابق، ص162.

المياه بها مما جعلها في مأمن من الغارات الأجنبية.[1] فبدأ أهلها يحققون أرباحا هائلة من تجارة القماش والنحاس والسلاح.[2] فكان يلتقي فيها أرباب الملح القادمون من تغازة ، وأرباب الذهب القادمون من أودغست، فاستقطبت إليها التجار مكان كل الآفاق، حيث كانت أسواقها تدوم طوال أيام الأسبوع.[3] وكانت تستعمل فيها حتى القوارب لنقل الملح وسلع أخرى من تمبكتو إلى جني، فلقد كانت القوارب في جني كبيرة وقوية يقدر طول الواحد منها بعشرين مترا، وعرضها ثلاثة أمتار، بينما يقدر عمقها بمتر ونصف، وكانت قادرة على حمل كميات كبيرة من السلع كالزبدة، الأرز، القماش، السمك، الدخن، وأكثر من خمسين عبدا. وكان طاقم القارب يتكون من 16 أو 18 بحارا معظمهم من قبيلة البوزو المشهورين بنشاطهم النهري.[4]

أما تمبكتو فلم تتحول إلى مركز تجاري مهم إلا بعدما بدأت ولاته تفقد مكانتها، فاستولت تمبكتو على تجارة ولاته وحتى ثقافتها.[5] ورغم الطبيعة الصحراوية والأرض القاحلة لتمبكتو، إلا أنها استفادت من التنوع الكبير للأجناس الذين سكنوها، وتنوع تركيبتها الديموغرافية من طوارق إلى بربر وسوننكي وسنغاي وعرب ومالنكي و فلاته.[6] فلاته.[6] وتعد تمبكتو حديثة النشأة مقارنة بغيرها من المراكز التجارية الأخرى، إذ يعود

---

(1) الشيخ أمين عوض الله: تجارة القوافل بين المغرب والسودان الغربي وآثارها الحضارية حتى نهاية القرن اللسادس عشر. ضمن كتاب تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن 19م، الصادر عن المعهد البحوث والدراسات العربية، بغداد، 1984م، ص 84.

(2) حسن الوزان: المصدر السابق، ص163.

(3) السعدي: المصدر السابق، ص 12 .

(4) Niane temsir djibril :Le soudan occidental, p201 ,202.

(5) E.W.Bovil and Robin Hallet : Op.Cit, p89.

(6) Elias(N)Saad :Social history of timbuktu :The role of muslims scholars and notables.1400-1900,Cambridge university press,2010,p38.

بناؤها إلى أواخر القرن الخامس للهجرة/11م على يد قبائل بني مقشرن الطوارق.(1) إلا أنها تحولت إلى مدينة تجارية كبرى بفضل منسا موسى وأخوه سليمان اللذان عمراها ووفرا لها الحماية، وجعلا فيها الدكاكين والصناعات، وجلبا إليها البنائين، وازدهرت بها التجارة والعلم.(2) كما أن سمعتها كمخزن للتبر والذهب أصبحت تجلب التجار من كل نواحي دراع والسوس وسجلماسة وفاس، بالإضافة إلى تجار توات وغدامس وفزان وأجيلا في الصحراء.(3)

وقد عرفت مدينة كوكيا نشاطا تجاريا كبيرا، وخاصة خلال فترة حكم منسا أولي، وإلى غاية فترة حكم منسا موسى، حيث استفادت من موقعها على ضفاف نهر النيجر، وازدهارها في مجال الزراعة والصيد البحري. ومع تطور إمبراطورية مالي غيرت كوكيا من نشاطها وتحولت إلى ميناء نهري هام عمل على ربط وتوجيه كل السلع التي تصل إلى تادمكة، وتحويلها إلى المدن الهامة للإمبراطورية والواقعة على ضفاف نهر النيجر، أي أنها تحولت إلى نقطة التقاء نهرية للتجارة الكبرى في مالي.(4)

وبالإضافة إلى هذه المحطات التجارية الكبرى، عرفت إمبراطورية مالي أسواقا محلية عديدة اختصت كل واحدة منها في نقل سلع معينة، فمنطقة كورغو مثلا والواقعة على حدود غابة السافانا، فلقد كانت سوقا كبيرا للكولا والذهب، بينما نياني العاصمة فقد اشتهرت بأهميتها وموقعها الجغرافي الرابط بين بمنجم بوري للذهب، والغابة التي تأتي منها زيت

---

(1) السعدي: المصدر السابق، ص 20.

(2) حسن الوزان: المصدر السابق، ص165.

(3) E.W.Bovil and Robin Hallet : Op.Cit, p89,

(4) Ogunsola (John igue) :Les villes précoloniales d’Afrique noire. Editions Karthala, Paris, 2006, p37.

النخيل والكولا اللذان يكثر عليهما الطلب، كما كانت سيلا في بلاد التكرور وكانو في بلاد الهوسا، عبارة عن أسواق محلية داخلية ذات نشاط موسمي.(1)

وكانت المعاملات التجارية تتم بطريقتين، فتلك التي تتم داخل الإمبراطورية تتم عن طريق المقايضة، حيث كانت تستعمل الملح كمادة للمقايضة، وهذا نظرا لندرة الملح في بلاد السودان لذا كان المليون يقاضونه بالذهب. فكانت حمولة الإبل من الملح(2) المجلوب من تغازة تباع في ولاته مقابل عشرة إلى ثمانية مثاقيل من الذهب، بينما تقايض نفس الحمولة من الملح في مدينة نياني العاصمة ما بين عشرون وثلاثون مثقالا، وقد يصل إلى أربعين مثقالا من الذهب.(3) علما بأن المثقال الواحد يعادل4.5 غرام من الذهب.(4) كما استعمل معدن النحاس أيضا كسلعة للمقايضة، فقد كان النحاس الأحمر المجلوب إلى مدينة نياني يقاض كل مثقال منه بثلثي وزنه ذهبا، ويباع كل مائة مثقال منه بستة وستين مثقال ذهب.(5) وفي تاكدة وهي مدينة النحاس كان تجارها يشترون بالقضبان القضبان النحاسية الرقيقة اللحم والحطب، ويبتاعون بالقضبان الغليظة العبيد والخدم والذرة والسمن والقمح.(6)

ولقد انتشر استعمال النحاس الأحمر في المعاملات التجارية خلال فترة حكم الملك منسا موسى، إلى درجة أصبح فيه هذا المعدن هو الشيء الوحيد المعرض للمكوس حسبما

---

(1) Niane temsir djibril :Le soudan occidental, p201 ,202.

(2) وكانت تقدر حمولة جمل من الملح بـــ 150 كلغ. (الشكري أحمد: المرجع السابق،ص193).

(3) ابن بطوطة: المصدر السابق، ص674.

(4) Niane temsir djibril : Recherches sur l'empire du Mali, p68.

(5) العمري: المصدر السابق، ص ص 126و127.

(6) ابن بطوطة:المصدر السابق، ص 697.

أخبر به منسا موسى محدثه الفقيه أبا الروح عيسى الزواوي الذي التقاه بالقاهرة.(1) وفي بعض الأحيان كانت الأصداف التي تجلب من المحيط الهندي، والتي كان يجلبها التجار العرب، تعوض الملح والنحاس في المعاملات التجارية، وخاصة في الإمارات الشرقية للإمبراطورية مثل مملكتي غورما وجاو.(2) كما استعملت الودع في دولة مالي، فيذكر العمري بأن المعاملة في بلاد التكرور بالودع، وأن التجار أكثر ما تجلب إليهم الودع.(3) وكان المثقال الواحد من الذهب يقايض بثلاثة ألاف ودعة في تمبكتو.(4) ومع وجود بعض النقود المعدنية ذات الشكل الحلزوني، والتي كانت تستعمل في المعاملات العادية، فإن العملات الأكثر قيمة ورفعة تبقى تلك النقود الذهبية الملساء التي تعرف بالدينار الأصلع، والذي كان يضرب بمالي، ويتشكل هذه النقود من قطع صغيرة من الذهب الخالص الناعم ، التي لم تكن تحمل أي ختم.(5)

ويبقى الذهب المعدن الأكثر أهمية في التعاملات التجارية وبسببه كانت القوافل التجارية القادمة من المغرب ومصر وأطراف الدنيا تقطع الصحراء الكبرى، وتكابد مشاقها ومخاطرها للوصول إلى هذا المعدن النفيس الذي أكسبته رحلة منسا موسى إلى الحج شهرة كبيرة وحيكت حوله الأساطير. وكان ذهب مالي يوجد بغالام التي تلقب ببلاد الذهب، وهي مدينة تقع عند المجرى الأعلى لنهر السنغال، وتعرف بلغة السوننكي باسم غاجاغا

(1) العمري:المصدر السابق، ص 126 .

(2) Niane temsir djibril : Recherches sur l’empire du Mali, p68.

(3) المصدر السابق، ص 122.

(4) طرخان(إبراهيم علي):المرجع السابق، ص 140.

(5) مارمول كرفجال: إفريقيا الجزء الثالث،ص 203

Mauny(Raymond) : Tableau geographique, p419.

(Gajaaga) ويقصدون بها سكان الغرب لأنها تقع غرب الإمبراطورية.[1] كما يجلب من منطقة بامبوك وبوري في الجنوب التي كان يسيطر عليه شعب الجالونكي الكفار. وقد ارتبط استغلاله ببعض التقاليد الوثنية، فرغم انتشار الإسلام في ربوع الإمبراطورية إلا أنه كان يعتقد بأن هذا الذهب سيزول إذا ما أصبح تحت سيطرة المسلمين، لذلك حرص منسا موسى على عدم التدخل في أمور الجالونكي أسياد الذهب، ولا يأخذ منهم جزية، لكن في المقابل فهم يستخرجون له الذهب ويقدمونه له.[2]

أما المعاملات الخارجية فقدكان يتم بعضها بالعملات المختلفة، كالدرهم والدينار الموحديين والدرهم الحفصي، لكنها كانت نادرة الاستعمال[3].ومعظم التعاملات الخارجية كانت تتم مقايضة بالذهب أو العبيد أوالعاج. وقد ربط أحفاد سوندياتا علاقات تجارية مع دول البحر المتوسط، وكانت هذه التجارة تطغى عليها تجارة الذهب حيث كان العرب يمثلون حلقة وصل بين مملكة مالي ودول البحر المتوسط، وكان الذهب هو العملة الرائجة بينهم.

وبفضل رحلة الحج التي قام بها منسا موسى والشهرة التي اكتسبها في القاهرة والحجاز، فإن التجارة العابرة للصحراء قد ازدهرت وازدادت حجما وتدفقا، خاصة بعدما أصبحت مالي معروفة أكثر في المغرب والمشرق الإسلاميين وأوربا، فأصبحت المراكز التجارية المالية كولاته تعج بالملابس المستوردة من مصر والشام، كما أن إبرام منسا موسى لعلاقات

(1) Abdoulaye(Bathily) :Les portes de l’or, Le royaume de Galam. Editions l’Harmattan, paris, 1989, p35.

(2) العمري: المصدر السابق،ص 127.

(3) أحمد موسى عز الدين:النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس للهجرة. دار الشروق، بيروت، الطبعة الأولى، 1983م، ص 299 .

دبلوماسية مع كل من المرينيين بفاس والمماليك بمصر وأشراف مكة، أضاف مجالات واسعة لتجارة مالي، وجعل منها قطبا تجاريا لا يمكن تجاوزه.

3.النظام الضريبي:

لقد عرف السودانيون نظام الضرائب منذ عهد إمبراطورية غانة، وكانوا قد نقلوا ذلك النظام عن المغاربة المسلمين الذين احتكوا بهم منذ وقت مبكر بفضل تجارة القوافل التي كانت قائمة بينهم.[(1)] ويبدو أن حكام مالي من عائلة كيتا قد نقلوا هذه النظم عن غانة بعدما فرضوا سيطرتهم على التجارة الصحراوية وتجارة ما بين النهرين (النيجر والسنغال)، كما اهتموا بها بالغ الاهتمام ما داموا قد خصصوا لها وزارة تتكفل بها. وكانت الضرائب تمثل بالنسبة لخلفاء سوندياتا مظهرا من مظاهر القوة والازدهار الاقتصادي ومظهرا للسيطرة والسيادة ومصدرا لتغطية نفقات القصر والإدارة والجيش، لذلك كانوا صارمين جدا في تحصيلها[(2)]، فكان الواحد من الرعية مطالب بتسديد ما عليه من ضرائب ورسوم ولو مرّت سنوات وشهور من انقضاء فترة الدفع، حيث لم يكن هذا الواجب يسقط بالتقادم.[(3)]

وكانت هناك ضرائب تدفع ذهبا وأخرى تدفع سلعا، وهي تلك المفروضة على المحاصيل الزراعة والثروة الحيوانية، وكان الفلاح يدفع فيها عشر المحصول، الذي يجمع ويرسل إلى العاصمة لتقدم للمنسا والمخازن العسكرية، وهي ضريبة إسلامية اقرها الملك منسا موسى. أما الملاك الذين لا يخدمون أراضيهم فكانوا يدفعون عشر عائدات جهدهم العضلي.[(4)]

---

(1) شعباني(نورالدين):المرجع السابق، ص 191.

(2) Trimingham(Spencer) :Op.Cit, p81.

(3) Labouret(Henri) : Histoire des noirs d’Afrique. Presses universitaires de France, Paris, 1950, p30.

(4) Niane temsir djibril : Recherches sur l’empire du mali, p66.

كما قسمت الضرائب أيضا حسب أنواع الحرف، فهناك ضرائب يدفعها الفلاحون الأحرار، وضرائب يدفعها مستغلو قطعان الماشية التي كانت تُسلب في الحروب وتوزع على الرعاة الذين يخضعون لسلطة أمير (أميرو) وهو أمير البقر.[1] وهناك ضرائب يدفعها التجار وخاصة طائفة الديولا، والذين كانوا يتاجرون بين مالي ومنطقة الغابات، والذين كانوا يرسلون قوافلهم المحملة بالسلع التي تمثل عشر مداخليهم إلى العاصمة المالية وذلك نهاية كل فصل شتاء[2] . وهناك ضرائب أخرى يدفعها التجار الداخلون والخارجون إلى ومن الأراضي المالية، وهي بمثابة مكوس أو رسوم جمركية، وتقدر هي أيضا بالعشر على كل سلعة داخلة إلى السوق أو خارجة منه، وهنا كانت ولاته وتمبكتو تعدان مدينتان لاستخلاص هذا النوع من الضرائب والمكوس.[3]

لكن تبقى الضرائب التي تأتي من الأراضي أو من قطعان الماشية، هي أكثر الضرائب مواظبة في الدفع، فقد كان يدفع عن كل ثلاثين ثور واحد وعن كل أربعين بقرة تدفع بقرة واحدة، ويدفع خروف عن كل أربعين خروف، وعنزة عن كل مائة عنزة.[4] وعندما كانت الديون الخاصة بالضرائب تتراكم، يقوم المنسا أو الوالي أو الفاران بتنظيم حملة لجمع متأخرات الضرائب، وكثيرا ما كانت هذه الحملات تتخللها تجاوزات وأعمال عنف مختلفة من طرف عمال الملك.[5]

رابعا. دورهم العلمي والثقافي:

1.نشر الإسلام والثقافة العربية الإسلامية:

---

(1) Labouret(Henri) :Op.Cit, p30.
(2) Niane temsir djibril : Op.Cit, p66.
(3) Labouret(Henri) :Op.Cit, p30.
(4)Labouret(Henri) :Op.Cit, p30.
(5) Ibid, p30.

لاحظنا في الفصل الثاني من هذا البحث كيف أن سوندياتا قد وطد أركان الإمبراطورية المالية وقضى على أعدائها، ووسع رقعتها الجغرافية، وزودها بدستور، ونظم المجتمع، وأسس للنظام السياسي لمالي، لكننا لم نلمس من مجهودات جد عائلة كيتا أنه أبدى اهتماما بالنواحي العلمية والثقافية. لكن منذ وفاته وتولي ابنه منسا أولي حتى بدأت الإمبراطورية تستنشق هواء ثقافة جديدة صبغت بها حضارة السودان الغربي لمدة تزيد عن ثلاثة قرون ألا وهي الثقافة العربية الإسلامية. فقد قام ابن سوندياتا بتدشين عهده بقيامه بفريضة الحج، ومر في طريقه بمصر التي زارها على أيام السلطان المملوكي الظاهر بيبرس.[(1)] ففتح بذلك طريقا جديدا لملوك مالي من بعده، وإن كان هذا الطريق هو طريق الحج الذي أصبح بعد ذلك سنة استنّ بها كل منسا تربع على عرش مالي، فإنه كان في نفس الوقت الطريق الذي أطلت منه مملكة مالي على مناهل الحضارة والثقافة العربية الإسلامية.

ولقد كان أحفاد سوندياتا شديدي الحرص على تعلم الدين الإسلامي ومن ثم نشره بين رعيتهم، فالملك منسا موسى كان شديد التديّن وحريص على الصلاة وقراءة القرآن والذكر، وكان رغم ذلك قليل العلم بشرائع الدين، لذلك كان يحرص على تعلم دينه واجتناب المعاصي التي كانت ترتكب عن جهل، فيذكر العمري بأنه عندما كان منسا موسى بالقاهرة في طريقه إلى الحج أخبر ابن أمير الحاجب بأنه من عادات أهل مملكته إذا نشأ لأحد منهم بنت حسناء يقدمها للملك أَمَة فيملكها بغير زواج مثل ملك اليمين، ولكن لما أخبره ابن أمير الحاجب بأن ذلك لا يجوز شرعا، قال له منسا موسى:((والله ما كنت أعلم وقد تركت هذا من الآن)).[(2)] كما حرص هذا الملك على إرساء أسس ثقافة

---

(1) ابن خلدون: العبر، مج6،ص 267.

(2) المصدر السابق، ص 119.

عربية إسلامية مزدهرة من خلال إرسال الطلبة إلى القاهرة والمغرب الأقصى والحجاز، من أجل تطوير معارفهم العلمية ليوظفوها في خدمة هذه النهضة عند عودتهم إلى بلادهم، فلقد وجد في جامع الأزهر رواق خاص بالطلبة الوافدين إليه من السودان الغربي يعرف برواق البرتية.[1] وما زالت الروايات الشفوية تذكر بأن الملك منسا موسى كان قد اشترى عدد من الدور لإيواء الحجيج والطلبة في كل من القاهرة ومكة المكرمة.[2] حيث وجدت في القاهرة جالية هامة من الطلبة والفقهاء السودانيين منذ العهد الفاطمي، فقد اندمجوا داخل المجتمع السوداني وكان لهم حي خاص بهم يعرف ببولاق التكرور، وكانت هذه الجالية متجذرة بقوة في الميادين التربوية، الثقافية والدينية في مصر، وذلك بفضل العلاقات القوية التي كانت قائمة بين مصر المملوكية وإمبراطورية مالي خلال فترة حكم منسا موسى، لهذا كان بالمقابل عدد كبير من الفقهاء والتجار والقضاة المصريين قد انتقلوا إلى مالي.[3] ويمكن أن نذكر الشيخ العالم أبو محمد يوسف بن عبد الله التكروري الذي درس في الأزهر وعاش في القاهرة أين كان ينشر علمه ومعارفه إلى غاية وفاته، لهذا وعرفانا له بمجهوداته في سبيل العلم والدين، قام المصريون ببناء فوق قبره قبة ومسجد سمي بمسجد التكروري، حيث قام المماليك البحرية بتجديده وتوسيعه عام 743للهجرة / 1342م.[4] بالإضافة إلى الشيخ المصري الفقيه القاضي عبد الرحمان التميمي وهو جد القاضي حبيب والفقيه اند غمحمد الكبير، الذي جلبه الملك منسا موسى من الحجاز عند

(1) شوقي عطاء الله الجمل:الأزهر و دوره السياسي و الحضاري في إفريقيا. الهيئة المصرية العامة للكتب، مصر، 1988م، ص 44 .

(2) نيان تمسير جبريل: المرجع السابق، ص 176.

(3) Yattara el Mouloud :(Professeur a l'université de Bamako) : L'islam et les voies de sa diffusion au Mali du 8éme au 16éme siècle. In site : http://www.histoire-afrique.org/article164.html?artsuite=6 consulté le : 20-07-2011

(4) Yattara el Mouloud :Op.Cit

رجوعه من الحج وأسكنه مدينة تمبكتو، لكنه هذا العالم لما رأى عدد الفقهاء بتمبكتو ومستواهم العلمي الذي يفوق مستواه رحل إلى مدينة فاس وتعلم هناك وتفقه على يد علمائها ثم رجع إلى تمبكتو.[1] كما زار موسى كاتب وهو الكاتب الشخصي لمنسا موسى مدينة فاس من أجل الدراسة وذلك بإيعاز وتشجيع من منسا موسى.[2]

وكان للسودانيين مدرسة بالقاهرة مختصة في علوم اللغة العربية والشريعة، عرفت بمدرسة ابن راشق،كان قد بناها أحد ملوك الكانم لما مرّ بالقاهرة قاصدا الحج سنة 640هـ/ 1243م، حيث دفع الأموال للقاضي عالم الدين ابن رشيق الذي بناها له، ودرس فيها فعرفت باسمه، ثم أصبحت لها شهرة في صفوف سكان السودان الذين كانوا يزودونها بالأموال كل سنة.[3] كما شيد منسا موسى مدرسة قرآنية إجبارية في العاصمة المالية نياني،[4] وطبق على طلبة هذه المدرسة نظاما صارما وشديد القسوة، حيث نقل لنا ابن بطوطة قصة ذلك القاضي الذي قيد أولاده يوم العيد بسبب عدم حفظهم للقرآن، وشاهد أيضا في يوم من الأيام شابا حسن الصورة وعليه ثياب فاخرة، ووُضع في رجليه قيد ثقيل لنفس السبب.[5] وقد بلغ تعلق منسا موسى بالإسلام وبأهله، حدا جعله يطلب من شريف مكة خلال تواجده بها أن يرسل معه إلى مالي اثنان أو أربعة من الأشراف المنحدرين من سلالة الرسول صلى الله عليه وسلم وآل بيته ليكونوا رمزا للمباركة التي

---

(1) السعدي: المصدر السابق،ص47 و51.

(2) Cuoq(Joseph) :Op.Cit,p108.

(3) المقريزي(تقي الدين احمد بن علي): المواعظ و الاعتبار بذكر الخطط و الآثار، المعروف بالخطط المقريزية. تحقيق:محمد زينهم و مديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي، مطابع دار الأمين، القاهرة، 1998م، الجزء الثالث، ص442.

(4) Niane temsir djibril :Recherches sur l'empire du mali, p26.

(5) المصدر السابق،ص 691.

حضي بها، ويستمد منهم شرعية ملكه أمام رعيته، وتتبرك أرض السودان بخطوات أقدامهم، وأعلن عن مكافأة تقدر بألف مثقال من الذهب لمن يريد الذهاب معه، وفي الأخير استطاع أن يجلب معه أربعة أشخاص من قريش ومعهم عائلاتهم، ومنح كل واحد منهم ألف مثقال ذهب، وأنزلهم في منطقة تسمى شنشن في ضواحي مدينة جني،لكن يعتقد بأنهم ليسوا من الأشراف(1).

ومن الشخصيات التي اصطحبها منسا موسى معه عند عودته من الحج رفقة الفقيه عبد الرحمان التميمي رجل من عائلة الزعيم الموحدي عبد المؤمن بن علي الذي يدعى المعمر والذي كان له دور بارز في تعليم الملك الشرع الإسلامي من خلال الحظوة التي كان يتمتع بها، ويلازمه دون بقية وزرائه وكبار رجال قومه.(2)

إن المجهودات التي قام بها منسا موسى في سبيل نشر الدين الإسلامي والثقافة الإسلامية أكسبته مكانة دينية رفيعة لدى شعبه، فلم يعد مجرد إمبراطور فقط، وإنما تحول في نظر الشعب المندي إلى ولي من أولياء الله الصالحين.(3) لذلك نقول بان منسا موسى لم يكتف بانبهاره بالثقافة العربية الإسلامية والتأثر بها انطلاقا من تعلقه بالدين الإسلامي وكل ما يرتبط به من لغة وسلوك وثقافة، وإنما استطاع أن يدخل الإمبراطورية كلها في هذه الثورة الثقافية العربية الإسلامية، رغم بعض الخصائص السودانية التي بقيت تميزها.

2. إدخال المذهب المالكي:

وكانت أول هذه التأثيرات انتشار المذهب المالكي، الذي كان مذهب المغاربة بامتياز، وهنا يظهر لنا جليا التأثير المغربي بحكم الموقع الجغرافي وتأثير التجار المغاربة من

(1) Mahmoud kati :Op.Cit,p63.

(2) ابن خلدون: المصدر السابق، ص 201.

(3) جوان جوزيف: المرجع السابق،ص72.

الصنهاجيين في نظرائهم الماليين، بالإضافة إلى دور المرابطين في نشر المذهب السني المالكي. كما كان الأزهر وطلبته دور كبير في نشر هذا المذهب في إمبراطورية المندينغ، فقد كان الأزهر يقوم على المناداة بمذهب السنة،(1) كما أن مدرسة ابن رشيق التي بناها الكانميون وكان يدرس فيها الطلبة الماليون كانت تدرس الشريعة وفق المذهب السني المالكي.(2) فلقد كان منسا موسى مالكيا متشددا، حيث حرص عند عودته من الحج على جلب معه الفقهاء والكتب على مذهب الإمام مالك.(3) ولما حج أخوه من بعده الملك منسا سليمان سنة 1351م /751 هـ، قرر استغلال فرصة تواجده بمصر لشراء عدد من الكتب لتدعيم مكتبات الإمبراطورية،وخاصة تلك الموجودة بمدينة تمبكتو وذلك لتعويض ما خربه وحرقه الموسي خلال هجومهم عليها، فكانت الكتب التي جلبها تضم كتب المذهب المالكي.(4) وعند وصول منسا موسى إلى القاهرة خلال رحلته إلى الحج سنة 724هـ /1324م، أرسل السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون المهمندار في طلبه، وطلب منه السجود وتقبيل الأرض رفض منسا موسى ذلك وقال للترجمان الذي كان يكلمه:((أنا مالكي المذهب، ولا اسجد لغير الله)).(5) وبالتالي فقد أصبح المذهب السني المالكي هو المذهب الرسمي للدولة المالية، ومعتنقيه يدعون "توري" بلغة المالنكي.(6)

ورغم هذا الحرص الذي كان يبديه منسا موسى على التمسك بمذهب مالك ومحاولة إشهار ذلك خلال سفرياته إلى الخارج، إلا أن مملكة مالي لم تكن بمعزل عما كان يعرفه

(1) شوقي عطاء الله الجمل:المرجع السابق، ص12.

(2) القلقشندي: المصدر السابق،ص281.

(3) العمري:المصدر السابق، ص107.

(4) Yattara el Mouloud :Op.Cit.

(5) المقريزي: الذهب المسبوك، ص142.

(6) ابن بطوطة: المصدر السابق،ص 680.

العالم الإسلامي وخاصة المغرب الإسلامي من اختلاف مذهبي، حيث يذكر لنا ابن بطوطة بأن الإمبراطورية المالية التي زارها في عهد منسا سليمان، كان يوجد بها المذهب الخارجي لكن يبدو أنه لم يكن بالأهمية البالغة، بحيث يكون قد اقتصر على قرية زاغزي التي يسكنها التجار السوننكي من الونغارا ومعهم جماعة من البيضان يتمذهبون بالمذهب الإباضي ويعرفون بصغنغو.[1] وعموما فإننا لم نصادف أي مصدر تكلم عن وجود المذهب الاباضي في مملكة مالي باستثناء ابن بطوطة، كما أنه يظهر من شهادة هذا الأخير أن هذا المذهب اقتصر وجوده على قرية صغيرة مما يؤدي بنا إلى الاعتقاد بأن سكان هذه القرية كانوا يشكلون بقايا تأثير الفقهاء الاباضية من التجار الذين كان لهم نشاط قوي خلال القرن الخامس للهجرة/11م، والذين كان لهم أثر بارز في اعتناق ملوك مالي الأوائل للإسلام. لكن نشاط أولائك الدعاة الاباضية كان خلال القرن الرابع والخامس للهجرة/10و11م، وهي فترة لم يكن الإسلام قد تغلغل في المجتمع المندي، وكان إسلاما سطحيا، بينما شهد القرن الثامن للهجرة وهو عصر منسا موسى وأخوه سليمان نهضة ثقافية وتفتح مالي على العالم الإسلامي، وخاصة المراكز العلمية المالكية السنية كالأزهر وفاس. لهذا نقول بأن منسا موسى قد افلح في جعل المذهب السني المالكي، هو المذهب الرسمي للدولة المالية، ونشير إلى أنه رغم تردد منسا موسى على مصر، والعلاقات التي كانت تربطه بعلمائها، وملوكها، إلا أنه لم يتأثر بالمذهب الشافعي الذي كان مذهب المماليك بمصر، وهو ما يُفَسَّر بمدى تأثير العلماء والفقهاء المغاربة في الثقافة الدينية لمالي، ومدى تمسك ملوك مالي بالمذهب المالكي، بالإضافة إلى محاولة إظهار استقلالهم المذهبي عن مصر،[2] بينما لم تتكلم المصادر عن أي أثر للمذهب الشيعي في مملكة مالي.

---

(1) نفسه، ص 680.

(2) الشكري (أحمد):المرجع السابق، ص 229.

3. نشر اللغة العربية:

لقد كان القرن الثامن للهجرة عصر القوة، وكذا عصر التعريب لإمبراطورية مالي، وذلك بفضل المجهودات التي قام به منسا موسى من أجل نشر لغة القرآن في ربوع المملكة، والتي كانت تندرج ضمن مشروعه الثقافي الكبير الساعي إلى جعل إمبراطورية مالي ليس جزءا فقط من العالم العربي الإسلامي، وإنما عنصرا فعالا في حضارته. وكما اهتم بإرسال الطلبة إلى جامعات القاهرة وفاس، وحرص على جلب أمهات الكتب العربية إلى بلده، فإنه أسس عند عودته من الحج سنة 1325م/725هـ مدرسة في مدينة نياني لتعليم اللغة العربية والقرآن.(1) فكان هذا الملك يتقن اللغة العربية قراءة وكتابة، وكان يداوم على قراءة القرآن باللغة لعربية، فقد أخبر ابن أمير الحاجب أبا الفضل العمري بان منسا موسى كان يجيد التكلم باللسان العربي،(2) والأكيد أنه لما ذكر كلمة إجادة كان يعني بها الإتقان. وكانت مراسلات منسا موسى مع سلاطين المماليك بمصر بخط عربي تراعى فيه أصول وقوانين الأدب العربي، وكان يكتبها له خاصته من الماليين.(3) أما في عهد منسا سليمان فقد تحولت اللغة العربية إلى لغة رسمية للإمبراطورية المالية إلى جانب اللغة المالنكية.(4) حيث انتشر في عهده الخط العربي وخاصة الخط المغربي الفاسي(5) الذي يكون قد جلبه معهم إلى مالي طلبة المشرق الذين درسوا في مصر، أو جلبه منسا سليمان

---

(1) قداح نعيم:المرجع السابق، ص 156.

(2) المصدر السابق، ص122.

(3) نفسه،ص 125.

(4) قداح نعيم:المرجع السابق،ص156.

(5) نفسه، ص 156. ــ بوعزيز (يحي):تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية. دار هومة، الجزائر، 2001م،ص199

(5) قداح (نعيم): المرجع السابق، ص 207.

نفسه عند عودته من الحج، كما انتشر أيضا الخط المغربي الذي انتقل إلى مالي عن طريق التجار المغاربة.[1] فمازالت المخطوطات التي احتفظت بها مدينة تنبكتو إلى اليوم والتي تعود إلى فترة القرن التاسع للهجرة، تشهد على انتشار هذا الخط .

ولقد ذكر السعدي قائمة طويلة للعلماء اللغة الذين كانوا مقيمين أو يدرسون في تمبكتو، منهم الشيخ يحي التدلسي، وأبو عبد الله أندغمحمد بن الفقيه النحوي بن أندغمحمد إمام مسجد سنكري، وهو شهير في علم اللغة العربية، ومنهم السيد أبو العباس أحمد بن عثمان بن عبد الله بن أبي يعقوب، وهو عالم فقيه ولغوي نحوي متقن في علوم الأدب.[2]

كما استخدم الماليون مهنة الوراقة، وهي مهنة نسخ وبيع الكتب وهي من المهن المرتبطة بالثقافة العربية، فأصبح الماليون يكتبون لغتهم المالنكية بالخط العربي.[3] بل عرفت لغة المالنكي وهي لغة عائلة كيتا وسكان النيجر الأعلى والتي أصبحت اللغة الرسمية لإمبراطورية مالي، دخول عدة كلمات عربية إلى قاموسها اللغوي، ونأخذ على سبيل المثال كلمة "حورايا "وهي الحرية، و"باراكا" وتعني البركة أو القوة، وكلمة "تنين"التي يقصد بها يوم الإثنين.[4]

4. نشر التعليم:

---

(6) المصدر السابق، ص 29.

(1)السعدي:المصدر السابق،ص 208.

(4) Camara(Mamadou) : Parlons Malinké. Editions : L'harmattan, Paris, 1999, p20 .

إن التعليم في مملكة مالي خلال فترة حكم عائلة كيتا الأوائل كان يتم عن طريق الكلمة فقط، أي عن طريق الرواية الشفوية التي كانت تحفظ عن ظهر قلب، وتتوارثها الأجيال وتلقن عن طريقها العلوم والمعارف.(1) لكن مع مجيء ذلك الجيل من الملوك الحجاج واحتكاكهم بالحضارة الإسلامية في المغرب والمشرق، بدؤوا يتعرفون على الطرق التعليمية الجديدة، وأخذوا ينقلونها إلى إمبراطوريتهم التي كانت تتهيأ لأن تكون إحدى أقطاب الثقافة العربية الإسلامية.

وكان أساس التعليم الذي ركز عليه خلفاء سونددياتا يقوم على تعليم القرآن، الذي يعد أساس التعليم، وتدور حوله مختلف المناهج من لغة وفقه وتفسير وأصول وتاريخ.(2) وكان التعليم في البداية يقتصر في أول الأمر على الأساتذة العرب والبربر القادمين من المغرب الإسلامي، وبعد مدة تكونت طبقة من المعلمين السودانيين الذين تخرجوا من مختلف المدارس المشرقية والمغربية، وكان دورهم في البداية يقتصر على تعليم ملوك مالي القرآن وبعض شرائع الإسلام، وكانوا يتلقون مكافآت على ذلك.(3) ويبدو أن مهمة هؤلاء المعلمين كانت تشمل تعليم ملوك مالي اللغة العربية، وهذا من خلال إجادة كل من منسا موسى وأخوه سليمان للغة العربية، رغم أنهما لم يكونا يتقنان حتى لغات ولهجات الشعوب التي يحكمونها، بحيث كانوا يتحدثون للوافدين عليهم من رعيتهم عن طريق ترجمان.(4)

(3) Devey (Muriel) : La Guinée p285.

(2) Raymond(Mauny) :Tableau géographique de l’ouest Africain au moyen âge. Editions Ifan, Dakar, 1961, p528.

(3) قداح نعيم:حضارة الإسلام و حضارة أوربا في إفريقيا الغربية، ص 160.

(4) أنظر ابن بطوطة : المصدر السابق، ص 684.

وقد تأثر التعليم في مالي بطبيعة التكوين الديني لهؤلاء المعلمين، حيث اقتصر على العلوم الدينية بالمدارس القرآنية التي تشبه الكتاتيب في بلدان المغرب العربي، والتي كانت تنتشر في المدن الكبرى كولاته، جني، تمبكتو، غاو، نياني وغيرها، والتي كانت تمثل صورة طبق الأصل لنظيراتها في مكة، الكوفة، القاهرة أو فاس.(1) فكانت تستقبل الأطفال منذ نعومة أظافرهم، وتلقنهم تهذيبا دينيا سليما، ويحفظ لهم القرآن الكريم وتدرس لهم اللغة العربية حتى يتمكنون من كتابتها، كما كانوا يدرسون بعض المواد العلمية.(2)

أما نظام التعليم فقد كان يتميز بالصرامة الشديدة، وكثافة البرامج، حيث كان في جني مثلا يخرج المعلم من بيته إلى المسجد في منتصف الليل، فيبدأ الحصة ويجلس حوله الطلبة، فيتابعون الدرس إلى غاية صلاة الصبح، ، وعند نهاية الصلاة يعودون إلى أماكنهم إلى غاية منتصف النهار أين يعود المعلم إلى بيته، ثم يعودون إلى الدراسة بعد صلاة الظهر، وتنتهي الحصة مع صلاة العصر.(3) كما كان الآباء يحرصون على حفظ أبنائهم للقرآن وكانوا يعاقبون أبناءهم عليها أشد العقاب كما يخبرنا بذلك ابن بطوطة.(4) وكان الفقيه الحاج التمبكتي، الذي تولى القضاء بتمبكتو في أواخر عهد دولة مالي كان قد أصدر أمر بقراءة نصف حزب من القرآن بعد صلاتي العصر والعشاء في جامع سنكري.(5)

---

(1) قداح نعيم:المرجع السابق، ص 160.

(2) باري (محمد فاضل) و كريدية (سعيد إبراهيم): المرجع السابق، ص 105 .

(3) Cuoq (Joseph) :Op.Cit. p91.

(4) انظر المصدر السابق،ص 691.

(5) البرتلي الولاتي (أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الصديق): فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور. تحقيق: محمد إبراهيم الكتاني و محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت،طبعة أولى،1981م،ص 88 . السعدي، المصدر السابق، ص 27 .

وبالنسبة لمرحلة التعليم الثانوي فكان يتخصص فيها الطالب لدراسة علوم القرآن وتفسيره، بالإضافة إلى دراسة مواد أخرى مثل الفقه والحديث والفكر الإسلامي والأخلاق الإسلامية والأدب العربي،كما كانوا يدرسون الطب والجراحة وعلم الفلك والرياضيات والفيزياء والكيمياء واللغات والتجارة.[1] بعد ذلك يتدرج الطلبة في مناهج أخرى لتشمل حلقات درس وندوات تجري فيها مناقشات فقهية، وفلسفية حيث يُدَرَّس لهم منطق أرسطو ومقامات الحريري.[2] كما كانوا يدرسون الفقه المالكي لخليل بن إسحاق.[3] وكانت دراسة النحو تقوم على الاستنتاج، إذ يقرؤون النص الأدبي ويناقشونه من خلال بعض المسائل النحوية ثم تستخرج القاعدة.[4]

بعد ذلك تأتي المراحل العليا من التدريس في تمبكتو وفاس والقاهرة وهو ما يعادل التعليم الجامعي، حيث يتم التدريس في هذه المرحلة على أساتذة مرموقين في مجال التعليم الإسلامي، هنا يصبح المنهاج أكثر تخصصا وعمقا في البحث، حيث كان الأستاذ يطرح على الطلبة مسائل تتعلق بشتى المواضيع، وكان على الطالب تقديم حلول لها مدافعا عن رأيه بالحجج والبراهين وذلك أمام عدد من زملائه الطلبة وأساتذته، كما يتدربون خلال هذه المرحلة على تزكية النفس ليكونوا نموذجا صالحا للأجيال المقبلة. أما التخرج فيتم بعد التأكد من تفوق الطالب في المعرفة والأخلاق الإسلاميين، فيعطى بعدها عمامة مزينة

---

(3) باري(محمد فاضل) و كريدية(سعيد ابراهيم)، المرجع السابق، ص 105

(4) قداح نعيم،المرجع السابق، ص 161 .

(3) Cuoq (Joseph) ,Op.Cit. p126.

(4) قداح نعيم،المرجع السابق، ص 161.

بالعقد والدوائر التي ترمز إلى أسماء الله الحسنى، أما العمامة فكانت ترمز إلى الحد الفاصل بين العلم والحكمة والمعرفة والخلق الحسن.(1)

وكان التعليم الجامعي يتم في جوامع عديدة منها جوامع تمبكتو التي كانت ذات شهرة كبيرة وخاصة مسجدها الكبير الذي يعد أقدمها وأكبرها، وإن كنا لا نعرف تاريخ تشييده على وجه التحديد، لكن الأكيد هو أن هناك مسجد أقيم فوق موقعه خلال القرن السابع للهجرة/13م، والراجح أن بناءه لأول مرةكان في مطلع القرن السادس للهجرة /12م على وجه التقريب، أي في الفترة التي وجدت فيها مدينة تمبكتو واستقرار المسلمين فيها، وجدده فيما بعد منسا موسى عن عودته من الحج.(2) وكان نظام التعليم في تمبكتو يتميز بمستوى عال لا يقل عن الجامع الأزهر وجامع الزيتونة والجامع الأموي أو غيره، فكانت تعقد فيه حلقات العلم يتشاور فيها الأئمة والأساتذة والعلماء فيما بينهم بين أروقة الجامعة لمعالجة المسائل التي ترسل إلى السلطات الحكومية للتقيد بها.(3) أما الكتب المتداولة لدراسة بهذه الجمعة فهي نفسها المتداولة في الجامعات الإسلامية الكبرى مثل كتاب الشفا للقاضي عياض، مدونة القاضي سحنون، مختصر ابن الحاجب الفرعي، تهذيب البرادعي، جمع الجوامع القرطبية، جامع المعيار وهي كلها في الفقه المالكي، بالإضافة إلى ألفية بن مالك في النحو وتلخيصها للسيوطي، ألفية السيوطي، صحيح مسلم والبخاري، سيرة بن هشام وتفسير الجلالين، وغيرها.(4)

---

(1) باري(محمد فاضل) و كريدية(سعيد إبراهيم): المرجع السابق، ص 105 .

(2) معتز ياسين: جوامع تمبكتو في مالي. مقال صدر في مجلة الوعي الإسلامي، الصادرة عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، العدد 523.

(3) باري(محمد فاضل) وكريدية (سعيد إبراهيم): المرجع السابق، ص 105 .

(4) معتز ياسين: المرجع السابق.

وعموما فقد كان مستوى التعليم عال جدا في جامعة تمبكتو إلى درجة أن عبد الرحمان التميمي الذي جاء من أرض الحجاز مع منسا موسى، لما سكن تمبكتو أدركها حافلة بالفقهاء السودانيين، ولما رأى تفوقهم عليه في الفقه رحل إلى فاس وتفقه فيها، ثم رجع إلى تمبكتو فاستقر فيها.(1) كما انتهجت جامعة تمبكتو سياسة تقوم على التبادل العلمي بينها وبين الجامعات والمعاهد في البلدان الإسلامية الأخرى في المغرب والأندلس والصحراء الكبرى، ولما كانت معاهد المغرب أعرق منها فقد حرص ملوك مالي على إرسال طلبتهم إليها، حيث قام منسا موسى بإرسال العالم كاتب موسى الذي كان إماما ومدرسا بجامع تمبكتو إلى فاس ليتلقى المزيد من العلوم الإسلامية وذلك بأمر من السلطان الحاج منسا موسى.(2) وعندما اشتهرت هذه المعاهد وفد عليها كثير من الطلبة من بقاع شتى من السودان الغربي لتلقي العلم على مشايخها ومنهم الفقيه مخلوف بن علي البلبالي، ومن إقليم ودان وفد عليهم سيدي أحمد الغزالي بن محمد بن يعقوب الحاجي اليعقوبي السوداني الذي تتلمذ على يد والد أحمد بابا التمبكتي.(3) وعندما زار ابن بطوطة إمبراطورية مالي خلال فترة حكم منسا سليمان التقى عددا من علماء المغرب ومصر المقيمين بمالي، منهم محمد بن الفقيه الجازولي، وشمس الدين ابن نقوش المصري، وعلي الزودي المراكشي الذي قال عنه بأنه كان من الطلبة.(4) كما جذبت جامعة تمبكتو خلال فترة حكم عائلة كيتا بعض علماء الأندلس أمثال علي بن أحمد بن محمد بن عبد الله الوادي آشي (المتوفى عام 724هـ /1323م) وهو والد ابن الملقن التكروري (توفي 804هـ /1401م) صاحب

---

(1) البرتلي الولاتي: فتح الشكور، ص 176.

(2) السعدي: المصدر السابق، ص 57 — Yattara el Mouloud :Op.Cit

(3) أحمد بابا التنبكتي:نيل الابتهاج في تطريز الدباج، إشراف و تقديم: عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس،1989م، جزءان، ص 608.

(4) المصدر السابق،ص 681 .

كتاب طبقات الأولياء، وقد مارس التدريس لمادة اللغة العربية قبل أن يرحل إلى القاهرة.[1] وهناك بعثة تعليمية انطلقت من تمبكتو المالية إلى بلاد الهوسا والبرنو كانت تظم طلبة من الونغارة (لذلك سميت بالبعثة الونغارية) و كانت تضم ركائز معاهد تمبكتو، فأخذ العلماء التمبكتيون منذ ذلك الحين يتوافدون على بلاد الهوسا والبرنو أمثال الفقيه مخلوف البلبالي، والتاذخني، ومنهم من أسس معاهد تعليمية في هذه المنطقة، مثل معهد الحنبليين في كاتسينا.[2]

خامسا.دور عائلة كيتا الفني والعمراني:

1. الفنون:

لقد كان أحفاد سوندياتا كثيري الشبه بملوك المسلمين وملوك الشرق عامة من خلال ولعهم بالفن واكتسابهم لذوق جمالي رفيع. فلقد كان منساواتهم يستقبلون سفرائهم في قصورهم أين كانت تقام حفلات كبيرة، حيث كان كل وفد عن ولايته يأتي بنموذج فلكلوري خاص بمنطقته من أجل تسلية الملك، حيث كانت هذه الاستعراضات تعرف باسم كوتيبا (Koteba)، وما يزال هذا التقليد قائما إلى غاية اليوم في مدينة كيلا. وتقام خلال هذه الاحتفالات التي تعد التسلية المفضلة بالنسبة لملوك مالي أعابا بهلوانية تجسد دور الصياد الفاشل، أو خلافات الزوج مع زوجاته ومختلف مظاهر الحياة اليومية للمندي.كما تنشد بعض الأناشيد التي ظهرت في عهد والدة منسا موسى وهي نانا كونكو.[3] صحيح أن هذه التقاليد الاحتفالية وجدت قبل وصول عائلة كيتا إلى الحكم، وربما قبل تأسيس دولة المندي، لكنها استمرت في عهد أحفاد سوندياتا وخاصة عهد منسا موسى

(1) معتز ياسين: المرجع السابق.

(2) نفسه.

(3) Niane temsir djibril : Recherches sur l’empire du mali, p53.

وأخوه سليمان، حيث وصف ابن فضل الله العمري جانبا من هذه الاحتفالات التي كانت تقام في مجلس منسا موسى، عندما يقول: ((وبين يديه (أي منسا موسى) أناس يرقصون وهو يتفرج عليهم ويضحك منهم)).(1) كما ذكر ابن بطوطة جانبا من هذه الاحتفالات التي كانت تقام في يوم العيد.(2)

أما الموسيقى فقد كانت من أهم الأشياء التي ارتبطت بالحياة داخل القصر الملكي لعائلةكيتا، وقد ظهرت لأول مرة في عهد سوندياتا كيتا وما زالت قائمة إلى اليوم، وهي ترافق الأناشيد والملاحم التي تروي أمجاد العائلة الملكة خلال المناسبات، والتي تتخللها الأساطير والمعروفة بالجيلي، أو الروايات الشفوية. وكانت تعزف هذه الموسيقى عن طريق آلة الكورا(La kora) وهي قيثارة صغيرة ذات طابع إفريقي.(3) وقد ظهرت آلة الكورا سنة 1235م، أي في العام الذي انتصر فيه سوندياتا على ملك الصوصو، وتحتوي هذه الآلة على واحد وعشرين وتر، وكل وتر له دور معين، وفي مقبض الآلة يوجد تسعة ثقوب مفتوحة إلى الخارج، أما الخشب المركزي فهو يمثل العمود الفقري للآلة، بحيث تشبه هذه الآلة جسم الإنسان إذ تتوفر على قلب ولسان ويد وغيرها، وقد اكتشفت هذه الآلة من طرف قائد سوندياتا تيراماغان عندما كان في كهوف كنسالة المتواجدة في مملكة كابو(غمبيا الحالية) خلال غزوه للغرب.(4) كما عرفت الساحة الفنية لقصرعائلة كيتا

---

(1) المصدر السابق، ص 115.

(2) المصدر السابق،ص 686.

(3) Niane(djibril Temsir) :Le soudan occidental, au temps des grandes empires, p219.

(4) تقول الروايات الشفوية بأن هناك امرأة ساحرة كانت تعزف بهذه الآلة عند كل فجر بالقرب من هذا الكهف، وأنها كانت تؤثر في المحارب الذي حاول أن يملكها وهو تيراماغان، فذهب للبحث عن أصدقائه وهم ثلاث أشهر الرواة الشفويين في مندي بالإضافة إلى ثلاث صيادين من كوني، فتوجهوا معه للقبض على

آلات موسيقية أخرى مثل البلافون (Balafon) البولون (Bolon) والسمبي (Simby) وعرفت إمبراطورية مالي الملاحم الخاصة بسوندياتا كأهم الفنون الموسيقية، وتعرف هذه الملاحم باسم سونجاتا فاسا (Soundjata fassa) وهي سيمفونية موسيقية خاصة بكل أبطال معركة كيرينا، حيث تم إنشاء ما يعرف ببالا فاسيكي (Balla Fasseke)، وهي الفرقة الموسيقية التي تمثل الراوي الشخصي والرسمي للإمبراطور سوندياتا، وتتفرع إلى ثلاث طبوع أو مواضيع هي:

ــ ديانديون(Diandion): وتروي أمجاد القائد فاكولي ابن أخت سومنغورو الذي انظم إلى قوات سوندياتا، وغزا بلاد الجولوف، وهي تعد تراثا محفوظا بالنسبة لأحفاده.

ــ بولوبا(Boloba): وهي الموسيقى الخاصة بسومنغور كانتي، وقد ظهرت بعد معركة كيرينا، وأقرها سوندياتا كنشيد وطني لكل الماندينغ.

ــ دوغا(Douga): وهي أغنية المحاربين والموسيقى الخاصة بهم، تنشد خلال المعارك.[1]

ولقد أفادنا ابن بطوطة بجانب من هذه الاستعراضات التي كانت تعزف في قصر الملك منساسليمان، فذكر آلة الطرب التي تصنع من القصب القرع وقال بأن لها صوت عجيب، والتي قد تكون آلة الكورا التي تحدثت عنها الروايات الشفوية، خاصة أنه ذكر الغناء الذي يصاحبها خلال احتفالات يوم العيد، أين كانت تتضمن هذه الأغاني مدح السلطان وذكر غزواته وأفعاله وتغني معه النساء والجواري،كما ذكر ضرب الطبول والأبواق والأنفار.[2]

هذه المرأة الساحرة التي تزوجها فيما بعد تيراماغان وأعطى لأحد أصدقائه الرواة وهو"جيليمالي أولي دياباتي" الآلة الموسيقية ، وهذا الأخير نقلها لابنه كانبا(Kanba) و منه انتقلت إلى الرواة الآخرين.

(1) Niane(djibril Temsir) :Le soudan occidental, au temps des grandes empires , p219.

(2) المصدر السابق، ص ص 684 و 686 .

2. العمران:

استطاع أحفاد سونددياتا ترك بصماتهم ولمساتهم الفنية وفي المجال العمراني، وأصبحوا يتميزون عن غيرهم من ملوك الإسلام وملوك إفريقيا في هذا المجال، حيث تمكنوا من وضع أسس الفن المعماري السوداني، وهو الفن الذي يجمع بين الطراز الإسلامي ويحتفظ بالخصوصيات الإفريقية.

فالطراز المعماري السوداني القديم كان بسيطا تميزه البناية ذات السقف المستدير، وذات الشكل الهرمي المغطى بالقش، أما الحيطان فكانت تُبنى بالطوب ونادرا ما كانت تتخللها الحجارة، كما كانت توجد بالقرب من البيت زريبة لتربية الماشية.[1] فكانت العاصمة نياني في عهد سونددياتا كيتا مبنية مساكنها بالطين وأسقفها مصنوعة من القصب.[2] وحتى مدينة تمبكتو كانت في البداية مبنية بعيدان الأشجار وحشائش النباتات، وفي مراحل أخرى من تاريخها قبل أن يحكمها منسا موسى كانت تبنى من شجر الصيان وهو نوع من الأشجار ذات الجذوع الغليظة، أو مبنية بأوتاد مخلوطة بالطين ومسقوفة بالتبن.[3] لكن وصول منسا إلى الحكم أحدث ثورة حقيقية في المجال العمراني المندي خاصة والسوداني عامة، فخلال تواجده بمكة المكرمة لأداء فريضة الحج سنة 1324م، تعرف على مهندس وشاعر ومهندس أندلسي هو أبو إسحاق الساحلي المعروف بالطويجن[4] فاصطحبه معه

---

(1) زبادية (عبد القادر): الحضارة العربية و التأثير الأوربي في إفريقيا الغربي جنوب الصحراء.(دراسات ونصوص). المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989م، ص 52.

(2) Mauny(Raymond) :Les siècles obscurs de l'Afrique noire. Librairie Fayard, 1970, p160.

(3) باري(محمد فاضل) و كريدية(سعيد إبراهيم): المرجع السابق، ص 98 .

(4) هو أبو إسحاق إبراهيم الغرناطي بن الفقيه الفرضي محمد الأنصاري الأوسي الغرناطي، المعروف بالساحلي والطويجن، وهو من أهل غرناطة من بيت صلاح وثروة وأمانة، وكان أبوه أمين العطارين بغرناطة، وكان من أهل العلم فقيها متفننا، وله الباع المديد في الفرائض، كان في صغره موثقا بسماط شهود

إلى مالي، فقام هذا الأخير الذي كان بارعا في الهندسة والتصميم بإحداث ثورة في الطراز المعماري السوداني.[1] وكان مع الوفد المرافق لمنسا موسى خلال عودته من الحج شخص يدعى المعمر أبو عبد الله بن خديجة الكومي الصنهاجي، وهو أمير من ولد عبد المؤمن بن على زعيم الموحدين، كان قد التقاه في طريق عودته من الحج، بمدينة غدامس[2] وعند مرورهم بمدينة غاو عاصمة سنغاي التي أصبحت تابعة لإمبراطورية مالي، أبدى المعمر اندهاشه لوضعية مسجدها المتردية، والتي كانت تشبه كل منازل البلد في تلك الفترة والمتمثلة في كوخ سقفه من القش،[3] لذلك نبه منسا موسى إلى أن هذه البناية لا ترقى لمكان يعبد فيه الله، ولا ترقى إلى مقام الإمبراطور، ذلك أن الطراز المعماري السوداني البسيط كان ما يزال يطغى على بنايات ومساجد المملكة، فالمساجد كانت قليلة ولا توجد في كل مكان، وتفتقد إلى اللمسات الفنية للعمارة، فأغلب أمكنة الصلاة بمدن المملكة كانت عبارة عن مربعات أو دوائر رملية تفصل الطريق العمومي بإطار من الحجارة، وتدعى (باتوما)، وكانت هناك مصليات تأخذ شكل كوخ كبير من القش.[4] وطلب هذا الأمير الموحدي من أبي إسحاق الساحلي لبناء جامع أكثر رخاء ورونق،

غرناطة، وجال ببلاد المغرب، ثم قدم القاهرة ودخل الشام والعراق، ودخل اليمن والحجاز، وعاد إلى مصر، ثم سار إلى بلاد السودان واستوطنها زمنا طويلا، بالغا فيها أقصى مبالغ المكانة والحظوة والشهرة والجلالة، واقتنى مالا دثر. (العسقلاني(ابن حجر): الدرر الكامنة، ج1، ص211.)

ـــ ويذكر دولافوس بأنه توفي بتمبكتو خلال فترة حكم منسا سليمان سنة 1346م (Haut Sénégal-Niger,t2,p190).

(1) السلاوي (أبو العباس الناصري): الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق و تعليق: جعفر ومحمد الناصري ،مطبعة دار الكتاب، الدار البيضاء، المملكة المغربية،1954م، الجزء الثاني،ص ص74و 75.

(2) ابن خلدون:المصدر السابق، ج6، ص 267 .

(3) ذكر العمري بأن مدينة نياني كانت مبنية وسقوفها بالأخشاب والقصب وغالب سقوفها قباب أو جلمونات كالقباب، وأرضها تراب مرمل. (المصدر السابق، ص111)

(4) قداح نعيم: المرجع السابق، ص 112 .

فطلب هذا الأخير بأن يحضروا له المواد والسلع والأيدي العاملة التي يتطلبها هذا الإنجاز، فقام ببناء أول مسجد بالطين في غاو ذا سقف يحتوي على سطح، ومنارة ذات شكل هرمي، وهو محراب مبني بالآجر والطين المشوي بالنار، وأحزمة ظاهرة أصبحت متواجدة أينما وجد المسلمون في السودان.[1]

و بهذا ظهر طراز معماري جديد عرفت مالي من خلاله مالي بناء المساجد الأنيقة التي تذكرنا بتلك الموجودة في الجنوب الجزائري والمغربي، والقصور والمنازل التي كانت مأوى قادة البربر في جبال الأطلس. فهذا الطابع المعماري الذي جسده الساحلي ظهر جليا مع بناء القبة المربعة الشكل بالقصر الملكي بمدينة نياني، فلقد كان القصر الملكي لعائلة كيتا مكون من مجموعة من المنازل دائرية الشكل مرتبطة ببعضها البعض عن طريق سور للدعم، وكلها تؤدي إلى ناحية الجنوب أين توجد ساحة عمومية كبيرة، وهي المكان الذي كان يستقبل فيه الملك رعيته، كما توجد قاعة أخرى ذات شكل مثلثي وهي خاصة باستقبالات الملك الخاصة، وهي القاعة التي أضافها المهندس أبو الساحلي، وهي البناية الوحيدة المبنية بالحجارة، عكس البنايات الأخرى التي كانت مبنية بالطين.[2] ولعل أهم ما أبهر الماليين والمؤرخين العرب الذين كتبوا عن الموضوع هو تلك القبة المربعة الشكل التي غطت قصره وحضرة ملكه، والتي استفرغ فيها أبو إسحاق الساحلي كل موهبته وإجادته، حيث زينها بالكلس وأنواع الأصباغ المشبعة، والنقوش والتخريم، فكانت من أجمل المباني التي بنيت في مالي وأتقنها، ونالت دهشة منسا موسى واستغرابه، حيث لم تكن إمبراطوريته تعرف هذا الفن من قبل، لذلك كافأ مهندسه باثنتي عشرة ألف مثقال

---

(1) Delafosse(Maurice) et Mouralis (Bernard) : Les Nègres. Editions l'harmattan, Paris, 2005, pp 22 et23 _ Delafosse (Maurice) : Haut Sénégal-Niger, tome2, p189.

(2) Ogunsolo(John Igué) : Les villes précoloniales d'Afrique noire. Editions Karthala, Paris, 2008, p36.

من التبر (الذهب المسحوق) بالإضافة إلى هدايا أخرى وصلات سنية.(1) ومن خلال الدكتور صالح بن قربة فإن أوصاف هذه القبة تعبر عن ميلاد نموذج جديد لطابع للعمارة المغربية التي اشتهرت بقبابها ومآذنها المربعة في عهد الزيانيين والمرينيين خاصة، إذكانت فاس والأندلس خلال العهد الميني تتخذ قبابها شكلا مربعا، و تحتوي على زخارف، والتي لم تكن موجودة من قبل في المغرب،(2) ومن هنا نستطيع أن ندرك مدى التأثير الذي تركه هذا المهندس المعماري الأندلسي الذي حل بفاس وعاش بالأندلس، والذي حمل فنه معه إلى بلاد السودان،و بالتالي عرفت مالي الفن الإسلامي من باب العمارة.

لما رأى منسا موسى إنجاز الساحلي في غاو، طلب منه إعادة إنجاز مثل هذا الإبداع في مدينة تمبكتو التي كانت مجرد مخيم بسيط للبدو من الطوارق خلال القرن الخامس للهجرة /11م، وبقيت مجرد نقطة تتزود فيها قوافل الملح بالماء، وذلك رغم موقعها الإستراتيجي في أعلى منعطف النيجر، وبقيت مجهولة، ولم تثبت بناياتها إلى غاية القرن التاسع للهجرة /14م.(3) فقام الطويجن بعمل كبير في هذه المدينة التي سوف تصبح بفضله أشهر مدينة في السودان الغربي، فبدأ بإعادة بناء المسجد القديم لتمبكتو ليكون أكثر ملاءمة لإمبراطورية كبيرة كمالي، فبنا في موضعه المسجد الكبير بالآجر وهو أمر لم يكن معروفا لدى السودانيين قبل ذلك،(4) فأقام له صومعة من خمسة صفوف والقبور لاصقة

---

(1) ابن خلدون:المصدر السابق، ج6 ، ص 268 ــ السلاوي:المصدر السابق،152 .

(2) بن قربة(صالح): المئذنة المغربية الأندلسية في العصور الوسطى. المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م، ص ص 99، 100.

(3) السعدي: المصدر السابق، ص ص 20 ،21 .

(4) Cornevin(Robert et Mariane):Histoire de l'Afrique, des origines à la deuxième guerre ondiale,p164.

بها من خارجها في جهتي اليمين.[1]وقد نقل المهندس الأندلسي هذا النموذج المعماري عن المغاربة الذين كانوا يقيمون القبور بالقرب من المساجد أو بداخلها خاصة أضرحة العلماء والصالحين.[2] وقد أطلق على هذا المسجد الكبير فيما بعد اسم جنجير بر(أي المسجد الكبير)، وظل قائما لمدة ثلاث قرون، بحيث ما تزال بعض أسسه قائمة إلى غاية الوقت الحاضر .بمدينة بتمبكتو.[3] حيث لخص فيه أبو إسحاق الساحلي الطراز السوداني في العمارة، كما بنا الإقامة الملكية المعروفة بالمادوغو (Madougou) وتعني أرض السيد في أقصى شمال غرب تمبكتو، بالإضافة إلى بنائه لأسوار المدينة التي يبدو أنها بنيت من أجل حمايتها بعد تعرضها لهجمات الموشي.[4] وزود وسط مدينة تمبكتو بساحة كبيرة لم يعرف السودان الغربي لها مثيلا من قبل و لم توجد في أي بلد سوداني آخر خلال تلك الفترة، أو قبلها[5]، مما يؤكد أصالة العمارة التي أدخله منسا موسى وحداثته بالنسبة للسودان الغربي. وازداد اهتمام منسا موسى بعد ذلك ببناء المساجد، وخاصة بعد حجه،حيث أنشأ خلال

---

(1) السعدي: المصدر السابق، ص 87 .

(2) يذكر عبد الرحمان السعدي بأنه لما قام الفقيه القاضي العاقب بن القاضي محمود بتجديد المسجد الكبير بين سنتي 991 و 995هـــ/1583 و1587م وبنا مكانه مسجدا آخر، خرب جميع تلك القبور وسواها مع جميع القبور بالأرض من كل جهة صيّر الجميع مسجدا، وزادها زيادة كبيرة. (تاريخ السودان، ص 56).

(3) Cornevin(Robert et Mariane):Op.Cit, p164.

يذكر الظابط الفرنسي فيليكس دوبوا(Felix Dubois) الذي زار تمبكتو سنة 1896م بأنه رغم أن مساحة هذا المسجد ازدادت واتسعت خلال القرن العاشر للهجرة/16م مع تزايد عدد سكان تمبكتو إلا أنها في=الحقيقة لا يمكن أن نصفها بالعمل الفني الكبير، إذ تعد مجرد أسوار متفاوتة الطول والعرض والارتفاع ولا ترقى إلى مستوى حتى تلك القبور والاضرحة التي أنشئت بجوارها والتي تتميز بانسجام كبير تذكرنا بجمال التزيينات التي بني بها جامع جني القديم. Dubois (Felix):Timbuctoo the mysterious. Translated from the frensh by: Diana White, New York, 1896, p275.

(4) Ogunsolo(John Igué) ,OpCit, p41.

(5) Dubois (Felix) ,Op Cit,p275.

سفره إلى الحجاز مسجدا في كل مدينة مر بها من مدن السودان، منها مسجد تمبكتو الذي ذكرناه، ومسجد دوكوري،كوندام، ديري، وانكو ومسجد باكو.[1]

بعد ذلك وجه منسا موسى جهوده العمرانية إلى مدينة جني الواقعة عند منعطف النيجر، والتي كان أهلها ينتمون حسب التقسيم الطائفي الذي وضعه سوندياتا إلى طبقة الحرفيين، فكانت هذه المدينة تعج بالبنائين الذين أتقنوا عملية البناء المعروفة بالبانكو(Banco) باحترافية كبيرة،[2] كما ظهر خلال هذه الفترة مهندس مغربي آخر هو معلوم إدريس المراكشي الذي عاصر أبا إسحاق الساحلي[3] الذي يكون منسا موسى قد أوكل له مهمة بناء مدينة جني، وبالتالي يكون قد أضاف لها اللمسة المغربية للعمارة السودانية التي كان قد بدأها المهندس الغرناطي. فامتزجت في جني عبقرية تصميم إدريس المراكشي مع احترافية بناؤوا جني، لذلك تميزت بنايات جني بالأناقة والجمال والإتقان، حيث تكونت المنازل فيها من طابق أول مؤلف من عدة أروقة، وتحتوي على مخادع صغيرة أين يوضع فيها الماء داخل جرات من الطين، وساحة صغيرة على مستوى واحد هذا الطابق الذي لا تطل عليه الشمس إلا من هذه الجهة، أما الطابق الأرضي فإنه موزع بنفس الطريقة، ويستعمل كمخزن لحفظ الأرز والذرة البيضاء، كما يستخدم كإسطبل للحيوانات. وهذا المخزن يؤدي إلى ساحة أخرى توجد خلف المترل، ويتم الصعود من الطابق الأرضي إلى العلوي عن طرق سُلّمين واحد منهما يوجد عند المدخل والآخر في الساحة بالداخل. أما السقف فكان مغطى بقطع خشبية متباعدة عن بعضها بمسافات معينة ويغطيها الطين لتشكل سطحا صغيرا محاط بحاجز مرتفع قليلا، ويتم الصعود إلى هذا السطح عن طريق

---

(1) Mahmoud kati ,Op Cit, p56.

(2) Niane djibril temsir , Le soudan occidental, p134.

(3) يعتقد الأستاذ عبد القادر زبادية بأن معلوم إدريس هذا كان أحد مساعدي الساحلي. (مملكة سنغاي في عهد الاسقيين.الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1971، ص 107).

سلم من عشر درجات.(1) بالإضافة إلى المنازل قام إدريس المراكشي ببناء الجامع الكبير بمدينة جني، الذي يمثل نموذجا حقيقيا للتمازج المعماري السوداني مع العمارة المغربية.(2)

وكان عهد منسا سليمان شقيق منسا موسى هو أيضا زاخرا بالانجازات العمرانية، فبنا المساجد العادية والمساجد الكبيرة، ورفع المآذن، فاقد كان حريصا على صلاة الجماعة في المساجد وجعلها فرضا على الناس، فقد ذكر ابن بطوطة بأنه في عصر هذا الملك كان الناس مواظبين على الصلوات وملتزمين بأدائها في جماعة، حتى إذا كان يوم الجمعة و لم يبكر الإنسان إلى المسجد لم يجد أين يصلي لكثرة الزحام.(3) مما تطلب بناء المزيد من المساجد، كما وسع مدينة نياني العاصمة إلى أن أصبحت مساحتها تبلغ حوالي بريد طولا وعرضا،(4) وجعل بناياها مكونة من طبقات من الطين تشبه أسوار وحدائق دمشق، وسقفها يتخذ شكل قبة أو سنام جمل.(5)

وعموما فإن الجهود التي بذلها الملك منسا موسى، بجلب هذا المهندس الأندلسي والذي كان بمثابة وزيره للعمران والفنون الجميلة حسب دولافوس وموراليس،(6) قد أفرزت طرازا معماريا يوافق بين الطراز المغربي الموريسكي مع شكل العمارة السودانية البسيطة، وبالتالي ظهر مصطلح ما يعرف بالفن المعماري السوداني الذي اقترن بمنسا موسى ومهندسه الأندلسي، وهو في الحقيقة ليس طرازا سودانيا خالصا وإنما يستمد خصائصه من

---

(1) Niane djibril temsir : Le soudan occidental, p130.

(2) قداح نعيم: المرجع السابق، ص147 .

(3) المصدر السابق، ص 690 .

(4) البريد هو وحدة قياس قديمة لقياس المسافة تقدر بـــ 23كيلومترا
Mauny (Raymond) : les siècles obscurs, p160.

(5) قداح نعيم:المرجع السابق، ص 150 .

(6) Delafosse(Maurice) et Mouralis (Bernard) : Les Nègres,p23.

الحضارات المتوسطية القديمة والوسطى والذي ما يزال موجودا في جنوب الصحراء الغربية وجنوب المغرب الأقصى.(1)

لكن بعض المؤرخين الغربيين والمستشرقين لا يريدون الاعتراف بدور الساحلي في العمارة السودانية، وينكرون وجود ذلك الأثر المغربي فيها، ومنهم من يعتبر شخصية أبي إسحاق الساحلي شخصية وهمية ولا وجود لها، في محاولة لنفي أي تأثير عربي إسلامي في العمارة السودانية. فالأستاذة سوزان أراديون (Suzan Aradeon) تذكر بأن أبا إسحاق الساحلي هو مجرد أسطورة من وحي خيال المصادر التاريخية العربية التي اخترعتها، وانتشرت بعد ذلك عند الأوربيين. وتقول بأنه من يقول بوجود الأثر المغربي فهو جاهل بخصائص العمارة السودانية، فهي تحاول أن تقنعنا بأنها تريد الدفاع عن أصالة الفن المعماري السوداني، وتتهم هذه المصادر العربية بأنها تسعى إلى إثبات عجز السودانيين على ببناء شيء غير الأكواخ الصغيرة.(2) لكنها في المقابل لم تقدم لنا ولا دليل مقنع عن ادعائها سوى ذكر آراء المؤرخين الأوربيين الذين شكّكوا في دور الساحلي. فهي تستشهد بكلام شارل مونتاي (Charles Monteil) ، لكن هذا الأخير لا ينكر وجود شخصية الساحلي، ولا ينفي ما قام به، لكنه ينسب للساحلي بناية واحدة وهي قاعة الاستقبالات في العاصمة نياني،(3) كما تستشهد بما كتبه الدكتور الألماني هنري بارث (Henri Barth) وتقول بأنه يشكك في أسطورة الساحلي، لكننا نعتقد بأنها أوّلت خطأ كلام بارث بما يدعم فكرتها المسبقة، حيث لو رجعنا إلى ما قاله الدكتور الألماني فنجد ما يلي.((إن تمبكتو التي يبدو أنها استسلمت بدون مقاومة للفاتح (أي منسا موسى) تحولت إلى عاصمة لإمارة ذات

(1) Trimingham (Spencer) : Op.Cit, p69.

(2) Suzan B.Aradeon: Al-Sahili (The historians Myth. of architectural technology tranfer from North Africa. In Journal des Africanistes. Anneé1989, Volume 59, N°01, p 99.

(3) Charles Monteil: Les empires du Mali, p86.

عظمة ومكانة، لأن الزعيم الجديد، وهو رجل حيوي وصديق للفنون زوّد المدينة بمسجد وقصر جديد)).[1]

فبارث لم ينف ولم يشكك في شخصية الساحلي كما تدعيه الأستاذة أراديون، بل لم يذكرها أصلا، ولكنه ينسب بناء المسجد والقصر في تمبكتو لمنسا موسى على أساس أنه هو الإمبراطور صاحب الأمر والنهي، وصاحب السلطة التنفيذية في مالي، فلم يذكر من نفذ أوامره بالبناء، لكنه في المقابل نرى هناك تطابق كبير مع ما ذكره السعدي الذي يقول بأن منسا موسى بنا مسجد وقصر تمبكتو بعد ضمها إلى مملكته عند عودته من الحج سنة 726هـــ/1326م.[2] كما يذكر بأن هذا الإمبراطور كان صديقا للفنون، ونحن نعلم بأن ولعه بالفن هو ماجعله يتقرب من هذا المهندس الشاعر، ويصرّ على جلبه إلى بلاده. ومن الشواهد التي استندت إليها الأستاذة في نفي الأثر المغربي في العمارة السودانية كلام موريس دولافوس، لكننا نجدها هنا تتناقض مع ما ذهبت إليه، فهي تقول بأن دولافوس قد أشار إلى أن منسا موسى هو الذي طلب من الساحلي إدخال النموذج السوداني إلى العمارة السودانية وأن هذا الأخير (أي الساحلي) استوحى تفاصيلها من النموذج المغربي.[3] وبذلك يمكن أن نستنتج بأن ما ذهبت إليه الأستاذة سوزان أراديون لا يقوم على أية أسس علمية، ويبقى مجرد أحكام مسبقة خاطئة وتفنيد لأحداث تاريخية أكدتها كل المصادر التاريخية والأبحاث الأثرية.[4] فالمصادر العربية لم تنكر وجود عمارة سودانية،

---

(1) Docteur Henri Barth : Voyage en Afrique septentrionale et centrale pendant les années 1849 a. Traduction de l'Almand par : Paul Ithier. Edité par : A. Bohné, librairie Paris, et A. Lacroix, Bruxelles, 1861, tome4, 1855 pp14, 15.

(2) السعدي: تاريخ السودان، ص ص7 و 87.

(3) Suzan B.Aradeon: Op.cit. pp99, 100.

(4) Raimbault(Michel) et Kléna (Songo) : Recherches archéologiques au Mali. Éditions Karthala, Paris, 1991.

ولكنها تعترف بأنها كانت بسيطة وتفتقد إلى الرقي الذي وصلت إليه العمارة المغربية، وما إصرار منسا موسى على جلب المهندس الغرناطي إلى بلده إلا لمهمة البناء.

صحيح أن البناء الأول الذي قام به أبو إسحاق الساحلي والمتمثل في مسجد مدينة غاو كان باقتراح من الأمير الموحدي المعمر، لكن البنايات الأخرى التي أقامها في كل من تمبكتو ونياني كانت بطلب من منسا موسى.وهو ما يعني افتقاد مالي لمن يتقن هذا الفن. كما أن انبهار الملك منسا موسى بالانجاز الذي قام به الساحلي من خلال بنائه لتلك القبة المربعة بقصره في نياني، والسخاء الذي أبداه في مكافأته عليه لدليل على عدم وجود عمارة في مالي بذلك الرقي والإتقان، خاصة وأن ابن خلدون قد أكد ذلك بقوله: ((لم تكن إمبراطوريته تعرف هذا الفن من قبل)). [1]

ويبقى ما قام به منسا موسى من إنجازات عمرانية وفنية وأدبية وأخرى، هي التي رفعت إمبراطورية مالي عاليا في سماء الإمبراطوريات خلال العصور الوسطى الإسلامية، فقد كان دوره في عظمة إمبراطورية المندي مشهودا، ويكفينا دليلا على ذلك أن الأوربيين لم يعرفوا هذه الإمبراطورية لأول مرة 1375م إلا عن طريق منسا موسى، وذلك من خلال الخريطة التي رسمها الجغرافي الإسباني مابا موندو كاتالان (Mappa mondo Catalan) وذلك سنة 375م حيث ظهرت فيها صورة منسا موسى جالسا، وتظهر فيها مدينة تمبكتو تحت اسم (تيمبوشت). [2] ولم تقتصر شهرة إمبراطورية مالي على أوربا فقط، بل استطاع منسا موسى كيتا أن يجد لإمبراطورية أجداده مكانا في أحداث إفريقيا الغربية، وشغلت قصصه وأعماله قصور المغرب والمشرق الإسلاميين.

---

(1) ابن خلدون:المصدر السابق، ج6 ، ص 268 .

(2) Henri Barth :Op.Cit, p15 ـYoro.K.Fall:L'Afrique à lanaissance delacatographie moderne. Edition Karthala, 1982, p184.

الفصل الرابع

علاقات عائلة كيتا الخارجية

الفصل الرابع

علاقات عائلة كيتا الخارجية

رغم أن عائلة كيتا أقامت إمبراطوريتها بحد السيف، و بالرغم من أنها استطاعت أن تؤسس نموذجا للدولة السودانية الإسلامية المترامية الأطراف والغنية بمواردها الطبيعية وعنصرها البشري، مما جعلها سيدة على جزء كبير من إفريقيا جنوب الصحراء، و متحكمة في شؤونها لمدة خمسة قرون كاملة، إلا أن ذلك لم يؤد بها إلى الانكماش على عالمها السوداني الذي سادته، بل تفتح ملوكها على دول العالم الخارجي وأقاموا علاقات دبلوماسية واقتصادية وثقافية تنم على بعد نظر وحسن تدبير، طموح ملوك هذه العائلة.

ونظرا لقلة المصادر المتعلقة بهذا الجانب وندرة مادتها التاريخية، فقد حاولنا استنطاقها من خلال تحليلها من أجل معرفة طبيعة تلك العلاقات التي ربطت ملوك مالي بمختلف القوى السياسية سواء في السودان الغربي أو المشرق والمغرب الإسلاميين، وحتى مع أوربا والعالم الجديد.

المبحث الأول

علاقات عائلة كيتا بممالك السودان الغربي

1 .علاقتهم بمملكة سنغاي:

رغم أن شعب سنغاي ومعهم السوننكي (ساراكولي وماركا) يعدون من أقدم شعوب السودان الغربي، وأغلب شعوبه ينحدرون منهم باستثناء الفلاته.[1] ذلك أن مملكة

---

(1) هارون مهدي ميغا: إمبراطورية سنغاي أقدم الإمبراطوريات في غرب إفريقيا وأطولها عمرا، دراسة تحليلية في الترتيب التاريخي للإمبراطوريات الإسلامية في غرب إفريقيا، ص6. مقال صدر في الموقع الالكتروني: www.iua.edu.sd/iua_magazine/african_studies/37/WRL1029.tmp
اطلع عليه في:09-08-2011

سنغاي تعد من أقدم الممالك التي عرفها النيجر الأعلى، و يعود ظهورها إلى القرن الميلادي الأول، عاصرت إمبراطورية غانة ومن بعدها مالي(1)، كما أسلم ملوكها قبل ملوك غانة ومالي.(2) إلا أن شهرتها كمملكة عظيمة، وذات تجارة رائجة وذهب وفير، فلم تتحدث عنها المصادر العربية إلا مع القرن الرابع للهجرة/العاشر للميلاد، وذلك لما انتقلوا من كوكيا إلى عاصمتهم الجديدة جاو(كوكو).(3) وما إن حل القرن الخامس والسابع للهجرة/11و13 للميلاد، حتى أصبحت مملكة سنغاي بزعامة عائلة زا (أو ديا) تتمتع بدور كبير في منطقة النيجر الأعلى، لكن ذلك تزامن مع ظهور إمبراطورية مجاورة لها بزعامة عائلةكيتا في بلاد المندينغ، والتي بلغت أوجها في تلك الفترة، وبالتالي اشتد التنافس بين المملكتين الإسلاميتين. وحتى وإن كان هذا التنافس يبدو في مظهره دينيا بسبب محاولة كلا المملكتين تزعم مسلمي نهر النيجر تحت رايتها،(4) إلا أن الأسباب الاقتصادية لهذا التنافس لا يمكن إغفالها، ذلك أن إمبراطورية مالي التي تعد التجارة شريان اقتصادها كانت حريصة على ربط مواصلاتها على طول نهر النيجر مع كل الطرق التجارية الهامة عبر الصحراء، و لم يكن ذلك ليتأتى لها إلا من خلال ضم مملكة سنغاي إلى أملاكها، فيما كان شعب السنغاي يرفض الحكم الماندي ووصايته.(5) ولما كان ميزان القوى قد مال لصالح الماليين خلال النصف الأول من القرن الثامن للهجرة/14م،

---

(1) Delafosse(M), Les noirs de l`Afrique, p53.

(2) السعدي،المصدر السابق، ص3 ــ Monteil(Vincent) :L'islam noir, p94

(3) أنظر: اليعقوبي، التاريخ ،الجزء الأول، ص191 ــ الحموي (ياقوت):المعجم، المجلد السابع، حرف "الكاف" ص ص 301 و302.ــ ابن حوقل: صورة، ص98 ــ البكري: المصدر السابق، ص 179.

(4) علي باري و كريدية، المرجع السابق، ص 111.

(5) فيج(جون.د)، المرجع السابق،ص62. أنظر أيضا: Bulletin de l'institut Français d'Afrique noire et des sciences humaines .Editions , EFAN, Paris, 1959, volume21, p462.

فقد تمكنت عائلة كيتا من غزو عاصمة سنغاي جاو(كوكو) واحتلالها، حيث جاء في مقدمة ابن خلدون ما يلي:((.. وكان ملك كوكو قائما بنفسه ثم استولى عليها سلطان مالي، وأصبحت مملكته)).[1] وبالتالي أصبحت مملكة سنغاي مجرد إمارة تابعة لإمبراطورية المندي، لكن المصادر والأبحاث التاريخية تختلف حول تاريخ احتلال مملكة السنغاي من طرف الماليين، فنجد أن المؤرخ الانجليزي ترمنغهام سبنسر(trimingham Spencer) يذكر بأن مملكة مالي احتلت سنغاي مرتين، الأولى كانت خلال توسعات سوندياتا الشهيرة خلال القرن السابع للهجرة/13 للميلاد.[2] أما إذا رجعنا إلى الرحالة المغربي ابن سعيد الذي ألف كتابه بين سنتي (625 و640 للهجرة /1228 و1243 للميلاد) وهي الفترة التي جاءت بعد غزوات سوندياتا، نجده يتكلم عن عاصمة سنغاي كوكو، ويقول بأنها منسوبة إلى مدينة صاحب البلاد، ولم يذكر تبعيتها لملل.[3] ورغم أن تريمنغهام يضيف بأن سنغاي استقلت سنة 673هجرية/1275م، إلا أن هذه الفترة تقع بعد الفترة التي كتب فيها ابن سعيد مؤلفه.

أما المصادر الشفوية السودانية، فرغم تركيزها كثيرا على بطولات سوندياتا وغزواته، فلم نجد عندها ما يشير إلى غزوات قام بها سوندياتا باتجاه الشرق عموما وباتجاه جاو خاصة، بل إن غزواته كانت موجهة نحو الغرب.[4] أما فيما يخص المرة الثانية التي غزت فيها مالي مملكة سنغاي، فإننا نجد بأن رأي تريمنغهام ينسجم مع أغلب المصادر العربية والسودانية، ويذهب إلى أن سنغاي احتلت من طرف مالي في عهد الملك ساكورة أو سبكورة(684

---

(1) المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1993 م، ص44

(2)Trimingham(Spencer) ,Op.Cit,p66.

(3)كتاب الجغرافيا، ص 93 .

(4) حول غزوات سوندياتا و توسعاته أنظر: Delafosse(Maurice) , La grande geste du Mali, tome2, Soundjata la gloire du Mali.pp de 44 a 50.

ـ 699هـ /1285 ـ 1300م).

ولكننا إذا عدنا إلى ابن خلدون فإننا نجد بأنه يقدم لنا روايتين مختلفتين عن احتلال مملكة مالي لسنغاي، فالرواية الأولى يقول فيها بأنها احتلت من طرف الملك ساكورة الذي حكم بين سنتي 684 و 699هـجرية /1285و 1300ميلادية، والذي يكون قد ضم مملكة كوكو (سنغاي) إلى حظيرة ملك مالي قبل أن يحج إلى مكة.(1) أما الرواية الثانية فيذكر فيها بأن من فتح كوكو وضمها إلى مالي إنما هو الملك منسا موسى، وذلك عن طريق أحد قادته ويدعى سغمنجه.(2) أي أن سنغاي احتلت حسب الرواية الثانية سنة 725 للهجرة/ 1325للميلاد، أي خلال عودته من الحج.

ويمكن أن نرد هذا التناقض الذي وقع فيه ابن خلدون إلى اختلاف مصادره التي استقى منها معلوماته حول هذا الموضوع، فبينما استقى الرواية الأولى من الشيخ عثمان، فإن مصدره الثاني الذي يرجع احتلال سنغاي إلى قائد منسا موسى فهو الحاج يونس.لكننا إذا ما رجعنا إلى هاذين المصدرين لوجدنا أنهما رجال ثقة وأمانة وعلم بالأمور،كيف لا والشيخ عثمان هذا هو فقيه أهل غانية (غانة) وكبيرهم علما ودينا وشهرة، وهو الذي التقاه ابن خلدون عندما حل بمصر قادما إليها من مالي بغرض الحج هو وأهله وولده.(3) كما أن ابن خلدون كان قد التقى به سنة 699 هجرية الموافق لسنة 1300ميلادية، وهي السنة التي احتل فيها مدينة كوكو، وإذا كان ساكورة قد احتل كوكو قبل سفره إلى الحج فهذا يعني بأن موضوع احتلال كوكو كان من الأخبار الحديثة التي لا يمكن أن ينساها أحد أو يخلط بينها وبين حادثة أخرى، خاصة إذا

(1) العبر، مج5، ص 596 .
(2) نفس المصدر، مج6، ص 267
(3) نفسه، ص 266 .

كان صاحب الرواية عالما فقيها مشهود له بالصدق والأمانة، كما أنه في ذلك الوقت (أي سنة 699 هـــجرية/1300م) لم يكن منسا موسى قد وصل إلى الحكم في مالي. أما فيما يخص مصدر الرواية الثانية التي تعزو احتلال عاصمة سنغاي لقائد منسا موسى سغمنجه فهو الحاج يونس، الذي يعد الترجمان الخاص بمنسا موسى. صحيح أننا لا نعرف شيئا كثيرا عن هذا الرجل سوى ما ذكره لنا ابن خلدون على انه ترجمان التكروري (أي الترجمان الخاص بمنسا موسى)،[1] إلا أننا نعرف مكانة الترجمان في مملكة مالي ومترلته في الدولة وعند الملك، حيث كان يجمع في كثير من الأحيان بين وظيفة الترجمة للملك والرواية الشفوية.[2] فهو إذن رجل ثقة بل يعد المصدر الرسمي لرواية تاريخ المملكة، وبالتالي فمن المستبعد أن نشك في روايته هو أيضا ولا في دقة معلوماته، وهو ما يجعل في نظرنا كلا الروايتين صحيحتين، أي أن كوكو احتلت من طرف مملكة مالي مرتين الأولى كانت من طرف ساكورة سنة 699هـــ /1325 م، و المرة الثانية كانت من طرف قائد منسا موسى عندما كان هذا الأخير في الحج سنة 725 للهجرة/1330م.

إن هذا التفسير يبدو مقبولا إذا ما أخذنا ما ذهب إليه الباحث المالي الدكتور هارون المهدي ميغا بعين الاعتبار، فهو يرى بأن مملكة سنغاي سقطت للمرة الأولى تحت الاحتلال المندي في عهد حكم آل ديا أو (ضيا)[3] فتكون هذه المملكة حسبه قد سقطت

---

(1) يذكر أبو الفضل العمري(مسالك الأبصار، ج4، ص 108) بأن ملك مملكة مالي كان يعرف عند المصريين بملك التكرور ، وهو الشيء الذي كان يأنف منه، و يحب أن يقال له صاحب مالي.

(2) أنظر: Niane tems djibril ,Le soudan occidental au temps des grandes empires, p219. - (Janson) , Les griots de kela ; les paroles qu'on devrait entendre, p63 - Valerie thierrs-thiam : A chacun son griot. p15.

(3) هي الأسرة الثانية التي حكمت سنغاي منذ نشأتها، وتعد أول أسرة مسلمة تحكم سنغاي، تعرف عند السعدي باسم زا، حيث يذكر بأن أول من ملكها هو زا الأيمن الذي يقول بأنه جاء من اليمن، وكان الظهور الأول لهذه إلى القرون الميلادية الأولى(يحددها دولافوس بالقرن السابع للميلاد/ الأول للهجرة،

بعد سقوط غانة بحوالي خمس وثمانين سنة أو تزيد، فقد سقطت غانة على يد سونديياتا عام 638هـــ/ 1240م، وكان ساكورة قد غزاها وضمها إلي مالي في الأيام الأخير من حكمه وذلك سنة 699هـــ/1300م [1]، لكنها استقلت بعد ذلك وبقيت مستقلة إلى غاية أن احتلها منسا موسي مرة أخرى الذي سيطر عليها لعشر سنوات بين عامي 725هـــ و736هـــ /1325و1335م.

صحيح أن هذا الاستنتاج قد يصطدم بكلام السعدي عن سنغاي، والذي يقول عنها بأن السلطان كنكن موسى (منسا موسى) هو أول من ملكها من سلاطين مالي،[2] لكننا نرى بأن التاريخ الذي قدمه حول هذا الغزو وهو مطلع القرن الثامن للهجرة/14 م،[3] يتطابق مع فترة احتلال ساكورة لكوكو وهو699 أو700 للهجرة /1300م، وليس مع تاريخ احتلال منسا موسى لسنغاي الذي كان حسبه في طريق عودته من الحج ، أي سنة تحولت إلى مجرد 725 للهجرة الموافقة لسنة 1325 م.[4] ومهما يكن من أمر فإن سنغاي إقليم تابع لإمبراطورية مالي يحكمها فاران، وزودها منسا موسى بمسجد ومحراب بناهما خارج مدينة جاو.[5]

واستمرت هذه الأسرة إلى غاية سقوطها على يد ساكورة عام 699هـــ/1300م.(السعدي: المصدر السابق، ص ص 4 و5) Delafosse(Maurice),Les noirs de l'Afrique,p53.

(1) للتذكير فإن ساكورة توفي سنة 699هـــ أي عندما كان عائدا من الحج في منطقة تاجورة.

(2) تاريخ السودان، ص 7.

(3) نفس المكان.

(4) لقد وجه شارل مونتاي عدة انتقادات للتواريخ التي قدمها السعدي: أنظر:

Monteil(Charles) ,Les empires du Mali, pp80,82.

(5) Delafosse(M) ,Haut S - N,T1,p72.

وكان الملك زا ياسبي (أو ديا أسيباي) وهو الملك الذي أُخضعت في عهده سنغاي من طرف مالي، هو آخر الملوك من أسرة زا (أو ديا)، ذلك أن هذا الأخير كان له ولدين من زوجتين مختلفتين هما سليمان نر و على كولن [1]. ولما بلغا أشدهما وكانت سنغاي خاضعة لحكم عائلة كيتا المالية، أخذهما منسا موسى إلى قصره كرهينتين على عادة سلاطين السودان آنذاك، وكان الأمير علي كولن يتغيب عن القصر من حين لآخر من أجل الاطلاع على مسالك البلد وجمع الأسلحة والاتصال بالناس من أهله ومقربيه، وتدريبهم استعدادا لاسترجاع عرش أبيه وتحرير بلده من الاحتلال المالي، ولما رأى علي كولن بأن الاستعدادات أصبحت كافية أخبر أخاه سلمان نر بخطته فهربا من قصر ملك مالي، وتوجها إلى سنغاي لتحريرها. ولما سمع ملك مالي وهوخليفة منسا موسى وابنه منسا ماغان بالخبر، أرسل جيشا ورجالا مسلحين للقبض عليهما، لكن الاميرين تمكنا من الوصول إلى جاو سنة 735هـــ/ 1335م وحرراها من قبضة الماليين.[2]

ولم يقتصر دخول علي كولن إلى جاو على تحريرها من ربق الماليين فقط، وإنما عمل على التأسيس لأسرة جديدة تحكم سنغاي، وبالتالي بدأت مرحلة جديدة من تاريخ مملكة سونغاي ألا وهي مملكة سنغاي الثالثة التي تأسست عام (735هـــ و1335م)، وعرفت هذه الأسرة بأسرة سني، أو شي، ومؤسسها هو علي كولن الذي أصبح يلقب بسني علي الذي في الحقيقة لم يؤسِس عائلة حاكمة جديدة قي جاو، بل يعد استمرارا للعائلة البربرية

---

(1) تقول الرواية الشفوية أنه كان للملك زا أسيباي زوجتين الأولى تسمى فاتي، والتي حبلت عدة مرات دون أن يكتمل حملها، وعندما يئست من الإنجاب طلبت من زوجها أن يتزوج من أختها أَما (Ama) لكي تنجب له من يخلفه على عرش سنغاي، ذلك أن أهل سنغاي رغم إسلامهم إلا أنهم كانوا يجهلون حكم الشرع في الجمع بين الأختين، لذلك تزوج زا أسيباي من شقيقة زوجته الأولى فاتي وهي أَمَا. وشاءت الأقدار أن تحبل الشقيقتين في نفس الليلة، ووضعتا مولديهما في نفس الليلة أيضا وكانا ولدين ذكرين، فسمي ابن فاتي سلمان.. = نر، وسمي ابن أما علي كولن، وفي صباح الغد تم غسل علي كولن أولا لذلك اعتبر هو المولود البكر وبالتالي اعتبر هو ولي العهد الأول. (السعدي: المصدر السابق، ص ص 5 و 6 .)

(2) السعدي، المصدر السابق، ص ص 5 و 6 .

لعائلة ديا (أو زا)، لكنه اتخذ لقبا جديدا لهذه العائلة التي تداول منها على عرش سنغاي تسعة عشرة ملكا تلقبوا بهذا اللقب.[1]

وحسب المؤرخ المالي سيكيني مودي سيسوكو (Sékéné Mody Cissoko)[2] فإن علي كولن لم يحرر كل مملكة سنغاي من قبضة الاحتلال المالي، لأن مملكة سنغاي حسبه بقي جزء منها تابع لإمبراطورية مالي إلى غاية أواخر القرن الثامن للهجرة /14م، والدليل على ذلك حملة ماري جاطه (وهو وزير الملك المالي منسا موسى الثاني) إلى الشرق حيث غزا تخوم مدينة جاو (أوكوكو) بمملكة سنغاي،[3] والتي كانت حوالي سنة 78للهجرة/ 1380م، ذلك أن هناك انشقاقا حدث في صفوف مملكة سنغاي خلال فترة خضوعها لإمبراطورية مالي، فبينما اعترف الجزء الشمالي من المملكة بالتبعية لمالي، لجأ آل سني إلى الجنوب واستقروا في كوكيا وهي العاصمة القديمة للسنغاي، والواقعة في منطقة دندي، وقد احتفظوا باستقلال ذلك الجزء الذي كان مكانا متوحشا مقارنة بجاو، إلى غاية بداية انحطاط مالي.[4] وخلال طوال تلك الفترة الممتدة بين تحرير جاو من طرف علي كولن وسقوط مالي، لم يكن ملك آل سني يمتد لأكثر من سنغاي وأحوازها.[5]

---

(1) Delafosse(Maurice) ,Op.Cit, p74.

لكن هارون المهدي ميغا (المرجع السابق، ص14) يقول بأن أسرة سني أوشي عرفت 21 ملكا .

(2) هو مؤرخ مالي، ترأس جمعية المؤرخين الأفارقة بين سنتي 1972 و1975م، لديه عدة إسهامات ودراسات حول تاريخ إفريقيا الغربية منها تاريخ إفريقيا الغربية في العصر الوسيط والحديث سنة 1971م وكتاب (مساهمة في التاريخ السياسي لخاسو في السنغال الأعلى) الصادر سنة 1986، وكتاب (تمبكتو وإمبراطورية سنغاي) الصادر سنة 1996، وغيرها.

(3) أنظر ابن خلدون، المصدر السابق، ص 269 .

(4) Sékéné Mody cissoko,Yombouctou et l'empire du Songhay. L'harmattan, Paris, 1996, pp31, 32,33.

(5) السعدي، المصدر السابق، ص 6.

فابن بطوطة الذي زار تمبكتو عام753 هـــ/ 1353م كانت ما تزال خاضعة لسلطان مالي ويحمها فاربا يسمى فربا موسى.(1)

و لم تكن العلاقات المالية السنغائية بعد استقلال هذه الأخيرة عام 735هـــ/ 1335م، سلمية دائما، ذلك أن عائلة كيتا المالية لم تتجرع انفصال سنغاي عنها، خاصة لما كانت تمثله جاو بالنسبة إلى تجارتهم النهرية في مجرى النيجر الاعلى، بل أن ذلك الهدوء في العلاقات قد فرضته ظروف داخلية لمملكة مالي بعد الفوضى والاضطرابات التي عرفتها المملكة. وما إن حلت سنة 78للهجرة/ 1380م حتى جهّز الوزير ماري جاطه في عهد الملك منسا موسى الثاني حملة وغزا بها تخوم سنغاي(2) لكن دون أن يحتلها من جديد. واستمرت العلاقات بين المملكتين تشوبها الشد والمد طوال القرن التاسع للهجرة/ 15م، وهي الفترة التي ميزها العد التنازلي لإمبراطورية مالي، حيث تذكر بعض الروايات بأن أحد ملوك سنغاي وهو سني ماداو (أو محمد داو) وهو والد الملك سني علي الشهير، لما وصل إلى الحكم سنة 828 هجرية/ 1425م، قام بحملة عسكرية ضد مالي، ووصل إلى غاية عاصمتها نياني أين استولى على غنائم هامة وأخذ عددا من الأسرى الماليين، كما انتزع من ملك مالي حوالي 24 قبيلة تضم البامبارا والفلاته، بالإضافة إلى قبائل من صيادي نهر النيجر كالسوركو(Sorko) والبوزو (Bozo)،كما عمل خليفته وهو سليمان دم المتوفى سنة 869هـــ/ 1464م، على التوسع باتجاه الغرب فدمّر مملكة ميما السوننكية والتي كانت في السابق تابعة لإمبراطورية مالي قبل أن تنفصل عنها.(3)

لكن بوفاة سليمان دم سنة 869 هجرية/ 1465 ميلادية، خلفه على عرش سنغاي رجل ظالم ومتجبر يسمى "سني علي" أو "بر علي "وتعني علي الكبير، كما لقب من

---

(1) المصدر السابق، ص 694.

(2) ابن خلدون، المصدر السابق، ص 269 .

(3) Mahmoud(kati) ,Op.Cit, p 81 - Sékéné Mody cissoko : Op.Cit, p44.

طرف رجال عصره بدالي التي تعني الأعلى، ويعد الملك السادس عشر من سلالة عائلة سني.(1) ولقد وصفه السعدي بالملك الظالم الأكبر والفاجر الأشهر، وذكر قوته العظيمة ومتانة جسمه وفسقه الشديد وتعديه وتسلطه على الناس، وسفكه لدماء العلماء والأبرياء.(2) كما يصفه محمود كعت بالقائد الذي لا يعرف جيشه الهزيمة أبدا، و لم يترك منطقة أو قرية، ولا مدينة من بلاد كانتا إلى غاية سيبردوكو،(3) إلا وغزاها بفرسانه وحارب سكانها و نهب أرضها.(4)

لقد استطاع سني علي أن يجعل من مملكة سنغاي إمبراطورية حقيقية، فقد حرر سنغاي نهائيا من السيطرة المالية، وبدأ بالزحف على أراضي إمبراطورية آل كيتا، حيث انتزع منها مدينة تمبكتو التي تعد أهم مركز تجاري واشعاع علمي في إمبراطورية مالي، والتي كان منسا موسى قد ضمها إلى أملاك إمبراطوريته منذ سنة 725هـ/ 1325م .حيث غزاها في اليوم الرابع أو الخامس من شهر رجب من سنة 873 للهجرة/ 16 أو17 ماي 1469م، وأعمل فيها فسادا كثيرا من حرق وتكسير، وقتل فيها خلقا كثيرا فهرب زعيم طوارق عقيل إلى ولاته وتبعه عددمن العلماء والفقهاء ومنهم أعيان آل أقيت من عائلات جدالة الصنهاجية، العلماء و قتل من بقي منهم بتمبكتو وأهانهم وسجنهم، كما احتل سني علي معظم أراضي امبراطورية مالي الواقعة على ضفة النيجر اليمنى، وغزا جني وأقام بها سنة وشهر (5) وذلك بالرغم من حصانة هذه المدينة الغنية التي عرفت كيف تحافظ على

---

(1) Tarikh el fettach,p81 – Barth(Henri) ,Op.Cit, p17

(4) تاريخ السودان،ص24 .

(3) كانتا هو اسم مملكة قديمة وجدت في المكان الذي توجد فيه امارة كبي(Kebbi) المتواجدة شرق داندي، أما البلاد الممتدة من كانتا إلى غاية سيبردوكو الذي تكلم عنها محمود كعت فهي توافق تقريبا طول ضفة النيجر الممتدة من شمال جمهورية البنين إلى غاية نواحي مدينة سيغو(Segou) في جمهورية مالي.

(4) Op ,Cit, p82.

(5) السعدي، المصدر السابق، ص 65 .

استقلالها، والتصدي لمحاولات ملوك مالي لاحتلالها والمقدرة بتسعة وتسعين مرة.(1) ثم غزا كل الإمارات الشمالية الغربية لمالي رغم المقاومة التي لاقاها من طرف الحكام الممثلين لسلطة مالي مثل عثمان حاكم باغانا، والزعيم الفولاني لمنطقة مسينا.(2)

وبعد وفاة سني علي عام 898هـ/ 1492م خضع ملوك مالي من عائلة كيتا إلى رؤساء الإمارات المندية الأقل شأنا والذين كانوا يقطنون وادي النيجر الأعلى، بينما سيطر السنغاي بفضل الجيش الذي تركه سني علي على التجارة التي كانت تابعة لامبراطورية مالي بعدما تحولت سنغاي الى دولة كبرى متعددة الأعراق واللغات، وأصبحت تضم منطقة تمتد من كبي (Kebbi) جنوب كوكيا الى تنبكتو شمالا، وتصعد مع نهر النيجر الى جني جنوبا.(3) ولما اعتلى عرش سنغاي الأسقيا محمد واصل سيطرته على الاراضي الواقعة فيما وراء ولاته، وعلى بقية مملكة مالي الواقعة في الشمال وعلى كنغابا.(4)

2. علاقتهم مع مملكة الموشي (الموسي):

تعد هذه المملكة من ممالك منعطف النيجر ومنطقة الفولتا، والتي رغم الإشارات المهمة التي أفادتنا بها الحوليات السودانية كتاريخ السودان لعبد الرحمان السعدي، وتاريخ الفتاش لمحمود كعت، إلا أنها لم تحدد لنا إطارا تاريخيا دقيقا لبداية تشكل هذه المملكة أو تسلسلها الزمني. وعموما فإننا إذا ما حاولنا أن نحلل المعلومات التي زودتنا بها أهم المصادر المكتوبة المتعلقة بهذه المملكة، فإننا نجد بأنها كانت موجودة وتتمتع بقوة

---

(1) Delafosse (Maurice) ,Op.Cit, p78

لا نعلم تاريخ احتلال سني علي لجني لكن دولافوس يعتقد بأنها كانت قبل احتلال تمبكتو.

(2) Cuello(Gabriel) et Loic (Robin) ,LesMalinké du konkodugu. Edit L'harmattan, Paris, 2005 ; p17 - Trimingham (Spencer) , Op.Cit ,p74.

(3) عز الدين(عمر موسى)، دراسات اسلامية غرب افريقية. دار الغرب الاسلامي، طبعة ثانية، بيروت، 1424 هـ/2003م، ص78 .

(4) جون فيج، المرجع السابق، ص 65 .

خلال منتصف القرن السابع للهجرة/13للميلاد، إذ يذكر محمود كعت قيام الموشيين بغارات على مملكة سنغاي،[(1)] وهي الفترة التي كانت لا تزال فيها مملكة مالي تتمتع بقوتها ومجدها. كما يخبرنا السعدي بأنه خلال عهد حكم منسا مغا خليفة الملك منسا موسى، قدم ملك الموشي بجيش عظيم، وقام بغزو مدينة تمبكتو التي كانت في حظيرة الماليين، فخاف أهلها وتركوها هاربين، فدخلها الموشيين وأحرقوها وخربوها وقتلوا من قتلوا ونهبوا ما فيها من أموال.[(2)] وكان هذا الحدث يصادف فترة حكم ملك سونغاي "زا باري" أو (زابير) كما يسميه السعدي،[(3)] وحتى خليفته من بعده "زا أسيباي". كما نجد في تاريخ السودان ما يفيد بتعرض مدينة تمبكتو التي كانت في حظيرة الماليين للغزو، فخاف اهلها وتركوها هاربين، فدخلها الموشيين وأحرقوها وخربوها، وقتلوا من قتلوا ونهبوا ما فيها من أموال،[(4)] وهذا كله يفيد بأن مملكة الموشي عاصرت إمبراطورية مالي خلال أوج قوتها وعظمتها، بل نافستها وهددت أمنها.

ولم تكن مملكة الموشي مجرد جماعة من المحاربين الذين لا يفقهون إلا الغزو والنهب والسلب كما يتوهم الكثيرون، بل كانت تمثل شعبا منظما سياسيا وعسكريا في اطار عدة ممالك انتشرت في إقليم الموسي الذي تعد واغادوغو مركزه، والذي يمتد إلى غاية منطقة تونكودوغو (Tenkodogo) وفادا نغورما (Fada Ngourm) حيث يضم عدة فروع وأجناس موسية، منها موسي الشمال الذين زحفوا إلى منطقة ياتنغا من الجنوب الشرقي، وقد لعبوا دورا مهما في منطقة منعطف النيجر خلال منتصف القرن السابع

---

(1) Tarikh el fettach ,p85.

(2) Tarikh el fettach ,p33

(3) تاريخ السودان:ص3 .

(4) نفسه، ص9 .

للهجرة/13م[1]. فعندما نتكلم عن امبراطورية الموشي إذن فإننا نقصد إثنتين هما واغادوغو في الجنوب، والتي لم تضطلع بدور كبير في تاريخ السودان الغربي، ومملكة الموشي الشمالية التي أسست امبراطورية ياتنغا، والتي لعبت دورا بارزا في منطقة النيجر الاعلى من خلال غزوها لاراضي المندينغ وصراعها المرير مع آل سني في مملكة السنغاي.[2]

لكن يبقى الاطار التاريخي والجغرافي لامبراطورية ياتنغا الموشية محفوف بالغموض وقلة المصادر المكتوبية عنها. فالروايات الشفوية تقول بأنهم قدموا من الجنوب أي من شمال غانة، وكان لملكهم نابا نديغا(Naba N'dega) بنت جميلة وشجاعة تدعى يانغا (Yaninga) وقد التقت هذه الفتاة في الغابة بصياد للفيلة وهو من أصول مندية يدعى ريالي(Rialé) فأنجبت منه طفلا سمي ودراوغو(Ouedraogo) الذي يعني الحصان الذكر، فكان ودراوغو هذا هو الذي يقود المحاربين الموشي نحو الشمال، وكان له ابنا يدعى زونغرانا(Zoungrana) هو الذي يعود له الفضل في تأسيس أول مملكة للموشي في تونكو دوغو(Tengotogo).[3] ولما تزوج هذا الأخير أنجب ولدا اسمه أوبري (Oubri) الذي أسس أول مملكة خاصة بالموشي من أصل موغو نابا، وعرفت هذه المملكة بمملكة ياتينغا (Yatenga) أو باديغا تينغا(Yadega tenga)، واتخذت مدينة أوهيغويا (Ouhigouya) عاصمة لها، وهي المملكة التي حاربت مالي، وسنغاي.[4] ويشير مصدر نادر خاص بتاريخ الموشي وجده الباحث "بوبو حاما" (وهو مخطوط مكتوب بالعربية يعود إلى القرن

---

(1) Tauxier(L) , Le noir de Yatenga, (Mossi, Nioniosses, Samos, yarses, Silmi, mossis Peuls) . Edit Emil Larose librairie editeur, Paris,1917,p9 .

(2) Labouret(Henri) , Histoire des noirs de l'Afrique,p77.

(3) تونكودوغو (Tengotogo)هي مقاطعة تابعة لامارة بولغو(Boulgou) بجمهورية بوركينافاسو الحالية، و تقع في وسط شرق البلاد على بعد 185كلم جنوب شرق العاصمة واغادوغو.

(2) Froment(Alain) ,Le peuplement humain de la boucle du Niger. Editions de l'orstom, institut français de recherche scientifique pour le dévloppement en coperation, 1988 , p24

التاسع للهجرة/15م و لم ينشر بعد) إلى أن الموسي القادمين من الشرق أنشأوا على الضفة اليسرى لنهر النيجر دولة تدعى ديامارا عاصمتها روزي، وتكون قد استمرت لمدة خمس قرون أي من القرن الثاني إلى القرن السادس الهجريين/8 و 12م، وخلال القرن السادس للهجرة/12م أسس الموسي مملكة ديامارا الثانية وعاصمتها "مندجي" بعدما هاجروا من مدينة روزي تحت ضغط البربر، لكن ديامارا الثانية لم تعمر كثيرا بسبب تعرض الموسي لمجاعة مهلكة، وأخيرا استقروا في شاطئ غورما.(1) وأتخذوا مدينة فادا ــ ن ــ غورما (Fada-N-Gourma) عاصمة لهم.(2) لذا فيمكن أن تكون دولة ديامارا الثالثة هي المرحلة التي عاصرت قوة مالي، والتي تكون قد بدأت في القرن الحادي عشر للميلاد/ الخامس الهجري حسب استنتاجات دولافوس،(3) ومما يوحي لنا بأنها كانت موجودة خلال القرن السابع للهجرة/13م، هو عندما سئل الملك منسا موسى من طرف ابن أمير حاجب عندما كان بمصر إن كان له أعداء بينه وبينهم حروب وقتال، قال:نعم، عدو، وشديدهم في السودان كالتتار لكم، وبينهم وبين التتار مناسبة (أي تشابه) من جهات منها: وساع الوجوه، فطس الأنوف، ولنا ولهم وقائع، ولهم بأس شديد بإصابة رميهم نشاب،وبيننا وبينهم نوب، والحروب ثارات.(4) وبالتالي يمكننا أن نلاحظ أن هذه

(1) ميشيل ايزارد:شعوب وممالك منعطف النيجر وحوض الفولتا من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر. مقال ضمن كتاب :تاريخ إفريقيا العام، المجلد الرابع، تحت إشراف: جبريل تمسير نياني،صدر عن منظمة اليونسكو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، 1988، ص ص 223 وما يليها.

(2) إن اسم هذه المدينة هو يونغو youngou أو يونغا Younga، ولكن الهوسا همن منحوها فيما بعد اسم فادا ن غورما، والتي تعني في لغتهم (عاصمة الغورما) نسبة إلى فرع من الموسي، أو ما يعرف بموسي الشمال.ـــ Delafosse(Maurice) :Haut Sénégal -Niger,tome1,p311.

(3.) Delafosse(Maurice) ,Haut Sénégal -Niger,tome1,p311.

(4) العمري (أبو الفضل): المصدر السابق، ص120.

الصفات التي أوردها منسا موسى تتطابق مع شعوب الموسي الذين عاصروهم.[1] ورغم أن المصادر لم تذكر إلا غزو الموشيين لتمبكتو سنة 733هجرية/ 1333م وغزو ولاته سنة 884 هـــ/1480، م إلا أننا نستنتج من كلام منسا موسى بقوله(وبيننا وبينهم نوب، والحروب ثارات) بأن الموشيين كانوا في حالة حرب دائمة مع إمبراطورية مالي، ولا أدل على ذلك من أنهم يعتبرون الوحيدون الذين لم يخضعوا لمالي في منطقة النيجر والسنغال العلويين، وهم وحدهم من بقوا على وثنيتهم. لذلك بقوا مصممين على احتلال الأراضي المالية ونهبها و لم يصدهم عن ذلك ويدفعهم إلى حدودهم الحالية إلا آل سني وآل أسكيا ملوك سنغاي، حيث حاربهم سني علي سنة 885 للهجرة/ 1480م عندما دخل مدينة بير وحاصرها وخربها، فغلبهم وسبا نساءهم،[2] كما حاربهم الأسقيا محمد سنة 902 هجرية/1497م، بعد أن دعاهم إلى الإسلام فقتل رجالهم وخرب أرضهم وديارهم وسبي أولادهم ونساءهم.[3]

ويبدو أن اعتداءات الموسيين على مالي لم تتوقف، حيث أنه خلال نهاية القرن التاسع للهجرة/15م، طلب منسا مالي من ملك البرتغال أن يدعمه لكي يحتمي به من الموسيين، لكن الملك البرتغالي لم يجبه على طلبه لأن البرتغاليين كانوا يعتقدون بأن الموسيين كانوا مسيحيين،لذلك لم يكن بوسعهم الوقوف إلى جانب المسلمين ضد إخوانهم المسيحيين.[4]

3. علاقتهم بمملكة كابو(غينيا):

---

(1) في دراسة أكاديمية قدمت بكلية الآداب بجامعة باريس سنة1909م، أورد صاحب الدراسة مجموعة من الصفات الجسمانية التي قال بأنها تميز الموسي عن غيرهم وهي أنهم يتميزون عامة بقامة طويلة، ولون بشرتهم سمراء تميل إلى الحمرة، وقليلا جدا ما نصادف موشيا أسود تماما، كما أن جبهتهم عريضة وتأخذ شكلا محدبا ، وعظامهم بارزة، وأنفهم عريض وأفطس، فمهم عريض لكن شفتيهم تعد أقل بروزا وذقنهم قصير.
Lucie (Marc) , Le pays Mossi. Thèse de doctorat présentée à la faculté des lettres de l'université de Paris. Editions Emile larose libraire-éditeur, Paris, 1909, p117.

(2) السعدي، المصدر السابق، ص 69 .

(3) نفسه، ص 74 - Mahmoud Kati,Op.Cit, p134

(4) Froment (Alain) ,Op.Cit,p24 .

وعرف أيضا بـــ (نغابو Ngabbou) و(غابو Gabou)،[1] وتعد أصول هذه المملكة صعبة التحديد، حيث لا تتوفر لدينا مصادر أخرى عنها غير الروايات الشفوية والملاحم الممجدة لفتوحات سونداياتا والقائد تيراماغان، حيث أن كل هذه الروايات المالنكية تتفق على أن أصول هذه المملكة تعود إلى الفتوحات التي قام بها قائد سونداياتا الشهير تيراماغان تراوري سنة 638 هـــ/ 1240م باتجاه الغرب، حيث احتلها وكون فيها مستوطنات من المالنكي هناك.[2] ثم بدأت هذه المنطقة تجلب إليها الهجرات المالنكية بسبب ثرواتها من الذهب والأحصنة والملح، فبدأت جحافل التجار المالنكيين وفقهاء ودعاة منطقة النيجر الأعلى، تتوافد عليها منذ القرن الخامس عشر للميلاد، [3] حيث تحولت مع مرور الوقت إلى رئة اقتصادية حقيقية لإمبراطورية مالي خاصة بعدما انقطعت عن الإمبراطورية طريق المغرب من طرف الطوارق، وطريق جاو من طرف مملكة سنغاي.

لقد استطاع تيراماغان أن يوسع رقعة الإمبراطورية باتجاه الغرب، وأصبحت تمتد من جوليبا شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا، وتقول الروايات الشفوية بأن تيراماغان لما فرغ من فتوحاته الغربية ووصل إلى المحيط غسل سيفه بمياهه باسم سونداياتا، وأعلن نفسه سيدا لكل أراضي الغرب. لذلك أراد سونداياتا مكافأته حيث أعلن منحه أراضي الغرب أمام المندينغ المجتمعين، حيث صرح سونداياتا أمامهم:((إنني أمنح كل الأراضي الممتدة من فاليمي إلى غاية البحر إلى تيراماغان، فأسلحته هي التي أخضعت هذه الأراضي، لذا سأمنح له هذه الأراضي الغربية يحكمها هو وأبنائه بالوراثة)).[4] فيظهر من خلال هذه الروايات بأن مملكة كابو كانت تابعة لسلطة تيراماغان منذ نشأتها، وأن هذا الأخير كان

---

(1) هي المملكة التي ستأخذ اسم مملكة غمبيا خلال القرن 16م أطلق عليها البرتغاليون خلال القرن 15م اسم كابو التي تعني الكاب (cap) أي الرأس المطل على المحيط الأطلسي.

(2) Niane temsir djibril ,Histoire des Mandingues de l’ouest :Le royaume de Gabou,p18.

(3)Ibid, p35

(4)Ibid, p18 .

يتبع سوندياتا ويقدم له ولاء الطاعة، لكننا إذا بحثنا في هذه الروايات عن طبيعة العلاقة التي كانت تربط تيراماغان وأحفاده من بعده مع السلطة المركزية لمالي في نياني، لوجدنا أن هناك صمت كبير، وأغلبها تركز على شيء واحد وهو أن تيراماغان كان يمثل الملك الشرعي للملكة كابو، وأن كل الملوك الذين تداولوا على عرشها كانوا يدافعون عن شرعيتهم من خلال إثبات انتسابهم إلى تيراماغان، وليس لسوندياتا.[1]

وفي دراسة قامت بها الأستاذة المالية مادينا لي تال (Madina ly tal)[2] ومن خلال جمع عدة روايات من رواة كيلا المنتمين إلى عائلة دياباتي، استنتجت بأن هؤلاء الرواة كانوا يرون في تيراماغان مزاحما لسوندياتا في سلطته بهذه المملكة.[3] لكننا إذا عدنا إلى الروايات الشفوية المالنكية الخاصة بآل كوياتي، لوجدنا بأن سوندياتا لما عين تيراماغان على هذه المملكة أرسل ابنه وخليفته من بعده منسا ولي إلى كابو ليكون تحت طاعة تيراماغان وإمرته، وإن كنا نجهل الأهداف التي دفعت سوندياتا لإرسال ابنه إلى كابو، لكننا لم نسمع فيما بعد بأن هناك خلاف قام بين منسا أولي وتيراماغان، وحتى عندما تولى منسا أولي عرش مالي سنة 652هـ/ 1255م، أو فإن من كان يحكم كابو هم أحفاد تيراماغان، الذي توفي سنة 663 هـ/ 1265م، ولم تذكر الروايات الشفوية المصادر المكتوبة عن خلاف قام بين مملكة كابو ومالي.

---

(1) Jan (Jansan) ,Epopée ,histoire, société :Le cas de soundjata :Mali et Guineé,p114.

(2) هي باحثة أكاديمية في التاريخ و سفيرة سابقة لجمهورية مالي، كما أنها تعد الممثلة الشخصية للرئيس المالي في المنظمة العالمية للفرانكفونية.لديها عدة إسهامات في تاريخ إفريقيا الغربية منها:

Un Islam militant en Afrique de l'ouest au 19e siècle - la tijaniyya de Saiku Umar FUTIYU contre les pouvoirs traditionnels et la puissance - Le royaume de Gambie qui porter le nom de Gabou .

(2) (Madina Lytall), Quelques précisions sur les relations entre l'empire du Mali et le Gabou. In Ethiopiques, Revue negro -Africaine de littérature et de philosophie. N°28, Octobre, 1981

.

لهذا يمكننا أن نقول بأن مملكة كابو رغم أنها كانت تابعة اسميا لإمبراطورية مالي إلا أنها كانت تتمتع باستقلالية كبيرة عن نياني، وذلك بفضل العمل الكبير الذي أسس له تيراماغان في المنطقة، حيث أحاط نفسه بعدد كبير من أصحابه ومقربيه الذي أخذوا يتكاثرون مع مرور الوقت، فحسب الروايات الشفوية كان كلما فتح قرية أو إمارة إلا وترك بها عددا من أتباعه ونصب عليها أحدا من قادته المخلصين له، كما قام في منطقة سوماتو[1] بتقسيم البلاد بين قادته و أبنائه وأقاربه، ومنح لقبا لكل طائفة من المالنكي، كما أنه عند اقتراب نهايته استدعى ابن أخيه بورونغايي (Bouroungayi)، وابنيه منسا كولي (Mansa Koli) وكولي وولنغو (Koli woulengo)، وحدثهم عن كيفية حكم البلاد.[2] أي أن ملوك مالي لم يكن لهم دخل في تسيير المملكة ولا في تعيين حكامها، لكننا في نفس الوقت نجد بأن ملك كابو احتفظ باللقب الذي عرف به حكام المندي وهو منسا، مما يبين وجود علاقات طيبة بين الإمبراطورية المندية ومملكة كابو، وهي علاقات مبنية على الطاعة الشبيهة بالتبعية.

ولكن طاعة حكام كابو لمنساوات مالي، والتبعية الاسمية لهم يبدو أنه لم يكن راجع لقوة مالي، ذلك أن هذا النوع من العلاقات استمرت إلى غاية القرن السادس عشر للميلاد عندما انهارت إمبراطورية مالي، إذ يشير الرحالة البرتغالي أندريه الفاريس دالمادا(André Alvares Dalmada) (والذي يعد أول من أعطى لهذه المملكة اسم كابو)، بأنه التقى في إحدى زياراته لكابو بقافلة كبيرة أرسلها منسا مالي من أجل مقايضة الذهب بالسلع المجلوبة من طرف الأوربيين. كما أشار رحالة برتغالي لآخر وهو اندريه دونيلها (André Donelha) الذي زار كابو عام 1585م وجد فيها الحاكم وهو فاران كابو الذي قال بأن شعبه كان ملزم بدفع ضريبة إلى منسا مالي الكبير ، و وهو بدوره كان

---

(1) وهو المكان الذي عقد فيه سوندياتا ميثاق كوروكان فوكا الشهير.

(2)Niane temsir djibril ,Op.Cit, p26.

يطيع المنسا الكبير.[1] ومنه نستطيع أن نقول بأن ما كان يربط كابو بالإمبراطورية هو الروابط التاريخية والتجارية المتجذرة منذ عهد سوندياتا .

4. علاقاتهم بشعوب وممالك النيجر والسنغال الأخرى:

إن أغلب الشعوب والأمم و الممالك والإمارات المنتشرة في منطقة النيجر والسنغال العلويين كانت خلال الفترة الممتدة بين منتصف القرن السابع إلى أواخر القرن التاسع الهجريين، تقع في مجالات إمبراطورية مالي وبالتالي كانت مرتبطة بهذه الإمبراطورية سياسيا واقتصاديا، وفي نفس الوقت كانت هذه الممالك والشعوب تتمتع بقدر من الاستقلالية تتماشي وموازين القوي بينها وبين إمبراطورية عائلة كيتا.

فمملكة كانياغا التي كانت إحدى الممالك المستقلة عن إمبراطورية غانة، والتي اتخذت من منطقتي كينغي(kingui) وديافونو (Diafounou)[2] مجالا لها، وامتدت من منطقة باكونو (باخونو)شرقا إلى غاية الضفة اليسرى لنهر كولوكمبيني غربا(وهو احد روافد السنغال)، فلم تنعم كثيرا باستقلالها كثيرا، فبعدما تحررت من قبضة ملوك غانة، ثم من سيطرة ملوك الصوصو، فإنها أصبحت في عهد سوندياتا، تابعة لحكام محليين لكنهم تابعين لإمبراطور مالي، حيث كان هذا الأخير يختار حكامها من عشيرة نياهاتي (نياخاتي).[3] واستمر حكم آل نيخاتي في كانياغا منذ 668 هجرية/ 1270م إلى غاية انتقال السلطة

---

(1) Madina(Lytall) , Op.Cit.

(2) تقع كينغي في شمال جمهورية مالي الحالية، بينما تقع ديافونو في الجنوب الغربي لنفس الجمهورية، وكان حكام إمارة ديافونوقد اعتنقوا الإسلام، وكانوا يقومون بغارات وحروب على الوثنيين أين كانوا يستعبدونهم، وقد ازدادت سلطتهم سنة 1140م، حيث قام أحد ملوكهم بزيارة المغرب واستقبله السلطان الموحدي بشرف كبير. =Centre linguistic and historical by oral tradition. La charte de Kurukan Fuga,p30.

(3) Mahmoud Kati , Op.Cit,p134.

إلى عشيرة دياوارا[1] وذلك في مستهل القرن الثامن للهجرة، حيث بدأت هذه الأسرة تتقوى وسلطتها تكبر، فأخضعت كل شعوب البلاد الغربية الواقعة جنوب الساحل، ثم قامت عائلة دياورا فيما بعد بضم مملكة التكرور إليهم، بعدما أصبحوا قادرين على تجنيد أكثر من ألفي فارس عند خط الحرب.[2] وأمام بداية الضعف الذي أصبحت تشكو منه إمبراطورية مالي، أعلن حكام ديارا [3] عن توقفهم عن طاعة ملك مالي، وقاموا بقتل الملك المعين من طرفه، وأصبحوا مستقلين عن إمبراطورية آل كيتا، فساد بلاد كانياغا عدة أمراء من عائلة دياورا.[4]

أما علاقتهم بالأمم الوثنية في الجنوب فكانت تشوبها الكثير من الحذر، نظرا لاحتواء أرضهم على ثروات هائلة من الذهب التي تحتاج إليها الإمبراطورية مثل قبائل الجالونكي الذين يقطنون منطقتي بامبوك وبوري المشهورتين بمناجمهما الغنية بالذهب. ويسمي العمري أرضهم ببلاد مغزارة التبر، ويصفهم بالكفار الهمج ويضعهم في طاعة سلطان مالي.[5] وقد تحدث عنهم منسا موسى للشيخ الزواوي عندما كان بالقاهرة، ووصفهم

---

(1) وتنسب الروايات الشفوية عائلة دياوارا إلى رجل أصله من الحجاز يدعى داما كيلي(Dama guillé) حيث تقول هذه الرواية بأن ملك المندي سونندياتا هو الذي منحه هذا الاسم، فبعدما سأله عن اسم عشيرته وطائفته، قال له دياما ليس لي عشيرة، فأنا من الحجاز, فقال له سونندياتا:((من اليوم فصاعدا فإن اسم عشيرتك هوجاوارا (أي جاء من الوراء) ومنه تحولت إلى جاوارا، ثم دياوارا.

Aissa Hamadi,Traditions et Légendes de l'Afrique de l'ouest, pp30,31 .

(2) Bruno A. Chavane , Villages de l'ancien Tekrour. KARTHALA Editions, Paris, 1985, p33 .

(3) ديارا هو اسم المنطقة التي شكلت عاصمة حكمهم، وهي تقع في اقليم كينغي، ويعود أصل اسم ديارا حسب الروايات الشفوية إلى شقيقين الأكبر يدعى مانا ماغا(Mana Maga) والذي منح لأخيه الأصغر فاتا ماغا(Fata Maga) قطعة لحم من عضلة ساقه لينقذه من الموت جوعا، وقد شفي جرح مانا ماغا في المكان الذي استقر فيه الرجلان، لذلك سمي هذا المكان بديارا(Diara) و التي تعني بلغة السوننكي(شفي).

Karogo doumbé , Tradition, le royaume de diarra ou Kingui .In site: web : http://www.soninkara.com/oeuvre-dart-soninkara.html-consultéle :15-08-2011

(4) Mahmoud Kati :Op.Cit,p70.

(5) المصدر السابق، ص109 .

بالكفار الهمج، والذين كانوا خاضعين لسلطة مالي لكن ملوكها كانوا يهادونهم، حيث لم يكونوا يأخذون منهم الجزية، وإنما يكتفون باستغلالهم في استخراج الذهب من أراضيهم، ويحملونه إليه كل سنة.[1] ولعل هذا الحذر الذي يميز تعامل ملوك مالي هؤلاء القوم من الوثنيين يعود أساسا الى أسطورة منتشرة في بلاد السودان مفادها أنه كلما جرب ملك من ملوك مالي فتح مدن الذهب هذه، وانتشر الاسلام فيها ونطق بها صوت الآذان، إلا وقل وجود الذهب بها واخذ يتلاشى حتى ينعدم، لذلك قرر سلاطين مالي جعل هذه الامم تحت طاعتهم لكنهم خصوهم بمعاملة خاصة بحيث لا يجبرونهم على اعتناق الاسلام ولا على دفع الجزية، كما يتركون لهم حرية استخراج الذهب و دفعه هم بأنفسهم للسلطات المالية.[2]

ولقد تحدث ابن بطوطة عن قوم من الكفار آكلي لحوم البشر كانوا يجعلون في آذانهم أقراطا كبارا، ويلتحفون بملاحف الحرير، ولعلهم نفسهم الذين تحدث عنهم منسا موسى، لأن ابن بطوطة يقول بان في بلادهم يكون معدن الذهب.[3] ويظهر من خلال كلام ابن بطوطة بأن الملك منسا سليمان كانت تربطه بهم علاقة حسنة، حيث كانوا يأتون إليه في قصره في عدة مناسبات بصحبه أميرهم، وكان السلطان سليمان يكرمهم ويحسن

---

(1) العمري، المصدر السابق، ص 117 و 127 .

(2) العمري، المصدر السابق ، ص ص 109، 110 (وتقول الروايات بأن ملوك مالي ومن أجل الاحتفاظ بالذهب لهم فقط، كانوا يروّجون لأسطورة مفادها بأنه إذا ما حل الليل فلا يمكن لأي أحد أن يتلفظ باسم الذهب و إنما كل واحد ير يد ذكره يقول الحلم القبيح، لأنهم يزعمون بأنه كل من حلم بالذهب سيموت =قبل حلول الصبح، وأن كل من وجد الذهب لا بد من تقديمه للسلطات الملكية).

Youssouf tata cissé , Wa kamissoko ,La grande geste du Mali, tome1, p239.

(3) المصدر السابق، ص693 .

ضيافتهم، وكان يقدم لهم في ضيافتهم خادمة ليذبحوها ويأكلون لحمها ثم يلطخون وجوههم بدمها، ثم يشكرون السلطان.(1)

فهذا الإستثناء وهذا التميز الذي حظيت به هذه الأقوام الموجودة في أرض الذهب لم يكن يخص بقية الشعوب الكافرة، حيث يقول ابن فضل الله العمري بأن سلطان مالي كان في حالة حرب وجهاد دائم و غزو ملازم لمن جاوره من كفار السودان، وهم أمم كثيرة لا يستوعبها الزمان.(2) وربما كان العمري يقصد بذلك تلك الأقوام التي تحدثت عنها المصادر العربية الأخرى، والتي لقبتهم بالدمدم أو الدمادم، ووصفتهم بالمتوحشين الذين يشبهون البهائم وقالت بأنهم من الكفار المهملي.(3) ونفهم من كلام ابن خلدون بأن ملوك مالي كانوا يتخذون من هذه الأمم العبيد الذين كانت تشتهر بهم أسواقهم، فهو يذكر بأن أهل غانة وتكرور (يقصد مالي) كانوا يغيرون عليهم ويسبونهم ويبيعونهم للتجار فيجلبونهم إلى المغرب.(4)

وعموما فإن كل أرض السودان الغربي الممتدة من باني شرقا ومملكة التكرور غربا، وجنوبا إلى غاية الغابات الكثيفة، كانت تابعة بطريقة أو بأخرى لإمبراطورية مالي عندما كانت في أوج قوتها خلال القرن السابع والثامن الهجريين، باستثناء مدينة جني، فهذه المدينة ذات الأهمية التجارية البالغة، والتي كان يلتقي فيها أرباب الملح من تغازة، وأرباب

---

(1) نفسه،ص693 (وهناك رواية مشابهة رواها العمري (المصدر السابق،ص 128) مفادها أن رجلا دخل متاجرا بالملح فوصل إلى مدينة من مدن كفار السودان فأهدى له ملكها شيئا من الملح وبعث له بجاريتين من أحسن السودان صورة، وعندما حضر عنده بعد أيام قال له: بعثنا إليك بتلك الجاريتين فاذبحهما وكلهما لان لحمهما طيب).

(2) المصدر السابق، ص 127 .

(3) ابن سعيد،كتاب الجغرافيا،ص ص91و 92 ــ الحميري: الروض المعطار، ص 475 ــ الدمشقي: نخبة الدهر، ص 240 .

(4) المقدمة ، ص ص 43و44 .

الذهب من بيط،[1] فإنها حافظت حسب موريس دولافوس وهنري بارث على استقلالها الكامل، وقاومت ملوك مالي الذين حاولوا عدة مرات غزوها.[2] ولقد ذكر محمود كعت أنه خلال عودة موكب منسا موسى من الحج، فإن القوارب التي كانت تقل القرشيين الذين جلبهم معه منسا موسى من مكة، وأمتعتهم ونساءهم، قد تعرضت للنهب والسرقة من طرف جني كوي وهو حاكم مدينة جني وكوران الذي يعد قائدجنده، وذلك بنطقة تسمى كامي، [3] كما قاموا بإنزال الشرفاء القرشيين، معلنين الثورة ضد منسا موسى، لكنهم لما عرفوا قصة أولئك القرشيين ومكانتهم، فإنهم قدموا أنفسهم إليهم وعاملوهم بكل احترام، وأنزلوهم في مكان قريب يسمى شينشين.[4]

لكننا نستنتج من رواية أخرى لمحمود كعت بأن حكام جني لم يكونوا مستقلين دائما عن مالي كما يدعيه دولافوس وبارث، حيث يذكر صاحب تاريخالفتاش بأن حاكم جني وهو جني كوي كان في الماضي خادما من أكثر الخدام خنوعا لملك مالي، وحاكما من أعجز الحكام، فملك مالي لم يكن يستقبله أبدا بنفسه، وإنما كانت زوجة الملك هي التي تستقبله، وإليها كان يدفع الضريبة الخاصة بمنطقة جني.[5]

المبحث الثاني

علاقاتهم بالعالم الإسلامي

أولا: المغرب الإسلامي:

1 . علاقتهم بالإمارات البربرية الصحراوية:

(1) السعدي، المصدر السابق، ص 11 .

(2) Delafosse M , Haut S-N,t1,p191 Barth(Henri) :Op.Cit, p14.

(3) هي منطقة تقع على ضفة نهر النيجر قبالة مدينة موبتي والتي كانت تابعة لاقليم جني المستقلة عن جني .

(4)Tarikh el fettach,p64.

(5)Tarikh el fettach,p64.

من الصعب الكلام عن علاقات السودان الغربي بالمغرب الإسلامي دون الخوض في موضوع الصحراء الكبرى الإفريقية، فهذه الصحراء كانت منذ القدم طريقا للمواصلات والربط بين المغرب وبلاد السودان أكثر منها حاجزا بينهما، وبالتالي فهي تعد همزة وصل بين المنطقتين ونقطة امتزاج العرق البربري بالزنجي، وعبرها عرفت ممالك السودان الغربي الإسلام ونظمه، وهي الشريان الذي ينضب بالحياة من خلال تدفق القوافل التجارية القادمة من حواضر العالم إلى تمبكتو وجاو وجني وغيرها. وقد انتشرت في الصحراء المغربية منذ العصور القديمة عدة واحات سكنتها مجموعات بربرية، انتظمت في شكل قبائل وإمارات وكيانات سياسية متنوعة، ارتبطت بحكم موقعها بعلاقات تجارية وسياسية مع ممالك السودان الغربي، وخاصة مع غانة ومالي وجاو.

يضع ابن بطوطة الحدود الشمالية لسلطة مالي في ولاته التي يقول بأنها أول عمالة السودان،[1] كما أننا لم نصادف عند غيره من المصادر ما يشير إلى أن سلطة مالي تجاوزت ولاتة نحو الشمال، بينما امتد نفوذ هذه المملكة بعيدا نحو الشرق في عمق الصحراء ووصل إلى قرب بلاد وركلان. لذلك كان طبيعيا لملوك مالي أن يوطدوا نفوذهم في الصحراء القريبة من وركلان بهدف ضمان سلامة الخطوط التجارية.[2] ولما كان الملثمون يمثلون أسياد الصحراء من خلال كثرتهم، واتساع انتشارهم فيها، فقد كانوا يمثلون أغلب قبائل الصحراء وواحاتها وقصورها، لذلك فقد ارتبطوا بملوك مالي عن طريق علاقات فرضتها المصالح المشتركة بينهم. فلقد كان ملك مالي منسا موسى يتخذ منهم المترجمين عندما يسافر إلى البلاد العربية بغرض الحج، وذلك لإتقان هؤلاء البربر اللغتين العربية والمندية على حد سواء، حيث يذكر ابن خلدون بأن منسا موسى لما زار السلطان

---

(1) المصدر السابق، ص 676.

(2) الشكري (أحمد)، المرجع السابق، ص 188.

المريني أبا الحسن عند انتصاره على ملوك بني عبد الوادي، أصطحب معه ترجمان من الملثمين المجاورين لمملكتهم من صنهاجة.[1]

ومن مظاهر العلاقات الطيبة التي ربطت الطرفين هو سماح حكام مالي لصنهاجة بالانتشار داخل بلاد السودان دون قيود، وهذا الانتشار هو الذي وفر لمسوفة ذلك الانتشار الواسع خلال القرن الثامن للهجرة/14م في بلاد مالي، حيث تمركزوا في منطقة الحوض الأوسط لنهر النيجر، بل أن عناصر منهم اتجهت إلى أعماق بلاد السودان، واستقرت في نياني عاصمة مالي.[2] وفي المقابل نجد ابن خلدون يلمح إلى اعتراف بعض إمارات الصحراء بسلطة ملك مالي في بعض الأحيان من خلال قوله: ((ولما كان عليه منسا موسى من استفحال ملكه بالصحراء الموالية لبلد واركلاء وقوة سلطانه)).[3] ويؤكد كلامه هذا العمري بقوله:((وفي شمال بلاد مالي قبائل من البربر بيض تحت حكم سلطانها وهم: نيتصر، ونيتغراس ومدوسة ولمتونة ولهم أشياخ تحكم عليهم إلا نيتصر فإنهم يتداولهم ملوك منهم تحت حكم صاحب مالي.))[4] كما ارتبطت مملكة مالي بعلاقات تجارية مع بعض القصور الصحراوية أمثال توات وتكدرارين و وركلاء، حيث كانت كل فواكه السودان تجلب منها.[5]وكانت قبائل الطوارق المعروفين بمغشرن تغير على الأقاليم الشمالية الشرقية لمالي، بحيث تمكنت من السيطرة على تادمكة،[6]وبعد تولي منسا موسى

---

(1) العبر، مج7، ص316.

(2) الشكري (أحمد)، المرجع السابق، ص 189.

(3) العبر، مج6، ص 267 .

(4) المصدر السابق، ص 110 .

(5) ابن خلدون، المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،1413 هـ/1992م، ص58.

(6) الشكري (أحمد)، المرجع السابق،ص 196 .

الثاني عرش مالي حاول وزيره ماري جاطه إخراجهم منها، وجهز جيشا لمنازلة تقرت[1] وما وراءها من بلاد الملثمين لكنه لم يستطع واكتفى بعقد هدنة.[2] هذا الاتفاق أظهر للطوارق ضعف الدولة المالية مما أغراهم بالمزيد من الهجمات على الإمبراطورية التي تكررت كثيرا مع مطلع القرن التاسع للهجرة/15م.[3] كما حرس على ربط علاقات طيبة مع أميري كل من الزاب[4] ووركلاء، وحدثت بينه وبينهم مهاداة ومراسلات. ويظهر بأن ملوك مالي كانوا حريصين على ربط علاقات طيبة مع إمارات الصحراء البربرية، ليست لارتباط الطرفين بمصالح تجارية مشتركة فقط، وإنما لحاجة ملوك مالي لتأمين الطريق المؤدي إلى الحج الذي يرتادونه كل موسم حج، والذي يمر ببلاد تقرت.[5]

تقرت.[5]

2 . علاقتهم بدول المغرب الإسلامي:

أ.علاقتهم بالامارت الاباضية:

لقد ذكرنا في الفصل الثاني من هذا البحث بأن مملكة مالي كانت موجودة ككيان سياسي منذ القرن الخامس للهجرة على الأقل، صحيح أن مملكة مندن التي وجدت في تلك الفترة المتقدمة لم تكن مشهورة مثل إمبراطورية منسا موسى وأخوه سليمان، لكنها استطاعت

---

(4) مدينة في الجنوب الشرقي شمال ولاية ورقلة بالجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية، وتبعد تقرت عن مقر الولاية ب 160 كم وعن العاصمة الجزائرية ب 620 كم.

(2) ابن خلدون، العبر، مج6، ص 269 .

(3) السعدي، المصدر السابق،ص9 .

(4) هو إقليم في الجنوب الشرقي للجزائر يشمل عدة مدن منها طبنة التي تعد عاصمة الزاب، بسكرة طولقة، المسيلة، باغاي، وغيرها. (حول بلاد الزاب انظر: صورية مديازة: بلاد الزاب من الفتح الإسلامي إلى غاية انتقال الفاطميين إلى مصر،321ـــ362هــ/642ــ672م. مذكرة لنيل شهادة ماجستير في التاريخ الإسلامي،كلية الآداب ىوالعلوم الإنسانية، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة الحاج لخضر، باتنة، السنة الجامعية:1430 ــ1431هــ / 2009 ــ2010م.)

(5)السعدي، المصدر السابق،ص9 . .

بحكم موقعها على ضفة النيجر الأعلى إشرافها على مناطق الذهب[1] أن تقيم علاقات تجارية مع التجار المسلمين القادمين من المغرب الأوسط. فالرواية التي صاغها لنا البكري عن إسلام ملك ملل(مالي) برمندانة خلال القرن الخامس للهجرة[2] والتي أوردتها المصادر الإباضية أيضا،[3] تقول بأن التجار المغاربة قد بدأوا يصلون بانتظام إلى منطقة المالنكي التي تشرف على مصادر الذهب، وأنه كانت لهم جالية مميزة ومقربة من القصر الملكي لمالي.

ولعل أهم هؤلاء التجار الذين كانوا يمارسون التجارة على نطاق واسع مع غرب إفريقيا هم الاباضيون، فلقد تحدث ابن الصغير عن بن رغبة الإمام أفلح بن عبد الوهاب الرستمي في السفر إلى بلاد السودان الغربي بغرض التجارة عندما كان صغيرا لكن أباه عبد الوهاب منعه عن ذلك، وأمره بالرجوع بسبب إخفاقه في الإجابة عن مسألة في الربا، فرجع بعد أن كان قد تجهز بالرحلة، ثم السفارة و الهدايا التي بعث بها إلى ملك السودان عندما أصبح إماما للرستميين.[4]كما نجد في المصادر العربية أن الثائر الصفري أبا يزيد مخلد بن كيداد(صاحب الحمار)كان قد أخذه أبوه عندما كان صغيرا إلى جاو وقدمه إلى أحد زعمائها الدينيين يدعى عراف (مُنَجِّم) بسبب وجود نقطة سوداء في لسانه،[5] ولعل السبب الذي جعل الرستميين يهتمون بالسودان الغربي وخاصة بجاو منذ القرنين الثاني

(1) حسب الدرجيني كانت مالي قبل أن تصبح إمبراطورية تسيطر على اثنتا عشر معدنا يستخرج منها التبر. (طبقات المشائخ بالمغرب، ج2 ص18).

(2) المصدر السابق،ص 178 .

(3) الدرجينين المصدر السابق، ص، 137 .

(4) أخبار الأئمة الرستميين.ص ص 81 و82 .

(5) الصنهاجي (أبو عبيد الله محمد)، أخبار ملوك بني عبيد و سيرهم. تحقيق: جلول أحمد البدوي. المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م، ص6.

والرابع الهجريين/8و10م، وقبل غيرهم من الممالك والإمارات الإسلامية في بلاد المغرب هو وجود جالية اباضية مهمة هناك.(1)

وكان التجار الاباضية إلى جانب أعمالهم التجارية يقومون بالدعوة إلي الإسلام، وهو الشيء الذي يجعلنا نستنتج بأن ذلك الداعية الذي أسلم على يديه المسلماني يكون من الاباضية، خاصة وأن الدرجيني يروي نفس القصة التي ذكرها البكري، وينسبها لأحد علماء الاباضية وهو علي بن يخلف.(2) وحتى و إن كنا لا نجزم في كون الداعية الاباضي الذي ذكره الدرجيني هو علي بن يخلف.(3) إلا أن الشيء الأكيد هو أن التراث الإباضي تضمن الكثير من الروايات التي حملت أخبار رحلات الفقهاء إلى غرب إفريقيا، وقد اتصل بعضهم بالملوك في تلك المناطق، وكان لهم فضل إدخالهم في الإسلام. حيث سجلت كتب الطبقات والسير تلك الروايات التي ترددت في المجتمع الإباضي وأسندها إلى أصحابها الحقيقيين في بعض المرات، وإلى كبار الفقهاء الذين اشتهروا بزياراتهم لغرب إفريقيا مرات أخرى، وهناك الكثير من فقهاء الإباضية يحملون اسم"ابن يخلف" من بينهم أبو نوح سعيد بن يخلف من علماء النصف الأول من القرن العاشر الميلادي، وقد اشتهر ابن يخلف هذا أيضاً بأسفاره إلى غرب إفريقيا.(4) كما ذكر الشماخي في رواية أخرى تضمنت سفر الشيخ أبي يحيى ابن القاسم الفرسطائي(5) إلى مالي، وقال بأنه سافر إلى دواخل غانة

---

(1) Cuoq(Joseph) ,Histoire de l'islamisation de l'Afrique de l'ouest. Librairie orientaliste Paul Geuthner, Paris, 1984, p16.

(2) طبقات المشايخ، ص ص 137، 138. ـ أما الشيخ علي بن يخلف فهو علي بن يخلف بن يخلف، أبوه علامة ونسابة عرف بسرعة البداهة ، أما أبنه علي فعرف بعلمه و بيانه و فصاحته و تمكنه من الأدب و العلوم الدينية، و هو من أكبر شيوخ الاباضية.

(3) أنظر الفصل الثاني من هذا البحث.

(4) Levitzion (Nehimia) ,Ancien Mali Ghana and. London,1980, PP.55, 56.

(5) والفرسطائي كما ذكر الشماخي هو من ضحايا "معركة مانو" التي حدثت بين أسرة الأغالبة التي حكمت في تونس وبين اباضية جبل نفوسة عام 897 م.

تاجراً، فقام بها وله مكان عند ملكها، وإسلام ملكهم على يده، ويشير أيضا بأن مالي حينذاك كانت مدينة من مدن غانة (أي إحدى ممالكها).(1)

فالتجار الإباضيون إذن كانوا حسب الشماخي، يحظون بمكانة مميزة عند ملوك مالي الأوائل، وهذا يؤكد ارتباط تجار تيهرت بعلاقات تجارية مع مملكة مالي منذ زمن بعيد، وربما تكون منذ عهد مؤسسها عبد الرحمان بن رستم.(2)ذلك أن المصادر الاباضية تشير إلى أن أحد شيوخهم وعلمائهم وهو الشيخ أبو نوح(3) قد ذكر لهم بأن الشيخ أبا موسى هارون بن أبي عمران اتجه لبلاد السودان مر بمدينة غيارو المذكورة والمشهورة بكثرة ذهبها، واستقر هناك إلى غاية وفاته.(4) وبالتالي فإننا نفهم من كل هذا بأن هذه العلاقات لم تكن تشمل التجار العاديين فقط، وإنما شارك فيها كبار دعاة الاباضية وأئمتها، وهو ما يبيّن درجة التقارب الذي كان بين الدولتين.

صحيح أن المصادر التاريخية لم تذكر وجود معاهدات دبلوماسية ولا حتى اتفاقيات تجارية بين البلدين، باستثناء تلك السفارة الرسمية الوحيدة التي بعث بها الإمام أفلح بن عبد الوهاب(180 ـ 220هـ/796 ـ 844م) وهو ثالث الأئمة الرستميين، إلى أحد ملوك

---

(1) الشماخي ، السير الاباضية، نقلا عن أحمد الياس دور فقهاء الإباضية في إسلام مملكة مالي، ص21.

(2) جودت عبد الكريم يوسف:العلاقات الخارجية للدولة الرستمية. المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م، ص282.

(3) و هو أبو نوح سعيد بن زنغيل، الذي ذكره الدرجيني في طبقاته ضمن علماء الطبقة الثامنة التي تتضمن المشايخ الذين عاشوا بين سنتي 350 و400 هجرية (المصدر السابق،ج2، ص 353).

(4) Mauny(Raymond) ,Reccueil des sources Arabes concernant l'Afrique occidentale du13ème au 14ème siècle.Traduit par :Cuoq (Joseph),Paris,1975,p173.

=ولقد ذكر البكري مدينة غيارو وقال بأن فيها من المسلمين كثير ـــ (المصدر السابق، ص 177). كما يذكرها الحميري ويقول بأنها لا تبعد عن للم (أي مالي) إلا بثلاث عشرة مرحلة وهي طاعة لصاحب غانة، وإليه يؤدون لوازمهم.(الحميري(محمد بن عبد المنعم): الروض المعطار، ص427.)

السودان الذي لم تخبرنا المصادر عن اسمه ولا اسم مملكته،[1] لكن وجود تلك العلاقات التي ربطت أئمة الاباضيين وشيوخها بملك مالي، واستضافتهم في قصورهم دليل على المودة والثقة القائمة بينهم.

ب. مع الفاطميين و الزيريين:

ولقد أوردت المصادر العربية عدة بعثات دبلوماسية وتبادل للهدايا بين ملوك السودان ونظرائهم من سلاطين وحكام المغرب الإسلامي، لكنها لم توضح هوية ملوك السودان ولا اسم ممالكهم التي كانت معنية بتلك البعثات. ففي نحو سنة 382هـــ/992م، تلقى الزيريون خلفاء الفاطميين في إفريقية هدية من أحد ملوك السودان تشمل زرافة التي أدهشت كثيرا المنصور فخرج لاستقبالها، [2] كما وصلت الزيريين هدايا أخرى من ملك سوداني في عهد المعز بن باديس(406 ــ454 هــ/1016 ــ1062م) شملت عدد كبير من العبيد وزرافات وأنواع اخرى من الحيوانات،[3] لكنها لم تذكر ايضا اسم هذا الملك السوداني التي بعث بها ولا اسم مملكته، كما لم تذكر لنا أيضا إن كان الفاطميون ومن بعدهم الزيريون قد ردوا على تلك الهدايا أم لا.

ج. مع المرابطسن و الموحدين:

وحتى بربر صنهاجة من الملثمين الذين كانت لهم مع مالك السودان حروبا وفتوحات، وتوطد نفوذهم إلى داخل مملكة غانة، فإنهم رغم الاضطرابات وحركة الانفصال التي حدثت بعد وفاة أبي بكر بن عمر إلا أن العلاقات بين ملوك السودان ويوسف بن تاشفين بقيت قائمة، وهو ما يؤكده نص لصاحب كتاب الاستبصار في عجائب الامصار الذي

---

(1) ابن الصغير،المصدر السابق،ص81. ــ يذهب السيد عبد العزيز سالم الى أن الملك المقصود بهذه السفارة هو ملك سنغاي (تاريخ المغرب في العصر الاسلامي. مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر ، مصر، دون تاريخ، ص484.)

(2) ابن عذارى، البيان المغرب،ج1، ص 246 .

(3) نفسه، ص 275 .

يشير الى وجود مراسلة وجهها ملك غانة الى صاحب أغمات ويقصد به أمير المرابطين يوسف بن تاشفين[1]،كما استمرت العلاقات الطيبة بين ممالك السودان المستقلة ودولة المرابطين، حيث لم تنقطع العلاقات التجارية والثقافية، من خلال حركتي القوافل التجارية وانتشار الاسلام الذي استمر على أيدي فقهاء المرابطين.[2]

بعد سقوط دولة المرابطين استمرت العلاقات التجارية والثقافية بين السودان الغربي ومراكش، خاصة مع حاجة الموحدين الماسة لذهب السودان من أجل تمويل حركة الجهاد البحري ضد النصارى، والدفاع عن ثغورهم في البحر الابيض المتوسط. أما العلاقات الدبلوماسية فإن خمدت خلال سلاطين الموحدين الاوائل الذين كان اهتمامهم أكثر بالشمال، فإنها انتعشت مع السلطان أبي يوسف يعقوب الملقب بالمنصور، إذ يذكر السرخسي[3]في رحلته أن قوما من بلاد السودان جاؤوا بهدية متمثلة في فيل الى المنصور لكنه رفضها، واحتج في ذلك بسورة الفيل المذكورة في القرآن وقال: ((لا أريد أن نكون من أصحاب الفيل))، إلا أنه في المقابل أمر بحسن معاملة الوفد السوداني وإكرامه.[4] لكن

---

(1) مجهول وهو مؤلف مراكشي من القرن السادس للهجرة/12م، الاستبصار في عجائب الامصار، تحقيق: سعد زغلول عبد الحميد، جامعة الاسكندرية، مصر، 1958م، ص 215 .

(2) دندش(عصمت عبد اللطيف)، دور المرابطين في نشر الاسلام في غرب افريقيا،ص138 .

(3) هو عبد الله بن عمر بن علي بن محمد، ابن حمويه الجويني السرخسي ويسمى بعبد السلام أبو محمد، تاج الدين (عاش بين:572 و 642 هـ): مؤرخ باحث، خراساني الأصل، كان شيخ الشيوخ بدمشق ومولده ووفاته فيها. زار المغرب سنه 593 ه، واتصل بملك مراكش (منصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن) فأقام إلى سنة 600 ه، وعاد إلى دمشق مارا بمصر، من كتبه "المسالك والممالك" و"السياسة الملوكية" في اسطنبول و"المؤنس. في أصول الأشياء" ثماني مجلدات، و"عطف الذيل" قي التاريخ، و"الأمالي" و"رحلة إلى المغرب" نقل المقري... =عنها، وله مقاطيع شعر جيدة.(الزركلي خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (المتوفى : 1396هـ): الأعلام،: دار العلم للملايين، بيروت،2002 م، الطبعة الخامسة عشر ج4، ص110).

(4) المقري (احمد بن محمد التلمساني)، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتاب العربي، بيروت، د ت، ج3، ص101.

للأسف فإن السرخسي لم يذكر لنا اسم المملكة التي بعثت ذلك الوفد السوداني ولا اسم ملكهم، وهذا يعود ربما لقلة معلوماته عن بلاد السودان وممالكهم، بحكم انتمائه الى بلاد بعيدة جدا عن بلاد السودان وهي خراسان، كما أنه لم يقم بالمغرب إلا سبع سنوات فقط.

وعموما فإن العلاقات بين ممالك السودان الغربي وسلاطين الموحدين كانت قائمة على حسن الجوارمثلما تبينه الرسالة التي بعث بها ملك غانة الى حاكم سجلماسة السيد أبو الربيع سليمان(1) في عهد السلطان الموحدي محمد بن المنصور يعقوب، والتي تضمنت شكوى ملك غانة من المضايقات التي كان يتعرض لها تجار بلاده من طرف الموحدين، وذكّر حاكم سجلماسة بعلاقات حسن الجوار بين البلدين.(2) لكننا لم نصادف نصا تاريخيا صريحا يتحدث عن وجود علاقات دبلوماسية بين ملوك مالي وسلاطين المغرب خلال عهد الموحدين، وفي هذا الصدد نتفق مع ما ذهب اليه أحمد الشكري(3) الذي يعزو ذلك إلى سببين يكونا قد حالا دون وجود علاقات ديلوماسية راقية بين ملوك مالي ونظرائهم الموحدين، والتي تتلخص فيما يلي:

أولا: أنه خلال فترة وجود الدولة الموحدية (524 ــ668هـــ/1130 ــ 1269م) لم تكن امبراطورية مالي إلا في بداية عهدها، أي أن معركة حصن العقاب التي أنهت عهد الموحدين عاصرت فترة حكم أول خلفاء سوندياتا وهو منسا أولي الذي حكم بين سنتي 652 و668 هـــ / 1255و 1270م، وهي فترة كانت دولة مالي ما تزال في مرحلة

---

(1) هوحفيد عبد المؤمن بن علي مؤسس دولة الموحدين، تولى حكم سجلماسة التي كانت تابعة للموحدين وأخذ لقب السيد عندما تولى امارة سجلماسة في عهد السلطان الموحدي الثالث أبي يوسف يعقوب (بين سنتي 558 و 580هـــ/1184 و 1199م).

(2) المقري، المصدر السابق،ص103.

(3) المرجع السابق، ص 262،261 .

التأسيس والتوسع والفتوحات العسكرية، وهو ما يجعل المصادر التاريخية تغفل ذكر علاقاها السياسية مع الموحدين إن وجدت.

ثانيا: أن عهد الموحدين تزامن مع زحف قبائل بني هلال على شمال الصحراء، وهو ما صعب على الموحدين من سلوك طريق الصحراء المؤدية إلى بلاد السودان.والدليل على ذلك تلك الشكاوي التي وجهها ملك غانة إلى الى حاكم سجلماسة السيد أبو الربيع سليمان بخصوص المضايقات التي كان يلقاها تجار بلاده، والتي بناء عليها تم القاء القبض على مجموعة من قطاع الطرق الذين كانوا يقطعون الطريق على المسافرين بين سجلماسة وغانة.[1]

د. علاقاهم بسلاطين بني مرين بفاس:

إذا كان عهد منسا موسى هو عهد القوة والازدهار بالنسبة لامبراطورية مالي، فإنه كان أيضا عصر ازدهار دبلوماسيتها الخارجية، ففي عهد هذا الملك تمكنت نياني من ربط علاقات دبلوماسية مع المغرب، وترسل أولى السفارات والبعثات الى فاس، وذلك في سنة737هـ/ 1337م في عهد السلطان المريني أبي الحسن. حيث كانت بينه وبين منسا موسى مواصلة ومهاداة، وتبادل الملكان السفراء والأعلام من رجال الدولتين،كما أغدق ملك المغرب على منسا موسى من خيرات بلاده مما تحدث عنه الناس كثيرا.[2]

ويظهر بأن منسا موسى لم يقم بتلك الخطوة نحو المرينيين إلا بعدما جس نبظهم، وتحرى عنهم، واستقصى أخبارهم لفترة امتدت نحو عقد كامل من الزمن، والتي جعلته يتقرب ويتودد من السلطان المريني أبي الحسن[3]خاصة وأن مالي ارتبطت بمالي عبر علاقات ثقافية وعلمية عريقة، فقد كانت مدينة فاس قبلة لعدة طلبة من السودان أصبحوا

---

(1) المقري، المصدر السابق، ص 107.

(2) ابن خلدون، العبر،ج6، ص268.

(3) الشكري(أحمد)، المرجع السابق،ص272 .

فيما بعد من علماء مالي وفقهائها،[1] كما كانت قوافل المغرب تسافر إلى مالي من أجل التجارة،[2] ويكون منسا موسى قد سمع كثيرا عن تواضع سلطان المغرب وبراءته من الكبر والإعجاب بالنفس، فلقد كان يمنع من تقبيل الأرض بين يديه وينهى عن الوقوف بين يديه، كما كان يمنع العلماء والصلحاء وخواصه من تقبيل يده[3] وهذا عكس ما رآه من سلاطين مصر من المماليك، أين حاول السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون إذلاله من خلال الطلب منه السجود وتقبيل الأرض في حضرته،[4] وهي خصال تكون قد أعجبت كثيرا منسا موسى، وهو ما جعل الرجلان يتقربان من بعضهما البعض، وتتطور علاقاتهما إلى ذلك المستوى الدبلوماسي الرفيع الذي جعل ملك مالي منسا موسى يرسل وفدا دبلوماسيا إلى السلطان المريني أبي الحسن لتهنئته على انتصاره على أبي تشفين ملك بني عبد الوادي بتلمسان سنة 737هـــ، وسيطرته على المغرب الأوسط، فأكرم السلطان المريني وفادهم، وأحسن مثواهم، واختار لهم بعض الخيرات من متاع بلاده، وخيرة ما يكتنــــزه قصره، ثم عين رجالا من أهل دولته كان فيهم كاتب الديوان أبو طالب بن محمد بن أبي مدين، ومولاه عنبر الخصي وأنفذهم بها على ملك مالي.[5] لكن هذه البعثة المرينية لم تصل إلى نياني إلا بعد وفاة الملك منسا موسى، أي في عهد أخيه منسا سليمان الذي خلفه على عرش مالي،[6] مما يرجح أن تكون هذه البعثة قد وصلت سنة 738هـــ/1336م، وهي السنة التي وصل فيها منسا سليمان إلى العرش.

ورغم أن ابن خلدون لم يذكر إلاّ هاتين السفارتين في عهد منسا موسى، إلاّ أننا نرى بأن هذا الأخير استطاع أن يؤسس من خلالهما تقاليد دبلوماسية متينة بين نياني وفاس،

---

(1) أنظر: السعدي، المصدر السابق، ص47 و51. Cuoq(Joseph) :Op.Cit, p108.

(2) ابن خلدون، المقدمة، ص43.

(3) محمد بن مرزوق التلمساني، المسند الصحيح الحسن في مآثر و محاسن مولانا أبي الحسن. دراسة وتحقيق د.ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم: محمد بوعياد، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1401هـــ / 1981 م، ص 132 .

(4) المقريزي، الذهب المسبوك، ص142.

(5) ابن خلدون، العبر، ج 7، ص ص415، 416 ــ السلاوي، الاستقصا، الجزء الثاني، ص 74 .

(6) ابن خلدون، المصدر السابق، ص415.

وهو ما يفسر استمرار السفارات وتبادل الهدايا التي تواصلت في عهد منسا سليمان. فكانت أول تلك البعثات التي أرسلها السلطان أبو الحسن إلى نظيره المالي منسا سليمان هي تلك التي تكلم عنها ابن خلدون والتي كانت كرد على الزيارة التي كان قد قام بها منسا موسى إلى المغرب قبل أن توافيه المنية، وقد أرسل أبو الحسن مع تلك البعثة أعرابا من المعقل لمرافقتهم، وما إن وصلوا إلى نياني حتى أحسن منسا سليمان استقبالهم وإكرامهم و وفادتهم.[1] وعندما عادت البعثة المرينية الى فاس رافقها في طريق عودتها وفد مهم من رجتا دولة مالي، حيث أظهروا لابي الحسن تعظيمهم لسلطانه وأدوا له الخضوع.[2] وهكذا استطاع أبو الحسن ومنسا سليمان أن يتقربا اكثر فأكثر، وأصبحت نياني أقرب الى فاس من الناحية السياسية رغم ذلك الحاجز الجغرافي الكبير المتمثل في الصحراء الكبرى، و لم يعد منسا سليمان يفوت اية فرصة للتقرب من سلطان بني مرين والتعبير له عن دعمه ونصرته، حيث انتهز مرة أخرى فرصة دخول أبي الحسن عاصمة الحفصيين تونس عام 748هـ/1348م و ضمها اليه، حتى أرسل سفارة أخرى للسلطان المريني يهنئه من خلالها على فتحه وانتصاره[3]، لكن سفارة مالي التي توجهت الى تونس لملاقات السلطان ابي الحسن، مرت بقسنطينة وة نزلت مع الوفود و العمال الذين اعتاد أبو الحسن استقبالهم بغرض جمع الجباية منهنم، وهناك صادفتها ظروفا واضطرابات نتيجة الاحداث التي نشيت بعد احتلال تونس، والتي أدت الى الإطاحة بأبي الحسن من طرف ابنه ابو عنان فارس، فثار الناس على تلك الوفود والعمال ونهبوا أموالهم، قبل أن يتمكنوا من الفرار مع ابناء السلطان وبقية الوفود الى بسكرة ومنها الى تونس حيث التحقوا بالسلطان أبي الحسن وذلك في شهر رجب من سنة 749هـ /1349م.[4]

---

(1)نفسه، ص ، 316.

(3) نفسه، ص316.

(4) ابن مرزوق، المسند الصحيح، ص355 . ـــ ابن خلدون، العبر، ج6، ص 520 وما يليها.

(4) ابن خلدون، المصدر السابق، ص 527 .

(2) الشكري (أحمد)، المرجع السابق، ص 275 .

ورغم تخلي أبي الحسن عن الحكم بعد انقلاب ابنه أبي عنان عليه وانفراد هذا الاخير بعرش بني مرين سنة 752هــ/1352م، وانشغاله بأمور دولته اكثر من أي أمر آخر، إلا أن العلاقات بين نياني وفاس لم تنقطع، ذلك أنه في عهد أبي عنان تمت زيارة الرحالة المغربي ابن بطوطة لنياني في منتصف سنة 752للهجرة/1352للميلاد.

لاتوجد في المصادر العربية ما يِكد بأن الرحالة ابن بطوطة قد قدم الى نياني بصفته مبعوثا دبلوماسيا من قبل السلطان المريني أبي عنان فارس إلى منسا سليمان، لكن هذه الزيارة تحمل في طياها بعض المؤشرات التي التي تحتاج إلى مناقشة، والتي تجعلنا نعتقد بأن تلك الزيارة كانت طابعا رسميا أو دبلوماسيا. وأول هذه المؤشرات هو توقيت هذه الرحلة، والتي جاءت مباشرة بعدما انتهى أبي عنان من مشكلة العرش مع أبيه، مع أن ابن بطوطة كان قد عاد من رحلته عبر العالم، ودخل الى فاس في أواخر شهر شعبان من عام 750هــ/1350م، حيث استقبله السلطان المريني في قصره.(1) وبالتالي فتأخره الى غاية سنه 752هـــ للقيام بهذه الرحلة قد يكون بإيعاز من أبي عنان الذي يكون قد أخر سفره الى نياني الى غاية انتهاءه من مشكلة العرش مع أبيه وترتيب أمور دولته.

أما الامر الثاني فهو انطلاق رحلة ابن بطوطة من العاصمة المرينية فاس، وكانت انطلاقته من قصر أبي عنان حيث ودعه قبل التوجه إلى بلاد السودان،(2) مما يعطي الانطباع بأنه إما استشار السلطان في سفره أو أن السفر تم بأمر من هذا الأخير، وهنا يمكن أن نستنتج بأنه يكون قد حمله رسالة منه إلى ملك مالي.

وهناك أمر ثالث استنتجه الشكري أحمد والمتمثل في ذلك الصمت الذي أبداه ابن بطوطة بشأن معادن مالي ومناجم ذهبها، والذي جعل شكري يعتقد بان ذلك كان يندرج ضمن المعلومات السرية التي كلف ابن بطوطة بجمعها من طرف أبي عنان، وهو ما جعل ابن بطوطة يتميز بصمته على موضوع الذهب عن باقي كل الرحالة الذين زاروا بلاد السودان

---

(3) ابن بطوطة، الرحلة، ص673 .

وأشادوا بذهبها وبالغوا في وصفه وفي ذكر انتشاره الواسع.[1] ونحن بدورنا يمكن أن نلاحظ كيف قام ابن بطوطة بتقديم وصف دقيق ووافر عن الملح ومناجمه وسعره وتجارته، وذكره لمعدن النحاس ومكان تواجده وطريقة سبكه وتسويقه وسعره،[2] بينما نجده لا يذكر شيئا عن مناجم الذهب وأماكن توجدها، وهو ما يجعلنا نشارك الشكري في ما ذهب إليه في كون زيارته ابن بطوطة إلى مالي كانت تتمثل في مهمة سياسية واستكشافية، لكننا لا يمكن أن نشاطر الشكري الذي وصفها بالمهمة ذات الطابع التجسسي.[3]

ومهما يكن فإننا نجد بأن السفارة المرينية إلى مالي، والتي قام بها ابن بطوطة لم تكن موفقة منذ البداية، حيث نكتشف من كلام ابن بطوطة نفسه أنه لم يكن متحمس لهذه المهمة الدبلوماسية التي كلف بها منذ مقابلته لفربا مدينة ولاته الذي نفر من مقابلته، وكان يكلمهم بترجمان احتقارا لهم إلى درجة جعلت ابن بطوطة يندم على قدومه إلى بلاد السودان بسبب سوء المعاملة التي لقيها منهم واحتقرهم للبيضان. كما يظهر ذلك من خلال رفضه لحضور المضيفة التي دعاه إليها، واحتقاره للطعام الذي قدمه لهم منشاجو (مشرف) ولاته، والمتمثل في جريش من حبوب تدعى عندهم بأنلي مخلوط بقليل من العسل واللبن، والطريقة التي عبر بها ابن بطوطة عن احتقاره لتلك الضيافة بقوله: ((ألهذا دعانا الأسود))، الى درجة أنه قرر العودة من حيث أتى مع حجاج ولاته قبل أن يعزم على

---

(1) الشكري(أحمد)، المرجع السابق، ص276 ـــ ويشير الشكري(نفس المكان) ويشاركه في ذلك الحسن الشاهدي (أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني ج 1، ص 275) إلى أن ما وصلنا من رحلة ابن بطوطة عن سفره الى بلاد السودان، ما هو إلا اختصار لتقرير مفصل أعده ابن بطوطة للسلطان المريني أبي عنان، ويتضمن الكثير من المعلومات عن ذهب السودان لكنه لم ينشرها باعتبارها من أسرار الدولة.

(2) المصدر السابق، ص ص 674 و 697 .

(3) الشكري، المرجع السابق،ص 276 .

مقابلة الملك منسا سليمان.[1] وحتى زيارته لمنسا سليمان فقد استقبلت بالبرودة واللامبالاة، حيث يذكر ابن بطوطة بأن هذا الملك لم يحسن استضافته عندما سمع بقدومه، فهو لم يستضفه بقصره وإنما أنزله في دار القاضي، حيث لم يتسنّ له رؤية الملك لمدة ثلاث أيام بسبب مرضه، ولما علم بقدومه أرسل له ثلاث قطع من الخبز وقطعة لحم بقري مقلي، وقرعة فيها لبن رائب، ما جعل ابن بطوطة يسخر من هذه الأعطية ويحتقرها، ويصف صاحبها بالبخيل الذي لا يرجى منه كثير عطاء.[2] وبعد ذلك لم يستضفه منسا سليمان، ولم يصله منه أي شيء لمدة شهرين، رغم أن ابن بطوطة كان يتردد عليه في المشور(مجلسه) ويسلم عليه، ويجلس مع القاضي، ويكلم ترجمانه الخاص وهو دوغا. واستمر على هذا الحال الى غاية حلول شهر رمضان حيث توسط له هذا الأخير، ووعده بالترجمة له عند الملك رغم أن منسا سليمان كان يتقن اللغة العربية، وهو ما مكنه من الوصول اليه والوقوف بين يديه.[3]

ولم يفوت ابن بطوطة فرصة وجوده في حضرة الملك ليعبر له عن عدم رضاه عما بدر منه من سوء استقبال ولا مبالاة له، ولمح له في لهجة يظهر فيها كثير من التهديد بأنه سيفضح أمره أمام الملوك الذين سيزورهم في رحلاته المقبلة قائلا له: ((إني سافرت إلى بلاد الدنيا، ولقيت ملوكها، ولي في بلادك أربعة أشهر ولم تنصفني، ولا أعطيتني شيئا، فماذا أقول عنك عند السلاطين))، وقد حاول منسا سليمان تبرير ذلك بعدم رؤيته وعدم علمه بوجوده، رغم أنه كان يسلم عليه كل يوم.[4]

---

(1) ابن بطوطة، المصدر السابق،ص ص674 و 677.

(2) نفسه ، ص682 .

(3) نفسه، ص 683 .

(4)ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 682 .

(2) المرجع السابق، ص 277 .

ولعل أن هذه البرودة الذي ميزت سفارة ابن بطوطة إلى مالي قد تحكمت فيها أسبابا مرتبطة بعلاقة الرجلين منسا سليمان وأبي عنان، وليست مرتبطة بعلاقة بلديهما، فرغم أن الأستاذ الشكري يريد أن يقنعنا بأن سبب تلك البرودة التي قوبل بها ابن بطوطة من طرف منسا سليمان إنما تعود لاكتشاف نواياه التجسسية في مالي[1]، إلا أننا نرى بأن سبب ذلك التوتر يعود الى غضب منسا سليمان على المصير الذي آل إليه صديقه أبو الحسن وتنحيته من عرش المرينيين من طرف ابنه، الذي يبدو أن ملك مالي لم يغفر له فعلته تلك، وبقي يحقد عليه، وبالتالي فقد أراد من خلال سوء استقباله لسفيره، التعبير عن موقفه ذاك. ونستطيع أن نتبيّن ذلك من خلال تعمد منسا سليمان دعوة ابن بطوطة لإقامة العزاء للسلطان المريني الراحل أبي الحسن والترحم عليه في قصره،[2] وهي ربما إشارة أراد أن يعبر بها منسا سليمان عن موقفه من أبي عنان.

وعموما فإن هذه السفارة قد بيّنت أنه رغم بقاء شعرة معاوية تربط نياني بفاس، فإن العلاقات بين منسا سليمان وأبي عنان لم تكن في أحسن أحوالها، ولا أدل على ذلك من انقطاع السفارات والهدايا بين البلدين كما كانت في عهد أبي الحسن. لكن بعد وفاة منسا سليمان سنة 760 للهجرة/ 1359 ميلادية، دخلت البلاد في فوضى و صراع على العرش بين أبناء أسرة كيتا، لم تنته إلا بتولي ماري جاطه بن منسا مغا عرش مالي، ولم تمر إلا أشهر قليلة على تنصيبه ملكا حتى أعاد ماري جاطه بعث العلاقات المالية المرينية إلى سابق عهدها، وكانت البداية مع إخباره بان الملك منسا سليمان كان قد بعث بهدية إلى السلطان المريني أبي الحسن قبل وفاة الرجلان، بل وحتى قبل تنحية أبي الحسن من الحكم من طرف ابنه أبو عنان، إلا أن تلك الهدية لم تصل إلى فاس وإنما بقيت في ولاته بسبب الفتنة التي اندلعت في مالي، لذا أمر ماري جاطه بإعادة إرسالها في بعثة دبلوماسية إلى ملك

---

(3) المصدر السابق، ص 682 .

المغرب في ذلك الوقت وهو السلطان المريني أبي سالم.[1] و لقد اجتهد ماري جاطه في أن تكون هذه السفارة في مستوى العلاقات التاريخية المتينة التي تربط البلدين، لذلك فقد أضاف لتلك البعثة هدايا ثمينة تضم الزرافة ووفد عظيم من أبرز الشخصيات في مالي.[2]

وصلت السفارة المالية الى العاصمة المرينية فاس في شهر صفر من سنة 762هـ/ 1361م، وحظيت باستقبال عظيم من طرف السلطان أبي سالم، حيث انتظرهم بمجلس العرض وهو برج الذهب، ونودي في الناس للخروج الى الصحراء لاستقبال الوفد المالي، فقدم الناس من كل حدب وصوب حتى امتلأ بهم فضاء الصحراء بما رحب، إلى درجة أصبح يركب الناس بعضهم بعضا من كثرة الازدحام من أجل مشاهدة الزرافة، وأخذ الشعراء ينشدون مديحا يصفون فيه تلك الحالة. وعندما حضر الوفد المالي بين يدي السلطان المريني وأدّوا رسالتهم، قدّموا تحيتهم للسلطان أبي سالم بطريقتهم المعروفة وهي رمي التراب على رؤوسهم، وعبّروا عن تمسكهم بعلاقات الود والإخلاص للدولة المرينية، كما اعتذروا عن تعطل الهدية كل تلك المدة بسبب الاضطرابات التي عرفتها مالي. ولقد تم إيواء الوفد المالي وإطعامه على نفقة السلطان طيلة إقامته بالمغرب قبل عودتهم إلى بلادهم عبر مدينة مراكش مرورا بعرب المعقل من ذوي حسان بالسوس الاقصى.[3]

ورغم مظاهر الود والصداقة الذي عبرت عنه السفارة التي أرساها الملك ماري جاطه، والآمال التي كانت تنبئ بها العلاقات المرينية المالية من خلالها، إلا أنها كانت آخر سفارة بين العاصمتين تخبرتنا بها المصادر التاريخية، ولم نسمع بعدها بسفارة أو بعثة تبادلها الطرفان، ويمكن أن نفسر ذلك أولا بوفاة السلطان المريني أبي سالم مباشرة بعد وصول السفارة المالية، بحيث لم يتمكن من رد تلك الهدايا التي بعثها له بها الملك ماري جاطه، بل

---

(1) ابن خلدون،العبر، ج7،ص 411 .

(2) ابن بطوطة،المصدر السابق، ص 682 ــ الشكري،المرجع السابق، ص 278 .

(3) ابن خلدون، المصدر السابق،ص 411

تكفل بها القائم بالأمر من بعده،[1] حيث كان أبو سالم حريصا على إنعاش العلاقات بين البلدين وإعادتها إلى سابق عهدها أيام أبي الحسن. كما يمكن تفسير توقف السفارات بين فاس ونياني أيضا، بأوضاع الدولتين التي بدأت بالتوجه نحو مرحلة الضعف والأفول، وبالتالي فإن الوقت لم يكن في صالح بناء علاقات دبلوماسية بقدر ما كان يستدعي مواجهة الاضطرابات الداخلية والمخاطر التي تتربص بهم في الداخل والخارج. ففي أواخر عهد الدولة المرينية وتدهور أوضاعها، تم خلع الأمير المريني عبد الحليم من طرف أخيه أبي زيان محمد (أبو زيان الأول)[2] فثار عبد الحليم ولجأ إلى سجلماسة التي بايعه أهلها، بدعم من عرب المعقل، ولما لحقت به جنود أخيه أبي زيان في صفر من سنة 764هـــ م1362م، لجأ الأمير عبد الحليم إلى الصحراء، حيث قطعها لاجئا إلى ملك مالي ماري جاطه الثاني وذلك سنة 768ه /1366م، فأجاره منسا مالي وقدم له الحماية، ومن ثم انطلق مع قافلة حجاجهم إلى الحج بعدما ودّعه ماري جاطه وزوّده بما يحتاجه في سفره،[3] وهو ما يبين بأن أوصال العلاقة الودية بين أسرتي عائلتي كيتا وبني مرين لم تنقطع حتى في احلك الظروف.

هـــــ. علاقاتهم ببني عبد الوادي ملوك تلمسان:

---

(1) ابن خلدون، المصدر السابق، ص 411

(2) حول الصراع بين الأمراء المرينيين أنظر: ابن خلدون، العبر، ج7، صفحات من 420 و ما يليها.

(3) ابن خلدون، المصدر السابق، ص 424 ــ جوليان(شارل أندريه)، تاريخ إفريقيا الشمالية. تعريب: محمد مزالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، 1985م، ج2،ص 235 ــ حركات (ابراهيم)، المغرب عبر التاريخ، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء،1984م، الطبعة الثانية، ج2، ص78.

رغم ندرة المعلومات التي تتحدث عن هذا الموضوع، إلا أن ابن خلدون ترك لنا نصا غاية في الأهمية يبرز وجود علاقة صداقة ومودة ربطت ملك مالي منسا موسى بأحد رجالات قصر السلطان الزياني أبي تاشفين الأول، وهو الحاجب هلال القطلاني[1] الذي كان أهم رجال أبي تاشفين وصاحب كلمة الفصل في باب قصره، حيث لما قام هلال هذا بإحدى رحلاته إلى الحج سنة 724م/1324م، نزل بالإسكندرية ومنها انطلق في مصاحبة الحجاج كأمير عليهم، فالتقى في طريقه بسلطان مالي منسا موسى الذي كان في طريقه إلى الحج أيضا في رحلته المشهورة، فقامت بين الرجلين صداقة ومودة،[2] ومنذ ذلك الحين أصبح ملوك تلمسان يراسلون ملوك مالي.[3]

وقد ارتبطت عائلة كيتا بتلمسان بعلاقات ثقافية وتجارية مهمة جدا، فبحكم الدور الذي لعبته تلمسان كمركز إشعاع علمي وثقافي في العالم العربي فقد كانت هناك بعثات ثقافية بين البلدين، بحيث يذكر ابن بطوطة بأن رجلا من علماء تلمسان يدعي ابن الشيخ اللبن كان قد أحسن لمنسا موسى وهو وقتذاك صبي صغير غير معروف يتعلم القرآن وعلومه عند هذا الشيخ بمالي، فأعطاه سبعة مثاقيل وثلث، ولما كبر منسا موسى وأصبح إمبراطورا لمالي، جاءه هذا الشيخ التلمساني يحتكم إليه في إحدى الخصومات، فعرفه وقربه إليه وأعطاه سبعمائة مثقال ذهب وكسوة وعبيد وخدما وأمر بأن لا ينقطع عنه.[4]

---

(1) هو سبي من النصارى القطلونيين كان قد أهداه السلطان ابن الأحمر إلى عثمان بن يغمراسن ثم صار إلى السلطان أبي تاشفين، ونشأ وتربى معه، ولما تولى الحكم ابنه أبو تاشفين ولاه على حجابته، وكان القطلاني مهيبا فظا غليظا، ويعد من أقوى رجال أبي تاشفين(ابن خلدون:نفس المصدر السابق، ص235).

(2) نفسه، ص235.

(3) بشاري(لطيفة)،التجارة الخارجية لتلمسان في عهد إمارة بني زيان. رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ، جامعة الجزائر، السنة الجامعية:1987/1986م، ص142.

(4) المصدر السابق، ص 690 .

أما بخصوص العلاقات التجارية بين البلدين فقد عرفت تلمسان وجود وسطاء التجاريون بين تجار تلمسان وتجار مالي، ومنها أسرة المقري التي تعد من أسلاف أحمد بن محمد المقري المغربي التلمساني المتوفى عام 1041هـ/1633م وهو صاحب كتاب نفح الطيب، وتنتمي هذه الأسرة إلى عبد الرحمان المقري الذي يحتمل أنه كان يعيش خلال القرن السادس للهجرة/12م، أي خلال فترة حكم أسرة كيتا المالية، حيث عمل هو وبنوه في التجارة بين بلاد السودان وبلدان البحر الأبيض المتوسط وأوربا، وكان لعبد الرحمان أولادا نظموا عملهم التجاري في شكل يشبه شركة تجارية عائلية (أو ما يعرف في الوقت الحالي بالتروست العائلي (Trust familliale)[1] وقسموا العمل فيما بينهم، حيث كان يقيم اثنان منهم في مدينة تلمسان وبينما يقيم الآخران في مدينة ولاته المالية، أما أخوهم الخامس وهوكبيرهم، فكان يقيم في مدينة سجلماسة. وقد اقتصرت مهمة الأخوان المقيمان بتلمسان في استقبال السلع الأوربية المطلوبة في السودان الغربي ومالي، ويصدران السلع السودانية مثل العاج والذهب والكولا، أما مهمة الأخ المقيم بسجلماسة فكانت تقتصر على دراسة الأسواق العالمية وأسعارها ، ومعرفة السلع المطلوبة أو الزائدة عن الحاجة، بالإضافة إلى جمع المعلومات المؤثرة في التجارة باعتبار أن سجلماسة كانت محطة تجارية كبرى ونقطة عبور مهمة للتجارة الدولية وخاصة تلك العابرة للصحراء.[2] فخلال القرن الثاني عشر للهجرة/19م، وجد المؤرخ الفرنسي لابوريه (Labouret) مخطوطا بمدينة تلمسان يعود إلى القرن الثامن للهجرة/الرابع عشر للميلاد، ويبين بطريقة دقيقة ذلك التنظيم التجاري الدقيق للتجارة الصحراوية بين بلدان البحر المتوسط

---

(1) التروست هي شركة ضخمة ناتجة عن التركيز الرأسمالي لعدة شركات، والتروستات العائلية هي تلك التي تتركز وتتجمع فيها مجموعة شركات يكون رؤساؤها ينتمون لنفس العائلة.

(2) طرخان (إبراهيم علي)،إمبراطورية مالي، ص144.

وإمبراطورية مالي، والذي كانت تشرف عليه أسرة المقري.[1] كما اشتهرت عائلات تلمسانية أخرى وهي عائلة العقباني وعائلة المرازقة اللتين كانت تربطهما علاقات طيبة مع أمراء تلمسان وملوك مالي عل حد سواء مما مكنهما من لعب دور الوسطاء.[2] ولقد ذكر ابن بطوطة بأنه لما كان قادما إلى مالي كان معه في نفس القافلة تاجر تلمساني يعرف بالحاج زيان، والذي يقول عنه بأنه كان من عادته القبض على الحيات ويعبث بها.[3]

ثانيا: المشرق الإسلامي:

1. علاقتهم بماليك مصر والحجاز:

رغم أن مصر تعتبر من طرف العديد من الجغرافيين العرب من دول المغرب الإسلامي،[4] إلا انها كانت دائما تعتبر من طرف أهل السودان من بلاد الشرق، على اعتبار أنها ارتبطت بطريق الشرق المؤدي للحجاز. وعموما فإننا نستطيع ان نصف موقع مصر بالنسبة للمغرب والمشرق الاسلامين بأنه موقع وسط، أو بالأحرى شكل حلقة وصل بينهما، وبفضل أرض الكنانة انتقلت تيارات الحضارة العربية الاسلامية الى المغرب ومنها الى بلاد السودان.

فالموقع الإستراتيجي لمصر مكنها إذن من لعب دور مهم بالنسبة للتجارة الدولية، حيث شكلت التجارة الصحراوية أهم جسر ربط بين ضفتي الصحراء، وكان تجار بلاد المغرب

---

(1) Maquet(Jaques) , Les civilisations noires. Marabout university, les presses de gerard verviers, Belgique, 1960, p221.

(2) بشاري(لطيفة)، المرجع السابق، ص 143 .

(3) المصدر السابق، ص 676 .

(4) يعتبر ابن حوقل بأن نهر نيل مصر هو الحد الفاصل بين بين بلاد المشرق وبلاد المغرب الاسلاميين(صورة الارض،ص64)، ويرى ابن سعيد بأن ما وجد شرق بحر الاسكندرية وخليج القسطنطينية (بحر مرمرة) فهو في حساب المشرق، وهي الحدود التي تفصل مصر عن بلاد الشام،أي أن مصر هي أول بلاد المغرب والشام هي آخر المشرق (كتاب الجغرافيا،ص129) أما ابن خلدون فيقول بان الحد في عرف اهل الجغرافيا هو بحر القلزم (البحر الأحمر) العبر، ج6،ص101.

ومصر هم الذين احتكروا تصريف أمور التجارة الصحراوية طوال العصر الوسيط، وذلك بسبب عدم تمكن القوافل السودانية من اختراق الصحراء بأكماها، فمن خلال رحلة ابن بطوطة يتضح بأن مملحة تغازة كانت هي أقصى نقطة وصلت اليها قوافل السودان شمالا إلى غاية أواخر القرن الثامن للهجرة/14م.(1) ومع انتشار الاسلام في السودان الغربي نشطت الحركة بين مصر ونهري النيجر والسنغال العلويين، إذ لم تعد التجارة وحدها المحرك الاساسي لتلك العلاقات، حيث اضاف الاسلام روحا جديدة لتلك القوافل العابرة للصحراء ميزها نشاط الفقهاء والدعاة ورحلات الحج إلى الأماكن المقدسة في الحجاز، والتي أصبحت مصر معها محطة عبور ضرورية لكل من عزم السير الى مكة. وبذلك ازداد ارتباط أهل السودان بمصر وخاصة الماليين منهم، والذين كانوا يلقبون بالتكاررة لدى المصريين(نسبة لبلاد التكرور). حيث كان ملوك السودان يشترون دورا لإيواء الحجيج والطلبة في كل من القاهرة ومكة المكرمة.(2) وانتشرت في القاهرة جالية مهمة من الطلبة و الفقهاء السودانيين منذ العهد الفاطمي، حتى أصبح لهم حي خاص بهم يعرف ببولاق التكرور، وذلك بفضل العلاقات القوية التي كانت قائمة بين مصر المملوكية وإمبراطورية مالي،(3) كما ازداد اهتمام سلاطين مصر بدولة مالي ومواطنيها، إلى درجة استخدم في مصر أحد الموظفين ممن لهم إلمام بلغة المندي (التي تعرف عند المصريين بلغة التكرور) في بعض دواوين الحكومة المملوكية، حيث كان هذا المنصب يعد من الوظائف الإدارية الكبرى، وكان في مصر أيضا ومنذ العهد الفاطمي خدم من التكاررة (أي أهل مالي) في الجيش المملوكي وصلوا إلى أعلى المراتب مثل عنبر التكروري الذي رقاه السلطان قاتباي

---

(1) أنظر ابن بطوطة،المصدر السابق،ص674 .

(2) نيان تمسير جبريل، المرجع السابق، ص 176 .

(3) Yattara el Mouloud, Op.Cit.

إلى نائب مقدم، ثم صار مقدما عاما سنة 1499م /903هــ.[1] كما يذكر ابن خلدون بأنه كان للتكاكرة بمصر ترجمان خاصا بهم يدعى الحاج يونس التكروري.[2]

ولقد كان لحج ملوك مالي إلى مكة، ومرورهم في طريقهم بمصر دورا بالغ الاهمية في توثيق أواصر العلاقات الدبلوماسية بين نياني والقاهرة، فعن طريق الحج الذي يعد احد التقاليد التي تمسكت بها عائلة كيتا منذ أن أسلم أول ملك منهم وهو برمندانة، تعرف سلاطين مصر بملوك مالي من عائلة كيتا، وقامت هناك لقاءات وتبادل للهدايا واتفاقيات ذات طابع ثقافي واجتماعي وسياسي بين البلدين،كما تعرف حكام مالي الأوائل على أساليب الحكم الاسلامي، وكيفية إقامة علاقات مع المسلمين.[3] وكان أول ملك مندي حج الى مكة حسب المصادر العربية هو برمندانة[4] والذي يدعوه البكري بالمسلماني،[5].لكن هذه المصادر لم تزد عن هذه المعلومات شيئا يمكنه أن يوضح لنا طبيعة علاقة هذا الملك مع سلاطين مصر الذين قد يكونوا من الخلفاء الفاطميين، على اعتبار أن هذا الملك قد حج في حوالي منتصف القرن الخامس للهجرة، كما لم توضح لنا طريقة استقبال هذا الملك من طرف الخلفاء المصريين على اعتبار أن مصر كانت محطة ضرورية لكل من يقصد الحج من أهل السودان.[6]

---

(1) شوقي (عبد القوي عثمان حبيب)، التجارة بين مصر و إفريقيا في عصر سلاطين المماليك (1250 ــ1517 م / 648 ــ 922هــ) . المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2002م، ص54.

(2) العبر،مج6، ص 238.

(3) الشكري(أحمد)، المرجع السابق،ص263 .

(4) ابن خلدون،العبر، المجلد الخامس، ص 495 ـــ المقريزي (تقي الدين)، الذهب المسبوك، ص ص140.

(5) المصدر السابق، ص178 .

(6) يذهب الأستاذ الشكري (المصدر السابق، ص263) إلى أن سبب عدم ذكر المصادر العربية لتفاصيل عن حج هذا الملك هو اعتماد ملوك مالي الأوائل على السرية في سفرهم إلى الحج و ذلك لدواع أمنية.

أما ثاني ملك من عائلة كيتا يحج إلى مكة فهو موسى ألاكوي الذي تقول عنه الروايات الشفوية أنه زار البقاع المقدسة أربع مرات، وتصفه بالمسلم الورع التقي، ويكون قد حج في أواخر القرن السادس وبداية القرن السابع الهجريين/بداية القرن الثالث عشر للميلاد، لأنه حكم بين سنتي 596 و 615 للهجرة/1200 و1218 للميلاد.[(1)] ولكن دولافوس يؤكد بأن إحدى رحلاته إلى الحج كانت سنة 1213 م/أي 610 هجرية،[(2)] ويكون ذلك حدث خلال فترة الملك الايوبي محمد بن أيوب أخو صلاح الدين والملقب بالعادل، والذي حكم مصر والشام بين سنتي (540-615هـ، 1145- 1218م).[(3)] لكننا لم نجد لهذا الملك ذكرا في المصادر العربية، وربما ذلك يعود إلى تعرض مملكة مالي في عهده للاحتلال من طرف مملكة الصوصو، وإلحاقها بهم، أو هو بسبب ما ذهب إليه الذي أحمد الشكري بخصوص لجوء بعض ملوك مالي إلى الاعتماد على السرية في رحلتهم إلى الحج أو أدائهم لهذه الفريضة منتحلين صفة أشخاصا عاديين.[(4)]

وكان أول ملك مندي حاج ذكرته المصادر العربية قد اقترن اسمه باسم السلطان المصري الذي عاصره، هومنسا أولي ابن الزعيم سونديانا، والذي تقول عنه بأنه حج أيام السلطان المملوكي الظاهر بيبرس الذي حكم بين674 و664 هــ/ 1260 و1277ميلادي،[(5)]

---

(1) Mamadi Aissa ,Traditions historique du Soudan occidental, p19ـــ Sory Camara : Gens de la parole , p19.

(2) Haut Senegal-Niger,tome21,p176.

(3) هو الملك العادل بن شادي، أبو بكر، سيف الإسلام الملقب بالملك العادل. هو أخو السلطان صلاح الدين الأيوبي، من عظماء الدولة الأيوبية. كان نائب السلطنة بمصر عن أخيه صلاح الدين أثناء غيبته في الشام. ثم ولاه أخوه مدينة حلب سنة 579هـــ، 1183م، فأقام بها قليلاً، ثم انتقل إلى الكرك (بالعراق). وتنقل في الولايات إلى أن استقل بِمُلك مصر سنة 596هـــ، 1199م، وضم إليها الديار الشامية، ثم ملك أرمينيا سنة 604هـــ، 1207م، وبلاد اليمن سنة 612هـــ، 1215م.

(4) المصدر السابق، ص263 .

(5) ابن خلدون، العبر، ج5، ص 496ـــ المقريزي، الذهب المسبوك،ص 140 .

مما يعني أن هذا الملك يكون قد التقى بالظاهر بيبرس، وفي أسوء الأحوال يكون قد حطّ بالقاهرة، واستقر فيها بعض الوقت قبل جوازه الى مكة، وهنا نستطيع أن نقول بأن هذا الملك يكون قد احتك على الأقل ببعض وجهاء الدولة المملوكية، خاصة وأن موك مالي الذين حجّوا من بعده أصبحت المصادر العربية تقرن أسمائهم باسم سلطان مصر الذي تزامن حجهم مع فترة حكمه، أي أن مرور هؤلاء الملوك بمصر أثناء حجهم لم يعد يمر دون أن يلفت انتباه المصادر العربية، لكن دون ان تذكر هذه الأخيرة تفاصيل عن زيارتهم لمصر.

ولقد حج من بعد منسا أولي الملك ساكورة أيام السلطان المملوكي الناصر،[1] لكن رحلة هذا الملك لم تمر بسلام، حيث تعرّض إلى السرقة والقتل بمنطقة تاجوراء، من طرف قطاع الطرق، وذلك خلال عودته من الحج عام 699هـ/1300م.[2] وإن كنا لا نعلم إن كان مقتل هذا الملك كان من طرف قطاع الطرق كما روّج له، أم هو بفعل فاعل مدسوس من طرف عائلة كيتا حتى يستردّوا عرشهم المسلوب من طرف هذا المولى الذي كان في السابق من عبيدهم؟ إلا إننا نستطيع أن نفهم من ذلك بأن رحلة الحج تلك لم تكن معصومة من المخاطر المحدقة، خاصة بعدما أصبحت أخبار رحلة ملوك مالي إلى الحج تملأ حديث المجالس في أنحاء العالم لضخامة مواكبهم، والثروات التي كانوا يصطحبونها معهم.

وتبقى رحلة الحج التي قام بها منسا موسى ومروره بمصر أهم تلك الرحلات وأكثرها شهرة على الإطلاق، حيث امتزج فيها الواجب الديني بالعمل الدبلوماسي، وسمحت لملوك مصر ومالي أن يتعارفوا ويقتربوا من بعضهم البعض، وبفضل تلك الزيارة تمكّن المؤرخون العرب من جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات عن مملكة مالي التي كانت معلوماتهم عنها

(1) ابن خلدون،المصدر السابق، ص 496 ـــ المقريزي،الذهب المسبوك، ص141 .

(2) العبر، ج6، ص267.

قليلة جدا في ذلك الوقت، لكن في المقابل يظهر بأن زيارة منسا موسى لمصر ولقائه بالسلطان المملوكي الناصر(1) كانت محطة اضطرارية، و لم تكن تتطلع لطموحات منسا موسى من هذه الرحلة التي هيأ لها الأسباب واستمر في تجهيز قافلته تلك لعدة أشهر، وجمع لها من الأموال والجنود والخدم والحشم ما لم يسبقه إليه أحد من ملوك مالي، وهو ما جعل صفحات التاريخ تحتفظ بهذه الرحلة عبر السنين والأزمنة.(2) فقبل أن يسافر إلى الحج قام منسا موسى باستخلاف ابنه محمد على عرش مالي، وكان ينوي التنحي نهائيا عن أمور الملك بعد عودته من الحج، والعودة للاستقرار في مكة نهائيا.(3)

لقد وصل منسا موسى إلى القاهرة في طريقه إلى الحج في ليلة الأحد الخامس عشر من جمادي الأولى سنة 724هجرية حسب المقريزي،(4) والتي توافق العاشر من شهر ماي 1324م، أما ابن كثير فيذهب الى أن موكب سلطان مالي وصل إلى القاهرة في الخامس والعشرين من رجب سنة724هـ.(5) فنزل في قصر بالقرافة الكبرى منحه أياه السلطان الناصر ومعه نحو عشرين ألف رجل من المغاربة والخدم ومعهم ذهب كثير،(6) ولم تكد تصل أنباء وصول موكب منسا موسى إلى القاهرة حتى أرسل الملك الناصر أحمد بن الجاكي المهمندار لملاقاته واستقباله،(7) كما دعاه إلى مجلسه لكن منسا موسى رفض

(1) هو السلطان الملك الناصر زين الدين أبو السعادات فرج بن الملك الظاهر سيف الدين برقوق، حكم بين(801 ـ807هـ/ 1399 ـ 1405م).

(2) حول رحلة منسا موسى إلى الحج أنظر: Mahmoud Kati ,Op.Cit, p57 ــ العمري، مسالك الأبصار، ج4،ص 121.

(3) العمري، المصدر السابق، ص 120 .

(4) المقريزي (تقي الدين)، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك.تحقيق و تقديم سعيد عبد الفتاح عاشور، مطبعة دار الكتب، القاهرة، 1971م، جزء 2، ص 542.

(5)ابن كثير(إسماعيل أبو الفدا)،البداية و النهاية.دار البيان العربي، مصر، 2006م، مجلد7، ص486.

(6) ابن خلدون، العبر، مج5، ص 496 ــ ابن كثير، المصدر السابق، ص486 .

(7) العمري، المصدر السابق، ص 122.

مقابلة السلطان الناصر وتحجّج بكونه جاء إلى الحج وليس لشيء آخر، وأنه لا يريد أن يخلط حجه بشيء آخر، وبقي المهمندار يتحايل عليه ويصرّ إلى غاية أن وافق على مضض.[1]

ولقد لفت العمري انتباهنا إلى شيئ غاية في الأهمية ألا وهو رفض منسا موسى ملاقاة الملك الناصر في قلعته، وهذا الرفض يبدو أنه كان مقصودا وسبقه إصرار غير مفهوم، رغم أن المهمندار حاول أن يبرره بمسألة رفض منسا موسى لفكرة تقبيل الأرض أو يد الملك الناصر والذي اعتبره تنقيصا من قيمته، لكننا نجد بأن هذا التبرير ليس مقنعا على اعتبار أن ما ينطبق من واجبات على الرعايا اتجاه ملوكهم لا يمكن أن ينطبق على الملوك فيما بينهم، فنحن رأينا بأن منسا موسى وأخاه منسا سليمان لم يضطرهما السلطان المريني أبو الحسن على الانحناء أمامه، بل رأينا بأن العكس هو الذي حدث عندما وصل وفد الملك المالي ماري جاطه إلى فاس، أين أمر السلطان المريني أبي سالم الناس بذرّ التراب على رؤوسهم استقبالا لذلك الوفد. ورغم ذلك فإن الملك الناصر أصر على جعل منسا موسى ينحني ويقبل الأرض، إلا أن هذا الأخير رفض وقال له: ((أنا مالكي المذهب ولا أسجد لغير الله الذي فطرني))[2]. ولقد اختلفت المصادر التاريخية حول قضية سجود منسا موسى أمام حضرة الملك الناصر، فبينما نجد العمري ينفرد بتأكيده لسجوده بعد تردد كبير[3] فإن المقريزي وابن كثير وابن حجر العسقلاني يذهبون الى أن منسا موسى لم يسجد و لم يقبل الأرض، وأن الملك الناصر قد أعفاه من ذلك لما رأى منه رفضا ظاهرا.[4] أما ابن خلدون

---

(1)العمري، المصدر السابق، ص ص 122و 123.

(2) المقريزي،الذهب المسبوك،ص140ــ العمري،المصدر السابق،ص 123.

(3) المصدر السابق، ص123.

(4) المقريزي، الذهب المسبوك، ص 142 ــ ابن كثير، البداية و النهاية، مج7، ص 486 ــ ابن حجر العسقلاني،الدرر الكامنة، ص383 .

خلدون فقد تجاهل هذه الحادثة أصلا و لم يذكرها وذلك ربما ليجنب نفسه الحرج أمام أولياء نعمته من سلاطين مصرحسبما يذهب إليه الشكري[1]. وبطبيعة الحال فإذا كنا نعلم بأن كلام العمري قد استقاه من أحمد بن الجاكي المهمندار، وهوكما نعرف كان موظفا لدي السلطان مكلف باستقبال ضيوفه، حيث كانت وظيفته تجبره على حمل ضيوف الملك على أداء تلك المراسيم، إذ أقر هو بنفسه ذلك عندما قال: ((والمراسيم السلطانية تتقاضاني في إحضاره))[2] فإننا نرى بأن كلامه كان يريد من خلاله إخفاء رفض منسا موسى لأوامر الملك الناصر، ومن خلالها إخفاء غضب ملك مالي من تلك الاهانة، وبالتالي حاول أن يظهر لنا بأن الأمر كان مجرد تردّد ما انفك أن زال بعد إحاح منه، وهذا بطبيعة الحال دفاعا عن ولي نعمته وعدم اظهاره بالملك المتجبر الذي يهين ضيوفه الملوك، بل حاول أن يظهر منسا موسى بالرجل المتكبّر رغم إقراره باكرامه له، وذلك عندما قال بأنه لم يكن يكلمه إلا بترجمان رغم إتقانه للغة العربية.[3]

وعموما فرغم هذا التشنج الذي بدأ به لقاء الملكين، فقد حدث كلام وحوار ووصلة بينهما، فأكرم الملك الناصر ضيفه وقرّبه وسأله عن سبب مجيئه، وأجلسه إلى جانبه وبعث إليه بعدة من الخلع الكاملة له ولأصحابه ولكل من حضر معه،[4] وأحسن تجهيزه إلى الحجاز، وقدم له هدايا ثمينة منها خيلا أشهبا وفرسين مسرجين ملجمين بمراكب ثقل، ووفر له الإقامة المريحة طول مدة إقامته بالقاهرة، وبعث معه الأمراء لخدمته إلى غاية انتهائه من قضاء فريضة الحج.[5] وبادله منسا موسى بهدايا كثيرة منها أربعين ألف دينار وتحف

---

(1) المرجع السابق، ص 249 .

(2) العمري،المصدر السابق، ص123.

(3) نفسه، ص 122. ونلاحظ بأنه رغم أن العمري قد سبق المقريزي في الكتابة عن هذا الموضوع، إلا أن هذا الأخير لم يأخذ عنه و لم يجاريه فيما ذهب إليه في كون منسا موسى قد سجد فعلا للملك الناصر.

(4) العمري:المصدر السابق، ص 123 ــ المقريزي: المصدر السابق،ص 142 .

(5) ابن خلدون: مج5، ص 496 ــ ابن حجر: المصدر السابق، ص 383 ــ العمري:نفسه،ص 124.

كثيرة،(1) وقيل خمسة آلاف مثقال من الذهب.(2) كما أكرم جميع حاشية الملك الناصر، فلم يدع أميرا وصاحب وظيفة سلطانية إلا ووصله بجملة من الذهب، إلى درجة أنه لما مات المهمندار وجد من خلفه بديوانه الآلاف من القطع الذهبية التي أعطاها إياه منسا موسى مخزّنة على حالها، لم يصنعها و لم يصرفها بعد.(3)

ورغم أن إقامة منسا موسى وموكبه بالقاهرة دامت أكثر من خمسة أشهر،(4) إلا أن المصادر التاريخية لم تخبرنا عن فحوى الكلام الذي دار بين ملك مصر وضيفه موسى باستثناء قولهم أنهما تحدثا حديثا طويلا(5) وأن الملك الناصر سأله عن سبب مجيئه إلى مصر،(6) لكن أحمد المهمندار أخبر العمري بأن منسا موسى قد حمل معه إلى مجلس الملك الناصر بالقاهرة كتابا مكتوبا بالخط العربي وفي ورق عريض، كتبه له بعض خواصه الذين رافقوه في رحلته تلك إلى الحج، وتتضمن السلام والوصية لحامله.(7) فهذا الكتاب إذن يمكن أن نعتبره بمثابة معاهدة صداقة وسلام بين الملكين والمملكتين المصرية والمالية، لكننا نرى بأن تلك الوثيقة لم تتعد كونها مجرد إجراء بروتوكولي يتطلبه هذا النوع من الزيارات.

---

(1) ابن كثير:المصدر السابق، ص 486 .

(2) العمري:المصدر السابق، ص125 ـــ ابن حجر العسقلاني: المصدر السابق،ص، 383 . وإذا كان المثقال الواحد من الذهب يزن بين 4.12 غراما و4.22 غراما تقريبا فإن ذلك يعني بأن منسا موسى قدم للملك الناصر ما بين 20500 و21100غرام (أي ما بين 20,5 و21.1كيلوغرام) من الذهب.)حول الموازين والمكاييل ومقدار المثقال الشرعي أنظر محمود الجليلي، المكاييل والاوزان والنقود العربية. دار الغرب الاسلامي، بيروت، طبعة اولى، 2005 م، ص ص 142 وما يليها.

Mauny(Raymond), Tableau géographique de l'ouest africain au moyen âge, Ifan, Dakar,1961,p411.)

(3) العمري، المصدر السابق، ص 124 ـــ العسقلاني، المصدر السابق، ص 383 .

(4) الشكري، المرجع السابق، ص248.

(5) العمري ، نفس المصدر، ص 123.

(6) المقريزي، المصدر السابق، ص142.

(7) نفسه ، ص 125.

فبعيدا عن تلك المراسيم البروتوكولية والمجاملات بين العاهلين، وبغض النظر عن مظاهر المودة وتبادل الهدايا الثمينة بينهما، يمكن أن نلاحظ كثيرا من الأشياء التي سجلت كنقاط سوداء في تلك الزيارة، وجعلتها تجربة مريرة في تاريخ حج ملوك مالي، والتي تكون وراء عدم تطور العلاقات بين نياني والقاهرة إلى أكثر من كون مصر مجرد محطة عبور ضرورية نحو الحج، حتى وإن حاول بعض المؤرخين إعطاءها بعدا أكبر من ذلك.

وأول هذه الأشياء هو إصرار الملك الناصر على ضرورة مثول منسا موسى بين يديه، ثم محاولة إجباره على السجود وتقبيل الأرض أمام حضرته رغم إصراره على الرفض، وهي أكبر إهانة يمكن أن يتعرض لها إمبراطورا بحجم منسا موسى، الذي ملك كل السودان الغربي وتعوّد أن يسجد له ويتمرّغ أمامه الملوك والأشراف، وينثرون التراب على رؤوسهم أمام حضرته.

وكان الأمر الثاني هو الابتزاز الذي تعرض له موكب حجاج مالي من طرف التجار المصريين، فرغم كرم الماليين، وشدة إسرافهم في شراء الجواري من الترك والأحباش والمغنيات والثياب،[1] إلا أن تجار مصر استغلوا طيبتهم في غشهم وبيعهم سلع تافهة باثمان باهضة تفوق قيمتها الحقيقية بأكثر من خمس مرات،[2] وهو ما جعلهم يسيئون الضن بأهل مصر كلهم ولا يثقون بهم حتى وإن كانوا من أهل العلم والدين، وذلك لما ظهر لهم منهم من غش وكذب في كل قول ومن سوء معاملة.[3] وبذلك تبددت لديهم تلك الفكرة المسبقة التي أخذوها عن مصر وأهله، وخاب ضنهم فيهم لما كان يمثله هذا البلد وهذا الشعب من مكانة في العالم الاسلامي.

---

(1) المقريزي، المصدر السابق ، ص 143.

(2) العمري، المصدر السابق، ص 124.

(3) نفسه، ص 125.

أما بخصوص الأمر الثالث الذي ختم سلسلة الأحداث التي كدّرت صفو هذه الرحلة، فقد حدثت بعد انتهائه من أدائه لفريضة الحج، وتأخّره بمكة بعد نهاية موسم الحج ببضعة أيام، ففاته الموكب الذي رافقه الى الحج، والذي يضم الجنود والأمراء الذين أمرهم الملك الناصر بمرافقته وتوفير الحماية له في الطريق. حيث اضطر منسا موسى إلى العودة برفقة أصحابه من السودان، فأضلوا الطريق وتاهوا في الصحراء، حتى هلك عدد كبير من أصحابه وجماله من العطش والحر والبرد، ولم يعد منهم إلا الثلث[1]، وهو ما جعله يتعرّض للنهب والسرقة من طرف الأعراب، ويفلس ويحتاج إلى المال ليكمل رحلة عودته الى بلاده، فاضطر إلى الاقتراض من بعض تجار مصر من بني كويك الذين أقرضوه المال مقابل فوائد كبيرة من الربا قدرت بثلاثمائة دينار مقابل سبعمائة دينار،[2] وكان من بين هؤلاء التجار بنو كويك الذين أقرضوه خمسين ألف دينار، واشتروا منه القصر الذي أقطعه أياه الملك الناصر بالقرافة الكبرى.[3]

هناك ملاحظتان تستوقفنا خلال هذه القضية، تتمثل الأولى في تخلّي جنود الملك الناصر وخدمه عن موكب منسا موسى وتركه يعود دونهم، وهذا رغم أنه كان قد سخّرهم لمهمة مرافقته وحمايته حتى عودته من الحج، كما أننا لم نجد في المصادر أية إشارة إلى معاقبتهم أو تانيبهم من طرف الملك الناصر لإخلالهم بالمهمة الموكلة إليهم، وهو ما يثير استغرابا واستفهاما، قد نفسره بوجود هناك إصرار وتحريض من سلطة عليا على تعمّد ترك موكب حجاج السودان يعود لوحده. أما النقطة الثانية فتتمثل في عدم وجود سبب واضح جعل منسا موسى يتأخر عن موكب الحجيج بعد أنتهائه من أداء مناسك الحج، اللّهم إلا إذا كانت هناك تفاصيل حدثت أثناء أداء مناسك الحج و لم تطلعنا المصادر عنها،

---

(1) المقريزي، المصدر السابق،ص 143.

(2) ابن خلدون، العبر، ج5، ص496 ــ العمري، المصدر السابق، ص 122.

(3) نفسه، ص 496 .

أو أن منسا موسى يكون قد تعمد التأخّر عن الموكب المصري حتى لا يعود إلى مصر في ظل رعاية الملك المصري، وذلك ليعبّر له عن استيائه من سلوكه معه أثناء إقامته في القاهرة عندما حاول إذلاله، أو يحاول من خلاله إثبات تحرّره من سيطرة الملك الناصر وعدم حاجته لحمايته، وهو التفسير الذي يميل إليه أحمد الشكري.(1)

ومهما يكن من أمر فيمكن ان نقول بأن رحلة منسا موسى الى الحج ومروره بمصر لم تكن موفقة من الناحية الدبلوماسية، و لم تساهم في ربط أواصر العلاقات الدبلوماسية بين مصر ومالي، لكنها كانت مفيدة جدا من الناحية الحضارية، لأنها مكنت منسا موسى من إضافة عدة اشياء الى حضارة بلاده، وزادته ارتباطا بالعالم العربي الاسلامي، حيث التقى خلال موسم الحج بالمهندس والشاعر الأندلسي أبي اسحاق الساحلي، والذي شيد عن طريقه حضارة عمرانية ذات طابع سوداني، بالإضافة الى جلبه لعدد من القرشيين لتتبرك بهم أرض مالي، وبالتالي ساهم منسا موسى في صنع إحدى حلقات التاريخ التي اختلط فيها الدم الحجازي العربي بالدم السوداني . كما جلب معه عددا من الكتب من مصر جلها في الفقه المالكي، وهو ما ساهم في إدخال المذهب المالكي الذي بقي إلى اليوم يشكل الميزة المذهبية لإفريقيا الغربية.

ومن المواضيع التي بقيت محل جدال بين المؤرخين بخصوص علاقة منسا موسى وعائلة كيتا عموما بالمشرق، هو قضية حصول منسا موسى على تزكية لشرعية حكمه من طرف الخليفة العباسي أبي الربيع سليمان الملقب بالمستكفي بالله، أو حتى من الملك الناصر سلطان مصر مثلما تم بالفعل مع ملك سنغاي الأسقيا الحاج محمد توري من بعده، وذلك خلال حجّه سنة 902هــ/ 1495م.(2)

---

(1) المرجع السابق، ص 252 .

(2) يذكر بأن ملك سنغاي الحاج محمد توري استغل سقوط دولة المماليك على يد جيش العثمانيين في معركتي مرج دابق في رجب من عام 922هــ/1516م، والريدانية في محرم من عام923هــ/1517م...

وهنا نجد أنفسنا أمام رواية ابن الدودري[1] الذي ينفرد برواية مفادها أن الملك الناصر محمد بن قلاوون ألبس منسا موسى كسوة ملكية، وقام الخليفة العباسي المقيم في القاهرة تحت رعاية المماليك بتقليده السلطنة الشرعية على بلاد التكرور، وفي المقابل ألزم ملك التكرور نفسه بذكر السلطان الناصر في خطب
الجمعة ونقش اسمه على العملة.[2]

لقد نفى أحمد الشكري هذه الرواية وقال بأنها من وحي خيال الدودري، وقد تحجّج في تكذيبه لهذه الرواية بعدة قرائن، أولها أنه لم يجد هذه الرواية عند المصادر الأخرى من غير الدودري، كما أنه يستدل بعدم وجود عملة سودانية خاصة بمنسا موسى أو مالي منقوش عليها اسم السلطان.[3] لكننا نرى بأن القرائن التي اعتمد عليها الشكري لا تكفي وحدها لتفنيد ما جاء به الدودري، بيد أن المصادر التاريخية التي عاصرت الحادثة وكتبت عن موضوع حج منسا موسى وزيارته لمصر وفي مقدمتهم العمري وابن خلدون وحتى المقريزي كانوا يعرفون جيدا نوع العلاقة التي كانت تربط منسا موسى والملك الناصر، والنظرة الفوقية والازدرائية التي كان ينظر بها المماليك لاهل السودان وملكهم، وقد مر

=ليأخذ الخلافة من آخر الخلفاء العباسيين وهو المتوكل الثاني عبد العزيز يعقوب، وخلال رحلته الى الحج في عام 900هـــ مر الحاج محمد توري بمصر وهناك اجتمع بالخليفة العباسي المتوكل الثاني، وطلب منه أن يأذن له بامارة بلاد السودان ويكون خليفة عليها، فجعله الخليفة العباسي نائبا له على من وراءه من المسلمين في بلاد السودان. (التازي(عبد الهادي)، المغرب فيخدمة التقارب الافريقي العربي. في كتاب العلاقة بين الثقافة العربية والثقافات الافريقية، الصادر عن المنظ مة العربية للثقافة والعلوم،تونس،1985م، ص 106.

(1) هومخطوط بعنوان دُرَرُ التِّيجَانِ وغُرَرُ تَوَارِيخِ الأَزْمَانِ محفوظ بمكتبة الإسكندرية تحت رقم 3828/ج، وقد ألفه أبو بكر بن عبد الله بن أيبك المعروف بالدودرى (المتوفَّى سنة 732 هجرية)، وقد كتبه في القرن العاشر الهجري.

(2) نقلا عن نبيلة حسن محمد، في تاريخ افريقية الاسلامية، ص ص 225،226 ـــ الشكري أحمد، المرجع السابق، ص 253 .

(3) المرجع السابق، ص 253.

علينا عجرفة الملك الناصر تجاه منسا موسى وكيف حاول إذلاله من خلال عملية تقبيل الأرض والسجود، بالإضافة إلى المعاملة السيئة التي لقيها الماليون بمصر، وبالتالي فإننا نرى بأن هؤلاء المؤرخين ونظرا للمناصب التي كانوا يحتلونها في البلاط المملوكي لم يكونوا جريئين على أغضاب ملكهم، وكانوا يجدون حرجا كبيرا في ذكر هذه الرواية التي تكون قد حدثت دون رغبته الملك الناصر، وإنما يكون قد أجبر على إلباس منسا موسى كسوة ملكية بنفسه، نزولا عند المقتضيات البروتوكولية أمام حضرة الخليفة العباسي.

أما فيما يخص الدليل الثاني الذي اعتمد عليه الشكري في تكذيب لرواية الدودري والمتمثل في عدم وجود عملة مالية منقوش عليها اسم السلطان، فيمكن أن نفسره بوفاة منسا موسى بعد وقت قصير من عودته من الحج، بل أنه كان ينوي أن يستخلف ابنه على عرش مالي ثم العودة للاستقرار في الحج نهائيا.(1) وبالتالي فلم يكن لمنسا موسى الوقت الكافي لصك عملة جديدة في وقت قصير بعد عودته من الحج، خاصة وأنه انشغل بتشييد المساجد ومباني عمرانية في ذلك الوقت الذي امضاه بمالي بعد عودته قبل أن توافيه المنية. بالاضافة الى هذا فاننا لن نجد أي سبب جدي يجعل الدودري يختلق هذه الرواية التي تعطي لمنسا موسى شرعية حكم كان قد افتكها أجداده من عئلة كيتا بضحياتهم الجسيمة.

المبحث الثالث

علاقاتهم بأوربا اللاتينية والعالم الجديد

أولا: عائلة كيتا وأوربا:

لم تكن أوربا خلال العصور القديمة والوسطي تقيم علاقات مباشرة مع إفريقيا السوداء الواقعة جنوب الصحراء والتي كانت تطلق عليها مصطلح ايثيوبوس (AITHIOPOS) أي بلاد الرجال الداكنين، بل لم تكن تكاد تعرف عنها شيئا، وكانت

(1) العمري،المصدر السابق، ص 120.

كتب الرحالة والجغرافيين العرب هي سبلهم الوحيدة لاطلاعهم على بلاد السودان الغربي وسكانه.(1)

وبحلول القرن السادس للهجرة/12م بدأ التجار النورمانديون في صقيلية، بالإضافة إلى أهالي كل من بيزا وجنوة والبندقية يتبادلون التجارة مع المدن الساحلية لشمال إفريقيا، وعقدوا معهم معاهدات تجارية لكنهم لم يتمكنوا من التوغل إلى داخل إفريقيا التي احتكر المسلمون عملية الاتصال بها، وذلك انطلاقا من عوامل دينية وتجارية.(2) وفي أواخر القرن السابع للهجرة/13م بدأ الأوربيون يشقون أولى خطواتهم للوصول إلى جنوب الصحراء عن طريق المحيط الأطلسي، حيث قام الأخوان فيفالدي(Vivaldi) سنة 1291م بالإنطلاق من جنوة قاصدين بلاد السودان، لكنهما فقدا في عرض السواحل المقابلة للسنغال عندما حاولا الرسو على سواحل إفريقيا الغربية.(3) وكان مصير كل المحاولات الأوربية للوصول إلى السواحل الأطلسية خلال فترة العصور الوسطى، هو التيهان في عرض المحيط، بالرغم من أن بعض الملاحين استطاعوا أن يصلوا إلى بعض الجزر الأطلسية، مثل الملاح الجنوي لانسلو مالوازيل (Lancelot Maloisel) الذي سميت جزر الكناري باسمه من طرف جميع جغرافيي القرن الرابع عشر والخامس عشر للميلاد.(4)

وبقي السودان الغربي ومعه إمبراطورية مالي مجهولين لدى الأوربيين إلى غاية اعتلاء منسا موسى عرش مالي، حيث عرفت مالي خلال فترة حكمه اتساعا كبيرا في تجارتها بفضل

---

(1) Niane(Djibril temsir) ,L'europe et le monde négro-africain.In :Ethiopique : Revue socialiste de culture négroafricaine ;1977,N°9, site : http: //www. refer. sn/ ethiopiques. Consulté le :16-01-2008:

(2) دافدسون(باسيل)، إفريقيا القديمة تكتشف من جديد.ترجمة:نبيل بدر وسعد زغلول، مراجعة، محمود شوقي الكيال، الدار القومية للطباعة و النشر، مصر،د ت، ص39 .

(3) Jean pierre Sainton, Raymond Boutin ,Histoire et civilisation de la Caraïbe. Maisonneuve et Larose, paris, 2004, p107,

(4) Gravier(Gabriel) ,Navigations européenne faite au moyen âge aux cotes occidentales d'Afrique. Imprimerie de E. Martinet, Paris, 1878, pp5, 6,7.

العلاقات الخارجية المتنوعة التي أقامها هذا الملك مع المشرق والمغرب الإسلاميين، بالإضافة إلى رحلة حجه المشهورة إلى الحجاز، وهو ما ساهم في رفع ذلك الغموض وتلك الأحكام المسبقة التي رسمت على الشعوب السوداء في العالم،(1) وخاصة بعد مرور موكب هذا السلطان بالقرب من السواحل البحر المتوسط مما أعطى الفرصة لتجار أوربا الذين كانوا يرتادون شمال إفريقيا من أجل التجارة لمشاهدة الحالة التي سافر بها هذا الملك أو السماع عنها، ومنه انتقلت شهرة مالي وأخبار موكب الحج ودلالاته إلى أوربا كلها، وفرض احترامهم لدولة آل كيتا. ومنذ ذلك الوقت ازداد التفكير الأوربي في محاولة التعرف على قلب إفريقيا جنوب الصحراء والوصول إليها، فلقد وجدت هناك مدرسة يهودية في جزيرة ميورقة كانت تهتم بإفريقيا وتحاول رسم الخرائط الخاصة بها.(2) وأول الخرائط التي رسمت بهذه المدرسة هي تلك التي أنجزها الكاتوغرافي أنجلينو دولسارت(Anjelino Dulcert)، والتي عنونت بمابا موندي (Mappa Mundi) وتعني خريطة العالم، وهي مؤرخة بمايورقة سنة 1339م، أي بعد وفاة منسا موسى بسبع سنوات فقط، ووصف فيها الطريق المؤدي إلى ملك معدن الذهب عبر المحيط الاطلسي الذي سماه براكس مللي(Rex Melli) وتعني ملك مالي.(3) كما بدأت مساعي المدن والدويلات الأوربية لإقامة علاقات مع تجارية مع السودان الغربي، ففي سنة 746هـ/1346م قام القبطان القطالوني جاكمي فيرار (Jacmé ferrer) بالإبحار من قطالونيا على متن سفينة للبحث عن ساحل الذهب الذي كان يعتقد بأنه موجود بعيدا عن الساحل الأطلسي، لكن هذا البحار القطالوني لم يعد.(4) ومنذ 1364م قامت مركبتين فرنسيتين ذات حمولة بمائة طن

---

(1) Bovill (Edward William) , The golden Trade of the moors, Markus Wiener Publishers,1995, p90 .

(2) باسيل دافيدسون، المرجع السابق، ص39 ـــ حلاوة ليلى: منسا موسى، رحلة الحج الذهبية. في الموقع الالكتروني: http://www.islamonline.net. consulté le :06-04-2008 .

(3) نبيلة حسن محمد، المرجع السابق، ص 218.

(4) Davidson(Bazil) ,Les royaumes Africains. Collections Time-life, 1967, p84.

بالإقلاع بعدد قليل من البحارة، ولا تحتوي على أي دليل باستثناء بوصلة ولكنها مسيرة من طرف قادة محنكين، وتوجهت من السواحل الفرنسية بنية الوصول إلى إفريقيا من جهة الغرب، فعبروا سواحل فرنسا، إسبانيا والبرتغال ثم أدركوا جزر الكناري، ومنه رأس بوجادور (Bojador)، ثم وصلوا أ خيرا إلى مصب نهر السنغال، واستطاعوا أن يدخلوا في اتصال مع سكان البلد، وقاموا بمبادلات تجارية معهم، ثم تركوا ضفاف السنغال وقاموا باجتياز الرأس الأخضر ثم تعرفوا على سيراليون حيث جمعوا عدة أشياء ثمينة وعادوا بها إلى فرنسا حيث استقبلوا كمنتصرين.[(1)] ولعل أهم تطور عرفه علم الخرائط الأوربية، والذي مكن الأوربيين بالتعرف أكثر على القارة المجهولة لديهم، كان سنة 1375م وذلك في عصر الملك الفرنسي شارل الخامس (حكم بين 1364و1380م) عندما أنجز عالم الخرائط القطالوني أبراهام كرسك (Abraham Cresques) خريطة للقارة الإفريقية بفضل المعلومات التي استقاها من مواطنيه اليهود، وعرفت هذه الخريطة بالخريطة القطالونية أوالأطلس القطالوني، وقد أعطت هذه الخريطة وصفا لملك الزنوج القوي جالسا على عرش مالي حاملا كرة ذهبية وصولجانا، كما صور بجانبه تاجرا ملثما بالأبيض متجها نحوه، وكتب على الخريطة كلمة مفادها (هذا السيد الزنجي موسى مالي سيد زنوج غينيا، يكثر الذهب في أرضه حتى صار أغنى وأعظم ملك في جميع البلاد).[(2)]

لقد أحدثت خريطة كرسك ثورة في ميدان الاستكشاف الأوربي للقارة السمراء عموما وفي بلاد مالي خصوصا، ودفعت بعدة مغامرين لرحلة البحث عن مجاهلها، ففي عام 1413م عاد أنسلم ديزالغيري (Anselme d’isalguier)[(3)] من رحلته إلى السودان

---

(1) Leyden et Murray(Hugh) ,Histoire complète des voyages et découvertes en Afrique. Traduit par : M.A.C, Editions Arthus Bertrtrand, Librairie, Paris, 1821, tome3, p02.

(2) حلاوة ليلى، المرجع السابق.

(3) أنسلم ديزالغيري (Anselme d’isalguier): هو مواطن فرنسي ينتمي إلى عائلة كبيرة من مدينة تولوز الفرنسية أدخل السجن بعد ذلك جند في كتيبة صغيرة للمساجين التي قادها جون دي بثنكور... .

الغربي سالما إلى مدينة مرسيليا ، ثم حل بمسقط رأسه تولوز مصطحبا زوجته الإفريقية معه، بالإضافة إلى خدمه وكان واحد منهم طبيبا أبهر كثيرا الأطباء الفرنسيين بتقديمه العلاج الشافي للأمير شارل الدلفين(Charles le dauphin). ثم جاء بعد ذلك دور الايطاليين الذين قاموا بمجهودات أكثر إصرار من أجل الوصول الى إفريقيا جنوب الصحراء، إذ قام الجنويون بالاستقرار في واحة توات عن طريق الملاح انطوان ملفنت(Antoine Malfante)، والذي يعد أول اتصال حقيقي بين أوربا و جنوب الصحراء الإفريقية. وبعد وقت قصير قامت الدار البنكية الكبرى المعروفة بالبورتيناري (Portinari) في فلورانسا بإرسال عامل لها إلى تنبكتو وهو بنيدينو دي (Beneditto dei) الذي ربط علاقات تجارية معها.[1] لكن بسبب المنافسة التجارية القوية فإن البنكيون الفلورانسيون كانوا يخفون المعلومات التي كانوا يحصلون عليها، وكانوا يحتفظون بها لأنفسهم إلى درجة أن أعمالهم بقيت مجهولة و لم يستطع الاستفادة منها الملاحون والجغرافيون. ومع مرور الوقت وبفضل التطور الحاصل في مجال الملاحة الشراعية، وتطور العلوم البحرية تمكن البرتغاليون من البروز في مجال الملاحة منذ سنة 1430م وهو ما أدى بهم إلى إعادة اكتشاف السواحل الغربية لإفريقيا، فكانوا السباقين لإقامة علاقات متينة مع شعوب السودان الغربي عموما و عائلة كيتا المالية خصوصا.

1. علاقاتهم بالبرتغال:

=.(Jean de bethencourt) بأمر من شارل الخامس ملك فرنسا إلى جزر الكناري، ثم تعرض للأسر من طرف المور (البربر) بعدها اقتيد إلى مدينة جاو عاصمة سنغاي، وهناك تزوج من فتاة سودانية مسلمة و تدعى سولوكاسايس(Saloucasais) حيث قدم لها مهرا من التبر الذهب وأحجار كريمة، فكان انسل مدي سالغيني من أوائل المسيحيين الذين رأوا نهر النيجر.

Baba Kaké et Elika M'bolo ,Histoire générale de l'Afrique .Collection produite par : Dan Franck, Paris Imprimé en Belgique,1978,p19 .

(1) Davidson(Bazil) , Les royaumes Africains Op.Cit, p84.

لقد اكتشف البرتغاليون السواحل الغربية لإفريقيا منذ وقت مبكر، حيث أنهم اكتشفوا جزيرة ماديرا منذ سنة 1413م، لكن دون أن يتمكنوا من المرور والتقدم إلى أبعد من رأس البوغادور(Bogador) الذي كان بمثابة الحد الجنوبي للملاحين الأوربيين إلى غاية سنة 1439م عندما اكتشفوا جزر الأزورس(Azores).[1] وتبعتها عدة محاولات استكشافية لكن نتائجها لم تذع و بقيت تصنف كأسرار دولة،[2] وبقي الأمر كذلك إلى غاية منتصف القرن الخامس عشر الذي تزامن مع حركة الكشوفات البرتغالية الكبرى التي تبناها الملك يوحنا الثاني وابنه هنري الملاح، والتي قادها كل من الملاح كادا موستو (kada mosto) وبرتولوميو دياز (Bartolomeo diaz)، أين وصل البرتغاليون إلى غاية مصب نهري السنغال وغامبيا.[3]

ومع هذه الاكتشافات بدأ الاحتكاك البرتغالي مع الممالك الإفريقية، ومنها مملكة مالي التي كانت خلال هذه الفترة(القرن التاسع للهجرة/15م) قد فقدت بعض ممالكها في الشرق إلا أنها بقيت تتمتع بمكانتها كإمبراطورية قارية، ذلك أن فقدانها لممالكها الشرقية جعل ملوكها يتّجهون نحو الغرب. فبينما كانت مملكة التكرور وسنغاي والجولوف قد تحررت عن سلطة نياني، فإن غامبيا والكازامانس شكلتا بالنسبة لمالي نافذة نحو المحيط الأطلسي، إذ بقي نفوذ عائلة كيتا مستمرا إلى القرن الحادي عشر للهجرة/16م، ومنه دخلوا في اتصال مع ملوك البرتغال.[4] وكانت بداية هذه الاتصالات ذات طابع تجاري بحت، حيث يذكر الرحالة البرتغالي كادا موستو في مذكراته عن رحلته إلى المنطقة خلال منتصف القرن الخامس عشر، بأنه حظي باستقبال لطيف من طرف السود وتحدث معهم

---

(1) جون فيج ، المرجع السابق، ص ص 110و111.

(2) Davidson (Bazil),Op.cit. p84.

(3) Tidiane N'diaye ,La longue marche des peuples noirs, p46 .

(4) Niane temsir djibril ,Recherches sur l'empire du Mali, p81.

حول عدة أشياء إلى أن أخبروه بأن ذلك البلد الذي وصل إليه هو غامبيا[1] وأنه تابع لإمبراطور مالي الذي يعد الملك الكبير للسودانيين، وله عدة ملوك وأمراء أقل سلطة منه وتابعين له، وقد أخذه أولائك الزنوج إلى مقر إقامة الملك الذي يدعى باتي منسا(Batti Mansa) والذي ينتمي لسلالة سونديانا، فكلموه عن طريق مترجمين، وعرضوا عليه صداقتهم، وسألوه إن كان يرغب في التبادل التجاري معهم، وتمت أولى المبادلات التجارية بين البرتغاليين ومنسا مالي، وكانت من جملة البضائع التي ابتاعها البرتغاليون من سكان مالي حلقات ذهبية، وبعض الأشياء التي يستعملونها كالقمصان وأغطية من القطن ذات ألوان مختلفة، والتي وصفها كادا موستو بذات الصنع الجيد، بالإضافة إلى بعض القردة وبعض النقانق والقطط وبفواكه مختلفة.[2] فالاتصالات الأولى بين البرتغاليين وعائلة كيتا ملوك مالي تميزت بالمودة وتبادل الهدايا، وذلك لحاجة ملوك البرتغال لهذا النوع من العلاقات من جهة، ونظرا لتعرض ملوك مالي لغزوات ملك السنغاي وتزايد اعتداءات الموسيين من جهة أخرى، هذا بالإضافة إلى الاضطرابات التي انتشرت في منطقة الغرب من طرف الولوف الذين سيطروا على مملكة التكرور، لذلك قرر ملك المندي إرسال سفارة إلى البرتغاليين الموجودين في حصن مينا [3] من أجل طلب المساعدة منهم،

---

(1)كان غرب امبراطورية مالي خلال منتصف القرن الخامس عشر ينقسم إلى امارتين هما غمبيا أو(باتي) وملكها يسمى باتي منسا، وإمارة كازامانس وملكها يسمى كازامنسا وإلى جانب هاتين الإمارتين بقيت تجمعات صغيرة للشعوب الساحلية مثل البالانت، الفولاتة، الفاران،فارابراسو، غورومانا، وجالومانيا في الداخل.وكلها تخضع لنفوذ إمبراطورية مالي التي يحكمها ملك يسمى ماندي منسا أي إمبراطور مالي

.

(Ibid,p81)

(2) De Ca da mosto(Alvise), Relation des voyages à la cote occidentale d'Afrique, (145et 1457) , pp157,159,160.

(3) هو حصن اكتشفه البرتغاليون في أواخر القرن الخامس عشر، والذي سماه البرتغاليون فيما بعد بساحل الذهب، وقد أطلق عليه في البداية اسم المينا نسبة إلى الكلمة الفرنسية (mine) أوالبرتغالية (Mina) والتي تعني منجم، لأنه يحتوي على منجم الذهب.

لهذا أرسل ملك البرتغال يوحنا الثاني(حكم بين 1481و1495م) مبعوثين عنه إلى نياني، واحد عن طريق غامبيا لكنه ضل الطريق، والآخر عن طريق حصن المينا وقد أرسله إلى الملك محمود بن منزوغول(Manzugol) الملقب بمنسا أولي، وهو حفيد موسى ملك سونغو[1] الذي كان تابعا لمملكة المندينكا(مالي)، كما استنجد ابنه الملك منسا محمود الثاني مرة أخرى بالبرتغال سنة 1530م، وذلك عندما حاول زعيم الفلاتة المدعو كولي بمحاولة السيطرة على بامبوك وأغار على جزء من غرب مالي.[2] ورغم أن إمبراطورية مالي كانت تعيش آخر مراحل الدولة حسب تصنيف ابن خلدون، بالإضافة إلى حاجتهم للمساعدة البرتغالية في صراعهم مع الفلاتة، إلا أن ملوكها المنحدرين من أسرة كيتا بقوا متمسكين بعزتهم وتعاملوا بالند للند مع ملك البرتغال، حيث استقبل منسا محمود الثالث سفارة برتغالية سنة 1534م بحصن المينا، وكانت هذه السفارة قد جاءت لتفاوض ملك مالي بشأن قضايا متعلقة بالتجارة المارة عبر نهر غامبيا الذي كانت عائلة كيتا ما تزال تسيطر عليها،[3] وقد ذكر منسا محمود الثالث لملك البرتغال في الرسالة التي بعثها إلى ملك البرتغال، بأنه لا يضاهي سلطان مالي على سطح الأرض إلا أربعة سلاطين وهم، سلطان القاهرة وسلطان التكرور وسلطان اليمن، بالإضافة إلى أربعة آلاف وأربعمائة وأربعة (4404) ملكا من عائلة كيتا الذين ينحدر هو منهم، وكلهم لم يسبق لهم أن ربطوا علاقات مع سفراء مسيحيين، وبالتالي فهو لا يريد أن يكسر هذه القاعدة، وهو ما جعل المفاوضات تتوقف.[4]

---

(1) سنغو(Songo) وهي إحدى أكبر و أعرق المدن المندية، و أكثرها سكانا، و قديما كانت عاصمة مكونة من مدينتين واحدة يسكنها الملوك و تسمى نسوغو (Nsogona) أو نانسوغونا (Nansogona).

(2) Trimingham(Spencer) ,Op.Cit, p74.

(3) مادينا لي تال،تدهور إمبراطورية مالي، ضمن كتاب:تاريخ إفريقيا العام، مج4، ص194.

(4) Leyden et Murray(Hugh) , Histoire complète des voyages et découvertes en Afrique, p334.

وعموما فإن الاتصالات البرتغالية مع ملوك وأمراء المناطق الساحلية الغربية لإفريقيا قد اتخذت مع نهاية القرن الخامس عشر والنصف الأول من القرن السادس عشر طابعا توسعيا وحملت أهدافا تجسسية، إذ استغلت تلك البعثات الدبلوماسية البرتغالية احتكاكها بأمراء الولوف لتتدخل في شؤونهم الداخلية، حيث لما اعتنق ملك الولوف بيموي المسيحية على يد ملك البرتغال دون خوان سنة 1491م تخلى عنه شعبه وفرّ إلى البرتغال، فقام البرتغاليون بتدعيمه لاسترجاع سلطته سنة 1492م، لكنه اتهم مرة أخرى بالخيانة من طرف البرتغاليين الذين طعنوه، وبالتالي دخلت البلاد في دوامة الحروب الداخلية استغلها البرتغاليون في المضي قدما لمواصلة عملياتهم الاستكشافية الخاصة بالمنطقة الممتدة بين نهري السنغال وغامبيا.[1] كما أن تلك السفارات وبعثات الصداقة التي كانوا يرسلونها إلى ملوك مالي كانت بهدف جمع المعلومات عن الوضع الداخلي للإمبراطورية الهرمة، كما انتهج البرتغاليون سياسة أخرى تمثلت في محاباة صغار الرؤساء والأمراء في المناطق الساحلية بواسطة التجارة لحملهم على التخلص من منسا مالي.[2]

إن البرتغاليين عملوا كل شيء من أجل التوغل في داخل إفريقيا الغربية والتعرف على شعوبها، وذلك أكثر من أي دولة أوربية، لكن رغم ذلك فقد حدث أثر متبادل بين الماليين والبرتغالين، فكما أننا مازلنا نجد إلى حد الآن عدة كلمات برتغالية مختلطة مع لغة المندي، وكما أننا نجد في كل جزيرة من جزر المحيط الأطلسي اسم بحار أو أمير أو قديس برتغالي، فإننا نجد في المقابل إعجاب البحارة والملوك البرتغاليين بالثقافات المندية، إلى درجة أن ملوك البرتغال كانوا يطلبون الأعمال الفنية والنقوش المندية، فالمؤرخ جون لود(Jean Laud) في كتابه ((فنون إفريقيا)) يذكر بأن هناك عدة أمراء وبرتغاليين كانوا يملكون

---

(1) مارمول كربخال، إفريقيا، الجزء الثالث، ص220.

(2) مادينا لي تال، المرجع السابق، ص188.

مخادع هي بمثابة متاحف خاصة بالأعمال الفنية للسودان الغربي، ويقول أنه من الصعب إجراء جرد حقيقي حول ما عرفته النهضة الأوربية من أعمال خاصة بالسودان الغربي.(1)

ثانيا: عائلة كيتا والعالم الجديد:

يقول ابن الوردي(2) عن المحيط الأطلسي الذي كان يدعى ببحر الظلمات:((ويسمى المظلم لكثرة أهواله وصعوبة متنه فلا يمكن أحد من خلق الله أن يلج فيه، إنما يمر بطول الساحل لأن أمواجه كالجبال الرواسي وظلامه كدر وريحه ذفر، ودوابه متسلطة، ولا يعلم ما خلفه إلا الله تعالى، ولا وقف منه بشر على تحقيق خبر)).(3) لكنه ربما لم يكن يعلم عندما كتب ذلك، بأن مؤرخا معاصرا له وهو ابن فضل الله العمري (المتوفى سنة 749 هـ/1349م) ذكر بأن أحد ملوك السودان يكون قد اجتاح هذا المحيط سنة 707هـ /1307م و لم يعد.

فقد ذكر العمري عن ابن أمير حاجب بأن الملك منسا موسى قد أسر له بأنه كان قبله ملك وهو أبو بكر الثاني، لم يكن يصدق أن البحر المحيط لا يمكن الوقوف على آخره، فأراد الوقوف على هذا الأمر وتحمس له، وجهز مائتا مركبة مملوءة بالرجال، وأخرى مثلها مملوءة بالذهب والماء وما يحتاجه المسافر من زاد ما يكفيهم لسنين، وقال للمسافرين

---

(1) Niane(Djibril temsir) ,L'europe et le monde négro-africain.In Ethiopique :Revue socialiste de culture négro-africaine ;1977,N °9.

(2) هو الشيخ الفقيه النحوي القاضي المؤرخ زين الدين أبي حفص عمر بن مظفر بن عمر بن محمد بن أبي الفوارس المعري البكري المشهور بابن الوردي ،عاش بين(691 - 749 هـ / 1292 - 1349 م) من شعراء القرن الثامن الهجري . ولد في المعرة غرب مدينة حلب بالشام (سوريا) زمن المماليك سنة 689 هـ ((وقيل أنه ولد سنة 691 هـ)) كان من علماء اللغة العربية والنحو والفقه والأدب والتاريخ كما دل على ذلك تلك المصنفات المتنوعة له، اشتهر بالزهد والورع وحسن الخلق وطيب المعشر، فكانت له مهابة في قلوب معاصريه.تولى القضاء في منبج شيزر وحلب، ثم ما لبث أن ترك ذلك كله وعزل نفسه لمنام رآه كتب أبياتاً... =في ذم القضاء وأهله، ثم اشتغل بالتعليم والتأليف حتى شاع ذكره وطار صيته في البلدان، توفي بالطاعون سنة 749 هـ/1349م .

(3) ابن الوردي (سراج الدين أبي حفص عمر)، خريدة العجائب و فريدة الغرائب.طبع بمصر، سنة 1922، ص 54.

فيه لا ترجعوا حتى تبلغوا نهاية هذا البحر، أو ينفذ زادكم وماؤكم، فساروا وطالت مدة غيابهم إلى أن عاد مركب واحد منها، فسأل كبيرهم عن أخبار رفقائه، فأخبره بأنهم لما ساروا زمنا طويلا في البحر ظهر لهم في وسط البحر واد ذا مجرى قوي، فاختفت في غمرتها كل المراكب ما عدا مركبته التي لم تدخل ذلك الوادي، ورجعوا من حيث أتوا.لكن هذا الملك لم يعجبه كلام ذلك الربان، فجهز ألفي مركبة، ألفا له ولمرافقيه وألفا للزاد والماء، ثم استخلف ابنه منسا موسى وركب البحر المحيط وسافر فيه ولم يعد.(1) ولم يكن العمري هو المصدر الوحيد الذي تكلم عن هذه القضية، حيث نجد رواية مشابهة لها في المصادر الشفوية السودانية، ومفادها أن الإمبراطور المالي أبو بكر الثاني قام بإرسال حوالي330 قارب باتجاه سواحل أمريكا، فرجع ربان واحد من هذه الحملة التي تكون قد اجتازت المحيط.(2) وحسب الرواية الشفوية دائما فإن سكان القارة الأمريكية يكونوا قد رحبوا بالزعيم المالي وهنؤوه على انجازه، أما هو فقد بعث رسولا إلى مالي ليخبرهم بوصوله وتنصيب أخاه منسا موسى ملكا على مالي.(3) وبهذا يحق لنا أن نتساءل هل فعلا تمكنت عائلة كيتا من اكتشاف القارة الجديدة ثلاثة قرون قبل الرحالة الايطالي كريستوف كولومبوس؟

في الحقيقة نحن نجهل سبب انفراد العمري بسرد تلك الرواية، وعدم نقلها عنه من طرف المصادر العربية، فحتى ابن خلدون الذي يعد مصدرنا الكبير عن ملوك مالي منذ برمندانه، لم يكلف نفسه عناء نقل هذه المعلومة عن العمري رغم أنه توفي بعده بحوالي ستين سنة (توفي ابن خلدون سنة 808هـــ/1406م)، وهذا ربما لعدم تصديقه لتلك الرواية،كما لم يصدقها معظم المؤرخين الغربيين الذين اعتبروا القصة مجرد حكاية هزلية،(4) ومنهم من

---

(1) العمري:المصدر السابق، ص ص120و 121.

(2) Xavier van der stappen ,L'Afrique du fleuve de Niger, le Dioliba en canoé. Editions l'Harmattan, Paris, 1996, p151.

(3) Doudou N'diaye rose ,l'histoire de l'épopée Mandingue. In site : http://www.si.umish.edu. Consulté le : 20-06-2008

(2) حول هذا الموضوع انظر:

Bernard Lugan ,God bless Africa ,Contre la mort programmé du continent noir.2ème édition, Editions Carnot, New York, USA, 2003, pp de58 au151

همّشها وأهملها عن قصد حتى لا تعاد كتابة التاريخ من جديد،[1] لكننا في المقابل نرى بأن هناك عدة دلائل وقرائن تجعل رواية العمري تقوم على أسس تاريخية وعلمية معقولة.

فالرواية الشفوية تقول بأن أبا بكر الثاني اعتمد في حملته تلك على خبراء من العرب المسلمين، وأنه انطلق من خليج غامبيا واختفى في عرض السواحل البرازيلية نتيجة تمرد بعض الرواة الشفويين(المنشدون) الوثنيين الذين كانوا يرافقونه بسبب تنكرهم لدور العلماء العرب المسلمين في هذه الرحلة نظرا للصراع الخفي القائم آنذاك بين المسلمين والوثنيين داخل القصر الملكي وبين حاشيته.[2]وهنا يمكننا أن نعود إلى خبرة وتفوق العرب المسلمين في الملاحة البحرية خلال العصور الوسطى، والذين سبق لهم أن خاضوا تجارب مماثلة حسب المصادر العربية حتى قبل رحلة أبي بكر تلك. فيذكر الحميري[3]بأن أحد أهالي الأندلس يدعى بالخشخاش، قام هو وجماعة من فتيان قرطبة وأحداثها بركوب مراكب واستعدوها ودخلوا البحر المحيط، وغابوا مدة ثم أتى بغنائم واسعة وأخبار مشهورة.[4] كما يروي ابن الوردي بأن جماعة من أهل أشيونة (لشبونة) وهم ثمانية أنفس وكأنهم بنو عم، اشتروا مركبا كبيرا وحملوا فيه من الزاد والماء ما يكفيهم لمدة طويلة، وركبوا متن هذا البحر ليعرفوا ما في نهايته، وقرروا ألا يرجعوا حتى ينتهوا إلى البر الغربي أو يموتوا، فسافروا فيه لمدة أحد عشرة يوما حتى دخلوا إلى بحر عظيم وموجه كبير كثير

---

(1) Leyden et Murray (Hugh) ,Histoire complète des Voyages et découvertes en Afrique, pp86,87.
(2) Xavier van der stappen :Op.Cit, p152 .

(3) هو محمد بن عبد المنعم الصنهاجي الحميري .عاش في النصف الثاني من القرن السابع الهجري/13م. ولد بمدينة سبتة، يرجح أنه كان كاتبًا يعمل في توثيق العقود وترجع شهرة الحميري إلى كتابه الروض المعطار في خبر الأقطار و هو معجم جغرافي لا يخلو من سرد بعض الأخبار والوقائع التاريخية، ومرتب على حسب الحروف. وعلى الرغم من أن الحميري نقد الإدريسي نقدًا شديدًا في بداية كتابه، إلا أنه نقل عنه كثيرًا وخصوصًا في وصف أسبانياوقداهتم (الروض المعطار بوصف المدن والأقطار والجزر وبعض المحيطات والبحار)، وقد وصف كثير من الباحثين الحميري بأنه نقل كثيرًا عن غيره ومع ذلك فإليه يرجع الفضل في حفظ كثير من الروايات التي تُعد أصولها مفقودة.

(4) الروض المعطار،ص 509 .

القروش فأيقنوا بأن مصيرهم الهلاك فرجعوا مع البحر سالكين الجنوب لمدة أثني عشرة يوما فدخلوا إلى جزيرة فيها عدد لا يحصى من الغنم طعمها مر، وبها ماء عذب ولا يوجد بها بشر، فتركوها بعدما أخذوا جلود الأغنام معهم وساروا في البحر إثنتا عشرة يوما أخرى إلى جهة الجنوب حتى وصلوا إلى جزيرة فيها عمارة فقبض عليهم أهلها وهم رجال شقر الألوان طوال القد، وأخذوهم إلى ملكهم الذي كلمهم عن طريق ترجمان، ولما عرف سبب خوضهم للبحر المحيط ضحك منهم ساخرا وقال لهم : إني وجهت من عندي قوما في هذا البحر ليأتوني بخبر ما فيه من العجائب، فساروا مغربين لمدة شهر ثم رجعوا بدون فائدة.[1] والملاحظ على رواية ابن الوردي أن ملك الجزيرة الذي كلم الإخوة كان لديه مترجم يتقن العربية، وهو دليل آخر على أنهم لم يكونوا من وصل إلى ذلك المكان في المحيط الأطلسي.

ويذكر المؤرخ التونسي عثمان الكعاك بأن البربر ذهبوا إلى القارة الأمريكية في أول الأمر مع القرطاجيين، ثم مع مسلمي الأندلس الذين كانوا يترددون عليها، كما تمكنوا من وضع أقدامهم في العالم الجديد حتى قبل مجيء الفنيقيين أي خلال القرن الثاني عشر قبل الميلاد، وأن هناك قبائل كاملة في أمريكا تحمل أسماء بربرية، حيث توجد قبيلة مطماطس مثلما توجد ببلاد المغرب قبيلة مطماطة، وتوجد قبيلةماية التي تقابلها قبيلة لماية، وقد استقى هذا المؤرخ معلوماته من ضابط أمريكي كتب عن البربر.[2] فهذه الشهادات كلها تبين بأن المسلمين كانت لهم سوابق في ميدان الملاحة وخاصة فيما يخص المحيط الأطلسي الذي خبروه جيدا، فكان اعتماد أبي بكر الثاني عليهم في حملته قائم على سابق معرفته بهذا الموضوع، مثلما اعتمد كريستوف كولومبس على خبرة أحمد بن ماجد بعد ثلاث قرون لاكتشاف أمريكا.

وهناك دلائل وشواهد مادية تجعل رواية العمري معقولة، منها اكتشاف ثلاث كتابات في الولايات المتحدة الأمريكية بعضها مكتوب بالحروف الإفريقية بلغة المندي وبعضها

(1) ابن الوردي (سراج الدين عمر)، خريدة العجائب وفريدة الغرائب. مطبعة مصطفى البائي الحلبي وأولاده ، مصر،1341هـ/1922م، ص ص 18 وما يليها.

(2) الكعاك عثمان، البربر.نشر مؤسسة تامغناست، تونس،1375 هـ، ص12 .

الآخر مكتوب بالعربية وبالخط الكوفي، وفي بحر الكاراييب أين ما يزال يعيش الهنود الحمر إلى غاية اليوم توجد قبائل مازالت تكتب بحروف مالنكية وهي لغة أهل مالي.[1] وخلال اكتشاف كريستوف كولومبس للقارة الأمريكية أخبره واحد من الهنود الحمر بأنه قد سبقه بمدة طويلة قوم ذووا بشرة سمراء قدموا من البحر، لكن كريستوف كولومبس تجاهل الأمر ولم يعره اهتماما كبيرا، إلا أنه وجدت في يومياته الخاصة باليوم الثالث بأنه وجد بالقارة الجديدة معدن يتمثل في خليط من الذهب والنحاس والفضة، وهو معدن كان التجار السودان يصدرونه إلى إسبانيا.[2] كما وجد هذا الرحالة الجنوي بالقارة الجديدة آثارا وخاصة تماثيل مماثلة لتلك التي كان يصتعها المندي،[3] و في عام 1966م، وخلال المهرجان العالمي للفنون السودانية في دكار بمساهمة ليوبولد سيدار سنغور(Leopold Sedar Senghor)[4]عرضت بصفة علمية ورسمية تماثيل مصنوعة بالطين المشوي(الفخار) تعود إلى فترة ما قبل الكولومبية (Précolombienne)[5] والتي تمثل كل الأصناف الفنية السودانية المعروفة في إفريقيا.[6] وهناك عدة كتابات غربية وأمريكية تقر هذه الحقيقة وتؤكدها مثلما جاء في كتاب ايمانويل ايريسكو إبيرا (Emanuel Erisko ebira)بعنوان التاريخ القديم لاحتلال المكسيك (Historia antigua de la conquesta de mexico) بأن أمريكا الوسطى كانت عموما و البرازيل خصوصا كانت عبارة عن مستعمرات

---

(1) علي محمد الغامدي، مالي و القارة الأمريكية. مقال نشر في الموقع الالكتروني: www.wekipedia_mali :org نشر يوم: 10 ــ09 ــ2007

(2) Tidiane N'diaye, Op.Cit, p49.

(3) Milet(Eric) et Manaud(Jean-Luc) ,Mali.Editions Olizane, Genève, 2007, p34.

(4) هو شاعر ،كاتب ورجل سياسي سنغالي، ولد يوم 09 أكتوبر 1906 م . كان أول رئيس سنغالي (بين 1960وــ1980م)، كما كان أول إفريقي جلس بالاكادمية الفرنسية، وكان أيضا وزيرا في فرنسا قبل استقلال بلاده، خلال الثلاثينيات من القرن العشرين ارتبط بعدد من المثقفين الأفارقة بالخارج وانشؤوا جريدة الطالب الأسود والتي خلالها جاء بمصطلح نغريتود(Négretude) أو السودائية التي يشرحها بما يلي (السودائية هي بكل بساطة أن تعترف بأنك أسود، و تقبل مصيرك كأسود، و بتاريخك و ثقافتك).

(5) إن الحضارة ما قبل الكولمبية أو ما قبل الاسبانية (Préhispanique) يقصد بها الفترة التي ساد فيها السكان الأصليون في أمريكا اللاتينية قبل اكتشافها من طرف كريستوف كولومبوس.

(6) Tidiane N'diaye ,Op.Cit, p49.

لشعوب سوداء جاؤوا من إفريقيا.و هناك كاتب أمريكي يدعى ليون فرنيل، كان أستاذا بجامعة هارفارد الف كتابا سنة 1920م بعنوان إفريقيا واكتشاف أمريكا (Africa and the discovery of america) ذكر فيه بأن كريستوف كولومبس أشار إلى وجود هناك منديين في شمال ووسط القار الأمريكية حيث تزاوجوا مع قبيلتين من قبائل الهنود الحمر.[1] ويذكر الأستاذ إيفان فان سرتيما (Ivan van Sertima)[2] مؤلف كتاب بعنوان: جاؤوا قبل كولومبس(They came befor Colombus) الذي يتكلم فيه عن أمريكا ما قبل الكولومبية، بأنه لا يريد أنيثبت بأن الأفارقة هم من اكتشفوا القارة الأمريكية، لكن كانت لهم اتصالات معها قبل الجميع، وهؤلاء الأفارقة يعتقد بأنهم مصريو بلاد النوبة. وحسب فان سرتيما دائما فإن هذه الهجرة الإفريقية كان لها دور كبير في صنع تلك التماثيل السوداء، ويضيف بأن الشعوب ذات الأصول الإفريقية في المكسيك، فنزويلا، البيرو،كولومبيا، والهندوراس، فقد بقوا يحتفظون بالشعور بأن أغلبية سود أمريكا من غير الميلانيزيين (Mélanisiens)[3] كانوا موجودين في القارة الأمريكية قبل الأوربيين.[4]

وعموما فإن قضية اكتشاف للقارة الأمريكية من طرف أحد أفراد عائلة كيتا المالية، لم يعد من المواضيع الهزلية والمضحكة كما يريد بعض المؤرخين الغربيين أن يصوروه لنا في محاولة منهم لإخفاء الحقائق التاريخية التي تزعجهم، لأن هذه الحقائق كفيلة بجعل التاريخ الأمريكي كله يرتبط بالشعوب السوداء حسب ما يذهب إليه الانتروبولوجي السنغالي تيديان ندياي (Tidiane N'diaye)[5] فلقد كتب الأستاذ النرويجي بورن روا ربي

---

(1) علي محمد الغامدي، المرجع السابق.

(2) هو أحد الكتاب الأمريكيين وأحد قادة ما يعرف بباراسونتريزم (Paracentrisme)، وهي حملة تبحث عن صيغة لإعطاء الثقافة والشخصية الإفريقية دور في التاريخ العالمي، ويعتقد أصحابها بأن الغرب يقللون من أهمية الحضارات الإفريقية، لذلك أخذوا على عاتقهم مهمة الدفاع عنها.

(3) الميلانيزيين les Mélanisiens : هم شعب استقر في كاليدونيا الجديدة منذ حوالي أربعة آلاف سنة على الأقل، ويعتقد أنهم قدموا من منطقة بورنيو بالفلبين، وقد انتشروا أيضا في جزر المحيط الهادي .

(4) Pathé Diagne,Tarana ou L'Amérique précolombienne : Un continent Africain. Editions l'harmattan, Paris, 2010, p226.

(5) Op cit. p49

(Bjorn roar bye) مقالا بعنوان (أبو بكر الثاني اكتشف أمريكا قبل كريستوف كولومب) جاء فيه بأنه في سنة 1982م ذهب في حملتين إلى جزر مالديف مع المستكشف تور هيرداهيل (Thor Hayerdahl) وعند عودته إلى أوربا سأل هذا المستكشف هل سبق له وأن سمع .بملك أسود يدعى أبا بكر الثاني فأجابه بالإيجاب، وهو ما شجعه على البحث أكثر عن هذا الرجل، فبحث في الانترنت، واتصل بالمؤرخين والأثريين والجغرافيين وغيرهم، وتبادل معهم الكتب والمعلومات، فتعجبت من ذلك الكم الهائل من الأبحاث التي قاموا بها لعدة سنوات حول هذا الموضوع ودون أن يخفوا عنه الحقائق، فاستنتج في الأخير بأن هناك من يريد تعمد إخفاء جزء من التاريخ لغاية لا يعلمها إلا الله.(1)

(1) Bjorrn Roar bye , Aboubakary 2roi du Manding découvert l'Amérique avant Christoph colombe. In : *Afrique passion*, éditions GAP, ville franche de Rouergue, 2002, N°3.

الخاتمة

من خلال هذه الدراسة يمكن أن نستنتج بأن عملية نشر الإسلام كنظام سياسي ومشروع دولة ومجتمع في آن واحد إلى بلاد السودان الغربي لم يكن أبدا على أيدي الفاتحين العرب رغم أنهم أبلوا البلاء الحسن في إيصال رسالة التوحيد إلى أبعد نقطة من تخوم السودان، و لم يكن أيضا من نتاج عمل التجار والفقهاء المسلمين رغم أن الفضل الكبير يعود إليهم في تحبيب الإسلام لطبقة الحكام والقبائل الحاكمة في السودان الغربي، ومن ثم الاقتناع به كديانة بديلة عن المعتقدات الوثنية، واعتناقه والتسليم بمبادئه وإتباع تعاليمه. فلقد كانت عائلة كيتا المندية من العائلات التي لعبت دورا كبيرا في تبني الإسلام كمشروع دولة ونظام حياة، إذ قامت هذه العائلة بمجهودات لم تسبقها إليها أي أسرة من الأسر الملكة في السودان الغربي في جعل مملكتهم أول نموذج للمملكة السودانية الإسلامية في منطقة جنوب الصحراء، وبالتالي قامت بإعطاء الإسلام والحضارة الإسلامية معا بعدا إفريقيا، كما أضافت لهما منتوجا حضاريا مميزا في خصائصه البشرية والجغرافية، أو حتى اللغوية، الثقافية، العلمية والاقتصادية.

فعائلة كيتا إذن كانت نموذجا لعائلات العصور الوسطى التي قامت على سواعدها ليس إمبراطورية مترامية الأطراف فقط، وإنما حضارة بأتم معنى الكلمة شملت كل ميادين الحياة، وبفضلها تحررت شعوب السودان الغربي من العبودية والقهر والوثنية، وبفضلها أصبح لمملكة مالي مكانة في العالم الوسيط وهيبة في إفريقيا جنوب الصحراء كلها. وقد تركت هذه الأسرة الطريق معبدا لعائلات إفريقية مسلمة انتشرت فيما بعد على ضفاف النيجر و السنغال العلويين، مثل عائلة الأسقيين في سنغاي وعائلة ندياي في السنغال وعائلة واتارا في كونغ، و غيرها، لتكمل ما بدأته أسرة كيتا.

ولقد توصلت من خلال هذا البحث إلى عدد من النتائج و تأتي في مقدمتها أن أول من أسلم من ملوك السودان الغربي هو من عائلة كيتا، وهو أول رجل عرف من عائلة كيتا، وتوصلنا الى أن

هذا الرجل الذي كان يلقب بسيمبو أو زعيم الصيادين هو الذي يذكره ابن خلدون باسم برمندانة وذكره البكري باسم المسلماني، وتذكره الروايات الشفوية المحلية التي حفظتها عائلة كوياتي باسم مامادو كاني (محمد كاني)، وبذلك أزلنا الكثير من اللبس والغموض الذان كانا يحيطان بشخصية هذا الررجل الذي يعد الجد الأول لعائلة كيتا، والذي تضاربت حوله الاراء بين الروايات الشفوية و المصادر العربية المكتوبة. فلقد أسلم هذا الملك قبل ملك التكرور وارديابي، وبذلك تكون هذه العائلة هي أول من احتضن الإسلام وجعلته عقيدة ونظاما لدولتهم، أي أن هذه العائلة اتخذت من الإسلام مشروع حياة فانعكس هذا الدين على كل حياتهم اليومية حتى أصبحت مدن مالية كنياني أو تنبكتو أو جني لا تختلف فيها الحياة ولا النظام العام عن بغداد أو القاهرة أو القيروان، وأن ما سجله بعض المؤرخين من بقاء بعض السلوكيات والعادات الوثنية في أرض مالي لا يعدو إلا استثناءات ناجمة بعضها عن نقص في المعرفة الدينية، أو تسامحا من ملوك مالي مع بعض الطوائف الوثنية التي كانت تحظى باحترام وتقدير من طرف المندي.

كما اكتشفت من خلال هذه الدراسة إلى أن عائلة كيتا كانت هي المؤسس الحقيقي لمملكة مالي منذ أن كانت هذه الأخيرة مجرد إمارة صغيرة في إقليم دو قبل أن تتحد مع إمارة كيري المجاورة لها في بلاد مندي، وأن تطورها إلى إمبراطورة بعد ذلك كان بفضل مجهودات أبناء هذه العائلة ذات الأصول الإفريقية المندية والمنحدرة من واغادو القديم رغم إدعائهم الانتساب إلى الحبشة عن طريق الصحابي الجليل بلال بن رباح، والذي بيّنا من خلال البحث بأنه ادعاء خاطئ، وهو من اختراع الرواة الشفويين.

وعموما فإن دراسة عائلة كيتا قد كشفت النقاب عن موضوع غاية في الأهمية ألا وهو أن النظام السياسي القائم على الزعامات العشائرية في إفريقيا جنوب الصحراء بالرغم من أنه نظام قبلي متسلط و قائم على ولاء الأفراد للعشيرة والقبيلة إلا أنه سمح لظهور قيادات كان لها بعد سياسي واستراتيجي مكنها من إقامة توازنات بين العائلات والعشائر السودانية ذات اللغات

واللهجات المختلفة والمعتقدات المتباينة والعادات المتباعدة، فكونت منها أسس لدولة وطنية ذات حدود معلومة ودستور متفق عليه و مؤسسات تنظم أمورها، حتى أصبحت إمبراطورية سوندياتا كيتا حفيده منسا موسى تمتد على ألاف الكيلومترات المترامية وسط أدغال إفريقيا وسهولها وأحراشها وصحرائها كلها تؤدي الطاعة لنفس الحاكم وتدافع عن نفس الدولة، وترفع نفس الراية. وهو ما يبين بأن تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء صنعته وحددت معالمه مجهودات هذه العائلات التي كان لها الفضل الأول في رسم معالم الدول الوطنية في إفريقيا السوداء على خلاف ما يدعيه الأوربيين من أنهم هم من صنع خارطة إفريقيا الحديثة. فلقد بيّنّا في هذا البحث كيف أسس ملوك مالي المنحدرين من عائلة كيتا لدولة شبيهة بالدول الوطنية الحديثة بإطارها الجغرافي المحدد، وتنظيمها السياسي المحكم ومؤسساتها الإدارية، وقضائها المتطور، ونظامها الضريبي الصارم، ودبلوماسيتها النشيطة، بالإضافة إلى مجلسها التأسيسي الذي انعقد في قرية كوروكان فوكا وانبثق عنه دستورا أقل ما يقال عنه أنه يصور درجة الوعي السياسي والتنظيمي و التشريعي الذي تميز به آل كيتا على كثير من أمم العالم آنذاك. هذا وقد تبين لنا من الدراسة بأن عائلة كيتا لم تكتف في علاقاتها وتواصلها بالبعد الإفريقي، و لم تبق منكمشة على بيئتها الجنوب صحراوية وإنما ربطت علاقات دبلوماسية واقتصادية وثقافية مع معظم بقاع العالم الوسيط، فقد تفاعلت مع العالم العربي الإسلامي الذي أصبحت تشعر بأنها جزء منه، فجلبت اهتمام العالم الأوربي الذي كان قبل ذلك يجهل كل شيء عن عالم جنوب الصحراء، وأكثر من ذلك فلقد حاول أحد أبناء العائلة من الملوك وهو أبو بكاري الثاني معرفة العالم الذي يختفي وراء المحيط الأطلسي أو بحر الظلمات كما كان يسمى.

وبالرغم من تراجع دور هذه الأسرة مع أواخر القرن التاسع للهجرة وتفكك مملكة مالي قبل انهيارها تماما خلال القرن الثاني عشر للهجرة/19م وإبعاد الفرنسيين لآخر ملك من نسل كيتا، فإن التاريخ ما يزال يحتفظ لهذه الأسرة بالفضل في إقامة أول إمبراطورية إسلامية في غرب إفريقيا،

ومهدت لقيام دولة وطنية وهي جمهورية مالي الحديثة وإن كانت تختلف في إطارها الجغرافي مع إمبراطورية آل كيتا.

إن دراسة تاريخ الأسر والعشائر السودانية يبقى عملا محفوفا بالمخاطر وذلك نظرا للتباين الموجود بين الروايات الشفوية المحلية التي لا يمكن تجاوزها في هذا النوع من الدراسات بسبب التفاصيل التي تحملها و تميزها عن غيرها من المصادر المكتوبة، لكننا اكتشفنا أن جزء كبير من ذلك التباين يمكن تجاوزه عن طريق الإلمام بالمصادر العربية المكتوبة التي عاصرت تلك العائلات، ومقارنتها بالروايات الشفوية وكذا الرحلات والمذكرات التي أعدها بض الدوائر الحكومية للدول المستعمرة للبلدان السودان الغربي، وهو ما يمكن أن يؤدي إلى إعادة كتابة تاريخ هذه الأسر بطريقة جديدة ومحايدة من طرف الباحثين في هذا المجال وهو ما حاولت القيام به في هذه الدراسات رغم النقائص التي يمكن أن تكون قد طالتها.

وعموما فإن هذا البحث يبقى مجرد محاولة بسيطة ومجهود متواضع لمحاولة إعادة الاعتبار لتاريخ الأسر الإفريقية، وتسليط الضوء على إحدى الجوانب التي مازال تفتقر إلى الدراسات الأكاديمية الجادة من تاريخ الشعوب الإسلامية، كما إنني اعترف بقصور جهدي في تغطية جميع جوانب الموضوع، لكنني اعتبر عملي هذا فاتحة لدراسات أخرى في هذا المجال، ووفق الله الجميع لما هو خير لأمتنا الإسلامية،تاريخها، حاضرها ومستقبلها.

قائمة المصادر و المراجع

أولا:المصادر العربية:

1. ابن الأثير(المتوفي سنة630هـ):الكامل في التاريخ.راجعه و حققه:محمد يوسف الدقاق.دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،1407هـ/1987م.

2.ابن أبي زرع (أبو الحسن علي بن عبد الله الفاسي)المتوفى سنة726هـ:الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب و تاريخ مدينة فاس. طبع و تصحيح و تحقيق:كارل يوحنا نورنبورغ. طبع في دار الطباعة المدرسية ــ أوبسالة ــ 1823م.

4.ابن بطوطة(أبو عبد الله محمد بن إبراهيم المتوفى سنة779هـ):تحفة النظار و غرائب الأمصار وعجائبالأسفار.(المعروف بالرحلة).دار صادر،بيروت ،لبنان،1992م.

5 . ابن حجر العسقلاني (المتوفى سنة852للهجرة): الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة. الجزء الأول، دار الجيل،بيروت،لبنان، 1414هـ/1993م.

6.ابن حوقل (أبو القاسم النصيبي)عاد من أسفاره سنة362هـ**:**صورة الأرض.دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، دون تاريخ.

7.ابن خرذادبة(207-300هـ):المالك و الممالك، مطبعة بريل،1889.

8. ابن الخطيب(لسان الدين): أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام.الجزء الثالث الخاص بتاريخ المغرب العربي. تحقيق: احمد العبادي و محمد الكتاني.دار الكتاب، الدار البيضاء، 1964م .

9.ابن خلدون (عبد الرحمان) عاش بين 732 ــ 808هـ:

ــ كتاب العبر. مراجعة سهيل زكار، دار الفكر للطباعة و التوزيع و النشر، بيروت، لبنان، 1421هـ /2000م.

ــ المقدمة:دار الكتاب اللبناني، بيروت، طبعة أولى، 1983م.

ــ ــ المقدمة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان،1413 هــ/1992م.

10.ابن خلكان(ابو العباس شمسالدين احمد بن محمد)توفي عام 681هــ: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. تحقيق:إحسان عباس، دار صادر، بيروت،دون تاريخ.

11.ابن سعيد (أبو الحسن علي بن موسى المغربي): كتاب الجغرافيا. تحقيق و تعليق:إسماعيل العربي، الطبعة الثانية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982م.

12. ابن الصغير:أخبار الأئمة الرستميين. تحقيق و تعليق:محمد ناصر و إبراهيم بحاز، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان،1986م.

13.ابن عبد الحكم: فتوح إفريقيا و الأندلس.دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1964م.

14.ابن عذارى(أبو عبد الله المراكشي):

ــ البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب.مكتبة صادر، بيروت 1950 م.

ــ البيان المغرب. تحقيق: محمد إبراهيم الكتاني،محمد زنيبر، محمد بن تاويت، عبد القادر زمامة.دار الغرب الإسلامي، بيروت،1406هــ/1985م، الجزء الرابع (قسم الموحدين).

15. ابن فرحون: علماء المذهب الديباج المذهب في معرفة أعيان .تم نسخه من موقع الوراق في يوم الإثنين 21 /4 / 1426 للهجرة من قبل مكتبة مشكاة الإسلامية

16 ابن الفقيه (أبو بكر الهمذاني): مختصر كتاب البلدان.مطبعة ليدن،1302هــ.

17. ابن كثير(عماد الدين أبي الفدا):البداية و النهاية.مراجعة و تعليق، تامر محمد ، محمد شريف،عبد العظيم محمد،محمد سعيد محمد.دار البيان العربي ، الأزهر، مصر، 2006م، المجلد السابع.

18 . ابن مريم(أبو عبد الله محمد بن محمد):البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان.ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر،1986م.

19.ابن الوردي(سراج الدين عمر):خريدة العجائب و فريدة الغرائب.مطبعة مصطفى البائي الحلبي وأولاده،مصر،1341هــ/1922م.

20.أبو الفدا (عماد إسماعيل)المتوفى سنة 732هـــ:تقويم البلدان.تحقيق: رينود و دوسلان، طبعة باريس، 1950م.
21. أبو زكريا(يحي بن أبي بكر):كتاب سيثر الأئمة و أخبارهم. تحقفيق :إسماعيل العربي، الطبعة الثالثة، الجزائر، 1984 م.
22. أحمد بابا التنبكتي:نيل الابتهاج في تطريز الدباج، إشراف و تقديم: عبد الحميد عبد الله الهرامة، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس،1989م.
23.الإدريسي (أبو عبد الله الشريف) توفي سنة: القارة الإفريقية و جزيرة الأندلس ، مقتبس من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق.تحقيق و تقديم و تعليق:إسماعيل العربي ،ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،الطبعة الأولى،سنة 1983.
24. الاصطخري (أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفاسي) توفي سنة:المسالك و الممالك. تحقيق: محمد جابر عبد العال الحيني. دار القلم،الجمهورية العربية المتحدة،1961.
25. البرتلي الولاتي (أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الصديق): فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور. تحقيق: محمد إبراهيم الكتاني و محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت،طبعة أولى 1981م.
26.البكري(أبو عبيد الله بن عبد العزيز):المغرب في ذكر بلاد افريقية و المغرب، مقتبس من كتاب المسالك و الممالك. مكتبة أمريكا و الشرق ميزونوف، باريس، 1965م.
27.البلاذري(أحمد بن يحي بن جابر):فتوح البلدان و أحكامها.الطبعة الاولى، دار الفكر، بيروت،1992م.
28.التلمساني(محمد بن مرزوق): المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن. دراسة وتحقيق: دماريا خيسوس بغيرا. تقديم: محمد بوعياد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1401هـــ/1981م.

29.الحموي(ابو عبد الله شهاب الدين ياقوت): معجم البلدان.تصحيح و تحقيق:محمد الأمين الخانجي،الطبعة الاولى، مطبعة السعادة1323هـــ/1906م، الاجزاء من 1 إلى 6.
30.الحميري(محمد بن عبد المنعم):الروض المعطار في خبر الأقطار. تحقيق: إحسان عباس،نشر

مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت،الطبعة الثانية،1980م.

31. **الدرجيني(أبو العباس احمد بن سعيد):**طبقات المشائخ بالمغرب.تحقيق وطبع:إبراهيم طلاي، مطبعة البعث الجزائر، دون تاريخ. الجزء الثاني.

32.**الدمشقي(شمس الدين أبي عبد الله محمد الأنصاري):**نخبة الدهر في عجائب البر والبحر.نشر M.A.F.Mehren, Leipzig1928

33.**الزركلي(خيرالدين):**ترتيب الأعلا على الأعوام (كتاب الأعلام) مجلدان.دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة،1980م.

34. **الزهري (أبو بكر)** توفي في أواسط القرن السادس للهجرة: كتاب الجغرافية، حققه: محمد حاج صادق، كتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، مصر، دون تاريخ.

35.**السعدي(عبد الرحمان):**تاريخ السودان.طبعة هوداس، باريس،1964.

36.**السلاوي(أبو العباس الناصري):**الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى.ثلاثة أجزاء)، تحقيق وتعليق:جعفر و محمد الناصري،مطبعة دار الكتاب، الدار البيضاء، 1954م.

37.**العمري(ابن فضل الله شهاب الدين)** المتوفى سنة 749هـ: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار . تحقيق: عزة احمد عباس،الطبعة الأولى، أبو ظبي ، المجمع الثقافي،2002م، السفر الرابع.

38.**الغرناطي(أبو حامد الأندلسي):** تحفة الألباب ونخبة الإعجاب. تحقيق:إسماعيل العربي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989م.

39. **القزويني(زكريا بن محمد):**آثار البلاد و أخبار العباد. دار صادر، بيروت، دون تاريخ.

40.**القلقشندي(أبو العباس أحمد):**صبح الأعشى في صناعة الانشا، الجزء الخامس، المطبعة الأميرية بالقاهرة، 1333هـ/ 1915م.

41.**القيرواني(محمد بن أبي القاسم) المعروف بابن أبي دينار:**كتاب المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس.مطبعة الدولة التونسية، تونس، 1286 هـ/1869م.

42.**كعت(محمود):**تاريخ الفتاش في أخبار البلدان و الجيوش و أكابر الناس.طبعة هوداس وموريس دولافوس، المكتبة الأمريكية و الشرقية،باريس،1964م.

43. الصنهاجي (أبو عبيد الله محمد): أخبار ملوك بني عبيد و سيرهم. تحقيق: جلول أحمد البدوي. المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.

44. ليون الإفريقي (حسن بن محمد الوزان):وصف إفريقيا.ترجمة محمد حجي و محمد الأخضر، طبعة ثانية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان،1983م.

45.مجهول:الاستبصار في عجائب الامصار.تحقيق: سعد زغلول عبد الحميد،مطبعة جامعة الاسكندرية،القاهرة،1958م.

46. مجهول:الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية.تصحيح :البشير الغورتي، مكتبة التقدم الإسلامية، تونس، دون تاريخ.

47. مجهول:مفاخر البربر.طبعة ليفي بروفنسال، الرباط،1934م.

48.المقدسي(أبو عبد الله محمد بن احمد):أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم.الطبعة الثانية، مطبعة بريل، ليدن، 1906م.

49.المقري(احمد بن محمد التلمساني): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب.تحقيق و تعليق: محمد محي الدين عبد الحميد.دار الكتاب العربي، بيروت، دون تاريخ.

50. المقريزي(تقي الدين احمد بن علي):

ــ الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء و الملوك.تحقيق:جمال الدين الشيال، الطبعة الأولى، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، مصر، 1420هـ/2000م.

ــ كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك.تحقيق و تقديم:سعيد عبد الفتاح عاشور، مطبعة دار الكتب، القاهرة، 1971م، ج2.

ــ المواعظ و الاعتبار بذكر الخطط و الآثار، المعروف بالخطط المقريزية. الجزء الثالث، تحقيق:محمد زينهم و مديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي،مطابع دار الأمين، القاهرة، 1998م.

51.المسعودي(أبو الحسن علي) متوفى سنة 346 هجرية:

ــ أخبار الزمان زو من أباده الحدثان و عجائب البلدان و الغامر بالماء و العمران. دار الأندلس للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، لبنان، 1316هـ/1996م.

ــ ــ ـــ مروج الذهب و معادن الجوهر.جزءان، مراجعة:كمال حسن مرعي، المكتبة

العصرية، صيدا ـــ بيروت، لبنان، 1425هـــ/2005م.

52.النويري(شهاب الدين): نهاية الأرب في فنون الأدب.السفر الأول، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1342هـــ/1923م.

53.اليعقوبي(أحمد بن أبي يعقوب)المتوفى عام 284هـ:

ـــ تاريخ البلدان.دار الفكر، بيروت،1956م.

ـــ تاريخ اليعقوبي. دار صادر، بيروت،1960م، المجلد الأول.

ثانيا:المراجع باللغة العربية:

1. أحمد الشكري: الإسلام والمجتمع السوداني ـــ إمبراطورية مالي 1230ـــ1430م. المجمع الثقافي، أبو ضبي، الإمارات العربية المتحدة، 1999 م /1420هـــ.

2 .باري (محمد فاضل) وكريدية (سعيد إبراهيم): المسلمون في غرب إفريقيا ، تاريخ وحضارة. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2007م، طبعة أولى، ص24.

3.بن قربة(صالح): المئذنة المغربية الأندلسية في العصور الوسطى. المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م.

4.بوزياني الدراجي: دول الخوارج و العلويين في بلاد المغرب و الأندلس، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2007

5.بوعزيز (يحي):تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية. دار هومة، الجزائر، 2001م.

6 .الجليلي (محمود): المكاييل و الاوزان و النقود العربية. دار الغرب الاسلامي، بيروت، طبعة اولى، 2005م.

7.جودت عبد الكريم يوسف:العلاقات الخارجية للدولة الرستمية. المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.

8.حسن (إبراهيم حسن): انتشار الإسلام في القارة الإفريقية.مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، طبعة ثانية، 1963م.

ـــ تاريخ الإسلام السياسي و الديني و الثقافي و الاجتماعي، الجزء الرابع،العصر العباسي الثاني، دار الجيل، ببيروت و دار النهضة المصرية بالقاهرة، الطبعة الرابعة عشر، 1412هـــ/1992م.

9.حسن احمد محمود :

ــــ الإسلام والثقافة العربية في إفريقيا. القاهرة،1958م.

ــــ قيام دولة المرابطين،صفحة مشرقة من تاريخ المغربفي العصور الوسطى. دار الفكر العربي، القاهرة، دون تاريخ.

10.حركات (ابراهيم):المغرب عبر التاريخ، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء،1984م، الطبعة الثانية،الجزء الثاني.

11. حمدي(عبد المنعم محمود حسين): التاريخ السياسي والحضاري للمغرب والأندلس في عصر المرابطين. دار المعرفة الجامعية، قنال السويس، مصر ، 1997م.

12.الخليل النحوي: بلاد شنقيط المنارة و الرباط.عرض للحياة العلمية و الإشعاع الثقافي و الجهاد الديني من خلال الجامعات البدوية المتنقلة(المحاضر).تونس، 1987م.

13. الدالي(الهادي مبروك):التاريخ سياسي و الاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء.من نهاية القرن15الى القرن18م. الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، طبعة أولى، 1999م.

14.دندش(عصمت عبد اللطيف):دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا(430و 515هــ) /1038 و 1121م، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان،1408م/1988م.

15.ذهني(إلهام محمد علي): جهاد الممالك الاسلامية في غرب افريقيا. دار المريخ للنشر،1988

16.زبادية(عبد القادر):

ــــ الحضارة العربية و التأثير الأوربي في إفريقيا الغربي جنوب الصحراء.(دراسات و نصوص). المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989م.

ــــ مملكة سنغاي في عهد الاسقيين.الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1971م.

ــــ دراسة عن إفريقيا جنوب الصحراء في مآثر و مؤلفات العرب المسلمين.

ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2010م.

17.سعد زغلول(عبد الحميد):تاريخ المغرب العربي . (الجزء الرابع الخاص بالمرابطين).دار منشأة المعارف، الإسكندرية، مصر، 2007م.

18.س أحمد الناصري: دور مصر التاريخي بين شبه الجزيرة العربية و افريقيا في عصور ما قبل الاسلام.دار النهضة العربية ، القاهرة،1990م.

19.**السيد عبد العزيز سالم:** تاريخ المغرب في العصر الاسلامي . مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، مصر، دون تاريخ.

20.**السيد(محمد خضر):** حياة ابن خلدون و مثل من فلسفته الاجتماعية. محاضرة ألقيت في الحفلة التي أقامتها جمعية تعاون جاليات إفريقيا الشمالية بالقاهرة، يوم5 صفر 1343هجرية، طبعت بالمطبعة السلفية ومكتبالها، القاهرة، 1343هـ.

21.**سيلا (عبد القادر):** المسلمون في السنغال. مطابع الدوحة الحديثة، قطر، 1406هـ ، طبعة أولى.

22**شوقي عبد القوي عثمان حبيب:**التجارة بين مصر و إفريقيا في عصر سلاطين المماليك بين 1250 و 1517م /648 و 922هـ. المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، 2000م.

23.**شوقي عطاء الله الجمل:**الأزهر و دوره السياسي و الحضاري في إفريقيا. الهيئة المصرية العامة للكتب، مصر، 1988م.

24.**صبري(صلاح):** إفريقيا وراء الصحراء.مكتبة النهضة المصرية،القاهرة،1960م.

25.**طرخان (إبراهيم علي):**دولة مالي الإسلامية.دراسات في التاريخ القومي الإفريقي. الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة 1973.

26.**(عبد الله ابراهيم):** عالم القرون الوسطى في أعين المسلمين.المؤسسة العربية للدراسات والنشر،بيروت،2007م.

27. **العربي(إسماعيل):** الصحراء الكبرى و شواطئها ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.

28.**عطية مخزوم الفيتوري:**دراسات في تاريخ شرق إفريقيا، و جنوب الصحراء.منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، ليبيا، الطبعة الأولى،1998م.

29.**عمر موسي(عز الدين):**

ـــ النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس للهجرة. دار الشروق، بيروت، الطبعة الأولى، 1983م.

ـــ دراسات إسلامية غرب افريقية: دار الغرب الإسلامي، بيروت ، لبنان، الطبعة الثانية، 1424 هـ /2002م.

30.**الفلاتي(الطيب عبد الرحيم محمد):**الفلاتة في إفريقيا و مساهمتهم الإسلامية و التنموية . دار الكتاب الحديث، الكويت، طبعة أولى، 1415هـ /1994م.

31. **قاسم (جمال زكريا):** الاصول التاريخية للعلاقات العربية الافريقية.دار الفكر العربي،مدينة نصر، مصر 1998م.

32. **قداح(نعيم):**

ـ حضارة الإسلام وحضارة أوربا في إفريقيا الغربية. الشركة الوطنية للطباعة والنشر، الجزائر، طبعة ثانية، 1975م.

ـ إفريقيا الغربية في ظل الإسلام.مكتبة الأطلس، بيروت، د ت.

33.**الكعاك (عثمان):**البربر. نشر مؤسسة تامنغاست ،تونس،1375هـ.

34.**محمد حسن(نبيلة):**في تاريخ الحضارة الإسلامية. دار المعرفة الجامعية،مصر،د ت.

ثالثا:المصادر والمراجع المعربة:

1. **بانيكار (ك.مادهو):** الوثنية و الإسلام ـ تاريخ الإمبراطوريات الزنجية في غرب إفريقيا ـ ترجمة:أحمد فؤاد بلبع، المجلس الأعلى للثقافة ،1998، طبعة2 .

2. **جوان جوزيف:** الإسلام في ممالك و إمبراطوريات إفريقيا السوداء. ترجمة: مختار السويفي، دار الكتاب المصري (القاهرة) و دار الكتاب اللبناني (بيروت)، الطبعة الأولى، 1404هـ/ 1984م .

3.**جون فيج:** تاريخ غرب إفريقيا.ترجمة و تعليق و تقديم:السيد يوسف نصر، دار المعارف،القاهرة، الطبعة الأولى، 1982م.

4.**دافدسون(باسيل):** إفريقيا القديمة تكتشف من جديد.ترجمة:نبيل بدر و سعد زغلول، مراجعة: محمود شوقي الكيال، الدار القومية للطباعة و النشر، مصر،دون تاريخ.

5.**دنيس(بلوم):**الحضارات الإفريقية.ترجمة:علي شاهين،منشورات مكتبة الحياة،بيروت،1974

6.**دونالد(ويدنر):**تاريخ إفريقيا جنوب الصحراء. ترجمة : راشد البداوي، مكتبة الوعي العربي، دار الجيل للطباعة، الفجالة، دون تاريخ .

7.رولاند اوليفر وجون فيج: تاريخ إفريقيا. ترجمة : عقيلة محمد رمضان،الدار القومية للطباعة والنشر، مصر، 1964م.

9.لومبار(موريس):الاسلام في مجده الاول.ترجمة و تعليق:اسماعيل العربي،طبعة اولى،الجزائر،1979م.

10.مارمول كرفجال: إفريقيا. ترجمة محمد حجي، محمد زنيبر، محمد الاخضر، احمد التوفيق و احمد ثلجون.مكتبة المعارف للنشر و التوزيع،الرباط،المغرب،1984م.

11.محمد الفاسي وايفان هربك: مراحل تطور الإسلام وانتشاره في إفريقيا .ضمن كتاب: تاريخ إفريقيا العام، الصادر عن منظمة اليونسكو، مطبعة حسيب درغام وأولاده، لبنان، الطبعة الثانية،1997م.

12.هوداس(س):أشهر الرحلات في غرب افريقيا.ترجمة عبد الرحمان عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،1996م.

13. نياني (جبريل تمسير): مالي والتوسع الثاني للماندينغ. ضمن كتاب: تاريخ إفريقيا العام، صادر عن منظمة اليونسكو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، 1988م، المجلد الرابع.

14.هيرودوت: تاريخ هيرودوت. ترجمة : عبد الإله الملاح، مراجعة :أحمد السقـــاف و حمد بن صراي، المجمع الثقافي أبوضبي، الإمارات العربية المتحدة، 1422هـــ/2001م.

ثالث:الرسائل الجامعية:

1.بشاري(لطيفة):التجارة الخارجية لتلمسان في عهد إمارة بني زيان. رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ، جامعة الجزائر، السنة الجامعية:1987/1986م.

2.بلغيث(محمد الأمين):الحياة الفكرية بالأندلس في عصر المرابطين. أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الاسلامي، تحت إشراف أ.د .عبد الحميد حاجيات، جامعة الجزائر،كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، قسم التاريخ، السنة الجامعية:1423ـــ1424هـــ/2002ـــ2003م.

3.**بن عميرة(محمد):**الموارد المائية وطرق استغلالها ببلاد المغرب، من الفتح إلى سقوط دولة الموحدين.أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي،تحت إشراف :أ.د. موسى لقبال، جامعة الجزائر،السنة الجامعية: 2004 /2005م.

4.**شعباني(نور الدين):**علاقات ممالك السودان الغربي بدول المغرب الإسلامي و آثارها الحضارية.رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط. جامعة الجزائر، السنة الجامعية:1426ـــ1427هــ/2005ـــ2006م،(غير مطبوع).

5.**مديازة (صورية):** بلاد الزاب من الفتح الإسلامي إلى غاية انتقال الفاطميين إلى مصر، 321ــ362هــ /642ــ672م. مذكرة لنيل شهادة ماجستير في التاريخ الإسلامي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة الحاج لخضر، باتنة، السنة الجامعية: 1430ــ1431هــ / 2009 ــ2010م.

رابعا: المراجع باللغات الأجنبية:

1. **Abel(Hovelacque) :** Les nègres de l'Afrique sous équatoriale (Sénégambie, Guinée, Soudan, Haut Nil…). Le crosnier et Babé librairies-editeurs, Paris, 1889.

2. **Alexandre magno de Castilho** : Etudes historico-géographiques. Première . étude sur les colonnes ou monuments des découvertes Portugaises en Afrique, Lisbonne, Imprimerie nationale, 1896.

3. **Al Hassane cherif:** L'importance de la parole chez les Mandingues De Guinée. Parole de vie, parole de mort et rituels funéraires. Editions l'Harmattan, Paris, 2005.

4. **Alphonse(Tierou)** : Paroles des masques : un regard Africain sur l'art Africain Editions Maisonneuve et larose, Paris, 2007.

5.**Al omari(Ibn fadl Allah)** : Masalik el absar fi mamalik el amsar. Traduit et annotée par :Gaudefroy de mombyness Paris,1927.

6 .**Alvise Ca da mosto :** Relation des voyages à la cote occidentale d'Afrique(1455-1457).publié par :M. Charles Schefer,Edité par :Ernest Leroux éditeur,1895.

7.Amadou (Bano Barry) : Les violences collectives en Afrique : Le cas Guinéen. Editions: L'harmattan, Paris, France, 2000 p63.

8. Amadou (Hampàté Bà) : Histoire du Sahel occidental Malien : Des origines à nos jours .Éditions ; Jamana, 1989,

9.Amadou Oury Diallo : Epopeé du Fouta –Diallon. Editions l'harmattan,Paris,2009**.**

10.Baba Kake et Elika M'bolo : Histoire générale de l'Afrique : L'ère des grands empires. Collection Dan Franck, Paris, Imprimé en Belgique, 1979.

11.Bathily(Abdoulaye) : Les portes de l'or, Le royaume de Galam. Edit L'harmattan, Paris, 1989.

12. Barth(Henri): Voyages et découvertes dans l'Afrique septentrionale et centrale pendant les années 1840 à1855. Traduit par : Paul Ethier. Lacroix van henen éditeurs, Bruxelles, 1861, Tome4.

13.Bernard Lugan ,God bless Africa ,Contre la mort programmé du continent noir.2ème édition, Editions Carnot, New York, USA, 2003

14. Boubacar(Diallo) et Séga (Yattara) : Histoire de l'Afrique .Faculté des arts langues et sociales. Université de Bamako, sans date.

15.Bovill (E W): The golden trade of the Moors.2nd edition, Oxford. University press, London, 1970.

16.Bwemba-Bong : Quand l'Africain était l'or noire de l'europe.Volume1, Editions Menaibuc, 2005.

17. Bulletin de l'institut Français d'Afrique noire et des sciences humaines .Editions : EFAN, Paris, 1959, volume21,

18. Camara(Sory) :

- Prlons Malinké. Editions l'harmattan, Paris, 1999.
- Gens de parole : Essai sur la condition et le rôle des griots dans la société Malinké. Editions : Karthala, Paris, 1992, p17

19. Capitaine Binger : Du Niger au golfe de Guinée. Le pays de Kong et Mossi (1887-1889).Editions Hachette, Paris,1890,volume1.

20. Catherine Coquery-Vidrovitch : La découverte de l'Afrique : L'Afrique noire Atlantique ; des origines au 18ème siècle. Editions l'harmattan, paris, 2003.

21.Chavane (A.Bruno) : Villages de l'ancien Tekrour. Edits Karthala, Paris, 1985.

22. Cheikh Mouhamadou Diop : Fondements et représentations identitaires chez Ahmadou Kourouma, Tahar ben djelloun et Abderahman Waberi. Editions l'harmattan, Paris, 2008.

23.**Centre for linguistic and historical studies by oral tradition (CELHTO) :** La charte de Kurukan fuga. Publié par : L'harmattan, Paris,2008. .

24. Christophe(Daum) : Les associations de Maliens en France. Edit Karthala, Paris, 1998.

25. Conrad (.David) et Djanka(Tassey condé): Sandjata :A west African epic of the Mande peoples.,Editiopns Hackett publishing campany Indiana polis, 2004.

26.Conrad(David.C) : Empire of Medival west Africa :Ghana , Mali,and Songhay.Infobase publishing,New York,2005.

27.Cornevin(Robert et Marianne) :Histoire de l'Afrique (des origines à La deuxième guerre mondiale.4ème édition, Petite Bibliothèque Payot, Paris, 1964.

28.Cornevin(Marianne) et Lecrant (Jean) : Secrets de continent noir Révélés par l'archéologie. Maisonneuve et larose, Paris, 1998.

29.Cuello(Gabriel) et Loic(Robin) : Les Malinké du Konkodugu. Editions l'harmattan, Paris,2005.**.Cuoq(Joseph)** : Histoire de l'islamisation de l'Afrique de l'ouest.(Des origines à la fin de du 15ème siècle). Librairie orientale Paul Geuthner, Paris, 1984

30. Cuoq (Joseph) : Histoire de l'islamisation de l'Afrique de l'ouest (Des origines à la fin du 16ème siècle). Librairie orientaliste Paul Geuthner, Paris, 1984**.**

31.David C.Conrad and Djanko (Tassey candé) : Sounjata A West epic of the Mande peoples. Editions Hackett Publishing company. Indianapolis, 2004.

32.Davidson(Bazil) :

-Les Africains, introduction à l'histoire d'une Culture. Traduit de l'Anglais par : Michel Janin. Editions : Le seuil, Paris, 1972.

- Les Africains avant les Blancs. Traduit par : Pierre Vidand, Paris, 1962.
- Les royaumes Africains. Traduit par : Serge ouvaroff, Paris1967.

33.Davies (Oliver): West Africa before the europeens.London, 1967.

34.Dybois(Felix) : Timbuctou the mysterious. Translated from the frensh by: Diana White.NewYork, 1996.

35. Delafosse(Maurice):

- Haut sénégal-Niger.Emile Larosz librairie Editeur, Paris, 1912.Trois tomes.

- Les noirs de l'Afrique. Editions Payot, Paris, 1941.

- Essai Manuel pratique de la langue Mandé ou Mandingue. Ernest Leroux éditeur, Paris ,1901 .

- Les civilisations Négro-africaine. Librairie Stock, Paris, 1925,

36.Delafosse (Maurice) et Mouralis (Bernard) : Les Nègres.Editions l'harmattan, Paris,2005.

37.Deshamps(Hubert):

- L'Afrique noire précoloniale. Presses Universitaires de France,Paris 1962.

-Les religions de l'Afrique noire. Presses universitaires de France,4ème édition, Paris,1970

38.Despois(Jean) et Raynal(René) : Géographie de l'Afrique du nord Ouest. Editions Payot, Paris, 1967.

39.Devey(Muriel) :

-La Guinée. Editions Karthala, Paris, 2009.

- La Mauritanie. Editions Karthalla, Paris, 2005.

40.Diakité(Drissa) : Kouyaté, La force des serments. Aux originesdu Griots Mandingue. Editions l'Harmattan, Paris, 2009.

41.Diawara(Gaoussou) : Aboubakari2, explorateur Manding. Edits L'harmattan, Paris, 2010.

42.Doumbia Fakoly: Fakoli;Prince du Mande : Récit historique. Editions L'harmattan, Paris, 2003

43.Dr Colomb : Les populations du haut Niger. Imprimerie Pitrat ainé Lyon,1885.

44.Edico et cloirssy : Histoire des peuples noirs. Abidjan, 1963

45.Elias(N.Saad) : Socialhistory of Timbuktu :The role of Muslim scholars and notable(1400-1900). Cambridge university press, London, 2010.

46.Fage(JD) :

- A history of west Africa. Cambridge university press, 1969.
- An introduction to the history of west Africa. Cambridge university press Edition, 1962. .

47. Fage(J.D) and Roland Anthony Oliver: The Cambridge history of Africa: From C.1050 to C1600. Cambridge University press, London, 198

48.Fakoly(Doumbia) : Fakoli, prince du Mande (Recit historique).Edits L'harmattan, Paris, 2003.

49.Froment(Alain) : Peuplement humain de la boucle du Niger. Edition de L'ors, 1988, tome1.

50.Gabriel(Cuello) et Loic(Robin) : Les Malinké du Konkodugu. Editions Karthala, Paris, 2005.

51.Gautier(E F) :L'Afrique noire et occidentale. Edition librairie Larousse, Paris, 1943.

52.Geofroy(Réné) :L'Afrique, ou histoire, mœurs, usages, coutumes des Africains du Sénégal. Publié par :Nepveu librairie,1814.

53.Gerti(Hesseling): Histoire du Sénégal. Karthala édition, Paris, 1985.

54.Girie(Christtian) : Parlons Soninké. Edits l'Harmattan,Paris,1995.

55.Giri(Jacques): Histoire économique du Sahel, Des empires à la Colonisation. Editions Karthala, Paris, sans date.

56. Gordon (Innes): Sundjata, three Mandinka versions. School of Oriental and African studies, London, 1974.

57 .Gouvernement général de l'Afrique occidentale Française : Le Soudan. Société d'éditions géographique maritime et coloniale, Paris, 1931.

58. Gravier(Gabriel) : Navigations européenne faite au moyen âge aux cotes occidentales d'Afrique. Imprimerie de E. Martinet, Paris, 1878, pp5, 6,7.

59.Houngnikpo(Marthurin.C) :L'Afrique au passé composé. Edits : L'harmattan, Paris, 2001.

60.Ibn hawqal:Configuraion de a terre(Surat el ard).Traduit par: J.M Kramess et G.Wiet.Edition Maisoneuve et Larousse, Paris, 1964.

61.Igue(John) : Le territoire et l'état en Afrique. Les dimensions Spatiales du développement. Editions Karthala, Paris, 1995.

62.Jansen(Jean) : Epopée, histoire, société. Le cas de Sundjata, Mali et Guinée. Editions Karthala, Paris, 1999.

63.Jonson (William Jean): Son-Jara. The Mande epic. Edition with Notes and commentary text by: Jeli Fa-Digi Sisoko. Editions Indiana university press, 2003.

64. John william (Johnson) : Thomas(A. Hale) and Stephen (Paterson) : Oral épics from Africa. Published by: Indiana university press, 1997.

65. William (Johnson) , Thomas A. Hale and fa diji (Sissoko) : The epic of son-Jara.A West African tradition. Indiana university press, 1992.

66. **Joseph Roger de Benoist:** Histoire de l'église catholique au Sénégal. Du milieu du 15ème siècle à l'aube du troisième millénaire. Edits Karthala, Paris, 2008.

67 . Karl (Ritter) : Géographie générale comparée, (ou étude de terre dans ses rapports avec la nature et avec l'histoire de l'homme). Traduit par : BuretPAQUES et Desor (Edward), édition : Paulin éditeur, Paris, 1935

68.Kati (Mahmoud): Tarikh el fettach. Traduit par: O.Hodas et MauriceDelafosse.Paris, 1913.

69 . **Keithéga(Jean-Baptiste) :** la métallurgie lourde du fer au Burkina Faso,une , technologie à l'époque précoloniale. Editions Karthala (, Paris, 2009)

70.Ki-Zerbo(Joseph)et Holmstein (René):

- A quand l'Afrique ? Editions de laube **,** 2003.

- Histoire de l'Afrique noire. Edition Hatier, Paris, 1972.

- Le monde Africain noir (Histoire et civilisation).C.E.D.A, Abidjan, 1963**.**

71.Kodjo(Niamkey Georges) : La royaume de Kong cote d'ivoire, des origines à la fin du 19ème siècle. Editions l'harmattan, Paris, 2006.

72.Koiuassi Germain : Le phénomène de l'appropriation linguistique et Esthétique en littérature Africaine de langue Française. Le cas des Ecrivains Ivoiriens :Dadie, Kourouma, et Adiaffi .Edits Publibook, Paris, 2007.

73. Kuyaté siriman : La charte de Kurukan fuga. Radio Rurale de Guinée, Atelier régionale de concertation entre traditionalistes

Mandingues et communicateurs des Radios rurales. (Kankan du 02 au 12 Mars 1998).

74.Labouret(Henri) : Histoire des noirs d'Afrique**.** Presses universit--aires de France, Paris, 1950.

75.Laden et Hugh Murray : Histoire complète des voyages et Découvertes en Afrique. Mac Arthur, Librairie, Paris, 1821.Trois Tomes.

76.Lady (Lugard), Flora (S. Lugar), Flora (Louisa Show): A tropical Dependency, Published by: Black classic press, 1997.

77. Le Chatelier.A : L'Islam dans l'Afrique occidentale. G.Steinheil- Editeur, Paris, 1899.

78.Le capitaine Binger : Du Nigerau Golf de Guinnée par le pays de Kong et Mossi. Librairie Hachette et Cles, Imprimerie la hure, Paris, 1892, Tome2.

79. L'épopée Bambara de Ségou, Recueillie et traduite par :Lyliane Kesteloot, avec la collaboration d'Amadou Traoré et Jean –Baptiste Traoré, édition orizons, Paris, 2010 ,

80.Levitzion (Nehimia): Muslims and chiefs in west Africa.Oxford University press, 1968.

81.Lewicki(Tadeusz):Arabic external sources for the history of Africa to the south of Sahara. Varsovie, 1974.

82.Lieutnant Louis Desplagnes : Le plateau central Nigérien. Edité Par :Emille Larose libraire-editeur, Paris,1907.

83. Lilyan (Kesteloot) et Bassirou(Dieng) : Les épopées d'Afrique noirs . Editions Karthala et Unesco, Paris, 2009

84.Lucien(Marc) : Le Pays Mossi. Thèse de doctorat d'université présentée à la faculté des lettres de l'université de Paris. Editions Emil Larose Libraire éditeur, Paris, 1909.

85. Mac Kissack(Patricia and Fredrick): The royal kingdoms of Ghana, Mali and Songhay(Life in medival Africa).Edits: Macmillan Publishers,1995.

86.Maiga(Aboubakr-Ismail) :

- La culture et l'enseignement islamique au Soudan occidental. (Sous les empires du Ghana, du Mali, et

-Sounghay).Traduit par : Mahibou sidi Mohamed et Diouldé laya, Paris, 2003.

87.Maiga (Mahamadou) : Le bassin du fleuve Sénégal, Publié par : L'harmattan, Paris, 1995.

88. Majhemout(Diop) :Histoire des classes sociales dans l'Afrique de l'ouest. Le Mali. Editions ; l'harmattan, Paris, 1985

89.Mamadi Aisa : Traditions et légendes du Soudan occidentale. Traduit de L'Arabe par Maurice Delafosse, Publié par :Comité de l'Afrique Française,
Paris, 1913.

90.Maquet(Jacques) : Les civilisations noires. Marabout univeresity, les presses de Gerard verviers, Belgique, 1966.

91.Mauny(Raymond):

- Les siècles obscurs de l'Afrique noire. Librairie Fayard, 1970.

- A propos des monuments historiques Sahariens. Alger, S. date.

- Recueil des sources Arabes concernant l'Afrique occidentale du 13ème au 16ème siècle. Traduit par : Joseph cuoq, Paris, 1975.

- Tableau géographique de l'ouest Africain au moyen âge. Edition Ifan, Dakar, 1961.

- The question of Ghana.Africa, 1954.

92.Meyer(Gerard): Recits épiques Toucouleurs, la vache, le livre, la lance. Editions Karthala, Paris, 1991.

93.Monteil(Charles):Les empires du Mali. Paris, 1968.

94.Monteil(Vincent) :L'islam noir, une religion à la conquête de L'Afrique. Editions du seuil, France,1980.

95 .Monté mont (Albert) : Voyage dans les cinq parties du monde. Edition : Selligue, (Paris, 1828, Tome4

96.Milet (Eric) et Manaud (Jean –Luc): Mali : Magie d'un fleuve aux Couffins du disert .Edits Olizane,Genève, Suisse, 2007.

97.Ministère de la marine et des colonies Françaises : Annales maritimes et coloniales. Imprimerie royale, Paris, 1925, tome 04,

98. Mussa (I.U) : On the nature of islamization and islam reform in billad Assoudan. Dirasat, Amman, the University of Jordan, 1979.

99.Nambala(Kanté) avec la collaboration de **Pierre Erny :** Forgerons D'Afrique noire, transmission des savoirs traditionnels en pay Malinké. Editions : l'harmattan, Paris, 1993.

100.Niane(Temsir djibril) :

- Recherches sur l'empire du mali au moyen âge, mémoire de l'institut national de recherche, Conakry, 1962.

-Le soudan occidental au temps des grands empires. Présence Africaine, Paris, 1975.

- Histoire des Mandingues du l'ouest, Le royaume de Gabou. Editions Karthala, Paris, 1989.

- Sandiata, an tropic of old Mali.Paris,1995.

- Mali et la deuxième expansion manden. In : Histoire générale de l'Afrique, Publié par : ONESCO, (Paris, 1985, volume4.

101.Ogunsolo(John-Igué) : Les villes précoloniales d'Afrique noire. Editions Karthala, Paris, 2008.

102.Oneka (Nwanunobi) : Malinké. The rosen publishing group,INC,New-York, 1996

103.Panhuys(Henri) : La fin de l'occidentalisation du Monde. Edits : L'harmpattan,Paris,2004.

104. Papa (Ibrahim Diallo): Les Guinéens de Dakar, migration en Afrique de l'ouest. Editions L'Harmattan, Paris, 2009.

105.Paqués(Viviana) : Les Bambara. Edits l'harmattan, Paris, 2005.

106. Pathé Diangne : Tarana ou l'Amérique précolombiènne :Un continent Africaine .Edition l'harmattan,Paris,2010..

107. Prévost(Liliane) et Courtilles(Isabelle) : Guide des croyances et Symboles, Afrique : Bambara, Dogon, Peul. Edits l'harmattan, Paris, 2005.

108.Raimbault(Michel) etSongo(Klénai) : Recherche Archéologiques au Mali. Edits Karthala, Paris,1991.

109. Rosa amelia et Plumelle vribe : Traite des Blancs,traite des noirs.Editions l'harmattan,Paris,2008

110.Sainton (Jean pirre) et boutin (Raymond) : Histoire et civilisation de la Caraïbe. Maisonneuve et larose, Paris, 2004.

111. Salamon(Pierre):L'Afrique noire, histoire et culture. Bruxelles, 1976.

112.Sekekéné Mody Cissoko :

- Histoire de l'Afrique occidentale. Présence Africaine, Paris, 1966.

- Tombouctou et l’empire du Songhai. Edits l’harmattan, Paris,1996.
- Tombouctou et l’empire du Songhay : epanuissement du Soudan nigérien au 15éme siécle. Editions l’harmattan, Paris, 1996..

113. Shinie (Marguerет): Ancient African Kingdoms.London, 1965.

114.Sik (André) : Histoire de l’Afrique noire. 2ème édition, Maison D’édition Des sciences de Hongrie, Budapest, 1962.

115. Simone and André (Shwarz-Bart): In praise of black Women: Ancient Wisconsin press, 2001.

116.Sory (Camara) : Génie de parole, Essai sur la condition et le rôle Des griots dans la société Malinké. Editions Karthala, Paris, 1992.

117.Sow(Amadou Aliou) : La Mauritanie mon pays natal.Edits l’harmattan,Paris, 2003.

118. Suret (Jean Canal):

- Afrique noire (geographie-civilisation-histoire). 3ème édition. Edition sociale, Paris, 1968.
- Afrique noire, La culture et les hommes. Editions Sociales, Paris, 1958.

119.Tauxier(L) : Le noir du Yatenga (Mossi – Nioniossé – Samos –Yarsés - Silmi-Mossis-Peuls).Editions Émile larose librairie éditeur,Paris,1817.

120.Tidiane N’diaye: La longue marche des peuples noirs. Edits : Publibook, Paris, 2007.

121. Trimingham (Spencer) : The history of Islam in west Africa. Oxford university press,London, 1963

122.Valerie Thiers-thiam : A chacun son griot : Le mythe du griot-narat-teur dans la littérature et le cinéma d’Afrique de l’ouest. Editions L’Harmattan, Paris, 2005

123. Walckenaer(C.A) : Histoire générale des voyages, ou nouvelle collection Des relations de voyages par mer et par terre. Lefèvre librairie, Paris, 1826, Tome 5.

124.Welch(Galabraith) : L’Afrique avant la colonisation.Traduit par : Etienne Bolo, Librairie Fayard, Paris, 1971.

125.Wesley(Johnson.G) : Naissance du Sénégal contemporaine : aux Origines de la vie politique moderne. Edits Karthala, Paris, 1991.

126.Xavier van der stappen :L’Afrique du fleuve Niger :Le Dioliba en canoé.Editions l’harmattan,Paris,1996.

127. Youssouf Tata Cissé et Wa kamissoko :

- La grande geste du Mali, tome 1 : Des origines la fondation de l’empire, Editions Karthala, Paris, 1988.

-La grande geste du Mali, tome2 : Soundjata la gloire du Mali. Editions: Karthala-Arsan, Paris, 2009.

128. Yakan(Mohammad Zuhdi) : Almanac of African peoples and nations, Edited by : Transaction book, New jersey, USA, 1995.

129.Yorok Fall : l’Afrique à la naissance de la cartographie moderne. Editions Karthala, Paris, 1982.

خامسا:المقالات والدراسات باللغة العربية:

1.إبراهيم محمد أحمد بلولة : العلاقات الدولية في كنف الممالك الإفريقية. ضمن موقع الكتروني
http://www.Mubarek-inst/stud-reas.org

2.أحمد إلياس:دور فقهاء الاباضية في إسلام مملكة مالي، كلية الآداب، جامعة الخرطوم
In site: http:// www .omano. net /forum/showthread-PHP.

3.التازي(عبد الهادي):المغرب في خدمة التقارب الافريقي العربي. في كتاب: العلاقة بين الثقافة العربية و الثقافات الافريقية، الصادر عن المنظمة العربية للثقافة و العلوم،تونس،1985م.

4.حلاوة ليلى: منسا موسى، رحلة الحج الذهبية. في الموقع الالكتروني.
site :http://www.islamonline.net.

5.سولومانا كونتي:مذكرة تاريخ ماندن القديم و الحديث
In Revue électronique (Copyright) : Edité par : N’ko institute, N°C, année1999-2000, P6 et7 .Site électronique : http : //www.kanjamadi.com

6.الشارف محمد : إمبراطورية مالي. مقال نشر في الموقع الالكتروني:
.http://www.islamichistory.net.

7.الشيخ أمين عوض الله: تجارة القوافل بين المغرب و السودان الغربي و آثارها الحضارية حتى نهاية القرن اللسادس عشر. ضمن كتاب:تجارة القوافل و دورها الحضاري حتى نهاية القرن 19م، الصادر

عن المعهد البحوث و الدراسات العربية، بغداد، 1984م.

8.**علي محمد الغامدي**: مالي و القارة الأمريكية. مقال نشر في الموقع الالكتروني: .
www.wekipedia mali :org
-

9. **مادينا لي تال:** تدهور إمبراطورية مالي،ضمن كتاب:تاريخ إفريقيا العام، الصادر عن منظمة اليونسكو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، 1988م، المجلد الرابع.

10. **.معتز ياسين:** جوامع تمبكتو في مالي. مقال صدر في مجلة الوعي الإسلامي، الصادرة عن وزارة الأوقاف و الشؤون الإسلامية، الكويت.العدد532، سبتمبر 2010م

11.**هارون مهدي ميغا:** إمبراطورية سنغاي أقدم الإمبراطوريات في غرب إفريقيا و أطولها عمرا، دراسة تحليلية في الترتيب التاريخي للإمبراطوريات الإسلامية في غرب إفريقيا، ص6 . مقال صدر في الموقع الالكتروني:
www.iua.edu.sd/iua_magazine/african_studies/37/WRL1029.tmp

سادسا:المقالات والدراسات باللغات الأجنبية:

1.Adreas (W.Massing): The wangara, and old diaspora in West Africa. In revue : Cahier d’études Africaines, N°02, volume 40, année : 2000. pp de 281 au 308.

2. CLIC: The community learning and information center, Avec la coordination de Mme : Fofana Aminata Maiga : Histoire du mande. Mali, 2006.in Site :
www.clic. Mali .org

3.Bjorrn Roar bye , Aboubakary 2roi du Manding découvert l’Amérique avant Christoph colombe. In : *Afrique passion*, éditions GAP, ville franche de Rouergue, 2002, N°3.

4. Daffé Seydou madany : Toumani Diabaté et sa cora ; De la mémoire à la terre, de la généalogie à la métamorphose. Editions dounya, Bamako, In revue électronique : Mots pluriels, N°12, Décembre 1999, site web : http://www.arts.uwo.edu ,

5.Delafosse (Maurice) :

- Les travers du temps (L’empire du Ghana),p 6. Site :

http://www.cosmovision.com./crono afrique.htm.taille:171ko
- Les travers du temps (l'empire du mali) in site :
http://www.cosmovision.com. Taille : 170ko .

6.Doudu N'diaye rose,L'histoire de l'épopée Mandingue. In site :
http: //www. si.umish.edu.consulté le:20-08-2008

7.Fofana(Moussa) : Conseiller pédagogique et formateur au collège moderne de sincina Koutiala : Histoire et tradition, article publié sur le site :
http : //www .maliweb.net /newspaper ?

8 . Jacqueline(Sorel) et Simone (Pierron) : Femme de l'ombre ;Nana tribane la main du destin de soundiata. In revue électronique : MFi, hebdo culture, société. In site : www.rfi.fr/fichiers/mfi/culturesociété/594.asp

9.Jan Jansen : Les griots de kila. Les paroles qu'on devrais entendre. In http//www.africultures.com/index.asp,Publié le :24/12/2004

10.Kagoro(Doumbé) : causes de la dispersion de ougadou.In Journal Le Ségovien. Edition spéciale, publiée le : 24-09-2007 sur le site web : www.soninkara.com. .

11. Kibalabala N'sele : Le "griot" : le porteur de la parole en Afrique
In Jeu : revue de théâtre,. Éditeur : Cahiers de théâtre Jeu inc.
Rédaction : Lorraine Camerlain (responsable du numéro) n° 39, 1986, p. 63-66

12. Madina(Lytall) : Quelques précisions sur les relations entre l'empire du Mali et le Gabou. In Ethiopiques, Revue negro -Africaine de littérature et de philosophie. N°28, Octobre, 1981.

13.Madiega (Georges Yenouyaba) : Chronologie succincte de l'histoire du Burkina Faso (Ex Haute- volta). In site électronique: http://www.histoire-afrique.org/rubrique3.html..

14. Mamby Sidibé : Soundiata Keita, Héro historique et légendaire, empereur du Mandingue. In Notes Africaines, Bulletin d'information et de correspondance. Publié par : l'institut Français d'Afrique noire, N°82, Avril 1959, Numéro spécial : L'empire du Mali.

15. Moussa Fofana : Point d'histoire, le royaume de sosso Ou Kiniaga. in Site
http:// www.maliweb.net/catégory

16. Meillassoux (Claude): Rôle de l'esclavage dans l'histoire de l'Afrique occidentale. In revue : Anthropologie et sociétes, Volume2, Numero1, 1978.

17.Niane(Temsir djibril)
- Mise en place des populations de la haute guinée. In revue Ethiopique.N°02- Avril-1960, PP de 40 au 50.
- Histoire et tradition historique du Mandingue. In revue Présence Africaine, Année1974, N°83, volume1, p59
- Soundjata ou l'épopée Mandingue, Présence Africaine, Paris, année1960, p212.
-L'europe et le monde négro-africain.In Ethiopique :Revue socialiste de culture négro-africaine ;1977,N °9.

18. Seydou Camara : La tradition orale en question. Cahier d'études Africaines, Année 1996, volume36, N°144, p770.
19. Sissoko(Birama) : La charte de l'ancien empire du Mali pourrait inspirer les Maliens d'aujourd'hui. In site: http://base.d-p-h.info/fr/fiches/organisme - 158.html.

20. Suzan B.Aradeon: Al-Sahili (The historians Myth of architectural technology tranfer from North Africa. In Journal des Africanistes. Anneé1989, Volume 59, N°01, p 99

21 .Yattara el Mouloud :(Professeur a l'université de Bamako) :
L'islam et les voies de sa diffusion au Mali du 8éme au 16éme siècle. In site : http://www.histoire-afrique.org/article164.html?artsuite=6

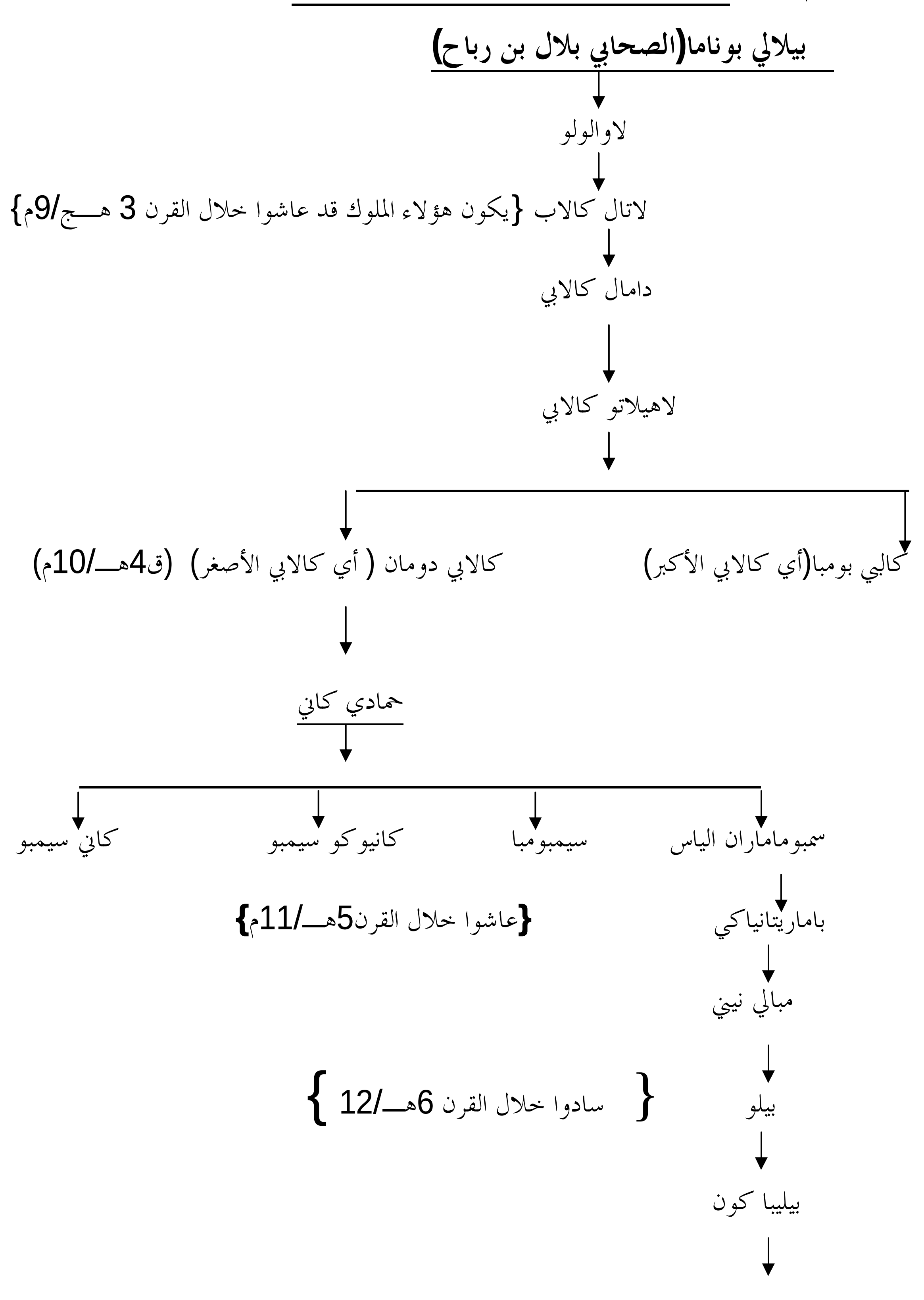
سابعا:المجلات و الدوريات:

1. Bulletin de l'institut Français d'Afrique noire et des sciences humaines . Editions: EFAN, Paris, 1959, volume21

2. Revue encyclopédique, édite par: Sédillot, librairie,(Paris, octobre-décembre 1829, tome 44 p16).


الملاحق

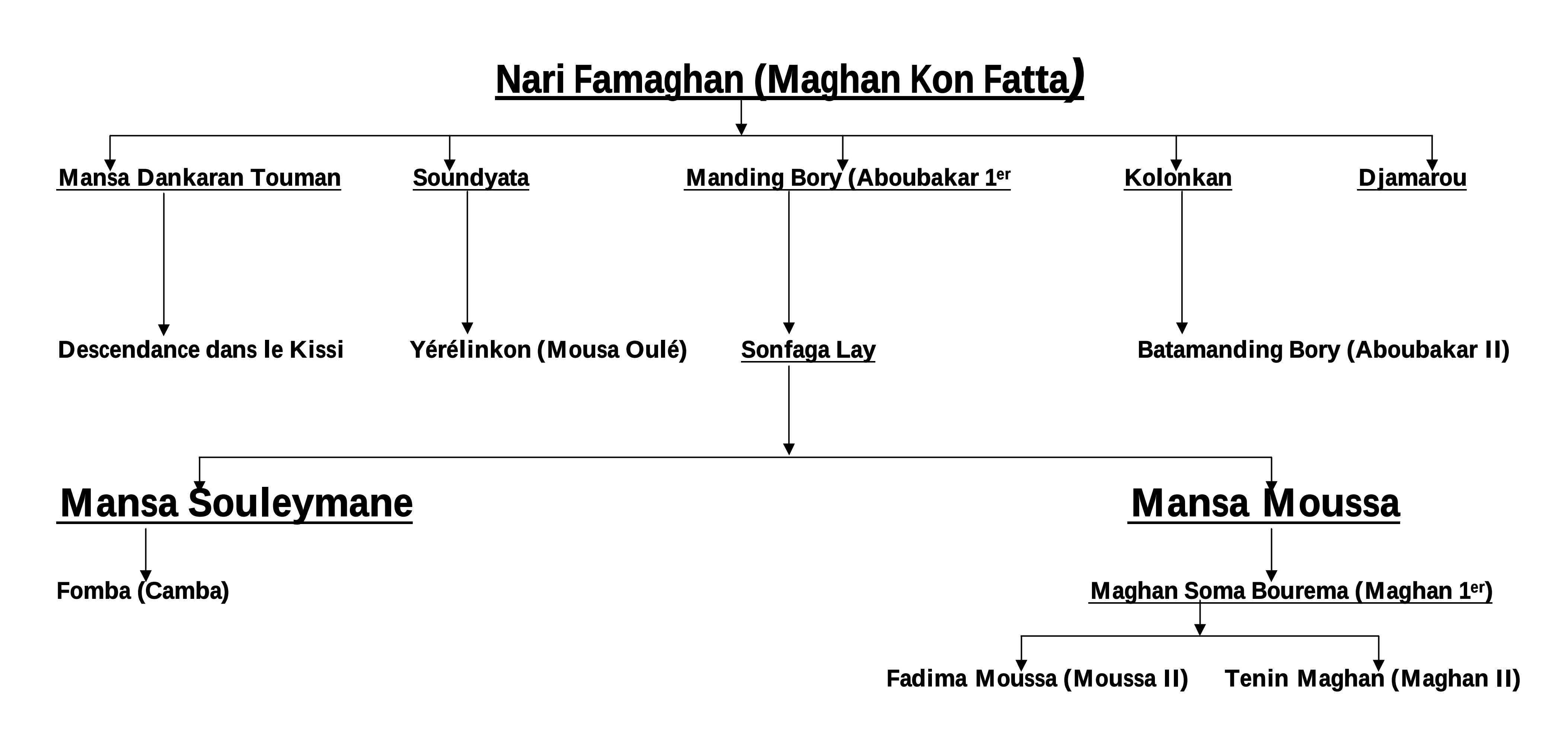
ملحق رقم1: شجرة نسب عائلة كيتا حسب رواية ديوما



المصدر: Niane Temsir Djibril : Recherche sur l'empire du Mali, p p 19 et 20

ملحق رقم 02 :

شجرة حكام مالي حسب الروايات المحلية (حامانا ديوما).

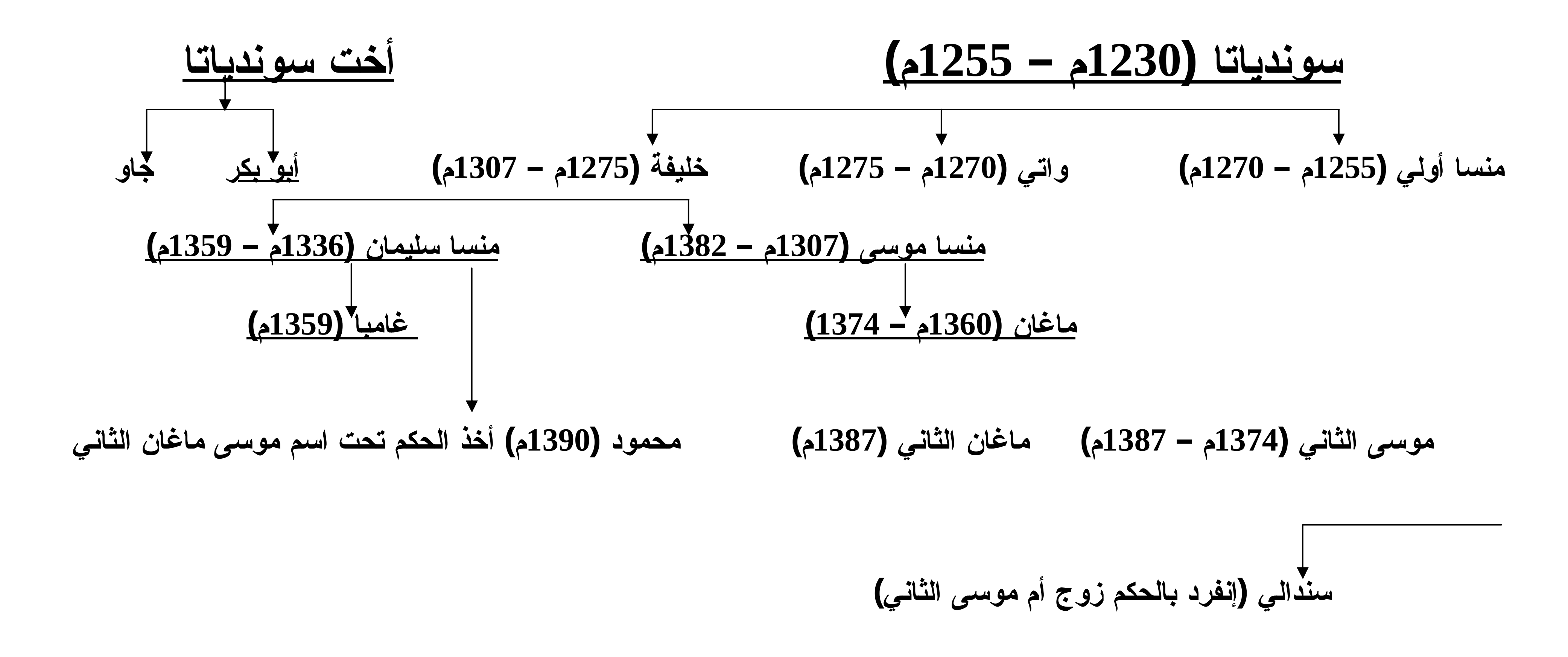


المرجع: Niane (TD) : Recherche sur l'empire du Mali, P 12

:

ملحق رقم 03:

شجرة حكام مالي حسب ابن خلدون.



***المرجع* :** *Niane (TD) : Recherches sur l'empire du Mali, P 11*.

فــــــهـــــرس المواضيع

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الـــفصل الرابع